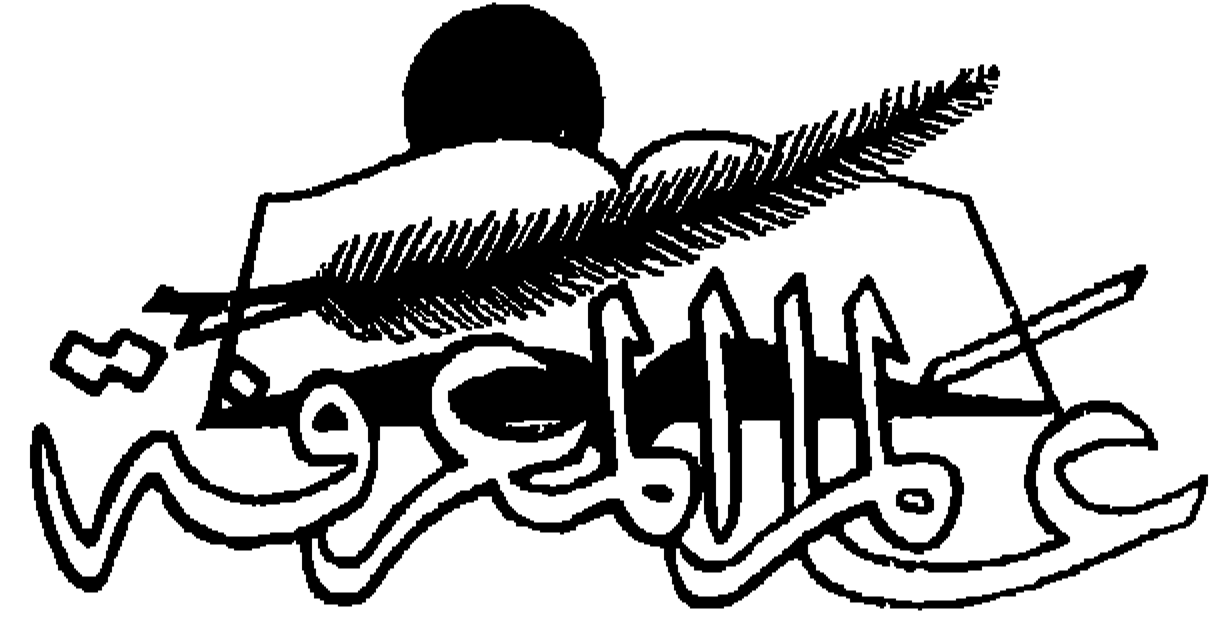
عالم المعرفة

١٦٥

الفلسفة المعاصرة في أوربا

تأليف: إ.م. بوشنسكي
ترجمة: د. عزت قرني

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

الفلسفة المعاصرة في أوربا

تأليف : إ.م. بوشنسكي
ترجمة : د. عزت قرني

١٦٥ - ربيع أول ١٤١٣ هـ ، سبتمبر / أيلول ١٩٩٢م

المراسلات:
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
[redacted]

العنوان الأصلي للكتاب :

I.M. Bochenski, La philosophie contemropaine en Europe. Paris.

المحتـــــوى

رقم
الصفحة

رقم
الصفحة

تقديم للمترجم

يمتاز هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء، وهو كتاب للقراءة ومرجع يرجع إليه معا، بأنه يحوي عرضا شاملا وموجزا وافيا للأفكار التي أنتجها الفكر الفلسفي في الحضارة الغربية في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، لأن المؤلف يمتد ببصره إلى بعض أفكار الفلاسفة الأمريكيين البارزين، رغم أن عنوان الكتاب يشير إلى «الفلسفة الأوربية». أما عن مفهوم «المعاصرة» فإنه يعني به الإنتاج الفلسفي الذي كان لايزال حيا حوالي عام ١٩٥١م، حين صدرت الطبعة الأولى ثم الثانية للكتاب، وقد هممنا بجعل عنوان الترجمة العربية «الفلسفة الأوربية في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي»، ولكننا رأينا التمسك بالعنوان الأصلي مع ايراد هذه الاشارة الحالية بشأن مفهوم «المعاصرة».

والحق أن كثيرا من المذاهب التي درسها الكتاب ستستمر في التأثير خلال النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي، وبعضها مؤثر إلى اليوم. وقد رأينا أن المكتبة العربية لاتزال بحاجة إلى مثل هذا الكتاب الذي يقدم صورة شاملة تغطي سائر مجالات الإنتاج الفلسفي في الفترة المذكورة، مع وضوح في العرض، ومحاولة ظاهرة للتأريخ الموضوعي، وإن لم تمنع المؤلف من إبداء انتقاداته في آخر كل باب من الأبواب السبعة للكتاب. ولم يظهر كتاب يماثل الكتاب الحالي، على حد علمنا، حتى في المكتبة الغربية ذاتها، أو حتى ما يقترب من مستواه، وفي حدود هذا الحجم الميسر من حيث عدد الصفحات، ولهذا كان من المناسب تقديم هذه الترجمة، التي نرجو أن يتوفر لها عنصرا الدقة والوضوح معا. وكان من الضروري إيضاح بعض المسائل التي لم يجد المؤلف ضرورة للتوسع فيها، لأنه كان يوجه حديثه إلى القارىء الغربي الملم ببعض الأمور الفكرية العامة والمحيط ببعض معالم الاصطلاح الفلسفي، وذلك خدمة للقارىء بالعربية. ووضعنا ملاحظاتنا، وهي كلها على التقريب تفسيرية وتكميلية، في هوامش أسفل الصفحات، فكل هذه الهوامش من عمل المترجم وهو مسؤول عنها، أما الهوامش النادرة التي أثبتها المؤلف فقد أشرنا

في نهاية كل هامش منها إلى أنها «هامش من المؤلف»، أو ما شابه هذه العبارة. وقد أثبتنا أصول الأسماء الأجنبية في ثبت كامل في نهاية الكتاب مرتب على أساس الأبجدية العربية، وأضفنا الإشارة إلى تاريخ الوفاة إذا لم يكن المؤلف قد أضافه في طبعته الثانية. هذا وقد قمنا بالترجمة على أساس الصياغة الفرنسية للكتاب، لأن الأصل الألماني لم يكن متوفرا بين أيدينا عند القيام بالترجمة، خاصة وأن الترجمة الفرنسية اكتسبت احترام القراء، والمتخصصين منهم، منذ صدورها، حتى لقد صدرت في طبعة شعبية متكررة الإصدار، كما ظهر للكتاب ترجمة إنجليزية أيضا، تكرر طبعها، ولكننا لم نطلع عليها إلا ونحن بصدد إضافة اللمسات الأخيرة على الترجمة العربية، واستفدنا منها في بعض المواقع. ولا تشتمل هذه الترجمة على ملحق للكتاب خصصه المؤلف للتعريف «بالمنطق الرياضي»، حيث ظهرت في العربية مؤلفات ذات قيمة في هذا الموضوع، وربما اهتم المؤلف بإضافته لأن هذا الميدان من ميادين اختصاصه الحرفي، وله فيه كتابات قيمة. وكان المؤلف، وهو قسيس من أصل بولندي، وينتمي إلى الطائفة الدومينيكانية المعروفة باهتمامها بالبحث المعرفي، أستاذا في جامعة فرايبورج، ذات اللغة الألمانية، في سويسرا.

إن هذا الكتاب يشكل عرضا وثيقا ميسرا للفلسفة الغربية في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، وهو مصدر للمعرفة الدقيقة، ويمكن أن يظل مرجعا للقارىء المهتم والذي لا يحتاج إلا إلى الأساسيات بصدد أفكار الفلاسفة والتيارات الفكرية. ونوجه انتباه القارىء إلى أهمية الفصلين الأولين كمدخل ضروري يعطي الأبعاد التاريخية والجذور البعيدة لتوجهات الفترة موضع الدراسة.

المترجم

مقدمة المؤلف

يقصد هذا الكتاب إلى هدف مزدوج. فهو يهدف أولا إلى أن يكون دليلا إلى الفلسفة الغربية في القرن العشرين للقارىء الذي لم يجز تكوينا فلسفيا متخصصا. وهو يود بعد ذلك أن يسمح لهؤلاء الذين تابعوا هذا العرض العام أن يوسعوا من قراءاتهم وأن يُقْدموا عل دراسة منهجية. وقد كان من الضروري وجود مؤلَّف يقصد إلى هذا الهدف المزدوج. فإذا استثنينا مؤلفاً بالإيطالية كتبه «شاكًا»(١)، فإنه لا يوجد عرض تمهيدي يقدم التطورات الأخيرة ونتائج المعرفة وتقدم الفكر (حتى منتصف القرن العشرين). ويبرر قيام كتابنا هذا أن مؤلَّف الاستاذ «شاكًا» لا يقصد إلى الهدف الثاني الذي أشرنا إليه.

هذه هي الاعتبارات التي أدت بالمؤلف إلى القيام بهذا العمل الشاق، وهو شاق لثلاثة أسباب.

الأول، هو أن الوقت الذي أنفق في التحضير له وكتابته صرف المؤلف عن القيام بأبحاثه، وهي وحدها التي تلفت انتباه الفيلسوف ومؤرخ الفلسفة.

الثاني، وهو أن كتابا من هذا النوع لا يمكن أبدا، بمحض طبيعته، والمؤلف يدري هذا جيدا، أن يكون محل الرضى. ومثل هذا يقول برتراند رسل، وهو أحد أهم الفلاسفة المشهورين في الغرب، في مقدمته لكتابه «تاريخ الفلسفة الغربية»(٢)، وما يقوله هناك ينطبق على مؤلِّف هذا الكتاب. والواقع أن إدراكنا أن حياة كاملة تقضى في البحث هي أمر ضروري لمعرفة فيلسوف واحد فقط، هذا الإدراك لا يشجع على كتابة كتاب من قبيل كتابنا هذا.

السبب الثالث، هو أن هذا النوع من الكتب يوجب وضع تخطيط لا يمكن أن

---

(١) يجد القارىء في «ثبت أسماء الأعلام»، في نهاية الكتاب، شكل كل اسم في لغته الأصلية.

(٢) راجع تصدير رسل في الأصل الانجليزي، طبعة ١٩٥٤م،.، ص ١. وللجزئين الأولين من الكتاب ترجمة جيدة بالعربية للدكتور زكي نجيب محمود.

يفي بحق الدقة، ويؤدي إلى حذف أشياء ما كان ينبغي أن تحذف. ولكن ما العمل وليس أمامك إلا صفحات معدودة لكل فيلسوف؟ وعلى هذا فالقارىء يستطيع أن يتخيل كل ما لم نستطع التحدث عنه في فلسفات وايتهد وبرجسون وهُسِّرل على سبيل المثال. فليكن الفلاسفة متسامحين في حكمهم على المؤلف.

ورغم أن هذا الكتاب يهدف إلى الإعلام، إلا أنه قد وضع بروح مذهبية. ولنوضح ما نقصده بذلك.

لقد بدا للمؤلف أنه من المستحيل أن يتجنب اتخاذ موقف سريع مجمل من المذاهب التي سوف يتعرض لها بالشرح. ويظن العموم أن مؤرخ المذاهب ينبغي أن يبقى محايدا بإزاء المفكرين الذين يعرض لأفكارهم. هذا القول ليس صحيحا إلا جزئيا. فهو صحيح بقدر ما يفترض أن اختيار المذاهب وتفسيرها يتطلب أعظم قدر من الموضوعية، والمؤلف يجتهد في مراعاة هذا الاعتبار. ولكنه غير صحيح إذا كان يقصد أنه ينبغي النظر إلى النظم الفلسفية وكأنها تحتوي كل منها على قدر متساو من الحق.

إن اعتقاد هذا يعني عدم احترام الفلاسفة. ذلك أنه لو كانت كل النظم الفلسفية متساوية في قيمتها، حتى في الوقت الذي يعارض فيه بعضها بعضا، وهو الحال بالفعل، إذن لكانت كلها باطلة وفاسدة (بالمعنى المنطقي، أي غير صحيحة)، ولما استحق أي نظام فلسفي أن ينظر إليه أكثر من النظر إلى عمل فني. ولكن هذا أبعد ما يكون عن قصد الفلاسفة الجديرين بهذا الاسم. أنهم، جميعا، يبحثون عن الحقيقة وحدها، وهم يريدون أن يكون الحكم عليهم على أساس من هذا الاعتبار وحده.

وعلى ذلك فإنه علامة احترام أن نقدم في هذا الكتاب بعض التقديرات الموجزة للنظريات التي يعرضها كل مفكر ممن سندرس، ولما يكونون قد قدموه من مشاركة إيجابية، مع بيان جوانب الضعف عندهم ومكامن النقص. هذه الانتقادات ليست في الواقع إلا ملاحظات هامشية، وهي تقوم ابتداء من موقفنا الذي يؤيد

الاتجـــاه الميتافيزيقي والواقعـــي والروحي[٣].

وأهم من التأكيد على موقفنا المذهبي، يهمنا التنبيه إلى فكرتين وجهتا إخراج هذا الكتاب، وينبغي أن نناقشهما من الآن، لأنه ما كان للمؤلف أن يبدأ العمل لو لم يكن مقتنعا بصحتهما.

هناك أولا مسألة التقدير الصحيح لمجمل الجهد الفلسفي عبر العصور. فكثيرون يحطون كثيرا من قدر عمل الفلاسفة، ويقولون: إن الفلسفة هي مجموعة من التأملات المجردة التي لا أهمية لها في الحياة، وأنه ينبغي بالأحرى التوفر على دراسة العلوم التطبيقية، لأنها هي التي تحدد طرائق عمل كل أوجه النشاط (من عمل المهندس إلى عمل المربي)، من مثل علم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم السياسة. والأساس الذي يقف وراء ذلك هو أنه: «فلنعش أولا، ولنتفلسف بعد ذلك»، كما يقول المثل اللاتيني، والتفلسف لا يغني من فقر ولا يسمن من جوع.

هذا هو ما يقال، وعند المؤلف أن هذه القضية الذائعة باطلة بطلانا مطلقا، وهي فوق ذلك تعبر عن اضطراب عقلي خطر. إن قصر المعرفة على الجوانب التكنيكية والعملية يقوم على افتراض مؤداه أنه يكفي أن تعرف فقط «كيف» يتكون هذا أو ذاك. والواقع أن سؤال «كيف» ينبغي أن يسبقه سؤال «لماذا؟»، والدين والفلسفة هما وحدهما القادران على تقديم إجابة تخص العلل والغايات.

ولا نقبل قول من يقول إن الحس المشترك (أو الرأي العام) يكفي في هذا الصدد، لأن ما يسمى بالرأي العام ظهر غالبا، حينما نستقرىء التاريخ، أنه ما هو إلا محصلة أفكار فلسفية سابقة. إن الإنسان حيوان عاقل، وهو لا يملك إلا أن يستخدم عقله، وهو إن لم يفعل ذلك بشكل واع وفلسفي، فإنه يفعله بشكل غريزي وعلى طريقة الهواة.

والواقع أن الجميع، بمن فيهم هؤلاء الذين يظنون أنهم لم يغمسوا أصابعهم في

(٣) راجع البابين الثالث والسابع. ويقصد بالواقعية هنا ضد الاسمية، أي القول بأن للمعاني العقلية وجودا نوعيا مستقلا عن الإنسان، فهي ليست مجرد أسماء.

أي فلسفة، إنما هم متفلسفون هواة، وفي نفس الوقت الذي يستخفون فيه بأعمال رجال ذوي قدرات عقلية تفوق قدراتهم أيما تفوق، فإنهم يبنون لأنفسهم فلسفاتهم الخاصة، وإن تكن معدومة الفائدة ورديئة القيمة.

نفس الشيء يمكن أن يقال في شأن الدين. والدين بطبيعته لا يعتمد على الفلسفة، ولكنه يحتاج هو الآخر دائما إلى الإيضاح وإلى التفسير، لأن الإنسان كائن مفكر. وفي الواقع فإن المفسر إن لم يستخدم في هذا الجهد التفسيري فلسفة عقلية، فإنه سرعان ما يقع فريسة التعصب والانحياز(٤).

ومن ناحية أخرى، فإنه ليس أكثر بطلانا وفسادا من إنكار أهمية الفلسفة في الحياة. صحيح أن الفيلسوف لا يحتل دائما مكانة مشهودة في الحياة اليومية، وقدره في الأغلب أن لا يفهمه القوم إلا بعد موته، وإن كان التاريخ قد عرف فلاسفة ذاقوا طعم المجد في حياتهم، من مثل أفلوطين وتوما الاكويني وهيجل وبرجسون، ولكن حتى في مثل هذه الحالات، فإن الأمر كان أمر موافقتهم لذوق العصر ولم يكن أمر تفهم شامل من جانب العصر لفلسفاتهم.

إن الفيلسوف لا يهتم بمتطلبات الأمور العارضة ولا بأذواق الناس المتغيرة. وهل في هذا من لوم عليه؟ أو ليس من خاصية الإنسان أن يتعدى الوجود العارض للزمن؟ أو لا يعني تمسكنا بكون اللحظة الحاضرة هي وحدها هدف المعرفة، أن ننزل بالإنسان إلى مرتبة الحيوان؟ وكل من يحيا حياة العقل حسب اعتقاداته الفلسفية يعرف أن الأمر على غير ذلك: ذلك أن الفلسفة، وبسبب أنها، على التحديد، لا تهتم بأمور اللحظة الحاضرة، أي أمور «هذا والآن»، الفلسفة تقوم عن حق بدور واحدة من أكبر القوى العقلية والروحية التي تمنع الإنسان من الهبوط إلى مستوى البربرية، والتي تساعد على بقاء الإنسان إنسانا وعلى أن يصير إنسانا على نحو أفضل وأفضل.

(٤) من لا تقوده فلسفة عقلية لا يدرك الأمور إلا من حيث يحب، لأنه ينحبس في وجهة نظر معينة ترفض من حيث المبدأ إمكان وجود وجهات نظر أخرى، وهو ما يؤدي إلى التعصب والانحياز. إن الفلسفة تفتح دائم.

وليس هذا هو كل شيء. فمهما بدا، في الظاهر، من عدم جدوى الفلسفة، إلا أن الفلسفة في الواقع قوة تاريخية مؤثرةوقادرة. فينبغي أن نوافق وايتهد(٥) حين يقارن ما أحرزه الاسكندر المقدوني أو قيصر الروماني أو نابليون من نجاح بالنتائج، التي تبدو في الظاهر غير مثمرة، التي يحصل عليها الفيلسوف: فالواقع أن الذي يغير مسار الإنسانية إنما هو الفكر.

ولا نحتاج، كما فعل الفيلسوف الإنجليزي الميتافيزيقي(٦)، إلى العودة إلى تأثير الفيثاغوريين في الحضارة اليونانية(٧)، بل يكفي أن نفكر وحسب في النتائج الضخمة التي أثمرها فكر الفيلسوف الألماني هيجل، وهو الفيلسوف الذي يصعب كثيرا فهم كتاباته: فهو الذي فتح الطريق لتظهر حركات مختلفة مثل الفاشية والحركة الهتلرية والشيوعية(٨)، وهو بهذا إحدى القوى التي قامت بتغيير وجه العالم في القرن العشرين الميلادي.

إن الفيلسوف، الذي تسخر منه العامة لأنه يعيش في عالم أفكاره التي تبدو بريئة، هو في الحقيقة قوة مهولة، وفكره ذو تأثير لا يقل عن تأثير الديناميت، وهذا الفكر يسري في مجراه، ويلمس عقلا بعد الآخر ليصل في النهاية إلى الجماهير. ثم

---

(٥) فيلسوف انجليزي (١٨٦١ ـ ١٩٤٧م.) راجع عنه الباب السابع. وقد ترجمت له عدة كتب بالعربية، وكتب عنه فيها أيضا عدة كتب. ويكتب اسمه أحيانا «هوايتهيد» (Whitehead).

(٦) يقصد وايتهيد المذكور.

(٧) كان الفيثاغوريون جماعة فلسفية وعلمية وأخلاقية وسياسية كذلك.

(٨) كتب المؤلف هذا الكتاب في أعقاب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م.) حيث لاتزال قوية ذكرى التحالف بين ايطاليا، التي كانت تحكمها الحركة الفاشية بقيادة موسوليني، وألمانيا، التي كانت تحكمها الحركة النازية بقيادة هتلر، وقد تحالف الغرب الرأسمالي مع روسيا السوفيتية الشيوعية من أجل مصلحتهما المشتركة، رغم بقاء العداء بينهما. والذي يشير إليه المؤلف هنا هو تنوع الحركات التي يمكن أن تنتسب، عن حق أو عن غير حق إلى أفكار مفكر ما، وهو هنا هيجل. ولكننا من جانبنا نلاحظ أن هناك قدرا مشتركا من التشابه بين الحركات الثلاث وهو إعلاء المجموع فوق الفرد، وقد يرى البعض تشابهها كذلك في سمة الدكتاتورية، وهو ما يعود إلى محق الفرد، وهو ما يتفق مع نزعة هيجل في تأكيد أسبقية «الكل» على «الأجزاء». راجع هنا فيما يلي، «رابعا»، من الفصل الأول.

تأتي اللحظة التي ينتصر فيها على كل العقبات وليوجه مسار حركة الانسانية، أو يحفر قبرا لحطامها. (٩)

إن من يحب أن يعرف طريق المستقبل ينبغي أن يصغي، ليس إلى الساسة، بل إلى الفلاسفة: إن ما يعلنه الفلاسفة اليوم هو ما سيصير عقيدة الغد.

نقول إن هذا الكتاب يعتمد عل هذه الفكرة الخاصة بقيمة الفلسفة، ويعتمد على فكرة ثانية لا تقل أهمية عند المؤلف من سابقتها، ويهمه أن تكون واضحة هي الأخرى وموضع تقدير. ونجمل هذه الفكرة الثانية، وهي فكرة بسيطة في نهاية الأمر، أنه لا توجد فلسفةواحدة هي التي تمثل العصر.

وهناك رأي ساذج، ولكنه منتشر وذائع مع الأسف، يظن أن هناك فلسفة واحدة هي التي تغلبت على سائر الفلسفات الأخرى وأصبحت هي فلسفة القرن العشرين في الحضارة الغربية، وأن كل الفلسفات الأخرى قد أهملت جانباً. وهذا هو المركز الذي أراد البعض أن ينسبه إما إلى الوضعية أو المادية(١٠) أو المثالية أو الوجودية، كلٌّ بحسب تفضيلاته.

وليس هناك ما هو أبطل من هذا الرأي، لأن الفكر الفلسفي الغربي في القرن العشرين الميلادي أغنى من أن ينحبس في مثل هذا الإطار الضيق، واليوم، كما كان الحال في سابق فترات التاريخ، وربما على نحو أعنف مما كان عليه الحال في القرن التاسع عشر الميلادي، اليوم تتصارع فلسفات وتصورات مختلفة عن العالم أشد صراع، فمن النادر أن كان الصراع الفكري على مثل هذه الضراوة، ونادرا ما كثرت التصورات المتعارضة مثل هذه الكثرة وكانت على مثل هذه الحدة ومثل هذا الثراء في الأدوات التكنيكية والبراعة في التقديم.

(٩) للفكر القوي تأثيرات بعضها إيجابي، يتمثل في البناء والتوجيه، وبعضها سلبي، يتمثل في النقد والهدم للقديم. قارن مثلا حالة تأثير طه حسين، وإن لم يكن فيلسوفا، على عصره إلى اليوم إيجابا وسلبا، أي بناء للجديد وهدما للقديم.

(١٠) يقصد بالوضعية، الوضعية المنطقية. ويقصد بالمادية، المادية الجدلية أو الماركسية. انظر الباب الثاني المعنون «الفلسفة المادية».

ويمكن أن نقبل مقولة وجود فلسفة حالية للفكر الغربي، ولكن بمعنى أن كل المفكرين في هذه المرحلة الغربية يتناولون مشكلات محددة مشتركة وأنهم يضعون في اعتبارهم بعض المواقف الجديدة، أما أن نتصور أن الأمر يعني وجود مدرسة واحدة أو اتجاه واحد، فإن هذا أبعد ما يكون عن الصحة. إن فلسفة الحضارة الغربية في منتصف القرن العشرين الميلادي شديدة الثراء والتنوع.

وتبقى كلمة حول استعمال هذا الكتاب. قيل من قبل إن كل كتاب في تاريخ الفلسفة يشبه دليل الرحلات: وكما أن الدليل لا يحل محل الرحلة، كذلك فإن كتابا في تاريخ الفلسفة لا يغني عن دراسة النصوص ذاتها. فإذا استطاع هذا الكتاب أن يستثير القارى من أجل أن يدرس دراسة تفصيلية الفلسفات التي تعرض لها، فإنه يكون قد حقق هدفه.

المؤلف

حول طريقة العرض

هذه هي المبادىء التي وجهت اختياراتنا في داخل المعرض الضخم الذي هو الفلسفة الأوربية في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي :

١ ــ اقتصرنا على فحص الفلاسفة الانجليز والفرنسيين والألمان وحسب دون غيرهم. ولكن حدثث استثناءات معدودة في حالات ذات أهمية (هي حالات المادية الجدلية وكروتشه ووليم جيمس وجون ديوي).

٢ ـ وحتى في داخل هذا النطاق المحدد المحدود، فإنه لم يكن من الممكن أن نقدم عرضا شاملا لفلاسفة البلاد المختارة (انجلترا، فرنسا، ألمانيا)، بل وجب علينا الاقتصار على مدارس وفلاسفة بعينهم، ممن يمكن اعتبارهم ممثلين للاتجاهات الفلسفية السائدة على نحو قوي. وهكذا فإن الكتاب لا يكوّن نظرة سريعة إلى سائر فلاسفة القرن العشرين الميلادي في تلك البلاد، بل هو يعرض للخطوط الكبرى للفكر في تلك الفترة وحسب.

٣ ــ من الصعب تعريف كلمة «المعاصر» في عرضنا للفلسفة «المعاصرة» الأوربية، ولكن هذا التعبير يشمل المفكرين الذين نشروا أعمالا هامة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. وهكذا يدخل برجسون وماكس شلر في هذا الإطار، بينما لا يدخل فيه الفيلسوف الانجليزي برادلي.

ومع ذلك، فإن هذه الحدود لم تطبق من حين لآخر، وخاصة في حالة الفلاسفة الذين أثروا تأثيرا عميقا على فلسفة القرن العشرين الميلادي في أوربا. وقد أثيرت مشكلة انتماء كيركجارد إلى هذه المجموعة. وعلى كل حال، فقد كان لابد من إدخال كل من وليم جيمس ودلتاي في الحساب.

٤ ـ أخيرا، فإنه لم يكن من الممكن كذلك أن نأمل في تقديم مذاهب المدارس والفلاسفة على نحو شامل كامل لا يترك شيئا، ووجب علينا الاقتصار على ما هو

ذي أهمية خاصة للفلسفة الغربية في القرن العشرين الميلادي. وهكذا اهتممنا جوهريا بمشكلات نظرية الوجود، ونظرية الإنسان، وفلسفة الأخلاق، وأسس المنهج. ومن الجانب المقابل، فقد مررنا صامتين أو ما يقرب من ذلك على مسائل أخص، منها منطق العلوم، وعلم الاجتماع، وفلسفة التاريخ، والاستيطيقا، وفلسفة الدين.

ولكننا، مع ذلك، عرضنا في ملحق للكتاب المفاهيم الأساسية للمنطق الرياضي وبعض مشكلاته الكبرى، لأنه، رغم كونه معرضا لاعتراضات بشأن انتمائه إلى ميدان الفلسفة، قد أثر تأثيرا كبيرا على فكر عدد كبير من الفلاسفة الأوربيين في القرن العشرين الميلادي.(١١)

وقد استهدف العرض أن يحافظ بقدر المستطاع على تكوين وترتيب الأعمال التي كتبها المؤلفون موضوع الدراسة. واهتممنا بوجه خاص بإبراز طبيعة المنهج والأسلوب والطرائق الخاصة التي يستخدمها كل مؤلف، وذلك إلى جانب تقديم مذاهبه بالطبع. وقد تطلب هذا أسلوبا اختلف إلى حد كبير من فصل إلى آخر. وعلى سبيل المثال، فلم يكن لا من الممكن ولا من المتصور أن نغترف من الصور البيانية التي تثري بها أعمال برجسون أو جابريل مارسيل، هذا على حين كان علينا أن نكون أوفياء في عرض الدقة المتناهية التي تتميز بها لغة هيدجر وجفاف أسلوبه. وعلى هذا فإن فصولنا تختلف من حيث درجة صعوبتها. وننصح للمبتدىء أن يضع جانبا، عند قراءته الأولى، الأقسام المخصصة للفلسفة الكانتية الجديدة، ولهسرل، ولهيدجر، ولوايتهد، التي تحتوي على بعض الصعوبة، وأن يجتزىء منها، في قراءته الأولى، بمقدماتها ونتائجها، على أن يعود إليها من بعد في قراءته الثانية.

---

(١١) لا تحتوي هذه الترجمة على الملحق المشار إليه، حيث أصبحت توجد في العربية مجموعة جيدة من الكتب في الموضوع.

الباب الأول

مصادر الفلسفة الغربية الحالية

الفصل الأول
القرن التاسع عشر الميلادي

أولا: الاتجاه العام للفلسفة الغربية الحديثة وتطورها:

تنتمي الفلسفة الغربية الحديثة، أي الفكر الفلسفي في الغرب في المدة الممتدة من سنة ١٦٠٠ إلى سنة ١٩٠٠ ميلادية، بأسرها إلى التاريخ، فهي قد دخلت في نطاق الماضي.

ولكن الفلسفة الغربية في القرن العشرين الميلادي، أي الفلسفة الغربية الحالية بالمعنى الحقيقي(١٢)، إنما ظهرت أساسا من المجابهة مع الفلسفة الغربية الحديثة، وهي مجابهة فيها اختلاف وصراع، ولكنها تحتوي أيضا على عنصر الاستمرار وعلى جهد من جانب الفلسفة الحالية في محاولتها أن تتمايز عن الفلسفة الحديثة وأن تتعداها. لذلك، فلابد، من أجل فهم هذه الفلسفة الحالية، من معرفة الماضي. فوجب إذن أن نشير إلى أكبر معالم تطور تلك الفلسفة الحديثة وإلى أهم أفكارها.

لقد ولدت الفلسفة الأوربية الحديثة، كما هو معروف، من انهيار الفكر

(١٢) تستخدم في العادة اصطلاحات ثلاثة: الفلسفة «الحديثة»، «المعاصرة»، و«الحالية». ويقصد المؤلفون الغربيون بالتعبير الأول فلسفتهم من ١٦٠٠ إلى ١٩٠٠م.، وبالتعبير الثاني فلسفتهم من ١٩٠٠م. إلى وقت كتابتهم، والتعبير الثالث أكثر تحديدا ويدل على التيارات الفلسفية التي تكون مؤثرة بالفعل عن طريق فلاسفة أحياء وقت الكتابة. وسوف نستخدم حينا لفظ «الحالية»، وأحيانا تعبير «في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي»، وهو ما يدل على كل حال دلالة دقيقة على قصد المؤلف الذي كتب كتابه حوالي عام ١٩٥٠م. راجع أيضا، في مقدمة المؤلف، ما ذكره حول صفة «المعاصر».

«المدرسي» في العصر الأوربي الوسيط[١٣]. وقد تميز الفكر «المدرسي» الوسيط بعدة سمات، هي قوله بالمذهب التعددي (أي قبوله لوجود وحدات وجودية أو موجودات متعددة وبدرجات مختلفة من الوجود)، وأخذه بالاتجاه الشخصاني (أي الاعتراف بأولوية القيم الإنسانية للشخص على ما عداها)، وتصوره العضوي للوجود[١٤]، كل ذلك إلى جانب اتجاهه الأساسي المتمثل في مركزية الإله (أي أن الإله هو مركز الكون) حيث قال بالإله الخالق للموجودات.

ومن ناحية المنهج الذي اعتمدته الفلسفة المدرسية الوسيطة، فإنها أخذت بطريقة التحليل المنطقي المفصّل للمشكلات الجزئية.

فجاءت الفلسفة الغربية الحديثة وعارضت كل هذه السمات وكل تلك القضايا. ذلك أن مبادئها الجوهرية هي القول بالاتجاه الميكانيكي[١٥]،

(١٣) تبدأ الفلسفة الغربية الحديثة مع كل من بيكون وديكارت، ويختار لبدئها تاريخ اصطلاحي هو عام ١٦٠٠م.، أي بداية القرن السابع عشر الميلادي. ويفصل بين الفلسفة الغربية الحديثة والفلسفة المدرسية عصر هام هو عصر النهضة (١٤٥٠ ـ ١٦٠٠م.)، وفيه أخذت فلسفة القرون الوسطى المسيحية تتلقى الضربات الشديدة حتى انهارت مع نهايته. وتمتد الفلسفة المدرسية، أو «الاسكولائية» أحيانا، من القرن العاشر إلى القرن السادس عشر الميلادي. وسميت كذلك على يد مفكري عصر النهضة لأنها كانت تعلم وتتعلم في «مدارس»، وكانت المدارس تحت سيطرة الكنيسة، التي كانت تأخذ بفلسفة أرسطو. وأهم سمة للفلسفة المدرسية منهجها الذي يهتم بالتعريفات والأقيسة المنطقية إلى درجة المماحكات اللفظية. ومن نافلة القول أن ذلك التيار الفلسفي اعتمد على سلطة أرسطو الفلسفية، ابتداء من حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، بعد أن جعلتها كتابات القديس توما الأكويني (١٢٢٤/ ٥ ـ ١٢٧٤م.) على توافق معقول مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية.

(١٤) أي القول بأن الوجود كله مترابط الأوصال، كأنه جسم واحد، له أعلى وأوسط وأسفل، وأفضل وأسوأ، والأعلى والأفضل هو الألوهية رأس الكون وعقله، والأسفل والأسوأ هو المادة، وبينهما يقف الإنسان متوسطا رابطا الطرفين، فهو «عالم مصغر» صورة للعالم الكبير.

(١٥) يقال «الميكانيكي» تشبيها للعالم بالآلة التي تسير وحدها بغير تدخل من عقل أو توجيه. ويقصد بالاتجاه الميكانيكي القول بأن أحداث العالم لا ترتبط فيما بينها إلا برباط العلية (أو السببية)، وأن الحركة هي الظاهرة العامة في الطبيعة، ولها قوانينها الخاصة. والميكانيكية تقابل النزعة العضوية الحيوية من جهة، وتقابل النزعة الديناميكية التي تقول بالتفاعل بين القوى تفاعلا متبادلا، بينما الميكانيكية تركز على الانفصال بين الأشياء وتفصل ما بين المادة والقوة وترى كل الأحداث نتائج للحركة لا للقوى المتفاعلة.

الــــذي يستبعد التصور العضوي والتدرجي للوجود، وبالاتجاه الذاتي، الذي يجعل الإنسان مستقـلا عن الإله ويحول اتجاه اهتمامـه ناحية الـذات. ومن حيث المنهج، فإن الفلسفـة الحديثة، قـامت بنبـذ المنطق الصـوري. كما تميزت، وإن تكن هنـاك استثناءات هامة، ببناء نظم فلسفية شامخة لا تعتمد منهج التحليل(١٦).

وقـد كـان من نصيب الفيلسـوف الفـرنسي رينيـه ديكـارت (١٥٩٦ ـــ ١٦٥٠ ميـلادية) أن يكـون أول من وضع هذه الثـورة الفكريـة في قالبهـا الأكمل. ذلك أن ديكـارت «ميكانيكي» أولا (أي يأخـذ بالمذهـب الميكانيكي)، فهـو إذا كان يقـول بوجود درجتين من الوجود: العقل والمادة، إلا أنه يرى أن الحقيقة غير العقلية تختزل بأسرها، أي تعود، إلى مفاهيم ميكانيكية خـالصة (الوضع، والحركة، والدفع)، كما أن كل حدث يمكن تفسيره عن طريق قوانين ميكانيكية حسابية.

وفي نفس الوقت الذي يأخذ فيه ديكارت بالنزعة الميكانيكية، فإنه يعتمد الاتجاه الذاتي(١٧)، حيث أن الواقعة الأساسية ونقطـة البدء الضرورية للفلسفة في نظره، إنما هي الفكر.

أضف إلى هذا وذاك أن ديكـارت يأخذ بالمذهب «الاسمي»: فليس هنـاك عنده (في عمليـة معرفـة العالم الخارجي) من إدراك حـدسي بالعقل، وإنما هنـاك وحسب إدراك حسي للجزئيـات. أخيرا فإن ديكارت كـان خصما عنيفا للمنطـق الصوري: فهو لا يعـرف بالمعنى الحرفي للكلمـة أي منهج يكون خاصـا بالفلسفـة، ويرى أن تطبق على كافة مجالات المعرفة طرائق العلـوم الرياضية في دراستها للطبيعة(١٨)، وإن لم يفحص ديكارت هذه الطرائق الرياضية فحصا فلسفيا(١٩).

---

(١٦) لاحظ أن كل هذه الخصائص تقابل واحدة بـواحدة، على وجه التقريب، خصائص الفلسفة المدرسية المذكورة، سمات ومنهجاً.

(١٧) ما يسميه المؤلـف هنا الاتجاه الذاتي هو الذي قـد يسمى أحيانا «المثاليـة»، إذا اقترن مع الأخذ بالمذهب العقلي. ولكن يبدو أن المؤلف يستخدم هذا الاصطـلاح استخداما مخصوصاً، ويحدده في الجملة التالية في النص.

(١٨) كان ديكارت يود الوصول إلى «منهج عام» في المعرفة يطبق على كل شيء.

(١٩) لاحظ هنا أيضـا أن هذه النقـاط الخاصة بديكـارت تقابل واحدة بـواحدة على وجـه التقريب خصائص الفلسفة المدرسية، سمات ومنهجاً.

وإذا ما قبل المرء هذه المبادىء، فإنه يجد نفسه وقد قامت أمامه مشكلات لا حل لها: فإذا كان العالم مجرد تجمع من الذرات، وتكوينه يقارن بتكوين الآلة، فكيف نفسر وجود عناصر روحية فيه؟[٢٠]. ومن ناحية أخرى، كيف نستطيع الوصول إلى حقيقة هذا العالم ابتداء من الفكر الذي هو المعطي المباشر الوحيد لنا؟[٢١]. وأخطر من هذا وذاك، فإن السؤال الأهم هو: كيف تكون المعرفة ممكنة إذا كنا لا نعرف إلا الجزئيات، بينما تطبق المعرفة على تلك الجزئيات دائما مفاهيم كلية وقوانين عامة؟

وقد قدم ديكارت نفسه حلا لهذه المشكلة الأخيرة بافتراض وجود أفكار فطرية، ووجود موازاة بين قوانين الفكر وقوانين الوجود[٢٢]. فقد أفسح له «الكوجيتو»[٢٣] الطريق للانتقال من الفكر إلى الواقع، بحيث أقام ديكارت بين العقل والمادة علاقة العلة والمعلول.

وقد أخذ عدد من المفكرين، الذين يسمون خطأ «بالعقليين»[٢٤]، بنظرية الأفكار الفطرية. وأهمهم: اسبينوزا (١٦٣٢ ـــ ١٦٧٧م)، وليبنتز (١٦٤٦ ـ ١٧١٦م)، وفولف (١٦٧٩ ـ ١٧٥٤م).

وقامت مجموعة أخرى، هي مجموعة الفلاسفة التجريبيين الانجليز، بالاتجاه في طريق يبدو أكثر منطقية من طريق الآخرين: فهم يقبلون بالمذهب الميكانيكي، وهو ما يتفق مع اتجاههم التجريبي، ويوسعون من تطبيقه ليشمل العقل نفسه، ويقولون بالاتجاه الذاتي وبالاتجاه الاسمي المتطرف[٢٥]. وقد وجدت هذه الأفكار

(٢٠) من مثل العقل والفكر.

(٢١) بعبارة أخرى: كيف تتم القفزة من الذات إلى الموضوع رغم التباين النوعي بينهما؟.

(٢٢) وهو ما يحل المشكلة الثانية الخاصة بالعلاقة بين الذات والموضوع.

(٢٣) الكوجيتو هو مبدأ ديكارت الشهير: «أنا أفكر إذن أنا موجود».

(٢٤) لأن المؤلف يفضل تسميتهم «بالذاتيين». راجع هامش (١٧).

(٢٥) الاتجاه الاسمي المتطرف هو القول بأنه لا وجود للكليات على أي وجه، وإنما كل شيء في العقل مجرد أسماء اصطلح عليها.

على نحو غير واضح عند فرنسيس بيكون (١٥٦١ ــ ١٦٢٦م.)، ولكن الذين وضعوها في عرض منظم هم جون لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤م.) وجورج باركلي (١٦٨٥ ـ ١٧٥٣م.) وعلى الأخص ديفيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦م.).

ويرى هذا الأخير أن النفس ما هي إلا حزمة من الصور، هي التي نسميها «أفكارا». هذه الأفكار هي وحدها التي يمكن أن تعرف معرفة مباشرة، أما القوانين العامة فهي ليست إلا نتاجا للقدرة على الارتباط التي تظهر بفضل العادة(٢٦)، وبالتالي فليس لتلك القوانين العامة أية قيمة موضوعية(٢٧).

وهكذا فإن هيوم يرى أن محض وجود عالم حقيقي لا يقوم إلا على الاعتقاد (٢٨)، ولا يحمي هيوم من الشك المطلق إلا أخذه بمذهب الاعتماد على الإيمان. وفيما عدا هذا، فإنه يشك في كل شيء: في العقل، في الحقيقة، وفي المعرفة على الأخص.

في نفس هذا الوقت، أدى تقدم العلوم الطبيعية إلى ميلاد التصور المادي للكون، الذي تطور واتسع طالما لم يجد أمامه أية فلسفة معارضة تقاومه. وهكذا فإن المذهب المادي، الذي بشر به توماس هوبز (١٥٨٨ ــ ١٦٧٩م.) من قبل، ازدهر في فلسفات بونيه (١٧٢٠ ــ ١٧٩٣م) ولامتري (١٧٠٩ ــ ١٧٥١م) وهولباخ (١٧٢٣ ـ ١٧٨٩م) وديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤م) وهلفتيوس (١٧١٥ ـ ١٧٧١م)(٢٩).

---

(٢٦) العادة أي تكرار التجربة، فيتحقق الربط بين شيئين.

(٢٧) أي أنها لا تعبر عما في الواقع، في الموضوعات أو «الأعيان»، بل عما في الذهن.

(٢٨) أي لا يمكن البرهنة عليه عقليا، لأنه من المستحيل الانتقال مما في الذهن إلى الواقع.

(٢٩) الأول انجليزي، والرابع ألماني عاش في فرنسا وكتب بالفرنسية، والثالث والخامس أهم أعضاء مجموعة «الانسكلوبيديين» (الموسوعيين) الفرنسية. أما المذهب المادي فإن أساسه أنه لا يوجد في الكون غير المادة، على ضد ديكارت الذي رأى أن هناك المادة وفوقها العقل.

ثانيا : الفيلسوف الألماني كانت :

في هـذا الإطار البـاعث على اليأس[٣٠]، والذي كـان كارثـة على العقل، ظهر الفيلسوف الألماني إيمانويل كـانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م.) (kant)، الذي أخـذ على نفسه انقاذ العقل والعلم والأخلاق والدين، بدون أن يتنكر في نفس الوقت لأي من المبادىء الأساسيـة للفكر الأوربي الحديث[٣١]. فهو يقبل المذهـب الميكانيكي كما هـو وعلى علاتـه، وعنده أنـه يحكم العـالم التجريبي وأحـداثه، بما في ذلك الفكـر الذاتي[٣٢].

ولكن كـانت يرى أن هـذا العـالم التجريبي هـو نتاج تـركيب قـامت به الـذات الترانسنـدنتاليـة[٣٣] معتمدة على كم هـائل، ينقصه التنظيم، من الإحسـاسات. وهكـذا فإن قوانين المنطق والـرياضيـات والعلوم الطبيعيـة تحكم العالم التجـريبي وأحـداثـه، لا لشيء إلا لأن العقل يُدخلهـا في ذلك العـالم. وفي نفس الـوقت فإن العقل لا يخضع هو نفسه لهذه القوانين، لأن العقل لا يأتي من العالم الحسي، بل هو بالأحرى مشرِّع له، وهو منبع القوانين التي تحكمه.

هكذا ينقـذ كانت، وبضربةواحـدة، العلم والعقل. ولكن في ظل هذه الشروط تصبح معرفة «الشيء في ذاته»[٣٤]، أي معرفة الحقيقة الموجودة في ذاتها والتي تتعدى

---

(٣٠) في نظر المؤلف بالطبع، وهو بعد كل شيء رجل دين وقسيس، كما أشرنا في المقدمة.

(٣١) وهي التي عرضها المؤلف في بداية هذا الفصل.

(٣٢) الذاتي هنا بمعنى الأفكار النفسية للفرد المحدد.

(٣٣) Transcendental . تترجم هذه الكلمـة أحيانا بـالعربية إلى «المتعالي»، أي مـا يعلو على التجربة. وسوف يستخدمها كانت أولا ثـم ستعود إلى الاستخدام عند فلاسفة القرن العشرين في الغرب كما سنرى. ومعناها الأساسي عند كانت «ما يخص الفكر وحده وينصب على المبادىء والصـور الأولية ويقـابل التجـريبي»، وذلك بـاعتبار أن المبـادىء العقليـة والصور الأوليـة (أو القبليـة) هي التي تحكم التجـربـة وتنظمها (راجع مجمـع الغة العـربيـة، «المعجم الفلسفي»، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٤٣، وراجع فيه كذلك ص ١٦٩ في كلمة «متعالي»، وانظر رأي الدكتور عثمان أمين في معاني «الترانسنـدنتالي» مـوجزا في د. مـراد وهبه، «المعجم الفلسفي»، القـاهرة، ط٣، ١٩٧٩، ص ١٠٣ ـ ١٠٦).

(٣٤) أو «النومين» (Noumenon)، هكذا صار الاسم في الاصطلاح العربي الحديث. ويلاحظ أن الكلمة الإفرنجية تشير إلى المفرد، وجمعها : Noumena.

الاحساسات، تصبح غير ممكنة: ذلك أن المعرفة تنحصر في نطاق الحدس الحسي[٣٥]، وبدون الاحساسات فإن «مقولات العقل فارغة»[٣٦].

وينتج عن هذا أن المشكلات الكبرى للوجود والحياة الإنسانية لا حل لها. فعلي مستوى المعرفة يستحيل اقامة علم للميتافيزيقا[٣٧]. وصحيح أن كانت قد تصدى من بعد لمشكلات وجود الإله وخلود النفس والحرية[٣٨]، وهي عنده مشكلات الفلسفة الثلاثة الكبرى، ولكنه قدم حلولا لهذه المشكلات بالاعتماد على أدوات غير عقلية، فهي تصبح عنده «مسلمات» للإرادة[٣٩].

يظهر ما سبق أن الفلسفة الكانتية تتركب من العنصرين الجوهريين للفلسفة الغربية الحديثة، أي الاتجاه الميكانيكي والاتجاه الذاتي[٤٠].

وتقوم فلسفة كانت على موقف «تصوري»[٤١] متطرف: فالذات الترانسندنتالية، باعتبارها مبدأ منظما، هي التي تخلق المضمون العقلي. أي الذي يمكن ادراكه بالعقل، للعالم، وهذا المضمون يُختزل في النهاية إلى عدد من العلاقات، لا أكثر.

---

(٣٥) الحدس الحسي، أي ادراك ما تقدمه لنا الحواس.

(٣٦) أي فارغة من المادة التي هي المدركات الحسية. وهناك قول مشهور لكانت: «العقل بغير الحس فارغ، والحس بغير العقل أعمى».

(٣٧) لأنه لا معرفة ولا علم في رأي كانت إلا في نطاق المحسوسات، وموضوعات الميتافيزيقا، وأهمها عنده الاله والنفس والحرية، غير محسوسة. اذن فلا «علم» للميتافيزيقا، لأن مادة العلم من الحس.

(٣٨) تصدى لها في نطاق فلسفة الأخلاق لا في إطار نظرية المعرفة.

(٣٩) اعتبركانت أنه لا قيام للسلوك الأخلاقي بدون المسؤولية والثواب والعقاب، وهذا كله يفترض قيام الحرية ووجود النفس التي تختار ووجود الإله الذي يجازي. وهكذا فإن لم يمكن البرهنة عقليا على وجود الإله، فإن هذا الوجود، مع ذلك، ضرورة أخلاقية. ويقصد كانت بالمسلمات قضايا نظرية غير مبرهن عليها في ذاتها، ولكنها مرتبطة بقوانين أخلاقية صحيحة.

(٤٠) الاتجاه الذاتي هنا هو الذي يسمى مثاليا، أي القول بأولوية العقل والفكر على المادة.

(٤١) conceptualism وتقال التصورية هنا على مذهب كانت بصفة خاصة لأنه رفض الاتجاه العقلي والاتجاه التجريبي معا، وقال بمشاركة العقل والحس معا في عملية المعرفة، التي تنتهي نظريتها إلى وجود تصورات في الذهن أصلها حسي، ولكنها تمتاز بالموضوعية والعمومية.

وهكذا تنقسم الحقيقة إلى ميدانين: العالم التجريبي أو عالم الظواهر، الذي يخضع كله تمام الخضوع لقوانين الميكانيكا، وعالم الوجود في ذاته.، أو «النومين»(٤٢)، الذي لا قدرة لنا على معرفته معرفة عقلية(٤٣). لقد كان من نصيب كانت أن يضع الفكر الغربي الحديث في صورته الأقوى وفي تعبيره الأكمل، ولكنه وضعه في نفس الوقت على قضبان طريق محتوم(٤٤).

ومهما قال المؤرخون في حق تأثير الفلسفة الكانتية على التطورات اللاحقة للفلسفة الغربية، فإنهم لن يوفوها حقها كاملاً. فهي تسيطر على القرن التاسع عشر الميلادي، ورغم ظهور اتجاه مضاد لاتجاهها في نهاية ذلك القرن، إلا أن بعض المفكرين سيستمرون في القرن العشرين الميلادي في الخضوع لسلطانها.

وهي أيضا تقف موقع المنبع من تيارات الفكر الكبرى في القرن التاسع عشر الميلادي في الحضارة الغربية. ذلك أن كانت، حين نازع في إمكان قيام أية ميتافيزيقا على أساس عقلي، لم يترك أمام المعرفة إلا واحدا من طريقين: إما أن تدرك العالم بمناهج العلم، وفي هذه الحالة سوف تنكمش الفلسفة لتصبح تركيبا من النتائج المتنوعة التي توصلت إليها العلوم المختلفة، وإما أن تدرس الخطوات التي بها يتكون الواقع ابتداء من مبادىء العقل المنظمة، وفي هذه الحالة تصبح الفلسفة تحليلا لتكوّن الأفكار وأصلها وصيرورتها. والواقع أن أعظم تيارين في القرن التاسع عشر الميلادي ما هما إلا تطوير لهاتين الإمكانيتين: فالمذهب الوضعي والمذهب المادي يختزلان دور الفلسفة إلى مهمة تجميع نتائج العلوم، بينما يتجه المذهب المثالي إلى تكوين نظم فلسفية يحاول فيها تفسير العالم على أنه نتاج لحركة الفكر.

ثالثا: الرومانتيكية:

تدخل عامل آخر لتوجيه تطور الفكر الأوربي في بداية القرن التاسع عشر

---

(٤٢) راجع هامش (٣٤).

(٤٣) لأن كل معرفة عقلية في رأي كانت ينبغي أن تستمد مادتها من المعطيات الحسية، ولا سبيل لنا إلى معرفة «النومين» حسيا.

(٤٤) ربما يقصد المؤلف طريق النزعة الذاتية الضيقة.

الميـلادي، وقـدر لهذا العامـل أن يكون ذا دور مـؤثـر من بعـد: ذلك هـو المذهب الرومانتيكي(٤٥).

والحركة الرومانتيكية حـركة شاملة (٤٦)، ومن الصعب على المؤرخ أن يعـرفها تعريفا محددا. ولكن يمكن أن نقول، بدون أن نذهب في التبسيط مذهبا بعيدا، إن الاتجاه الرومانتيكي هـو في جوهره تمجيد للحيـاة وللنفس، ويفسر ظهوره على أنه رد فعل قوي مضاد للمذاهب الميكانيكية.

وكان الفيلسـوف الألماني كانـت قد حاول إزالـة آثار هـذه المذاهب بطـرائق عقلية، وبقيت طريقـة أخرى: هي عـدم الاعتماد على العقل. وكان من الطبيعي أن يـرتفع الاعتراض على العلم العقلي من جانب شعراء وفنانين وكتاب أزعجهم عقم الوصف العلمي للعالم، فعارضـوا العلم بالعاطفة وبـالحياة وبالدين، معلنين أن هنـاك طرقا أخرى غير طرق العلم للوصول إلى الحقيقة(٤٧).

ولكن المذهب الـرومانتيكي ليـس دائما مذهبـا لاعقليا، بل أنـه يظهـر أحيانـا مدافعا مخلصا عن العقل. ولكن الذي يؤكد عليه دائما هو الاندفاع المتحمس والحياة والتطور.

وكانت فلسفات القرنين السـابع عشر والثامن عشر الميلاديين(٤٨) قـد دافعت

(٤٥) يقال «رومانتيكي» في الاستخـدام العادي بالعربية للموغل في الخيـال، وليس هذا الاستخدام ببعيـد عن المعنى الأصلي. والرومـانتيكية في أصلهـا بدأت مع أواخـر القرن الثـامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلادي وسيطـرت عليه، وهي حركة أدبية أولاً، ولكنها ظهـرت كذلك في ميادين الفن الأخـرى. ويقال «الـرومانتيكيـة الفلسفيـة» على رد الفعل الفلسفي في ألمانيا خـاصة ضـد تيارات القـرن الثامن عشر الميـلادي الآخذة بالعقـل والعقل وحده وضد حـركة «التنـوير» على الأخص، بما أشار إلى وجود قوى أخرى للإنسـان غير العقل، أهمها العاطفة والحدس المرتبطان بالحياة وباللانهائي.

(٤٦) يقصد تواجـدها على مستوى الشعر والمسرح والموسيقى والفنـون التشكيلية، وفي النقد الأدبي، وفي الفلسفـة كـذلك، كما وُجـد لها ممثلـون في ألمانيـا وفي فـرنسـا وانجلترا، وغيرهـا من البـلاد الأوربية.

(٤٧) يمكن القـول إن فلسفــة الحيـاة، التي سيعـرض لها البـاب الـرابـع، تجد أصـولها في الحركـة الرومانتيكية.

(٤٨) أي الاتجاهات العقلية والتجريبية عند الفرنسيين والانجليز بخاصة.

عن تصور سكوني للعالم، وكان المذهب الميكانيكي يرى أن آلة العالم قد أرسيت قواعدها مرة واحدة وإلى الأبد، وأنها مجموعة هائلة من التروس لا يفقد منها شيء، ولكن لا يخلق فيها شيء أيضا.

فجاءت الحركة الرومانتيكية وهاجمت بكل عزمها وطاقتها تلك الصورة عن العالم، وبفضل صيحتها هذه احتفظت لنفسها بتأثير عظيم جدا على مدى القرن التاسع عشر كله في الحضارة الغربية.

رابعا: التيارات الرئيسية:

من أهم سمات القرن التاسع عشر الميلادي الاتجاه القوي نحو بناء نظم فلسفية: فالتركيب يعلو شأنه على التحليل.

وقد ظهر هذا الاتجاه في بداية تلك الفترة في المثالية الألمانية بوجه خاص. وكان كانت قد أكد على الوظيفة الخلاقة للعقل، فتوسع تطبيق هذه الفكرة ومزجت مع فكرة الرومانتيكية عن الفكر الذي هو في صيرورة دائمة. من هذا المزج خرجت مذاهب الفلاسفة الألمان فشته (١٧٦٢ ـــ ١٨١٤م.) وشلنج (١٧٧٥ ـ ١٨٥٤م.)، وعلى الأخص هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١م.).

وقد تصور هيجل الحقيقة الوجودية على أنها نمو جدلي للعقل المطلق الذي يصل دائما إلى تركيبات جديدة ابتداء من مفهومي القضية ونقيض القضية(٤٩). وفلسفة هيجل تقدم مذهبا عقليا شاملا، ولكنها في نفس الوقت رومانتيكية جدا بسبب طابعها الديناميكي والتطوري.

وقد حلَّت عدة مذاهب متأثرة بالعلم محل المثالية الألمانية بعد هيجل. ولنذكر أولا المادية الألمانية عند فويرباخ (١٨٠٤ ـــ ١٨٧٢م.) وموليشُطْ (١٨٢٢ ـ ١٨٩٣م.) وبوخنر (١٨٢٤ ـ ١٨٩٩م.) وكارل فوجت (١٨١٧ ـ ١٨٩٥م.) وقد

---

(٤٩) القضية (thesis) ونقيضها (anti-thesis) ويتركب منهما «المركب»، الذي يصبح بدوره قضية يقابلها نقيضها ومركب منها، إلى ما لا نهاية.

نفت مذاهبهم وجود العقل ذاته ودافعت عن الحتمية الشاملة(٥٠).

ولنذكر بعد ذلك الفلسفة الوضعية التي أسسها في فرنسا أوجست كونت (١٧٩٨ ــ ١٨٥٧م.)، ويتبعه جون استيوارت مل (١٨٠٦ ــ ١٨٧٣م.) في انجلترا، وارنست لاس (١٨٣٧ ـ ١٨٨٥م.) ويودل (١٨٤٨ ـ ١٩١٤م.) في ألمانيا. وقد رأى هؤلاء جميعا أن الفلسفة ليست إلا تجميعا لنتائج العلم، العلم مأخوذا بالمعنى الميكانيكي.

وقد تأيد هذان الاتجاهان، المادي والوضعي، تأييدا عظيما بمذهب تشالرز دارون (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م.)، العالم الانجليزي الذي فسر تطور أنواع الكائنات الحية تفسيرا ميكانيكيا بحتا(٥١)، وذلك في كتابه الشهير «في أصل الأنواع بالانتخاب الطبيعي» (الصادر عام ١٨٥٩م.).

وهكذا استقرت فكرة التطور الرومانتيكية والهيجلية على أساس علمي، وفي نفس الوقت فإنها أصبحت تفسر تفسيرا ميكانيكيا. فصارت فكرة التطور مذهبا شاملا عاما، وأدت إلى ظهور المذهب التطوري الواحدي الذي دافع عنه على الخصوص توماس هنري هكسلي (١٨٢٥ ــ ١٨٩٥م.)، وهربرت اسبنسر

(٥٠) Determinism. مذهب هام سيأتي ذكره تكرارا. ويقصد به: «مبدأ يفيد عموم القوانين الطبيعية وثبوتها، فلا تخلف ولا مصادفة. ويقوم على مجموعة الشرائط الضرورية لتحديد ظاهرة ما، فكل شيء في الوجود يرد إلى العلة والمعلول، وعلى هذا المبدأ يعتمد الاستقرار في العلوم الطبيعية. وهذه الحتمية الصارمة التي تحكمت في التفكير العلمي في القرن التاسع عشر اهتزت وتزعزعت في القرن العشرين. وقد تمتد هذه الحتمية إلى الظواهر الإنسانية، فتخضعها لظروف وعوامل سيكولوجية وطبيعية، وتتعارض مع حرية الارادة... وتختلف الحتمية عن الجبرية التي تخضع الطبيعة لقوى خارجة عنها (هي الألوهية عادة)، في حين ان الحتمية تعتمد على ضرورة كامنة في الطبيعة ذاتها» («المعجم الفلسفي» لمجمع اللغة العربية، ص ٦٧). والجبرية (Fatalism) هي «مذهب من يرون أن كل شيء يتم على نحو لا مرد له، فلا تستطيع قدرة الإنسان ولا ارادته أن تغير شيئا في مجرى الحوادث». ويمثل الجبرية في التراث الإسلامي الجهمية الذين يردون كل شيء إلى الله، والعبد عندهم أشبه ما يكون بريشة في مهب الريح (نفس المصدر، ص ٥٩).

(٥١) من مجالي أهميته أنه طبق منهج التفسير الميكانيكي على الحياة ذاتها، وهي تعارض بطبيعتها المفهوم الميكانيكي.

(١٨٢٠ ـ ١٩٠٣م.)، بينما نشره بين مختلف طبقات القراء الألماني إرنست هيكل (١٨٣٤ ـ ١٩١٩م).

وكان يظهر للناس في الأعوام ١٨٥٠ ـ ١٨٧٠م وكأن الاتجاه التطوري الميكانيكي، والمادي كذلك في معظم الأحيان، سوف يستمر في السيادة على الأفكار في أوربا. ولكن هاهي العودة إلى المثالية تعود إلى الظهور حول عام ١٨٧٠م.، في انجلترا أولا مع توماس هيل جرين (١٨٣٦ ـ ١٨٨٢م.) وادوارد كيرد (١٨٣٥ ـ ١٩٠٨م.)، وتبعتهما هناك مدرسة هامة، ثم في ألمانيا بعد ذلك مع المدرسة الكانتية الجديدة[٥٢] ممثلةً في ليبمان (١٨٤٠ ـ ١٩١٢م.) وفولكلت (١٨٤٨ ـ ١٩٣٠م.)، ومدرستي جامعتي ماربورج وبادي اللتين أقامتا مركزين منظمين للدراسة.

أما في فرنسا، فقد درَّس رينوفييه (١٨١٥ ـ ١٩٠٣م.) مذهبا في النقدية الجديدة، ومن المثاليين الفرنسيين المهمين كذلك هاملان (١٨٥٦ ـ ١٩٠٧م.)[٥٣].

ولكن المذهب المثالي لم يستطع أن يفرض نفسه بالكلية على العقول، حيث استمرت اتجاهات وضعية وتطورية قوية تعبر عن نفسها جنبا إلى جنب مع المذهب المثالي حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

وهكذا يمكن أن نحدد ثلاثة مراحل لتطور الفكر الأوربي في خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وهي: المثالية ثم مذهب التطور على الطريقة العلمية ثم تعايش التيارين معا.

ورغم تعارض المثالية ومذهب التطور العلمي، إلا أن الحركتين تشتركان معا في خصائص جوهرية، وهي:

ـ الاتجاه نحو بناء النظم الفلسفية،

---

(٥٢) حول الكانتية الجديدة، انظر الباب الثالث، الفصل العاشر.

(٥٣) حول هذين المفكرين، انظر الباب الثالث، الفصل التاسع، «أولاً».

ـ اتجاه عقلي واضح إزاء العالم التجريبي،

ــ رفض النفاذ إلى العالم الذي يعلو الظواهر، أو أيضاً نفي وجود مثل ذلك العالم،

ـ وأخيرا الاتجاه الواحدي، الذي يذيب الشخص الإنساني إما في المطلق أو في تيار التطور الكلي.

وهكذا فإن الاتجاه العقلاني والانحصار في عالم الظواهر والقول بالتطور والواحدية اللاشخصية وبناء النظم الفلسفية، كل هذا هو ما يشكل إلى حد كبير هيئة الفكر في خلال القرن التاسع عشر الميلادي في الحضارة الغربية.

خامسا: تيارات جانبية:

لم تتسيد المثالية والتطورية الوضعية وحدهما الفكر الأوربي في الفترة المشار إليها، حيث تطور تياران آخران بموازاتها، وإن كانا أقل أهمية وأقل تأثيرا في الظاهر، ولكنهما يحوزان أهمية حقيقية رغم ذلك.

فقد ظهر الاتجاه اللاعقلي أولا، وهو الناتج عن الحركة الرومانتيكية وخَلَفُها، ليعارض المذهب العقلي الهيجلي. ويمثل هذا الموقف هو شوبنهور الفيلسوف الألماني (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠م.)، الذي يرى أن المطلق ليس العقل، بل إرادة عمياء ولا عقلية(٥٤). وإلى جانب شوبنهور ظهر المفكر الدانمركي كيركجارد (١٨١٣ ـ ١٨٥٥م.) ليدفع إلى مدى أبعد الهجوم على المذهب العقلي(٥٥).

وكان قد ظهر قبلهما في فرنسا تيار يدافع عن الإرادة ويدعو إلى الاتجاه اللاعقلي هو الآخر، وإن كان تيارا أقل ظهورا، وقد مثله مين دي بيران (١٧٦٦ ـ ١٨٢٤م.)(٥٦).

---

(٥٤) انظر حوله كتاب د. عبدالرحمن بدوي، «شوبنهور».

(٥٥) انظر حوله كتابات د. إمام عبدالفتاح إمام التي تناولته والوجودية عامة.

(٥٦) انظر حوله كتاب د. حبيب الشاروني، «مين دي بيران».

وفي مرحلة تالية، وبعد الهجوم على المذهب العقلي الهيجلي، هاجم الاتجاه اللاعقلي لمذهب العقلي العلمي، وهو هنا سوف يعتمد في هجومه على نظرية التطور عند دارون. وكان النبي المعبر عن هذا الموقف هو نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م.)، الذي يعلن أولوية الاندفاع الحيوي على العقل، ويطالب بمراجعة كل القيم، وينادي بعبادة الرجل العظيم(٥٧). وكان اعتماد فلسفة دلتاي (١٨٣٣ ـ ١٩١٢م.) هي الأخرى على الاتجاه التطوري، ويؤكد هذا الفيلسوف الألماني على أولوية التاريخ وعلى نسبية الفلسفة(٥٨). ثم تجد النزعة النسبية ممثلا لها يقدمها في صورة جديدة في شخص الفيلسوف الألماني سيمل (١٨٥٨ ـ ١٩١٨م.).

أما التيار الثانوي الآخر من تيارات القرن التاسع عشر الميلادي في الحضارة الغربية فهو تيار الميتافيزيقا.

ودعوى فلاسفة هذه المدرسة تقوم في أنهم قادرون على الوصول إلى عالم يقع فوق عالم الظواهر. ونلاحظ غالبا عندهم ميلا نحو الأخذ بالتعددية الميتافيزيقية مقرونا بتفهم عظيم لمشكلات الإنسان الواقعي. ولم يشكل هذا التيار مدارس مهمة، ومثله مفكرون منفردون. ولنذكر منهم في المانيا هربارت (١٧٧٦ ـ ١٨٤١م.) وفشنر (١٨٠١ ـ ١٨٨٧م.) ولوطزه (١٨١٧ ـ ١٨٨١م) وفون هارتمان (١٨٤٢ ـ ١٩٠٦م.) ثم يأتي من بعدهم، مع تنويعات هنا وهناك، فنت (١٨٣٢ ـ ١٩٢٠م.) وأُيكن (١٨٤٦ ـ ١٩٢٦م.) وباولسن (١٨٤٦ ـ ١٩٠٨م.)(٥٩).

أما في فرنسا، فإن الآخذين بالتيار الميتافيزيقي هم فيكتور كوزان (١٧٩٢ ـ ١٨٦٧م.) وتلامذته (ومنهم بول جانيه: ١٨٢٣ ـ ١٨٩٩م.). ولكن النظم الفلسفية التي بناها كل من رافيسون (١٨١٣ ـ ١٩٠٠م.) ولاشلييه (١٨٣٢ ـ

---

(٥٧) ترجمت له عدة كتب إلى العربية، وانظر حوله كتابين لكل من د. عبدالرحمن بدوي ود. فؤاد زكريا بنفس العنوان: «نيتشه».

(٥٨) راجع حوله الباب الرابع، الفصل الثالث عشر، «ثانياً».

(٥٩) عنهم جميعا، تجد اشارات متكررة في كتاب كولبه، «المدخل إلى الفلسفة»، المترجم إلى العربية الرصينة بقلم الدكتور أبوالعلا عفيفي.

١٩١٨م.) تقدم ذلك التيـار في صورة أقوى. وعلى عكس الحال في ألمانيا وفـرنسا، فإن التيار الميتافيزيقي لم يظهر في صورة ملفتة للنظر في انجلترا[٦٠].

وهناك أمر يشترك فيه التيار اللاعقلي مع التيار الميتافيزيقي ألا وهو الانطلاق من مواقف فلسفـــة كـانت والاعتماد عليها. ذلك أن المذهب الـلاعقلي ينتج مباشرة، من جهـة، عن المذهب الكـانتي القـائل بعـدم امكـان نفـاذ العقل إلى مشكـلات الميتافيـزيقا[٦١]، كما أن معارضته للاتجاه العقلي عند كـانت يشكل خطأً هاديا له، من جهة أخرى.

كـــذلك، فإن تـأثيرات من الاتجاه التجــريبي الميكـــانيكي، على الطـــريقـــة الداروينيـة، تظهر في المذهب اللاعقلي، وخـاصة عند نيتشـه. ونفس الحال أيضا فيما يخص الفـلاسفة الميتـافيزيقيين، رغم أن هـذا قـد يبدو مستغـربا. فهم جميعـا يأخذون بثنائية عالم الظواهر وعالم الوجود في ذاته، كما أن معظمهم ينحاز إلى جانب الموقف الميكانيكي.

ولنوجه الانتبـاه إلى أن هذين التيارين، وأهميتهما محدودة إلى حد مـا، لا يقارنان بتياري المثـالية والتجـريبية، وهما التيـاران اللذان سـادا الفلسفة الأوربيـة في القرن التاسع عشر الميلادي.



(٦٠) تبقى انجلترا أمينة دائما على التيار التجريبي في صوره المتنوعة.

(٦١) راجع فيما سبق هامش (٣٧)، والمتن المقابل له.

الفصل الثاني

الأزمـــــــــة

أولا : المتغيرات

دخلت الفلسفة الغـربية دور أزمة عميقـة عند نهايـة القرن التاسع عشر وبـداية العشرين الميلاديين. وتتمثل أعـراض هذه الازمـة في ظهور حركـات فكريـة تعارض المذهبين الاهمين في الفكر الأوربي الحديث، أي المذهب الميكـانيكي المادي والمذهب الذاتي. وهـذا التغير لا يقتصر على ميدان الفلسفة، بل يمتـد إلى ما وراءه[٦٢]، ويمكن أن نقـارنه مع الأزمـة الكبيرة التي أنتجت في عصر النهضة الأوربيـة الثقافـة الأوربية الحديثة كلها[٦٣].

ومن الصعب كثيرا أن نحـدد كل علل هـذه الأزمـة، وهي علل متعـددة بقـدر ماهي متداخلة، ولكن الوقائع على الأقل واضحة: فقد وقعت أوروبا في تلك الآونة تحت ضغط حـركة عميقـة من الفكـر الاجتماعي، واضطرابـات اقتصاديـة خطيرة، وتجديدات جذرية في الفن، واصلاحات واضحة في ميدان الدين.

ويتفق المؤرخون، على أي حـال، على أن بداية القـرن العشرين الميلادي ليست وحسب نهاية مرحلة، بل إنها إسدال للستار على مرحلة تاريخية طويلة، انتهى أمرها الآن وكان، إلى درجة أن العصر الجديـد في الحضارة الغربية لم يعـد ينتمي إلى عصرها الحديث[٦٤].

---

(٦٢) أي إلى ميادين الاجتماع والاقتصاد والفن والانسان بعامة.

(٦٣) راجع فيما سبق الفصل الأول، «أولا».

(٦٤) بسبب شدة الاختلافات مابين المرحلتين.

ولهذا فلا يعـدم الرأي القائل بأن تلك الثـورة الاخيرة هي أكثر جذريـة من الثورة التي قام بها عصر النهضة ضد القرون الوسيطـة الاوربية، لا يعدم هذا الرأى أساسا يعتمد عليه. وعلى أي حال، فـان هناك أمامنا على الأقل اتجاها جديـدا يؤكد نفسه في شتى مجالات الحيـاة، وتقـوم الحروب(٦٥) التي تشتعل في اطـار الحضارة الغـربية بـدور الـدافـع لاسراع عمليـة التحلل في جسم الغـرب والتي فتحـت البـاب أمـام الأزمة.

مثل هذا التحـول العميق في الحياة العقلية والروحية يقـابل بطبيعة الحال تغيرات مـوازية في الميـدان الاجتماعي، أو أنـه، جـزئيا على الاقـل، النتيجة الضروريـة لهذه التغيرات الاجتماعيـة. ولا يمكن لنا في إطـار الدراسـات الحالية أن نفصل القـول في هـذه الموازاة إلى حد التفـاصيل، فلنكتف إذن بتحديـد الأسباب العقليـة والروحيـة المباشرة لهذا التحول وتحديد عوامله.

ويمكن رد هذه الأسباب إلى مجموعات ثلاث. المجموعة الأولى تحتوي على أزمة علم الطبيعة وعلى أزمة علم الرياضيات، وهو ما أدى، من ناحية، إلى تطوير عظيم في الفكر التحليلي، ومن ناحية أخرى، إلى تهدم بعض المواقف العقلية النموذجية في فكر القرن التاسع عشر الميلادي.

المجموعة الثانية من الأسباب تضم ظهور منهجين جديدين للبحث، هما المنهج الرياضي المنطقي والمنهج الفينومينولوجي.

أخيرا تتكون المجموعة الثالثة من عدد من تصورات العالم الجديد، أهمها التصور اللاعقلي والاتجاه الميتافيزيقي الواقعي الجديد(٦٦).

---

(٦٥) قـامت أكبر حربين في تـاريخ الحضـارة الغـربية ولا يفصل بينهما إلا عشرون عـامـا وحسب. وينبغي أن ننبـه إلى أنهما في الحقيقة حـربان غربيتـان (أوربيتان)، وليسـت صفة «العـالمية» إلا صفة غير دقيقة بسبب توسع رقعة الحرب واشتراك بعض القوى غير الغربية فيها. وكلا الحربين تدل على الأزمـة العميقة التي وقعت فيهـا نهائيا الحضـارة الغربيـة، بحيث أنهما تمهيد ضروري لتحللها مهما كـان مظهر القـوة فيها بـاديا، فهي قوة خـادعة، وأسبـاب الانحلال تنخـر فيها باستمرار وانتظام.

(٦٦) سيأتي تفسير مدلول هذه المذاهب والاتجاهات كلها في ثنايا الكتاب.

وتترابط كل هذه الحركات الفكرية معا في أغلب الاحيان. وهكذا، مثلا، فإن المنطق الرياضي على صلة وثيقة بأزمة علم الرياضيات، بينما تقوى أزمة علم الطبيعة من ساعد الاتجاه اللاعقلي، وأخيرا فإن نفس المفكرين هم الذين يؤسسون المنهج الفينومينولوجي والواقعية الميتافيزيقية الجديدة. كذلك، فإن رواد المنهج الفينومينولوجي ورواد المنهج المنطقي الرياضي يتبادلون التأثير والتأثر فيما بينهم.

ورغم هذه العلاقات المتبادلة، إلا أنه ينبغي أن نقول إن الظهور المتآني (أي في نفس الآن) لهذه الحركات كلها، وإن اختلفت فيما بينها من حيث ظروفها التاريخية ومن حيث الغايات التي تسعى إليها، هذا الظهور المتآني يشكل ظاهرة لا مثيل لها في تاريخ الفكر الانساني. والحق أن هذه الحركات تؤدي الى إحداث تحول كامل وشامل في الفلسفة الغربية.

ثانيا: أزمة علم الطبيعة النيوتوني

كان معظم فلاسفة الغرب في القرن التاسع عشر الميلادي يعتقدون أن علم الطبيعة، كما انتهي إليه العالم الانجليزي، الاشهر نيوتن(٦٧)، هو تصوير صادق مطلق الصدق للعالم، وأنه صورة واضحة للواقع، حيث ينتهي تحليل كل شيء إلى اندفاعات الذرات المادية والمواقف التي تنشأ عن ذلك (وهذا هو الاتجاه الميكانيكي).

وأساس ذلك هو أنه ينتج عن كون الموقف المعطى لنا في الحاضر، واندفاعات الذرات، أموراً معروفة، ينتج أنه يصير في وسع العلم أن يستنبط من ذلك، عن طريق الحساب، وحَسَب القوانين الميكانيكية، كل تطور سابق أو لاحق للعالم (وهذه هي نظرية الحتمية كما أخرجها العالم الفرنسي لابلاس)(٦٨). وقد اعتقد المفكرون أن مبادىء علم الطبيعة، بل ونظرياتها كذلك، صادقة صدقا مطلقا (نظرية المطلق مطبقة على الحقيقة).

---

(٦٧) Newton وضع علم الطبيعة الغربي في شكله النهائي بنظريته في الجاذبية العامة على وجه الخصوص وباستخدامه للمنهج الرياضي في العلم الطبيعي. ولد ١٦٤٢ ومات ١٧٢٧م.
(٦٨) رياضي وطبيعي وفلكي فرنسي (١٧٤٩ ـ ١٨٢٧م)

وفي إطار علم الطبيعة النيوتوني، فإن أبسط المعطيات هي المادة، وكل شيء آخر ينبغي أن يكون ممكن الاختزال إلى هـذا المعطى البسيط (وهذا هو المذهب المادي، أو المادية). ومن جهة أخرى، فإن علم الطبيعة هو أقدم العلوم التي تدرس العالم، وقد وجد ما يـؤكد أهميته في تطور الفنـون الميكانيكية(٦٩)، بينما لم تكن فـروع أخـرى من المعرفة، التي ستشهد نمواً وازدهاراً خلال الفرن التاسع عشر الميلادي، ومنها خاصة علم التاريخ، لم تكن قد ظهرت بعد ظهوراً بيناً.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين الميلاديين، أخذ بعض المفكرين في التشكك في قيمة هذا التصور الفيزيقي النيـوتوني للعالم. وإذا كان صحيحا أنه ليس من الدقة أن نعتقد، كما قد يظن البعض، أن علم الطبيعة الجديد(٧٠) لم يعد يعرف شيئا اسمه المادة، أو أنـه يرفض مبدأ الحتمية في جملته. ولا يقبل أيـة قضايا على أنها يقينية يقينـا مطلقا، إلى غير ذلك، إلا أنه من الحقيقي أن أمورا كثيرة كـانت تبدو في أعين العلم مؤكدة تمام التأكيد أصبحت الآن قابلة للمناقشة.

وهكذا مثلا، فإنه ليس مـوضعا للشك الآن أن المادة ليست بسيطة، بل أنها على العكس شـديدة التعقيـد، وأن دراستها العلميـة تثير قـدرا عظيما من الصعوبـات. كذلك فإنه يبدو الآن أنه من المستحيل أن نحـدد على الدقة، في نفس الوقت، موقع واندفـاع جزيء مـادي ما، حتى أصبحت الحتميـة كما ارتآهـا العالم لابـلاس أمرا لا يمكن الدفاع عنه.

هل أصبحت الحتمية إذن، بشكل عـام، مبدءا ملقى في سلـة المهملات؟ وهل يمكن أن تعيش من جديد تحت صورة مختلفة عن صورتها التقليدية؟ هذا هو السؤال الذي يضعه الآن كبـار علماء الطبيعة. يقول العالم الانجليـزي الكبير آرثر ادنجتون، وهو من علماء الطبيعة الفلكية: «انني معارض للحتمية بقدر معارضتي للقضية التي تقول إن العالم مصنوع من سمن وعسل . . . . فهذان الفرضان معا لا أساس لهما من

(٦٩) وهو مايسمى بالتكنولوجيا.

(٧٠) يقصـد مـابعـد النظـريـة النسبيـة ونظـريـة الكـوانتم ومبـدأ الـلاحتميـة (في القـرن العشرين الميلادي).

الصحة». وحتى المذهب الميكانيكي نفسه، فإنه قد تطور وغير من سماته.

وفي هذا المجال يلاحظ وايتهد، الفيلسوف الانجليزي وواحد من أفضل العارفين بهذه المشكلات، وعن حق، أن علم الطبيعة السابق كان يتصور العالم على أنه سهل كانت تمرح فيه الخيول على حريتها، أما علم الطبيعة الجديد فإنه يراه على هيئة ميدان يمتلىء بالخطوط الحديدية وعليها عربات الترام التي تتبع اتجاهات محددة لها من قبل بدء حركتها، وأن المذهب الميكانيكي الجديد يقترب كثيرا من تصور عضوي(٧١) للواقع.

أخيرا، فإن ظهور نظرية النسبية ونظرية الكمات(٧٢)، واكتشافات أخرى في علم الطبيعة، كل هذا أدى إلى التشكك في عدد من النتائج كان ينظر إليها من قبل على أنها صحيحة صحة مطلقة.

هذه التحولات العميقة في الفيزياء كان لها ردود مزدوجة في الفلسفة. فحيث إن علماء الفيزياء أنفسهم لم يعودوا يتفقون على صحة الاتجاه الميكانيكي والمذهب الحتمي ولا على مدى صوابهما، وحيث إنهم يحاولون أن يدرسوا، دراسة علمية، المادة التي تبدو معقدة من جديد، حتى أنهم أصبحوا مضطرين إلى إعلان نسبية نظرياتهم، فإنه ينتج عن كل ذلك أن الاتجاه الميكانيكي والمذهب الحتمي لا يعودان يعتمدان على سلطة العلم الطبيعي، وأن تفسير الوجود بالمادة يصبح أمرا مشكوكا فيه، ولا يمكن الاعتماد عليه. (٧٣)

---

(٧١) أي «حيوي» أو بيولوجي، أي كأن العالم كائن حي.

(٧٢) أو «الكوانتم»، وأخرج النظرية ماكس بلانك العالم الالماني (١٨٥٨ ـ ١٩٤٧م).

(٧٣) استخرج علماء كبار من هذه الوقائع نتائج أبعد من ذلك، حيث اعتقدوا أن في مستطاعهم، بالاعتماد على نتائج علم الطبيعة وعلم الحياة، أن يقيموا مذاهب روحية أو مثالية، بل وكذلك مذاهب مؤلهة. ولنشر هنا إلى أشهر أسماء هؤلاء: سير آرثر أدنجتون (١٨٨٢ ـ ١٩٤٤م)، سير جيمس جينز (١٨٧٧ ـ ١٨٤٦م)، ماكس بلانك (١٨٥٨ ـ ١٩٤٧م)، وذلك من بين المشتغلين بالفيزياء والفلك، وسير آرثر تومسون (١٨٦١ ـ ١٩٣٣م) وجون أسكوت هالدان (١٨٦٠ ـ ١٩٣٦م)، بين علماء البيولوجيا. وإذا كانت نظرياتهم تحتوي على جوانب صحيحة وطريفة، وخاصة في نقدهم للمادية، إلا أن تأملاتهم الايجابية تبدو أفكار هواة في أغلب الوقت، حتى أن الفلاسفة لا يعطونهم إلا القليل من الاهتمام. ومع ذلك فإن هؤلاء العلماء المتفلسفين قد =

ثالثا: نقد العلم:

لم يكن الموقف الـذي وصفنـاه في السطـور السـابقـة نتيجـة لتطـور العلـوم ذاتها وحسب، بل شـارك عدد من المفكـرين في خلقـه، وهم المفكرون الـذين كـانوا قـد وضعوا تحت مجهر التحليل مناهج العلوم الطبيعية ووضعوها موضع التساؤل، وذلك من قبل انفجار أزمة علم الطبيعة النيوتوني.

ويحتل الفلاسفة الفـرنسيون في اتجاه «نقد العلم» ذاك مكانا مرمـوقا، فهناك أميل بوترو (١٨٤٥ ــ ١٩٢١م. في كتابيه «في احتمالية قـوانين الطبيعة»، ١٨٧٤م، و«في فكـرة القانـون الطبيعي»، ١٨٩٤م)، وهناك بيير دوهـم (١٨٦١ ــ ١٩١٦م، وأول كتبه الهامة هو «المخلط والتركيب الكيميائي»، ١٩٠٢م) وهنري بوانكاريه (١٨٥٣ ـ ١٩١٢م. ، في كتابه «العلم والافتراض»، ١٩٠٢م).

وفي نفس هذا الوقت تظهـر كتابات اتجاه «نقد المذهب التجـريبي»، الذي يبدأ من موقف وضعي وينتهي إلى نتائج أكثر تطـرفا في نقدها للعلم. ففي عام ١٨٨٨ ـ ١٩٩٠م. نشر ريتشـارد أفينـاريـوس (١٨٤٣ ــ ١٨٩٦م) كتـابـه «نقـد التجـربـة الخالصـة»، وفي عام ١٩٠٠ نشرأرنست مـاخ (١٨٣٨ ــ ١٩١٦م) مـؤلفه الـرئيسي حيث يقوم فيه بنقد شديد التفصيل للقيمة المطلقة للعلم.

ويتجه نقـد العلم إلى الهجوم على قيمـة الافكار العلميـة ونظريـات العلم. وقد بينت التحليلات التفصيلية والبحوث التاريخية أن هذه الافكار وتلك النظريات هي ذات طبيعـة ذاتيـة في قسم كبير منهـا. فـالعـالم لا يشرح الـواقع بطـريقـة تعسفيـة وحسب، أي تدخل فيها اختياراته وتفضيلاتـه، بل إنه كذلك يقوم بعمله ابتداء من أفكار تخرج من ذهنـه هو. أما عـن النظريات العلميـة الكبرى، فإنها، في نظر اتجاه نقد العلم، لا تزيد في حقيقتها عن أدوات ملائمة مريحة لتفسير التجربة، وكما يقول

ــ أثـروا أعظم تأثير في الجماهير. وقد يكـون محل الاهتمام في نشـاطهم الفلسفي شيئا واحـدا: فمحض واقعة أن هذه النظريات قد صدرت عن علماء من أمثـالهم يدل على أننا بعيدون جدا عن العقلية التي كانت مسيطرة خلال القرن التاسع عشر الميلادي. (هامش للمؤلف)

بوانكاريـه فإن النظريات العلمية: «لا هي بالصحيحة ولا هي بـالكاذبة، وإنما هي مفيدة وحسب».

ومن الجدير بالملاحظة أن أي ناقد من نقاد العلم الفرنسيين، بمن فيهم بوانكاريه نفسه، لم يكن من أتبـاع المدرسة التي تقول بأن مصطلحات العلم ومفـاهيمه ماهي إلا «اتفاقـات»(٧٤)، وإنما الذي كانوا يقصدون إليـه هو البرهنة على أن العلم أبعد مايكون عن مثـال العصمة من الخطأ الذي كان المفكـرون والعلماء ينسبونه إلى العلم عادة في خلال القـرن التاسع عشر الميلادي. ثم جـاء المفكرون الالمان أصحاب اتجاه «نقـد المذهـب التجـريبي»، ومشـوا في نفس الطـريق وإلى أبعـد ممـا ذهـب إليـه الفرنسيون، وقالوا بنوع من المذهب النسبي قريب من المذهب الشكي.

وبصفة عامة، فإن العلم فقد قسما كبيرا من سلطته في أعين الفلاسفة نتيجة لكل تلك الانتقادات، ثم جاءت الأزمة الداخلية في علم الفيـزياء لتزيد من سرعة عملية التحلل. وأصبح الموقف أنه لا يمكن بحال الاعتماد على مصداقيـة التصور النيوتوني للعالم(٧٥)، وكان هذا التصور هو الافتراض المسبق الأساسي للفلسفة الكانتية ولكل الفكر الأوربي حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

ولكن أزمة علم الطبيعة أنتجت نتيجة أهم من ذلك بكثير. فقد أظهرت بوضوح أنـه لا يمكن قبول مفـاهيم وقضـايا العلم الفيـزيـائي بدون تحليل فلسفي، وأنـه لا يمكن، من وجهة نظر فلسفية، اعتبار النظريات (Théorémes) الطبيعية صحيحة قبليا. وعلى هذا اتضح أن ديكارت وكانت أسـاءا التصور على نحو يتسم بالسذاجة الشديدة. من جهـة أخرى، وبفضل كل هذه الاكتشافـات، فإن أزمة علم الطبيعة أيقظت الفكـر التحليلي، الـذي سيكـون واحـدا من عـلامـات الفلسفـة في القـرن العشرين الميلادي.

---

(٧٤) أي أن العلم مجرد بناء عقلي ولا يدل بالضرورة على العالم الموضـوعي. وهو ما يعني التأكيد على العنصر الانساني والنسبي في تكوين العلم.

(٧٥) راجع حوله «ثانيا»، فيما سبق من هذا الفصل.

رابعا : أزمة الرياضيات والمنطق الرياضي :

وكحال علم الطبيعة، فإن علم الرياضيات قد انتهى هو الآخر إلى أزمة في نهاية القرن التاسع عشر، وهي أزمة لن تكون أقل عمقا ولا أقل في أهمية نتائجها من أزمة علم الفيزياء.

وقد ظهرت اكتشافات عديدة في علم الرياضيات في خلال القرن التاسع عشر الميلادي، ولكن أكثرها تأثيرا من الناحية الفلسفية كانت الاكتشافات الخاصة بالهندسة غير الأقليدية ونظرية المجموعات(٧٦) التي قام بها كانتور (١٨٤٥ - ١٩١٨م) فقد أظهر هذان الاكتشافان أن ما كان يعد من قبل، وبغير تردد، مجرد افتراضات مسبقة لا يقوم علم الرياضيات إلا عليها، ما هو في الواقع إلا قضايا ليست يقينية على الاطلاق، كما نبه هذان الاكتشافان الانظار إلى ضرورة التحليل الدقيق للمفاهيم التي تبدو في الظاهر بسيطة، وإلى تركيب النظم الرياضية ابتداء من المسلمات.

وفيما يخص نظرية المجموعات، فقد اكتشف الرياضيون، عند انتهاء القرن التاسع عشر الميلادي، مايسمى «بالمفارقات» (Paradoxes)، أي استنتاجات متناقضة، ابتداء من مسلمات بسيطة وواضحة في الظاهر، رغم كون البراهين المستخدمة صحيحة. وهكذا انتهى الحال إلى تهافت أسس علم الرياضيات ذاته.

وقد عاد المنطق الصوري إلى النهوض من جديد، تحت أسماء جديدة، منها المنطق الرمزي والمنطق الرياضي، في ظل اتصال وثيق مع أزمة علم الرياضيات تلك.

وقد سبق أن ذكرنا أن الفلسفة الأوربية الحديثة أهملت المنطق الصوري إهمالا كبيرا، حتى لقد سقط في زاوية النسيان المهين. فلم يكن بين كبار الفلاسفة في الفكر الأوربي الحديث إلا واحد، هو ليبنتز، كان منطقيا مرموقا، أما الآخرون فكانوا

---

(٧٦) Théorie des ensembles

يجهلـون أسس المنطق الصـوري نفسـه، وكفى على ذلك شـاهـدا حـالـة ديكـارت وكانت.

ثم ظهـر في عـام ١٨٤٧م كتـابـان، كـل منهما مستقل عن الآخـر، لـريـاضيين انجليـزيين هما مورجـان (١٨٠٦ ــ ١٨٧٨م) وجـورج بول (١٨١٥ ــ ١٨٦٤م)، ويعتبر هذان الكتـابان أول مـا نشر في المنطق الريـاضي الجديد. ثم استمـر في نفس الاتجاه أرنست شرودر (١٨٤١ ـ ١٩٠٢م) وبيانو (١٨٥٨ ـ ١٩٣٢م) وخاصة فريجة (١٨٤٨ ـ ١٩٢٥م)، وهو مفكر ومنطقي مرموق.

ورغم ذلك فقد ظل المنطق الـرياضي مجهولا عند الفلاسفـة على التقريب، حتى أوائل القـرن العشرين الميـلادي. فلم تأخـذ الفلسفة الانجليـزيـة، على الأقل، في الاهتمام بهذا النوع من البحوث إلا بعد ظهور كتاب برتراند رسل «أسس الرياضيات» في عام ١٩٠٣م، وذلك إثـر مقابلته مع الـرياضي بيـانو عام ١٩٠٠. ثم ظهـر بعد ذلك في ١٩١٠ ــ ١٩١٣ الكتـاب الضخم الـذي ألفـه رسل مع وايتهـد بعنـوان «مبادىء الرياضيات»، وهو المؤلف الـذي أسرع من خطى تطور هذا الفرع الجديد، أي المنطق الرياضي.

وقد أثر المنطق الـرياضي تأثيرا مزدوجا على الفلسفة. فمن ناحيـة، ظهر أنه أداة دقيقة جدا من أجل تحليل المفاهيم والبراهين، وأنه أداة يمكن تطبيقها، بحسب رأي أهلها هم أنفسهم، على ميادين أخرى غير الرياضيات، لأن هذا المنطق «الرياضي» ليس رياضيـا إلا من حيث منشئه، وأنـه يتعامل في الـواقع مع مفاهيم غير ريـاضية وعامة تمامـا. ومن ناحية أخرى، فقد أدى البحث المنطقي الريـاضي الى القاء الضوء من جديد على مشكلات عتيقة من مشكلات الفلسفة، مثل مشكلة الثالث المرفوع، ومشكلـة، مدى وضـوح البديهيـات، ومشكلة النحـو الفلسفي (أو مايسمى اليـوم السميوتيقا Semiotics)، وخاصة مشكلة الكليات(٧٧)

(٧٧) زيد وعمرو وفاطمة أفراد، ولكن «الانسان» مفهوم كلي. فما هو نحو وجود هذا المفهوم؟ البعض يقول إنه يـوجد وجودا نوعيا مستقـلا عن الانسان (وهذا هو المذهب» «الـواقعي» في اطار مشكلة الكليات)، والبعض الآخر يرى أنه مفهوم عقلي موضوعي ذو كيان خاص، ولكنه يوجد في العقل (المذهب التصوري)، ويقول البعض الثالث إنه مجرد اسم (وهذا هو المذهب الاسمي).

خامسا : المنهج الفينومينولوجي :

الحركـة الثانيـة التي سـاهمت في قطع الجسـور مع اتجاهات القـرن التـاسع عشر الميلادي وفي بناء الفلسفة الحالية في القرن العشرين هـي اتجاه الفينومينولوجيا، الذي بدأ من قضـايا فلسفية مغـايرة تماما للقضايـا التي بدأ منها الاتجاه النـاشيء عن أزمة العلوم الطبيعيـة والرياضية، والـذي كان يهدف إلى أهداف مختلفة عن أهـداف هذا الاتجاه الجديد.

وإذا أردنا استخدام اصطلاح «الفينومينولوجيـا» استخداماً صارماً فإنه لا ينطبق على الدقة إلا على منهـج إدمند هُسِّرل، ولكن الباحثين يستخدمـون هذا الاصطلاح للاشارة إلى مجموعة كبيرة من المفكرين الذين يمثلـون اتجاها مماثلا له. ومؤسس هذه الحركة هو الالماني فرانـز برنتانو (١٨٣٨ ـ ١٩١٧م)، وكان قسـا دومينيكانيا، ولكنه تـرك الرهبنـة ثم خـرج على الكنيسـة، وإن بقي متأثرا في أكثـر من نـاحيـة بالفكـر الأرسطي وبالفلسفة التوماوية (نسبة إلى تـوما الاكويني فيلسوف الكنيسة في العصور الوسطى المسيحية)، وهو ما يظهر من اتجاهه الموضوعي، ومن إقباله على التحليلات الدقيقـة وعلى البحوث المنطقيـة. وقد خلف تلامـذة ثلاثـة كان لهم تأثيرهـم الكبير، وهم تفاردُفسكي ومَيْنونج وهسرل.

ورغم أن تفـاردفسكي لم يكن منطقيا هـو نفسـه (١٨٦٦ ـ ١٩٣٨م.)، إلا أنـه أصبح مـؤسس المدرسة المنطقيـة البولنـدية، وهي التي ستسـاهم بنصيب واضح في تطور المنطق الـرياضي. أما مينونج (١٨٥٣ ــ ١٩٢١م) فإنه قدم «نظريـة الموضوع» وأسس مدرسة، هي صغيرة ولكنها مؤثرة.

وأهم تلامذة برنتانو هو إدموند هسرل (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨م.) الذي قام على إبداع المنهج الفينومينولوجي بالمعنى الدقيق. وهذا المنهج يقوم في أساسه على تحليل جوهر المعطى أو الظـاهـرة، وقد أصبح، وبعـد الحرب الأوربيـة الكبرى الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨ ميلادية) على الاخص، المنهج الاكثر انتشارا مع منهج المنطق الرياضي.

والاختـلاف الرئيسي بين الفينومينولوجيا والمنـــطق الرياضي يقـوم في أن المنهج

الفينومينـولوجـي لا يستخـدم الاسـتنباط على الاطـلاق ولا يهتم إلا قليـــلا بـاللغة (رغم اهتمام هسرل نفسـه بها)، ولا يقـوم بتحليل الـوقـائع التجـريبيـة، بل بتحليل الماهيـــات(٧٨). ومن المفيد أن نـلاحظ أن كتاب مينـونج الأساسي، وهـو «حول الاثبات»، ظهر في ١٩٠٢م. بينما كان كتاب هسرل «البحـوث المنطقية»، وهو أحد أخصب الكتب التي ظهرت في النصف الأول للقرن العشرين الميـلادي، قد ظهر في عام ١٩٠٠ـ ١٩٠١م.

ويقترب إلى حد مـا من المنهج الفينومينولوجي المنهج «التحليلي» عنـد الفيلسوف الانجليـزي جـورج مـور (١٨٧٣م)(٧٩)، وهـو الـذي أصبح عنـد رسل التحليل الرياضي المنطقي. وهذا المنهج التحليلي يكتسي طابعا خاصا عند مور، الذي يقترب في كتابه «مبادىء الاخلاق»، الظاهـر سنة ١٩٠٣م، من منهج مينونج ويبدو متأثرا به إلى حد ما. بل إن تأثير مينونج ليظهر على أكثر من وجه عند رسل في كتابه «أسس الرياضيات»، كما أن تطور المنطق الرياضي، من بعد، سوف يتأثر بعدد من الافكار الهامة عند هسرل.

سادسا: الاتجاه اللاعقلي الحيوي:

يشترك المنطق الـرياضي مـع الاتجاه الفينومينـولـوجي في أنهما معا منـاهج وليسـا مـذاهب من حيث محتـــواهما، وأنهما ظهـرا نتيجـة للتفكير في أسس العلـوم، وأنهما يبحثان في تأسيس تلك العلوم على أساس جديد عقلي.

فهذان الاتجاهان، لهذا، يتسمان بالتعددية، وهما يتعارضان مع الميل إلى بناء نظم فلسفيـة. وقد شـارك هذان الاتجاهـان بتحليـلاتهما في تعريـة عدد من التبسيطـات الساذجـة التي سادت في القـرن التاســع عشر وفي تحطيمهـــا. كذلـك فإن هذين الاتجاهين، على الأقل في بدايتهما، يأخذان جانب المذهب الواقعي(٨٠)، ونرى عند

(٧٨) انظر الفصل الرابع عشر، في الباب الخامس.

(٧٩) توفي عام ١٩٥٨.

(٨٠) أي القـول بـوجـود المعـاني والكليـات في ذاتها، فهـو المذهب الـواقعي المثـالي، راجع هـامش (٧٧).

مور وعند هسرل تعاطفا مـع الفلسفة الافلاطونية، .وهي ظاهرة جديـدة تماما بالمقارنة مع التطورات السابقة.

ومع ذلك، فلا المنطق الرياضي ولا الفينـومينولوجيا، على الاقل في أصلهما، أي في «مبادىء» الـرياضيات «لـرسل ووايتهد» وفي «البحوث المنطقيـة» لهُسِّرل، يعدان فلسفتين بالمعنى الصحيح، وإنما هما من المناهج.

ولكن هاهما حـركتان فلسفيتـان جديـدتان من حيث المضمـون تظهران في نفس لحظة ميلاد المنطق الريـاضي والفينومينولوجيا: الاتجاه الحيوي الـلاعقلي والميتافيزيقا الواقعية.

لقد كان من نتائج الأزمة العقليـة والروحية لتلك الفترة أن اتسع رواج الاتجاهات الـلاعقلية اتسـاعا عظيما، حتى أصبح ذلـك من مميزات أواخـر القرن التـاسع عشر وأوائل القرن العشريـن. وكان الفيلسوف الألماني كـانت قد رفـض القول بأن المعـرفة العقليـة يمكن لها أن تدرك عـالما يقـوم فيما وراء الظواهـر، ومع ذلك فإنـه يبقى على الأقل أن العالم التجريبي تحكمـه قوانين عقلية وقابلة للحسـاب. ثم جاء اتجاه «نقد العلم» وأزمة علـم الطبيعـة ليبرهنا على أن الأمر ليس كـذلك، وأن الشك الكانتي في قدرة العقل على المعرفة يمتد ليكون عامـا في قدرته على معرفة أي شيء. وكان العقل مفهوماً على الطريقـة الميكانيكية، وكما يظهر من ممارسة العلـوم، يقوم في مقام العقل كله في خـلال القرن التـاسع عشر الميلادي، فجـاءت أزمة العلـم الميكـانيكي لتؤدي بالضرورة إلى أزمة للمذهب العقلي كله.

ولكن هـذا ليس وحده منبع الاتجاهـات الجديـدة. فمن المفارقـات، أن الاتجاه التجريبي نفسـه الذي كان سائدا، قد شـارك هو نفسه بنصيب كبير في تطـوير هذه الاتجاهـات، من حيث إن تصوره الميكـانيكي للكـون كان قـد نُقل إلى ميدان الحيـاة وظهـر على هيئـة نظـريـة داروين في التطـور. فمن غـرائب تطـورات الفكـر أن هـذا المذهب، الذي يقول بأن كل كائن عال يأتي من كائن أدنى منه، نقل من تطبيقه على علـم الحيـاة إلى علم النفس والى علـم الاجتماع. ثم ظهـر الاتجاه إلى إرجـاع كل حيـاة الوعي، بما فيها العمليـات العقلية، إلى عناصر أدنى منها، وإلى اعتبارهـا خاضعة

لقـوانين تطور الكـائنـات الحية : وكـانت النتيجـة أنـه لم يعد من ثبـات في شيء ولا سكون، ولا وجود لشيء اسمه المبادىء الخالدة، وإنما هناك وحسب الدفعة الحيوية التي تخدم تطور الحياة.

أخيرا، فإن نفس الأسباب التي رأينـاها تدفع إلى ظهور المذهب الـرومانتيكي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، وإن كان التراث الذي تراكم خلال هذه الفترة قد حل محلها وقام مقامها، هذه الاسباب أدت فعلها في إظهار التيارات الجديدة: ذلك أن الصورة ذات الطابع الواحدي والحتمي التي قدمها العلم قبل عام ۱۹۰۰ ميلادية عن العالم، كانت مثيرة للسخط إلى درجة أنها استثارت احتجاج عدد من المفكرين، الذين شعروا أن مـن واجبهم النهوض للدفاع عن حقـوق الحياة والشخص الإنساني والقيم الروحية.

وقد ظهـر هذا الاحتجـاج بشكل غير متوقع وبالغ العنف عنـد فيلسوفين بـوجه خـاص، هما وليم جيمس الامريكي وبـرجسون الفـرنسي، اللذين استقـرا على رأس هـذه الحركـة الفلسفيـة. وكـان هـربـرت اسبنسر، أعظم ممثلي الاتجاه التجـريبي الميكانيكي، لا يزال حيـا حين ظهر في وقت واحد تقريبا كتاب بـرجسون «المعطيات المبـاشرة للشعـور» (١٨٨٩م) وكتـاب جيمس «مبـادىء علم النفس» (١٨٩٠م)، وأعقبهما لكل منهما، على التـوالي، «المادة والـذاكـرة» (١٨٩٦م) و«إرادة الاعتقـاد» (١٨٩٧م).

وقد أثر هذان المفكران تأثيرا عظيما على الفكـر الغربي خلال النصف الأول للقرن العشرين حتى أننا سنخصهما بدراسة مفصلة[٨١]. ويكفي أن نلاحظ هنا أن كليهما يعلن اتجاهـه الـلاعقلي وأنهما يضعـان فكـرة الحيـاة في قلب تـأمـلاتهما الفلسفيـة. وبفضلها أصبح الاتجاه اللاعقلي، الذي كان تيارا من الـدرجة الثانية في خلال القرن التـاسـع عشر، قـوة رئيسيـة بين قـوى الفكـر الغـربي في النصف الأول مـن القـرن العشرين.

---

(٨١) انظر فيما يلي الباب الرابع، الفصلين الحادي عشر والثاني عشر.

سابعا : نهضة الميتافيزيقا الواقعية :

في موازاة مع حركـة الاتجاه اللاعقلي تجمعت أسباب ظهور حركـة أخرى عميقة : العودة إلى المذهب الـواقعي و إلى الميتافيزيقـا ، وهو ما يؤدي إلى نسف إطـار مبادىء الفلسفة الكانتية لأول مرة منذ كانت ، وهي المبادىء التي كانت تحكم الفلسفة كلها خـلال القرن التـاسع عشر الميـلادي . ومن الصعب اكتشـاف أسبـاب هذه الحركـة الجديدة وعللها العميقة . ولا شك في تعدد أسس الميتافيزيقا الجديدة وتنوعها .

ويمكن أن نقول بصفة عامة إن موارد الفلسفـة الكانتية بدأت في النضوب حوالي عـام ١٩٠٠م . ، فـلا هي تكفي ولا هي ترضـى أحدا ، والفكـر يبحث عن حلـول جديدة . ويظهر في المحل الأول تيار يأخذ وجهة **الواقعية النقدية** ، وهو تيار لا يغادر الاطار الكـانتي ، ويعبر عنه الالماني ريل (١٨٤٤ ــ ١٩٢٤م) مثلابعـد ذلك سارت مدرسة جـامعة فورتزبـورج الالمانية ، والتي أسسها أوزفالـد كولبه[٨٢] (١٨٦٢ - ١٩١٥م) ، في نفس هذا الاتجاه ، وتذهب به إلى مدى أبعـد وبقوة ، وقد تبع كولبه في هذه المدرسة مفكرون لامعون .

ولكن حركة تجديد المذهب الواقعي الحقيقية إنما هي من انتـاج برنتاتو وتلامذته ، وعلى الأخص مينـــونج وهسرل ، وهـــؤلاء جميعـــا هم أيضـــا وراء ظهـــور المنهج الفينومينولوجي . صحيح أن هسرل نفسه لم يـدفع بتأملاته إلى حد المذهب الواقعي ، ولا حتى إلى فلسفـة الـوجود ، ولكـن الصحيح أيضا أن صرفـه انتبـاه المفكـرين عن المشكـلات العقيمة التي انتهت اليهـا بحوث نظـرية المعـرفة في عصره ، وتحويلـه إلى تحليل المعطيات العقلية ، كان ذا أهمية عظمى من أجل ظهور الاتجاه الواقعي الجديد والعودة إلى الميتافيزيقا . وكان تأثير مَيْنونج هاما هو الآخر في نفس هذا الاتجاه .

وخارج هذه المنطقة الفكرية ، اكتسبت الميتافيزيقا الواقعية أرضا جديدة في مواقع أخرى تحت تأثير عناصر روحية متنوعة .

---

(٨٢) انظر هامش (٥٩) .

فالفلسفة التوماوية[٨٣] تعود إلى الظهور حوالي عام ١٨٨٠م. (مع خطاب البابا عام ١٨٧٩م. الذي يبدأ بـ «الأب الخالد»)، وتؤسس مدرسة كبيرة سوف تصير من بعد من أقوى المدارس: ففي عام ١٨٩٣م. تؤسس «المجلة التوماوية» في مدينة فرايبورج الألمانية (٨٤)، كما تظهر عام ١٨٩٤م، «مجلة المدرسية الجديدة للفلسفة»، في مدينة لوفان ببلجيكا.

ويقول المذهب التوماوي الجديد بالواقعية المباشرة ويدعو إلى الميتافيزيقا التقليدية. وهو ليس وحده في هذا الميدان، ففي إنجلترا يخرج جورج مور مقالته الشهيرة «تفنيد المثالية»، ويعلن بالاتفاق مع رسل فلسفة قريبة من المذهب الافلاطوني. وفي فرنسا يقف أميل بوترو وبرجسون في صف المذهب الواقعي، ولكن لأسباب مختلفة. وفي ألمانيا يثير مذهب هانز دريتش (١٨٦٧ ــ ١٩٤١م)، الذي يحتفظ بطابع أرسطي واضح، يثير الاهتمام عند المفكرين.

وإذا لم يكن هذا التيار الواقعي الجديد قد نال شعبية التيار اللاعقلي وانتشاره بين جماهير عريضة، إلا أنه أصبح فعالا مع ذلك، فبه تصبح الميتافيزيقا، التي كانت حركة ثانوية وغير متميزة في القرن التاسع عشر الميلادي، تصبح أحد المذاهب الرئيسية في القرن العشرين الميلادي.

ثامنا: عودة إلى التأملات الفلسفية: النزعة التعددية:

كانت الفلسفة في نهاية القرن التاسع عشر، وتحت النفوذ الساحق للاتجاه الوضعي، فلسفة هادئة ووقورة للغاية. وربما كان معظم الفلاسفة يخشون من أن يتهمهم أحد بالتفرد أو برأي غريب، وكانت النتيجة أن معظم الجامعات ما كانت تدرس الا مجرد تعداد لمذاهب العصور السابقة. فلما كانت بداية القرن العشرين، أصبح من أهم ملامحها العودة إلى التأملات الفلسفية المطردة والانتظامية، وهو مايظهر سواء عند الاتجاه اللاعقلي أو عند الميتافيزيقيين.

(٨٣) نسبة إلى القديس توما الأكويني. راجع الفصل السابع والعشرين، من الباب السابع.
(٨٤) هناك مدينة بنفس الاسم في سويسرا.

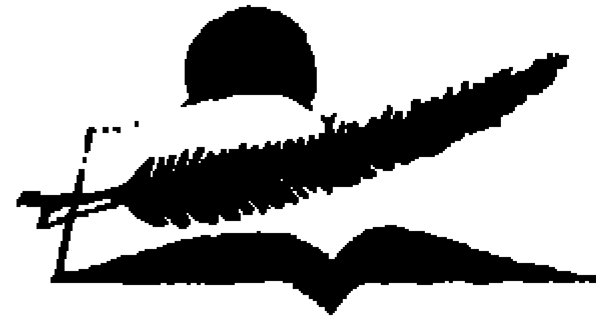
ولكن السمـــة الأعمق والأكثـر تمييـــزا هي من غير شك العــودة إلى الاتـــجاه التعددي[٨٥] الشخصاني (أي الذي يهتم بالشخص الانساني).

فإذا كان القرن التـاسع عشر واحديا في سائر مظاهر انتـاجه على التقريب، فإن كل حـركات نهايتـه هي، على الضد تمامـا، تعدديـة، أي أنها تعترف بتنوع درجـات الوجود وبأن هناك كثرة من الموجودات المستقلة.

ويجد مذهـب التعددية أقصى تعبير عنه عند وليم جيمس، الذي يذهـب إلى حد اظهـار التعاطف مع مـذهـب تعدد الآلهة، كما يظهـر المذهب أيضا عنـد الفلاسفـة الفينـومينـولـوجيين وعنـد الـواقعيين الجدد الانجليـز وعنـــد أتبـاع القـديس تـومـا الاكويني.

وتعـود إلى الشخص الانسـاني حقوقـه القـديمـة ويصبح محور الاهتمام الفلسفي أكثر وأكثر. ثـم تأخذ مشكلات العقل الكبرىء في استثارة الفكـر استثارة حقيقية. فإذا كان القـرن التاسع عشر عصرا واحـديا ومـاديا، فإن أزمـة عام ١٩٠٠م. تعلن السيادة الواضحة للاتجاه نحو مذهب شخصاني روحي.

ومع ذلك فإن هذه الأفكار كـانت لا تزال، حوالي عام ١٩٠٠م. أبعـد ما تكون عن أن تجد قبـولاعامـا لها. بل أن الـربع الأول من القـرن العشرين الميلادي يشهـد العودة، العارضة، للاتجاهات القديمة، ولكن هاهي الافكار الجديدة قائمة وتعرض مذاهبهـا، وسوف تسيطـر على المسرح الفلسفي بعـد الحرب الأوربية الكبرى الأولى عند معظم المفكرين الاوربيين.



---

(٨٥) انظر معنى التعددية فيما يلي بعد سطور، والتعددية تقابل الواحدية والثنائية.

الفصل الثالث
بدايات القرن العشرين الميلادي

أولا : الخصائص

يمكن تعداد خصائص الفلسفة في الـربع الأول من القرن العشرين الميلادي على النحو التالي: فهو أولا عصر نشـاط فلسفي مكثف، وتظهر فيه أسماء عدد كبير من المفكريـن الكبار، اللذيـن يكتسبون نفوذا وتـأثيرا. ومن هذه الـوجهة، فانـه يمكن اعتبار هذه الفترة من أخصب فترات الحضارة الغربية الحديثة إنتاجا فلسفيا.

السمة الثانيـة هي أن هذه الفترة هي عصر انتقال. فلا تـزال اتجاهات من الفكر القديم الـذي كان سائدا في خـلال القرن التاسع عشر الميـلادي موجودة وقـائمة إلى جانب التيـارات الجديدة، وورثـة التركة التي تـركها الفكـر السابق لا يعـاملون بهذا الاعتبـار، أي بـاعتبـارهم ورثـة فكـر انتهـى عهـده، بل هـم عظيمـو النشـاط ولهم تأثيرهم، بل أنهم يتسيدون المسرح الفلسفي في بعض البلاد، مثل انجلترا وإيطاليا، حتى حرب عام ١٩١٤م.

وفي نفس الوقت فإن مفكرين كبـارا قد عرضوا أفكارا جديـدة ووفروا لها الانتشار والذيـوع الكبير، وبعض هؤلاء المفكرين، ونقصد بـرجسون على الأخص وهسرل إلى حد ما، أصبحوا بالفعل موضع التكريم الكبير.

والمدارس الرئيسية في بداية القرن العشرين هـذا هي: المدرسة التجريبية والمدرسة المثالية، وهما المدافعتـان عن تيارات تنتمي إلى القرن التاسـع عشر الميلادي، وفلسفة الحياة والفينومينولوجيا والواقعيون الجدد وهم أنصار «التحديث».

ثانيا : التجريبيون

لا يـزال عـدد كبير إلى درجة مـا من المفكـرين يتبعـون، في الفترة التي نتحـدث عنهـا، خط المذهب الوضعـي بل وخط المادية ذاتها، ويـدافعـون عن فكرة التطـور الميكانيكي. ومع ذلك، فأنهم، بصفة عـامة، يخرجون بالفعل عن إطـار الوضعية، حين يهدفون، بالاعتماد على العلوم، إلى إقامة نوع من اللوحة العامة لمجمل الحقيقة، ويسميها بعضهـم هنا وهنـاك بالميتافيـزيقا. ويمكـن أن نميز بين التجـريبيين عدة مجموعات لا تتساوي من حيث أهدافها ولا من حيث أهميتها.

ففي فرنسا، يوجد عدد من التجريبيين الذين كانوا قد أخرجوا القدر الأعظم من إنتاجهم في خلال القرن التاسع عشر، ولكن تأثيرهم لم يمارس إلا في فترتنا، أي بداية القرن العشرين. وهم جميعا يقيمـون نوعا من الميتافيزيقيـا المبنية على أساس علمي. ولنشر هنا على الأخص إلى الفـرد فوييـه (١٨٣٨ ـ ١٩١٢م.) الـذي قدم نظـرية في «الأفكار الفاعلة»، وإلى أنـدريه لالاند (ولد ١٨٦٧م.)[٨٦] الذي انتقـد التفاؤل التطوري وقـدم قانـون التحلل [٨٧]، وكـذلك المادي المتطرف فيلكس لـودانتك (١٨٦٩ ـ ١٩١٧م) الـذي ألف عـددا من الكتب يعـارض فيهـا المذهـب الـروحي والمذهب الحيوي والمذهب الفردي في نظرية الوجود.

وفي ألمانيا تمثل التيـار التجريبي في الوضعيين على الخصوص، وأشهـرهـم تيودور

(٨٦) يُقصـد «بالأفكـار الفاعلـة» (idees - force)، عنـد الأول، الجانب الدينـاميكي والـدافع في الأفكار، وهو يرى أن لكل فكرة جانبين: ففيها شيء من «التمييز»، لأن أي فكرة هي تمييز بشيء عن شيء، كما أن فيهـا شيئا من «التفضيل»، وهـو يـرجع التمييز إلى التفضيل، والتفضيل هـو أصل للعمل، ضمنا دعـوة إلى العمل واتجاه إليه، أمـا لالاند فانـه يهم تاريخ الجامعـة المصرية حيث حضر للمحاضرة فيها في العشرينات.

(٨٧) Loi de La Dissolution، وقد كتب لالانـد كتابا بعنوان: «التحلل في معـارضة التطور»، وكلمة «تحلل» أو «انحـلال» تؤخذ عادة بـالمعنى السيء، ولكنه يعطيها مضمونـا إيجابيا، حيث يرى أن التقدم الأخـلاقي لا يتم الا بأن يأخذ الأفراد التنظيمات الاجتماعية الجامـدة ويتمثلوها، ثم يشكلـونها تشكيلا مرنا، أو أن «يحللـوها»، حتى تصير في أيـديهم أدوات ووسائل متمايـزة. فالتقدم إذن شرطـه انحلال القائم على التدريج، ليتحول من بعد حين إلى نظم أخـرى متناسبة مع مقتضيات الحياة.

زيهن (١٨٦٢ ـ ١٩٥٠) ولا يـزال أرنست ماخ (تـوفى عام ١٩١٦)، يمارس تأثيرا في الفكـر الألماني حتى هـذه الفترة، كما يعـرض عـدد من تـلامذتـه مـذهبـه في النقـد التجريبي. ونشير إلى مفكـر على صلة بهم، وإن كان مستقلا كل الاستقـلال، وهو استفالد (١٨٥٢ ـ ١٩٣٢م.) وهو كيميائي في الأصل، ثم تحول إلى الفلسفة، وقدم نظريـة في الفعل أو النشاط(٨٨). تقول بأن الحقيقة الوجوديـة بأسرها ما هي إلا نوع من الطاقة.

وتظهر تيـارات ماديـة بشكل قوي للغايـة في ميدان علم النفس، وفي مقـدمتها نظرية «السلوكية» التي أسسها العالم الأمريكي واطسون (ولد ١٨٧٨م)(٨٩). وهي نظـريـة في المنهج العلمي في جـوهـرهـا، وتعرض منهجـا يعتمـد على إهمال دراسـة الجوانب النفسانية على اعتبار أنها أمر داخلي في النفس، وإهمال الملاحظة الشخصية الداخليـة، ويدعـو إلى دراسة السلـوك الخارجي وحده، واعتبـاره هو مـوضوع علم النفس. وأحـد نتـائج هذا الموقـف إنكار وجـود النفس. وقـد انتهى إلى نفس هـذه النتـائج العالم الـروسي إيفان بـافلوف (١٨٤٩ ـ ١٩٣٩م.)، الذي رأي أنـه يتعين تفسير الوظائف النفسية العليا بأنها ردود أفعال محدودة أو مكبوحة.

ولكن أهم حركـة في علم النفس نشأت من المذهب التجريبي هي من غير شك حركة سجموند فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩م.) المسماة بالتحليل النفسي.

ذلك أن فـرويـد يعتمـد على المبـدأ الجوهــري في المذهب التطـوري الميكـانيكي (والقـائل بأن الأعلى يفسره الأدنى)، ليعلن أن حيـاة الوعي مـا هي الا محصلـة لعب ميكـانيكي لعناصر «مـاتحت الوعي»، وأن هـذه العناصر، التي تحتفظ بـديناميكيـة خاصـة بها، تتداخل معـا في «عُقَد»، وتميل إلى العودة إلى الظهـور في الوعي لتـوجه السلوك. وأما القوة المميزة للحياة النفسية والفاعلة فيها فانها «اللبيدو»، وهو نوع من

(٨٨) Actualism. والنشاطية، أو مذهب الفاعلية «في صورتـه المثالية يعتبر النشاط الروحي جوهر الحقيقة» («المعجم الفلسفي»، لمجمع اللغة العربيـة، ص ٢٠١). ولكن هناك للمذهب صوراً أخرى غير هذه المثالية، ومنها الصورة المادية التي يشير إليها المتن.

(٨٩) توفى عام ١٩٥٨م.

القـوة الجنسيـة بأعم المعـاني[٩٠]. وقد عـرض فرويد مبـادئه هذه في كتـابه «تفسير الأحلام»[٩١] (١٩٠٠)، ثم أخذ منذ كتابه «التوتم والمحرم» (١٩١٣م.) في تقديم نماذج تفسيرية للدين والفن وغير ذلك. وهو يرى فيها جميعا أن كل الظواهر النفسية العليا ما هي إلا «إعلاء» للدوافع الشبقية (الجنسية).

ويماثل هذا ما فعلتـه المدرسة الاجتماعية الفرنسية، عند مـؤسسها أميل دوركايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧م.) ومن بعده ليفي ـ بريل (١٨٥٧ ـ ١٩٣٩م.)، حين انطلقت من علم محدد لتقيم تعميمات اعتمادا عليه. وهـذه المدرسة تتصور المجتمع بـاعتباره حقيقة موضوعية توجد في داخل الفرد. هـذه الحقيقة الموضوعية يمكن الوصول إليها بطـريق منهج موضـوعي ومقارن، عن طـريق دراسة العلل وحـدها، وإسقـاط كل غائية تماما.

وقد انتهى تطبيق هذا المنهج بكل من دوركايم وليفي بريل إلى القول بأن القوانين الأخلاقية والمنطقية هي نسبية كل النسبية، وأنها ما هي إلا تعبير عن حاجات مجتمع ينمـو، وأن الدين مـاهو الا عبـادة ذلك المجتمع. وقمة النظـام الذي قـدمته هـذه المدرسـة هو نـوع من السيكـولـوجيا التأمليـة، الـذي يرى أن مـا هـو ديني ومنطقي وأخلاقي يعود في منطلقه إلى ميدان دنيا المجتمع، بينما ما هو غير ديني وغير منطقي وأناني يعود إلى مجال الإنسان الفرد. وعلى هذا فان الجسم يصبح مبدأ للتفريد[٩٢]

وقد وجدت هذه النظم، وخاصـة التحليل النفسي والنظرة الاجتماعية للظواهر، شيوعاً عظيماً عند الجماهير، ولكنها جميعاً ما هـي إلا آخر شعاع نور يطلقه فكر القرن التـاسع عشر الميلادي . ومع ذلك فإن هنـاك سمـة تميز كل هـذه النظم عن الاتجاه التجريبي على الطريقـة القديمة: تلك هي أخذهـا بالموقف النسبي، فكل المفكرين الـذين أوردنـا أسماءهـم، لـو دانتك، وبـافلـوف، وزيهن، وأستفالـد، وفـرويـد،

(٩٠) Libido.

(٩١) وهو مترجم إلى العربية ترجمة وثيقة بقلم الدكتور مصطفى صفوان.

(٩٢) أي لما يميز فرداً عن سواه.

ودوركايم، يقـولون بالنسبية، ويرفضـون وجود قوانين مطلقة أو منطق مـوضوعي أو أخلاق ثابتة. ومن هذه الزاوية فأن التجريبية تقترب من الاتجاه اللاعقلي ذاته، الذي أخذ في الانتشار بين صفوف الفلاسفة في نفس هذه الفترة.

ولكن يبقى لنا أن نضيف أنه، من الناحية الفلسفية على الدقة، فان أيا من هذه المذاهب لا ينتهي، من حيث مضمـونـه، إلى نتـائج خطيرة. فكلهـا حسيـة تمامـا وإسميـــة[٩٣]، وتعجز عن تخطي حـاجز الفكر المباشر. وهي ملـونة تلوينا قـويا بالماديـة الميكانيكيـة. وإن هذه المذاهـب لأعجوبـة: فبينما هذه الاتجاهـات (المادية والميكانيكيـة) تهوى إلى الأرض في الفيزيـاء وفي البيولوجيـا، فإنها ها هي تعـود لتجد مرتعا لها في علم النفس وفي علم الاجتماع.

ثالثا: المثالية

تمتعت المثـاليـة بأعظم تأثير في البـلاد الأوروبيـة الكبرى خلال الأعـوام الخمسـة والعشرين الأولى من القـرن العشرين، ولكنهـا فقدت هـذا التأثير تمامـا حوالي عـام ١٩٢٥م، وهو ما يصح على الخصـوص في إنجلترا، أما في ألمانيا وفرنسـا وإيطاليا، فإن المثالية بقيت قوة فلسفية حتى قيام الحرب العالميـة الثانية. وهذا هو سبب تناولنا لها فيما بعـد بشكل مفصل إلى حد مـا. أمـا المثاليـة الإنجليـزية فإنها لا تعـد ضمن حـركات الفلسفـات الحالية، ولهذا فـاننـا نحدد هنـا خصـائصها الـرئيسية تحديـدا سريعا.

تعتبر المثالية الإنجليزية نوعا من الهيجليـة الفريدة. وممثلوها هم برادلي (١٨٤٦ ـ ١٩٢٤م)، بـوزانكيت (١٨٤٨ ـ ١٩٢٣.)، وماكتجـارت (١٨٦٦ ـ ١٩٢٥م.) والأولان يأخـذان بـالموقف الـواحـدي، وربما كان بـرادلي هـو أعمقهما، وهـو يقيم فلسفته على أساس من فكرة العلاقات الداخلية[٩٤]

فهـو يرى أن العـلاقـات لا تضاف إلى جـوهـر الأشيـاء القائمـة، بل أنها، أي

---

(٩٣) راجع فيما سبق هامش ٢٥.

(٩٤) أو «الباطنية»، أو «الذاتية».

العلاقات، هي هذا الجوهر ذاته. ويؤدي هذا المذهب، من ناحية أولى، إلى القول بالمذهب الواحدي، أي القول بأن الحقيقة هي كل واحد منظم، ويؤدي من ناحية ثانية، حين يطبق على المعرفة، إلى القول بالمثالية الموضوعية، أي بأنه ليس هناك من اختلاف جوهري بين الموضوع المعروف والذات العارفة، لأن الاثنين ماهما إلا صورة يظهر عليها «الكل»، أي الفكرة الوحيدة المطلقة (التي هي الحقيقة الكلية)(٩٥).

ويؤيد برادلي موقفه بتدقيقات لطيفة (٩٦) حول التناقضات الداخلية التي يلزم الأعتراف بها إذا أخذنا الحقائق التجريبية كلا بذاتها. وهذه التناقضات تبرهن في رأيه على أن الواقع التجريبي ماهو الا مظهر تختفي وراءه الحقيقة الحقة، أي المطلق. ومع ذلك، فرغم كون برادلي يدافع عن مثالية واحدية. فانه أبعد ما يكون عن اختزال الواقع إلى مجرد تكوينات مجردة. فهو مثل هيجل، يستمر في تأكيد أهمية «المتعين» والمتجسد (ضد «المجرد»)، وتصوره عن «الكل» ليس مجرد تجريد، بل هو «كل متجسد»، وهو أغنى في محتواه من الجزئيات.

كانت هذه بعض جوانب جوهرية من فكر برادلي، وهو فكر خصب ومعقد، وبه نال تأثيرا استمر إلى ما بعد عصره على مفكرين بارزين. ومن أمثلة هذا التأثير أن وليم جيمس الأمريكي وجابريل مارسل الفرنسي، مثلا، وقعا تحت تأثيره المباشر، بينما يهاجم الواقعيون الإنجليز الجدد أفكاره الأساسية هجوما صريحاً(٩٧).

أما بوزانكيت، فانه يطور المثالية الهيجلية في نفس هذا الاتجاه، مع تأكيد أكثر وضوحا على الطابع التجسيدي للحقيقة. ويختلف الفيلسوف الثالث، ماكتاجارت، بأنه يأخذ بالمذهب التعددي: فالمطلق في نظره هو مجموعة من المبادىء

(٩٥) أو «المطلق»، الذي هو الحقيقة الكلية. وهذه هي الفكرة الرئيسية في فلسفة هيجل كما نعرف.

(٩٦) «اللطيف» هنا بمعنى الدقيق جدا مما لا يسهل إدراكه إلا لأصحاب الأذهان القوية، أو باستخدام الانتباه المدقق.

(٩٧) وهو ما يدل على نوع من التأثير، لأن التأثير لا يأخذ صورة القبول وحسب، بل ويدل عليه أيضا وبنفس القوة الرفض الشديد.

الروحية التي تتداخل في علاقات متبادلة. وفلسفته في جوهرها روحية وشخصانية. وبهذا [٩٨]، فانه يقيم قنطرة ما بين المذهب المثالي الذي كان سائدا في القرن التاسع عشر وبين الفلسفة الجديدة.

رابعا : التيارات الجديدة

لن نقوم هنا إلا بإلقاء نظرة سريعة على الحركات الفلسفية الجديدة في المدة التي نتناولها، وذلك لأنها جميعا تستمر في النمو بعد ١٩٤٥م. وسوف نعالجها بالتفصيل لأنها تدخل في إطار موضوع هذا الكتاب. وهذه الحركات ثلاث عددا: الفينومينولوجية والواقعية الجديدة والحيوية اللا عقلية.

وكانت الفينومينولوجيا قد أصبحت بالفعل في الفترة ما بين ١٩٠٠م، ١٩٢٥م حركة قوية. فمنذ عام ١٩١٣م، ظهرت «المجلة السنوية للفلسفة الفينومينولوجية وبحوثها»، والتي عاون هسرل في إصدارها عقول كبيرة من أمثال بفاندر، هلدبرانت، جايجر، إنجاردن، وعلى الأخص ماكس شلر، وكلهم من الألمان. وفي عامي ١٩١٣ ــ ١٩١٦م. يصدر شلر الجزءين الأول والثاني من كتابه الأساسي: «الاتجاه الصوري في علم الأخلاق وعلم الأخلاق المادي للقيم».

وقد كان تأثير الفينومينولوجيا على العقول كبيرا إلى أعظم درجة، إلى حد أنها أثرت على التيار الكانتي الجديد، أو على الأقل على أميل لاسك (١٨٧٥ ــ ١٩١٥م.)، وعلى علم النفس من ناحية أخرى، ويمثلها في هذا الميدان مؤلف ذو مكانة هو كارل شتومف (١٨٤٨ ــ ١٩٣٦م؛. وحيث أن الفينومينولوجيا أصبحت مدرسة كبيرة، فإنها أخذت تنازع سيادة الميدان الفلسفي مع المدرسة الكانتية الجديدة في ألمانيا، وإن تكن هذه المدرسة الأخيرة ستظل أقوى المدارس الألمانية حتى عام ١٩١٤م.

وإذا كانت الواقعية الجديدة، وبفضل كتابات كل من مور ورسل بصفة خاصة، شديدة النشاط، إلا أنها لا تصل إلى تكوين مدرسة ذات انتشار. وفي فترتنا

(٩٨) أي باعتبار اتجاهه الشخصاني الذي يهتم بالشخص الإنساني.

هذه (أي حتى ١٩٢٥م) لم يكن وايتهد قد دخل بعدُ في مرحلته الميتافيزيقية [٩٩]، وينشر الكساندر الفيلسوف الإنجليزي كتابه الكبير «المكان والزمان والألوهية» عام ١٩٢٠م. أي في نهاية هذه الفترة. وفي الجامعات الإنجليزية تسود المثالية، أكثر مما تسود في الجامعات الألمانية.

ولكن الاتجاه التوماوي، أي الفلسفة المعتمدة على القديس توما الأكويني، وهو التيار الواقعي الرئيسي في فرنسا، يبدأ في نشر مؤلفات ذات قيمة كبيرة. ففي عام ١٩٠٩ ينشر جاريجو لاجرانج كتابه «الحس المشترك»، وفي عام ١٩١٥ ينشر «الإله». أخيرا يظهر جاك ماريتان في عام ١٩١٣م. مع نشر أول كتبه الهامة الذي يهاجم فيه برجسون. وهكذا تصبح المدرسة التوماوية قائمة بالفعل، ورغم نضوجها في ذاتها الا أنه لم تكن لها في تلك الفترة الأهمية التي سوف تتمتع بها من بعد في منتصف القرن العشرين، وذلك لأن التيارات القديمة لاتزال هي السائدة، وذلك في فرنسا كما في ألمانيا وإنجلترا.

مدرسة واحدة من المدارس الجديدة هي التي تصل إلى أن تفرض نفسها وأن تثير الاهتمام، ليس عند الدوائر الفلسفية وحسب، بل وعند جمهور واسع ذي ميول أدبية، تلك هي المدرسة اللاعقلية الحيوية.

وهي لا تظهر بوضوح في ألمانيا في فترتنا هذه بعد، حيث دلتاى يبدأ في الظهور بالكاد، وحيث يبدأ كلاجس في نشر مؤلفاته الفلسفية. أما في البلاد الانجلوساكسونية، أي في إنجلترا وأمريكا، فان وليم جيمس، يعضده بشكل لامع شللر الإنجليزي[١٠٠]، يحرز نجاحا منقطع النظير. ويعود كتاب شللر الرئيسي، «المذهب الإنساني»، إلى عام ١٩٠٣، وهو ينشر كتابا بعد الآخر في فترتنا هذه.

وفي فرنسا فان نجم برجسون يرتفع، ويظهر مؤلفه الرئيسي، «التطور الخلاق»، في عام ١٩٠٧، ويصير المدار الحقيقي لكل نقاش فلسفي. ويصبح برجسون رئيسا

(٩٩) راجع الباب السابع، الفصل الثالث والعشرين.
(١٠٠) Schiller، وهو غير شلر الفيلسوف الألماني (راجع الفصل الخامس عشر)

لمدرسة فلسفيــة ، وتحيط به عقول كبيرة تنــاصره إلى مدى قد يـزيد أو يقل ، ومن بينهم من المحـدثين : لـوروا ، بُلنـــدل ، بـرادينس وبـاروتزي . وقـد ذاع اســـم برجســون ذيوعاً واسعا ، ومع ذلك فلـم تستطع الفلسفة البرجسونية القضاء نهائيا ، في فترتنا هذه (١٠١) على المذاهب القديمة التي تبقى فعالة ومؤثرة إلى جانبها .



(١٠١) أي في خلال الربع الأول من القرن العشرين الميلادي .

الفصل الرابع
التيارات الكبرى في الفلسفة الغربية
في القرن العشرين الميلادي

أولاً: المدارس

المدة التي نتحدث عنها الآن هي التي تمتد من الحرب العالمية الكبرى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) حتى حوالى ١٩٥٠م. وتشهد هذه الفترة بزوغ مدرستين جديدتين، الأولى هي مدرسة الوضعية الجديدة، التي تكمل المذهب الوضعي ولكن بطريقة جديدة وفريدة، والثانية، وهي الفلسفة الوجودية أو فلسفة الوجود، التي تقدم نفسها على أنها حركة جديدة تماما، وان كانت تعد امتدادا لفلسفة الحياة وتحتوي على عناصر فينومينولوجية وميتا فيزيقية.

أما المدارس الأخرى التي كانت موجودة من قبل، فان لها مفكريها الكبار الذين يطورون مبادئها بشكل عظيم. وهذا هو الحال على الأخص في مدرسة الميتافيزيقا، التي تزهو بأسماء الكساندر ووايتهد وهارتمان وعدد متزايد من التوماويين، وهو حال الفينومينولوجية أيضا، التي تعتمد على ماكس شلر الألماني، وحال فلسفة الحياة، التي تمثلها المرحلة الأخيرة من البرجسونية وكل الفكر الذي انتجه الألماني كلاجس.

ويمكن أن نميز بين أهم النظم الفلسفية في هذه الفترة ابتداء من وجهتين للنظر: إما حسب محتوى المذهب وإما حسب المنهج. أما من حيث المحتوى، فإنه يمكن تقسيمها إلى ست مجموعات:

أولا : فهناك المذهبان اللذان يمتدان ابتداء من مذاهب القرن التاسع عشر، أي المذهب التجريبي أو فلسفة المادة، وهو خليفة المذهب الوضعي، والمثالية في صورتيها الهيجلية والكانتية.

ـ ثم يأتي بعد ذلك مذهبان قطعا كل حبال الاتصال مع القرن التاسع عشر الميلادي، وهما فلسفة الحياة وفلسفة الماهيات أو الفينومينولوجيا.

ـ وأخيرا تأتي مجموعتان تعبران عن المحاولات الاصيلة والمعبرة حقا عن القرن العشرين الميلادي في الحضارة الغربية، وهما مجموعة الفلسفة الوجودية ومجموعة ميتافيزيقا الوجود الجديدة.

ولا شك أن هذا التصنيف لا يخلو من تعسف وتصنع. فلا ينبغي أن ننسى الفروق الكبيرة التي تفصل بين فلسفات وضعناها تحت عنوان واحد. وهكذا، مثلا، فاننا قد اضطررنا إلى وضع مذاهب برتراند رسل تحت بطاقة «فلسفة المادة» جنبا إلى جنب مع الوضعيين الجدد ومع الماركسيين، وهذه كلها مذاهب تختلف عن بعضها البعض اختلافا عظيما. كذلك اضطررنا إلى وضع مفكرين مختلفين مثل جون ديوي الأمريكي وكلاجس الألماني في فصل «فلسفة الحياة».

أخيرا، فينبغي أن ننتبه إلى وجود مفكرين منفردين ومعهم مدارسهم، وهم يشكلون نقاط عبور بين مجموعة وأخرى. ومثال ذلك مدرسة جامعة بادي الألمانية التي تحتفظ بصلات مع المذهب التاريخي الناتج عن فلسفة الحياة، ومع الفينومينولوجيا عند ماكس شلر، الذي كان قد بدأ إلى الإشارة إلى الفلسفة الوجودية من قبل ظهورها بهذا الاسم.

ومع ذلك فان التصنيف ضرورة مطلقة في تاريخ الفكر الفلسفي، وذلك من أجل تقديم صورة كلية ونظرة شاملة، ولكنه لا يقصد لا إلى إخفاء الاختلافات العميقة في داخل كل مجموعة ولا إلى حجب علامات الانتقال أو مناطق العبور من مجموعة إلى أخرى. ومن هذه الوجهة للنظر، فان تقسيمنا السداسي له تبريره، لأنه يدل على المذاهب الستة الواضحة في الفكر الغربي في القرن العشرين :

التجـريبية والمثـالية وفلسفـة الحياة والفينـومينولـوجيا والفلسفـة الوجـودية والمدرسـة الميتافيزيقية .

فإذا أتينا الآن إلى تصنيـف المذاهب بحسب المنهج ، فان هـذا التصنيف لا يبدو حاسما بـذاته في التمييـز بينها ، ومع ذلك فإن هذا التصنيـف بحسب المنهج يفرض نفسه بقوة ، كما يشهد على ذلك المؤتمر الدولي العاشر للفلسفة في عام ١٩٤٨م . فقد أظهر هذا المؤتمر أن تطبيق مناهج مختلفة ، وهي ترد إلى التحليل الرياضي المنطقي من جهة ، وإلى العمليـات الفينومينـولوجيـة من جهة أخـرى ، يؤدي إلى انقسـامات في داخل نفس المدرسة .

ورغم أن هنـاك فلاسفـة لا يعلنـون استعمالهم لهذا المنهج أو ذاك ، أو يرغبـون في استخدام المنهجين معا ، الا أن العقول منقسمة بالفعل بين هذين المنهجين .

وفيما يخص المنهج الفينـومينــولـوجي ، فـانـه يستخـدمـــه أصحـاب الفلسفـة الفينـومينولـوجيـة أنفسهم بـالطبع ، كما يستخدمـه كل الفـلاسفـة الوجـوديين على التقريب بعـد مدّه إلى ميـادين جديـدة ، حتى أخذ يتحـول ويتبدل شيئـا فشيئا على أيديهم ، كما يستخدمه عدد من الفلاسفة الميتافيزيقيين .

ولكن عـددا آخـر من الميتافيـزيقيين انضمـوا إلى المدافعين عن استخـدام المنهج المنطقي الرياضي ، وهذه هي حالة وايتهـد على الأخص . ومن أهم الظواهر أننا نرى كيف استطاع استخـدام المنهج المنطقي الريـاضي إيجاد نوع من التفـاهم المتبادل بين ممثلين لمدارس مختلفـة بل ومتعـــارضـة ، من مثل فـلاسفـــة أفـلاطـونيين وأرسطيين واسميين ، بل وكـذلك كانتيين جـدد وبعض البراجماتيين ، وفي نفس الـوقت ، ومن الناحية المقابلة ، فان مدى الفرقة والانشقاق بين المدافعين عن هذا المنهج والمدافعين عن المنهج الفينومينولـوجي يبدو ، غالبا ، واسعا إلى حد أنه ينفـي أي إمكان للاتفاق فيما بينهما .

ثانيا : المؤثرات :

سبق لنا (في الفصـول الثلاثـة الأولى من هذا البـاب) أن درسنا أصـول الفلسفة

الغربيـة في القرن العشرين الميلادي. فـلا يبقى لنا إلا إضـافة بعض السمات قبل أن ندخل في الدراسة التفصيلية.

وينبغي، في المحل الأول، أن نشير إلى أن الظروف التاريخية التي أدت إلى انقطاع الصلـة بين الفكـر الجديد والفكـر الـذي كـان سـائدا في القرن التـاسع عشر، هـذه الظروف لا تزال عاملـة في ذات الاتجاه في الفترة التي نتناولها في هذه الصفحات، أي من ١٩٢٥ إلى ١٩٥٠م. وهكذا، فـان علم الطبيعية يستمر في النمـو في هذه الفترة في طريق الابتعاد المستمر عن قاعدته الميكانيكية (الآلية) القديمة.

أمـا وهم التقدم عن طـريق التكنـولوجيـا، الـذي لا يزال مـزدهـرا عند الـروس والأمـريكـان في منتصف القـرن العشرين، فإنـه نـال ضربات فشل جـديـدة عنـد الأوربيين، حتى ليبـدو أن ليس الفلاسفـة وحدهم الـذين شفـوا منه، بل وكـذلك الجماهير[١٠٢]، وما تم هذا إلا لقاء أعظم التضحيات خاصة وأن الآلام التي خلفتها بعض الأحـداث من مثل الحرب العـالمية الثـانيـة، أجبرت المفكرين على الانتبـاه إلى ضرورة معالجة مشكلات الشخص الإنساني معالجة فورية[١٠٣]، وإلى تناول مسائل من مثل مصير الإنسان والألم والموت والعلاقات الإنسانية.

ويبـدو أن هنـاك في الأفق تجديـدا للـوعي الـديني ويقظـة لـه ينمـوان بسرعـة عظيمـــة[١٠٤]. وأخيرا فان مما يميز هذه الفترة أيضا أنه يشيع بين العقول نوع من الـلايقين العام ومن القلق الغـامر، بحيـث أن الأوربيين يحسون ويعـانون من حـدة الموقف، ويتجهون أكثـر من أي وقت مضى إلى الفلسفة، من أجل أن يحصلـوا منها على إجابات شافية للأسئلة التي تنغص عليهم حياتهم المضطربة.

وكل هذا يفسـر لم استطاعت الفلسفة الوجودية أن تنال هـذا الانتشار العظيم،

---

(١٠٢) هذا بـالطبع رأي شخصي للمؤلف بل ومجرد، انطباع ووقائع الأيـام تكذب توقعه، وكـان قد راجع كتابه هذا عام ١٩٥١م.

(١٠٣) في مقابل الاهتمام بالآلة والتكنولوجيا.

(١٠٤) في هذا صدق المؤلف، وسوف تشهد الكنيسة الكاثوليكية نوعا من الثورة المذهبية والتغييرات العميقة في الستينات على الأخص، ومابعدها.

ولم استطاعت المدرسة الميتافيزيقية أن تكتسب قوة عظيمة. وهو يفسر أيضا المستوى المرتفع للحياة الفلسفية في الحضارة الغربية في منتصف القرن العشرين.

وقد أثرت على هذه الفلسفة تيارات أتت من عصور بعيدة. وفي هذا الشأن نجد برتراند رسل، وهو ممن نضعهم بين فلاسفة المادة، يقول في عام ١٩٤٦م(١٠٥) إن تأثير القديس توما الأكويني(١٠٦) أكبر في تلك الفترة على العقول الفلسفية من تأثير كانت أو هيجل، وهو ما يبدو صحيحا بالقياس إلى سائر فلاسفة هذا العصر.

وفي كل مرة تتقدم الفلسفة، فانها تتقدم على هيئة حلزونية. وهكذا فإنها اليوم، في منتصف القرن العشرين الميلادي، تبدو، على الأقل فيما يخص المشكلات الكبرى، أقرب إلى فكر اليونان وفلاسفة العصر المدرسي الوسيط منها إلى فكر مائة عام مضت في الحضارة الأوربية(١٠٧). وهكذا فان أفلاطون يعود إلى الحياة مع وايتهد، وأرسطو مع دريش وهارتمان والتوماويين، وأفلوطين مع بعض الفلاسفة الوجوديين، والقديس توما الأكويني مع المدرسة الجديدة التي تحمل اسمه، والفلسفة المدرسية المتأخرة(١٠٨) مع الفينومينولوجيا والوضعية الجديدة، وليبنتز مع رسل.

ولكن إذا ما سأل سائل عمن يمارس أنشط تأثير على الفلسفة الغربية في القرن العشرين، فان الرد يأتي من غير تردد باسمين ينتميان إلى نفس هذه الفترة: برجسون وهسرل، كما سبق لنا أن قلنا. صحيح أنهما ليسا وحدهما المؤثران، ولكن في مختلف الميادين ودائما، نجد فلسفة الحياة والفينومينولوجيا تقومان بدور حاسم، حتى ولو لم تأخذ بآرائهما مدارس قوية.

وبإيجاز، فان التطور الذي كان قد بدأ في الظهور، أمام الأعين المنتبهة، منذ عام ١٩٠٠م، وصل اليوم، في منتصف القرن العشرين الميلادي في الفكر الغربي،

(١٠٥) في كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» المترجم إلى العربية.

(١٠٦) وهو من القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤)

(١٠٧) أي عام ١٨٥٠م. وهو عصر انتصار النزعة العلمية والمذهب المادي والتوجه الميكانيكي.

(١٠٨) أي في القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين.

إلى التحقيق الكامل: أي اندحار فلسفة القرن التاسع عشر أمام نظرة جديدة للعالم، وهي نظرة تولد مع بداية القرن العشرين الميلادي، وبغير أن تكون عودة إلى الوراء، فانها نظرة كثيرا ما تقترب من فكر الماضي الغربي.

ثالثا: الأهمية النسبية للمذاهب:

يمكن النظر في مدى الأهمية النسبية للمذاهب من زاويتين للنظر مختلفتين تماما، حيث أن المذاهب التي كان لها دوي واشتهار بين الجمهور ليس لها، بصفة عامة، نفس الدوي بين صفوف الفلاسفة. ويبدو أن هناك قانونين أساسيين يحكمان آراء الجماهير بازاء الفلسفة.

القانون الأول يقول إن استجابة الجمهور تكون دائما متأخرة جدا على ظهور المذهب الفلسفي، وهكذا فإن فلسفة تكون قد ازدهرت لمدة خمسين أو مائة عام مضت، تكون فرصتها الآن أعظم ما تكون لأن تصير فلسفة شعبية، وبصرف النظر عن الاعتبار والتقدير اللذين يوليه الفلاسفة لها.

القانون الثاني يقول إن الجمهور يقاوم مقاومة أقل بكثير من مقاومة الفلاسفة أمام هذا الإغراء المزدوج: إغراء بساطة المذاهب وإغراء نشرها وانزالها إلى متناول الناس. فتكون فرص الفلسفة لأن تنتشر أعظم بمقدار كونها أكثر بدائية من غيرها وبقدر قوة جهاز الدعاية الذي يقوم على نشرها، هذا على حين أن الفلاسفة، وهم من هم، لا يهتمون بصفة عامة بهذه الاعتبارات، اعتبارات الشهرة والدعاية.

وفي هذا الكتاب الموجز، فان الفلسفة، وبمعناها الدقيق، هي وحدها التي تهمنا، وليس ما يعتبره الجمهور كذلك. ومع هذا، فإنه لايخلو من فائدة أن نتساءل: ماهي أكثر الفلاسفات شعبية في منتصف القرن العشرين الميلادي في الغرب؟

إنها أولا «فلسفة المادة»، وهي فلسفة بسيطة، ويسهل بالتالي على غير الفلاسفة الولوج إلى أفكارها. يضاف إلى هذا أنها في صورتها الماركسية، لأن لها صورا أخرى، قد استفادت من قوة الأحزاب الشيوعية في مختلف الدول ومن نفوذ عدد عديد من العلماء والمفكرين، الذين يسهل وقوعهم تحت سحر المذاهب المبسطة، بسبب قلة

درايتهم بالابحاث الفلسفية على الوجه الصحيح، حيث أنهم في الفلسفة هواة.

وإلى جانب «فلسفة المادة»، تتمتع الفلسفة الوجودية بشعبية كبيرة، وخاصة في بلاد أوربا اللاتينية (١٠٩). وقد يبدو هذا غريبا لأول وهلة، لأن فلسفة الوجود مذهب عصري تماما، كما أنها من أعظم الفلسفات صعوبة في الدخول إلى أفكارها. ولكن نجاحها يعود إلى الصورة المبسطة التي اكتستها والتي جعلتها قريبة إلى عقول الجماهير حين قدمت إليها عليها، وذلك من خلال الرواية والقصة والمسرح وأنواع شتى من الأدب المنتشر بين العامة (١١٠)، وهذه كلها وسائل ذيوع لم يستخدمها من بين الفلاسفة غير الوجوديين.

ومن جهة أخرى فإن الجانب الذي يصل إليه، بصفة عامة، غير الفلاسفة، من الفلسفة الوجودية، انما هو الجانب اللا عقلي والذاتي منها، هذا على حين أن الذاتية هي اتجاه من اتجاهات العصور السابقة في الفكر الغربي، وأن اللاعقلية كانت قد ذاعت في القرن التاسع عشر الميلادي على يد فلاسفة تحدثنا عنهم، وخاصة أصحاب فلسفة الحياة التي كانت هي «موضة» العصر في أواخر القرن التاسع عشر.

ويمكن أن نقارن نجاح الفلسفة الوجودية في منتصف القرن العشرين الميلادي بنجاح الفلسفة الرواقية عند اليونان والرومان في القرون الأولى للميلاد (١١١): فقد كانت الفلسفة الرواقية هي الأخرى فلسفة متخصصة واضحة التخصص، ولكنها نجحت في الحصول على اهتمام الكافة باستخدام عدد من الأفكار الأخلاقية المبسطة، والتي كانت تطورات الأحداث في الحضارة اليونانية والرومانية قد مهدت الميدان لتقبلها.

أما المذاهب الأخرى، غير «فلسفة المادة» والفلسفة الوجودية، فانها بالمقارنة لم تنل إلا أشياعا محدودي العدد، وبينها تقف المدرسة الميتافيزيقية في أفضل مكان،

(١٠٩) مثل فرنسا وأسبانيا وإيطاليا. المقصود البلاد التي تعود لغاتها إلى اللغة اللاتينية.

(١١٠) وهو مايفعله سارتر ومارسل في فرنسا.

(١١١) أي في العصر الروماني حيث انتشرت الرواقية بين كافة الطبقات.

وخـاصة في صـورتها التومـاوية ، حيث أن المذهـب التـوماوي يسنـده تراث عـريق ، وتحميه الكنيسة الكـاثوليكية . أما فلسفة الحيـاة والفينومينولوجيـا فإنهما معروفتان بين الجمهـور بـدرجة أقل وخـاصـة الأخيرة منهما. ويبـدو أن المثـاليـة قد نـالت فشـلا ذريعا .

كان هـذا إذا تناولنا الأهميـة النسبية للمذاهـب ابتداء من انتشارهـا بين الجمهور العريض . فـاذا أتينا الآن إلى مدى قبـولها بين المفكرين أنفسهم ، فإن الصـورة سوف تتغير كثيرا . ونجد أن المثـالية تنحسر هنا أيضـا إلى الصف الأخير من غير شك ، أما فلسفة الحياة والفينومينولوجيا فإنهما تحتلان مكانة عريضة ، وإن كان ذلك بطريق غير مباشر وحسب ، وذلك من حيث إشعـاعهما على مدارس أخرى . وعلى ضد مـا رأينا في الجدول السـابق ، فإن مـدرسة الميتـافيـزيقيـا هي التي تحتل المركـز الأول ، ثم تأتي بعدها الفلسفة الوجودية ، وهما المدرستان اللتان تنتميان على الدقة إلى القرن العشـرين الميلادي .

أخيرا فإن «فلسفـة المادة» تظهـر في وضع خـاص : فإذا أخـذنـاهـا على هيئتهـا المحددة ، كما تركها مثلا هربرت اسبنسر ، أو عند المادية الجدلية ، فإنها غير قائمة على الإطلاق ، أو تكـاد ، في الجامعات الغـربية (١١٢) . ولكن مؤلفـات برتـراند رسل والوضعيين الجدد ، مقـرونة برد الفعل الـذي أحدثته أزمـة العلم عند بعض العلماء ، أدت إلى عودة تيارها بصورة مؤقتة .

وقد كان يبدو ، خلال الأعوام ١٩٣٠ ـ ١٩٣٩م . وكأن الوضعية الجديدة (١١٣) تستطيع أن تدعى كونها إحدى المدارس الفلسفية الكبرى ، ولكن ، عشر سنوات بعد ذلك ، يظهر أنها لم تحتفظ بمكانها ، ومكانها القوي ، إلا في إنجلترا وحدها (١١٤) ، بينما تغلبت عليها المدارس الأخـرى على أرض القارة (١١٥) . وحتى إذا نظـرنا إلى

---

(١١٢) يقصد في غرب أوربا بالطبع .

(١١٣) وهي المشهورة باسم الوضعية المنطقية .

(١١٤) أهم ممثليها في إنجلترا آير (Ayer) ، وقد توفي عام ١٩٨٩م .

(١١٥) أي في قارة أوربا لأن الإنجليز كانوا يميلون إلى عزل «جزيرتهم» عن القارة .

إنجلترا (و إلى أمريكا الشمالية) فانه يبدو أنها تفقد تأثيرها فيهما ببطء.

وإجمالا، فإننا يمكن أن نلخص فيما يلي الأهمية النسبية للمذاهب: تأتي في المحل الأول الميتافيزيقا والفلسفة الوجودية، ثم تليهما، وان يكن بشكل غير مباشر عن طريق التأثير على مدارس أخرى، فلسفة الحياة والفينومينولوجيا، وفي المحل الأخير، وبعيدا، تأتي «فلسفة المادة»، أما المثالية فانها تحتل أبعد الصفوف (١١٦).

رابعا : الخصائص العامة

لا حاجة إلى القول بأنه من غير الممكن أن نحدد الخصائص العامة لكل تيارات الفكر الغربي الحالي، وذلك على الخصوص لأن بعضها مايزال يعد امتدادا لخطوط فكرية تنتمي إلى القرن التاسع عشر، أو تنتمي بوجه أعم إلى الفلسفة الأوربية الحديثة (١٦٠٠ ـ ١٩٠٠م) هذا بينما تحاول تيارات أخرى بناء مذاهب جديدة تماما ومخالفة للتيارات السابقة.

ومع ذلك، فلا شك من وجود خصائص عامة، وهي أن لم تكن منطبقة على كل الفلاسفة، فإنها تصدق على الأقل على غالبيتهم. ويبدو أن وايتهد كان مصيبا عندما قال إن التفرع الثنائي الذي كان ممثلا للفكر الأوربي الحديث، أي الانقسام بين العالم والآلة من ناحية والذات المفكرة من ناحية أخرى، هذ الانقسام قد تعداه الفكر الجديد، بسبب الفشل الذريع الذي لاقاه كل من التيار الميكانيكي والتيار الذاتي على السواء، وكما رأينا(١١٧).

ويمكن أن نقول بصفة عامة إن هناك اتجاها يتأكد نحو تصور عضوي للحقيقة يقبل وجود التمايزات والاختلافات بين الموجودات، بحيث أصبح الفكر يعترف بأن

(١١٦) من الإحصاءات ذات المغزى أن لجنة «الاتحاد العالمي للجمعيات الفلسفية» (الذي أسس عام ١٩٤٨م) تتكون من ٣٠ عضوا منتخبا، وهم موزعون على النحو التالي (حوالى عام ١٩٥٠م): خمسة من التوماويين، أربعة ميتافيزيقيين من تيار مختلف، جدليان، وضعي واحد، مثالي واحد، مادي جدلي واحد من (تشيكوسلوفاكيا) ووجودي واحد. ويدافع ستة من هؤلاء الثلاثين عن منهج المنطق الرياضي. وبالطبع فإن تكوين هذه اللجنة لا يعبر بدقة عن الأهمية النسبية للمدارس، ولكنه قرينة لها مغزاها. (هامش من المؤلف).

(١١٧) راجع فيما سبق، الفصل الثاني.

الواقع ذو بنيـة تدرجية، ويعترف بوجـود «طبقات وجودية» في ذلك الـواقع. وهناك سمات أخـرى، وهي تكفي لتعـريف الفكـر الجديـد وإن لم تكن عـامـة تنطبق على الجميع. ولنشر إلى بعضها فيما يلي:

أ ـ معارضة الوضعية:

وهو موقف نراه عند سائر المفكرين، إن استثنينا فلاسفة المادة وبعض المثاليين. ويـزايد فـلاسفة الحيـاة والفينومينـولوجيـون والوجـوديون على الميتـافيزيقيين في هـذا الموقف، فبينما يعترض الفريق الأول على أن يكون للعلوم الطبيعيـة أية قيمة كمصدر للمعرفة الفلسفية، فإن الميتافيزيقيين يكتفون في نقدهم للعلم الطبيعي بأن يحددوا له مكانا لا يتجاوزه.

ب ـ التحليل:

يمارس الفلاسفة الغـربيون في القرن العشرين طرائق التحليل أكثر من أيـة طريقة أخـرى، وذلك في اختـلاف كـامل مع اتجاه القـرن التـاسع عشر الميـلادي، وهم يستخدمونه أحيانا بمناهج جديدة ودقيقة كل الدقة.

جـ ـ الواقعية:

بينما يقول بالموقف الـواقعي كل من الميتافيزيقيين ومعظم فلاسفة الحيـاة وفلاسفة المادة وقسم من الفـلاسفـة الـوجـوديين، فإن المثـاليين يصرون على الموقف المضـاد. والذين يقـولون بالـواقعية يقولـون بها في صورتها المباشرة، حيث ينسبـون إلى الانسان القدرة على إدراك الوجود مباشرة. وبصفة عامـة، فإن تمييز كانت بين الوجود في ذاته والظواهر أصبح تمييزا ترفضه كل الجبهات.

د ـ التعددية:

يغلب على الفلاسفة الحاليين القول بالتعدد، ويعارضون الاتجاه الواحدي، سواء في صـورته الماديـة أو في صـورته المثـاليـة، الذي كـان سـائدا في القرن التـاسع عشر الميلادي. ولكننـا نجد هنا أيضا بعـض الاستثناءات: فالانجليزي الكسـاندر، بين

الميتافيزيقيين، وكروتشه الإيطالي، بين المثاليين، يقولان بالمذهب الواحدي. ولكنهم قلة من يأخذون بالواحدية، وتأثيرهم يتناقص يوما بعد يوم.

هـ ـ الاتجاه النشاطي أو الفعلي[118]:

يقول كل الفلاسفة الحاليين في الغرب، أو يكاد، بالاتجاه الفعلي، فهم يوجهون انتباههم إلى الصيرورة، وهي صيرورة يتناولونها أكثر فأكثر باعتبارها حدوث الواقعة في التاريخ، أو تاريخية الواقعة، بحيث إن علم التاريخ أخذ يحل في أهميته محل علم البيولوجيا (علم الحياة)، وهو الذي كان المعيار الحاسم الذي استخدمته فلسفات الحياة في أوائل القرن العشرين.

ومن حيث إن الفلسفة الجديدة تقول بالفعل، فإنها تنفي وجود الجواهر[119]، مع استثناء التوماويين وبعض الواقعيين الجدد الإنجليز.

ويذهب عديدمن الفلاسفة الجدد إلى أبعد من هذا في قولهم بالاتجاه الفعلي، ويرفضون أي صورة نموذجية خالدة. وهو حال فلاسفة المادة وفلاسفة الحياة وكثير من المثاليين وكل الفلاسفة الوجوديين. ولكن هذا الاتجاه تحاربه سائر المدارس الأخرى محاربة شديدة، وخاصة المدرسة الكانتية الجديدة والمدرسة الفينومينولوجية والمدرسة الميتافيزيقية.

و ـ الاتجاه الشخصاني:

يتجه اهتمام معظم الفلاسفة الحاليين إلى الشخص الإنساني. وباستثناء فلاسفة المادة، فإن كل مفكري العصر الجديد يأخذون صراحة بموقف روحي إلى درجة أو أخرى، ويؤكدون على الأهمية الخاصة بكرامة الشخص الإنساني. ويعلن الفلاسفة الوجوديون عن هذا الاتجاه الشخصاني في صورة شديدة القوة، ولكن كثيرا من الفينومينولوجيا ومن الميتافيزيقيين يدافعون عنه دفاعا حارا. وربما كان هنا محل السمة المميزة حقا للفلسفة الغربية في القرن العشرين وبها تعارض كل ماضي الفلسفة

---

(١١٨) قارن فيما سبق (٨٨).

(١١٩) جمع جوهر Substance، والجوهر هو ما يقوم بذاته.

الأوربية: فهي فلسفة تتميز بقربها الشديد من الوجود الفعلي الواقعي للإنسان أكثر من كل الفلسفات التي سبقتها.

خامسا: خصائص خارجية:

إلى جانب هذه الخصائص الداخلية والمباطنة لذات المذاهب، توجد خصائص خارجية عدة تميز الفلسفة الغربية الحالية. فهذه الفلسفة شديدة التخصص، خصبة الإنتاج إلى درجة عظيمة، ومدارسها المختلفة على علاقات وثيقة فيما بينها، كما كان الحال في الأزمة القديمة.

أ ـ التخصص:

لا يوجد اليوم بين الفلاسفة من نستطيع أن نقارن ببساطة إنتاجه مع إنتاج أفلاطون أو ديكارت. فكل المدارس (مع استثناء المادية الجدلية وكذلك، من وجهة نظر معينة، البراجماتية) تهيأ لعملها أدوات عقلية متخصصة تحتوي على مصطلح تجريدي غني تختص به، وهي تقيم مذاهبها بالتعامل مع مفاهيم معقدة ودقيقة. وهذا الأمر أوضح مايكون عند الفلاسفة الوجوديين وعند الوضعيين الجدد، فهو إذن مميز لأكثر المذاهب حداثة.

ولكن يمكن أن نقول نفس الشيء عن المثاليين والفينومينولوجيين والميتافيزيقيين. ويصل الأمر إلى درجة أن بعض القضايا الفلسفية تتشابه كثيرا في هيئتها الخارجية مع المؤلفات التخصصية الدقيقة لأرسطو مثلا، أو مع دقائق البراهين التي قدمتها الفلسفة المدرسية في العصر الوسيط في القرن الخامس عشر للميلاد. (١٢٠)

ب ـ خصوبة الإنتاج:

ينتج الفلاسفة في هذا العصر إنتاجا وفيرا. وللتمثيل على ذلك، فإننا نجد أن في ايطاليا وحدها كان عدد المجلات الفلسفية المتخصصة لا يقل عن الثلاثين في عام ١٩٤٦م، كما أن حركة فلسفية واحدة تمتد عبر دول عديدة، وهي الحركة التوماوية،

---

(١٢٠) انظر العرض الخاص بهسرل في الفصل الرابع عشر.

تمتلك حوالي عشرين مجلة متخصصة . ونُحصي قائمة الكتب الفلسفية، وهي قائمة غير كاملـة، والتي أصدرهـا المعهد الدولي للفلسفـة، أكثر من سبعـة عشر ألفا من المنشورات في نصف العام الأول من ١٩٣٨م .

وإلى جانب هـذه الكتلة الكمية، يجب أن نشير إلى تعدد المشكـلات التي تناولها الفلاسفة بالبحث وإلى ظهور عدد عظيم من المؤلفات الهامة بالفعل .

ولا شك أنه من العسير أن نغربل ما سيبقـى من هذه المؤلفات في ذاكرة المستقبل وما سوف تـذروه الرياح، ولكن الذي لا شك فيه، وإلا كانت كل الـدلائل فاسدة معا، أن عددا كبيرا من فلاسفة القرن العشرين في الفكر الغربي سوف يترك آثارا دائمة في تاريخ الفكر الفلسفي . ولن يكون من المغالاة، أو يكاد، أن نضع هذه الفترة بين أخصب فترات الإنتاج في التاريخ الفلسفي .

جـ- العلاقات المتبادلة بين المدارس :

من العلامات المميزة للفلسفة الحالية في أوربا كثافة الاتصالات بين الفلاسفة من شتى الاتجاهات ومتعـارضها، وكذلك تنظيم العـلاقات الفلسفية بين البـلاد . فقد شهدت بداية القرن العشرين ظهور عـدد من المؤتمرات الفلسفية الدولية جمعت عددا متزايدا من الفلاسفة .

وإلى جـانب المؤتمرات العـامـة، نـذكـر اللقـاءات الـدوليـة ذات الموضـوعـات المتخصصة والتي تتناول مذهبـا بعينه أو موضوعا من موضـوعات البحث، وكذلك تأسيس مجلات للمذاهب التي تتواجد في أكثر من بلد (المدرسة المثالية، والتوماوية، والوضعية الجديدة . . . . الخ)، ومجلات أخرى من نفس النوع، وبلغات متعددة . وهكذا سقطت الحواجـز الأممية والحدود المذهبية، والنتيجة هي تـداخل متبادل بين الحركات الفلسفية، قلما شهد التاريخ الفلسفي مثيلا له .

ونلاحظ نفس هذه الظاهرة منذ البداية، أي منذ حركات تكون المدارس الحالية . وهكذا، مثـلا، فإن المدرسة الـواقعية الجديدة الإنجليـزية هي نتـاج في نفس الوقت لنظـرية الموضـوع (التي تتقـارب مع الفينومينـولوجيـا) ولبعض الأفكـار التجريبيـة

ولدراسة الميتافيـزيقا (دراسة ليبنتز التي قام بها رسل). وقد ظهـرت المدرسة الوضعية الجديدة نتيجـة للعلاقة الوثيقـة بين حركة نقد العلم والتجـريبية التقليدية والـواقعية الجديـدة الإنجليـزيـة، بل وتظهـر فيهـا تـأثيرات من هسرل نفسـه، وهـو مـؤسس الفينومينولوجيا. وهذه المدرسة الأخيرة ذات إشعاع كبير على الفلسفة الوجودية وعلى جـانب من الميتـافيـزيقـا. كـذلك فإن المثـاليـة لا تخلـو من الاعتماد على منـافسهـا التقليدي، أي الوضعية. وربما كان أدل شيء على السمـة التي نتناولها هنا هو تكون الفلسفة الوجـودية، وهي التي تحتوي على عناصر وضعيـة ومثالية وفينومينـولوجية، وفي نفس الوقت فـإن جذورها تمتـد، بشكل رئيسي، إلى مبادىء فلسفـة الحياة، مع استقبال بعض الحصة من أفكار الاتجاه الميتافيزيقي.



الباب الثانى

الفلسفة المادية

نجمع تحت هـذه التسمية العـامة عـدة مذاهب فلسفيـة من اتجاهات مختلفـة : فلسفة بـرتراند رسل والـوضعية الجديدة والماديـة الجدلية . وإذا لم يكن لهذه المذاهب ثقل كبير فلسفيـا ، وذلك إذا أخـذنا الفلسفـة بمعنـاهـا الدقيق ، إلا أنها تـؤثـر على الجمهور الـواسع تأثيرا يفوق تأثير كل التيارات الفلسفية في القـرن العشرين الميلادى في الغرب .

ويسهل أن نـدرك علة نجاح هـذه المذاهب نجـاحا عظيما : ذلك أنها تعيـد إلى الحياة أفكـارا كانت ذات مغـزى فلسفى بذاتها منـذ مائة عـام مضت ، أى فى خلال القـرن التاسع عشر الميـلادى ، والجمهور الـواسع يتأخر دائما فى مفـاهيمه الفلسفيـة حوالى مائة عام على تطور الفلسفة الاحترافية (الأكاديمية) .

كل المفكـرين الذين ينتمـون إلى هذه المجمـوعة طبيعيـون ، وهـم أيضا علميـون بدرجة تزيـد أو تقل ، بعبارة أخرى ، هـم عقلانيون صراحة ويميلـون ناحية المذهب المادى .

أ ـ وهم طبيعيـون لأنهم لا يـرون فى الإنسان إلا جـزءاً من كلٍ ، هـو الطبيعـة ، وينكرون بصفة عامة أن يكون الإنسان كائنا مميزا على الكائنات الطبيعية الأخرى .

ب ـ وهم تجريبيـون ، بسبب اعتقادهـم المطلق في السلطة العليـا التى تمتـاز بها العلوم الطبيعية . وعلى ذلك ، فهـم يرون أن الـواقع لا يمكن إداركه إلا بمناهج علوم الطبيعة ، وما لا تدركه تلك المناهج لا يكـون إلا مشكلة زائفة ، ولا يكون له بالنتيجة مغـزى أو أهمية . كـذلك فإنهم ينكرون أن تكـون التجـربة الأخـلاقية أو الجماليـة أو الدينية مصدرا للمعرفـة . ويقف برتراند رسل ، مثله فى ذلك مثل الماديين الجدليين ، موقفـا قويـا معارضا للـدين . أخيرا ، فإن الفلسفة فى رأى مفكـرى هذه المجمـوعة ، بإعتبارهم تجريبيين ، تنحصر وحسب في تحليل مفـاهيم العلم الطبيعى ، أو فى إجراء تركيب عام لنتائج العلوم الطبيعية ، وفيما عدا هذا وذاك فإنها بغير وظيفة .

جـ ـ ورغم أن معظـم المعلنين عن هذه المذاهب لا يمكن اعتبـارهم «مـاديين» خُلّصاً ، إلا أنهم جميعا يميلون ميلا واضحا إلى المادية . وقد يقال أن الوضعية الجديدة

هى أقل تلك المذاهب مـاديـة ، ومع ذلك فإنها لا تضع في اعتبـارهـا غير الظـواهـر المادية ، حيث يرون أن أية مناقشة حول أمور نفسية لا تكون بذات معنى .

د ــ أخيرا ، فإن كل هـؤلاء المفكـرين عقليـون لا يسـاورهم أدنى شك فى الاتجاه العقلاني ، بمعنى أنهم يعتقدون في قيمة المناهج العقلية والتحليلية .

ويلـزمنـا ، من أجل فهم الامتـداد التـاريخي لمذهبى رسل والـوضعيـة الجديـدة وصلتهما بمن قبلهما ، أن نقدم عرضا سريعا للـواقعية الجديدة الإنجليزية . والحق أنه كان ينبغى أن ندرس المدرسة الواقعية الجديدة فيما بعد ، وربما وضعناها في صلتها مع المدرسة الفينـومينولوجية ، حيث أنها كـانت إحدى الحركات التى حـددت اتجاهات الفلسفـة الجديـدة في القـرن العشرين الميـلادى والتى سـاهمت في تكـوين الاتجاه الميتافيزيقى ومنهج المنطق الرياضى الجديدين . لذلك يلزم أن نلاحظ أنه وإن كانت حركة الواقعية الجديدة على صلات متعددة مع الاتجاه الطبيعى العلمى ، إلا أنها ذات أهميـة أعم من هـذا بكثير ، وأنها أدت ببعض المفكرين ، ومنهم وايتهـد ، إلى تقـديم تصور للعالم هو أفلاطونى فى جوهره .



الفصل الخامس

برتــراند رســـل

أولا: الواقعية الجديدة الإنجليزية

ظهـر فى إنجلترا، في النصف الثانى مـن القـرن التـاسع عشر الميـلادى، تيـار واقعى، وإن كان ضعيفا. فلم يكن يكوّن مدرسة، ولم يكن باستطاعته أن يزدهر فى مـواجهة المذهب المثـالى، الـذى كان مسيطـرا فى ذلك العصر، ومن أعـلامه بـرادلى وبوزانكيت.

ولكن التيـار الواقعي وجـد مفكـرين ذوى قدر يـدافعـون عنه، منهم أَدَمْسـون (١٨٥٢ ـ ١٩٠٢م)، الذى انتقل في أخريات حياته، بعد أن كان من اتباع كانت، إلى نوع من الواقعيـة النقدية، وهكس (١٨٦٢ ـ ١٩٤١م) الـذى يقترب من مينونج وهسرل، حيث قدم نظرية في «القصدية»(١٢١)، وتوصل إلى موقف متوسط ما بين المثالية والواقعيـة، وتوماس كيز (١٨٤٤ ـ ١٩٢٥م)، الواقعـى النقدى، الذي كان يعتقد فى إمكان الانتقال من التصورات إلى الأشياء(١٢٢)، وهناك آخرون غيرهم.

وقد هيأ للحركـة الواقعية الجديدة جورج ادوارد مـور (ولد ١٨٧٣م)، الذى نشر فى عام ١٩٠٣ مقالته الشهيرة «تفنيد المثالية»، وإن تأثيره على الفلسفة الانجليزية في

---

(١٢١) يقصد بها أن كل فكـرة تتصل بشىء وتتجه إليـه، فهناك إذن شىء فى مقـابل الفكرة، ويقع هذا الشىء خارج الفكـرة، أى خارج الذات المفكرة ومستقلا عنهـا. هذا الشىء عند هسرل هو «الماهية».

(١٢٢) الأشياء، أى ما هـو خارج التصورات أيا كان نحـو وجوده، فعليا واقعيا، أم عقليـا مثاليا.

القرن العشرين ليبلغ حـدا من الأهميـة يجعل من الممكن أن نقـارنـه مع تأثير وليم جيمس أو برجسون .

وقد ظهرت الواقعية الجديدة بوضوح ، في الجيل الأول من فلاسفتها ، مع مورجان (١٨٥٢ ـ ١٩٣٦م). ووايتهـد (١٨٦١ ـ ١٩٤٧م). ونـان (ولد ١٨٧٠م). ورسل (ولد ١٨٧٢م). وصامول الكسانـدر (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨م). وبرود (ولد ١٨٨٧م). وجون ليرد (ولـد ١٨٨٧م). ، وفي الجيل الثانـى تظهر أسماء جـود (ولد ١٨٩١م). وبرايس (ولد ١٨٩٩م). ورايل (ولد ١٩٠٠م)، ويُووِنج (ولد ١٩٠٠م)، وإن يكن كل من مورجـان وهوايتهد وليرد قد تحول إلى الميتـافيزيقا ، لذلك فسـوف ندرسهم فى فصل آخر.

وأهم الآخرين هـو برتراند رسل ، سواء من حيث خصوبـة الإنتاج أو من حيث تأثيره. لذلك ، فبعد عـرض سريع مختصر للمبادىء العامة للواقعيـة الجديدة، فإننا نخصص الجزء الرئيسى هنا لعرض نظريات رسل.

ثانيا : المبادى العامة للواقعية الجديدة :

كما يدل اسم المذهب ، فإن الواقعيين الجدد الإنجليـز يعارضون المثاليـة ويقولون بالواقعية ، وهى بصفة عامة واقعية مبـاشرة . ذلك أنهم يقولون إن باستطاعة الإنسان أن يدرك مباشرةً الواقع المستقل عن الذوات والخارج عنها ، وليس التصورات النفسية وحسب .

وهناك ، غير هذا ، سمات أخرى مشتركة بين الواقعيين الجدد . فهم جميعا ، أولاً، تجريبيـون خُلَّص . فـلا شك أى شك ، عندهـم ، فى أن معرفتنـا كلهـا إنما تأتى من التجربة ، ويرى معظمهم أن التجربة حسية لا غير. ومن الواضح أن هذا الموقف قد حدده التراث التجريبى الإنجليزى ابتداء من لوك إلى بـاركلى إلى هيوم ، وربما حدده على الأخص مذهب ريد(١٢٣) .

(١٢٣) Reid ، فيلسوف اسكتلندى (١٧١٠ ـ ١٧٩٦م).

كذلك، فإن الواقعيين الجدد يتجهون بصفة عامة ناحية علوم الطبيعة، ويرى معظمهم أن المنهج العلمى منهج فلسفى حقيقى. وهم يهتمون على الأخص بالفيزياء والرياضيات.

كذلك تسود عندهم الاهتمامات النظرية، فإذا كان حقا أن مور قد كرس كتابا للأخلاق[١٢٤]، وأن وايتهد اشتغل حينا، مثله فى ذلك مثل رسل، بالأمور الاخلاقية والدينية، إلا أن الواقعيين الجدد لا يهتمون في حقيقة الأمر بالمشكلات النظرية الخالصة، أى بالمنطق وبنظرية المعرفة، بالفيزياء أو بعلم الحياة.

ولكن السمة الأدل على الواقعيين الجدد هى أنهم يحصرون أنفسهم في تناول المشكلات المخصوصة، وهم يبدون للناظر خصوما للنظم الفلسفية، وينتقدون نقدا عاتيا، وكثيرا ما كان نقدا غير محق كذلك، كل التراث الفلسفي السابق فى الفكر الغربى.

وإذا كان بعض منهم قد ارتفع من بعد ذلك إلى التأمل المنظم، أى إلى بناء نظام فلسفى، إلا أنهم استخدموا مع ذلك دائما أو يكاد «المنهج المجهرى» (الميكروسكوبى)[١٢٥]، ومالوا إلى التحليل وإلى تفكيك كل المشكلات إلى أجزائها. وأكبر مثال على هذه الاتجاهات كلها هو «برود»، ولكنهم جميعا ينحون نفس المنحى، وبإصرار عجيب عند الأغلب. إن المدرسة الواقعية الجديدة هى المدرسة التحليلية.

ثالثا: برتراند رسل: الشخص والتطور:

ولد برتراند رسل فى عام ١٨٧٢م. لعائلة ارستقراطية إنجليزية، وهو، من غير مناقض، أحد أكثر الفلاسفة الغربيين الذى يقرأله الناس ويعلق على أعماله المفكرون، في الفترة الممتدة ما بين الحربين العالميتين الكبيرتين (١٩١٩ - ١٩٣٩م).

---

(١٢٤) عنوانه «مبادىء الأخلاق».

(١٢٥) أى المنهج الذى يهتم بالجزئيات الصغيرة أو بأجزاء الكل، في مقابل المنهج «الماكروسكوبى» الذى يهتم بالكل قبل الأجزاء، وبالكبير لا الدقيق.

وقد أظهـر نشاطا تأليفيـا لا يكاد يكون لـه مثيل في خصوبته، فمنـذ أول كتبه، الـذى ظهـر فى ١٨٩٦م. أخـرج كتـابـا كل عـام على التقـريـب وذلك حتى عـام ١٩٥٠م. (١٢٦)، وكثيرا ما أخـرج كتابين فى العام، هـذا إلى جانب عشرات من المقالات ظهرت فى مجلات أكثـر ما تكون تنوعا. وهذا المجمـوع الهائل من الكتابات يناظر التنوع الكبير للمشكـلات التى اهتم بها رسل. فليس هناك ميدان من ميادين الفلسفة لم يبحث فيـه، كما أنه اهتم فـوق هذا كثيرا بمشكـلات أخرى، ومنهـا مثلا مشكلـة رفض الحرب، وهو مـا أدى به إلى أن يحكـم عليه بـالسجن فى بلده خـلال الحرب العالمية الأولى.

وقـد لقيت مؤلفـاته إقبـالا منقطع النظير، وعلى سبيل المقـارنة فإن أيـا من كتب وايتهد أو ألكسانـدر أو برود لم تكن قد ترجمت إلى الألمانية حتى قيـام الحرب الثانية، هذا بينما كان سبعة عشر كتابا من كتب رسل قد ترجمت إليها حتى ١٩٣٥م.

ويمتاز أسلوب رسل بأنه عظيم الوضوح وبالغ «العلمية»، وهو فى نظر المفكرين والبيئـات التى ظلت أمينــة على المثـال الـوضعى للقـرن التــاسع عشر الميـلادى، الفيلسوف على الحقيقة. وهـو يظهر وكأنه صورة حـديثة من فولتير(١٢٧)، بسبـب يساريته فى السياسة وميوله ضد الدين مقرونا هذا كله بلغة عظيمة الجلاء، وإن يكن حجمه أقل بكثير من حجم فولتير التاريخى.

ومع ذلك، فإن رسل يتميز على أقرانـه من الكتاب الشعبيين من هذا النوع، من مثل هِكّل(١٢٨)، أو حتى فولتير نفسه، من حيث أنه لم يؤثر على الجماهير وحسب، وإنما هو قـد أثر تأثيرا حـاسما على الفلسفة الأوربيـة في القرن العشرين الميـلادى عن طريق إنتـاجه الفلسفى بـالمعنى الدقيق، ومن قبـل أن يوضع هذا الإنتـاج فى شكل ميسر لفهم الجماهير.

---

(١٢٦) السنـة التى يتوقـف عندهـا متـابعة المؤلف، ولكن رسل استمـر منتجـا ونشطـا حتى وفاتـه (١٩٧٠م).

(١٢٧) أديب وكاتب فـرنسى لاذع القول صريح نـاقد، هـاجم نظم عصره وأفكاره، دينيـة كانت أم سياسية وعقلية (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م).

(١٢٨) فيلسوف ألمانى وعالم اهتم بفكرة التطور وطبقها على الفلسفة والدين (١٨٣٤ ـ ١٩١٩م).

ويتكون مذهب رسل من قسمين مختلفين فيما بينهما غاية الاختلاف: قسم منهما يتكون من منطقة ومن فلسفة الرياضيات، والآخر يحوى كل نظرياته الأخرى. ومن الناحية العلمية الصرفة، فإن القسم الأول هو الأهم بكثير، وعلى أية حال فإن رسل قد احتفظ بموقفه في هذا القسم لم يغيره منذ أن قال به في عام ١٩٠٣م. ولا تسمح لنا حدود هذا الكتاب إلا بتلخيص الآراء الفلسفية العامة لرسل. .

ويمكن أيضا أن نميز بين مرحلتين في تطور فكر برتراند رسل. ففى البداية كان فكره يعمل تحت لواء الرياضيات، التى رأى فيها المثل الأعلى للفلسفة، وتكلم عنها في حماس أحد اتباع أفلاطون[١٢٩]، وبصفة عامة فإنه كان في هذه المرحلة الأولى أفلاطونيا مخلصا. ذلك أنه كان واضحا، في رأيه، أنه يوجد، خارج نطاق الواقع التجريبى، كليات أو مفاهيم كلية ندركها إدراكا مباشرا، ولها وجودها في ذاتها، وأنها مستقلة عن الأشياء وعن العقل. وكان رسل يرى الفلسفة علما استنباطيا، ومستقلا إلى حد ما عن التجربة المحسوسة. وينتمى إلى هذه المرحلة كتاب «مبادىء الرياضيات» («برنكيبيا ما تماتيكا»)، وهو واحد من أهم كتب الفكر الأوربى فى القرن العشرين الميلادى.

أما بعد ذلك، فإن رسل أخذ يغير من موقفه شيئا فشيئا. وعلى حين كان زميله فى تأليف «البرنكيبيا»، وايتهد، يتعمق خطوةً على طريق الميتافيزيقا، فإن رسل كان يحث السير على طريق الوضعية. فها هو يرى أن مشكلة الكليات مشكلة بغير أساس، وأن كل ميتافيزيقا فارغة من المعنى، وأن الفلسفة ليست استنباطية بل هي تجريبية، متابعا فى هذا روح التراث الإنجليزى. كذلك لم يعد يرى جمالا أفلاطونيا في الرياضيات، فما هي إلا مجرد أداة عملية للعلم تيسر له عمله.

وفى منتصف القرن العشرين، فان رسل يظهر على صورة نصير العلم على الطريقة التقليدية، فهو يرى أنه لا معرفة إلا بطريق مناهج العلوم الطبيعية، وهو يعتقد فى إمكان وصول الإنسان إلى الكمال عن طريق الفنون الصناعية

---

(١٢٩) ربما يقصد المؤلف «اسبوسيدوس» خليفة أفلاطون على رأس الأكاديمية.

(التكنولـوجيا)، ويتحدث حـديث المتحمس عن التقدم. ويقترب مذهبـة الواقعي كثيرا من مذهب هيوم، كما يشبـه هيوم في سيطرة روح شكية شـاملة أو تكاد على كل خطوات فكره.

ولنشر أيضا إلى أن رسل، رغم كثرة كتاباته فى أكثر الموضوعات تنوعا ورغم عظيم ذكـائه، لم يستطع مع ذلك بنـاء نظـام فلسفى، كما لم يستطع تفـادى عـدد من التنـاقضات وقع فيهـا. وبصفـة عامـة فإن مـواقفـه العقلية متغيرة، وهي في تطـور دائب.

رابعا: تصوره عن الفلسفة:

إن مفهوم الفلسفة، الذي يدافع عنه رسل فى منتصف القرن العشرين، يدل على موقف مجمل المدرسة الـواقعية الجديدة من الموضوع، وهـو في هذا المجال واقع تحت تأثير مور زميله الفيلسوف الإنجليزي.

فهو يرى أن على الفلسفـة أن تكون علمية في جوهـرها، فهى ينبغي أن تستخرج أحكامها من علوم الطبيعة، وليس من الـدين أو من الاخلاق، كما يتوجب أن يكون المثل الأعلى للفلسفـة علميـا، وفي الأخير فإن ميـدان نشـاط الفلسفـة يقتصر على المشكلات التى لم يتوصل العلم بعد إلى دراستها دراسة علمية، فهى تقوم بدور فاتح الطريق أمام العلم. وعلى هـذا، فينبغى أن تُنزع من الفلسفة كل نزعـة «رومانتيكية» وكل نزعة «تصوفيـة» انتزاعا كاملا. فليست الفلسفة مستـودعا «لدواء بطولى يخفف من الآلام العقلية»، إنما الواجب هـو أن يتعمق الفيلسوف، في هدوء وصبر، فى سبر أغوار كل مشكلة بتفاصيلها.

ولم يعتقد رسل، منذ البداية، أن بإمكان الفلسفة أن تقدم إجابات مؤكدة كثيرة، وحيث أن وظيفتها هى أن تفتح مجالات أمام العلم، فإن عليها أن تثير المشكلات لا أن تجد حلا لها. إن المهمة الرئيسية للفلسفـة مهمة نقدية. فينبغى على الفيلسوف أن يوضح المفاهيم والقضـايا والبراهين العلمية، وذلك بطريق وضعهـا جميعا تحت مجهر التحليل المنطقى المفصل.

ومن مزايا هذه الطريقة فى التناول أنها تنبه العقل، ولها من القيمة ما يفوق الإجابات الفلسفية التى تحمل الشك بين طياتها إلى الأبد. وقد تحول رسل من بعد ذلك إلى موقف اللاأدرية المتعقلة، إقتناعا منه بأن العلم الطبيعى وحده هو القادر على تقديم معلومات عن الواقع، وأن ذلك العلم من ناحيته لا يستطيع أن يتجاوز حد الإحتمال. ومن هذه الوجهة للنظر، فإن رسل يستمر على طريق نفس التراث التجريبى والوضعى الإنجليزى، وخاصة على نحو ما شكله عليه هيوم وجون استيوارت مل.

خامسا: التعددية والواقعية:

من المحاور الرئيسية فى فلسفة رسل، وعند مور وعند أغلب الواقعيين الجدد الإنجليز، نقد المذهب الذى أعلنته فلسفة برادلى فى العلاقات الداخلية(١٣٠).

فيرى رسل أنه لا توجد علاقات داخلية، لأن العلاقات القائمة هى علاقات خارجية، ومضافة إلى ماهيات الأشياء الموجودة بالفعل، كما أن ماهيات الأشياء لا تتوقف بالمرة على هذه العلاقات. وبهذا الموقف يرفض رسل الأساس الذى يقوم عليه مذهب برادلى. وهو يرفض أيضا النتيجتين الرئيسيتين اللتين تتفرعان عن ذلك المذهب، لأنه يدافع عن موقف التعددية من جهة، كما يأخذ بالتمييز بين الذات والموضوع.

والقول بالتعددية هو من أكبر ما يميز هذا التيار الفلسفى، ومن يقول بالتعددية يقول بأن العالم يتكون من ذرات (ربما كانت لانهائية في عددها) مستقلة عن بعضها البعض وتربط فيما بينها علاقات خارجية.

وفي وقت لاحق غير رسل من موقفه التعددى وقال بما سماه «الذرية المنطقية»، وهي نظرية تقول إن العالم يتألف من معطيات حسية ترتبط فيما بينها بعلاقات منطقية خالصة. ومن ناحية أخرى فان رسل يبتعد تماما عن المثالية الهيجلية ويدافع

(١٣٠) راجع فيما سبق، الفصل الثالث، «ثالثا».

عن الواقعية المباشرة، وقد أدت به إلى هذه المواقف دراساته عن ليبنتز(١٣١) وبحوثه في الرياضيات.

وقد أدى تطبيق الموقف التعددى على نظرية المعرفة إلى نتائج هامة. فقد قام مور ورسل، إلى جانب رفضهما المثالية بوسيلة نظريتهما في العلاقات الخارجية، قاما بالهجوم على المثالية الذاتية التى انتهى إليها مذهب جورج باركلى(١٣٢) وأتباعه.

ويقول هذا المذهب الأخير إننا لا نستطيع أن نعرف شيئا غير محتويات وعينا، أى الأفكار، أما العالم المستقل عن الذوات فإنه بعيد عن أن تناله أو تصل إليه معرفتنا. ويتهم الواقعيون الجدد هذه النظرية بالوقوع فى غلط منطقى ساذج: ذلك أن باركلى يخلط فيما هو واضح بين معنين لكلمة «فكرة»، التى يمكن أن تدل على فعل المعرفة النفسى كما يمكن أن تدل على موضوع المعرفة أو «المعروف»، ومن الظاهر أنه لا حاجة لأن يكون المعروف قائما دائما في الوعى، لأنه يوجد خارج الوعى ومستقلا عن الذات العارفة. وهذا هو الأساس الذي تقوم عليه الواقعية المباشرة.

ومع ذلك فإن رسل يرى أن المادة، رغم وجودها الحقيقى الواقعى، ليست موضوعا مباشرا للمعرفة، فنحن لا نعرف إلا شيئا واحدا، هو معطيات الحواس، وهو رأى رسل ومور معا. ولنأخذ مثلا لون المائدة، وصلابتها، والصوت الذى يخرج عنها حينما نضرب عليها، كل هذه وقائع، ولكنها ليست من خواص المائدة. والدليل على ذلك هو أن أشخاصا مختلفين تتكون لديهم، عن نفس الشيء، معطيات حسية مختلفة. إن المكان الذى تتواجد فيه هذه المعطيات يختلف حسب عضو الإحساس، ومن باب أولى، حسب الشخص المدرك. والإفتراض القائل بأن هناك فى أساس المعطيات الحسية موضوعا أو كيانا موضوعيا هو افتراض يدلل عليه الاستقراء التجريبى، ولا يمكن أن نأتى عليه ببرهان مباشر(١٣٣).

---

(١٣١) كتب رسل كتاب عن فلسفة ليبنتز اكتشف فيه أشياء جديدة عن ذلك الفيلسوف (صدر عام ١٩٠٠م).

(١٣٢) الذى قال بأن الوجود هو الإدراك، وما لا يدرك غير موجود.

(١٣٣) لأننا لو أتينا عليه ببرهان مباشر لكان معنى هذا أننا نستطيع الوصول مباشرة إلى الموضوع، وهو ما لا تقول به النظرية.

وكان رسل، في البداية، يرى أن القول بوجود موضوع المعرفة وجودا موضوعيا هو أسلم طريق لتفسير المعطيات الحسية، ولكنه غير من رأيه فيما بعد، وتحول إلى نظريته «الذرية»، والتى تقول بأن العالم يتكون، ليس من موضوعات أو أشياء، بل من معطيات حسية تترابط فيما بينها منطقيا.

ويجب أن نلاحظ أن تلك النظرية لا تنطبق تمام الانطباق مع النظرية الظاهرية(١٣٤) التقليدية، لأن معطيات الحواس في رأى رسل هى وقائع غير نفسية ومستقلة عن أى ذات (حتى ولو كانت ذاتا ترنسندنتالية أو مطلقة) (١٣٥). فهذه المعطيات عنده هى التى تكون العالم الواقعى، ولكنها ليست جواهر(١٣٦). وهذا الموقف يتوافق مع موقف ديفد هيوم.

كذلك كان رسل، فى مرحلته الأولى، يعترف أيضا بأن هناك، إلى جوار إدراك معطيات الحواس، تقوم المعرفة المباشرة بالكليات أو المعانى الكلية. وعلى سبيل المثال، فإن المرء لا يعرف لندن وادنبره عاصمة اسكتلنده وحسب، ولكنه يعرف أيضا العلاقة (الخارجية فى رأى رسل) بين هاتين المدينتين، ولكن هذه العلاقة لا هى نفسية ولا هى ذاتية (لأنها لا تتوقف على المعرفة)، ولا هى واقعة طبيعية (لأن الواقع الطبيعى لا يتكون إلا من معطيات حسية وحسب)، وإنما هى نوع من «المثال» الافلاطونى الذى يقوم في ذاته وعلى نحو وجوده الخاص به.

وقد طور رسل هذه النظرية مدافعا عن الموقف الأفلاطوني التقليدى، ولكنه عاد من بعد ليعلن أن المسألة كلها شائكة، إلى درجة أنه لا يمكن أن يوضع فيها رأى نهائى يحسمها، وأخذ يقترب من المذهب الوضعى.

سادسا: علم النفس:

منذ البداية تشكك رسل في أن تكون هناك معرفة مباشرة للأنا، ومال إلى تصور

(١٣٤) وهى التى تقول أن الموجود هو الظواهر وحسب، ولا شىء وراءه.
(١٣٥) الذات الترانسندنتالية مثلما الحال عند كانت، والمطلقة مثلما الحال عند هيجل.
(١٣٦) راجع فيما سبق هامش (١١٩).

مماثل للتصور الذى انتهى إليه هيوم، الذى كان يرى أن النفس البشرية ما هي إلا حزمة من الأفكار، ثم أعلن صراحة أنه يوافق على هذا التصور في كتابه «تحليل العقل»[١٣٧]، وطوره تطويرا جديدا.

وهذا التصور يقف موقفا محايدا بين المادية والروحانية، وينحصر في القول بأنه لا يوجد شيء اسمه المادة ولا شيء اسمه العقل، وإنما الموجود وحسب هو المعطيات الحسية، وهذه المعطيات تتجمع على هذا النحو أو على ذاك، أى على أشكال مختلفة، وتحكمها قوانين مختلفة. وهكذا، فإن المعطيات الحسية للموضوعات المختلفة (وليكن مثلا المعطيات الحسية للنجوم) إذا أخذناها من وجهة نظر واحدة، فإنها تكوّن العقل، أما المعطيات الحسية عند الملاحظين المختلفين (وليكن مثلا الجوانب المختلفة من نفس النجم السمائى) فإنها تكون ما يسمى بالمادة.

ومن جهة أخرى، فإن القوانين التي تحكم ما هو طبيعى وما هو نفسى قوانين مختلفة. أما النفسى فيحكمه قانون «الحتمية التذكرية»[١٣٨]، وهو متفرع على كل احتمال من حتمية الجهاز العصبى. وما يميز ما هو نفسى أيضا هو ذاتيته، وهذه الذاتية تعنى ماديا تجمع معطيات الحواس وتركزها في مكان واحد (هو الدماغ). وعلى العكس، فإن رسل يرى أنه لا يمكن تعريف الظواهر النفسية، من حيث هى نفسية، بأنها ظواهر موعى بها أو قائمة فى الوعى، لأنها ليست جميعا كذلك[١٣٩]، ولا بوصفها عن طريق مفاهيم مثل العادة أو الذاكرة أو الفكر، لأن هذه المفاهيم ما هى إلا منتجات «للحتمية التذكرية»[١٤٠].

ويعترف رسل بأنه يميل ميلا قويا ناحية المذهب المادى فى علم النفس، وإن لم يكن يأخذ به كل الأخذ، نظرا لما توصل إليه العلم مؤخرا، وبسبب مذاهبه الخاصة به هو (أى رسل). ولكنه مقتنع على أى حال بأن الظواهر النفسية تعتمد أوثق اعتماد

---

(١٣٧) لهذا الكتاب ترجمة إلى العربية، مثل أهم كتب رسل.
(١٣٨) أى الحتمية الناتجة عن الذاكرة. يراجع هنا تحليلات هيوم فى هذا الصدد.
(١٣٩) لاحظ أن العصر هو عصر فرويد الذى نشر فكرة «اللاوعى».
(١٤٠) لأنه لا يمكن تفسير الشىء بمنتج عنه.

وأشده على الظـواهر الفيـزيولوجيـة ، وهو ينكـر بطبيعة الحال وجـود نفس على هيئة جوهر قائم بذاته .

ومع ذلك ، فإن الظواهر النفسيـة أكثر حقيقية عنده من المادة ، لأن المادة ، التي لا نتـوصل إليها مطلقـا بإدراك مباشر، إنما تتكـون عن طـريق إستنباط وعن طـريق تركيب معا(١٤١) .

سابعا : الأخلاق والدين :

ما الإنسـان في رأى برترانـد رسل ، إلا جزء ضئيل من الطبيعة ، وأفكـاره تحددها العمليات التى تقوم بها الدماغ ، فهى إذن محكومة بقوانين الطبيعة . وأما العلم ، وهو المصدر الـوحيد لمعـرفتنا ، فإنـه لا يقدم أى تأييـد للاعتقـاد في الألوهيـة أو في خلود النفس . وعقيدة الخلود ، في رأى رسل ، عقيدة سخيفة وغير معقـولة ، لأنه لو كانت النفوس خالدة ، إذن لملأت كل المكان . والدين عند رسل يقوم على الخوف ، وبالتالى فهو شر، وهو، كما يقول رسل ، «عدو للطيبة والذوق فى العالم الحديث» ، وهو يوجد عند الأقوام التى لم تبلغ بعد نضجها .

ولكن إذا كان مكان الإنسـان ، في نظام الوجود ، محصـورا في جزء بغير أهمية من الطبيعة ، فإن مكـانه فى نظام القيم ، الـذى يتعدى بكثير الطبيعة القائمـة ، هو على الضد أهـم بكثير. إن الإنسان قادر على تكـوين مثل أعلى للحياة . هـذا المثل الأعلى هـو، عند رسل ، المثل الأعلى «للحيـاة الطيبة» ، أى حيـاة يقودهـا الحب الوجـدانى وتسير فى طـريقها بقيـادة المعـرفة . وهـذا الأسـاس وحده يكفى فى رأى رسل لقيـام الأخلاق ، وكل نظام للأخلاق النظرية هو بغير لازمة .

ولتأييـد هـذا الموقف يقـول رسل إن مـا علينا أن نضع أنفسنـا مـوضع أم مـرض طفلهـا : إنها تحتـاج ، ليس إلى دعـاة إخـلاقيين ، بل إلى طبيـب قـادر. صحيح إن القواعد الأخلاقية العملية ضرورية للحيـاة ، ولكن معظم هذه القواعد تعتمد اليوم ،

---

(١٤١) وكلاهما يقوم به العقل ، أو أن كليهما يعتمد ، بلغة رسل ، على ظواهر نفسية .

فى قسمهـا الأعظم، على أفكار خـرافيـة، كما نـرى من القواعـد التى تحكم أخـلاق السلوك الجنسى، ومنها قاعدة الزواج بزوجة واحدة، ومنها طريقة معاملة المجرمين. وخاطىء أيضا المثل الأعلى الـذي يضع مصلحة الفرد فـوق كل مصلحة وهـو المثل الأعلى الارستقراطى، والـذى يعارض المثل الأعلى الذى يضع مصلحـة المجتمع فوق الفرد، وهو المثل الأعلى الديمقراطى.

أمـا غايـة الحياة التى يسعى الإنسـان وراءهـا، فإنها، عند رسل، كما هى عنـد سابقيه من الفـلاسفة الإنجليز، السعادة، ويصل إليها الإنسـان بمكافحة الخوف، وبتأكيد الشجاعة عن طريق التربية، وبإيصال البشر الى درجات متصلة من الكمال من كافة النواحى. إن الإنسان قـادر على تحقيق تقدم ضخم، على شريطه ألا يعوقه احترام للطبيعة يقوم على الخرافة، لأن كل طبيعة، ومنها طبيعة الإنسان ذاتها، ينبغى أن تصير موضوعا للدراسة العلمية، بهدف أن تنتج مزيدا من السعادة.



الفصل السادس

الــــوضعية الجـديـــدة(١٤٢)

أولا: أصولها وممثلوها الرئيسيون

المدرسة الوضعيــة الجديدة هي الوحيدة التى تمثل الاتجاه التجـريبى تمثيلا حقيقيا في القـرن العشرين الميلادي في الفكـر الغـربي. وتعود أصـولها إلى المذهب الـوضعي التقليـدي عند أوجست كـونت وعنـد جـون استيوارت مل، ومن قبلهما إلى المدرسـة التجريبية الانجليزية في القرن الثامن عشر الميلادي.

أما مصدرها المباشر فانه المدرسة التجـريبية النقدية الالمانية. وكان يوزف بتزولت (١٨٦٢ ـ ١٩٢٩م)، أحد تلامذة أفيناريوس، هو الذى نقل إلى هذه المدرسة رئاسة المجلة السنـوية للفلسفـة، والتى خرجت منهـا من بعد ذلـك مجلة «المعرفـة»، أهم صحيفة تعبر عن الوضعية الجديدة ما بين عامى ١٩٣٠ و١٩٣٨م.

ومن التيـارات الأخرى التى أثـرت بقوة على ظهـور الاتجاه الجديد، غير المدرسـة التجريبية النقـدية الألمانية، مدرسـة «نقد العلم» الفرنسية ونظـريات رسل، وكذلك تطــورات المنطق الـريـــاضى وعلم الطبيعــة في القـــرن العشرين الميـلادى (عنــد آينشتين).

وقـد ظهرت المدرسـة من حلقـة بحث كان يقـوده مـورتز شليك، وخـرجت إلى الضوء فجـأة في عام ١٩٢٩م. تحت اسم «حلقة فيينـا» مع ظهور كتيـب لها يعرض

---

(١٤٢) أو «الوضعيـة المنطقية». انظـر عنها عـرضاً كتب الـدكتور زكى نجيـب محمود، ونقـداً كتاب «أسس الفلسفـة» للـدكتـور توفيـق الطويل، وكتـاب «مـا هـو علم المنطق» للـدكتـور يحيى هويدى.

برنامجها بعنوان: «النظرة العلمية إلى العـالم. حلقة فيينا». ثم بدأت مجلة «المعرفة» فى الظهـور في العــام التـالى، ١٩٣٠م، وحلت محلهــا عـام ١٩٣٩م. «مجلــة العلم الموحد». وقد تعاقبت مؤتمرات للمدرسة عقدت الواحد منها بعد الآخر فى براغ عام ١٩٢٩، وفي كونجـزبرج[١٤٣] عام ١٩٣٠، وفي براغ من جديد عام ١٩٣٤، وفي بـاريس عـام ١٩٣٥، وفي كوبنهـاجن عـام ١٩٣٦، وفي بـاريس مرة أخـرى عـام ١٩٣٧، ثم في كـامبردج بانجلترا عـام ١٩٣٨، ثم في كـامبردج بالـولايات المتحـدة الأمريكية عام ١٩٣٩م.

وهذا وحده كـاف للدلالة على ديناميكيـة المدرسة الجديدة وعلى طابعهـا العالمى بـالفعل. وقـد طـارد الحكـم النـازى أهم ممثلى المدرسـة، فهـاجـروا إلى إنجلترا وإلى أمريكـا. وفي الولايات المتحـدة أنشأوا «دائرة معارف العلم الموحـد»، وكان تأثيرهم قـويـا، فى منتصف القـرن العشرين الميـلادي، في الولايـات المتحـدة مثل قـوتـه فى انجلترا. وكانت قد ظهرت في انجلترا مجلة بعنوان «التحليل»، وذلك منذ ١٩٣٣م، وهى تعبر عن حلقة قريبة من أفكـار الوضعيين الجدد. وقد ظهرت المدرسة في المؤتمر الـدولي للفلسفـــة في بـراغ عـام ١٩٣٤م بــاعتبـارهـا واحــدة من أقـوى المدارس الفلسفية.

وهى إذا كانت قد تراجع نفوذهـا بعض الشيء منذ ذلك الوقت على أرض القارة الأوربية، إلا أنها احتفظت بتأثير قوى، وهى تعد فى منتصف القرن العشرين واحدة من أهم تيارات الفلسفة الجديدة.

والفلاسفـة المهمون في هذه المدرسـة ألمان كلهم أويكاد، وفي مقدمتهم كـارناب (١٨٩١م) الذى درس الفلسفة في جامعات فينا وبـراغ وشيكاجو على التوالي، وهو يظهر على هيئـة المنظر المنطقي للمـدرسة، بل ورئيسهـا بمعنى ما. ويبرز إلى جـانبه هانز ريشنباخ (١٨٩١م)[١٤٤]، الذى كان استاذا في برلين وفي استامبول ثم أخيرا

(١٤٣) وهى مدينة الفيلسوف كانت بألمانيا.

(١٤٤) وله أكثر من كتاب مترجم إلى العربية.

في لوس انجلس بالولايات المتحدة، وقد شارك في تأسيس حلقة فيينا وساهم في تحرير مجلة «المعرفة»، ولكنه ابتعد من بعد ذلك عن الطريق الذى حددته المدرسة الوضعية الجديدة لنفسها. ومن ممثلى حلقة فيينا أيضا: شليك (١٨٨٢ ـ ١٩٣٦م)، الذي عرف على الأخص بكتاباته عن الأخلاق، نويرات (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥م)، وهو الذى كون فكرة العلم الموحد، وهانزهان (١٨٨٠ ـ ١٩٣٤م)، وعدد كبير من المناطقة الرياضيين قريب من المدرسة الوضعية الجديدة، ومنهم الفرد تارسكى وكارل بوبر.

وفيما يخص خارج ألمانيا، فإن هناك في انجلترا مجموعة مجلة «التحليل»، ومن أعضائها سوزان استبنج (توفيت عام ١٩٤٣م). ودنكان جونز وماس وجلبرت رايل، وهم يمثلون تيارات مختلفة بعض الشيء، ولكنها قريبة من الوضعية الجديدة، هذا إلى جانب الفرد آير الذى يعلن صراحة عن انتمائه لتلك المدرسة.

أما في فرنسا فلا نكاد نجد أى ممثل قوى للوضعية الجديدة، اللهم إلا لوى روجييه والجنرال فويلمان الذي حاول التعريف بحلقة فيينا في فرنسا. أخيرا فإن عددا كبيرا من الوضعيين الذين يعلنون عن صفتهم هذه بشكل أو بآخر، ومنهم مثلا جون وزدم، لهم علاقات مع تلك المدرسة.

ثانيا: الخصائص الرئيسية وتطور المدرسة:

يكون الوضعيون الجدد جماعة ذات خصائص متميزة: فلهم تصورات أساسية مشتركة، وهم يعالجون معا المشكلات بنفس المناهج.

وقد أبدوا منذ البداية نشاطا وحماسا منقطعى النظير، وكانوا مقتنعين أقوى اقتناع بالصواب المطلق لأفكارهم، حتى أن هانز رايشنباخ، وهو أحد رؤساء المدرسة القدامى، يلاحظ محقا أن موقفهم موقف دينى على الأصالة، بل هو كذلك موقف طائفي متعصب. ولكن ينبغى أن نضيف، من الناحية الأخرى، أن قلة من الفلاسفة من خارج الجماعة هم القادرون على الحكم على المذاهب الوضعية بالموضوعية الكاملة.

والحق أن هذه المذاهب تذهب في الثورية مبلغا كبيرا، إلى حد أنها تجبر المفكر إما على الانتماء المطلق لها أو على المعارضة الصريحة. وقد ساد في البداية، على الأخص، في حلقة فيينا، اتجاه تحزبى متحمس، بل وعدوانى كذلك وساع إلى العراك.

ولكن يضاف مع ذلك إلى هذه السمة التحزبية موقف عقلانى وتحليلى ومنطقى قاطع وصارم، إلى حد أن كتابات الوضعيين الجدد تبدو وكأنها نوع من الفلسفة المدرسية الجديدة(١٤٥)، أو فلنقل، على الاقل، إن الفكر الأوربى لم يشهد، منذ العصور الوسطى مثل هذا الاحترام والتقديس للمنطق. كذلك فإن المدرسة الوضعية الحديثة تظهر على صورة المدرسة شديدة التعلق بالعلم، وهي سارت في هذا الطريق إلى أبعد بكثير مما سارت إليه الواقعية الجديدة أو المادية الجدلية. وترى المدرسة أن الفلسفة ما هي إلا تحليل للغة العلم، وأن منهج الفلسفة منهج علمى صارم.

ومع ذلك فقد تطورت المدرسة الوضعية الجديدة بعض الشيء. وكان أصحابها يعتقدون في البداية أن المنطق الجديد قد سلحهم بسلاح حاسم وناجز ضد كل المدارس الفلسفية الأخرى. ولكنهم لم يستطيعوا أن يتفادوا، من بعد ذلك، دراسة المشكلات الفلسفية التقليدية في نظرية المعرفة، ولم يعودوا يعتمدون على المنطق الجديد وحده، خاصة وأن هذا المنطق الرياضى الجديد استخدمته مدارس أخرى غيرهم. ثم ظهرت مرحلة تطور ثالثة تمثلت في كتابات هانز ريشنباخ، وهي مرحلة تتميز بتسامح أكبر وبهبوط درجة الدجماطيقية عما كانت عليه الحال في بدايات حلقة فيينا.

ثالثا : لودفيج فتجنشتين :

تحتوى «الرسالة الفلسفية»(١٤٦) التى ألفها لودفيج فتجنشتين، وظهرت عام ١٩٢١م، على القضايا الرئيسية التى سوف تقدمها المدرسة الوضعية الحديثة من بعد، وكان فتجنشتين تلميذا وصديقا لبرتراند رسل، ثم درس الفلسفة في كمبردج

(١٤٥) راجع في خصائص الفلسفة المدرسية هامش ١٣، والمتن المقابل له.

(١٤٦) ترجمها إلى العربية الدكتور عزمى إسلام، وله أيضا كتاب بعنوان: «فتجنشتين». كما ظهرت له ترجمة لكتاب فتجنشتين: «محاولات فلسفية».

بانجلترا. وكتـابه هذا عظيم الصعـوبة، وهـو مكون من فقرات قصيرة مـرقمة، وفيه يبدأ المؤلف من مذهب الذرية المنطقيـة عند رسل، والذي يرى، كما مر بنا، أن العالم مكون من وقائع كل منها مستقلة كامل الاستقلال عن الوقائع الأخرى.

ويـرى فتجنشتين أن معرفتنـا هى نسخة مـن هذه الـوقائع الفعليـة، وأن الجمل العامـة هى جميعا «دالات حقيقيـة» للجمل الجزئيـة، أى أنها تتكون ابتداء مـن هذه الجمل الجزئية عن طريق العلاقات المنطقية. ولنضرب مثلا، فإن الجملة «كل انسان فان» مساوية تماما للجملة «سقراط فان وأرسطو فان»، . . . . . الخ.

وعلى ذلك فإن طبيعـة المنطق أنـه تحصيل حـاصل حيث أنه لا يقـول شيئـا عن الوقائع، ولأن الاحكـام المنطقية فارغة من أى معنى ولا تستطيع أن تعرفنـا أى معرفة عن عالم الواقع، إنما الـذى يستطلع أحوال عالم الواقع هو العلـوم الطبيعية. ونتيجة هذا كله أن الفلسفـة لا يمكن أن تكون مذهبا يتكون من قضايـا، وإنما هى لا تزيد عن أن تكون مجرد نشاط.

وقـد قدم فتجنشتين كـذلك، وبصفة خـاصة، نظـرية في اللغـة. وتقول هـذه النظريـة أنه لا يمكن منطقيا أن نتحـدث عن اللغة، وبالتـالى فان التحليل المنطقى النحوى مستحيل. وحيث أن كـل المشكلات الفلسفية تعـود فى نهاية الأمـر إلى هذا النوع من التحليل، فإنها جميعا، أى تلك المشكلات الفلسفية، لا تزيد عن أن تكون مشكلات فارغة من المعنى ولا حل لها، لأنه لا يمكن أن يكون لها حل.

ويختم فتجنشتين كتابـه الغامض المشار إليـه بالقول إن أفكـاره فيه ذاتها ليس لها هي الأخرى أى معنى، وأنه «ينبغى أن نكتم ما لا نستطيع أن نتحدث عنه».

رابعا: المنطق والتجربة:

وقـد اعتمد الـوضعيون الجدد على أفكـار فتجنشتين وبنـوا على أساسهـا نظريـة شديدة التخصص، يمكن أن نلخص قضاياها الرئيسية فيما يلى.

ليس هناك إلا مصدر واحد للمعـرفة، ألا وهو الحواس، وهذه الحواس لا تدرك

إلا أحداثا منعزلة ومادية . وهذه القضية هى بالطبع القضية التجريبية التقليدية . ولكن الوضعيين الجدد انفصلوا عن طريق التجريبيين والوضعيين التقليديين حين قاموا بتطوير هذه القضية . فمن المعروف أن التجريبيين يقولون إن المنطق نفسه «بعدى»، أى تال على التجربة، وأنه ينحصر فى كونه تعميما يعتمد على وقائع جزئية تمت ملاحظتها .

أما كانت الفيلسوف الألماني، فكان يرى، على الضد، أن هناك قوانين «قبلية» (أى لم تستق من التجربة)، ولكنها مع ذلك «تركيبية»، أى أنها ليست تحصيل حاصل فى علاقة موضوعها بمحمولها .

وقد أخذ الوضعيون الجدد بموقف متوسط بين هذين الموقفين، فقد انتهوا إلى أن قوانين المنطق «قبلية»، وأنها مستقلة عن التجربة، ولكنها أيضا مجرد تحصيل حاصل، أى أنها لا «تعنى» شيئا ولا «تدل» على شىء فى التجربة . فما قوانين المنطق إلا قواعد نحوية تنظم تنظيما ميسرا معطيات التجربة الحسية . فالمنطق، إذن، يتكون من قواعد تركيبية، أي تنظم تركيب الكلام، وهي، أى هذه القواعد، تستخرج من مبادىء اختبرت بطريقة تحكمية(١٤٧) . وحين نضع مبادىء الاستنباط وقواعده، فان النتائج تلزم بالضرورة، ولكن أساس كل منطق يبقى دائما أساسا اتفاقيا محضا(١٤٨) .

وعلى خلاف فتجنشتين، فإن المدرسة الوضعية الجديدة تقول بأنه يمكن لنا أن نتحدث عن اللغة، وذلك على الأخص بوسيلة استخدام لغة أخرى، تكون «لغة اللغة» أو «اللغة الثانية» . وليست الفلسفة إلا هذا التحليل للغة باستخدام لغة أخرى، فهى تضع نظاما من العلامات التى تدل بدورها على مصطلحات اللغة العلمية التى يستخدمها العلم، وتكون بهذا قادرة على تحليل قضايا العلوم الطبيعية . وبهذا تكون الفلسفة دراسة للتركيب المنطقى للجمل العلمية .

---

(١٤٧) أى كان يمكن اختيار غيرها وغيرها، فهى ليست ضرورية .

(١٤٨) أى يعتمد على الاتفاق والوضع وليس فيه أية ضرورة .

خامسا : معنى الجملة :

هذه النظرية تكملها نظرية أخرى اشتهرت بها المدرسة الوضعية الجديدة، هي نظرية «القابلية للتحقق». فهم يقولون بأن معنى القضية يقوم في منهج التحقق منها، أو فى قول آخر، ولكنه يعود إلى نفس المعنى، «إن للجملة معنى فى ظرف وظرف واحد، هو أن يكون من الممكن التحقق منها». ذلك إن الوضعيين الجدد يرون أننا لا نعرف معنى جملة ما إلا حينما نعرف إن كانت صادقة أو خاطئة. ومعنى هذا أن طريقة التحقق من المعنى ينبغى أن تتوافر فى نفس الوقت مع المعنى، والعكس بالعكس (أى أنه لا طريقة للتحقق من المعنى إلا مع وجود المعنى)، وهو ما يعنى، حسب مبدأ ليبنتز الفيلسوف الألمانى في «اللامتميزات»[١٤٩]، إن طريقة التحقق والمعنى هما واحد ونفس الشيء.

وهناك مبدأ آخر جوهرى لمذهب الوضعية المنطقية، وهو يزيد من صعوبة تقبل آرائها التى هى في ذاتها ثورية بما فيه الكفاية. ذلك أنهم يقولون بأن التحقق من المعنى ينبغى أن يكون دائما دائرا بين الذوات أو موضوعيا، أى أنه ينبغى أن يتم من حيث المبدأ بواسطة شخصين ملاحظين على الأقل. فإن لم يكن الأمر كذلك، فإن صدق الجملة لا يكون قد برهن عليه، ولا تكون الجملة عند ذلك علمية.

ولكن حيث إن كل تحقق موضوعي ينبغي أن يكون تحققا بالحواس، فإنه ينتج أنه لا يمكن التحقق إلا من الجمل التى تخص الأجسام وحركاتها، أما كل الجمل المتصلة بالأمور النفسية الداخلية أو جمل الفلسفة التقليدية[١٥٠] فإنها مما لا يمكن التحقق منه، أو بعبارة أخرى: إنها فارغة من المعنى. وبالتالى فإن اللغة الوحيدة التى يمكن أن تكون ذات معنى هى لغة علم الطبيعة، وينبغى توحيد كل العلوم تحت هذا اللواء (ومن هنا تأتى فكرة الوضعيين الجدد عن اللغة الموحدة أو«العلم الموحد»).

---

(١٤٩) Indiscernables. وملخص المبدأ «أن ليس فى الطبيعة شيئان متماثلان من كل الوجوه، وهذا من آثار عناية الله وسر ما فى الكون من تنوع هائل». («المعجم الفلسفى» لمجمع اللغة العربية، ص١٥٩ ـ ١٦٠).

(١٥٠) من مثل «الروح خالدة»، «الاله موجود»، «الحرية حقيقة». . . . الخ.

وهناك شرط آخر ينبغي توافره من أجل أن يكون للقضية المنطقية معنى: فهى ينبغي أن تكون مبنية وفقا لقواعد النحو والتركيب اللغوي، فإن قلت: «الحصان يأكل» فأنت تقول كلام ذا معنى، أما إن قلت: «يأكل يأكل» فهى جملة بغير معنى. ويقول الوضعيون الجدد إن الفلسفة التقليدية تخطىء، ليس فقط في حق مبدأ الموضوعية، والذى سبق الحديث عنه، بل وكذلك في حق قواعد التركيب اللغوى. وهكذا، مثلا، فان التعبيرات التى يستخدمها الفلاسفة الوجوديون لا معنى لها، ونموذج هذه التعبيرات قول هيدجر الفيلسوف الألمانى الوجودى: «العدم يعدم»، لأن لكلمة «العدم» هنا شكل الفاعل، ولكن «العدم» ليس فاعلا بالمعنى المنطقى، لأنه يدل على النفى ولا يمكنه مطلقا أن يقوم بدون الفاعل.

وانطلاقا من هذه المبادىء، أقبل الوضعيون الجدد، بكل حماس على فحص «المشكلات الزائفة» في الفلسفة[١٥١]. ويميز كارناب بين عدة وظائف للغة: فهى يمكنها أن «تدل» على شيء أو معنى، كما يمكنها أن «تعبر» وحسب عن الرغبات والعواطف. وربما كانت اصطلاحات الفلاسفة التقليديين تعبر عن عواطف، ولكنها فارغة من المعنى ولا تدل على شيء فى رأى الوضعيين الجدد، الذين يرون أن مشكلات الفلسفة التقليدية، من مثل مشكلة الوجود الواقعى للكليات ومشكلة وجود الاله، ما هي إلا مشكلات زائفة ومحاولة حلها هى محض مضيعة للوقت.

إن واجب الفلسفة، عندهم، أن تحصر نفسها في تحليل لغة العلم باستخدام المناهج المنطقية، وما عدا ذلك فهو «ميتافيزيقا»، أى خارج عن ميدان الطبيعة، فهو إذن فارغ من المعنى.

سادسا: الجمل الاساسية:

اجتهد الوضعيون الجدد فى اكتشاف أساس تجريبى خالص للعلم يكون مجردا من أى تكوين منطقى. وحيث أنهم يعتبرون العلم بناء من الجمل المرتبة ترتيبا منطقيا، فقد رأوا أنه يمكن أن يبدأ هذا البناء من عدد من القضايا الأساسية، والتى أسماها

(١٥١) راجع فى هذا المعنى «خرافة الميتافيزيقا» للدكتور زكى نجيب محمود.

رودلف كارناب «القضـايا البروتوكولية»، حيث أنها توجـد فى أساس نظام العمل في المعمل أو المرصد العلمى. والصورة الخالصة للقضيـة الأساسية يمكن أن تكون على النحو التالى: (أ)لاحظ الظاهرة (ب) فى اللحظة (جـ) في المكان (د)».

ولكن هذه النظرية اصطدمت بصعـوبات كبيرة ومن أنواع شتى. فنلاحظ، من ناحيـة، أن قضية أسـاسية يمكن أن يشك فى صـدقها، كما يمكن أن تبرهـن عليها قضية أساسيـة أخرى، وهكذا، مثلا، فإنه يمكن أن يُشك في الصحـة العقلية لعالم الفيزياء وتعـرض على حكم الطبيب النفسى ليبرهن عليها، وقد تمتـد السلسلة إلى ما لا نهاية[١٥٢]. وقد انتجت هذه الصعوبات مناقشات طويلة بين أعضاء المدرسة، وإن لم ينتهـوا إلى نتـائج حـاسمـة، وهـو أمـر طبيعى، لأن النتيجـة المنطقيـة لهذه المشكلات هو الوقوع فى الشك المطلق[١٥٣].

ومن نـاحية أخرى، فقـد تساءل بعض النقـاد، وعن حق، عن المقابل الـدقيق للقضايـا الأساسية، ويجيب الـوضعيون الجدد، وهـم المخلصـون لأصلهم التجريبى النقدى، إن الموضـوع الوحيد للتجـربة هـو الاحساس، وتكون النتيجـة أنه ليس في مقدور الإنسـان أن يخرج من جلده ليمسك بـالواقع[١٥٤]. وهـم يـرون أن مشكلـة الواقع والحقيقـة مشكلة زائفـة، لأننا لا نلتقى إلا بـاحساساتنـا، أما وجـود الأشياء الخارجية، التى يُظن أنها مختلفة عن احساساتنـا، فإنه أمر لا يمكن أن يكون موضعا للتحقق[١٥٥].

---

(١٥٢) لأن حُكمُه فى هـذه الحالة سيكـون قضية أسـاسية أخـرى، تعرض على آخـر ليحكم عليها، وهكذا..

(١٥٣) لانعدام أساس أول يقينى متفق عليه.

(١٥٤) الإحساس أمر داخلي وذاتي، والمشكلة هى الخروج منه إلى الواقع الخارجى الموضوعي. والمثال على مـوقفهم هـو أننى، حين أرى المائدة، فإن الموضوع الـوحيـد الـذى أدركه إنما هـو محض إحساسى أنـا بها، وليس تلك المائدة الخارجية، بخشبها أو معـدنها، ذاتها. والواقع أن أصل هذا الموقف يرجع إلى نتائج تحليلات هيوم لعملية الادراك.

(١٥٥) وبالتالى فانه يكون أمرا زائفا، حسب المبادىء المتقدمة فى الصفحات السابقة.

سابعا: هانز ريشنباخ:

وقد عارض ريشنباخ، وهو أحد أعضاء المدرسة المؤسسين، هذه النتائج، ورأى أن كارناب وزملاءه الآخرين يخطئون حين يحاولون البحث عن اليقين المطلق، حيث لا يقين وإنما مجرد احتمال. ولكن إذا تأسس البحث على أساس الاحتمال، فلا بد من تعديل مبدأ التحقق الذى قدمته المدرسة. وقد ميز ريشنباخ أولا بين التحقق «التكنيكى»، أى الممكن فى إطار حالة التكنولوجيا في عصر ما، والتحقق «الفيزيائى»، أى الذى لا يتعارض مع قوانين الطبيعة، وأخيرا التحقق «فوق التجريبى»(١٥٦).

أى نوع من هذه الأنواع الثلاثة للتحقق يكون هو أساس تعريف معنى «المعنى»؟ يرى ريشنباخ أن الأمر يخضع لمحض الاتفاق، فيمكن اختيار أي من أنواع التحقق الثلاثة، وهو يبدو هو نفسه ميالا إلى اعتبار أن الأنفع للعلم هو نوع من التحقق يقع فى موقف وسط بين التحقق الفيزيائى والتحقق المنطقى.

وينتج عن ذلك أن ريشنباخ يُعرِّف «المعنى» على النحو التالى: تكون القضية ذات معنى حين يكون ممكنا تحديد درجة احتمالها (أى التحقق من احتمالها). وهو يبين كيف أن هذا التعريف المختار يؤدى إلى أن الفرض الفلسفى «الواقعى»، أى القائل بأن هناك موضوعات خارجية وليس إحساسات وحسب، ليس فقط ذو معنى، بل إنه كذلك أكثر احتمالا وأكثر نفعا من الفرض الفلسفى الذى تقدمت به حركة الوضعيين الجدد فى البداية(١٥٧).

ورغم قوة المواقف التى عرضها ريشنباخ، إلا أنها لم تنل قبول غالبية أعضاء المدرسة، الذين هاجمهم هو الآخر بقوة. وقد قام ريشنباخ بتطبيق مذهبه تطبيقا شديد الطرافة على ميادين مختلفة من الفلسفة، ولا نستطيع هنا التوسع فى تفصيل ذلك.

---

(١٥٦) أى التحقق المنطقى.

(١٥٧) وهو أنه لا يوجد بين أيدينا غير الإحساسات، وليس من سبيل للوصول إلى الواقع الخارجى.

ثامنا : الفلسفة التحليلية :

بعد الحرب العالمية الثانية، استمر المذهب الوضعى الجديد فى التطور، وذلك فى الاتجاه الذى اختطه ريشنباخ، وظهر اتجاه جديد هو «الفلسفة التحليلية»، التى هى نتاج مشترك لتزاوج مذهب جورج مور الفيلسوف الانجليزى وأفكار الوضعيين الجدد. وفى داخل هذا الاتجاه التحليلى ذاته، يمكن للباحث أن يميز بين عدة تيارات.

أ ـ فهناك أتباع كارناب الذين يسيرون على هدى ما انتهى إليه فى المرحلة الأخيرة من تطوره، وهم يحاولون التوصل إلى تعريفات دقيقة للمفاهيم الأساسية التى يستخدمها العلم، وذلك فى إطار لغة صورية تماما.

ب ـ أما المدرسة التى تتبع جورج مور، فإنها تؤسس عملها، على العكس، على اللغة العادية، وتؤكد، معه على أن الاتفاق مع اللغة المشتركة بين الناس هو الشرط الأساسى للتحليل العلمى الصحيح.

جـ ـ وهناك أتباع فتجنشتين، أو «العلاجيون»، الذين يعتبرون الفلسفة نوعا من العلاج المنطقى من المشكلات الزائفة، التى ينبغى رفضها تماما بالاعتماد على النظريات التقليدية للوضعية الجديدة.

د ـ وهناك «الجدليون» (وراجع حولهم الفصل الثاني عشر. «خامسا»).

هـ ـ وكثيرا ما يوضع أيضا فى عداد ممثلى «الفلسفة التحليلية» فلاسفة مستقلون أو منتمون إلى تيارات مختلفة تماما عن التيار الوضعى، ويكونون ممن يمارسون التحليل التفصيلى الدقيق لمفاهيم العلم والفلسفة وطرائقهما، وذلك بمعونة المنطق الرياضي على الخصوص، ولكن هؤلاء المفكرين، و«الجدليين» كذلك، لا ينتسبون إلى الفلسفة المادية، فالذى يجمعهم مع ممثلى «الفلسفة التحليلية» هو تشابه المناهج وحده.

الفصل السابع
المـــادية الجـدليـة

أولا : خصائصها

تحتل المادية الجدلية مكانا شديد الخصوصية في الفلسفة الأوربية في القرن العشرين. فهى، أولا، غير ممثلة، أو يكاد، فى الدوائر الجامعية الاكاديمية ما عدا في روسيا، حيث تمثل هناك الفلسفة الرسمية وتتمتع بامتيازات لا تتمتع بها أية فلسفة في أى بلد آخر. وهى ثانيا تمثل فلسفة حزب سياسى، هو الحزب الشيوعى، وهي بالتالى وثيقة الارتباط بالنظريات الاقتصادية والسياسية لهذا الحزب الذى يعتبر المادية الجدلية «نظريته العامة»، وهى مكانة فريدة لا مثيل لها، ولا تسمح السلطات فى روسيا، حيث يسيطر الحزب الشيوعى، باعلان أية فلسفة أخرى غير المادية الجدلية، بل إن تفسير النصوص الأساسية للمذهب يخضع لرقابة شديدة الصرامة. وهذه الرقابة، مضافة إلى الطابع القومى الروسى أيضا على ما يبدو، تفسر بعض السمات الغريبة للمنشورات الفلسفية للمذهب. ذلك أن كل ما يكتب هناك يتميز عن سائر الكتابات الفلسفية فى البلاد الأخرى بأنه على نمط واحد لا يتغير، وكل المؤلفين يقولون نفس الشيء بالتمام، كما تتميز تلك الكتابات بالاتيان بنصوص لا حصر لها من المؤلفين المؤسسين للمذهب، وهذه النصوص تؤيد القضايا المطروحة بشكل لا يسمح بالشك في ولائها. وربما كانت تلك الرقابة هى السبب في تواضع مستوى فلاسفة تلك المدرسة، ولكنها، على التأكيد، هى المسئولة عن النزعة الدجماطيقية الشديدة للمادية الجدلية، وعن سمة التزمت الوطنى، وعن طابعها العدوانى بإزاء المذاهب الأخرى.

ولكن هناك طابعا أهم من هذه الخصائص التى عددناها والتى ربما كانت

خصائص عريضة، ذلك هو الطابع الرجعي للمادية الجدلية، بمعنى أن تلك الفلسفة ترجع فى الواقع وبشكل مباشر إلى عصر منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، وتحاول أن تعيد إلى الحياة الموقف العقلى الذى كان سائدا فى تلك الاثناء، وبدون أدنى تعديل.

ثانيا: أصولها ومؤسسوها

يرى الروس أن مؤسس المادية الجدلية هو كارل هينرش ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م)، المؤلف الاقتصادى المشهور، الذى تعاون معه تعاونا وثيقا فردريك انجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥م). وكان ماركس من اتباع هيجل. وقد تكوّن فى الفترة التى كان يدرس أثنائها، فى جامعة برلين (١٨٣٧ - ١٨٤١م)، جناح يمينى وآخر يسارى بين اتباع هيجل.

وقد كان لودفيج فويرباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢م) هو الممثل المشهور لليسار الهيجلى، وقدم تفسيرا ماديا لنظام هجيل، وتصور تاريخ العالم، ليس على أنه مظهر لتطور العقل أو الروح كما قال هيجل، بل على أنه مظهر لتطور المادة. وقد ارتبط ماركس بهذا الفيلسوف ارتباطا قويا، ولكنه وقع في نفس الوقت تحت تأثير المادية العلمية التى كانت وليدة آنذاك، وهو ما يفسر حماس ماركس للعلم، وعقيدته العميقة الساذجة فى التقدم وتعاطفه مع مذهب التطور الذى قدمه دارون.

وكان ماركس نفسه عالم اقتصاد فى المحل الأول وعالم اجتماع وفيلسوفا اجتماعيا. وهو الذى أسس المادية «التاريخية»، بينما تضع كتابات انجلز الأسس الفلسفية العامة للنظام، أى للمادية «الجدلية»، وذلك من حيث الأساس. وهذه المادية الجدلية هى عبارة عن تركيبة تجمع بين الجدل الهيجلى وبين مادية القرن التاسع عشر الميلادى فى أوربا.

وقد أخذ فلاديمير اليتش أوليانوف (المشهور باسم لينين، ١٨٧٠ - ١٩٢٤م) بنظريات ماركس وانجلز وفرضها على الحزب الشيوعى. ولم يعدل لينين من هذه النظريات إلا قليلا جدا، ولكنه طورها أثناء جداله مع التفسيرات الميكانيكية

والتجريبية النقدية التى قدمت لتلك النظريات. ثم جاء معاونه وخليفته على رأس الحزب، جوزيف فيساريونوفتش جوجا شفيلى (المشهور باسم ستالين، ولد ١٨٧٩م)، فوضع مذهب ماركس فى نظام شامل وفق تفسير لينين له. والفلسفة التى انتهت إلى هذه الصيغة هى التى يعبر عنها بإسم «الماركسية اللينينية»(١٥٨)، وهي ينظر إليها فى روسيا على أنها كل لا ينقسم ولا يمكن نزع جزء منه. وتقدم هذه الفلسفة على هيئة موسوعات، وعلى هيئة كتب متوسطة الحجم وكتب عقائدية موجزة، وهى تكوّن موضوع منهج مقرر فى جامعات الدولة السوفيتية. ولكن مؤلفى كتب الفلسفة الماركسية بغير أهمية كبيرة، لانهم، كما سبق القول، لا يفعلون شيئا إلا أن يرددوا لينين وستالين.

ثالثا: تطور المذهب فى روسيا

لا شك أن المقام يقتضى بعض الاشارات حول الفلسفة فى روسيا السوفيتية، لأن الفلسفة السوفيتية والمادية الجدلية هما واحد ونفس الشىء، والآخذون بالمادية الجدلية لا أهمية لهم إلا بقدر اتفاقهم مع الفلاسفة الروسيين. وعلة هذا أن المادية الجدلية قد اكتسبت تأثيرها لا من شىء إلا من سلطة الحزب الشيوعى السوفيتى، وهذا الحزب شديد المركزية ولا يسمح إلا بما يطابق المعايير الروسية.

يمكن أن نميز بين أربع مراحل فى تطور الفلسفة السوفيتية :-

١ - من ١٩١٧ إلى ١٩٢١م، بعد فترة الحرب القصيرة(١٥٩) التى سادت فى أثنائها حرية نسبية، ألقي القبض على كافة الفلاسفة غير الماركسيين، ونفي بعضهم خارج روسيا وأعدم البعض الآخر.

٢ - تميزت الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٠م. بمناقشات شديدة وحامية بين المدرسة المسماة «بالميكانيكية» وتلك التى سميت «بالمثالية المنشفية»(١٦٠).

---

(١٥٨) هناك تفسيرات أخرى للماركسية غير هذا التفسير، ولكنها أقل أهمية منه بكثير، ولن نعرض لها هنا. (هامش من المؤلف).

(١٥٩) أى من ١٩١٤ إلى ١٩١٧م.

(١٦٠) نسبة إلى «المنشفيك»، أى الأقلية باللغة الروسية.

والمدرسة الأولى لم تكن تـريد أن ترى فى المادية الجدلية غير مذهب مـادي خالص، على حين أن الثانية، التى كان يقودها ديبـورين، اجتهدت فى الاحتفاظ بالتوازن بين عامل المادية وعامل الجدلية.

٣ ــ فى ١٥ ينـاير سنـة ١٩٣١م. أدانت اللجنـة المركـزية للحـزب المدرستين معـا، وبدأت بذلك مـرحلة ثالثة (١٩٣١ ـ ١٩٤٦م)، فيهـا سقطت الحياة الفلسفية فى سبات عميق، مع استثناء كتيب أخرجـه ستالين في عام ١٩٣٨م. وما يخرجه الفلاسفـة فى هذه الفترة لا يزيـد عن أن يكون تعليقـات على نصوص المؤسسين للمذهب أو كتبا لعموم القراء تبسط المذهب لهم.

٤ ـ وتبدأ المرحلـة الرابعة بخطاب ألقـاه جدانوف في ٢٤ يونيـو سنة ١٩٤٧ بأمر من اللجنـة المركـزية ومن ستـالين، وفى هـذا الخطـاب يـدين جدانـوف واحـدا من الفلاسفـة الروس المهمين، وهو الكسـاندروف، ويطـالب الفلاسفة الـروس بنشاط منظم أكثر فعـالية عن ذى قبل. وقـد كان لهذه الـدعوة نتائج فـورية، وتميـزت سنة ١٩٥٠م. بظهـور مناقشـات عديـدة وحـامية حـول تفسير المؤلفين المؤسسين بشأن مسائل لم يوضح الكتيب الـذى أخرجه ستالين الموقف الـرسمى منها. ولنشر هنا إلى إدانة كتـاب «المنطق» من تأليف آسموس بسبب «طـابعة اللاسيـاسى والموضوعى» (في عام ١٩٤٨م)، وإلى تراجع كـدروف عن محاولته الوقوف فى وجه النزعـة القومية المتطـرفـة (في عـام ١٩٤٩م)، وإلى الهجمات التى يتعـرض لها، في العـام الحالى ١٩٥٠م، كتاب رُبنشتين المعنون «علم النفس العـام»، وعلى الأخص إلى المناقشات التى دارت بشأن الكتـاب الهام الذى أخـرجه مـاركـوف والمعنون «في طبيعـة المعرفـة الفيـزيقية» (١٩٤٧م)، والـذى اتهمـه ماكسيمـوف بأنـه خارج عن الخط الـرسمي (١٩٤٨م)، ثم أدين رسميا (١٩٤٩م).

ويظهر نفس خط التطور فى ميدان علم النفس. فإذا كانت كلمة «علم النفس» (السيكولـوجيا) تعتبر فى وقت مضى فى الاتحاد السوفيتى كلمـة غير معتمدة وينبغى تلافى استخدامها، وقد حاول البعض استعمال تعبير «علم ردود الأفعال» أو تعبيرات

غيره بدلا من «علم النفس»، إلا أن كلمة «علـم النفس»، وكذلك كلمة «المنطق»، وكانت مستبعدة رسميا هى الأخرى، عادت بعد ذلك إلى الاستعمال.

فى خـلال كل هذه المنـاقشات، وفي خـلال الخلاف حول مشكلـة علم الوراثـة أيضـا (١٩٤٨)(١٦١)، قام م.ب. ميتين بدور سيء، حيث يظهـر أنه المتحدث باسم الحكومة، وقد شارك فى كل الادانات الرسمية التى صدرت فى حق زملائه ذوى التفكير الحر إلى درجة لا يـرضى عنها الحزب. ويبـدو أن ميتين هو أهـم ممثلى المادية الجدلية في فترة حوالى منتصف القرن العشرين الميلادى.

وعلينا أن نلاحظ أن كل هذه المنـاقشات ظلت دائما فى حدود المادية الجدلية وفي إطارها ولم تخرج عليها، كما أنها لم تمس أيا من القضايا الرئيسية للنظام الفلسفى الذى أقره ستـالين، وطريقـة هذه المنـاقشات كلهـا تنحصر فى محاولة اتهام كل طـرف من جانب الطرف الآخـر، بأنه خارج على أفكار مـاركس وإنجلز ولينين. ومن الطريف الجديـر بـالملاحظة قلـة الإشـارة إلى مـاركس نفسه والإشـارة على الأخص إلى إنجلـز ولينين.

رابعا: المادية

يرى المذهب المادى أن العـالم المادى هو وحـده العالم الحقيقى، وأن العقل ليس إلا نتـاجا لعضـو مادى، الـذى هو الـدماغ. ويـرى كذلك أن التعـارض بين المادة والوعى(١٦٢) لا قيمة له إلا فى نظرية المعرفة، أما فى نظرية الوجود فلا يوجد شيء غير المادة.

وإذا كان الماديون الجـدليون ينتقدون النظريـات المادية السابقة، إلا أن هذا النقد لا يهدف إلى هـــدم الماديــة ذاتها، وإنما يشير إلى غيـــاب العنصر الجدلي في تلك

(١٦١) أظهـر هـذا الخلاف مدى تـدخل اللجنـة المركـزيـة للحـزب الشيوعى السـوفيتى وأجهـزتـه الأيديولـوجية في توجيه البحـوث والنظريات العلمية، ونصب الحزب نفسـه حكماً فى موضوع صحة النظريات وخطئها.

(١٦٢) وهو تعارض قد يدل على استقلال الوعى عن المادة.

النظريات التقليدية، أى غياب تصور صحيح عن التطور[١٦٣].

وتتوقف قوة المادية الجدلية على المعنى الذى تحدده لكلمة «مادة» بطبيعة الحال. وهنا نجد أن تعريف لينين للمادة يثير بعض الصعوبة. ذلك أن لينين يقول إن المادة ما هى إلا «فئة فلسفية تستخدم للاشارة إلى الحقيقة الموضوعية»[١٦٤]، وعلى حين أن نظرية المعرفة تعارض المادة بصفة عامة بالوعى، فإن هذا التعريف يوحد بين المادة و«الوجود الموضوعى». ومع ذلك، فإنه لا يوجد شك ممكن حول الموقف المادى، لأن الماديين الجدليين يقولون فى نفس الوقت بأننا لا نعرف المادة إلا عن طريق حواسنا، وأن المادة تخضع لقوانين حتمية، وهى قوانين سببية خالصة، وأنها تقف فى ازاء الوعى. وبايجاز، فإنه من الواضح أن كلمة «مادة» لا تعنى عند الماديين الجدليين شيئا آخر غير المعنى المادي لها فى الاستعمال العام. وهكذا فإن المادية الجدلية لا تزال مادية تقليدية ومتشددة.

ولكن هذه المادية ليست مادية ميكانيكية. ويقول المذهب الرسمى الماركسى فى الاتحاد السوفيتى إن المادة غير العضوية وحدها هى التى تخضع للقوانين الميكانيكية، ولا تخضع لها المادة الحية، التى تحكمها قوانين حتمية وسببية، ولكنها ليست ميكانيكية. وحتى فى علم الطبيعة، لا يدافع الماديون الجدليون عن نظرية ذرية مطلقة[١٦٥].

خامسا: التطور الجدلي، الواحدية والحتمية

يرى الماركسيون أن المادة في تحول وتطور دائمين، وبسبب هذا التطور تتكون دواما موجودات جديدة أكثر تعقيدا من سابقاتها: الذرات، الجزئيات، الخلايا الحية، النباتات، الإنسان، المجتمعات.

ولا يتصور الماديون الجدليون التطور على الشكل الدائرى، بل هو تطور خطى أو طولى، وهو بهذا يعد، بمعنى ما من المعانى، تطورا تفاؤليا: ذلك أن آخر حلقة منه

---

(١٦٣) هذا «التصور الصحيح» هو الذى ينظر إلى التطور من خلال الجدل.

(١٦٤) «فئة» (Category)، أو «مقولة».

(١٦٥) «مطلقة»، أى لا تعرف إلا تفاعل الذرات فيما بينها.

هی دائما أكثـر تعقيدا وتـركيبا، ويـوازی الماركسيـون بين الأكثر تعقيـدا والأفضل أو الأعلى. وهكذا نجد أن الماديين الجدليين لا يزالون متشبعين تماما بالاعتقاد الذى كان سائدا فى القـرن التاسع عشر الميلادى فى الفكـر الغربى بأن التطور يـؤدى بالحتم إلى التقدم.

ولكن الماركسيين يتصـورون هذا التطور على هيئـة سلسلة مـن الطفرات: فحين تتراكم مجموعة من التغيرات الكمية الصغيرة فى داخل وجـود الشيء، فإنه ينتج عنها نوع من التوتـر ومن الصراع، حتى لتصبح هذه العناصر الجديـدة، فى لحظة معينة، قوية إلى درجـة تجعلها قادرة على كسر التوازن السـابق في وجود الشيء، وفجأة تظهر كيفية جديدة ابتـداء من تلك التغيرات الكمية المتراكمة(١٦٦). وهكـذا فإن الصراع هو القوة الدافعة للتطور، وهذا التطور يحدث عن طريق قفزات. هذا هو ما يسمونه بالتطور الجدلى.

كل هذه العملية التطورية تجرى بغير هدف سابق محدد من قبل، وهي تتم تحت ضغط عوامل سببية خالصة(١٦٧)، أى على هيئة صدامات وصراعات. إن العالم، عند المادية الجدلية، ليس له لا معنى ولا هـدف، إذا أردنا الحديث على الدقة، وهو يتطور على غير هدى تطورا أعمى، خاضعا لقوانينه الدائمة الثابتة والقابلة للحساب والاحصاء.

ولا يوجد شيء ثابت، فالعالم كله وكافة عناصره فريسة للتطور الجدلى، والقديم يمـوت وينشأ الجديد، دائما وفى كل مكـان. فليس هناك من جـواهر دائمـة ولا من «مبادىء خـالدة». الـذى يبقى وحده دائما خـالدا فى الحركـة الكونيـة هو المادة من حيث هي مادة وقوانين تحولاتها.

ويرى الماديون الجدليـون أنه ينبغى أن نتصور العالم على هيئـة كل موحد. وعلى

(١٦٦) المثال التقليدى للانتقال من التغير الكمـى إلى التغير الكيفى هو غليان الماء وتحوله إلى بخار. ولهذا المبدأ تطبيقات تاريخية وسياسية متعددة، وخاصة في تفسير الثورات.

(١٦٧) إذن فلا غائية ولا هدفية ولا عناية من قوة عظمى.

خلاف الميتافيزيقا، التى تجد فى العالم، على ما يقول الماركسيون، موجودات متعددة لا رباط بين بعضها والبعض، فإن الماديين الجدليين يعلنون مذهب الواحدية، وذلك بمعنى مزدوج:

- فالعالم عندهم هو الحقيقة الوحيدة (فلا شيء خارج العالم، وعلى الأخص الاله).
- ومبدأه متجانس(١٦٨). فى جوهره، فينبغى رفض القول بالثنائية أو بالتعددية على أنه خطأ.

إن القوانين التى تحكم هذا العالم قوانين حتمية بالمعنى التقليدى للحتمية(١٦٩) ولكن الواقع أن الماديين الجدليين لا يريدون أن يطلق عليهم لقب «الحتميين»، وهذا لأسباب معينة. ذلك أن مذهبهم يرى أن نمو النبات مثلا لا يحدده قوانين هذا النبات وحسب، لأن علة خارجية، مثل الثلج، قد تعطل تلك القوانيين عن العمل والتأثير. ولكن اذا ارتفعنا إلى مستوى الكون ككل، فإن الماديين الجدليين يستبعدون بطبيعة الحال تدخل أى نوع من المصادفة. فمجموع قوانين العالم تسيطر سيطرة كاملة بغير استثناء على مجموع صيرورة الكل.

سادسا: النفس والمجتمع

الوعى، أو العقل، ما هو، عند الماركسيين، إلا ظاهرة تابعة، هو «نسخة، انعكاس، صورة فوتوجرافية» للمادة (حسب تعبير لينين)(١٧٠). إن الوعي عندهم لا قائمة له بدون الجسم، وما هو إلا إنتاج تنتجه الدماغ(١٧١). إن المادة هى دائما المعطى الأول(١٧٢)، أما الوعى، أو العقل، فإنه المعطى الثانى أو التالى دائما.

---

(١٦٨) التجانس هو كون مكونات الشيء من نوع واحد، من نفس «الجنس».

(١٦٩) أى مجرد القول بأن لكل معلول علة.

(١٧٠) لاحظ أن المذهب السوفيتى يشير كثيرا إلى لينين، وهى سابقة خطيرة في تحويل رجل السياسة إلى فيلسوف.

(١٧١) أى تنتجه مادة وإن تكن حية.

(١٧٢) ستكون هناك معطيات ثانية أو ثانوية، من أهمها الوعى ذاته وكل منتجاته من فكر وأخلاق ودين وفن وتنظيم اقتصادى وسياسى.

وينتج عن ذلك أن الوعى ليس هو الذى يحكم المادة(١٧٣) ويقودها، وإنما هى المادة التى تحكم الوعى وتوجهه(١٧٤). وهكذا فإن علم النفس الماركسى علم مادى وحتمى معا.

ومع ذلك، فإن الاتجاه الحتمى الماركسى أكثر تدقيقا وأقل فجاجة من الاتجاه الحتمى عند الماديين السابقين.

ويظهر هذا أولا فى أن الماديين الجدليين، كما رأينا عند الحديث عن موقفهم من المصادفة(١٧٥)، يرفضون لصق صفة الحتمية عليهم. وهم يرون في هذا الصدد أن الحرية تقوم في إمكان أن يتوصل الانسان إلى جعل قوانين الطبيعة تنتج له ما يشاء من منتجات. وإذا كان الإنسان نفسه، مع ذلك، يظل خاضعا للحتمية التى تفرضها عليه القوانين الإنسانية، إلا أنه يبقى واعيا بخضوعه ذاك، وكما قال هجيل فإن الحرية ما هى فى الواقع إلا «الوعى بالضرورة». ومن جهة أخرى، فإن الماديين الجدليين يرون أن المادة لا تحدد الوعى وتوجهه بشكل مباشر أوتوماتيكى، إنما هى تفعل ذلك من خلال توسط المجتمع بينها وبين الانسان.

إن الإنسان عند الماركسيين كائن اجتماعى فى جوهره، وبدون المجتمع لا يستطيع الإنسان العيش. فهو لا يمكنه أن ينتج ضرورات الحياة اللازمة لبقائه إلا فى إطار المجتمع. ولكن أدوات ذلك الإنتاج ومناهجة تعود بدورها لكى تحدد أول ما تحدد العلاقات الإنسانية بين البشر بعضهم وبعض، تلك العلاقات التى تنشأ بسبب الإنتاج وتعتمد عليه، ومن خلال تحديد تلك العلاقات الإنسانية، فإن أدوات الإنتاج ومناهجه تصل إلى تحديد وعى الإنسان(١٧٦).

---

(١٧٣) يجب تعميم هذه القضية بحيث يندرج تحت «المادة» كل التنظيمات الانسانية التى تتجسد فى أشياء وأعمال وقواعد.

(١٧٤) من هنا فإن الاقتصاد مثلا هو الذى يوجه الفكر والاخلاق والدين وليس العكس.

(١٧٥) راجع فيما سبق على الفور، «خامسا».

(١٧٦) وهذا هو نتيجة كل ما سبق ومعناه. ويرى الماركسيون أن الفن نفسه يتحدد ابتداء من النظام الاقتصادى القائم.

هذه إذن هى القضيـة الأساسية التي تقدمهـا المادية التاريخية : إن كل مـا يفكره الإنسان ويرغب فيـه ويريده، إلى غير ذلك(١٧٧)، ما هـو فى نهاية الأمـر إلا نتيجة تنتج عن حاجاته الاقتصادية، التى تحددها طرق الانتاج والعلاقات الاجتماعية التى يخلقها هذا الانتاج(١٧٨).

هذه الطرائق وتلك العـلاقات تتنوع بغير توقف، وهكـذا يخضع المجتمع لقانون التطـور الجدلى، هـذا القـانـون الـذى يعبر عن نفسـه فى الصراع الاجتماعى بين الطبقات.

وخـلاصة القـول، إن كل مضمـون الوعـى الإنسانى يحدده المجتمع، ويتعـدل ويتغير ويتنوع بحسب التطور الاقتصادى.

سابعا : نظرية المعرفة

حيث أن المادة هى التى تحدد الـوعى، فإن الماركسيين يـرون أن المعرفـة ينبغى أن ينظـر إليهـا بنظـرة «واقعيـة» تحترم الـوقـائع : فـالـذات العـارفـة لا تنتج الموضـوع المعـروف(١٧٩)، إنما الموضوع يوجد قائما بذاتـه ومستقلا عن الذات. وما هى المعرفة إذن إلا أن توجد فى العقل نسخ أو انعكاسات أو صور فوتوجرافية للمادة؟

أما العالم، فإن الماركسيين لا يـرون أنه غير قابل للمعرفـة، بل هو، على العكس تماما، قابل للمعرفـة وإلى الحد الأقصى، أى على التمام. ويرى الماركسيون، بطبيعة الحال، أن منهج المعـرفة الحقيقى إنما يقوم فى العلـم الطبيعى الذى يسير يدا بيـد مع الفعل التكنيكي(١٨٠)، وترى الماركسية أن تقدم التكنولوجيـا يبرهن برهانا كافيا على ضعف مواقف القائلين بعدم إمكان المعرفة(١٨١).

(١٧٧) إلى غير ذلك من كل مظاهر الحياة العقلية.

(١٧٨) طرق الانتاج الزراعى تختلف عن طرق الانتاج الصناعى، ولهذه نوع من العلاقات الاجتماعية غير تلك.

(١٧٩) من المعروف أن بعض المذاهب المثالية وصلت إلى القول بهذا على الدقة، ومنها مذهب برادلى: «الوجود هو الادراك».

(١٨٠) المقصود هنا تلازم النظر والعمل، أو النظرية والتطبيق.

(١٨١) لأن التقدم التكنولوجى يأتى بجديد دائما، فهناك إذن اكتشاف، أى معرفة.

إن المعرفـة عند الماركسيين هى فى المحل الأول المعـرفة الحسيـة ، ولكنهم يرون مع ذلك أن التفكير العقلى ضرورة من أجـل تنظيم معطيـات التجـربـة . ولهذا فإنهم يعتبرون أن المذهب الوضعى ما هو إلا «ألعاب سحرة برجوازية» ونوعا من «المثالية» ، ذلك أن الواقع أن الانسان لا يدرك جوهر الأشياء إلا من خلال الظواهر.

وهكذا فإن نظريـة المعرفة الماركسية تظهر على هيئة مذهب واقعى مطلق وساذج من نوع النظريات التجريبية المعروفة(١٨٢) . ولكن نظرية المادية التاريخية تضيف إلى هـذا إضافـة جديـدة متميزة ، وذلك حين تضع إلى جـوار هذه التصـورات الواقعيـة تصورات أخرى ، أهمها تصورات هى من نوع التصورات العملية (البراجماتية) .

ذلك أن القول بـأن مضمون وعى الانسان تحدده احتيـاجاتـه الاقتصاديـة ، هذا القول ينتـج عنه بصفة خـاصة أن كل طبقـة من طبقـات المجتمع لها نوع اقتصـادها الخاص بها ولها نوع فلسفتها الخاصة بها . إن العلم المستقـل ، أى غير المحايد ، هو، في رأى الماركسيـة أمـر مستحيل(١٨٣) . إن الحقيقى هـو الذى يـؤدى إلى النجاح ، ومعيار الحقيقة الوحيد هو العمل (١٨٤) .

هاتان النظريتان ، نظرية الواقعية المطلقة ونظرية أن معيار الحقيقة هو النجاح فى العمل ، تتـواجدان جنبا إلى جنب فى الماركسيـة ، بدون أن يُعْنى الماركسيـون بتحقيق التوافق والانسجام بينهما . وأقصى مـا يفعلونه هو القول بأن المعرفـة الإنسانية تجاهد من أجل الـوصول إلى الحقيقة الكـاملة ، ولكنهـا لا تزال إلى اليـوم نسبية ، وحسب ، وتتناسب مع احتياجات الإنسان(١٨٥) .

ولكن هـذا يُظهـر أن النظـرية الماركسيـة تقع فى تنـاقض هنـا : لأنـه إذا كـانت

---

(١٨٢) يقصد النظريات التى عرفها القرن الثامن عشر والتاسع عشر فى الغرب .

(١٨٣) لأن البنية التحتيـة ، الاقتصاد على الخصوص ، هـو الذى يحدد ويوجـه البنية الفوقيـة ، ومنها العلم .

(١٨٤) لاحظ التشابه الشديد هنا مع البراجماتية الامريكية .

(١٨٥) وليس مع الحقيقة المطلقة .

احتياجات الإنسان هى التى تحدد الحقيقة، إذن فإن المعرفة لا يمكن لها، ولا حتى جزئيا، أن تكون صورة للواقع(١٨٦).

ثامنا: نظرية القيم

رأينا أن مذهب المادية التاريخية يذهب إلى أن كل محتوى الوعى يعتمد على الاحتياجات الاقتصادية وهذه الاحتياجات الاقتصادية بدورها فى تغير وتقلب دائمين. وينطبق هذا خاصة على الاخلاق والاستيطيقا(١٨٧) والدين.

وفيما يخص الأخلاق، فإن المادية التاريخية لا تعترف بوجود أية قوانين خالدة دائمة أبدية على الاطلاق، إنما لكل طبقة اجتماعية نظامها الأخلاقى الخاص بها. والبروليتاريا، أو الطبقة العاملة، وهى الطبقة التى ترى الماركسية أنها تحمل لواء التقدم وأنها الأقدر على تحقيقه، هذه الطبقة تضع لنفسها قاعدة أخلاقية عليا، تقول: إن الذى يؤدى إلى تحطيم عالم البرجوازية هو وحده خير أخلاقى.

أما فى ميدان الاستيطيقا (فلسفة الجمال والفن)، فإن مواقف الماركسية ليست قاطعة محددة واضحة وضوحا كاملا.

وترى الماركسية في هذا الميدان أنه ينبغى الاعتراف بأن هناك عنصرا موضوعيا يقوم فى الواقع ذاته، أي فى داخل الأشياء نفسها، هذا العنصر الموضوعى هو الذى تتأسس عليه تذوقاتنا الجمالية، وهو الذى يسمح للإنسان بأن يحكم على شىء بأنه جميل أو قبيح.

ومن ناحية أخرى، فإن التذوق الاستيطيقى (الجمالى) يعتمد أيضا على تطور الطبقات، وحيث أن لكل طبقة حاجاتها الخاصة بها، فإن كلا منها تحكم جماليا على طريقتها. ومن نتائج هذا الموقف أن الفن لا يمكن أن يفصل عن الحياة، كما أنه ينبغى عليه أن يشارك فى صراع الطبقات، وعليه أن يصور الجهود البطولية التى تبذلها

(١٨٦) وهو ما يقوله الأساس النظرى للمادية الجدلية.

(١٨٧) وهى فلسفة الفن، ويقال أحيانا «فلسفة الجمال»، ويقصد الجمال في الفن.

البروليتاريـا فى صراعها من أجـل بناء العالم الاشتراكـى (وهذا هـو مذهب الـواقعية الاشتراكية)[١٨٨].

وفيما يخص الدين أخيرا، فإن النظرية تتغير من جـديد. فترى المادية التاريخية أن الدين ما هـو إلا عبارة عن نسيج من الأقوال الخاطئة والعجيبـة، والتى يدينها العلم الطبيعى[١٨٩]. إن العلم وحده هو الذى يسمح لنا بمعرفة الحقيقة.

وينشأ الـدين من الخوف: فقد شعـر الإنسـان بضعفه أمـام الطبيعة، ثم شعـر بضعفه ثانية بازاء من يستغلونه ويسيطرون عليه من البشر الآخرين[١٩٠]، لهذا فانه اعتبر هـذه القـوى[١٩١] آلهة وعبدهـا. من جهة أخرى فإن الموجـود البشرى وجد تعزيـة له ومواساة ممـا يقع عليه من الظلم، وجدهما فى الدين، وفي الاعتقـاد فى قيام عـالم آخـر بعـد الموت[١٩٢]، وهي مـواساة مـا كـان لـه أن يجدها فى وضع العبـد المستغل.

أمـا من جـانب المستغلين (من إقطـاعيين ورأسماليين وغيرهم)، فإن الـدين فى أيـديهم أداة ممتـازة ليس أفضل منهـا من أجل السيطـرة على الجماهير وكبح جماحهـا والتأثير فيها: فالدين، من جهة، يدعو إلى طاعة المستغلين، ومن جهة أخرى، فهو يحوّل نظـر البروليتاريـا عن الثـورة والتفكير فيها، بـوسيلـة وعـدها بمآل أفضل بعـد الموت.

هذا عن المستغلين، أما البروليتاريـا، وهي التي لا تستغل أحدا، فإنها لا حاجة بها إلى الدين.

---

(١٨٨) سمى أحيانا بمذهب الالتزام.

(١٨٩) تمتلىء المسيحية، حين تعتمـد على «العهد القديم» أو «التـوراة» على الخصوص، بالتقـريرات التى يعـارضهـا العلم. ونتـذكـر الضجـة الكبرى التـى قـامت اثـر ظهـور نظـريـة دارون فى التطور.

(١٩٠) وهم «الابطال»، أو من يتخذون صورتهم بصفة عامة.

(١٩١) أى الطبيعة والأبطال.

(١٩٢) وفيه يجد العدل بعد الظلم.

وإذا كانت الماركسية ترى أنـه ينبغى تغيير وجهة الاخلاق وفلسفة الجمال والفن، فإنها ترى أنه ينبغى إلغاء الدين تماما[١٩٣].

(١٩٣) من المعروف قول ماركس: «الدين أفيون الشعوب».

ملاحظات ختامية انتقادية

حول الفلسفات المادية

إن الحدس [(١٩٤)] الذي يوجد في أساس النظم الفلسفية التي عرضنا لها في هذا الباب، يقوم في إحساس حاد بضخامة الكون الذي يعيش فيه الإنسان إلى حد يبدو وكأنه يهيمن على الإنسان كل هيمنة، ويظهر الإنسان وكأنه كائن ضعيف هش وبغير أهمية تذكر، وقد ألقى به في عالم لا يهتم به بل وكأنه يعاديه.

ومن الواضح أن هذا الإحساس، وهو مادي في جوهره، يمكن أن يتحالف ويتآلف مع موقف رومانتيكي وبطولي، بحيث تكون النتيجة هي الذهاب إلى أن على الإنسان، الذي يتضاءل في الكون اللانهائي إلى حد أن يضيع أو يكاد، على هذا الإنسان أن يتمالك قواه للمحافظة على ذاته باستخدام قدراته هو وحدها، وذلك بوسيلة العلم. ومن هنا تظهر عبادة العلم الطبيعي والتكنولوجيا وتمجيد العقل الإنساني.

وإذا كان صحيحا أن كل أصحاب المذهب التجريبي يشتركون في وجود هذا الحدس الأساسي عندهم، فان هناك بين بعضهم والبعض من الفروق والاختلافات مايجعل وضع خصائص عامة للمذاهب التجريبية ككل عملا صعبا.

١ ــ ولكن إحدى هذه الخصائص العامة للاتجاه التجريبي أن معظم ممثليه يميلون إلى إبراز موضوعية المعرفة الإنسانية وقوتها النسبية.

---

(١٩٤) المقصود «الفكرة الأساسية».

٢ ـ كذلك فان التجريبيين كلهم يقولون، مع اختلاف في درجة التأكيد، بأن العقل لا يخلــق العالم[١٩٥]، وإنما يوجــد العالم ويقوم مستقــلا عن الوعي الإنساني [١٩٦]، ويقولون جميعا بإمكان قيام معرفة عقلية للعالم.

ويقتضي الدفاع عن هذه المواقف أن يعارض التجريبيون بشكل قوي الخطر الذي يتهدد الحضارة الغربية والمتمثل في الاتجــاه «اللاعقلاني» وفي الاتجــاه «الــذاتي» [١٩٧]. كذلك فإن كثيرا من المفكرين الذين أوردنا آراءهم، وخاصة أصحاب الاتجاه التحليلي منهم، أفادوا فائدة عظيمة من تقدم البحث في مناهج العلوم الطبيعية وفي المنطق.

إذا كانت هذه هي الجوانب «الإيجابية» في المذاهب التجريبية، فإن جوانبها «السلبية» أظهر منها وأعظم:

١ ـ إن كل هذه المذاهب التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين الميلاديين ترجع بشكل أو بآخر إلى موقف فلسفي كانت الحياة العقلية الأوربية قد تركته خلف ظهرها منذ زمن بعيد، وهي من هذه الجهة، أي تلك المذاهب، وخاصة مذهب المادية الجدلية، تمثل في القرن العشرين الميلادي ردة إلى الخلف ورجعة إلى الوراء من الوجهة الفلسفية.

٢ ـ هذه المذاهب تتميز بضعف كبير في بنيانها النظري. وليس هناك شيء يقال عن المادية الجدلية أكثر من أنها لا تكاد تتعدى في معظم الأحيان مواقف قال بها الفلاسفة اليونان السابقون على سقراط [١٩٨]. أما عن الوضعية المنطقية فانها، رغم قوة بنيانها النظري، تقوم على أساس من نظريــة في الوجود (أنطولوجيا) ذات طابع بدائــي[١٩٩]، وعلى أســاس من افتراضات سلمــوا بها من غير أن

(١٩٥) على ضد ما كان يقول هيجل.

(١٩٦)الوعي هنا يعني العقل أو الذهن أو الإدراك.

(١٩٧) يقصد فلسفة الحياة والمثالية، على التوالي.

(١٩٨) يقصد على الخصوص هيراقليطس والمدرسة الذرية.

(١٩٩) راجع في هذا «أسس الفلسفة» للدكتور توفيق الطويل، الطبعة السابعة، ١٩٧٨، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

يبرهنــوا عليها [٢٠٠]. ومن الواضح أن هذه المذاهب «واحدية النظرة»[٢٠١] إلى حد فظيع[٢٠٢].

٣ ـ ولكن الأهم من هذا كله أن كل هؤلاء الفلاسفة الذين درسهم هـذا الباب يقفون حيارى لا يكادون يبينون بشأن كبريـات مشكلات الإنسان، وهي المشكلات التي اهتم بها الفكـر الأوربي في القـرن العشرين الميـلادي أعظم اهتمام. ففيما يخص الألم والعذاب، والأخـلاق، والدين، فإنهم يقتصرون على القـول بأنها أمور لا تحمل مشكلات للفلسفـة، أو قد يقـول بعضهم[٢٠٣] إنه مـن المخالف للعقل اعتبـارها مشكلات فلسفية على الإطلاق.

هـذه المذاهب، بسبب اتجاههــا الـرجعي[٢٠٤]، وبسبب ضعفهــا ووهنهــا النظري، وبـسبب عـدم اكتراثها بكبريات مشاكل المصير الإنسـاني، هذه المذاهب تمثل أقل ما قـدمه الفكر الغربي الأخير من حيث القيمـة، هذا إذا استثنينا ما قـدمه الفلاسفة التحليليون من مساهمات في مجال مناهج البحث العلمي والمنطق.

وبصفـة عـامـة فـان فلسفـة الغـرب في منتصف القـرن العشرين الميـلادي قـد تجاوزت، في مجموعهـا، ليس قضايا هـؤلاء الفلاسفـة الماديين وحسب، بل وكذلك مشكلاتهم[٢٠٥].

---

(٢٠٠) راجع فيما سبق، «خامسا»، من الفصل السادس

(٢٠١) يقصد فكرة التحزب والتعصب.

(٢٠٢) هكـذا الترجمة الحرفيـة، وهـو تعبير انفعالي في إطـار كـان يستلـزم لغـة عقليـة، كتلك التي يستخدمها المؤلف في السطر السابق مباشرة.

(٢٠٣) يقصد الوضعية المنطقية.

(٢٠٤) يقصد اعتمادها على نظريات تنتمي إلى العصور البائدة.

(٢٠٥) يقصد أنها لم تعد تهتم بمعالجتها.

الباب الثالث

الفلسفات المثالية

سبق أن قلنا إن المثالية هي التيار الفلسفي الثاني الذي يواصل في القرن العشرين الميلادي التعبير عن الفكر الذي تميز به القرن التاسع عشر. وإذا كانت المثالية في الربع الأول من القرن العشرين تمثل تيارا ذا أهمية كبرى، إلا أن تأثيرها تناقص إلى درجة كبيرة في خلال الربع الثاني، إلى درجة أن المثالية أصبحت أضعف من التجريبية، وأنه يمكن اعتبارها أقل التيارات الفلسفية تأثيرا في منتصف القرن العشرين.

ودليل ذلك، أنه لا يكاد يوجد من يمثلها في إنجلترا، وفي ألمانيا تراجعت المدارس الكانتية الجديدة لتحتل مكانا من الدرجة الثانية، بينما كانت قد بلغت أوج قوتها حوالي عام ١٩٢٠، وفي فرنسا، لم يعد يوجد للمثالية مفكر قوى بعد أن مات ليون برنشفيك، وفي إيطاليا ذاتها، حيث سيطر كل من كروتشه وجنتيلي على مسرح الفكر الإيطالي في خلال عقد كامل من الزمان وأظهرا إلى الوجود تيارا قويا، فإن الفكر المثالي في إيطاليا أصبح من ذكريات الماضي في منتصف القرن العشرين.

ولكن ذلك لا يمنع من القول إن تأثير المثالية كان عظيما إلى وقت قريب، وأنه لا يزال لها بعض التأثير في صور مختلفة، عند كارل ياسبرز(٢٠٦) مثلا، بل وكذلك عند بعض أتباع الاتجاه التوماوي(٢٠٧).

ولهذا كله فإننا سوف نعرض بإيجاز لبعض ممثلي هذا الاتجاه المثالي. وقد اخترنا كلا من بندتو كروتشه الإيطالي، وليون برنشفيك الفرنسي، وبعض فلاسفة الكانتية الجديدة الألمان. وهناك نوع من الترتيب التصاعدي بين هؤلاء الثلاثة، حيث أن كروتشه شديد القرب من الاتجاه الوضعي، بينما يتعمق بعض الكانتيين الجدد ليقتربوا من بداية الفلسفة الفينومينولوجية(٢٠٨).

وهناك اختلافات وفروق بين هذه الاتجاهات الثلاثة، وهي أبرز من أن تهمل.

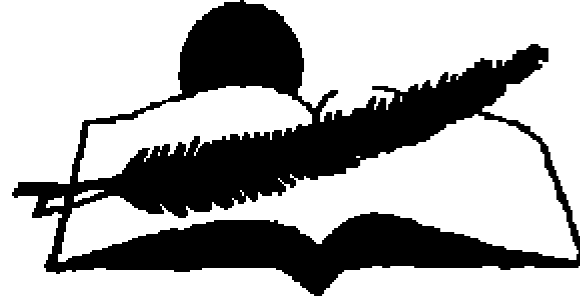
---

(٢٠٦) الفيلسوف الوجودي. انظر الفصل العشرين.

(٢٠٧)راجع الفصل الرابع والعشرين

(٢٠٨) وهي التي تقترب من المثالية.

فالواقع أن كروتشه في جوهره فيلسوف هيجلي، بينما يميل برنشفيك إلى موقف شديد الذاتية[٢٠٩]، على حين أن الكانتيين الجدد، وهم الذين ينتسبون جميعا إلى كانت، يتعارضون فيما بينهم تعارضا شديدا. ولكن هناك سمة مشتركة بين هؤلاء الكانتيين الجدد: ذلك أنهم مثاليون فيما يخص نظرية المعرفة، وهم على الأخص مثاليون موضوعيون، بمعنى أنهم يرون أن العقل الموضوعي يقوم مباطنا للواقع كله، وأنه يخلق الصور والأشكال التي تظهر في الطبيعة وفي النفس الإنسانية، أو أنه هو نفس هذه الصور والأشكال.



(٢٠٩) أي التأكيد على الأولوية المطلقة للوعي.

الفصل الثامن
بنــدتـو كـروتشــه [٢١٠]

أولا : الفلسفة الإيطالية ومكان كروتشه فيها

لا يختلف الوضع العـام للفلسفة الإيطاليـة في نهاية القرن التـاسع عشر الميلادي اختلافا جوهريا عن أمثاله في بلاد أوربا الأخرى في نفس ذلك الوقت .

فقد نشأ المذهب الوضعي في إيطاليا مع مفكرين من أمثال كارلوكاتانيو (١٨٠١ ــ ١٨٦٩م .) وجوسيِّي فـراري (١٨١٢ ــ ١٨٧٦م .) وانـريكو مُـرسللي (١٨٥٢ ـ ١٩٢٩م)، حتى وجد لنفسـه في شخص روبرتـو أرديجو (١٨٢٨ ـ ١٩٢٠م) الممثل القوي الذي بسط نفوذ المذهب حتى أصبحت الـوضعية هي التيار المسيطر في الحياة العقلية الإيطالية في الوقت الذي نتحدث عنه .

ولكن المثـاليـة كانت حـاضرة هي الأخـرى إلى جـانب الوضعيـة ، وقـام كل من أوجستـو فيرا (١٨١٣ ــ ١٨٨٥م)، وعلى الأخص بـرتـرانـدو أسبـافنتـا (١٨١٧ ـ ١٨٨٣م)، بالتقريب بين المثالية وبين الفلسفـة الهيجلية ، وكذلك بينها وبين الاتجاه التأريخي في عصر النهضة الإيطالية[٢١١] .

وظهر في إيطاليا كذلك عـدد غير قليل من ممثلي الفلسفة الكانتية الجديدة ، ومن أهمهم ألفـونسوتستـا (١٧٨٣ ـ ١٨٦٠م) الـذي خلفه في تمثيل هـذا الاتجاه في وقت كروتشه الفيلسوف الساندرو كيابللي (١٨٥٧ ــ ١٩٣٢م) وقد ظهر كذلك عديد من الفلاسفـة الذين دافعوا عن المثاليـة بمفهومها العام ، وكل منهم على طـريقته ، ومن

(٢١٠) Croce ، وله بالعربية كتاب مترجم في فلسفة الفن .

(٢١١) أي المهتم بالتاريخ ، في فترة ١٤٥٠ ـ ١٦٠٠م .

هؤلاء برناردينو فاريسكو (١٨٥٠ ـ ١٩٣٣م).

ومع ذلك، فإن التيار الرئيسي السائد في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي كان التيار الوضعي(٢١٢)، الذي كانت سيادته واضحة حاسمة، ليس عند الفلاسفة المحترفين وحسب، بل وكذلك عند الطبقة المثقفة الإيطالية.

وقد كان كروتشه أول من قام بتغيير سمات هذا الوضع العقلي. وكان كروتشه تلميذا عند أسبافنتا، ولكنه اتجه إلى الفلسفة الهيجلية، وأخذ منها قضاياها ومواقفها الرئيسية، ثم وضعها في ثوب جديد من خلقه هو وينتسب إليه هو. ولكن كروتشه كان متأثرا برغم هذا بالفلسفة الوضعية، بل وبالفلسفة البراجماتية كذلك. كذلك فإن كروتشه إنغمر في شبابه، تحت قيادة لابريولا (١٨٤٣ ـ ١٩٠٣م)، في دراسة المذهب الماركسي، وفي دراسة المذهب التاريخي عند فيكو (١٦٦٨ ـ ١٧٤٤م)(٢١٣)، ويرجع الفضل إلى كروتشه في إعادة الاهتمام إلى فلسفة فيكو بعد طول نسيان، وانغمر أيضا في دراسة تيارات مماثلة في الفلسفة الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. ولكن كروتشه توصل من بعد ذلك كله إلى جمع هذه الاتجاهات المختلفة والمتنوعة في داخل تركيب قوى من عمله هو، وقدمه في بلاغة وقوة إقناع.

ثانيا: حياته وكتاباته وخصائصه

ولد بندتو كروتشه في عام ١٨٦٦م. في بسكاسرولي (مقاطعة أبروتزي)(٢١٤)، وقضى كل حياته في إيطاليا، وتوفي عام ١٩٥٢م وأصبح وزيرا للتربية مرتين، والمرة الأخيرة كانت في حكومة التحرير(٢١٥)، وتعليل هذا أن كروتشه ظل في أثناء الحكم الفاشي، بقيادة موسيليني، أمينا لآرائه اللبرالية والديمقراطية محافظا عليها،

---

(٢١٢) راجع فيما سبق، الفصل الأول، «رابعا»

(٢١٣) Vico ، Labriola. والأول مفكر اشتراكي معروف، والأخير هو أهم فيلسوف إيطالي في القرن الثامن عشر الميلادي.

(٢١٤) منطقة في وسط إيطاليا.

(٢١٥) أي تحرير إيطاليا من الحكم الفاشي بقيادة موسليني، بعد هزيمة إيطاليا ثم ألمانيا في الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥م.

على عكس زميله الممثل العظيم هـو الآخر للاتجاه المثـالي في إيطاليا، جـوفاني جنتيلي (١٨٧٥ ـ ١٩٤٤م). الـذي خدم الحكم الفاشي وأعدمـه الوطنيون الإيطاليـون عند التحرر من الحكم الفاشي.

وأهم تـاريخ في حياة كـروتشه هـو عام ١٩٠٣م، حين ظهـر أول عدد من مجلتـه «النقد»، التي كان هو يحرر معظم مادتها.

وقد أثـرت هذه المجلة تأثيرا حـاسما على الحياة العقلية الإيطـالية. ولم تكن تقصر اهتمامها على الفلسفـة، بل تعدتها إلى التاريخ العـام وتاريخ الفن وعلم الأدب، بل وإلى المسائل السياسيـة. والواقع أن كروتشه كـان عقلا موسوعيـا إلى درجة عظيمة، وقد أثرى كل هذه الميادين بالعدد العديد من الأفكار الجديدة.

ويمكن القول، فـوق ذلك، وعلى أساس من الـوقائع، أن كروتشـه هو في المحل الأول مؤرخ لتاريخ الفنون وناقد أدبي، ثم هو فيلسوف في المحل الثاني. ولكن هذا لم يمنع ثلاثيته الـرائعة، التي ظهرت ما بين عـامي ١٩٠٢ و١٩١٧م. بعنوان «فلسفة العقل» وهي التي تحتوي على مذهب في فلسفة الجمال وفي الأخلاق، وعلى فلسفة في العمل وفلسفة للتـاريخ، ولم يمنعها هـذا من أن تؤثـر تأثيرا قويـا ليس على الفلسفة الإيطالية وحدها، بل وعلى الفلسفة الأوربية في مجملها. ومجلى هذا أن الجزء الخاص بالاستيطيقا (فلسفـة الفن والجمال) ترجم إلى اللإنجليزية وإلى الفـرنسية وإلى الألمانية وإلى الأسبـانية والمجـرية والتشيكيـة، بل وظهـرت للجزء الخاص «بفلسفـة العمل» ترجمة يابانية. أما كتابه «موجز فلسفة الفن»، الذي ظهر عام ١٩١٣، فإنه من أشهر ما نشر في أوربا في موضوعه.

ويتميز أسلوب كروتشـه بالوضوح الشديد، ولكنـه أسلوب كثير الإطناب. ومن الواضح أن كروتشـه كان يهتم بجمال لغته اهتمامًا شديداً ولكن الـروح العلمية كانت هي ضحيـة هـذا الاهتمام الأدبي، لأن الأسلـوب العلمـي يتطلب طـرائق أكثـر دقـة وتدقيقا. وهكذا، فإننا نجد تعريفات كـروتشه في غالب الأحيان تعريفات تفتقر إلى

الضبط والإحكام، على خلاف تعريفات الفلاسفة الكانتيين الجدد الألمان مثلا، كما نجد تدليلاته غامضة معظم الحالات، بل ويحدث أن يضع بدل الدليل مجرد التقرير للقضية مصحوبا بأشد أنواع الهجوم على الخصوم.

وإذا وضعنا هذه الانتقادات جانبا، فلابد من الاعتراف بأن مؤلفات كروتشه تعالج عددا غفيرا من المشكلات، وأن القارىء يجد فيها كثيرا من المواقف الجديدة والطريفة.

والواقع أن كتابات كروتشه، بالإضافة إلى صورتها الأدبية المتميزة ورغم افتقار الصياغة العقلية إلى الدقة والإحكام، تستند مع كل ذلك إلى فكر منظم متصل الحلقات، وأنها تقدم لنا عرضا شاملا لعناصر المثالية الهيجلية والمذهب التاريخي(٢١٦) والوضعية، بحيث تجتمع فيه كل هذه المذاهب معا في تركيب هو من عمل كروتشه. وإذا كان الواقع أن كروتشه لم يعد يتمتع، حتى في إيطاليا ذاتها، بالمكانة المتميزة المتقدمة التي كانت له من قبل، إلا أن كتاباته سوف تظل دائما إنتاجا نموذجيا للمثالية في القرن العشرين الميلادي في الحضارة الغربية.

ثالثا : قضاياه الرئيسية

الأساس المنطقي للنظام الفلسفي الذي قدمه كروتشه هو القول بمذهب متسق في التصورات ونظرية في التركيب الجدلي القبلي(٢١٧).

أما مذهبه في التصورات(٢١٨)، ولا يطلق عليه كروتشه نفسه هذه التسمية، فيقول إن هناك نوعين ونوعين وحسب من المعرفة: المعرفة الحدسية(٢١٩) أو

---

(٢١٦) يقصد المذهب الذي ذاع في ألمانيا وينظر إلى كل شيء من منظور تاريخي. راجع الفصل الثالث عشر.

(٢١٧) سيأتي شرح القضيتين بعد قليل.

(٢١٨) أو «التصورية» Conceptnalism.

(٢١٩) من «الحدس»، وهو الإدراك المباشر الفوري، عقليا كان أم حسيا.

الاستيطيقية (٢٢٠) و ا لمعرفة التصورية أو المنطقية(٢٢١). أما النوع الأول، فانه نوع المعرفـة الحسية، وموضوعهـا هو الجزئي أو الفردي، بينما النـوع الثاني هو نوع المعـرفة العقلية، وموضوعها هو الكليات(٢٢٢).

وتحتوي كتابات كروتشه على صفحات رائعة يقوم فيها بتوجيه الانتقاد إلى المذهب الاسمي الـذي يرفع رايتـه الوضعيون، والـذي يريـد قصر كل معرفـة على تلك التي مصدرهـا الحواس. ومع ذلك، فإن كروتشه لا يرى أن التصـورات الكلية يمكن أن تكـون تصـورات عن العـلاقـات، ذلك أن العقل لا يقـوم بتعـريفنـا على مضمـون الأشيـاء، إنما هو لا يـدرك إلا شيئا واحـدا وحسب: هو العـلاقات التي تقـوم بين الأشياء، أما إدراك الأشياء ذاتها فإنـه يتم بوسيلة الحدوس الحسية(٢٢٣). وبعبـارة أخرى، وكما هـو الحال تماما عند كـانت، فإنه لا يوجـد في رأي كروتشـه حـدس عقلي (٢٢٤)، لأن العقل ليست لـه وظيفـةإلا مجرد الربط بين الحدوس الحسيـة، وبالتـالي فإنه لا يوجد مضمـون عقلي في العالم (٢٢٥). وهكذا فـإن كروتشه يـأخذ بمذهب شديد التطرف في القول «بالتصورية».

أما الجدل (٢٢٦)، فانه يؤدي إلى إدراك أنه لا يوجد في العالم شيء ثابت أو دائم، وإنما العالم هو بالأحرى تيـار من الأحداث متصل لا ينقطع. وتؤدي دراسة الجدل، ثانيـا، إلى إدراك أن هذه الصيرورة(٢٢٧) تتكون، ليس باجتماع الأضـداد في تركيب جديد، كما هو الحال عند هيجل، بل في تركيب من المختلفات، وتحتفظ المختلفات في التركيب بخصائصها الذاتية. وتؤدي دراسة الجدل، ثالثا، إلى إدراك أن الصيرورة

---

(٢٢٠) أي «الحسية»، والكلمة مأخوذة من اصطلاح يوناني يعني «الإحساس Aisthesis».
(٢٢١) وهي التي تتم عن طريق مفاهيم العقل وباستخدام القياس على الخصوص.
(٢٢٢) أنا أعرف صديقي فلانا معرفة مباشرة، أما مفهوم «الإنسان» فإنه مفهوم «كلي» أو «عام».
(٢٢٣) «حدوس» جمع «حدس»
(٢٢٤) لأن وسيلة العقل هي القياس، وبالتالي فإن معرفته دائما غير مباشرة.
(٢٢٥) لأن العالم أحداث وحسب، ولا تأتي العقلانية إلا من العقل
(٢٢٦) وهذه هي النظرية الثانية بعد نظرية التصورية.
(٢٢٧) من «صار يصير»، والمقصود بها التغير الدائم بغير إنقطاع.

ليست مستقيمة الخط في حركتها، بل هي دائرية الخط، لأن كل شرط يتضمن شرطا آخر كامنا فيه. وأخيرا، فإن دراسة هذا الجدل تؤدي إلى إدراك إن الصيرورة الكونية ماهي إلا المظهر متعدد الوجوه متنوعها لحقيقة واحدة وحيدة، تلك الحقيقة هي العقل. ومن الواضح أن هذه المفاهيم الأساسية للجدل عند كروتشه تتفق ظاهر الاتفاق مع مذهب هيجل، وهي لا تختلف عن ذلك المذهب إلا في تعديلات تمس التفاصيل والجزئيات لا أكثر.

والعقل عند كروتشه له أنشطة متعددة، وهو يهتم بالتمييز بين بعضها والبعض.

والتمييز الأساسي يقوم في الفرق بين النشاط النظري للعقل ونشاطه العملي (أو السلوكي أو الفعلي)، ثم يتفرع كل من هذين النوعين بحسب ما إذا كان موضوعه هو المفرد، أو الجزئي، أم الكلي، أو العام. وهكذا فإن كروتشه يميز في النشاط النظري بين نشاط استيطيقي، محوره هو الفردي أو الجزئي، ونشاط منطقي، موضوعه الكلي أو العام، كما يميز في النشاط العملي بين نشاط اقتصادي ذي أهداف جزئية، ونشاط أخلاقي لا ينظر الا إلى معيار الكلي والعام، وعلى نفس هذا النسق، يقسم كروتشه الفلسفة، التي هي علم الحقيقة الوحيدة الواحدة، أي العقل، يقسمها بحسب هذه الطرائق الأربع للنظر [٢٢٨].

رابعا : التركيب الاستيطيقي

إن الاستيطيقا هي علم الحدس الحسي. وهي، بهذه الصفة، تكون أساسا وشرطا لعلم المنطق، وذلك بدون أن تكون هي ذاتها خاضعة خضوعا مباشرا لذلك العلم، والعلة في هذا أنه ليست هناك مفهومات بغير حدوس، وإنما توجد بالفعل حدوس بغير مفهومات[٢٢٩].

---

(٢٢٨) هناك اذن : «المنطق»، الاستيطيقا»، «الاقتصاد»، «الاخلاق».

(٢٢٩) لأن الإدراك الحسي سابق على النشاط العقلي.

وإحـدى الخصائص الأسـاسيـة للحدس الاستيطيقي أنـه لا يمكن فصلـه عن التعبير، فما أن يكـوِّن الشخص حدسـا، حتى يخلق في نفس الآن تعبيرا عنـه. وعلى هذا فليس هنا من اختلاف جوهري بين نشاط الفنان ونشاط غير الفنان(٢٣٠).

ومع ذلك، فان كروتشه، في كتابه «موجـز الاستيطيقا» يقيم نوعـا من التمييز بين نشـاط الفنان ونشـاط غير الفنان، حين يقـدم رأيه القـائل بأن الفن هو تـركيب قبلي(٢٣١) مـزدوج: فهو من جهـة تركيب من صـور حدسيـة، وليس بالتـالي مجرد تراكم من الصور وهو، من جهة أخرى تركيب ما بين الصورة والإحساس(٢٣٢). إن الفن في هذا الرأي هو حدس غنائي، أي أنه حدس تركيبي، وهو، بمعنى ما حدس عضوي كذلك(٢٣٣).

وتحتوي استيطيقـا كروتشـه، وهي مع فلسفته في التـاريخ أكثر ما قـدمه أصـالة وتجديدا، تحتوي على عدد غفير من الإشارات الطريفة ومن المواقف الجريئة الغريبة. ولا نستطيع الدخول هنا بالطبع في تفاصيلهـا، ونتوقف عند الإشارة إلى أن كروتشه لم يكن يعتبر الفن واقعة فيـزيقية(٢٣٤)، حيث أن الفن حقيقة بينما الوقـائع الفيزيقية مـاهي إلا تكوينـات من خلق العقل(٢٣٥)، كما أن الفن عنـده ليس نشاطـا عمليا (من حيث هوفن)، كذلك فـإن الفن في رأيه يقع خارج نطاق المنطق خروجـا تاما. إنما الفن كلٌّ، أو تكوين في كل، أو هـو بالأحرى تـركيب قبلي متعدد الوجـوه: فهو تركيب من مضمون وشكل، ومن حدس وتعبير، ومن تعبير وجمال. وإن الفن يكون وحدة كاملة تامة، ومـا التمييز بين بعض الفنون وبعض وبين أجناس فنية وأجناس أدبية إلا محض تمييز مصطنع ولا يستند إلى واقع حقيقي، بل هو تصنع واختلاق.

---

(٢٣٠) وهكذا نرى أن كروتشه يوسع من معنى «الإستيطيقا» ليعود بالكلمة إلى معناها الأصلي في اللغة اليونانيـة، وهو المتصل بالحس، بينما معنى الكلمة اصبح يـدل على «فلسفة الفن والجمال»، وذلك في اللغات الأوربية، منذ القرن التاسع عشر الميلادي.

(٢٣١) «قبلي» أو «أولي»، أي مستقل عن الحس وسابق عليه.

(٢٣٢) الصورة هنا يقصد بها المنتج الخيالي (Image).

(٢٣٣) يدخل كروتشه هنا في عالم التعبيرات الأدبية أو شبه الأدبية.

(٢٣٤) أي قابلة للدراسة في علم الفيزيقا (الطبيعة).

(٢٣٥) راجع «ثالثا»، في هذا الفصل.

خامسا : التركيب المنطقي

في المنطق يتم نوع آخر من التركيب أعلى مرتبة من التركيب الاستيطيقي[٢٣٦] وفي عمليات المنطق يتوحد، عند كروتشه، التصور مع الحكم، وهو الحال في الواقع عند معظم المثاليين[٢٣٧]، وبالتالي فإن التصور يظهر على هيئة تركيب من موضوع ومحمول. ولكن حيث إن طرائق التعبير لا تسمح دائما بإدراك هذه الهوية بين التصور والحكم، فإن كروتشه يرى أنه ينبغي رفض المنطق (أو بالأحرى المنطق «الشكلي») الذي ارتبط، منذ أرسطو حتى ظهور المنطق الرمزي، بطريقة التعبير اللغوية.

فإذا نحينا جانبا هذا الطابع الصوري، فإن كروتشه يرى أن الأحكام يمكن أن تقسم إلى نوعين:

ـ أحكام تعريفية، وفيها يكون كل من الموضوع والمحمول تصورات كلية،

ـ وأحكام الإدراك الحسي (أو ما يسميه كروتشه الأحكام «التاريخية»)، وفيها يكون الموضوع فردا جزئيا يصفه محمول كلي.

وعند كروتشه، فإن هذا الأخير من الأحكام هو وحده الجدير باسم الحكم على الحقيقة. بل إن المرء لو تفحص في ثنايا النوع الأول من الأحكام، لتوصل إلى أن عناصر الأحكام التعريفية ليست كلها عناصر كلية محضة، لأنها لابد أن ترتبط بالمتحدد والمتعين الجزئي، حيث أننا لا نتوصل إليها الا بعد بحث تاريخي أو فحص لمشكلة تاريخية[٢٣٨]. ونتيجة هذا كله هو البرهنة على أن الحكم هو في جوهره تركيب قبلي يجمع بين الكلي والجزئي، وبين التصور والحدس.

وهو يرى أننا لن نستطيع تفسير هذا التركيب إلا إذا أدركنا أن كلا من العنصرين (الكلي والجزئي) اللذين يكونان هذا التركيب ما هما إلا مظهرين مختلفين، وإن لم

---

(٢٣٦) هنا المقابلة بين الحسي (الاستيطيقى) والعقلي.
(٢٣٧) أي أن التصور (Concept) يظهر في شكل حكم أو قضية.
(٢٣٨) «التاريخي» هنا هو ما يحدث في الزمان.

يكونا متناقضين(٢٣٩)، لشيء واحد ونفس الشيء، ألا وهو العقل.

وعلى هذا فإن مبحث الاستيطيقا ومبحث المنطق ما هما إلا شكلين مختلفين لنفس الشيء، ألا وهو التطور الجدلي لنفس الحقيقة الواحدة الوحيدة. وحيث أن كل الحقيقة، على ماكان يقول هيجل، عقلية، لذلك فأن كل ماهو واقعي هو في نفس الوقت عقلي، أي أن الواقعي عقلي(٢٤٠).

ويرى كروتشه أن فلسفة المنطق تصحح العلوم الطبيعية. وينتج عن هذا الإشراف أن هذه العلوم لا تحتوي إلا على «تصورات زائفة»(٢٤١) وهذه التصورات الزائفة هي من نوعين:

ـ فهناك، من جانب، التصورات الزائفة التجريبية (مثل «التصور الزائف» عن «القطة»(٢٤٢)، وهي ليست إلا تقريبات تجريبية وتعسفية(٢٤٣).

ـ وهناك من جهة أخرى التصورات الزائفة التجريدية (مثل التصور الزائف عن «المثلث»)، وهذه التصورات ليس لها من محتوى.

وحيث أن العلوم الطبيعية لا يمكن أن تصل على أي نحو إلى مستوى الكلية الحقيقي، وأنها تعتمد اعتمادا كليا (بما في ذلك الرياضيات) على مواصفات تعسفية، فإن كروتشه يرى أنها ليست إلا علوما زائفة. ومن هذه الوجهة للنظر، فإن كروتشه يدافع عن المذهب الوضعي المتطرف وعن المذهب البراجماتي. ذلك أنه يرى أن العلوم الطبيعية، وإن لم تكن خاضعة في كلها للأهداف العملية التي ترجى نتائجها من وراء البحث فيها، إلا أنها، من حيث هي نشاط، تنتمي إلى الميدان العملي من

(٢٣٩) لأنهما متكاملان.
(٢٤٠) مثلما كان الحال عند هيجل.
(٢٤١) أو كاذبة، لأنها لا تصور الواقع الحقيقي.
(٢٤٢) أو أي شيء محدد، والمقصود أنه لا يصل إلى الشيء ذاته بل يقترب منه وحسب.
(٢٤٣) «تعسفي» أو «اصلاحي»، أي هكذا يظن الناس فيما بينهم أنهم يفهمون بأشارات من عندهم، ولكنها في الحقيقة بعيدة عن الواقع، ويقول كروتشه أننا نستعيض عن الأشياء «ببطاقات» مثل فكرة «القط»، بينما الموجود في الواقع هو «هذا» القط المحدد أو ذاك.

نشاط العقل، وليس إلى الميدان النظري.

ولا يقل الدين والميتافيزيقا عجزا عن العلوم الطبيعية من حيث القدرة على إمداد الإنسان بالمعرفة الحقيقية.

ويرى كروتشه أن الميتافيزيقا هي، من البداية، مشروع مستحيل، لأننا، كما كان يقول كانت، لا نستطيع تكوين حدوس عقلية(٢٤٤).

أما الدين، وهو، عند كروتشه، مجرد أسطورة، فما هو إلا فلسفة كاذبة. وربما كان كروتشه أقل الفلاسفة المثاليين الغربيين عناية بالدين وتفهما له.

أما العلم الوحيد الذي يستحق ذلك الاسم ، ، اسم الفلسفة، فهو فلسفة العقل(٢٤٥). ومع ذلك، فإن كروتشه يعتبر أن العلوم الطبيعية والميتافيزيقا والدين، كلها لها بعض الأهمية، وذلك من حيث هي ظواهر فعلية قائمة، وبالتالي فهي «لحظات» من لحظات العقل، فينبغي إذن أن ندرسها باعتبارها درجات يصعد عن طريقها العقل إلى المستوى الأعلى، مستوى الفلسفة.

سادسا : التركيب العملي(٢٤٦)

سبق أن أشرنا إلى أن للعقل عند كروتشه نوعين من النشاط : نشاط نظري ونشاط عملي، وينقسم نشاطه العملي إلى نشاط اقتصادي ونشاط أخلاقي.

والنشاط الاقتصادي، وهو يقابل في ميدان العمل الحدس الاستيطيقي في ميدان النظر(٢٤٧)، يدور حول الفرد، ومجاله هو النافع والمفيد، ويظهر في صور متعددة، أهمها السياسة والاقتصاد بالمعنى الشائع لهاتين الكلمتين.

---

(٢٤٤) لأن كانت يقول: «الحدس . . . يتعلق مباشرة بموضوعه، وهو جزئي فالحدس إذن جزئي لا كلي، والميتافيزيقا تزعم إدراك الكلي.

(٢٤٥) أي فلسفة كروتشه نفسه.

(٢٤٦) أي العمل، ببساطة.

(٢٤٧) أي إنه الأساس للنشاط الأخلاقي، كما أن الحدس الحسي أساسي للتركيب المنطقي.

أما النشـاط الأخلاقي فـانه يتميز عن سـابقه الاقتصادي بأنـه يدور حـول العام والكلي، أي حول العقلي. ويوجه كروتشه انتقـادات نافذة عميقة إلى المذاهب اللذية والنفعية وما شابهها(٢٤٨)، ويرفض هذه المذاهب، وهي التي تنتهي إلى أنه لا يوجد نشاط أخـلاقي في نهاية الأمر، وأن الحياة تمر بـدون نشاط من هذا النـوع، لأن الحياة تتكون من أفعال منعـزلة، وليس بين بعضها والبعض من روابط متبـادلة، ولأن هذه الأفعال خلو من أي مغزى عميق.

كذلك، فإن كـروتشه يرى، وعلى نفس المنـوال، رفض الفكرة الذاهبـة إلى عدم الاعتراف بالنشاط الاقتصـادي، أو تلك الرامية إلى إلحاقه بالنشـاط الأخلاقي كتابع لهذا الأخير. فهـو يـرى أن النشـاط الاقتصـادي، على عكس مـا تـدعيـه هـذه الاتجاهـات، مستقل عن الأخلاق، هـذا على حين أن الأخـلاق لا يمكن تصورهـا بـدون النشاط الاقتصـادي، وذلك تماما كما هـو الحال مع العـلاقة بين الإستيطيقـا والمنطق: فالإستيطيقا لا يتعلق وجودهـا على المنطق، بينما لابد من أجل قيام المنطق من أن يعتمد على الحدس الحسي(٢٤٩).

ويرى كـروتشه أنه لا يمكن قيـام حكم أخلاقي على الـرجل العملي الذي يفعل ويعمل بهدف الحصـول على المفيد والنـافع(٢٥٠). ذلك أن مثل هـذا الحكم يبـدو مستحيلا، إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظـر غير وجهة نظر الأخلاق، أما من وجهة النظـر الأخـلاقيـة فـان الاقتصـادي لا يتعـارض مع الأخـلاقي، إنما هـو، أي الاقتصادي، مربـوط إليه بالأحرى في إطار تـركيب أعلى منه (أي من الاقتصادي). ويرى كـروتشه أن الإنسان الأخـلاقي، أي ذلك الذي يفعل ويعمل من أجل غـاية عامة كليـة وروحية، هذا الإنسان لا يتوقف رغم هـذا عن السلوك في بعض الأحيان على أساس نفعي، ومن ذلك مثلا أنه يبحث عن المتعة، وهي التي تترابط مع الفعل

(٢٤٨) أي المذاهب الوضعية عامة في الأخلاق.

(٢٤٩) راجع «رابعا» و«خامسا» مما سبق في هذا الفصل.

(٢٥٠) لأن مستوى المفيـد والنافع درجة أدنى من العمـل، لأنه يرتبط بـالجزئي، بينما يتعلق مستوى الأخلاق بالغايات العامة الكلية.

والعمل بالطبيعة(٢٥١). وخلاصة الأمر أن النشاط الأخلاقي والنشاط الاقتصادي ليسا بالمتعارضين اللذين يقفان كل في مجابهة الآخر، وإنما هنا يمثلان تمييزا وتنوعا في داخل ميدان العقل.

ولا نستطيع الدخول هنا في تفاصيل المذهب الأخلاقي الذي قدمه كروتشه، وهو مذهب ذو خصوبة. ولكن فلنكتفي بملاحظة أن كروتشه يرفض رفضا قويا الأخلاق القائمة على العاطفة، ويعتبر أن النشاط الأخلاقي ينتمي إلى ميدان الإرادة، وأنه يرفض التمييز بين النية والعمل، وبين الوسيلة والغاية، ويبتعد عن كل أخلاق مادية، وعلى الأخص ما يسميه بأخلاق «النفعية الدينية» وأخلاق الغيرية(٢٥٢)، وأنه يدرس مشكلة الحرية دراسة متعمقة، لكي ينتهي إلى الاتفاق مع مذهب هيجل في أن الإرادة هي في نفس الوقت مجبرة وحرة: فالإرادة محتومة ومجبرة، لأنها لن تستطيع الفعل والتأثير مطلقا إلا في ظل ظروف محددة محتمة، ولكنها أيضا حرة، لأن ما تخلقه، وهو فعلها وعملها، ولأنه فعل وعمل، هذا الذي تخلقه يتعدى حين يوجد كل ما سبقه من معطيات(٢٥٣).

أما فيما يخص العلاقة بين النشاطين العملي والنظري للعقل، فإن أول ما نلاحظ هو أن كلا منهما يسبق الآخر دورا، ثم يتبعه في دور آخر. ذلك أن السلوك العملي يتطلب كشرط لقيامه وجود معرفة سابقة عليه، ولكن المعرفة ذاتها هي، من جهة أخرى، غير ممكنة بغير العمل. وهكذا نجد أنفسنا بازاء الخط الدائري لمسار العقل: فالحدس يتحول إلى حكم، والحكم يتسبب في إحداث النشاط العملي، هذا النشاط العملي الذي يضعنا من جديد أمام موضوع جديد، مما يوجب قيام حدس جديد، وهكذا دواليك.

ونلاحظ كذلك أنه رغم هذا الإتصال والتواصل الجوهري بين الدرجات التي يجوب بينها العقل على النحو الذي أشرنا اليه، إلا أنه من أبعد الأمور عن الصحة،

---

(٢٥١) أي أن من طبيعة العمل أن يقترن بمتعة، وان تكون المتعة نتيجة العمل.
(٢٥٢) الغيرية تفضيل الغير على الذات.
(٢٥٣) فهو إذن وجود جديد، ويدل هكذا على الحرية.

عنـد كروتشـه، أن نظن أن هـذه الـدرجات يختلط ببعضهـا البعض وتتـداخل بغير تمييز. وهكـذا فانـه أبعد ما يكـون عن الصواب، في رأيـه أن نحكم على الفنان، من حيث هو فنان، من وجهـة نظر أخلاقية. إن الشاعـر، في فعل الخلق، هو أخلاقي دائما، لأنه يقوم بأداء وظيفة مقدسة.

هذا الموقف الأخير يدل بوضوح على أنه لم يعـد هناك من مكان للدين لا في نظام الفلسفة العملية عند كروتشه ولا في نظامه عن التركيب النظري.

ورغم هذا، ومع إنكـار كروتشه أن يكـون الدين وجها متميـزا من أوجه العقل، ومع إنـكاره لما سماه «أخـلاق اليسوعيين»(٢٥٤)، مستعينا في هذا بكتـاب باسكال «الريفيات»(٢٥٥)، نقول، رغم هذا كله فإن كروتشه يأخذ مكان المدافع عن النزعة الأخـلاقيـة الـدينيـة، وهو يعـارض بها مـا يسميـه «الببغـائيـة» والطـابع السطحي للأخلاقية المستقلة عن الدين على أية صورة كانت. وهو يقول أن المذهب الأخلاقي الكاثوليكي (٢٥٦) غني عظيم الثراء، حتى أنه يحتوي على كل الأخلاق الحقة للعقل أو يكاد.

سابعا : التاريخ والفلسفة

ينبغي، فيما يقول كروتشه، أن نميز بين التـاريخ ورواية الأخبار، التي هي تاريخ ميت، ومحض سلـوك عملي(٢٥٧). إن التـاريخ الحق هو تـاريخ العصر الحاضر، والذي ينطلق من التكوين الروحي للعصر موضوع الدراسة، ويتماشى خطوة بخطوة مع خلق العقل ومع تطوره.

إن الحكم التاريخي، من حيث هو كـذلك، حكم جزئي. ولكن على الرغم من

---

(٢٥٤) أو «الجزويت»، وهم تجمـع ديني كـاثـوليكي اهتم بـالتربيـة، والتعبير المذكـور من خلق خصومهم، ويعنون به شيئا من الحذلقة الزائدة ونوعا من النفاق.

(٢٥٥) باسكال، رجل الـدين والمفكر والرياضي الفرنسي المشهـور (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢م). كان خصما لليسوعيين.

(٢٥٦) أي المقرر لدى كنيسة روما.

(٢٥٧) التاريخ الحق عنده مسألة نظرية.

أنه يتناول الجزئي والفردي، إلا أنه يحتوي كذلك على محمولات كلية، كما أن موضوعه الحق، أي موضوع الحكم التاريخي، إنما هو الكلي والعام أيضا. ومثال ذلك عند كروتشه أن المهم حين يقوم تاريخ الأدب بدراسة دانتي(٢٥٨) ليس هو شخص دانتي وإنما الشعر(٢٥٩). وهكذا فإن التاريخ يصبح والفلسفة شيئا واحدا، وتصبح الفلسفة والتاريخ من جانبها شيئا واحدا أيضا، حيث أن الفلسفة تظهر باعتبارها عملا متعينا وتاريخيا(٢٦٠)، فلا يمكن إذن أن تعزل عن مجرى الصيرورة.

وهكذا يؤكد كروتشه على التوحيد التام بين الفلسفة والتاريخ، معتبرا أن التمييز بينهما، والذي يؤدي إلى أن الفلسفة هي التي تقوم بدارسة المنهج التاريخي، هذا التمييز ما هو إلا تمييز مصطنع من أجل أغراض التعليم وحسب. فالواقع أن كروتشه يرى أن كل فيلسوف هو في نفس الوقت مؤرخ، وأن كل مؤرخ هو في نفس الوقت فيلسوف، لأن هناك تاريخا في فلسفة أي فيلسوف، هو حياة هذا الفيلسوف كلها.

أما الإنسان الفرد، وكذلك كل أنواع العلوم والتخصصات، من فنون إلى فلسفة، والعلم بصفة عامة، كل هذه ما هي إلا «لحظات» عابرة لحقيقة واحدة وحيدة تجمع كل العناصر المنوعة وتضمها في وحدة واحدة، هذه الحقيقة هي: العقل.

ويتضح من الفحص السابق الذي قدمناه حول آراء كروتشه في مختلف الميادين أنه ليس هناك من حقيقة عنده غير العقل. إن العالم هو العقل، وفيه تتحد الذات مع الموضوع، الفردي مع الكلي، العملي مع النظري. إن العقل عند كروتشه هو التركيب القبلي المكون من كل التركيبات. إنه التطور الخالص، اللانهائي، الخالد، الذي يصل إلى درجة ومنها إلى درجة أعلى يصعد إليها، الواحدة بعد الأخرى. هذه

(٢٥٨) الأديب الإيطالي الأشهر (١٢٦٥ ـ ١٣٢١م)، وفريدته «الكوميديا الإلهية».
(٢٥٩) وهو ينتمي إلى ميدان العام والكلي، بينما دانتي فرد جزئي.
(٢٦٠) أي يتم في الزمان.

اللانهائيـة سر بالنسبة إلينا لا نستطيع فض أختـامه، وهذا السر ماهـو إلا درجة، لم نصل إليها بعد، من درجات الكل، إنـه سر الوجود الخالص والتحقق الكامل، سر المطلق الحق. إن كل شيء يكتمل في هذا المطلق وينتهي إليه، وكل موجود ما هو إلا وجه من أوجهه، وهـو يكون مظهراً حقيقيا لهذه اللانهائية، بقدر مـاهو «لحظة» من لحظات تطور الخالد الأبدي.



الفصل التاسع
ليـــون بِرَنْشِفيــــك

أولاً: المثاليون الفرنسيون الآخرون وخصائص هذا الفيلسوف

كان شارل رنوفييه (١٨١٥ ـ ١٩٠٣م). أهم ممثـل للتيار المثالي في فرنسا في القرن التاسع عشر الميلادي، وكان تابعا للفيلسـوف الألماني كانت، ولكنه كان على أصالة وتميز. وعـرفت المثالية الفـرنسية إلى جانبه عـدداً آخر من الفلاسفـة المرموقين، ولكن إنتاجهم، بصفـة عامة، كان محدوداً. ولنـذكر منهـم أولا أُكْتاف هـاملان (١٨٥٦ ـ ١٩٠٧م). الذي قـدم عدداً من الدراسات العميقـة عن عدد من كبار الفـلاسفة، وألف كتاباً واحداً عن فلسفته هو: «رسالة في العناصر الرئيسية للتصور»، الذي ظهر عام ١٩٠٧م. وينتمي إلى التيار المثالي أيضاً جول لانيو (١٨٥١ ـ ١٨٩٤م). الذي تمتع بتأثير شخصي على من اتصلوا بـه، بأكثر من أن يعود تأثيره إلى كتابـاته، التي لم تظهـر في شكل ميسر للجمهور إلا عـام ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥م. ولنـذكر أيضـا دومنيك بارودي (ولـد ١٨٧٠م). واميل شارتييه (١٨٦٨ ـ ١٩٥١م). الذي يعرف بـاسمه المستعار «ألان».

ولكن أهم المثاليين الفـرنسيين، والفيلسوف الـذي كان لـه أكبر تأثير على الفكر الفـرنسي، بعد بـرجسـون، هو ليـون بـرنشفيك (١٨٦٩ ـ ١٩٤٤م). وأول كتبـه، وأهمها، هـو كتابـه «جهة الحكم» (٢٦١) الذي ظهـر عام ١٨٩٧ . وتبعـه كتاب

---

(٢٦١) (La modalite du jugement) والمقصود «بـالجهة» في المنطق طبيعة العلاقـة بين المحمول والموضوع. وقـد قال المدرسيـون بقسمة ثلاثيـة: فنسبة الموضـوع إلى المحمول إمـا ضرورية أو ممكنة أو ممتنعة. وستظهر المشكلة كذلك عند كانت.

«مدخل إلى حياة العقل»، ظهر عام ١٩٠٠م. ثم الكتاب التاريخي العظيم «مراحل تطور الفلسفة الرياضية»، ظهر عام ١٩١٢، ثم الكتاب الآخر الذي لا يقل أهمية، وهو «تقدم الوعي في الفلسفة الغربية»، ظهر عام ١٩٢٧م. وقد كتب برنشفيك العديد من الكتابات حتى قيام الحرب العالمية الثانية، وقد بلغ تأثيره أوجه ما بين عامي ١٩٢٠ و١٩٣٩م(٢٦٢).

وبرنشفيك مثالي بالمعنى المزدوج للكلمة. ذلك أنه من جهة أولى، يريد السير على الطريق الذي اختطه كانت وهيجل واستكماله، كما أنه من جهة ثانية، يعتبر نفسه من خلف أفلوطين وديكارت واسبينوزا، بل وكذلك باسكال(٢٦٣)، الذي يأخذ بعض خواطره، ويضعها في مذهبه مفسرا لها على ضوء المثالية المعرفية.

وفي نفس الوقت فإن برنشفيك قد تأثر بالمذهب الوضعي تأثرا قويا. وهو يعلن موقفا من العلوم الطبيعية هو القول في شأنها بالاتجاه الرياضي(٢٦٤)، والقول بأن كل العلم أمر اصطلاح(٢٦٥)، وفي كلا الموقفين يأخذ بالشكل المتطرف فيهما، ويرى أن علم الرياضيات هو أعلى درجة وصل إليها الفكر الإنساني.

ومن الواضح أن لديه فكرة «التركيب» العام (٢٦٦) التي وجدناها عند كروتشه، كما أنه يشبه هذا الأخير في الاهتمام اهتماماً كبيرا بالتاريخ، وإن لم تكن معارفه في هذا الميدان في إتساع معارف المثالي الإيطالي. وعلى العكس، فإن أسلوب برنشفيك أكثر دقة وإحكاما بكثير من أسلوب كروتشه، كما أن مناقشاته مع الخصوم تتسم بالتهذب الشديد، على غير طريقة كروتشه. أخيراً فإنه يختلف مع الفيلسوف الإيطالي في أن له آراء نبيلة في ميدان الدين والأخلاق، جلبت له احترام الجميع وتقديرهم.

---

(٢٦٢) كان برنشفيك من أصل يهودي، ولكن تسامحه جلب له احترام الجميع.

(٢٦٣) «بل» لأن باسكال رجل دين، وقد أشرف برنشفيك على إعداد طبعة مشهورة من كتاب باسكال «خواطر».

(٢٦٤) أي أن هيكل العلم الطبيعي هيكل رياضي.

(٢٦٥) أي هو بالإتفاق، فهو نوع من اللغة، ويمكن تصور اتفاقات أخرى. فليس العلم مطلقا.

(٢٦٦) «العام»، أي التركيب الذي يدخل فيه كل شيء، أي كل المعارف.

ثانياً ـ المثالية :

في بداية كتـابه الأهم، «جهة الحكم»، يضع برنشفيك كمسلمة مقبـولة القضية الأساسية للمذهـب المثالي فيما يخص ميدان نظرية المعرفة، حيـث يقول: «إن المعرفة تكوّن عـالماً هو لنا العـالم. وخارج هذا العـالم لا يوجد شيء. إن الشيء الـذي يكون وراء قـدرة المعـرفـة إنما يكـون بحكم تعـريفــه غير ممكن الـوصـول إليـه وغير ممكن التحـديد، أي أنـه يصبح بـالنسبـة إلينا مسـاويـا للعدم. وعلى هـذا، فـلا يمكن للفلسفة أن تكون شيئا آخر إلا نقداً للفكر [٢٦٧]، ويؤكد هذا ويعضده أن الفكر وحده هـو المكشوف تماماً للفكر، إن الموضـوع الرئيسي للفكر ليس التصـور، بل هو نشاط العقل ذاته، ويمكن من هنا تعريف الفلسفة بأنها نشاط عقلي يعي نفسه».

وتتزاوج هذه المثالية عند برنشفيك بالقول بالنزعة التصورية[٢٦٨]، كما هو معتاد عند المثاليين، وتأخذ هذه التصـورية عنده شكل القول بأن الحكم يسبق كل أشكال أنشطة العقل الأخرى.

ويرى برنشفيك أن التصـور، مهما بدا بسيطاً، هو بالفعل تـركيب من مفهوم وما صــدق[٢٦٩]، فهـو، أي التصور، يفترض إذن فعـلاً يجمع بين هـذين الجانبين. وهكـذا يمكـن أن نقـول إن فعل الإدراك وفعل الحكم هما واحــد ونفس الشيء. إن التفكير العقلي ينحصر في النهـايــة في الحكم، والحكم يمثل فعل العقـل الأسـاسي الوحيد الذي يقوم عليه كل بناء العقل من بعد ذلك.

وفي هذا الإطار، ينتقـد برنشفيك مذهـب الـواقعية العقلية[٢٧٠] عنــد كل من أفلاطون وديكارت، وهما اللذان حاولا إقامة النشاط التركيبي للعقل على أساس من

---

(٢٦٧) وهذا هو منطلق فلسفة كانت، وبه تتميز عن الفلسفات السابقة عليها.

(٢٦٨) أي القول بأن الكليات توجد في الذهن، وليست مجرد أسماء.

(٢٦٩) لكل حـد مفهـوم ومـا صـدق. أي مضمونٌ ومـا ينطبق عليـه من أشخـاص، مثـلا: حـد «الإفريقيين» أقل من حيث المفهوم وأوسع في الماصدق من «المصريين»، فهو أزيد في المضمون وأقل في الماصدق.

(٢٧٠) أي القول بوجود الحقائق العقلية في ذاتها في عالم قائم بذاته.

الحقيقة التي تتعدى التجربة الإنسانية، بل هو ينتقد كذلك كانت نفسه، الذي لم يكن يقصد قطع الصلة بين هذا النشاط التركيبي ومقولة العلاقة، من حيث أن الأول خاضع خضوع التبعية للثانية، وبالتالي فهو خاضع للتصور[(٢٧١)]. إن الفلسفة الحقة، فيما يرى برنشفيك، هي التي تتحرر من القول بوجود أي شيء سابق على الحكم[(٢٧٢)].

أما الحكم نفسه، فإنه ينحصر في إثبات الوجود إما باعتباره ضرورياً أو باعتباره ممكناً. والعنصر الأساسي في الحكم هو الفعل[(٢٧٣)]، والفعل من زاوية النظر إلى مضمون الحكم هو الذي يسمى فعل الكينونة[(٢٧٤)]. وهكذا تصبح أوضاع الفعل الموضوع الجوهري للبحث الفلسفي.

ثالثاً ـ جهة الحكم:

لفحص جهات الحكم فحصاً دقيقاً، يرى برنشفيك أن هناك شكلين لجهات الحكم: شكل التداخل (Interiorité) وشكل التخارج (Exteriorité). أما شكل التداخل فإنه يقوم في صورة التواجد الباطني للأفكار بعضها مع بعض، وهو يميز خصوصاً الحكم الرياضي، حيث لا يكون للموضوع والمحمول معنى إذا نفصل أي منهما عن الآخر. إن شكل التداخل في الحكم هو وِحْدَةُ العقل الذي يفرض على ذاته قانونه هو. إن شكل التداخل هو الذي يجعل الحكم معقولاً وقابلاً للتعقل والفهم، فالحكم مرتبط بهذا الشكل ارتباطاً جوهرياً. والميدان الطبيعي لشكل التداخل هو ميدان الأحكام النموذجية[(٢٧٥)]، وهو يشكل الأساس لجهة الضرورة[(٢٧٦)].

---

(٢٧١) ما يريده برنشفيك هو جعل التصور خاضعا للحكم، وليس العكس.

(٢٧٢) وخاصة التصور.

(٢٧٣) في مقابل الاسم والحرف.

(٢٧٤) (etre to be). والمعروف أن كل جملة في اللغات الأوربية تستلزم فعلا، وفوق كل الأفعال هنالك فعل «يكون». ونظام اللغة العربية يختلف.

(٢٧٥) أو «المثالية».

(٢٧٦) راجع هامش (٢٦١).

ولكن شكل التداخل لا يكفي وحده لتفسير الأحكام، فنجد إلى جانبه شكل التخارج، حيث أن الحكم ينبغي أن يحوز في داخله على نوع من التنوع والتعدد. إن شكل التخارج هو النتيجة الضرورية للعنصر اللاعقلي الذي يصطدم به العقل. ولكن هذا «اللاعقلي» لا هو الوجود المستقل عن العقل، ولا هو إسقاط من العقل خارج نفسه، وإنما هو مجرد الحدود التي يجد العقل نفسه بها[٢٧٧]. وحين يجابه العقل هذا الحد، الذي هو نفى لنشاط العقل، فإنه يشعر بها يشبه الصدمة، التي يشعر الإنسان عادة أنها تأتي من موجود خارج على العقل.

إن الميدان الطبيعي لشكل التخارج هو أحكام الواقع[٢٧٨]، فهناك إذن ثنائية وإزدواجية في العقل: هناك شكل التداخل، من جهة، وبه تتحد عقلانية الحكم الرياضي وضرورته[٢٧٩]، وهناك من جهة أخرى، شكل التخارج، وميدانه هو لا عقلانية ما لا يمكن الوصول إلى حقيقته، وواقع الأحكام المتصلة بالوقائع، وفيما بين هذين الشكلين يوجد شكل ثالث مختلط بينهما، وميدانه في رأي برنشفيك هو ميدان الممكن[٢٨٠].

والعقل عند برنشفيك وحدة[٢٨١]، ولذلك فإن الفكر الإنساني لا يكتمل في رأي برنشفيك إلا في الحكم التحليلي الرياضي[٢٨٢]، حيث يظهر فيه شكل التداخل في أنقى صوره.

والحكم التحليلي الرياضي حكم قبلي. ويتحدد العلم الرياضي بشكله وبموضوعه، ولكن الشكل الرياضي مستقل تمام الاستقلال عن موضوعه. ولا يوجد، في رأي برنشفيك، حدس رياضي، أي حدس عقلي.

---

(٢٧٧) إذن ما هو خارج العقل هو «اللاعقلي».

(٢٧٨) في مقابل الأحكام النموذجية.

(٢٧٩) الحكم الرياضي ضروري، لأنه لابد أن يكون على ما هو عليه، وسبب ضرورته هو أنه عقلي خالص ولا يدخل فيه أي عنصر تجريبي.

(٢٨٠) بعبارة مبسطة: هناك الحكم الضروري والحكم الممتنع والحكم الممكن.

(٢٨١) المقصود أنه يميل إلى الوحدة، أن يكون واحدا.

(٢٨٢) أي الذي يكون المحمول فيه جزءا من الموضوع.

أمـا أنـواع الحكم الأخرى، الحكم الهنـدسي، الحكم الطبيعي في علم الفيـزيـاء (علم الطبيعة)، وحكم الاحتمال، وهي كلهـا أنواع من الحكم تزداد أكثـر وأكثر من حيث درجـة لا عقليتهـا[٢٨٣]، هـذه الأنواع من الحكم تختلف مع ذلك عن عـالم الإدراك الحسي وتكـون عالما مستقـلا بها، ألا وهـو «عالم العلـم» وهو عـالم لا يمكن تفسيره في إطار عالم الإدراك الحسي[٢٨٤].

أي هـذين العـالمين هـو الحقيقي؟ هـذا، عنـد بـرنشفيك، سـؤال لا سبيل إلى الإجـابة عليـه في نطاق النظـرية الخالصـة وحـدها، ولـذلك فإنه لا يبقى إلا القـول بالثنـائية[٢٨٥]. وكذلك الحال أيضا بخصـوص السلوك العملي الحقيقي، فهناك عـالمان حيث تتصادم القـوانين الأخـلاقية الـداخليـة (الجوانية) للعقل مع النشـاط الخارجي لـلإنسان وشرود الأفـراد عن ذواتهم[٢٨٦]. وحيث أن هنـاك عالمين، إذن فهناك نـوعان من الإنسـانية. ولن يحل هـذه الثنائيـة إلا تاريخ العقـل وتطوره، لأن العقل ينحو نحو الوحدة ونحو التداخل.

رابعاً ـ درجات حياة العقل:

كتب برنشفيك عدداً من الكتب حول تاريخ العقل الإنساني، وهي تكشف عن واسع معرفته، وفيها يقدم صورة عامة في خطوطها الرئيسية عن تطور العقل. ويقول برنشفيك إنه يمكن أن نميز في الأساس بين مرحلتين في ذلك التطور: مرحلة الطفولة ومرحلة العمر الناضج.

أما الأولى، فهي عصر الاهتمام بـالخارجيات[٢٨٧]، عصر العلم بالسمعيات، عصر إنسان العقيدة السمعية، أما الثـانية فهي عصر الإنسان الذي توصل إلى علم

---

(٢٨٣) راجع هامش (٢٦١).
(٢٨٤) فعالم العلم إذن عالم قائم بذاته وهو ليس صورة من عالم الإدراك الحسي.
(٢٨٥) أي بوجود عالمين منفصلين، عالم العلم وعالم الحياة اليومية.
(٢٨٦) هذا المعنى سيترجمه البعض إلى فكرة «الاغتراب».
(٢٨٧) المقصـود الأشيـاء الخارجـة عن الإنسـان بأنواعهـا. أمـا الـريـاضيـات فكأنها تنبع من ذات الإنسان.

الرياضيات، عصر العلم العقلاني.

والـذي اكتشف العلم العقـلاني هم الفيثـاغـوريـون، الـذين خلقـوا علم الرياضيات(٢٨٨)، وكذلك سقراط(٢٨٩). ولكن الذي يدعو إلى الأسف أن أرسطو أرجع حياة العقل إلى مرحلة الطفولة، وتراجعت أوربا من جراء ذلك إلى طريق العلم السمعي لمدة عشرين قرناً من الزمان(٢٩٠).

والذي أعاد اكتشـاف الطريق الرياضي في العلم هو ديكـارت، وبذلك أعاد إلى الإنسانيـة(٢٩١) حق الاستمتاع بحقهـا في الحقيقة (٢٩٢). وإذا كان ديكـارت هو الذي فتح الباب الجديد، إلا أن السير على الطـريق المكتشف تم وئيدا وئيدا، حيث لم يستطع المفكرون أن يحرروا أنفسهم على الفور من عادات الفكـر القديمة المستقرة، أي من الاختيـارات «الواقعيـة» (٢٩٣). ومنهـا الاعتقـاد في اعتماد العقل على عـالم خارجي مستقل عنه. ثم جاء عصر الرومانتيكية(٢٩٤)، وهدد بإرجاع الإنسانية إلى عهد القرون الوسطى(٢٩٥).

ولكن هاهـو العلم أخيراً يعين العقل على الانتصار، حيث قام آينشتين بـالقضاء نهائياً على مفهوم الأفكار الحدسية(٢٩٦). ويرى برنشفيك أن هناك أسباباً للأمل في

---

(٢٨٨) الفيثاغـوريون جماعة فلسفيـة يونانيـة تنتمي إلى القرن الخامس ق. م. وعاشت الجماعـة بعد ذلك لمئات السنين، ويعتبر علم الطبيعة عند جاليليو عودة إليهم.

(٢٨٩) الذي قال بأن موضوع العلم ليس الطبيعة بل التصور أو الفكرة أو الماهية.

(٢٩٠) يتهم برنشفيـك أرسطو بأن معرفتـه معرفـة لفظية محضة، وقـد أخذت الكنيسـة الكاثـوليكية بسلطة أرسطـو، فكانت معرفتهـا سماعية، أي بطريق النقل عن مصـدر أول لا يرقى الشك إليه، من ناحيتين: ناحية الوحي وناحية أرسطو.

(٢٩١) أي إلى الغرب في الواقع، ولكن الحضارة الغربية تظن أنها هي الإنسانية الحقة.

(٢٩٢) أي في الخروج من سجن الألفاظ والتوجه إلى الماهيات.

(٢٩٣) أي المذهب الواقعي الذي يعتبر أن للماهيات وجودا قائما بذاتها في عالم خاص.

(٢٩٤) وهو في الغرب نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر الميلاديين.

(٢٩٥) الحركة الـرومانتيكية، وفي ألمانيا خـاصة، ذات طابع ديني بعض الشيء، وكانت تمجـد عالم العصور الوسطى، راجع فيما سبق الفصل الأول، أولا.

(٢٩٦) أي رفض وجود صور عقليـة ثابتة للزمان والمكـان في الذهن. لأن الزمان والمكـان في النظرية النسبية لآينشتين نسبيان.

أن العقل يسير نحـو مستقبـل رائع بسبب ضمـور أهميـة عنصر الاعتقــاد. ويـرى برنشفيك أنه لا يوجد شيء خارج حرية العقل، أي خارج الوعي الخالص[٢٩٧].

خامساً ـ دين العقل:

قام بـرنشفيك بدراسـة باسكال دراسـة عميقة، ولـذلك فإنه يختلف عن بنـدتو كروتشه في اهتمامه القـوي بالمسائل الدينية، ويمكن إرجـاع جماع فكره إلى أنه فلسفة للدين.

ويرى برنشفيك أنه لا يمكن الدفاع عن الدين ضد الفكر غير الديني باستخدام مفـاهيم ذلك الفكر وتصـوراته، إنما ينبغـي على الدين أن يقيم بنـاءه ذاته بنفسـه. ولكن القائم للأسف ليس ديناً واحداً، بل أديان متعددة[٢٩٨]، وهي تتحارب على ميـدان العقائد الـدينية. ولكن الفلسفـة، من جهتهـا، لا تستطيع أن تقبل بوجـود حقيقتين: حقيقة دينية وأخرى علمية، فينبغي على الحقيقة الدينية أن تتحول لتصبح مجرد الحقيقة.

وهذه الحقيقة قد اكتشفت منذ قـديم: إنها ديانة «الكلمة»[٢٩٩]، ديانـة النور الداخلي. وهي تقوم في الايقان بأن الإله حاضر في فكرنا وفي حبنا[٣٠٠]، ولكن هذا الإله ليس إلها متعاليا[٣٠١]، الإله الخالق للعالم. إنه ليس شيئـا موضوعيا، ولا هو تصور عقلي، ولا هو حتى موضوع الحب، بحيث يمكن معارضته كموضوع بموضوع أو بشيء آخـر. إنما هـو الـــذي بـه نحيـا ونعيش جميعـا حيـــاة العقل. بعبـــارة أخـــرى، فيما يرى برنشفيك، فإن الإله هو الكلمة، بل فلنقل، إنه فعل الكينونة في الحكم[٣٠٢].

---

(٢٩٧) هنا يظهر أحد معالم المثالية.

(٢٩٨) كان برنشفيك يهوديا.

(٢٩٩) في مفتتح انجيل يوحنا: «في البدء كانت الكلمة»، أي الـ(Logos).

(٣٠٠) الإله محبة في المسيحية، وهو منقذ البشرية من السقوط.

(٣٠١) أي الخارج عن العالم، وهو إله اليهودية والمسيحية والإسلام.

(٣٠٢) أي فعل (étre أو to be).

ويـرى بـرنشفيك أن هــذه الفكـرة عن الإلــه لا تحررنــا وحسب من المذاهب الأسطورية عن الاله، ولكنها تحررنا أيضاً على المستوى الأخلاقي: ذلك أننا لا ننتظر من الإله إلا الفهم الكامل الخالص الجدير بالألوهية.

ومن رأى الفيلسوف الفرنسي أن على الإنسان أن يفعل كما فعل جاليليو حين تحرر من القـول بمـركـزية الأرض في النظـام الفلكي، وكـذلك علينـا أن نفعل في النظـام الأخلاقي. فحين نتخلى عن الاهتمام بالأرضيات، فإن طـابع العقل الإنساني ونزاهته وعدم اهتمامـه إلا بالحقيقـة وحدها وتـواضعه، كل ذلك سـوف يجتلى أعظم جلاء، بحيث تقودنا هذه التنقية إلى «العهد الثالث»(٣٠٣). وفي نفس الوقت، فإن الوعي سوف يتحـرر تماماً من أسر مـاضيه، ولكنه سـوف يحتفظ بالوفـاء له وليس بـالعقوق والنكـران. وكما أن «العهـد الجديـد» هو تكملـة «للعهـد القـديم»، فكـذلك دين العقل، وهو الذي يتمثل في البحث العلمي، هو تكملة واكتمال «للعهد الجديد».

ونرى من كل ذلك أن هذا المذهب هو تعبير عن فلسفة تؤمن إيماناً قوياً بالمباطنة وبالواحـدية(٣٠٤). يقول برنشفيك إنه لا يوجـد شيءٌ خارج حرية العقل ولا خارج حـركته المنطلقـة الخلاقـة، التي تتوسع وتـزدهـر في كل يوم بأشكـال أعلى وأعلى من بعضها البعض، لكي تصل في النهاية إلى الوحدة التامة للوعي.



(٣٠٣) بعد عهد النقليات والسمعيات ثم عهد العقليات.

(٣٠٤) أي مباطنة الاله للعالم، وأن الوجود واحد في جوهره.

الفصل العاشر

الفلسفة الكانتية الجديدة

أولا : مدارس الفلسفة الكانتية الجديدة [٣٠٥]

ظهـــــر الاتـجـاه المثـالي في ألمانيا في الثلث الأخير من القـرن التـاسع عشـــر الميلادي [٣٠٦]، وخاصة في هيئة الفلسفة الكانتية الجديدة.

ويمكن تعـداد سبع مدارس كبرى فسرت مذهـب الأستاذ[٣٠٧] على أنحـــاء مختلفة:

١ ـ المدرسـة الفيزيولـوجية (هـرمان هلمُهلتز، ١٨٢١ ـ ١٨٩٤ م.، فردريش ألبرت لانجـه، ١٨٢٨ ـ ١٨٧٥م)، وهي التي فسرت «الصـور القبلية» عنـد كانت على أنها اتجاهات فيزيولوجية [٣٠٨].

٢ ـ المدرسـة الميتافيزيقية (أوتـوليبمان، ١٨٤٠ ـ ١٩١٢م، يوهـانس فولكلت، ١٨٤٨ ـ ١٩٣٠)، وهي التي قالت بإمكان قيام ميتافيزيقا نقدية[٣٠٩].

٣ـ المدرسة الواقعية (ألوئيس ريل، ١٨٤٤ ـ ١٩٢٤م.، ريتشارد هونجز فالد، ولد عام ١٨٧٥م)، وهي التي ســـارت في اتجاه القول بوجـــود الموجـــود

(٣٠٥) أي المدارس التي تعيد تفسير فلسفة كانت وتعتمد على أسسها.
(٣٠٦) وكان المذهب الوضعي هو المسيطر
(٣٠٧) وهو كانت.
(٣٠٨) أي جزء من التكوين العضوي للإنسان، والصور القبلية يقصد بها الزمان والمكان.
(٣٠٩) كان «كانت» قد رفض تماما إمكان قيام أي ميتافيزيقا.

في ذاتـه [٣١٠].

٤ ـ المدرسـة النسبية عنـد جيورج سيمل (١٨٥٨ ـ ١٩١٨م.) الذي قـال بأن العنصر القبلي الذي تحدث عنه كانت هو ذو طبيعة نفسية وأنه نسبي.

٥ ـ المدرسـة النفسية (هـانـز كُـرنيليوس، ١٨٦٣ ـ ١٩٤٧م)، التي تقـاربت بوضوح أكثر مع المدرسة الوضعية.

هذه المدارس الخمس لم يعد لها من أهميـة، وينبغي القول إنها جميعا ليست من أتباع كانت على المعنى الصحيح. وعلى العكس، فإن المدرستين الأخيرتين من المدارس السبع أهم بكثير من الخمس الأوليـات، وظلت نشطة وافـرة النشاط في فترة ما بين الحربين[٣١١]، وهما تبقيان مخلصتين لروح الفلسفة الكانتية.

٦ ـ والأولى منهما هي المدرسة المنطقية (مدرسة ماربورج [٣١٢]).

٧ ـ والثانية هي المدرسة القيمية (ويقال لها مدرسة جنوب غربي ألمانيا، أو مدرسة بادن)[٣١٣].

وهناك أخيرا، مفكر مفرد، هو برونوباوخ، توصل إلى نوع من التركيب التجميعي لهذين التيارين الأخيرين، وهو يتعداهما في نفس الوقت الذي يطورهما فيه.

وهكذا فإن الحركـة الكانتيـة الجديدة هي حـركة ألمانية خـالصة. وإذا كـانت قد وصلت في فترة ما بعد الحرب الكبرى الأولى إلى عصرهـا الخصب، إلا أنها أخذت في التراجع ابتداء من وقت الحرب العالميـة الثانية، وجاءت الاتجاهات الفينومينـولوجية والوجودية والميتافيزيقية لكي تحتل مكانها. وقد ضربها، أي الحركة الكانتية الجديدة، الحكم النازي في ألمانيا ضربة قاصمة، لأن معظم ممثليها كانوا من أصل يهودي، وقد

(٣١٠) وكان كانت قد رفض هذا أيضا.

(٣١١) أي ما بين ١٩١٩ و ١٩٣٩م.

(٣١٢) نسبة إلى جامعة باسم تلك المدينة في جنوب ألمانيا.

(٣١٣) وهي جامعة أخرى باسم مدينة ألمانية في الجنوب أيضا.

نالهم من الاضطهاد والتعذيب الشيء الكثير.

وسوف ندرس في هذا الفصل النقاط الرئيسية في مذاهب مدرسة ماربورج ومدرسة بادن وعند برونوباوخ. وهناك في الحق الكثيرون جدا ممن ينتسبون إلى كانت، ولكن تأثيرهم ضئيل ولا يجعل لهم الحق في فقرة من هذا الفصل. ومن جهة أخرى، وكما هو الحال مع الماركسية ومع الوضعية المنطقية، فإننا نجد أنفسنا أمام مدرسة بالمعنى الحقيقي(٣١٤)، وهي تحوز، عبر سائر تفرعاتها، مجموعة واسعة مشتركة من المبادىء والمناهج.

ثانيا : المفكرون

مؤسس مدرسة ماربورج هو هرمان كوهن (١٨٤٢ ـ ١٩١٨م)، الذي اشتهر بكتبه عن أفلاطون، وتاريخ حساب التفاضل ومنهجه، وكانت. وهي كلها كتب ذات مدخل صعب. أما تلميذه، باول ناتُرب (١٨٥٤ ـ ١٩٢٤م)، والذي اشتهر بكتابه عن أفلاطون («نظرية أفلاطون في المثل»، ١٩٠٣م)، فإنه أجاد عرض أفكاره في صورة واضحة ميسرة للقارىء. ولعل كتابه «الفلسفة: مشكلتها ومشكلاتها» (١٩١١م)، مع كتاب ريكرت، «موضوع المعرفة» (١٨٩٢م)، أفضل مدخل إلى الفلسفة الكانتية الجديدة.

ومن الأعضاء المهمين في مدرسة ماربورج نذكر أرنست كاسيرر (١٨٧٤ ـ ١٩٤٥م)(٣١٥) وأرتور ليبرت (١٨٧٨ ـ ١٩٤٧ م)، وكلاهما معروفان بنشاطهما على المستوى العالمي. أما كارل فورلاندر (١٨٦٠ ـ ١٩٢٨م) فإنه قام باجراء تركيب بين أخلاق كانت والأخلاق الاشتراكية، أخيرا فإن رودلف أشتاملر (١٨٥٦ ـ ١٩٣٨م) هو أهم متخصص في فلسفة القانون بين أعضاء مدرسة ماربورج.

وقد تأسست مدرسة «بادن» على يد ويليام فيندلبند (١٨٤٨ ـ ١٩١٥) وهو أحد مؤرخي الفلسفة الأكثر شهرة وتلميذ قديم للوطزة. ويتمتع فيندلبند بموهبة بارعة في

(٣١٤) أي اتفاق حول الرئيسيات مع التنوع في الفروع والتفاصيل.
(٣١٥) أنظر له، مترجما إلى العربية، «الدولة والأسطورة» وكتباً أخرى.

العرض ؛ والواقع أن كتابه «مقدمات» Préludes، ١٨٨٤، نادرا ما واجه كتابا يفوقه من حيث الوضوح وجمال اللغة والأسلوب وكان خليفة فيندلبند على رأس هذه المدرسة هو هنريش ريكرت (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦) الذي تميز، كأستاذه، بوضوح الفكر ودقته. أما إميل لاسك (١٨٧٥ ـ ١٩١٥) فهو الكانتي الجديد الذي يتقارب مذهبه أكثر مع الموقف الفينومينولوجي. وقد مات لاسك خلال الحرب العالمية الأولى دون أن يخلف وراءه العمل العظيم الذي كنا نتوقعه منه. كذلك لابد أن نذكر، من بين الممثلين البارزين لهذه المدرسة، هوجو مونستربرج (١٨٦٣ ـ ١٩١٦) الذي كرس اهتمامه بشكل رئيسي في علم النفس.

أما برونو باوخ (١٨٧٧ ـ ١٩٤٢) فقد تخرج أيضا من مدرسة بادن، وكان تلميذا لكل من ريكرت ثم فيندلبند وبعض الكانتيين الجدد، وعلى الرغم من ذلك فقد تجاوزت فلسفته إطار هذه المدرسة وحاول الجمع بين موقفي مدرسة ماربورج ومدرسة بادن، مع إضافة عناصر جديدة عليهما معا. وقد تأثر باوخ بالفيلسوف لوطزة أكثر من تأثره بمدرسة بادن. ويعتبر باوخ من أصعب الفلاسفة الأوربيين على الفهم في عصره.

ثالثا : المذاهب الرئيسية المشتركة بين الكانتيين الجدد

يشترك كل الكانتيين الجدد في عدة مفاهيم أساسية هي التي تكون الخلفية الموحدة بينهم.

١ ـ وفي المحل الأول، فانهم ينتسبون جميعا إلى كانت، الذي هو في أعينهم أعظم الفلاسفة طرا، وهو عندهم «المفكر» بألف ولام التعريف، للثقافة الغربية الحديثة. وهكذا فانهم يقبلون جميعا مجموعة كبيرة من مواقفه الأساسية :

فهم يرفضون أولا المنهج النفسي[٣١٦]، ويرفضون الميتافيزيقا. وهم يرون أن الميتافيزيقا تبدو مستحيلة وغير ممكنة، بينما المنهج النفسي، وكل منهج تجريبي على العموم، ينبغي أن يحل محله في الفلسفة المنهج الترانسندنتالي[٣١٧]. ويرى هذا

---

(٣١٦) أي أرجاع المفاهيم والتصورات إلى مجرد الظواهر النفسية.

(٣١٧) راجع فيما سبق هامش (٣٣).

المنهـج أن الفلسـفة تنحصر في جـوهـرهـا في تحليل الشروط المنطقيـة للمعرفـة وللارادة .

٢ ـ وثانيا ، فانهم جميعًـا ، مثل كانت ، «تصوريون» ، أي أنهم ينكرون ، كل على النحو الذي يرتضيه وحسب تنوعات المدارس ، وجود الحدس العقلي[٣١٨] . ومـا العقل عندهم إلا ملكة تكوين الكل ابتداء من عناصره ، وهو لا يجوز قدرة غير قدرة التركيب . وعلى هذا فلا توجد معرفة لمضمون الأشياء ولا للجوهر[٣١٩] . والاستثناء الـوحيـد من هـذا الإجماع هـو حـالـة «لاسك» ، حيث وقع تحت تأثير الحركـة الفينومينولوجية .

٣ ـ ثالثـا ، فهم جميعا مثاليون في نظريـة المعرفة : ففعل المعرفـة لا يقوم في عملية إدراك للمـوضوع ، بل في فعل خلق الموضـوع . وكما يقـولون : «إن الموجـود لا يوجـد في ذاته ، إنما الفكر وحده هو الذي ينشئه» .

ورغم أوجه الإتفاق هـذه ، فانهم يرون أن «فهم كانت ، يعني تعـديه «(على قول فندلباند) ، ولا يخشى الكانتيون الجدد من دفن جسم تلك الفلسفة ، فلسفة كانت ، من أجل إحياء روحها (على حد قول ناتُرب) .

والواقع أنهم يتعدون كانت من نواحي عديدة :

أ ـ ذلك أن مثاليتهم أشد تطرفا من مثـالية كانت ، لانهم يرفضون وجود «الشيء في ذاته» .

ب ـ كذلك ، فإنهم لا يـوافقون على إعتبار الإحساس مصدرا أصليـا للمعرفة ، وهم بهذا عقليون أكثر تطرفا في مذهبهم العقلي من كانت .

وليست هاتان المسألتان إلا النقاط الأساسية بين نقاط اختلافهم عن كانت . وقد طوروا مذهب كانت وحوروا فيه بشأن العـديد من المسائل الأخرى . وسوف ندرس ، في خلال هذا الفصل ، أهم هذه المسائل .

---

(٣١٨) الحدس يكون فقط للمحسوسات عند كانت .
(٣١٩) أي للأشياء في ذاتها (النومين) .

ويجدر بنا أن نشير، من أجل تسهيل فهم مواقفهم، إلى أن مثالية هذه المدرسة لا شأن لها، ولا شبه لها، مع المثالية الذاتيـة التي قال بها فيلسوف مثل باركلي(٣٢٠)، إنما مثاليتهم مثـالية «ترانسنـدنتالية». ذلك أن الكانتيين الجدد يـرفضون رفضا قـويا فكرة المثالية الذاتية القائلة بأن العالم يوجد «في رأس» الذات المفكرة(٣٢١) ونسبة مثل هذا الموقف إليهم سيكون دليلا على سوء فهم لمذهبهم. كذلك فانهم لا يقيمون وزنا على الإطلاق لنظـام الفيلسوف الألماني أفينـاريوس المسمـى «النظام المركـزي»، وهو مجموع الوعي والنظام العصبي معا.

بل إن الذات كما يفهمونها ليست الـوعي أيضا، لأن الوعي عندهم هـو موضوع علم النفس. ونرى ريكـرت في هذا المجال يبعـد من مجال الذات، أولا، كل مـاهو جسمي، وثـانيا، كـل ماهـو مضمـون نفسي، ولهذا لا يبقى دالا على الذات إلا مـا يسميه «الوعي بصفة عامة»(٣٢٢)، وهو يكاد يكون كالنقطة الرياضية التي لا توجد في عـالم الواقع. فإذا فهمنـا الذات على هـذا النحـو، فإن كل شيء يكون داخـلا في عباءتها مباطنا فيها.

ويرى الكـانتيون الجدد أنـه إذا ما قبلنـا هذه القضيـة الأساسيـة، فإنها لا تحتم بالضرورة رفض التجريبية الواقعية التي تقول بـوجود واقع تدلنا عليه التجربة: ذلك أنه حيـث أن كل شيء مباطن للـذات وداخل تحتها، فإن هنـاك أنواعا متعـددة من «التعالي» بإزاء الـوعي التجريبي المتعين الإنسـاني، ولذلك فإن خطـر «الانحصار في الذاتت» خطر غير قائم في هذا الإطار (٣٢٣).

ثم تظهـر مشكلـة أخـرى، هي تفسير الأسـاس الـذي تقـوم عليـه الـوقـائع الموضوعية، وهي وقائع لا ينكر الكانتيون الجدد وجودها على الإطلاق. ولا يستطيع

(٣٢٠) راجع فيما سبق، هامش (١٣٢) والمتن المقابل له.
(٣٢١) والملخصة في القول: «الوجود هو الإدراك».
(٣٢٢) تعبير إصطلاحي مقابل للألماني: Bewusstsein Uberhaupt.
(٣٢٣) التعالي هنا يعني مـا يخرج عن الذات، أي الوعي الذي نعايشه يـوميا، والانحصار في الذات يعني عدم استطاعة الخروج من الوعي إلى الأشياء.

الكانتيون الجدد الرجوع إلى حقيقة تتعالى على التجربة من أجل تفسير موضوعية الوقائع الموضوعية، لأن الحقيقة الوحيدة القائمة عندهم هي حقيقة محتوى «الوعي بصفة عامة». وهم يرون، حلا لذلك، أن الموضوعية والحقيقة لا تظهران كلاهما إلا في الحكم (٣٢٤). وهكذا تنتقل مشكلة الموضوعية من مستوى الوقائع إلى مستوى الحكم، وتصبح المسألة هي محاولة الإمساك بما يجعل الحكم موضوعيا وحقيقيا، وذلك بدون تجاوز مبدأ المباطنة، أي أن كل شيء مباطن للذات وداخل تحتها. وتبدأ الاختلافات بين مدارس الكانتية الجديدة من لحظة محاولة حل هذه المشكلة وتفسير مصدر الموضوعية والحقيقية في الحكم.

رابعا: مدرسة ماربورج:

يتوجه ممثلو مدرسة ماربورج «المنطقية» جميعهم باهتمامهم ناحية العلوم الطبيعية الدقيقة (٣٢٥). ومع أنهم يهتمون أيضا في نفس الوقت بمسائل الأخلاق وحتى فلسفة الدين، إلا أنهم دائما يركزون أبصارهم على العقل النظري(٣٢٦). وأساس هذا كله أنهم يعتبرون أن نقد العقل الخالص هو أهم عناصر فلسفة كانت، وخاصة في الجزء الخاص «بالتحليل الترانسندنتالي»(٣٢٧).

وهم يكملون الاتجاه المثالي في خط شديد التطرف والجذرية، حيث يرون أن كل شيء بغير استثناء يؤول إلى القوانين المنطقية المباطنة في العقل الخالص(٣٢٨). وهم يرفضون، مع سائر الكانتيين الجدد، كون الإحساس عاملا مستقلا من عوامل المعرفة. إن الإحساس عندهم لا يتعارض مع الفكر بإعتباره، أي الإحساس، عنصرا أجنبيا خارجا عنه، وإنما هو مجرد كم مجهول وقابل للتحديد، كشأن عنصر «المجهول»(X) في الرياضيات. إن الإحساس عندهم ليس «معطى»، بل هو

---

(٣٢٤) من هنا أهمية «الحكم» المنطقي. راجع فلسفة برنشفيك أيضا (الفصل التاسع مما سبق).

(٣٢٥) من مثل علم الطبيعة (الفيزياء) وعلم الفلك وغيرها.

(٣٢٦) في مقابل «العقل العملي»

(٣٢٧) وهو من أهم أجزاء كتابه «نقد العقل النظري الخالص».

(٣٢٨) «الخالص»، أي المستقل عن التجربة والسابق عليها (أي القبلي أو الأولي).

بـالأحـرى «مقترح»[٣٢٩] على المعـرفة، التي ينبغي عليهـا أن تحدده هي، أي المعرفة، بنفسها.

ولا يوجد حدس يقوم به العقل في رأي مدرسة ماربورج، والعلة في هذا أن العقل ماهو إلا تقـدم متطور من الأحكام، حكم وراء حكم، وموضـوع العقل هو «منتج» من نتاج هـذا النشاط. والذي علينـا أن نتحوط من الـوقوع فيه هـو أن نظن أن هذا النشاط الذي يقـوم به العقل هو من نوع النشاط النفسي، إنما هـو تجميعات منطقية خالصـة من تصورات. وهذه التصـورات هي نفسها مجرد علاقـات منطقية. وينتج من هذا أن كل مـوجود، بل الوجـود كله، يختزل إلى نسيج من العلاقـات المنطقية، وبالتالي ينتفي أي مكان لأي عنصر لا عقلي. وقد سمى البعـض هذه النظرية باسم «المثالية المنطقية»، أو باسم «النظرة المنطقية الشاملة»[٣٣٠].

في هذا الإطار، كيف يمكن [٣٣١] إذن تفسير موضوعية الأحكام وتفسير معنى كلمة «الحقيقة»؟ يجيب المثاليـون من مدرسة ماربورج على هذين التسـاؤلين بالرجوع إلى المقولات(٣٣٢). فهذه المقولات عندهم هي وجهـات للنظر، هي قواعد منطقية ذات طبيعة «قبلية»[٣٣٣] خالصة، أي أنها مستقلة عن التجربة [٣٣٤]، وإنما هي التي تحدد قيمة حقيقة الأحكام[٣٣٥]: وهكذا يكون الحكم صحيحا (أي حقيقيا) حين ينبني متـوافقـا ومتسقـا مع تلك المقـولات، ويكـون فـاسـدا (أي كـاذبـا)

---

(٣٢٩) على التوالي بالألمانية: Gegeben ثم Aufgegeben، والمعطى يفرض وجوده على نحو مستقل وأقـوى مـن مجرد «المقترح الـذي يقترب من مضمـون المادة الخام، ويـدل مصطلح «المقترح» كذلك على معنى الأمر الذي يصبح مسألة ينبغي القيام بمهمة تناولها.

(٣٣٠) Panlogism.

(٣٣١) راجع آخر «ثالثا» مما سبق على الفور.

(٣٣٢) هذا هو جـدول المقولات عند كانت: أ) من حيث الكم: الوحـدة والكثرة والجملة، ب) من حيث الكيف: الوجود والسلب والحد، جـ) من حيث الإضـافة: الجوهر والعلية والتفاعل، د) من حيث الجهة: الإمكان والاستحالة، وجود ـ لا وجد، ضرورة ـ حدوث.

(٣٣٣) أو «أولية»، أي سابقة على التجربة ومتحكمة فيها معا.

(٣٣٤) فهي لا تأتي منها، بل من العقل.

(٣٣٥) أي مدى حقيقتها.

حين يكون في تناقض معها. إن المقولات هي شروط المعرفة. وخارج المقولات يوجد من غير شك فكر، ولكنه ليس معرفة. وعلى هذا النحو يفسرأتباع مدرسة ماربورج موضوعية المعرفة بغير الرجوع إلى أي عنصر سواء كان متعاليا أم لا عقليا(٣٣٦).

وفيما يخص ميدان الأخلاق، فإن مدرسة ماربورج ترى أيضا أن المعايير الأخلاقية هي «قبلية» بالضرورة، أي أنها لا تولد من أرض التجربة. إن علم الأخلاق عندهم هو، في جوهره، منطق الواجبات، وكما هو الحال عند كانت، فان هذا الواجب عندهم واجب شكلي محض، أي أنه بغير محتوى محدد. ولكن أصحاب مدرسة ماربورج يختلفون عن كانت بأن لمذهبهم طابعا اجتماعيا يتعارض مع الاتجاه الفردي للأخلاق الكانتية. بل إن منهم من ذهب إلى حد محاولة التوفيق بين الأخلاق الكانتية والاشتراكية الماركسية.

وفيما يخص ميدان الدين، فإن مدرسة ماربورج لا تضفي عليه أي أهمية خاصة، بل الدين عندهم مجرد صورة من صور النزعة الأخلاقية، وفي هذا الإطار فإن الإله، عند فيلسوف مثل كوهين، لا يمثل إلا مثلاً أعلى أخلاقيا، أو هو الغاية التي يتمركز عليها العمل الأخلاقي بمعناه المحدد. ويتساءل الباحثون بصدد موقف ناتُرب، الذي أظهر نفس الأفكار في البداية، عما إذا كان قد عاد ليغير منها حقيقة في نهاية حياته.

وبصفة عامة، فإن أتباع مدرسة ماربورج يظلون مخلصين لمذاهب كانت أكثر من غيرهم من المثاليين. وعلى هذا، فإنهم امتداد في القرن العشرين الميلادي لأفكار القرن التاسع عشر (٣٣٧). والذي يدل على هذا الإتجاه ويؤكده أكثر من غيره هو الاتجاه الواحدي عند أتباع مدرسة ماربورج والذي يجعلهم يريديون تفسير كل الوجود بمبدأ منطقي وحيد (٣٣٨).

(٣٣٦) لا عقليا، أي خارجا عن المقاولات.
(٣٣٧) توفي كانت عام ١٨٠٤م.
(٣٣٨) هو مبدأ «الحكم».

خامسا : مدرسة بادن :

إذا كانت مدرسة بادن (أو مدرسة جنوب غرب ألمانيا أو المدرسة القيمية [٣٣٩] تشترك مع مدرسة ماربورج في اعتناق الأفكار الأساسية للكانتية الجديدة، إلا أنها تختلف عنها اختلافا جوهريا وعلى أكثر من وجه.

ذلك أن أصحاب هذه المدرسة لم يتوجهوا باهتمامهم إلى العلوم الطبيعية واقتصروا عليها وحدها، إنما بدأوا باعتبار أن الثقافة كل كامل، وبالتالي فانهم وجهوا انتباههم إلى تطورها فخصوا التاريخ باهتمامهم. ومن الواضح عندهم تأثرهم الجلي بالمذهب التاريخي الألماني (راجع الفصل الثالث عشر فيما يلي).

ومن جهة أخرى، فانهم يرون أن مركز الثقل في الفلسفة الكانتية لا يقوم في نقد العقل النظري الخالص[٣٤٠]، بل في نقد العقل العملي. وإذا كانت مثاليتهم حاسمة ومتطرفة مثلما هو الحال عند أصحاب مدرسة ماربورج، إلا أنهم ليسوا من أصحاب الإتجاه العقلي المغالي، وإنما يقبلون بوجود عنصر لا عقلي في العالم[٣٤١]. وهم يرون أن الذي يقيم الوجود الموضوعي ليس قوانين منطقية، بل هي قوانين قيمية، أي ترتكز على القيم. ولهذا فإن موقفهم موقف تعددي[٣٤٢]، كما أنهم يظهرون تفهما أعمق للقيمة الخاصة بالدين.

ويرى أصحاب مدرسة بادن أنه لا توجد حقيقة متعالية خارج «الوعي بوجه عام». أما تفسير قيام أحكام تعتمد على الحقائق المباطنة[٣٤٣] ولكنها في نفس الوقت تدعى تمثيل الحقيقة وتدعى الموضوعية، فهو، أي هذا التفسير، يقوم على أن تلك الأحكام تكتسب حقيقتها وموضوعيتها من وجود قيم متعالية تحتوي على «وجوب الوجود»[٣٤٤]، وهكذا فإن الحكم يكون حقيقيا (أي صحيحا أو صادقا)

---

(٣٣٩) من Axiology، ومن «القيمة».

(٣٤٠) كما كان الحال عند مدرسة ماربورج.

(٣٤١) لا عقلي، أي غير عقلي، أي غير العقل وحسب.

(٣٤٢) لأن القيم تتعدد بطبعها.

(٣٤٣) أي الوعي.

(٣٤٤) Sein. Sollen.

حين يقابل [٣٤٥] وجودا واجب الوجود، أي حين يقابل واجبا متعاليا.

وهكذا فإن مذهب مدرسة بادن يقبل إذن، كما نرى، بوجود مضمونات لا عقلية، ولا يذهب إلى حد إختزال الوجود بأسره إلى طرائق منطقية [٣٤٦]. ذلك أن أساس الوجود عندهم يتكون من قيم مستقلة عن العقل، بل ومستقلة كذلك عن «الوعي بوجه عام»[٣٤٧].

وهذه القيم المقصودة، في العلم والمنطق والأخلاق والاستيطيقا (فلسفة الفن والجمال)، إلى غير ذلك، ليست نسبية مطلقا، وإنما هي قيم مطلقة[٣٤٨]. إنها قوانين مباطنة للعقل، وقوانين نموذجية. وهي تنتمي إلى عالم ثابت خالد، وهي ليست موجودة[٣٤٩]، بل هي ذات قيمة وحسب، بدون أن تكون واقعية[٣٥٠]. وهناك من هذه القيم فئات ثلاث: قيم الحقيقة، وقيم الخير (في ميدان الأخلاق)، وقيم الجمال. ويضع فندلباند فوقها جميعا القيم الدينية[٣٥١].

وأهم ما يميز هذه القيم الدينية هو أنه لا يمكن التفكير فيها إلا إذا ربطناها إلى حقيقة متعالية على العقل. ونحن لا نستطيع الوصول إلى الإله المتعالى بوسيلة الفكر المنطقي الخالي من التناقض وحسب[٣٥٢]، ولا يحتاج الاعتقاد في هذا الإله، الذي لا تقوم للقيم الدينية قائمة إلا به، لايحتاج إلى أن نفهمه [٣٥٣]. وهكذا نتعدى المباطنة الشاملة [٣٥٤]، وإن يكن ثمن ذلك هو مذهب ديني لا عقلي.

إلى جانب نظريتهم في القيم، التي يستحقون بها أن نعتبرهم مؤسسين لفرع

(٣٤٥) أي يكون في مقابله، أو أمامه، أو بازائه.
(٣٤٦) كما كان الحال عند مدرسة ماربورج.
(٣٤٧) راجع فيما سبق هامش (٣٢٢).
(٣٤٨) أي تقوم بذاتها مستقلة عن الإنسان، وتفرض وجودها وضرورتها عليه.
(٣٤٩) على نحو وجود الحجر والشجرة والكرسي.
(٣٥٠) هي معيار للحساب، مثلا قيمة الجمال.
(٣٥١) وهو في هذا يشبه أفلاطون في «الجمهورية».
(٣٥٢) أي الفكر العلمي.
(٣٥٣) لأن الفهم عقلي وعلمي.
(٣٥٤) التي قالت بها مدرسة ماربورج.

جديد من فروع الفلسفـة، فإن فلاسفة بادن قدموا مشاركـات ممتازة في ميدان فلسفة العلوم العقلية[٣٥٥].

فإذا كـانت العلـوم الطبيعيــة «مشرِّعـة»، أي أنها تضع قـوانين (على مـا يقـول فندلبـاند)، أو تسير في منهجهـا على أساس التعميم (على مـايقول ريكـرت)، فإن العلوم العقلية تتميز بأنها «مصورة» (Idiographiques) و«مفردة». إن هدف العلوم العقلية ليس إقامة قوانين عامة كلية، وإنما هدفها هو وصف الفردي والجزئي. ولكن المؤرخ لا يستطيع أن ينكب باهتمامه على أي موجود جزئي، فان عليه أن يختار، وهذا الاختيار يفترض حكما قيميا[٣٥٦]، وهكذا فإن أساس كـل العلوم العقلية، في رأي مدرسة بادن، هو تقدير وتقويـم.

وقد تساءل ريكرت عن كيفية تفسير العلاقات المتبادلة بين العالمين، عالم الوقائع وعـالم القيم، وانتهى إلى أن هذه العـلاقـات غير ممكنة الا بـوسيلة دائرة مختلفـة عن هـذين العـالمين كليهما. هـذه الـدائرة يسميهــا ريكـرت «العـالم الثـالث» ويسمى العلاقـات التي تتألف منها «بتكوينـات المعاني»[٣٥٧]. والذي يقـابل هـذا العالم الثالث هو الثقافة[٣٥٨].

وقد قـام لاسك، عن طريق تطوير أفكـار مدرسة بادن، وبسبب اتصـالاته مع المدرسة الفينومينولوجية، قام بتكوين نظام فلسفي يقبل وجود مضمونات حدسية. وهذه المضمونات هي بالطبع مضمـونات مباطنة للعقل، ولكن مذهب لاسك يظل مع ذلك متعارضاً تعارضا قويا مع مذهب فلاسفة ماربورج.

سادسا: برونو باوخ:

يأتي باوخ من مدرسـة بادن، ولكنه مع ذلك ينفصل عنها بشأن أكثـر من مسألة واحدة. فإذا كان أصحـاب ماربورج يعتبرون أن مركز فلسفة كـانت هو نقد العقل

(٣٥٥) أي العلوم الإنسانية، وتسمى أحيانا عند الألمان بـ «علوم الروح»

(٣٥٦) لأن الاختيار تفضيل، وللتفضيل لابد من معيار، أي قيمة.

(٣٥٧) Sinngebilde.

(٣٥٨) المقصـود ظـاهـرة الثقـافــة بـالمعنى الإصطـلاحي في علم الأنثـروبـولـوجيـا، القـريب من «الحضارة».

النظري الخالص وأصحاب بادن يعتبرون أنه نقد العقل العملي، فإن باوخ يرى أن الكتاب الثالث الهام لكانت(٣٥٩) هو أهم مؤلفاته، وأنه هو الذي يحتوي على خلاصة فلسفته ويقدم معناها الحقيقي.

والموقف الأساسي لباوخ موقف يأخذ أخذا حاسما بالتعالي. فهو لا يتحدث عن التركيب القبلي وحسب، وإنما تحدث كذلك عن قانون التركيب(٣٦٠). وهو بهذا يصل إلى مذهب موضوعي أكثر تطرفا من مواقف المثاليين الكانتيين الآخرين بخصوص الموضوعية. وهكذا يميز باوخ بين صحة الأحكام وصحة العلاقات الموضوعية(٣٦١) وصحة العلاقات الموضوعية هي التي تؤسس صحة الأحكام.

أما الذات المتعالية (الترانسندنتالية) فإن باوخ لا يتصورها، على طريقة ريكرت، على أنها مركز الوعي الذي لا يختزل إلى ماهو أبسط منه، وإنما على أنها نظام، أو مجموع شروط الموضوعات، فهي ذات موضوعية، ولكنها ليس لها من الذات غير الاسم(٣٦٢).

ويعبر عنوان كتاب باوخ الرئيسي: «الحقيقة والقيمة والواقع» صدر عام ١٩٢٣م) عن اتجاه مميز آخر لمذهبه، ألا وهو اتجاهه نحو اعتبار تلك المشكلات الثلاثة مجرد أوجه ثلاثة مختلفة لمشكلة واحدة، حيث أن الواقع يساوي الحقيقة، كما أنه من جهة أخرى هو القيمة. ذلك أن باوخ يرى أن الحقيقة، أي قيمة الحقيقة، هي في جوهرها القبول الخالص(٣٦٣)، أي أنها الواقع، هذا بينما كل القيم الأخرى ماهي إلا أجزاء منها. وينتج عن هذا أن باوخ يرجع كل شيء إلى العلاقات المتعالية (الترانسندنتالية)، على طريقة أتباع مدرسة ماربورج، ولكنه يتصور العلاقات باعتبارها علاقات قبول، وهو في ذلك يقترب من موقف مدرسة بادن.

(٣٥٩) وهو «نقد ملكة الحكم»، وموضوعه الحكم الجمالي والغائية.

(٣٦٠) المهم هنا هو فكرة «القانون».

(٣٦١) على التوالي: Gultigkeit ثم Geltung.

(٣٦٢) أي أنها لا تدرك وليس لها وعي.

(٣٦٣) القبول ضد النفي، والقبول وجود حقيقة، والنفي عدم.

وابتداء من موضـوعيته المثالية طور باوخ مذهبـا في الجدل، يشبه مذهب هيجل في الجدل بعض الشيء. وهــو يــرى أن «تصــورات» الجدل، أي قــوانين تشكيل الموضوع، ليست ثـابتة متصلبة، وأنها هي في حـركة دائبة. إن العـالم المادي في تطور دائب، ولكنه ليس وحده في هـذا الحال، فقوانين العالم الجوهريـة هي أيضا في تطور دائم. هذه القوانين في مجملها تحمل اسم «المثال» أو «الفكرة»(٣٦٤) و«الفكرة» عند باوخ ليست مجرد تصور منظم، كما هـو شأنها عند كانت، بل هي وحدة مـوضوعية للصور المنطقية الكلية اللانهائية.

---

(٣٦٤) كما عند هيجل.

ملاحظات ختامية انتقادية حول المدارس المثالية

يقوم في أساس المثالية الأوربية في القرن العشرين الميلادي حدوس، أو إدراكات، أساسية: هو حدس تفرد العقل، وحدس موضوعية القانون، وحدس الطابع الخلاق للمعرفة.

إن المثاليين يدركون في حدة ومضاء ونفاذ ما عمى عن إدراكه التجريبيون:

أ - إن العقل يختلف اختلافا جذريا عن المادة، ولا يمكن تفسير العقل بالمادة وإرجاعه إليها.

ب - إن القانون المنطقي أو الأخلاقي لا يمكن أن يقوم على عملية نفسية (على الأقل عند الكانتيين الجدد).

جـ - إن فعل المعرفة ليس مجرد استقبال سلبي للانطباعات.

إن هذه التصورات تتعدى بكثير، من غير شك، النظرات البدائية التي توجد عند المادية والوضعية والنفسية، وأيضا عند أصحاب المذاهب الذاتي النظري والمذهب القيمي. كذلك فإن المثاليين يتعارضون تعارضا قويا مماثلا مع الإتجاه الحيوي اللاعقلي(٣٦٥). وقد قدم المثاليون عددا من المشاركات تعد ذات قيمة عالية جدا، ومن ذلك مذهب كروتشه في الاستيطيقا (فلسفة الفن والجمال)، ونظرية القيم عند مدرسة بادن، وتحليلات أصحاب هذه المدرسة للمعرفة، وهي تحليلات بعضها دقيق ونافذ إلى درجة مدهشة.

ومع كل ذلك فان تصورات المثاليين لا تزال واحدية النظرة(٣٦٦)، كما أنها عقلانية خالصة، إلى درجة أن بعض جوانب الواقع لا تجد لها مكانا في أرجاء تلك التصورات المثالية.

---

(٣٦٥) انظر الباب التالي.

(٣٦٦) لأنها لا ترجع إلا إلى العقل.

إن ما يميـز سائر المثـاليين هو الافتقـار إلى فهم العالم المادي، الـذي يختزلـونه في النهاية إلى محض ظاهر أو وهم. كذلـك يتميزون، أو غالبية منهم، بعدم القدرة على تفسير الواقعي والمتعين، كما أن لهم اتجاهـا نحو إحلال وظائف منطقية، خـاوية من المضمون، محل الوجود.

إن كل هذا يعود، في غالب الأمر، إلى كونه نتيجـة للأخذ بمبدأين: مبدأ المباطنة ومبدأ المذهب التصوري(٣٦٧).

أخيرا، فانهم في معظـم الأحيان، وكحال التجـريبيين، غير قادرين على تقـديم الحلول للمشكلات الفعلية الجادة لـلإنسان من حيث هو إنسان(٣٦٨). ويـلاحظ هذا على الخصوص في ميدان الدين، الذي لا يهتمون به، فيما عدا مدرسة بادن، أي اهتمام ولا يظهـرون بإزائه أي تفهـم(٣٦٩). وهكذا، فإن المثـاليين لا يزالـون يمثلون العقليـة المعتـادة للقـرن التاسـع عشر الميـلادي، ولـذلك حلت محـل فلسـفتهم، في منتصف القرن العشريـن الميلادي، عدة إتجاهات جديدة، أكثر اهتماما بالمتعين(٣٧٠)، وأكثر انفتاحا على مجموع الوجود في شتى جوانبه.



(٣٦٧) راجع «ثالثا» من هذا الفصل فيما سبق.

(٣٦٨) الأفضل أن يقول «الإنسان الغربي»، لأنه لا يوجد إنسان مطلق، وإنساننا ليس مثل إنسانهم مهما كان هناك من تشابهات خارجية.

(٣٦٩) سبق أن أشرنا أن المؤلف رجل دين كاثوليكي.

(٣٧٠) أي الموجود وجودا فعليا، في مقابل المجرد.

الباب الرابع

فلسفة الحياة

بينما تجعل الفلسفة التجريبية والمادية، اللتان درسناهما في الباب الثاني، مركز بحثهما معرفة المادة، وبينما يدور المذهب المثالي، الذي درسناه في الباب الثالث، حول مفهوم «الفكرة» أو «المثال»، فان الفلاسفة الذين نعرض لهم الآن يحاولون تفسير الواقع كله بوسيلة مفهوم الحياة.

وليس هذا وحده هو الذي يميزهم، وإنما يميزهم على الأخص عن التجريبيين والمثاليين اهتمامهم بتحطيم الإطار العام للفلسفة الأوربية «الحديثة» (١٦٠٠ ـ ١٩٠٠م.)، وإطار الفلسفة الكانتية بوجه خاص. وفلاسفة الحياة يعتزلون كذلك اعتزالا أساسيا النزعة الميكانيكية قدر بعدهم عن المثالية سواء بسواء.

وهناك اختلافات قوية فيما بين بعضهم والبعض، ولكن مهما كانت هذه الاختلافات فإنهم يجتمعون على الأمور التالية:

أولا، أنهم جميعا «فعليون»[٣٧١] على نحو مطلق، فعندهم لا يوجد إلا الحركة والصيرورة [٣٧٢] والحياة. ونخص بالذكر أنهم لا ينظرون إلى الوجود والمادة وما شابه، ألا على أنها من فُضالة[٣٧٣] الحركة. وتعبر عنهم جميعا هذه العبارة للفيلسوف الفرنسي برجسون التي توجز حدسا يشتركون فيه كلهم: «هناك في الصيرورة أكثر مما هناك في الوجود».

ثانيا، هم يتصورون الواقع على نحو «عضوي»، وعندهم أن علم الحياة (البيولوجيا) في أهمية علم الطبيعة عند أصحاب المادية العلمية. ويقوم علم التاريخ عند بعض فلاسفة الحياة من أتباع مدرسة دلتاى، يقوم بدور هام هو الآخر. وعلى كل حال، فإنهم جميعا يرون أن العالم ليس آلة، إنما هو على العكس حياة عاملة فاعلة.

ثالثا، يعتمد فلاسفة الحياة على هذا الموقف البيولوجي من أجل بناء مذهبهم

---

(٣٧١) أو «عمليون»، أو «نشاطيون». قارن هامش (١٠٧).

(٣٧٢) أي التغير المتصل.

(٣٧٣) أي «ما يبقى بعد» أو «نتيجة لـ».

الخاص في المعرفة. وهم جميعا في هذا الشأن لا عقليون[٣٧٤]، وتجريبيون على الصراحة. وأكثر ما يرفضون رفض التحريم هو «التصورات»، «القوانين القبلية»، «الإستنباطات المنطقية». ذلك أنهم لا يقبلون على أي نحو أن يكون المنهج العقلي هو منهج الفلسفة، إنما منهجها ووسيلتها هو الحدس والنشاط والفهم الحي للتاريخ.

رابعا، كذلك فإنهم، بصفة عامة، ليسوا «ذاتيين[٣٧٥]، بل يقبلون، على عكس أصحاب المذهب الذاتي، بوجود حقيقة موضوعية تتعدى الذات العارفة وتستقل عنها. ولهذا فإنهم يطرحون بغير مهادنة المثالية الترانسندنتالية والمثالية المطلقة [٣٧٦].

خامسا، وأخيرا، فإن معظم فلاسفة الحياة يظهرون ميلا واضحا للمذهب التعددي [٣٧٧] وللإتجاه الشخصاني[٣٧٨] وإذا كان هذا الميل لا يتسق دوما مع مذهبهم الأساسي في تطور الحياة، إلا أنه، أي ذلك الميل، يمكن أن يفسر على أنه رد فعل ضد الواحدية المادية أو المثالية.

ويمكن، في داخل فلسفة الحياة، أن نميز بين أربع مدارس مختلفة:

- مدرسة الدفعة الحيوية عند برجسون
- البراجماتية الأمريكية والإنجليزية
- المذهب التاريخي عند دلتاى
- فلسفة الحياة الألمانية

وسوف نجمع دراسة التيارين الأخيرين معا في فصل واحد، ونفصل بين دراسة

---

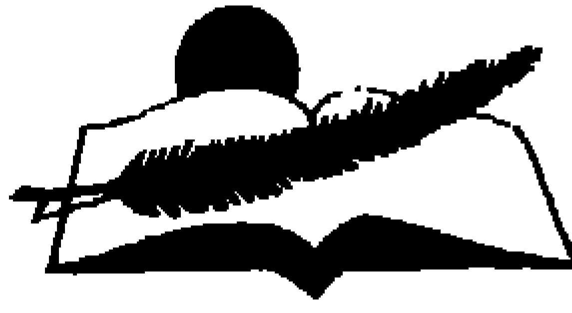
(٣٧٤) بمعنى من لا يضع العقل مبدأ أول وأعلى.
(٣٧٥) أي يحصرون الوجود الحقيقي في الذات، على نحو أو آخر.
(٣٧٦) راجع بصفة عامة الباب السابق.
(٣٧٧) هو القول بأن الوجود ليس واحدا أو أثنين بل موجودات متعددة.
(٣٧٨) هو الاهتمام بالإنسان في هيئة الشخص، وليس لمجرد الكائن الحي فيه.

برجسون والبرجسونيين. وهكذا ندرس هذه التيارات في فصول ثلاثة •

ـ برجسون

ـ البراجماتية و البرجسونيون

ـ فلسفة الحياة الألمانية والمذهب التاريخي . .



الفصل الحادي عشر

هـنـري بـرجسـون

أولا : أصول فلسفته وخصائصها

هنـري بـرجسـون (١٨٥٩ ـ ١٩٤١م) هـو أهم ممثلي «فلسفـة الحيـاة» الجديـدة وأكثرهم جدة وأصـالة، وهو الذي قدم أكمل صورة لتلك الفلسفـة. ولكنه إذا كان قد انتهى الى أن يكون على رأس تلك الحركة، فأنه لم يكن مع ذلك المؤسس لها.

و إذا اقتصرنـا على فرنسـا وحدهـا، فإن كتـاب بُلنْدل «العمل» سبق في الظهـور كتاب برجسـون عن «المعطيات المباشرة»، كما أن لوروا، الـذي سيصبح من بعدُ من أتباع برجسون، سبقه إلى الهجوم على التيار الميكانيكي.

والواقع أن كل هـذه الحركة الفلسفية الفرنسيـة أنها تعد امتدادا للتوجـه الروحاني الإرادي والشخصـاني للفلسفة الفـرنسيـة الـذي افتتحه مين دي بيران، وأصّلـه على الخصوص كل من فيلكس رافيسـون (١٨١٣ ـ ١٩٠٠م)، وجـول لاشلييه (١٨٣٢ ـ ١٩١٨م). وأمـيل بوتـرو (١٨٤٥ ـ ١٩٢١م)[٣٧٩]، وهـو الذي كـان برجسون تلميذا له.

ولكن برجسون لم يتأثر بهؤلاء الفلاسفة الفـرنسيين وحدهم، إنما تأثر كذلك بتيار «نقـــد العلم»[٣٨٠] كذلك فـانه أخـذ الكثير من المذاهب التطوريـة والنفعية في

---

(٣٧٩) للأخير كتاب عن كانت ترجمة إلى العربية أستاذنا الدكتور عثمان أمين.

(٣٨٠) راجع حوله، الفصل الثاني، «ثالثا».

الفلسفة الإنجليزية في القرن التاسع عشر الميلادي. وهو يقول هو نفسه إنه كان يبدو له في بداية اشتغاله بالفلسفة أن فلسفة هربرت أسبنسر هي وحدها التي تتطابق مع الواقع، ويضيف أن فلسفته أنها خرجت من محاولته التعمق في أساسيات نظام أسبنسر.

ولكن هذا الجهد التعمقي قادة في النهاية إلى رفض فلسفة اسبنسر برمتها، وأخذ في محاربتها من بعد ذلك بغير توقف. وقد أظهر برجسون تأملاته في أربعة كتب على وجه الخصوص، وهي تدل على منحي تطوره الروحي.

ذلك أن كتابه الأول، «رسالة في المعطيات المباشرة للوعي» (ظهر عام ١٨٨٩م)، يحتوي على نظريته في المعرفة، بينما يعرض كتابه «المادة والذاكرة» (ظهر عام ١٨٩٦م) نظريته في علم النفس، ويعرض «التطور الخلاق» (ظهر عام ١٩٠٧م) ميتافيزيقاه المؤسسة على البيولوجيا التأملية [٣٨١]، وفي كتابه الأخير الهام «منبعا الأخلاق والدين» (ظهر عام ١٩٣٢م) يعرض نظريته في الأخلاق وفلسفته الدينية [٣٨٢].

وقد لاقت كل هذه الأعمال نجاحا ليس له مثيل، ويعود هذا النجاح ليس إلى أن برجسون قد عرض فيها فلسفة جديدة بالفعل وتقابل أعمق الاحتياجات الروحية لعصرها وحسب، بل وكذلك إلى أن برجسون يعرض فيها أفكاره في لغة ذات جمال نادر. وهذا هو السبب في أنه تلقى عام ١٩٢٧م. جائزة نوبل في الأدب. لقد ضم برجسون إلى وضوح أفكاره العظيم، وتعبيراته الدقيقة في تمييزها بين الفروق اللطيفة، وقدرته التخيلية الرائعة، ضم إلى هذا كله رصانة فلسفية نادرة النظير ومقدرة جدلية بغير مثيل. أضف إلى هذا كله أن كتبه تعتمد على معارف قوية أنتجتها بحوث ودراسات مستفيضة وشاقة. وهكذا أصبح بإمكان برجسون أن يتعدى المذهب الوضعي وأن يجعله يتراجع، وأن يتعدى كذلك المذهب المثالي للقرن التاسع عشر

---

(٣٨١) أي ليس علم البيولوجيا وليد التجارب والملاحظة العملية، بل علم الحياة منظورا إليه بالتأمل العقلي.

(٣٨٢) معظم كتب برجسون قد ترجمت إلى العربية ومنها هذا الكتاب الأخير.

الميلادي، ليعلى فوقهما تيار فلسفة الحياة. إن برجسون هو أحد الرواد الذين خلقوا الفلسفة الأوربية الجديدة في القرن العشرين الميلادي.

ثانيا : الديمومة والحدس :

الرأي المشترك الذي عليه الناس، ويؤيدهم العلم، أن خواص العالم هي : الامتداد والتعدد العددي والحتمية السببية. ويرى الإنسان العادي أن العالم يتكون من أجسام صلبة ذات إمتداد، وأجزاؤها تتجاور إلى جوار بعضها البعض، وأنه أي العالم، يتميز بخاصية المكان المتجانس كل التجانس(٣٨٣) وبخاصية الفواصل المحددة التي تفصل بين الأشياء في المكان، كما أن كل الأحداث محددة مسبقا تحت سلطان قوانين لا تتبدل.

ويرى برجسون، من جهة أخرى، أن العلم الطبيعي(٣٨٤) لا يدرس الحركة، وإنما هو يدرس وحسب المواقع المتتالية التي تقع فيها الأجسام، كما أنه لا يدرس القوى، وأنما هو يدرس وحسب نتائجها ومعلولاتها، وهكذا فإن صورة العلم عن العالم تفتقد، في رأي برجسون، بالكلية إلى الحركة (الدينامية) وإلى الحياة. أما الزمان، على النحو الذي يدركه عليه العلم، فما هو في نهاية الأمر إلا مكان في الواقع، وحين يزعم العلم أنه يقيس الزمان، فإن الذي يقيسه إنما هو في الحق المكان(٣٨٥).

وهكذا يدرك الحس المشترك، من جهة، والعلم، من جهة أخرى، العالم، أما برجسون فأنه يقول إننا نستطيع مع ذلك أن نكتشف في أنفسنا، وإن يكن ذلك بعد جهد وتعب من غير شك، نوعا مخالفا تماما من الحقيقة. هذه الحقيقة تتميز بقوة مكثفة (Intensité) كيفية، وهي تتكون من عناصر غير متجانسة على الإطلاق، ولكنها مع ذلك يتداخل بعضها والبعض إلى درجة أنه يصعب أن نميز كل عنصر

(٣٨٣) التجانس ، أي أن كل مكونات الشيء تكون من نفس النوع أو «الجنس»
(٣٨٤) أي الدراسة العلمية للظواهر الطبيعية بأنواعها، كما في كليات العلوم بالجامعات.
(٣٨٥) راجع حالة ساعة اليد والشمس وحركتها.

منها بذاته، أخيرا فإن هذه الحقيقة الداخلية تتمتع بالحرية. وهي ليست مكانية، ولا مما يمكن عدُّه بالحساب، والواقع أنها تدوم، بل إنها ذاتها ديمومة خالصة (٣٨٦)، وهي بهذا الاعتبار مختلفة كل الاختلاف عن المكان وعن الزمان على نحو ما تتصورهما عليه العلوم الطبيعية. إن هذه الحقيقة الداخلية فعل فريد وحيد ولا يتجزأ، هي دفعة ووثبة وصيرورة ولا يمكن أن تقاس. هذه الحقيقة، من حيث المبدأ، في سيلان دائب لا يتوقف، ومن هذا الجانب فانها لا «تكون» وإنما هي «تصير» باستمرار.

الملكة (٣٨٧) الإنسانية التي تقابل المادة المكانية هي الذكاء أو العقل، والذي يميزه، في رأي برجسون، هو أنه متجه دوما نحو الفعل والعمل. إن العمل هو الذي يوجه العقل بشكل مباشر. وحيث إن الإنسان يحتاج إلى صنع أشياء محددة تحديدا قاطعا، لذلك فإن الموضوع الأساسي للعقل هو الجسمي الثابت، غير العضوي، المتجزأ. إن العقل لا يدرك إدراكا واضحا غير الثابت.

والمادة هي الميدان الذي يعمل عليه العقل، والعقل يتلقى المادة لكي يحيل الأجسام إلى أدوات، فهو، أي العقل، العضو المميِّز «للإنسان الفاعل»(٣٨٨) وهو مكيف في جوهره لكي يقوم بصنع الأدوات.

وبفضل اتحاده الجوهري مع المادة (٣٨٩)، فإن الذكاء أو العقل لا يدرك، في ميدان المادة، الظواهر وحسب، وإنما هو يدرك أيضا ماهيات الأشياء. وبهذا فإن برجسون يهجر المذهب الظواهري سواء عند كانت أو عند الوضعيين(٣٩٠)، وينسب إلى العقل، في شأن ميدان الجسميات، القدرة على معرفة الماهية(٣٩١).

---

(٣٨٦) من دام يدوم، ومن الدوام، ويقصد بها امتداد الزمان على نحو متصل، والوعي الإنساني يتمتع بهذا الإمتداد على نحو ذاتي معاش، فهي تعارض الزمان الخاضع للقياس والحساب.

(٣٨٧) أو: (القدرة Faculté).

(٣٨٨) Homo Faber، وهناك أيضا «الإنسان المتأمل»، أو «الحكيم»، أي من حيث هو فاعل أو من حيث هو عارف.

(٣٨٩) أي أنه مخصص لإدراكها.

(٣٩٠) الظواهرية هي القول بأننا لا نعرف من الأشياء غير ما تظهر لنا عليه، ولا شأن لنا بما هي عليه في ذاتها.

(٣٩١) وهذا على خلاف موقف كانت.

ويرى برجسون أن العقل تحليلي أيضا، أي أنه قادر على أن يحلل كل نظام إلى قوانينه ثم يعيد تركيبها من جديد. ويتميز العقل بالوضوح وبالقدرة على التمييز بين الأشياء.

وفي نفس الوقت، فإن العقل يختص أيضا بعدم القدرة، بالطبيعة، على فهم الديمومة الحقة، وهي الحياة. ذلك أن العقل مشكل على نموذج المادة، ولهذا فإنه حين يحاول فهم الديمومة فإنه يقوم بنقل الأشكال والصور التي تختص بها المادة، من إمتداد وقابلية للعد والحساب والوضوح والتحديد الحتمي، يقوم بنقل هذه الأشكال إلى عالم الديمومة. وهكذا فإنه يقطع التيار الحيوي الفريد ويدخل عليه اللااستمرار(٣٩٢) والمكان والضرورة. بل أن العقل، في رأي برجسون، غير قادر حتى على إدراك الحركة المحلية البسيطة، وهو ما تشهد به مفارقات زينون المشهورة (٣٩٣).

هذا عن إدراك المادة. أما إدراك الديمومة فإن لا وسيلة له إلا الحدس. بالحدس نعرف الديمومة معرفة مباشرة ومن باطننا.

وخصائص الحدس هي على الضد من خصائص العقل أو الذكاء. إن الحدس هو عضو «الإنسان المتأمل»، وبالتالي فإنه ليس في خدمة الحياة العملية. موضوع الحدس هو المتحرك، هو العضوي، ماهو في حركة وتطور، إنه وحده الذي يدرك الديمومة.

وبينما العقل يحلل ويفكك من أجل الإعداد للعمل، فإن الحدس رؤية بسيطة (٣٩٤) لا تفكك ولا تركب، بل ترى الديمومة في حقيقتها. ولكن الحدس ليس مما يمكن الوصول إليه في يسر، لأننا قد تعودنا عادة شديدة على استعمال

---

(٣٩٢) أي التقطع. والاستمرار واللا استمرار من أهم الأفكار المستخدمة في العلوم الطبيعية والإنسانية على السواء.

(٣٩٣) زينون، الفيلسوف اليوناني المعروف، من القرن الخامس ق.م.، حاول أن يثبت أن القول بالحركة، وبالتعدد، يؤدي إلى تناقض.

(٣٩٤) البسيط ضد المركب.

العقل، فيلزمنا تحقيق عودة عنيفة إلى دواخلنا، وهي عودة باطنية تتعارض مع ميولنا الطبيعية التي أعتدنا عليها، وذلك من أجل أن نستخدم قدرتنا على الحدس، ولن نستطيع استخدامه إلا في اللحظات الموافقة، وما أندرها وما أسرعها.

وفي إيجاز ، فان هناك ميدانين:

- هناك من جهة ميدان المادة المكانية الصلبة، وهي تقابل العقل المتجه إلى العمل.
- وهناك من جهة أخرى، ميدان حياة الوعي الذي يعيش في ديمومة، ويقابله الحدس.

إن العقل يتجه نحو العمل ونحو العمل وحده، وبالتالي فلا يبقى أمام الفيلسوف من أداة غير الحدس. والمعارف التي يحصل عليها باستخدام تلك الإداة لا يمكن التعبير عنها بأفكار واضحة ومحددة، كما أنه من غير الممكن استخدام البراهين في هذا الإطار. يبقى شيء واحد ممكن أمام الفيلسوف يستطيع أن يفعله، وهو أن يعين الآخرين على الشعور بحدس مشابه لحدسه. وهذا هو ما يفسر ثراء كتابات برجسون بالصور الموحية والخيالات والتشبيهات.

ثالثا : نظرية المعرفة وعلم النفس

يطبق برجسون منهجه الحدسي أكثر ما يطبقه، وفي المحل الأول، على ميدان مشكلات نظرية المعرفة.

يقول برجسون إن حلولا ثلاثة قد قدمت لتلك المشكلات حتى الآن:

- الثنائية الشائعة المعتادة.
- المذهب الكانتي.
- المثالية.

ولكن هذه الحلول الثلاثة كلها تقوم على أساس مشترك هو القول الخاطىء بأن

الإدراك الحسي والـذاكرة وظيفتـان تأمليتان على وجـه خالص، وأنهما مستقلتـان عن الفعل والعمل، هذا بينما الواقع أنهما وظيفتان عمليتـان تماما، وخاضعتان لمقتضيات الفعل والعمل. أمـا الجسـد، فما هـو إلا مـركـز للعمل والفعل. وينتج عن هـذه الاعتبارات والمبادىء أن الإدراك الحسي لا يصل إلا إلى جـزء وحسب من الواقع، وما هو ، أي الإدراك الحسي، إلا جمع منتخب من الصور الضرورية من أجل العمل.

والمثاليـة تخطيء ، لأن الأشياء (الموضوعـات) التي يتكون منها العـالم هي صور حقيقيـة، وليست، كما تدعى المثـالية، مجرد عنـاصر في الـوعي. وتخطىء الواقعيـة العـادية ونظـرية كـانت خطأ أبعد وأبعـد من السابق، حين يضعـان ما يتـوسط بين الـوعي والواقع الخارجي، ألا وهـو المكـان المتجانس، الـذي يعتبرانه عنصرا محايـدا ومستقلا في طبيعته عن الـوعي وعن الأشياء معا. إن الواقع ، في رأي برجســون، أن المكان ماهو إلا شكل حدسي، لا يتناسب إلا مع العمل الإنساني وحسب[٣٩٥]
وتعتمد نظرية المعرفة البرجسونية على أساس من نظرية سيكلوجية محددة.

ذلك إن برجســون يرفض المادية أول مـا يرفض، وهي التي تستمـد كل قوتها من واقعـة أن الوعي تـابع للجسم، وهو زعم خـاطىءٌ خطأ من يقول، حين يـرى ثوبـا يتماوج ويقع مع المشجب المعلق عليه، إن الثوب والمشجب واحد ونفس الشيء.

ويـرى برجســون أنه لا توجد صلة بين الظواهــر النفســية والظواهــر الفزيولـوجية[٣٩٦] ولا حتى صلة التوازي[٣٩٧]، وحتى هذا التـوازي، على فرض وجـوده، لا يبرهن على شيء[٣٩٨]. والدليل على هذا هـو الذاكرة الخالصة[٣٩٩] ذلك أن برجسون يميز بين نوعين من الذاكرة:

---

(٣٩٥) أي أن المكان صورة متناسبة مع العمل الإنساني ولأغـراضه وحسب، وليس موجودا بذاته أو مطلقا.

(٣٩٦) أي ما يحدث في النفس وما يحدث في الجسم.

(٣٩٧) أي أن كليهما يحدث مستقلا عن الآخر ولكن في نفس الوقت

(٣٩٨) أي لايبرهن على أن أيا منهما هو علة الآخر.

(٣٩٩) وهي بحسب التعريف ليست بذات أساس ولا مقابل فزيولوجي.

ـ ذاكرة ميكانيكية، جسمية، وتقوم في مجرد تكرار الوظائف على نحو أتوماتيكي.

ـ وذاكرة خالصة، تقوم على هيئة صور الذكرى.

ويرفض برجسون أن يربط بين الذاكرة والدماغ، وهي العضو الذي يقدمه الماديون على أنه مركز الذاكرة. ويقول أنه لو كان للذاكرة محل محدد في الدماغ، إذن لاختفت أجزاء كاملة من الذاكرة في حالة حدوث إصابات معينة في المخ. ويرى برجسون أن الأولى أن نشبه الدماغ بالمكتب المكلف بتوصيل الإشارات والرسائل من جهة الى أخرى. إن وظيفة الدماغ ليست القيام بواجبات الحياة الروحية بالمعنى الدقيق. ومن جهة أخرى، فإن الذاكرة ليست إدراكا حسيا وقد ضعف، وإنما هي ظاهرة مختلفة اختلافا جوهريا عن الإدراك الحسي[٤٠٠].

أما علم النفس الارتباطي[٤٠١] فإنه يقوم على خطأ مزدوج، هو تصور الديمومة وكأنها مكان، وتصور الأنا وكأنه مجموع من أشياء على هيئة مادية. نفس هذه الأخطاء تؤدي كذلك إلى القول بالحتمية السيكلوجية[٤٠٢]، التي تتصور الدوافع وكأنها أشياء تقع معا في نفس الوقت، وتتصور الزمان وكأنه طريق في المكان، ومن ثم تنكر الحرية.

ولكن الحقيقة، عند برجسون، أن شخصيتنا ككل هي منبع ومصدر أفعالنا، والقرار الذي نصدره يخلق ويبدع شيئا جديدا لم يكن من قبل، والفعل إنما يخرج عن الذات، وعن الذات وحدها[٤٠٣]، وبالتالي فهو حر حرية كاملة. وإذا كان هناك من ينكر هذه الحقيقة رغم وضوحها وضوح البداهة المباشرة، فإن علة هذا أن العقل

---

(٤٠٠) باختلاف كيفي وليس كميا وحسب.

(٤٠١) كما في المدرسة السلوكية الأمريكية (وزعيمها واطسن)، وعند بافلوف الروسي صاحب التجارب الشهيرة على الحيوانات.

(٤٠٢) أي أن ما نحس به لابد بالحتم أن نحس به، فلا حرية ولا اختيار.

(٤٠٣) وليس عن مجموعة من الظروف المسبقة الداخلية والخارجية، التي تدفع إليه، أي إلى ذلك الفعل، دفعا وبالضرورة أو الحتم.

أو الذكاء يبني «ذاتا» سطحية، تشـابه الجسم وعلى مثاله، وبهذا يخفي العقل الذات الحقيقية العميقة ويضع عليها الغطاء، بينما الذات الحقة خلق وديمومة ولا شيء غير ذلك.

رابعا : الحياة والتطور

هناك مذهبـان تقليديان حاول بهما الفلاسفـة تفسير الحياة: المذهب الميكانيكي والمذهب الغائي، وكلاهما، في رأي برجسون، على خطأ سواء بسواء.

ويرى المذهب الأول، الميكانيكي، أن الكائن الحي، أو الكائن العضوي، ماهو إلا آلة تحددهـا في المحل الأول قوانين عقليـة، بينما يرى المذهب الثـاني، الغائي، أن هناك خطة محددة يسير على هـداها العالم. وكلا المذهبين يغـالي، على نحو أو آخر، في أهمية العقل أو الذكـاء، هذا بينما يرى برجسون أن العقل مصنـوع للعمل لا لمعرفة الحياة. لذلك ينبغي على الفلسفة أن تتعدى الميكانيكية والغائية كليهما، والميكانيكية على الأخص، لأنها تنكر أوضح المعطيات(٤٠٤).

وكما كان الحال مـع مشكلة العلاقـة بين النفس والجسم(٤٠٥)، فإن بـرجسـون يلاحظ في إطار مشكلة الحياة ظاهرة تبرهن على خطأ المذهب الميكانيكي. وتتلخص هذه الظاهـرة في تكون أعضاء حية ذات بنيـات متشابهة ولكن في فروع متباينـة غاية التباين. ومثال ذلك حالـة العين عند الحيوانات الرخوية وعند الحيـوانات الفقرية، حيث اختلف خط التطـور في كل حالة عن الأخـرى حتى من قبل أن يكتسب ذلك النوع أو تلك القدرة على الإبصار.

وبفضل مثل هذه الواقعة، وملاحظات أخرى عديدة، يرفض برجسون المذهب الميكانيكي على طريقة داروين أو على طـريقة الداروينية الجديدة(٤٠٦)، ويـرفض بالتالي التصـور الميكانيكي عن الأعضاء الحية. ويرى برجسـون أنه ينبغي أن ننظر إلى

---

(٤٠٤) ومنها أن هناك حرية وأن الحقيقة غير ما يدركه العقل

(٤٠٥) إشارة الى ظاهرة الذاكرة.

(٤٠٦) أي عند أتباع دارون الذي توفى عام ١٨٨٢م.

العضو الحي بـاعتباره التعبير المركب عن وظيفة بسيطـة. وهو يشبهه بلوحـة رسمها المصـور بـوسيلة آلاف من اللمسـات، ولكنهـا كلهـا مع ذلك تعبير عن إلهام بسيط واحد، هو إلهام الفنان.

وصحيح أن الكائن العضوى يحتوى على تكوين آلي، بل قـد يبدو كذلك أنه هو نفسـه تكـوين آلي. ولكن، فكما أن الجزئيـات الصغيرة التي يتكـون منهـا القـوس المعماري قـد تبدو متطـابقـة مع خط التماس، فكـذلك تبـدو الحياة حين تفحصهـا تفصيليا مناهج العلوم الطبيعيـة، تبدو وكأنها تكوين آلي، بينما هي ليست كذلك في الحقيقة.

إن الحياة، باعتبارها كـلا، ليسـت كيانا مجردا(٤٠٧). إن الذي حـدث هـــو أنـه في لحظة معينـة وفي مـواقع معينة من المكـان ولـد تيـار حيوي، وأخـذينتقل من جرثومة(٤٠٨) إلى أخرى بفضل الكائنات النامية المتطورة. ويجتهد التيار الحيوي من أجل الانتصار على العقبات التي تضعها المادة في طريقه، ويرى برجسون أن الجانب المادي في الكـائن العضـوي يمثل مجموع العقبـات التي يتعين على الحيـاة الالتفـاف حولها وتخطيها.

إن الحياة، في رأي برجسون، لا تسير على المنطق، وهي قد تخطىء أحيانا، وقد تتجمع قواها في ممـرات مسدودة، أو قد تعود إلى الوراء أحيـانا. ومع كل ذلك، فإن الاندفـاعة الحيوية الكليـة على مستوى الكون تستمر في مسيرتها وتبقى قـائمة. ومن أجل أن تزدهر الحياة، فإن «الدفعة الحيوية»(٤٠٩) تفرع نفسها إلى فروع متنوعة.

وهناك أولاً الانقسام الكبير إلى عالم نباتي وعالم حيواني. وتتراكم الطاقة عند النبات تراكما مباشرا، ليقوم الحيوان بالنهل منهـا، وليحولها إلى مادة يتفجر منها العمل الحر.

---

(٤٠٧) بل هي كيان متعين واقعي فعلي.

(٤٠٨) بالمعنى الحسن للكلمة.

(٤٠٩) أو «الانطلاقة» أو «الاندفاعة» (Elan Vital) وهذا هو المفهوم الرئيسي في فلسفة برجسون.

ولكن النبات مربوط إلى الأرض، ووعيه ثقيل لايزال، ولا يبدأ الوعي في التيقظ إلا في عالم الحيوان.

ثم تقوم «الدفعة الخلاقة» بتفريع نفسها، مرة أخرى، في عالم الحيوان في اتجاهين مختلفين، كما لو كانت تحاول منهجين مختلفين: في الاتجاه الأول تصل إلى الاكتمال في نوع الحشرات الاجتماعية[٤١٠]، وفي الاتجاه الثاني تصل إلى الاكتمال في نوع الإنسان.

من الجهة الأولى، تسعى الحياة إلى اكتساب الحركة السريعة والمرونة عن طريق «الغريزة»، أي ملكة استخدام الأدوات، أو الأعضاء، العضوية[٤١١] بل وخلقها خلقا. والغريزة تعرف موضوعاتها عن طريق التعاطف، ومن الداخل، وهي حين تعمل تعمل بغير خطأ وعملا واثقا، ولكن عملها دائما على وتيرة واحدة، أي «واحدي الطريقة» [٤١٢].

أما عند الحيوانات الفقرية، فان الأمر مختلف، حيث يبدأ الذكاء أو العقل في النمو، في مقابل الغريزة، والعقل هو ملكة صنع الأدوات غير العضوية[٤١٣]. والعقل، بحكم طبيعة جوهره العميق، يتجه، ليس إلى الأشياء، بل إلى العلاقات، إلى الأشكال والهيئات. ولذلك، فإنه لا يعرف موضوعاته من الداخل، بل يعرفها من الخارج. وفي مقابل ذلك، فإن هذه الأشكال الفارغة يمكن أن تمتلأ بأشياء لا نهاية لعددها وبحسب إرادة العقل[٤١٤]. والعقل الكامل يتجاوز حدوده الأصلية، بل ويمكن أن يعمل خارج الميدان العملي الذي خلق له في حقيقة الأمر [٤١٥].

---

(٤١٠) من مثل النحل والنمل.
(٤١١) مثل أعضاء الحس، واليدين وغيرها.
(٤١٢) قارن عمل العين مثلا.
(٤١٣) أو المصنوعة.
(٤١٤) مثلا فكرة «الضد» تمتلىء بها لا نهاية له من المضمونات.
(٤١٥) حين يتعرض للحقيقة مثلا، والكلام انتقاد للعقل حين يتعدى حدوده.

وفي الإنسان، أخيرا، يظهر «الحدس»، وإن كان لا يظهر إلا على صورة دفعات سريعة نادرة، وفي الحدس تصبح الغريزة بغير واجب عملي تؤديه وتصير قادرة على التأمل في ذاتها. ومن ناحية أخرى، فإن الإنسان حر. وهكذا فإن كل خط للتطور ينتهي إلى تحرير الوعي عند الإنسان، ويظهر الإنسان وكأنه الغاية النهائية من تنظيم الحياة على كوكب الأرض.

خامسا : الميتافيزيقا

إذا كان الفيلسوف يدع ذاته تنغمس في بحر الحياة التي تحيط بنا، إلا أنه يحاول مع ذلك رسم خط يوضح منشأ وتطور الأجسام والعقل. إن الحدس الأساسي يظهر أن الحقيقة كلها صيرورة، وليست حياة ووعيا وحسب. لا توجد أشياء، وإنما توجد أفعال وحسب، والوجود هو في جوهره صيرورة. تقول العبارة الشهيرة لبرجسون: «هناك في الصيرورة أكثر مما في الوجود»(٤١٦).

إن العقل وحده، وبالتالي العلم، يصوران لنا أن الأجسام ثابتة صلبة. أما الحقيقة فهي أن العالم المادي نفسه في حركة، في اندفاعة، ولكنها اندفاعة السقوط والتبدد. ذلك أن هناك في رأي برجسون نوعين من الحركة في العالم:

- الحركة الصاعدة، وهي حركة الحياة.

- والحركة الهابطة، وهي حركة المادة.

إن القانون الذي يحكم المادة هو قانون تقلص الطاقة، أما الحياة فإنها تكافح ضد هذا القانون، ولكنه ليس في مستطاعها محوه تماما، وكل ما تقدر عليه هو أن تعوقه وأن تؤخر نتائجه.

ويشبه برجسون ما تفعله الحياة في هذا الشأن، من أجل تقريبه إلى الإفهام، بالبخار الذي يخرج على هيئة نفثات من شقوق الإناء، ثم يتكثف في الهواء المكشوف على هيئة قطيرات تتساقط. ولكن قدرا ضئيلا من البخار لا يتكاثف على الفور

---

(٤١٦) أو «مما في الكينونة».

ويجاهـد من أجل مسانـدة القطيرات التي تتسـاقط. كذلك الحال مع الحيـاة: فمن مستـودع الحيـاة الهائل تخرج على التوالي أنـواع من النفثـات، وحين يسقط كل منهـا يتكون منه عالم. هذه القطـرات التي تسقط هي المادة. وهناك تشبيه آخر حول نفس الأمر: فشـأن العالم مع الحركـة الحيوية شبيـه بشأن الذراع المرفـوعة التي إذا تـراخت عضـلاتها انخفضت. إن المادة كأنها فعل خلاق ولكنـه ينحل ويتفكك. ولكن كل هذه الصور والتشبيهات غير كـافية، لأن الحياة تنتمي إلى المجال النفسي، وليس إلى مجال المكان(٤١٧).

ونفس الأمـر في شأن الـوعي. إن الحدس يعمـل في نفس الاتجاه الـذي تعمل فيـه الحياة، ويعمل الـذكاء أو العقل في الاتجاه المعارض. وهـذا هو السبب في أن العقل في جوهره مرتبط بـالمادة متوافق معها. أما الحدس، فإنه هو الـذي يظهر لنا الحقيقة الحقيقية، التي فيها تبدو الحياة وكأنها أمواج هائلة تمتد، ولكن الحواجز تعوقها، رغم ذلك، على معظم امتدادها. وهي تنجح في بقعة واحدة في تعدي العقبات، وتنطلق فيها حـرة: هذه الحريـة تظهر مع الشكل الإنساني للحيـاة. لذلك فأن الفـلاسفة لم يخطأوا حين أعلنوا حرية الروح واستقلالها بازاء المادة، وربما كذلك دوامها إلى ما بعد الموت.

ولكن الفلسفـة، مع ذلك، تـاهت عـن الطـريق الصحيح حين استخـدمت في التعبير عن ذلك المعنى لغـة العقل ومفاهيمـه. ويقـدم برجسـون تحليلات مفصلـة طويلة تفسر كيف نشأت فكرة الفوضى (وذلك، على التخصيص، بتداخل نظامين مختلفين، هما النظام الحيوي والنظام الهندسي)، وتفسر كيف تكونت فكرة «العدم»، وهي عنده فكرة زائفة بالمعنى الدقيق.

ويعترض بـرجسـون على أهم النظم الفلسفيـة التي أنتجهـا مـاضي الثقـافـات الأوربية. فهـو يرى أن ميتافيـزيقا أفلاطـون وأرسطو قـد ألغت فكرة «الديمـومة»، وذلك بسبب الميل الطبيعي للعقل أو الـذكـاء(٤١٨)، وهذا الميـل نفسه هـو نتيجة

(٤١٧) الذي تأتي منه تلك التشبيهات.

(٤١٨) الذي «يثبت» و«يسكن» ولا يستطيع إدراك الديمومة المتغيرة.

لتصورات قامت اللغة باختلاقها. وهو يرى أن الأمر هو نفسه، رغم الاختلاف في بعض التفاصيل، مع النظم الفلسفية الغربية الحديثة، من مثل فلسفات ديكارت وأسبينوزا وليبنتز والمذهب النقدي عند كانت وفلسفة إسبنسر على وجه الخصوص. ويرى برجسون أن الطابع «السينمائي» للفكر(٤١٩) يظهر على أوضح ما يكون في فلسفة إسبنسر الذي يدعى أنه يدرك ويصور التطور الحي وكأنه تتابعات من حالات الوجود الذي ينمو، وهو بهذا، أي إسبنسر، ينكر تماما الديمومة الحقيقية ولا ينتبه إليها.

سادسا : الأخلاق

يرى برجسون أن هناك نوعين من الأخلاق : الأخلاق المنغلقة والأخلاق المنفتحة.

أما الأخلاق المنغلقة فإنها تدير وجهها عن أكرم ظواهر الحياة، وهي تنحصر في كونها نوعا من الضغط الذي يمليه المجتمع، والأفعال التي توافق تلك الأخلاق تتم بشكل تلقائي غريزي. ولا يصل الأمر إلى حد صراع بين الذات الفردية والقوة الاجتماعية إلا في حالات نادرة واستثنائية.

إن الأخلاق المنغلقة أخلاق غير شخصية، وهي منغلقة من ثلاثة أوجه :

- فهي تهدف إلى حفظ العادات الاجتماعية.
- وهي تطابق تماما المطابقة، أو يكاد، بين الفردي والاجتماعي، بحيث أن النفس تظل تدور دوما في نفس الدائرة.
- أخيرا، فانها دائما أخلاق مجموعة اجتماعية محددة، ولا يمكن أن تصلح للإنسانية بأسرها، لأن هدفها هو تثبيت التلاحم الاجتماعي، وهذا التلاحم الاجتماعي لا يقوم، في معظمه، إلا أساس من الضرورة القاضية باتخاذ موقف الدفاع عن الذات(٤٢٠).

(٤١٩) أي أن الفكر مكون من مقاطع ثابتة تبدو متحركة ظاهرا، كما هو الحال في السينما. وهذا التعبير الأخير أصله كلمة يونانية تعني «الحركة».

(٤٢٠) أي ضد الجماعات الأخرى.

إلى جانب هذه الأخلاق المنغلقة التي تلزم وتوجب على نحو مطلق لا يعرف الحرية، هناك الأخلاق المنفتحة. ويجسد هذه الأخلاق الشخصيات البارزة الاستثنائية والقديسون والأبطال. وهي ليست أخلاقا اجتماعية، بل هي أخلاق إنسانية وشخصية [٤٢١]. وهي ليست ثابتة جامدة، بل جوهرها هو التقدم والخلق.

وهي أخلاق منفتحة بمعنى أنها تحيط بالحياة كلها في إطار الحب، بل هي تهب كذلك الشعور بالحرية، وتتطابق مع مبدأ الحياة ذاته. إن مصدر الأخلاق المنفتحة هو انفعال عميق، وهذا الإنفعال، شأنه شأن العاطفة التي تثيرها الموسيقى، ليس له من موضوع محدد[٤٢٢].

والحقيقة أن الأخلاق المنغلقة والأخلاق المنفتحة لاتوجدان على هيئة خالصة. فكل تطلع[٤٢٣] يسعى إلى أن يتأكد ويثبت في شكل إلزام وواجب، وكل إلزام [٤٢٤] يسعى إلى أن يصبح تطلعا. وكلا الشكلين الأخلاقيين، وأحدهما ينبع مما تحت العقل والآخر مما فوق العقل[٤٢٥]، هذان الشكلان يظهران على مستوى العقل، وهو السبب في أن الأخلاق حياة عقلية. والواقع أن الأخلاق المنغلقة وتلك المنفتحة كليهما تعبران عن نفس الدفعة الحيوية وتتكاملان فيما بينهما.

سابعا : فلسفة الدين

القسمة التي أجراها برجسون في ميدان الأخلاق تظهر مرة أخرى في ميدان الدين : فهناك الديانة الساكنة وهناك الديانة الديناميكية.

أما الديانة الساكنة فإنها خلق ذو طابع دفاعي. تدافع به الطبيعة عن نفسها بازاء نتائج النشاط العقلي، وهو الذي يهدد، أي النشاط العقلي، بقهر الفرد أو

---

(٤٢١) وهو ما يضاد الطابع «الاجتماعي» ومن هنا «الجمعي»، إذن اللافردي واللاشخصي.
(٤٢٢) وهو ، أي وجود موضوع محدد، مايعني طابع الجمود والسكون.
(٤٢٣) من يقول التطلع يقول التفتح.
(٤٢٤) وفي الإلزام شيء من الانغلاق.
(٤٢٥) على التوالي من المادة ومن الديمومة.

بتحلـــل المجتمـــع . إن الديانة الساكنة تصل ما بين الإنسان والحياة وما بين الفرد والمجتمع ، وذلك بوسيلـة حكايات خـرافية تشبـه الحكايات التي تحكي لـلأطفال . وهكذا فإن الديانة الساكنة هي نتيجة للقدرة الأسطورية التي للعقل .

إن العقل ، بمعناه الـدقيق (٤٢٦)، يهدد التـلاحم الاجتماعي بـالتحلل ، ولا تستطيع الطبيعـة أن تجابه العقل بـالغريـزة ، لأن الغريزة في عـالم الحيوان حـل محلها العقل في عالم الإنســان . ولذلك فإن الطبيعـة تعين نفسها بأن تخرج إلى النـور القدرة الأسطوريـة . فإذا كان الإنسان يعـرف بالعقل أنه سوف يمـوت ، وهو أمر لا يعـرفه الحيوان ، فـإن الطبيعة تعين الإنسان على تحمـل هذه المعرفـة المريرة بأن تخلـق له آلهة تقـومَ الأسـاطير بصنعهـا لـه . ويضيـف بـرجسـون أن دور القـدرة الأسطـوريـة في المجتمعات الإنسانية يقابل دور الغريزة في المجتمعات الحيوانية .

أما الـديانة الـديناميكية (المتحـركة)، أو التصـوف ، فإنها شيء مختلف تماما عن الديـانة الساكنـة التي وصفتها السطور السابقـة . إن الديانـة الديناميكيـة هي نتاج للعودة إلى الاتجاه الـذي تنبع منـه الدفعة الحيـوية ، وهي استشعـار بذلـك الذي لا تستطيع الكلمات أن تعبر عنه أو أن تدركه ، والتي تتطلع إليه الحياة .

إن مثل هـذا التصـوف لا يقدر عليـه إلا بشر استثنـائيون يخرجـون عن مستـوى العاديين . وهـو لم يظهر عنـد قدمـاء اليونـان ، كما لم يظهر في صـورته الخالصـة عند قدماء الهنود ، لأنه عندهـم سيبقى تصوفا تأمليا إلى درجة مغالية(٤٢٧) . إنما هو يظهر عند كبار المتصوفـة المسيحيين الذين كانوا يتمتعون بصحة روحية كاملـة . إن الديانة المسيحيـة تبـدو وكأنها بلـورةُ ذلك التصـوف ، كما أنها في نفس الـوقت ، ومن جهـة أخرى ، أساس له أيضـا ، لأن المتصوفة جميعهم ليسوا إلا مقلدين ، ومقلدين ناقصين وإن كانوا مجددين وعلى أصالة ، لذلك الذي أعلن موعظة الجبل(٤٢٨) .

(٤٢٦) راجع «ثانيا» ، مما سبق في هذا الفصل .

(٤٢٧) أي مخلوطا بالعقل كما يفهمه برجسون .

(٤٢٨) أي السيـد المسيح ، وتجمع هـذه الموعظـة الهامـة أصـول الأخـلاق المسيحيـة (انجيل متى ، الاصحاح ٥ ـ ٧) . والمعروف أن برجسون من أصل يهودي ، ولكنه تحول في أخريات حياته إلى الديانة الكـاثوليكية . لاحظ أنه لا يهتم أي اهتمام بالتصوف الإسـلامي ، لأنه لا يفكر إلا على تـراثـه ، ولأهلـه ولأصحـاب ثقـافتـه ، مثلـه مثل سـائر من يـؤرخ لهم هـذا الكتـاب .

إن التجربة الصوفية تسمح، فيما يرى برجسون، ليس فقط بتعضيد احتمال التصورات التي عرضها عن الدفعة الحيوية، بل وكذلك بتعضيد القول بوجود الإله، وهو الأمر الذي لا يمكن البرهنة عليه بالأدلة المنطقية.

ويقول المتصوفة أيضا إن الإله هو المحبة. ويرى برجسون أنه لا يوجد ما يمنع الفيلسوف من أن يطور فكرة أطلقوها، وهي التي تقول إن العالم ما هو إلا الوجه الملموس من هذه المحبة ومن الحاجة الإلهية إلى الحب.

كذلك يرى برجسون أن التجربة التصوفية، مؤيدة بنتائج علم النفس، تستطيع أن تثبت إثباتا احتماليا، يصل إلى درجة اليقين، بقاء الروح بعد الموت.



الفصل الثاني عشر
البراجماتية والمدرسة البرجسونية

أولا : البراجماتية

ازدهر التيار البراجماتي على الخصوص في الولايات المتحدة الأمريكية وفي إنجلترا، ولكن لم يقتصر ظهوره على هذين البلدين، فقد وجد من يمثله، في حدود عام ١٩٠٠م في ألمانيا، حيث ظهر عند أصحاب المذهب التجريبي النقدي كارل ماركس ولينين، جيورج سيِّمل، وهانز فايهنجر (١٨٥٢ ـ ١٩٣٣م)، كما أن اتجاه المدرسة الوضعية قريب جدا من الاتجاه البراجماتي، أما في فرنسا، فإن عددا من ممثلي اتجاه «نقد العلم»، وعلى الخصوص أبل ريُّ، يشاركون البراجماتية في أكثر من نقطة التقاء. ومن المفهوم أن كل هؤلاء المفكرين لا يدافعون وحسب عن بضعة أفكار ذات طابع براجماتي، بل إن لهم مذاهبهم الأخرى في نفس الوقت.

وفيما يخص نظرية المعرفة، فإن البراجماتية تنحصر في القول بإنكار أن تكون المعرفة نظرية وتأملية خالصة، وفي القول بإرجاع الحقيقة إلى المنفعة. ولكن كل واحد من البراجماتيين يعرض هذه المبادىء على نحو يختص به هو، وعلى درجات تختلف فيما بينهم. وعلى حين أن التيار الأكثر تشددا يعلن أن القضية الصحيحة(٤٢٩) هي التي تؤدي إلى نجاح فردي، فإن التيار الأكثر اعتدالا يرى أن الحقيقي هو ما يمكن التحقق من صدقه بوسيلة الوقائع الموضوعية. وسواء كان هذا أو ذاك، فإن كل براجماتي يرى أن المنفعة والقيمة والنجاح هي المعيار الوحيد للحقيقة، وهي أيضا

(٤٢٩) من الوجهة المنطقية.

بصفة عامـة جوهر الحقيقة. أما ما يختلف بشأنـه البراجماتيون فيما بينهم، فهو شروط هذه المنفعة وحسب.

والبراجماتية في تيارها الأمريكي ـ الإنجليزي ليست نظرية في المعرفة وحسب، بل تضاف إليها في الأغلب فلسفة للحياة تشبه كثيرا فلسفة الحياة عند برجسون.

وترى هذه الفلسفة الحيوية البراجماتية أن الحقيقة لا تعرف الثبات، بل هي تسيل وتخلق ألوانا من الخلق الحر، ويعجز العقل عن إدراك هذه الحقيقة، وتقوم كل معرفة على أساس التجربة. ويتشـابه البراجماتيون الأمريكيون والإنجليز مـع برجسون أيضا في الأخذ بموقف معين يتسم بالطابع الشخصاني والإنساني.

أما الاختلاف الـرئيسي بين ممثلي البراجماتية والفيلسوف الفرنسي، فـانه يقوم في أن برجسون يعتبر أن وظيفة الحدس هي وظيفة نظرية في جوهرها، بينما يرى البراجماتيون أن كل معرفة هي عملية بحكم تعريفها(٤٣٠).

وبصفة عامة يمكن القول إن للبراجماتية ولفلسفة برجسون مبادىء مشتركة نبعت عن نفس الأصل، وقـد تطورت البراجماتيـة في نفس وقت نمو الفلسفـة البرجسونيـة وبالموازاة معهـا، وقامت في تـاريخ الفكر الغربي بنفس الـدور الذي قـامت به تلك الفلسفة. ولكنهـا أصبحت في دائرة الماضي عند منتصف القـرن العشرين في أوربا، ولم تستمـر إلا على نحـو جـزئي في التيـارات الأخـرى (من مثل الـوضعيـة الجديـدة والوجودية). لذلك فإننا سـوف نمر سريعا على البراجماتيين الثلاثة الشهيرين: وليم جيمس، وفردناند شلر، وجون ديوي. والأول والثالث أمريكيان، والثاني إنجليزي، وتأثير الأمـريكيين على الفكـر الأوربي عظيم إلى حـد أنـه يستلـزم التـوقف عنـدهما للحظات.

ثانيا: وليم جيمس

أول من أعلن آراء بـراجماتية الطـابع هـو المنطقي والفيلسوف الامـريكي تشارلـز

---

(٤٣٠) لأن هدف المعرفة هو حل المشكلات.

بيرس (١٨٣٩ ــ ١٩١٤م)، ولكن المذهب البراجماتي ظهر في صورته الواضحة الملامح على يد وليم جيمس (١٨٤٢ ـ ١٩١٠م)، الذي يعتبر مؤسس هذه المدرسة وممثلها الأساسي.

كان جيمس شخصية فذة غير عادية، حيث جمع في شخصه بين عالم الفزيولوجيا وعالم النفس المبرز [٤٣١]، كما كان واسع المعارف في ميدان الفنون، وذا طبع متدين عميق التدين، كما كان إلى هذا كله كاتبا لامعا، وقد أثر تأثيرا قويا على مجمل الفلسفة الغربية في القرن العشرين الميلادي.

ومبدأ فلسفته هو رد فعل معارض للمثالية التي قدمها كلٌ من برادلي[٤٣٢] والفيلسوف المثالي الامريكي الكبير جوزياروبس (١٨٥٥ ــ ١٩١٦م)، كما بدأت، من جهة أخرى بمهاجمة المذهب الواحدي[٤٣٣] والحتمية العلمية، واستخدمت في هذا الصدد تيار «نقد العلم» وطورته.

ويعتمد مذهب جيمس على تصور ديناميكي (حركي) وتعددي للوجود: أي أن العالم ليس كاملا نهائيا، ولا يحتوي على جواهر ثابتة، بل هو في صيرورة دائمة دائبة، كما أنه ليس كيانا واحدا مفردا، بل هو يتكون من أفراد متعددين. ويذهب جيمس إلى حد إظهار نوع من التعاطف مع القول بتعدد الآلهة، ووراء هذا كله أنه يرفض دائما القول بالواحدية ويمتعض منها أشد امتعاض.

من جهة أخرى فان فلسفته تعارض المذهب العقلي أشد معارضة، وذلك إلى حد انكار التعارض بين الذات والموضوع، ويصف وليم جيمس نفسه فلسفته بأنها تجريبية متشددة وهو يدفع بفكرة إمكان الموجودات[٤٣٤] إلى حدها الأقصى بالقول بنظرية أسماها Tychism [٤٣٥].

---

(٤٣١) له كتاب مشهور في «مبادىء علم النفس» وله أيضا كتاب طريف عن «أنواع من التجربة التصوفية». وله كتب كثيرة مترجمة إلى العربية.

(٤٣٢) راجع فيما سبق، «ثالثا»، من الفصل الثالث

(٤٣٣) القول بأن الوجود واحد لا يعرف التعدد.

(٤٣٤) الإمكان ضد الوجوب أو الضرورة.

(٤٣٥) من أصل يوناني يعني البخت أو المصادفة.

وهناك نظريـة مشهورة تقدم بها وليم جيمس، هي نظـرية «الواجديـة المحايدة» بازاء قطبي الفزيولوجي والنفسي: وفكرتها أنه لا يوجد اختلاف جوهري بين الظواهر النفسية والظواهر الفزيولوجية.

ولكن أشهر ما تقدم به وليم جيمس مـن مذاهب هو البراجماتية، وهي التي ترى أن الفكـرة تكـون صحيحة حين تـؤدي إلى إدراك مـوضـوعها، وأن القضيـة تكـون صحيحة حينما تـؤدي إلى نتائج نـافعة إذا مـا نحن قبلناهـا، وحين تثبت أنها قـابلة للعمل. وقد استخدم جيمس للتعبير عن هذا التحقق العملي كلمة "Cash" (النقد المعدود)، وقـد أساء كثيرون فهـم المقصود بها (٤٣٦). أمـا «المنفعـة»، فإن وليم جيمس لا يقصد بها اشباع الحاجات المادية للفرد وحـدها، بل يقصد كذلك كل ما يساهم في تألق حياة الانسان والمجتمع(٤٣٧).

ومن هذه الوجهة للنظر، فإن عقـائد الدين صحيحة تماما في نظر وليم جيمس، وهو يرى أنه ينبغي الحكم على الدين لا بشيء إلا بنتائجه(٤٣٨). ويعلن جيمس أنه لا يدرى أن للدين مغزى ميتافيزيقيا أم لا(٤٣٩)، ولكن المؤكد أنه على الأقل فرض خصب(٤٤٠).

هذا الموجـز القصير لا يستطيع أن يوضح على مـا يجب مدى غنى مـواقف وليم جيمس، ولكننا لا نستطيع الدخول فى تفـاصيل أكثر، لأن فلسفته تنتمى، إذا أردنا الدقة، إلى حقبة أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

ثالثا: البراجماتية الانجليزية:

ظهرت الفلسفة البراجماتية في بـريطانيا تحت تأثير وليم جيمس من جهة، وعلم

(٤٣٦) وسخروا منه لاتجاهه «الأمريكاني» هذا، وذلك في القارة الأوربية.

(٤٣٧) هو إذن لم يقصد المنفعة الأنانية لفرد بعينة، فهو يراعي الطابع الاجتماعي.

(٤٣٨) الـدين الـذي يـؤدي إلى التفـاؤل والبشر والنجـاح ينبغي الاعتقـاد في صـوابـه، والعكس بالعكس.

(٤٣٩) أي أنه لا يتعرض لحقيقة العقائد الدينية وفسادها.

(٤٤٠) مادام خصبا، فهو يمكن أن يؤدي إلى نتائج حسنة ومفيدة.

النفس الجديد المعارض للمذهب الترابطى، والذى دافع عنه، أى عن ذلك التيار الجديد فى علم النفس، سواء وليم جيمس نفسه أو جورج سكوت (١٨٦٠ ـ ١٩٤٤م). والممثل الرئيسى لهذه المدرسة الجديدة هو فردناند شللر (١٨٦٤ ـ ١٩٣٧م)[٤٤١]، الذى كان قد تأثر تأثرا عميقا بالفيلسوف المنطقى الانجليزى ألفرد سدجوك، وهو الذي كرر التأكيد على استحالة وجود منطق صورى صرف.

وأول ظهور للبراجماتية الانجليزية كان في كتاب اشترك في تأليفه ثمانية من شباب الفلاسفة تحت عنوان: «المثالية الشخصانية» (ظهر عام ١٩٠٢م). ولم يكن كل مؤلفو هذا الكتاب، ومنهم هنرى استيورات (١٨٦٣ ــ ١٩٤٦م). وشلر نفسه وهاستنجز راشدال (١٨٥٨ ـ ١٩٢٤م)، لم يكونوا جميعهم من البراجماتيين، ولكنهم قبلوا جميعا المذهب التعددى، وبه عارضوا مثالية برادلى وواحدية اسبنسر على السواء. وهذا الكتاب، شأنه شأن كثير من كتب تلك الفترة، إنما يدل بالأحرى على الأزمة الروحية للقرن التاسع عشر الميلادى أكثر من دلالته على ظهور تيار جديد يؤيد الاتجاه الواحدى.

وكانت الأفكار قد بدأت فى التوجه نحو اسم شلر منذ عام ١٨٩١م. حين ظهر كتابه: «ألغاز أبي الهول. دراسة في التطور كتبها بدائى من سكان الكهوف»، وهو كتاب غريب، يعلن فيه شلر انتماءه إلى المذهب التعددى وإلى المذهب الشخصانى، ويفصل فيه مذهبا يرى أن الآله كائن شخصى محدد. ولكن هذا الكتاب ينتمى إلى فترة لم يكن فيها شلر بعد براجماتيا.

ولم يبدأ فى الاعلان عن كونه براجماتيا بالمعنى الكامل إلا منذ عام ١٩٠٣، ولكنه يسمى البراجماتية باسم آخر هو «النزعة الانسانية»، وهو يأخذ لنفسه تعبير بروتاجوراس المشهور: «الانسان مقياس كل شيء»، ويؤيد السفسطائيين اليونان، ويدافع عنهم ضد المذهب العقلى عند افلاطون[٤٤٢]، بل ويقوى من معنى عبارة

---

(٤٤١) انظر كتاب الدكتور عثمان أمين في سلسلة «نوابغ الفكر الغربي» بدار المعارف.
(٤٤٢) الذي هاجم السفسطائيين كما نعرف.

بروتاجوراس، ليذهب إلى أن الإنسان ليس مقياس كل شيء وحسب، بل هو خالق كل الحقيقة.

والحقيقة عند شلر ما هى إلا كم ضخم غير منظم ولكنه قابل للتشكيل، وهى لا تصبح «واقعة» (بالألمانية Tat-Sache ، أى «شيء للفعل») إلا حين يتصل بها عمل الإنسان. والنتيجة أن سؤال: ما هى الحقيقة؟ يصبح سؤالا بغير معنى، إنما السؤال الذى ينبغى أن يسأل وأن يتكرر وضعه هو: ماذا نستطيع أن نفعل بها؟

ويهتم شلر اهتماما أساسيا بالمنطق، وهو في هذا واقع تحت تأثير سدجوك. ويرى شلر أن المنطق لا يستطيع أن يكون صوريا ومجردا، ويعلن باللاتينية: Ex-pellas Hominem, Logica, Tamen Usque Recurret («اصرف الإنسان، أيها المنطق، ولكنه سيعود إليك دائما»). إن المنطق عند شلر هو شيء انسانى، وعليه أن يخدم الإنسان، لأنه أداة فعلية ومتعينة من أجل العمل. ويرى شلر أن مبدأ الذاتية ومبادىء المنطق الأخرى، التى يقال إنها مبادىء مطلقة، هذه المبادىء كاذبة(٤٤٣).

والحال كذلك أيضا مع «الحقيقة». فيرى شلر أنه لا توجد حقيقة مطلقة، إنما كل حقيقة فهى إنسانية. ولا يقول شلر على الدقة إن كل قضية نافعة حقيقية، وإنما يقول إن القضية الحقيقية لابد أن تكون نافعة، وأن كل قضية تمثل قيمة. وعلى هذا. فإن الحقيقة لا تعلن مرة واحدة وإلى الأبد، وإنما هي ديناميكية (حركية) وفي صيرورة مستمرة. ويتصور شلر الحقيقة على طريقة داروينية خالصة حين يختزلها إلى مفهوم التيار الحيوى. إن مذهب شلر ليس منطقا، وإنما هو تحليل منطقى بيولوجى للمعرفة.

ولكن شلر لم يجد صدى موافقا كبيرا لمذاهبه في أجواء الفلسفة الانجليزية، واعتبره الكتاب سفسطائيا بارعا، وهي تسمية افتخر بها هو نفسه على كل حال.

(٤٤٣) وهو نفس موقف السفسطائيين الذي يعرض له أفلاطون وأرسطو ليهاجمانه.

ولم يكمل أحد مذهب شلر بعد موته عام ١٩٣٧م، ولكن كتاباته العديدة، والتى كتبت في أسلوب رائع، استمرت في إحداث تأثير كبير. ويمكن أن نقول إن جزءا من الأفكار التى توجد منتشرة في منتصف القرن العشرين الميلادي إنما تعود إلى فلسفة شلر.

رابعا: جون ديوى:

اكتست البراجماتية الأمريكية طابعا خاصا على يد جون ديوى (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢م)، الذي جمع بين المادية العلمية وآراء وليم جيمس.

وبينما كان مذهب جيمس يتجه على الخصوص وجهة دينية، وبينما كان شلر يريد إقامة مذهب إنساني فلسفى، فإن ديوى يتجه باهتمامه كله ناحية العلوم الطبيعية. وهو يأخذ بالمذهب «السلوكى» الذى قدمه واطسن، وهو المذهب الذى يقول إن العقل ما هو إلا «ما يفعله الجسم». وانتهى ديوى إلى أنه لا توجد معرفة حقيقية خارج المعرفة التى ينتجها منهج العلوم الطبيعية. وإذا كان المفكرون في العصور السابقة، التي لم تتوصل بعد إلى التكنولوجيا التى عرفها العصر الأخير، إذا كانوا يبحثون عن أسباب الأعمال خارج نطاق التجربة(٤٤٤)، فإن ذلك غير ممكن اليوم، وينبغى رفض كل الأفكار التى تتعالى على الطبيعة، في هذا العصر المتقدم، والاتجاه بالكلية إلى «الخبرة» (٤٤٥).

وتعلمنا الخبرة أن كل شىء يتغير، وأنه لا يوجد ثبات أو سكون، لا في ميدان المادة ولا في ميدان العقل، والفكر نفسه ما هو إلا أداة من أجل العمل. ولا يبدأ الانسان في التفكير إلا حين يصطدم بصعوبات مادية يكون واجبا عليه التغلب عليها (٤٤٦). وبالتالى فإن الأفكار ليس لها إلا قيمة «أداتية» أو «وسائلية» وحسب (ومن هنا تسمية مذهب ديوى «الذرائعية»). إنها ما هي إلا أداة معلقة على الخبرة

(٤٤٤) أي في الميتافيزيقا.

(٤٤٥) Experience. وقد ترجم الكثير من كتب ديوي إلى العربية، بفضل أساتذة التربية الذين اشتغلوا على أفكاره، وبفضل دار النشر الأمريكية «فرانكلين».

(٤٤٦) راجع لديوي كتاب «المنطق» مترجما إلى العربية بقلم الدكتور زكي نجيب محمود.

النشطة وتنتجها تلك الخبرة وتستخدمها. إن قيمة الفكر تعتمد بالكلية على مدى نجاحها. وفي نهاية الأمر، فإن الحقيقى هو وجه من أوجه الخير.

وقد ذاعت شهرة جون ديوى على الاخص باعتباره مفكرا تربويا يروم إصلاح مناهج التربية على أساس آراء اجتماعية متشددة في شأن الطابع الاجتماعى للتربية، ولكن فلسفته هي الأخرى أثرت تأثيرا عظيما جدا في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد كانت فلسفته لمدة طويلة أقوى قوة عقلية في تلك البلاد التى تعبد التكنولوجيا، ولم تعرف خبرة «التقدم» العلمى، على النحو الذى عرفته أوربا (٤٤٧).

وإنه لانقلاب عجيب أن ينتهى مذهب وليم جيمس، الذى خرج من الاعتراض على إعطاء قيمة أعلى مما ينبغى إلى التكنولوجيا والعلوم الطبيعية، ليتحول على يد جون ديوى إلى واحد من أركان التصور المادى والعلمى للعالم.

خامسا: المدرسة الجدلية:

من المدارس ذات العلاقة مع البراجماتية، نذكر «المدرسة الجدلية»، لأنها استمدت بعضا من آرائها الأساسية من البراجماتية.

وتتجمع هذه المدرسة من حول المجلة الفلسفية التى تنشر في زيورخ بسويسرا: «ديالكتكا»(٤٤٨)، التى بدأت في الظهور عام ١٩٤٧م، والممثل الرئيسى لهذه المدرسة هو فردنان جونست (ولد عام ١٨٩٠م)(٤٤٩). ويتعاطف المفكر الفرنسى وفيلسوف العلم المعروف جاستن باشلار (ولد عام ١٨٨٤م)، وعدد آخر غيره من العلماء والفلاسفة، مع هذه المدرسة على نحو واضح إلى درجة أو أخرى.

ويرى جونست أن كل معرفة إنسانية هي معرفة جدلية، ويعنى بذلك إنها ينبغى أن تكتفى بفلسفات وبقواعد مؤقتة، تقوم على أساس الوعى الجماعي الحي للباحثين في عصر ما. فلا يوجد هناك معيار مطلق للحقيقة. وينتج عن هذا أنه لا ينبغى أن

---

(٤٤٧) لاحظ رنة السخرية من المؤلف الاوربي بازاء الأمريكيين.

(٤٤٨) Dialectica.

(٤٤٩) Gonseth.

نقبل بصحة قضايا أو قواعد أو نظريات إلا طالما كانت نافعة لحركة العلم.

ويرى الديالكتكيون أن هذا المبدأ صالح في شتى الميادين. وهم يضيفون أنه لا يوجد منطق مطلق، وإنما توجد وحسب نظم منطقية مختلفة: وعلينا إما أن نقبلها أو أن نرفضها، وذلك حسب مدى نفعها.

ولا يقبل الجدليون اللوم الموجه إليهم بأن موقفهم موقف نسبى، ويصرحون بأنهم لا يقولون بأن الحقيقة نسبية، وإنما يقولون وحسب أنه لا ينبغى أن نقبل أن يكون لأى شىء قيمة مطلقة(٤٥٠).

ومن جهة أخرى، فإنهم يندفعون عنهم المذهب الحسى، بمعناه الضيق، والمذهب الاسمى، اللذين يقول بهما اتجاه الفلسفة الوضعية المنطقية، ويرون أن منهجهم ممكن التطبيق فى سائر الميادين (بما فيها علم النفس الاستبطانى، بل وكذلك علم اللاهوت).

ومع ذلك، فيبدو أنهم يشبهون الوضعية المنطقية في اعتبار منهج العلوم الاستدلالية المنهج الوحيد القادر على انتاج المعرفة.

وقد ظهرت المدرسة الجدلية في خلال المؤتمر الدولي العاشر للفلسفة (عام ١٩٤٨م) كواحدة من أقوى المدارس وأكثرها حركة وديناميكية. وقد نجحت في اجتذاب عدد غير قليل من المفكرين الأوربيين الذين كانوا من قبل من أنصار الوضعية المنطقية. كذلك فإنها مركز جذب لعدد من العلماء والرياضيين ذوي الاهتمامات الفلسفية، ولعدد من الفلاسفة المنشغلين بدراسة المنهج العلمى في العلوم الطبيعية وفي الرياضيات.

سادسا: المدرسة البرجسونية

تكونت في فرنسا، تحت تأثير برجسون، مدرسة واسعة ممتدة الاطراف منذ بداية القرن العشرين الميلادي، وهو العصر الذي تأثر أيضا بحركة «نقد العلم»

---

(٤٥٠) أي ثابتة دائما وأبدا وفي كل مكان وزمان.

وبالبراجماتيـة الأمريكيـة. وقد اتجهت هـذه المدرسة في الاتجاه الحيـوى واللا عقلى إلى أبعد مما ذهب إليه برجسون نفسـه. وأغلب أعضاء تلك المدرسة ممن يعلنون أخذهم بالبراجماتية، والباقون ممن يأخـذون بالاتجاه «الارادى» الذى يعتبر أن للارادة الأولوية على العقل، وأن الحقيقة، كما هو الحال عند فردريك شلر، قيمة حيوية[٤٥١].

ولن نستطيع هنا التفصيل في هذه المذاهب بسبب حجم هذه الدراسة المحدود، وعلى كل حال فإنها لا تتميز بأصالتها وتجديدها بقدر ما تتميز بتطرفها. ومع ذلك، فإن التطور الذى مر به قسم من هـذه المجموعة يستحق الاهتمام: فقد بدأوا متطرفين قبل الحرب العـالميـة الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨م)، إلا أنهم تحولوا إلى الاعتـدال بعـد ذلك، حتى أنهم أصبحـوا يعتبرون من دعـاة القول بـالمذهب العقلى. ولكن الـواقع أنهم ظلوا، بـاستثناء بلُنْدِل وحده، خصـوما أشداء معلنين للقيمة المعـرفية للعقل، وبـراجماتيين ينظـرون إلى الحقيقـة على أنها تكيف مـع الحيـاة. وإذا كـانت فلسفتهم فلسفة حيـوية مثل برجسـون، إلا أنهم ليسوا على عمق أستـاذهم الروحى المشترك، الذى قدم هذه النظرة الحيوية إلى العالم.

ونذكر من بين فلاسفـة هذه المجموعة، من جهة، عالم النفس مـوريس برادنز، وهـو واحـد من أشـد المغـالين في الاتجاه الـلاعقلى، والفيلسـوف الاخـلاقي جـان دوجولتييه (١٨٥٨ ـ ١٩٤٢م)، الذي يجمع إلى النزعة اللاعقلية فلسفة مثالية ذاتية، ومن جهة أخرى، مجموعـة المفكرين الكاثوليك الذين تجمعـوا، من بين تلاميذ ليون أوليه ـ لابرون (١٨٣٩ ـ ١٨٩٩م)، بتأثير برجسون. وبعض أعضاء هذه المجموعة، مثل ألفـرد لوازى (١٨٥٧ ــ ١٩٤٠م)، ولـوسيـان لابرتُنير (١٨٦٠ ــ ١٩٣١م)، ليست لهم في الفلسفـة إلا أهمية محدودة، وإن كـانوا يحتلـون مكـانا هـاما في الحركـة التحديثية الكاثوليكية[٤٥٢].

وهنـاك أُخرون تلمع أسماؤهم في مجال الفلسفـة، وأخصهم بالـذكر إدوار لـوروا

---

(٤٥١) أي أن الحقيقة في خدمة الحياة، لا أكثر.

(٤٥٢) أي التي تعيد النظر في العقائد القديمة لتجعلها موائمة للعصر.

(١٨٧٠ ـ ١٩٥٤م)، وموريس بلُنْدِل (١٨٦١ ـ ١٩٤٩م). ولا يعلن بلُنْدِل عداءه الصريح للمذهب العقلى، بل أنه اقترب كثيرا من مجال الميتافيزيقا[٤٥٣]. ومن المهم أن نثبت هنا نص بعض عباراته: «يظهر دائما في أصل العمليات العلمية... يظهر القـرار»[٤٥٤]. ويقول: «إن العلوم لا تكشف لنا أى كشـف عن جوهر الأشياء»، وذلك «لأن حريتها [٤٥٥] غير محدودة». وهكذا يكون بلُنْدِل أكثـر تشككا في قيمة العلم من برجسون، الذي يعترف للعلم بالقدرة على النفاذ إلى جوهر المادة.

أما ادوار لـوروا، فإنه يذهب إلى أبعـد من ذلك. فالعلم عنده مـا هو إلا تنظيم اعتبارى[٤٥٦] خالص، وهو يرى أن النظريات العلمية، بل وكذلك أحكام الوقائع وتقاريـر الواقع ذاتها، ذات طـابع اعتبارى خالص. إن العـالِم هو الـذى يخلق نظام الأشيـاء[٤٥٧]. إن المعطى الذى يقدم إليه هـو مادة غير مشكلة، وهو، أى العالم، هو الذى يرسم فيه الوقائع بالمسطرة والبرجل. أن العلم العقلى، في رأى لوروا، ما هو إلا لعب صـورى خـالص، بلا مغـزى يـدل على جـوهر الأشيـاء، ولا مضمـون في داخله، إنه ما هو إلا خدعة من العقل وحيلة من أجل السيطرة على العالم. ويمكن أن نقول نفس الشىء عن العقائد الـدينية، التى لا يستطيع الإنسان أن يجد لها معنى جديراً بتوقف الفكر أمامه. فما هي إذن إلا صيغ وشعائر وقواعد عملية للحياة. وإذا كان لوروا يقبل وجود الإله، فإنه ينكر أنه يمكن إثبات ذلك بالبراهين.



(٤٥٣) وأداة البحث فيها هو العقل.

(٤٥٤) وهو صورة من «الحكم».

(٤٥٥) أي الأشياء.

(٤٥٦) Conventionnel، أي خاضع للاتفاق ولا يدل على طبيعة الأشياء.

(٤٥٧) ولا يكتشف ذلك النظام في الطبيعة.

الفصل الثالث عشر

المذهب التاريخي وفلسفة الحياة عند الألمان

أولا : خصائص المذهب التاريخي

الذي يقابل ، في ألمانيا ، فلسفة الحياة في فرنسا والبراجماتية الإنجليزية ، هو حركتا المذهب التاريخي والفلسفة ذات الاتجاه البيولوجي .

وهاتان الحركتان مختلفتان فيما بينهما اختلافا جوهريا ، ومع ذلك فانه تجمعهما سمة مشتركة : فهما يشبهان برجسون وجيمس في حيازة حس حاد بالصيرورة الحيوية ، كما أن الحركتين تنكران أية قيمة للمنهج العلمي الطبيعي حينما يتصل الأمر بفهم الحياة . كذلك فانهما كلتيهما تأثرتا أقوى تأثير بفلسفة فردريك نيتشه (توفى عام ١٩٠٠م)

والمذهب التاريخي هو أهم هاتين الحركتين . وقد نشأ في إطار العلوم التاريخية في ألمانيا في خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي .

ومن بين رؤساء الحركة التاريخية ، خلاف نيتشه ، نذكر جيورج سيمل (توفى ١٩١٨م) وهو كانتي يأخذ موقفا نسبيا اختص به في فكر أصيل ، وأهم منه رودلف أُيكن (توفي ١٩٢٦م) فيلسوف الحياة العقلية ، وعلى الأخص وفي المحل الأول فيلهلم دلتاي (توفى عام ١٩١١م) ، المؤرخ العظيم وفيلسوف التاريخ .

ويدل اسم المذهب على تعلقه بدراسة التاريخ على نحو خاص ، وبالتالي على اختصاصه التطور العقلي والروحي بالاهتمام . وهكذا يصبح التاريخ مركز النشاط

الفلسفي. ويرى أتباع هذه المدرسة التاريخية أنه لا يمكن إدراك جوهر التاريخ لا بمناهج العلوم الطبيعية ولا بأية طريقة عقلانية كانت. والتاريخ عندهم يحتوي على الفكر ويضمه بين جوانبه في أثناء مسيرته. وينتج عن هذا التصور موقف لا عقلي متطرف ونزعة نسبية تقوى إلى درجة أو أخرى.

أما الحركة الأخرى من حركتي فلسفة الحياة الألمانية فهي الفلسفة البيولوجية، وهي أقل من صاحبتها اهتماما بالتاريخ. وهي تفسر الصيرورة ليس على أنها صيرورة العقل في التاريخ، بل باعتبارها تيار العناصر الحيوية بمعناها العام. ويعد لودفيج كلاجز أهم ممثلي هذا التيار بلاغة وخصبا فكريا في مرحلة ما بين الحربين العالميتين (١٩١٨ ـ ١٩٣٩م).

وسوف نعرض فيما يلي بإيجاز للنقاط الرئيسية لنظريات دلتاى، ونشير إلى أهم أتباعه، وبعد ذلك ننتقل إلى كلاجز.

ثانيا : فيلهلم دلتاي

إذا كان فيلهلم دلتاي (١٨٣٣ ــ ١٩١١م) ينتمي إلى عصر سابق بالفعل على القرن العشرين، إلا أن تأثيره امتد إلى مابعد الحرب العالمية الأولى. وهذا هو السبب في مكانه هذا هنا.

وقد كان دلتاي مؤرخا مبرزا، وبدأ باعتناق الوضعية، ولكنه تأثر من بعد بالفلسفة الكانتية تأثرا قويا. وبهذه الصفة فإنه يعتبر مفكرا نموذجيا في تمثيله لفكر القرن التاسع عشر الميلادي (٤٥٨). ومع ذلك، فينبغي اعتباره أيضا من بين أهم ممثلي أزمة ١٩٠٠م. في الحضارة الغربية، حيث عرف كيف يسيطر على هذين التأثيرين، الوضعية والكانتية، ليخرج باتجاه يقوم على النسبية وعلى اللاعقلية.

والمشكلة المركزية عنده هي مشكلة الحياة، وعلى الأخص تفهم الحياة. وهو يتصور الحياة على أساس غائي، باعتبارها مجموعة من الاتجاهات والنزعات، في

---

(٤٥٨) راجع فيما سبق، الفصل الأول بوجه عام.

إطار وحدة مقفلة، حيث يقـول إنها «مجموع يضم في كنفه الجنس الإنساني». ولكل مظهر من مظاهر الحياة أهميته، باعتبار أنه تعبير من نوع ما عن ميدان الحياة.

وفي إطار نظرية المعرفة، يعارض دلتـاي المذاهب العقلانية، ويرى أننا لا نعرف بالـذكاء، بل نعرف عن طريق مجمـوع النفس فينا، ونقرر وجـود العالم الخارجي عن طريق إرادتنا حين تعترضها المقاومة. وقد قام دلتاي بتقديم نظرية تفصيلية في طبيعة معرفة العلوم الروحية (وهو ما يطلق عليه اصطلاح اتجاه «التأويل» (٤٥٩)). وهناك مبادىء ثلاثة أساسية بشأن طبيعة هذه المعرفة:

ـ المعرفة التاريخية هي تأمل على الذات.

ـ الفهم ليس هو التفسير (٤٦٠)، وليس وظيفة عقلية، بل يتم بوسيلة كل القوى الانفعالية للنفس.

ـ التفهم هو حركة من الحياة باتجاه الحياة، لأن الحقيقة حياة.

ويـرى دلتـاي أننـا لن نستطيع أن نـدرك التنـاسق الكلي للحقيقـة، وتماسكهـا وتـلاحمها، إلا عن طـريق تعـاون كل قوى النفس، وعن طـريق تنـاسقنا وتماسكنـا الداخلي نفسه.

وتوصل دلتاي، قـرب نهاية حياته، إلى مذهب في تصور العـالم، وهو ما يسمى بالألمانية Weltanschauung.

ويمكن إرجاع أي تصـور للعالم، في نهاية التحليل، إلى منظور الإنسـان ومواقفه وإلى اتجاهاته الأساسية بازاء الحيـاة. وهكذا، فإنه ينبغي وضع الإنسان ذاته وفلسفته في داخل الإطار التاريخي المعين.

ويرى دلتاي أن التاريخ يسمح لنا بـأن نميز بين ثلاثة أنواع ونماذج أو أنماط من

---

(٤٥٩) Hermeneutique وسيعرف هذا الاتجاه ذيوعاً هائلاً، مـن بعد الحرب العالمية الثانية، وإلى اليوم، وخاصة في ألمانيا وفرنسا..

(٤٦٠) على التوالي بالألمانية Erklaren و Verstehen.

الفلسفة، كل نوع منها يقابل موقفا حيويا جوهريا:

ـ فإذا ساد الذكاء وسيطر، ظهرت في مجال الفلسفة النزعة الوضعية المادية.

ـ وإذا ترأس الاتجاه العاطفي على شتى جوانب حياة الإنسان، برزت في مجال الفلسفة النزعة المثالية التي تقول بوحدة الوجود والألوهية وحدة موضوعية.

ـ وإذا سيطرت الإرادة أخيرا، ظهرت في الفلسفة مذاهب المثالية القائمة على الحرية، مثل فلسفة أفلاطون، وعند المسيحية، وعند كانت.

ويؤكد دلتاي على أن الفلسفة، مثلها مثل أي شيء آخر في الحياة الإنسانية هي نسبية كل النسبية. يقول في نص له: «إن فصل الخطاب في التصور التاريخي للعالم هو نسبية كل تصور إنساني، وكل شيء يتحرك ويتغير، ولا يبقى شيء ثابتا».

ويأتي تأثير دلتاي العظيم على الفلسفة الأوربية في القرن العشرين الميلادي من قوله بالنسبية ومن مقابلته بين العقل والحياة، رغم أن لفلسفته جوانب أخرى متعددة. ولن نذكر من بين هذه المسائل الأخرى إلا نظريته في الزمان، وهي التي تمهد لنظرية هيدجر في نفس الموضوع.

ثالثا: خلفاء دلتاي

خضع عدد من المفكرين لتأثير فلسفة دلتاي عليهم، رغم اختلافهم فيما بينهم. ونذكر، من جانب، أرنست تُرلْتش (١٨٦٥ ــ ١٩٢٣م) وهو لاهوتي بروتستانتي، وألف في فلسفة الدين وفلسفة التاريخ، كما أنه مؤرخ للحضارة أيضا، ومن جانب آخر، مدرسة تنتسب إلى دلتاي على النحو الحقيقي، ويخلص كل أصحابها للمذهب التاريخي عند دلتاي، وإن اختلفوا معه وانفصلوا عنه بشأن نقاط مذاهبه الأخرى.

ونذكر منهم في المحل الأول إدوارد إشبرانجر (ولد عام ١٨٨٢م) الذي اشتهر بأعماله في فلسفة الحضارة وفي علم النفس وفي التربية. ونذكر إلى جانبه أريك رُتّاكَر (ولد عام ١٨٨٨م)، وجيورج مِشْ (ولد عام ١٨٧٨م)، وهانز فراير (ولد عام ١٨٨٧م) وعلى الرغم من أن تيودورلِتْ (ولد عام ١٨٨٠م) يبتعد بعض الشيء عن

دلتـاي، ولكن يمكن ضمه، هـو الآخر، إلى هـذه المدرسة. ولم نـذكر هنـا غير أهم الأسماء في حركة فكرية ذات تفرعات طويلة.

وهناك عدد من المفكرين يقفون خارج حدود هذه المدرسة التي تضم أتباع دلتاي بالمعنى الدقيق، ولكنهم تأثروا على الأقل باتجاهات المذهب التاريخي، وذلك بإظهار اهتمامهم القوي بفلسفة التاريخ.

ونذكـر منهم أولا أزفالـد إشبنجلر (١٨٨٠ ــ ١٩٣٦م)، مؤلف الكتـاب الذي صـار أشهر من نـور على علم بعـد الحرب العالميـة الأولى، ألا وهـو كتاب «سقـوط الغرب»[٤٦١]، والذي صدر ما بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٢م. وتقوم فلسفة إشبنجلر على التصورات الحيوية المتطرفة التي قدمها نيتشه وكذلك دلتاي سواء بسواء.

ويعرف إشبنجلر على الخصوص بنظريته في دورات الثقافات [٤٦٢]، وكل ثقافة منها تعمِّر حوالى ألف عام. ويأخذ إشبنجلر بالموقف النسبي المتطرف، فلا توجد في رأيه حقائق مطلقة، وكل فلسفة هي تعبير عـن عصرها وعن عصرها وحده. وبعبارة أخرى، فلا توجد حقيقة إلا في إطار مجموعة إنسانية محددة.

وقـد اعتبر بعض المؤلفين، وعن حق، أن أرنـولـد توينبي (ولـد عـام ١٨٩٩م) ينحومنحى إشبنجلر في ميدان فلسفة التاريخ، ولكن توينبي يقف على معارف ذات امتداد أوسع بكثير ممـا تيسر لإشبنجلر، كما أن النتائج التي ينتهي إليها أقل تشـاؤما من نتائج إشبنجلر[٤٦٣].

وقد حـاول توينبـي في كتابه «دراسـة في التاريخ» (صـدر ما بين عـامي ١٩٣٤ و١٩٣٩م. في ستة مجلدات)[٤٦٤]، وهو عمل رائع من حيث غزارة المادة التاريخية التي استخدمهـا، ومن حيث ثراء الفكـر فيه كـذلك، حاول أن يعثـر على القوانين

(٤٦١) وهو مترجم إلى العربية. وانظر كتاب الدكتور عبدالرحمن بدوي حول مؤلفه.
(٤٦٢) إن كل ثقافة تنشأ وتنضج وتشيخ وتموت.
(٤٦٣) يؤمل توينبي في استمرار الحضارة الغربية في الحياة بفضل الدين، بينما تنبأ إشبنجلر بموتها.
(٤٦٤) له ملخص بالإنجليزية، ولهذا الموجز ترجمة بالعربية. وقد ترجم إلى العربية عددا آخر من كتب هذا المؤرخ. واكتمل كتاب «دراسة في التاريخ» بظهور المجلد العاشر منه في عام ١٩٥٤م.

العامة التي توجه تطور الحضـارات وسقوطها. ومن الطريف واجب الملاحظة هنا أن توينبي يحل فكـرة دورات الثقافة ودورات التـاريخ محل الفكرة التي كـانت سائدة في القرن التاسع عشر الميلادي، وهي فكرة التقدم.

وقـد تأكدت أهميـة فكـرة الدورات، التـي توجـد في أسـاس فلسفة إشبنجلـر، تأكدت بكتاب توينبي، بل وأُخذ بها في المجـال العلمي بفضل تعريف مدرسة علم الاجتماع، التي قـادها بتريم سـوروكين، بها. ولنذكر هنـا كذلـك فيلسوفا آخـر من فلاسفة التـاريخ، وهو الإنجليزي كولنجوود (١٨٩١ ــ ١٩٤٣م)، وهو الآخر من أنصار المذهب التاريخي.

رابعا: فلسفة الحياة عند الألمان

إذا استثنينا الأخذ على نطـاق واسع بالمذهـب التاريخي، فإنـه يمكننا أن نقول إن الفلسفة الحيـوية الألمانيـة لم تصل إلى اكتساب السلطة والأهميـة التي نالتهـا الفلسفة الحيوية في البلاد الأنجلوساكسونية(٤٦٥) وفي فرنسا.

وزعماء هذه المدرسة هم فلاسفة بـالمعنى الشعبي للكلمة، وليس بمعناها الدقيق الاصطلاحي. ونذكر منهم كَيسرلنج وكلاجز.

أما الكـونت هرمـان كَيْسرلنج (١٨٨٠ ـ ١٩٤٦)، والـذي كان متـزعما لمدرسة تدعو إلى الحكمة، وألف كتابا شهيرا بعنوان: «يوميات رحلة فيلسوف»، وألف عددا غيره من المؤلفـات العـديـدة، فإنه يعلن مـذهبـا لا عقـلانيـا يـربطه إلى بـراجماتيـة متطرفة.

أمـا لودفيـج كلاجـز (ولـد عام ١٨٧٢م) وهـو من المتخصصين في قـراءة الخط البشري وفي علم نفس الخصائص الشخصية، فإنـه يقدم أفكارا أكثر جـدة وغرابة. وقـد كتب كتابـا بعنـوان: «العقل خصم للنفس» (في ثلاثـة مجلـدات، صدر عـام ١٩٢٩ ــ ١٩٣٢م) وفيه يطـور مذهبـا معارضـا للعقل كل المعارضـة. ويرى هـذا

---

(٤٦٥) أي إنجلترا وأمريكا.

المذهب أن كل شيء هو ذو نفس، ويسود هـذا العالم الحسي، في كل أجزائه، يسود انسجـام «وتـوافق» طبيعي. ولـلأسف، في رأي كـلاجـز، و«عن طـريـق تـوسط الإنسـان»، فإن «قـوة خـارجيـة عن الكـون تسمى العقل ظهـرت فجأة في العـالم، واجتهدت في فصل الجسم عن النفس، وهو ما يعني قتل الخلية الحيوية».

إن العقل في رأي كلاجـز هو الذي يولِّد الشخـص والإرادة، ومعه يظهر العنصر الخارجي الذي يميل إلى الظهور الاستعراضي(٤٦٦) في العقل، وبوسيلة السلوك يقوم العقل بعمل قـاتل في حق الحياة. إن العقل خصم للنفس وخصم للطبيعـة وخصم لـلإخلاص، ولكل مـا هو ذي قيمـة. لذلك فينبغي، في رأي كـلاجز، أن نـرفض العقل، وأن نعود إلى تصور العالم على ما كان عليه عند البلاجيين(٤٦٧)، أي إلى حياة تتحرر من العقل كل التحرر، وتتمتع بالروح البدائية بغير وعي منها.



(٤٦٦) Eccentricité.

(٤٦٧) قوم سبقوا اليونان في نفس المنطقة وكانوا يعيشون في سلام.

ملاحظات ختامية انتقادية على فلسفات الحياة

لقد أبـرز الفلاسفـة الذين أتـت على ذكرهـم الصفحـات السابقـة ظاهـرة الحياة وخصائصها المتميزة أعظم إبراز، وأكدوا على اختلافها الجوهري عن المادة. وقد أتاح هذا الحدس الأساسي لهم، والـذي أحسوا به بقوة وعبروا عنـه في حماس، أتاح لهم، ولبرجسون ولوليم جيمس على الأخص، أن يتصـدوا لسيطرة الاتجاه الوضعي والاتجاه المثالي في خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وأن ينتصروا على هذين الاتجاهين. فهذا الحدس إذن (٤٦٨) يمثل إحدى القوى الثوريـة التي وجهت الفكر الأوربي وجهة جديدة.

ذلك أن الالتفات إلى أهمية الحياة سمح للفلاسفة الحيويين بتحليل عاملي الحياة والحركة، وكثيرا مـا كان هـذا التحليل تحليلا بـاهرا، وتفجيرا لـلإطار الضيـق الذي أرادت النزعـة العقلية العلميـة فرضـه على الفكر، والإتيـان بتصور أكثـر عضويـة، وأكثر تعيناً، عن الوجود والحقيقة.

ومن جهة أخرى، فإن الإنسان ومشكلاته الحية الحقيقية وجد عند فلاسفة الحياة المكان الذي يستحقه في عالم الفكر.

ومن هذه الوجهـة للنظر وتلك، فإن فلاسفة الحياة، الذين حـرروا الفكر الغربي من الاتجاهات والأفكـار التي قيدت العقل في القرن التاسع عشر الميـلادي، والذين يُحمد لهم هـذا التحرير، هـؤلاء الفلاسفة يستحقـون الاعتراف لهم بالفضل العظيم. بل أن فضلهم لأعظم من أن يستطيع المفكر في منتصف القـرن العشرين الميلادي أن يقدر حق قدره.

أمـا الاتجاه التاريخي فأنـه استحق قيمة خـاصـة لأنه جـذب الانتباه إلى الطـابع

(٤٦٨) المقصود الفكرة الرئيسية، كما سبق وأشرنا.

الخاص الـذي يميـز الواقعـة التـاريخيـة ، وأدى إلى أن يفحص الفلاسفـة عـددا من المشكلات المتصلة بالمنهجية التاريخية ، بل وكـذلك عددا من المسائل المتصلة بالحياة على الأرض .

ولكن الـذي يؤسف لـه أن جهد هـؤلاء المفكـرين ، من أجل فهم أكمل وأشمل للحقيقة الحية ، قد اقترن بـه خطأ الارتكان إلى افتراض واحدي النظرة[٤٦٩] ، وإلى تصور عن العقل أخـذوه عن العهود السابقة ، ولم يستطيعوا أن يتخلصـوا منه بشكل كامل .

أولا : واحدية النظرة عندهم

ذلك أن فلسفتهم تنظـر إلى الحقيقة من منظـور واحدي ، لأنها في الواقـع فلسفة ذات اتجاه بيـولوجي ، ولا تـدرك شيئا غير الحيـاة ، ولا تهتم بشيء إلا بالحيـاة ، وهي بالتالي غير قادرة على إدراك حقائق من نوع أعلى[٤٧٠] .

والواقع أن هـذا الطابع المتحيز للفلسفـة الحيويـة لا يقل في شيء عن حدة نفس هـذا الطابع عنـد الفلسفـة المثاليـة ، بل أنـه هنا أخطـر وأخطـر : لأن الذي تأخـذه الفلسفة الحيويـة باعتباره مركزا لاهتمامها ، والـذي تفسر به معظم الوقت كل شيء ، إنما هـو الحياة الحيـوانيـة الخالصـة ، بينما كان المركـز ووسيلـة التفسير في المثـالية هـو العقل .

ثانيا : فكرتهم الضيقة عن العقل

وهـم ، من جهة أخرى ، يقولون بتصور للعقل لا يقل ضيقا ومحدودية عن تصور القرن التـاسع عشر له . إن الذي يحاربه الفـلاسفة الحيويون إنما هـو في الواقع العقل الاستنباطي كما نلقـاه في العمليات الـذهنية التي يقـوم بها علماء الطبيعة المحـدثون . وهكـذا يختزل فـلاسفـة الحيـاة الذكـاء إلى هـذا النـوع من الهيكل العظمي المتيبس ، وينكرون الحدس العقلي ، متفقين في هـذا مع كانت ، ويرجعـون العقل في كليته إلى

---

(٤٦٩) هو النظرة الحيوية .

(٤٧٠) من مثل الألوهية .

مجرد الوظيفة البرهانية.

ولهذا فليس عجبا أن يكون هؤلاء الفلاسفة قد غُطِّي على أبصارهم فلم تدرك وجود قوانين موضوعية، كما لم تدرك أيضا، في معظم الحالات، الفرق القائم بين العقل والوظائف النفسية الحيوانية، بحيث قالت باتجاه معارض للعقل، متطرف في معارضته.

وهكذا يبقى هؤلاء الفلاسفة في نطاق المذهب الاسمي ويبقون في إطار الاتجاه النفساني، وغير قادرين على إدراك ما يتعدى الحواس إدراكا واضحا مستنيرا[٤٧١].

وتلخيصا، فإن فلسفة الحياة تظل، بينما هي في القرن العشرين الميلادي، متعلقة إلى حد كبير بالعقلية القديمة التي كانت سائدة في الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر الميلادي، على الرغم من كونها في نفس الوقت، وليس على ذلك من خلاف، قوة تحريرية كبرى من القوى العاملة في الفكر الغربي في النصف الأول من القرن العشرين، والتي ولَّدت فلسفته الجديدة.

ولعل هذا هو السبب في أنها، أي فلسفة الحياة، بعد أن لمعت أعظم التماع، تأخرت إلى الصفوف الخلفية، وحلت محلها في الأهمية الفلسفة الوجودية[٤٧٢]، وهي الأخرى فلسفة لا تقل عنها نفاذا واهتماما بالمشكلات الإنسانية المتعينة، وكذلك الفلسفة الميتافيزيقية الجديدة.



(٤٧١) يقصد الحقيقة الموضوعية.

(٤٧٢) وذلك فيما بعد الحرب العالمية الثانية.

الباب الخامس

فلسفة الماهية

(الفينومينولوجيا)

الفلسفة الفينومينولوجية تشكل التيار الفلسفي الثاني الكبير الذي أدى إلى قطع الصلة والانفصال عن الفكر السائد في القرن التاسع عشر الميلادي في الحضارة الغربية، وهو في ذاته ثاني اثنين، والآخر كما رأينا هو فلسفة الحياة، ولكن نوع مساهمتها في قطع الصلة مع فكر القرن التاسع عشر الميلادي مختلف تماما في كل حالة عن الأخرى.

والأدق أن يقال أن الفينومينولوجيا هي واحد من تيارين من نفس النوع خرجا من معطف واحد، هو معطف مذهب فرانز برنتانو (١٨٣٨ ـ ١٩١٧م). أما التيار الثاني، بجوار الفينومينولوجيا، فهو الذي يمثله الكسس مينونج (١٨٥٣ ـ ١٩٢١م). وكرستيان إرنفلز (١٨٥٠ ـ ١٩٣٢م).

وقد شيد مينونج نظرية في الموضوع (Gegenstandtheori) تشبه، من أوجه عديدة، النظرية الفينومينولوجية.

أما الفينومينولوجيا ذاتها، وهي أهم بكثير من تلك الحركة الأخرى، فإن الذي أسسها هو ادمند هُسِّرل (١٨٥٩ ــ ١٩٣٨م). وتبعته في ذلك مدرسة كبيرة شملت شخصيات قوية، وقد بدأت في ألمانيا أولا، ثم انتشرت في أرجاء بلاد الغرب(٤٧٣).

وينبغي أن نبرز سمتين أساسيتين من سمات الفينومينولوجيا. فهي منهج في المحل الأول، وهو منهج ينحصر في وصف «الظاهرة»، أي ماهو معطى مباشرة. ومن هذه الجهة، فإن الفينومينولوجيا، باعتبارها منهجا، تغض النظر عن العلوم الطبيعية، أي لا تنتبه إلى نتائجها، وبالتالي فإنها تتعارض مع المذهب التجريبي. كذلك، فإنها تصرف النظر عن تقديم نظرية في المعرفة كخطوة أولى في الموقف الفلسفي، وهي بهذا تتعارض مع المثالية. ونرى من هذا كله أن الفينومينولوجيا، باعتبارها منهجا، تبتعد ابتعادا حاسما عن الاتجاهات التي كانت سائدة في خلال القرن التاسع عشر.

---

(٤٧٣) يقول المؤلف حرفيا: «العالم».

ومن جهة أخرى فإن موضوع الفينومينولوجيا هو الماهية (Essence)، أي المضمون العقلي المثالي للظواهر [٤٧٤]، الذي يدرك في إدراك مباشر، هو رؤية الماهيات (Wesenschau). ومن هذه الوجهة للنظر، فإن الفلسفة الفينومينولوجية تقف في تعارض مع فلسفة القرن التاسع عشر الميلادي في الغرب مرة أخرى، وهي الفلسفة التي لم تكن تعترف لا بوجود ماهيات ولا بإمكان معرفتها.

وقد أنتج هسرل في أخريات حياته نظرية جعلته يقترب من الفلسفة الكانتية الجديدة [٤٧٥]. ولكن مدرسته في مجملها لم تتابعه على خط هذا التطور.

وقد أثرت الفينومينولوجيا ونظرية الموضوع عند مينونج، تأثيرا كبيرا على تطور مذهب الواقعية الجديدة (عند جورج مور)، وعلى تطور الوجودية (عند هيدجر) [٤٧٦]، وعلى الميتافيزيقا (عند هارتمان) [٤٧٧].

ونذكر من بين فلاسفة الفينومينولوجيا الكساندر بفاندر (١٨٧٠ ـ ١٩٤١م)، أُسكَار بِكَّر (ولد ١٨٩٣م)، رومان انجاردن (ولد عام ١٨٩٣م). [٤٧٨]، كنراد ـ

---

(٤٧٤) مفهوم الماهية من أهم مفاهيم الفلسفة، والمعنى الأساسي للكلمة يدل على مايتقوم به الشيء أو الفكرة من حيث الأساس. يقول الجرجاني في «التعريفات»: «الماهية تطلق غالبا على المتعقل، مثل المتعقل من الإنسان وهو الحيوان الناطق، مع قطع النظر عن الوجود الخارجي. والأمر المتعقل من حيث أنه مقول في جواب ماهو يسمى ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج يسمى حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الأغيار هوية، ومن حيث حمله للوازم ذاتا، ومن حيث يستنبط من اللفظ مدلولا، ومن حيث أنه محل الحوادث جوهرا».

(٤٧٥) راجع الفقرة الأخيرة من «سادسا»، من الفصل الرابع عشر.

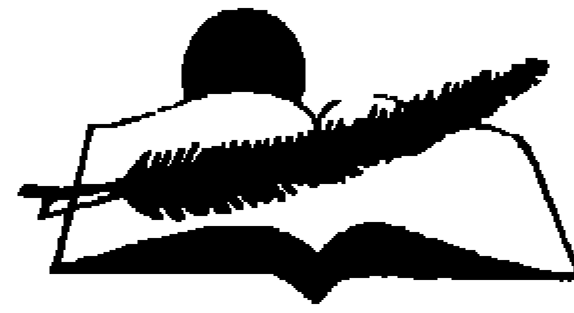
(٤٧٦) راجع الباب السادس، الفصل السابع عشر.

(٤٧٧) راجع الباب السابع، الفصل الثاني والعشرين.

(٤٧٨) يعد المؤلف الرئيسي لرومان انجاردن، «المعركة حول وجود العالم»، واحدا من أهم المنشورات الفلسفية الحديثة. ولكن لن نستطيع الحديث عنه هنا للأسف، ولا حتى إدخاله في إطار الفلسفة الأوربية الحالية، لأن الكتاب لا يوجد إلا باللغة البولندية، وهي لغة لا يقرأها معظم فلاسفة أوربا. ولا نشير إلى الأمر هنا إلا لمجرد الاحتجاج في هذه المناسبة على عادة سيئة، ولكنها سائدة، وتتمثل في نشر المؤلفات الفلسفية بالمعنى الدقيق في لغات وطنية لمؤلفيها، بينما هذه اللغات لا تكون دوائرها إلا محدودة بالضرورة إلى مدى أو آخر، وهذا، على الأخص، هو حال اللغة الفنلندية واللغة البولندية واللغة الهولندية. وينبغي أن يتقرر نشر مثل هذه المؤلفات في لغة واحدة وحسب، والإنجليزية هي أنسب اختيار في الظروف الحالية. =

مارتنس، مـورتز جايجر (١٨٨٠ ــ ١٩٣٧م)، اديت شتاين (ولـدت عام ١٨٩١، ودخلت سلك الـراهبـات الكـرمليـات، ومـاتت عـام ١٩٤٢ في معسكـر اعتقـال نازي)، أدلف رايناخ (١٨٨٣ ــ ١٩١٦م). ومن الفينومينولوجيين الفـرنسيين نذكر الكسـانـدر كواريـه. ويـوجـد في أمـريكـا مارفـن فاربـر الـذي يعـد من أهم ممثلي الفينومينولوجيا وناشريها.

ولكن أيـا من هـؤلاء لا يمكن أن يقـارن أهميـة مع مـاكس شلـر (١٨٧٤ ـ ١٩٢٨م)، وهو أكثر مفكري المجموعة أصالة وتأثيرا إلى جانب هسرل نفسه.



= والواقع أن الـدراسة الجادة للفلسفة تفترض معـرفة اليونـانية والـلاتينية، فإذا أضفنا اللغـات الأوربية الرئيسية الثـلاث (الإنجليزية والفرنسية والألمانيـة)، أصبحت اللغات التي ينبغي أن يتعلمها دارس الفلسفة الأوربية خمسا، ولا يوجد ما يمنع من إضـافة أية لغات أخرى إلى ما لا نهاية. (هامش من المؤلف).

الفصل الرابع عشر
إدمـــُند هُـسِّرْل

أولا: تطور فكره وأهميته

كان هسرل (١٨٥٩ ــ ١٩٣٨م)، مع برجسون، صـاحب أكبر تأثير على الفكر الغربي في النصف الأول من القـرن العشرين الميلادي، وهـو تأثير دائم وعميق معا. وهو تلميذ للفيلسوف الألماني برنتانـو، كما أنه درس أيضا مع عالم النفس الألماني كارل اشتمف (١٨٤٨ ـ ١٩٣٦م).

وقد قـام هسرل بالتـدريس في جامعات هـاله ثم جـوتنجن ثم فرايبـورج الألمانية كلها. وتميز بأنـه دؤوب على العمل لا يتعب، وقد جمع إلى موهبة تحليليـة نادرة نفاذا عقليا عظيما.

وأعماله الفلسفية عـديدة جدا، وقراءتها من أصعب الأمـور، ليس بسبب أن لغة هسرل صعبـة، بل بسبب صعـوبة الموضـوع ذاتـه. وهسرل نموذج في دقـة الكـاتب الفلسفي وتحديده، ويمكن تشبيهه من هذه الزاوية بأرسطو(٤٧٩)

ومن حيث النظام الفلسفي، فإن هسرل امتـداد لكل من برنتـانو واشتمف، كما أنه امتداد غير مباشر، بواسطة برنتانو، للمدرسة الفلسفية في العصر الوسيط(٤٨٠). كذلك، نجد لديه تأثرا واضحا بالاتجاهات الكانتية الجديدة(٤٨١).

---

(٤٧٩) يُعرف أرسط بدقته في الإصطلاح.

(٤٨٠) المقصود اهتمامه بالتحليلات الدقيقة والألفـاظ ونوع من التجريد، وراجع أول فقرة من «ثالثا» فيما يلي.

(٤٨١) راجع فيما سبق ما كتب عنها، في الفصل العاشر.

بدأ هسرل حياته الفلسفية بأبحاث عن علم الرياضيات، حيث نشر الجزء الأول من كتابه الهام «فلسفة علم الحساب»، ولكنه مؤلف لا يدل في شيء على الطريق الذي سوف تأخذه من بعد فلسفة هسرل(٤٨٢). وقد ظهر في عام ١٩٠٠ ـ ١٩٠١م. مؤلفه الأساسي، وهو «بحوث منطقية»، وفيه يفحص أسس المنطق.

وينقسم هذا الكتاب الضخم إلى جزءين: الجزء الأول منهما، والمعنون «تمهيدات للمنطق الخالص»، يحتوي على نقد للاتجاه النفسي وللاتجاه النسبي من وجهة نظر عقلية وموضوعية، بينما يقوم الجزء الثاني بتطبيق المبادىء التي احتواها الجزء الأول على بعض المشكلات المعينة في فلسفة المنطق.

وفي عام ١٩١٣م. نشر هسرل كتابه «أفكار حول الفينومينولوجيا الخالصة»، حيث تتحول الفينومينولوجيا إلى «فلسفة أولى»(٤٨٣)، ويكون موضوعها هو المعرفة بوجه عام، ويحتوي الكتاب على نتائج ذات طابع مثالي.

وتتطور هذه النتائج المثالية على نحو شامل في الكتابين التاليين لهسرل: «المنطق الصوري والمنطق الترانسندنتالي» (ظهر عام ١٩٢٩م) و«التجربة والحكم» (ظهر عام ١٩٣٩م).

وهكذا، يمكن ايجاز الطريق الذي سلكه فكر هسرل على النحو التالي: فهو ينطلق من دراسة الرياضيات دراسة فلسفية(٤٨٤)، ثم يبدع منهجا ذا طابع موضوعي وعقلي(٤٨٥)، لينتهي إلى المثالية وهو بسبيل تطبيق هذا المنهج على دراسة الوعي.

وقد امتد تأثير هسرل في اتجاهات متعددة مختلفة. ومن أهم النتائج التي أسفرت عنها كتاباته أن التحليلات النفاذة التي يحتويها كتاب «بحوث منطقية» قد ضربت في الصميم المذهب الوضعي والمذهب الاسمي، وهما اللذان كانا يسيطران على فكر

(٤٨٢) أي طريق الفينومينولوجيا.
(٤٨٣) أي فلسفة تضع المبادىء لكل جوانب المعالجة الفلسفية التالية ولشتى الميادين.
(٤٨٤) قارن في هذا ما بدأ به برتراند رسل.
(٤٨٥) هو المنهج الفينومينولوجي.

القرن التاسع عشر الميلادي في أوربا .

كذلك ، فإن المنهج الجديد الذي ابتـدعه هسرل ، والذي يهتم بمضمون الموضوع موضع الدراسة ، وماهيته ، شارك مشاركة قوية في تكوين اتجاه فكري يعارض الاتجاه الكـانتي(٤٨٦) . ومن هذه الوجهة للنظـر ، فإن هسرل يعتبر واحدا من أهم مؤسسي الفلسفة الجديدة في الفكر الغربي في القرن العشرين الميلادي .

ومن جهة ثالثـة ، فإن منهجه ، الذي يسمى المنهج الفينـومينولوجي(٤٨٧) ، أصبح يستخدم ويطبق على يـد قسم كبير من فلاسفة الغرب فيها بعـد الحرب العالمية الأولى .

أيضـا ، فإن أعمال هسرل تحتـوي على تـراكـم هـائل من التحليـلات الـدقيقـة والنافذة ، إلى حد أنه يمكن القول إن المؤرخين لم يضعوا أيديهم بعد على كل ما يشكل قيمـة هـذه الكتـابـات التي تعـد نبعا عظيما للمعـرفـة ، ولم يحددوا بعـدُ مـدى قـوة فائدتها(٤٨٨) ويظهـر أن كتابـات هسرل في طريقهـا إلى أن تصبح مصدرا أسـاسيا معتمـدا من مصـادر الفلسفـة الغـربيـة ترجـع إليها الأجيـال القـادمـة في الحضـارة الغربية .

وإذا كان هسرل قـد أسس مدرسة كثيرة الأعضاء عظيمـة الأهمية ، إلا أن تأثيره لم يقف عند حـدود تلك المدرسة ، بل هـو يمتد إلى مجمل الفلسفة الغـربية في النصف الأول من القرن العشرين .

ولا يمكن أن نفكر مجرد تفكير في تقـديم ولا حتى كتاب واحـد من كتب هسرل الأساسية في هذا المقام ، ويلزم أن نحيل ، مـن بين كتابات هسرل ، إلى كتابه «بحوث منطقية» قبل أي كتاب آخر . فلن نقدم هنا إلا عرضا شديد الإيجاز لكل من :

(٤٨٦) لأن كانت لايهتم بالمضمون أو بالموضوع ، أو بالشيء في ذاته ، أي اهتمام .

(٤٨٧) أو «الظواهري» أو «الظاهراتي» . . . .

(٤٨٨) من المعروف أن «أرشيف هسرل» أصبح موضعاً للدراسـة ، بعد وفاته ، وإلى اليوم . وهو يضم الكتابات التي لم تنشر في حياة هسرل .

ـ منهج هسرل.

ـ نظريته في المنطق.

ـ تطور فكره حتى انتهى إلى المثالية.

ثانيا: نقد المذهب الاسمي

يحتوي كتاب «أبحاث منطقية» على نقد تفصيلي للمذهب الاسمي، الذي غزا كل الفكر الفلسفي الغربي منذ لوك وهيوم(٤٨٩)، وسواء تخفى تحت اسم المذهب التجريبي أو المذهب النفساني(٤٩٠).

ويرى الاسميون أن القوانين المنطقية ماهي إلا تعميمات تجريبية واستقرائية مماثلة لقوانين العلوم الطبيعية، ويرون أن «الكلي» ماهو إلا تصور عام هيكلي.

أما هسرل فإنه يبرهن على أن القوانين المنطقية ليست قواعد على أي نحو من الانحاء، وعلى أن المنطق ليس علما معياريا(٤٩١)، وإن كان أساسا لمذهب معياري، شأنه في هذا شأن كل العلوم النظرية. فالواقع، في رأي هسرل، أن المنطق لا يقول شيئا عما ينبغي أن يكون أو عن الواجب، إنما هو يتحدث عن الوجود(٤٩٢). ولنأخذ مثلا قانون عدم التناقض، . فإنه لا يقول إنه لا يمكن إطلاق قضيتين متناقضتين، وإنما يقول وحسب أن الشيء الواحد لا يمكن له أن يتسم بصفات متناقضة.

بعد هذه الاعتبارات، يتجه هسرل ناحية الاتجاه النفساني، الذي يرى أن المنطق ماهو إلا فرع من علم النفس. ويرى هسرل أن الاتجاه النفساني يُخطىء خطأ مزدوجا: فلو كان على صواب، إذن لكانت القوانين المنطقية(٤٩٣) غامضة غموض

---

(٤٨٩) انظر فيما سبق «أولا»، من الفصل الأول، وهامش (٢٥).

(٤٩٠) سيأتي تعريفه بعد قليل.

(٤٩١) «معياري»، أي يضع قواعد الصواب والخطأ.

(٤٩٢) وهو نفس موقف أرسطو في الواقع (راجع في هذا موقفه من مبدأ عدم التناقض).

(٤٩٣) أهمها قانون الذاتية وقانون عدم التناقض وقانون الثالث المرفوع.

القوانين السيكلوجية، ولكانت في هذه الحالة مجرد قوانين احتمالية، ولاقتضي هذا أن وجودهـا يفترض مسبقا وجود الظـواهر النفسية، وهذه كلهـا أمور غير مقبولـة. أما الذي يـراه هسرل بالمقـابل، فهو أن القـوانين المنطقية تختلف في نـوعها عـن القوانين السيكلوجيه اختلافا كاملا: فهي قوانين نموذجية وقبلية(٤٩٤).

- من نـاحية أخرى، فإن الاتجاه النفسـاني، يُفسد تماما معنى القـوانين المنطقية، فهذه القوانين لا شأن لها لا بالفكر ولا بالقضية ولا بالحكم، إلى غير ذلك، وإنما هي تتصل بما هو موضوعي. إن موضـوع المنطق ليس حكما معينا يطلقه أحد الناس، بل المضمون الـذي يحتويه هذا الحكـم ودلالته، والمضمون والمدلول ينتميـان إلى مستوى نموذجي.

أخيرا، فإن مـؤسس الفلسفة الفينـومينـولوجيـة يعـارض المذهب الاسمي بشأن نظريـة هذا المذهب في التجريـد. ويوضح هسرل أن «الكلي» لا عـلاقة له بـالتصور التعميمي(٤٩٥). ذلك أن ما نتصوره نحن، حين ندرك مصطلحا رياضيا على سبيل المثال، ليس بذي أهمية كبيرة(٤٩٦). وقد أخطأ لوك وهيوم، وأتباعهما، الذين كانوا غير قادرين على فهم مفهـوم «الفكرة - الشيء» (٤٩٧)، أخطأوا حين حـددوا مدى «الكلي» فجعلوا منـه مجرد صورة(٤٩٨). والواقع ليـس كذلك، في رأي هسرل، إنما «الكلي» موضوع من نوع خاص جدا، حيث أنه مضمون نموذجي عام كلي.

ثالثا: مذهبه في الدلالة(٤٩٩)

يعد النقد السابق للمذهب الاسمي والاتجاه النفساني واحدا من أهم إخصابات الفلسفة الغـربية في القرن العشرين الميـلادي، وهو في نفس الـوقت عودة إلى النظم

(٤٩٤) أي سابقة على التجربة.
(٤٩٥) أي تصوري الذي أتمثله فعلا حين أفكر في «إنسان» أو «عربة»...
(٤٩٦) لأن المهم هو مضمونه الموضوعي، أي الماهية.
(٤٩٧) أي الفكرة باعتبارها كائنا بذاتها، أي شيئا بالمعنى الأعم.
(٤٩٨) هو صـورة نستخرجهـا بالاستقراء من مجمـوع خصائص أفـراد ذلك الكلي. وموقف هسرل أن الكلي ليس كذلك، بل هو كيان قائم بذاته، وليس مجرد «مستخرج».
(٤٩٩) Signification

الفلسفية الأطولوجية عند اليونان وفي الفلسفة الأوربية الوسيطة(٥٠٠). هذا النقد يؤسس قول هسرل بأن المنطق ذو ميدان يختص به وحده، هذا الميدان هو عالم المدلولات.

إننا حين ندرك معنى اسم أو محمول في قضية منطقية، فإن مايشير إليه هذا أو ذاك لا يمكن على الإطلاق أن يعد جزءا من الفعل الذي يقوم به العقل من جهته. هذا الذي يشار إليه، والذي يقف الفعل العقلي في مقابله، هو الدلالة. إن هناك العدد العديد، إلى ما لا نهاية له، من التجارب الفردية، ولكن هناك دائما ماتعبر عنه هذه التجارب، وهذا الذي تعبر عنه، أي الدلالة، هو واحد ذو ذاتية مستقلة(٥٠١)، بأقوى معاني هذا التعبير.

ولكن تعبير «يعبر عن» تعبير فيه غموض وإبهام. فهو يستخدم لأداء وظائف ثلاث على الأقل، وهي مختلفة بعضها عن بعض: -

أولا: فهو يدل على ما «يعبر» عنه اللفظ (أي العنصر النفساني، التجارب المعاشة).

ثانيا: وهو يدل على «مدلول» اللفظ، وهنا يميز هسرل بين أمرين:

أ ـ معنى التصور ومضمونه.

ب ـ وما يدل إليه اللفظ(٥٠٢)

ويكتشف هسرل ابتداء من هذا التمييز ثلاثة عناصر في عملية التجريد:

١ ـ صفة الفعل (أي فعل التجريد) (وهي قد تكون وضعا للتصور، أو للإثبات، أو للشك، أو للاعتقاد).

٢ ـ مادة فعل التجريد (وهي تعني مضمونه، ونفس المادة يمكن أن تكون لها

(٥٠٠) وهو ما يعني العودة إلى الموضوعية الأنطولوجية، كما كان الحال عند أرسطو.

(٥٠١) Identique.

(٥٠٢) هناك إذن ثلاث وظائف للمدلول: المعنى والمضمون والموضوع، كما سيلي.

صفات مختلفة: فيمكن أن يتصور المرء في البداية مضمون قضية ما، ثم يشك فيه، ثم يثبته. . . الخ).

٣ ـ وهناك كذلك موضوع الفعل، أي ماتشير إليه الكلمة، هذا بينما المضمون هو المعنى ذاته الذي يكون للكلمة.

أخيرا، فإن هسرل يميز بين نوعين من الأفعال العقلية:

أ ـ الأفعال التي تمنح الدلالة(٥٠٣).

ب ـ والأفعال التي تملأ الدلالة؟(٥٠٤).

وهذه الأفعال الأخيرة هي التي تعطي للكلمة مضمونها العقلي الكامل، بينما الأولى لا تقدم إلا المبدأ المكون لها، فهي لا تعطي الكلمة «الملأ» المتمثل في قصد الدلالة.

وقد أضاف هسرل إلى نظرية الدلالة نظرية في «النحو الخالص»، أي النظرية الفلسفية في النحو. وفي هذا الميدان أيضا، كما في ميادين أخرى كثيرة، قدم هسرل إضافة هامة أثرت في الفكر الفلسفي، ويسمح تطور المنطق الرياضي، من بعد ذلك، بإدراك مدى أهميتها. ويدين المنطق الرياضي إلى هسرل بمفهوم «الفئة السانطيقية»(٥٠٥).

ومما جاء به كتاب «بحوث منطقية»، أيضا، مذهب هسرل في الكل والأجزاء، وهو مذهب شديد الطرافة. ولكن لا يمكننا، في هذا الحيز الضيق، أن ندخل في تفاصيل هذه النظريات الجديدة كلها، لأنها لم تنتج من التأثيرات ما أنتجته مذاهب هسرل الأخرى، على الرغم من أنها تعد من أهم ما قدمه الفكر الفلسفي في الحضارة الغربية في القرن العشرين الميلادي.

---

(٥٠٣) Bedeutungsverleihende Akte.

(٥٠٤) Bedeuntungserfullende Akte.

(٥٠٥) Bedeudungskategorie.

رابعا: المنهج الفينومينولوجي

إن الهدف الذي يعلنه هسرل من فلسفته هو إقامة دعامة مطلقة اليقين تقام على أساسها كل العلوم كافة، والفلسفة بخاصة. وهو يرى أن المصدر الأعلى لكل إثبات عقلي هو «الرؤية»، أو، حسب تعبيره هو «الوعي المانح الأصلي» (٥٠٦).

ينبغي الاتجاه إلى الأشياء ذاتها. هذه هي القاعدة الأولى والأساسية في المنهج الفينومينولوجي. وكلمة «شيء» تعني هنا «المعطى»، أي ما نراه أمام وعينا. هذا المعطى يسمى «ظاهرة» لأنه «يظهر» أمام الوعي. ولا تدل كلمة «شيء» على أن هناك شيئا مجهولا يوجد خلف الظاهرة(٥٠٧). إن فلسفة الفينومينولوجيا (أي علم الظاهرات) لا تشغل نفسها بالبحث في ذلك، وهي لا تتجه إلا إلى المعطى، بدون أن تهتم بالتمييز بين ما إذا كان ذلك المعطى حقيقة أم وهماً، فمهما يكن الأمر فإن الشيء هناك، وهو معطى.

وليس المنهج الفينومينولوجي استنباطيا، ولا هو بالتجريبي كذلك. أنه ينحصر في «إظهار» ماهو معطى وفي إيضاح هذا المعطى. وهو لا يفسر مستخدما القوانين، ولا يقوم بأي استنباط بدءا من مبادىء، إنما هو يعالج مباشرة ما يأتي بين أيدي الوعي وفي متناوله، ألا وهو الموضوع.

إذن، المنهج الفينومينولوجي يهدف كلية إلى أن يكون منهجا موضوعيا. إن ما يهتم به مباشرة ليس هو الفكرة الذاتية، ولا هو حتى العمليات التي تقوم بها الذات (على الرغم من إمكان تطبيق المنهج الفينومينولوجي على هذه العمليات ذاتها باعتبارها معطيات)، إنما هو «ماهو» معروف، أو مشكوك فيه، أو محبوب، أو مكروه، . . . الخ.

وفي حالة التصور الخالص، فينبغي كذلك إضافة التمييز بين المتخيل والتخيل، فحين نتصور مثلا كائنا خرافيا ما، فإن هذا الكائن الخرافي، موضوع علينا أن نميز

---

(٥٠٦) Das Originar Gebende Bewusstsein.

(٥٠٧) وهو ما كان يراه كانت.

بعنـاية بينـه وبين أفعالنـا النفسية. كـذلك الحال مع النبرة الموسيقية «دو»، والعـدد اثنين، والطـول، والـوسط، . . . الخ، كل هـذه «موضـوعـات»، وليست أفعـالا نفسية.

ومع ذلك فإن هسرل يرفض النظرية الأفلاطونية(٥٠٨)، لأنها لن تكون صحيحة إلا في حالة واحدة، هي أن تكون كل الموضوعات حقيقية. بل إن هسرل ليذهب إلى حد القول إنه «وضعي»، وذلك على أساس أنه يقيم المعرفة على المعطى.

ولكن هسرل يرى أن الوضعيين يقعون في أخطـاء فاحشة، وينبغي التخلص من هذه الاخطاء، إذا ما أراد الفيلسوف الـوصول إلى الحقيقة الحقة. وتفصيل ذلك، أن الـوضعيين يخلطون مـابين الرؤيـة بوجـه عام والـرؤية الحسيـة والتجريبيـة. وهـم لا يفهمون أن كل موضـوع حسي ومفرد له «ماهية». وإذا كان الفـرد (الجزئي) عرضيا، من حيث وجوده الواقعي(٥٠٩)، إلا أنه يوجد في قلب ذلك العرضي ماهية، أو ei-dos كما يقول هسرل باليونانية، أي «صـورة جوهرية»، وهذه الماهية هي التي يتعين إدراكها إدراكا مباشرا.

هناك إذن نوعان من العلوم في رأي هسرل:

ـ علوم الوقائع، وهي تعتمد على التجربة الحسية.

ـ وعلوم الماهية، أو علـوم الصورة الجوهرية (Eidétiques) وهدفها هـو الوصول إلى إدراك الماهيات.

ولكن كل علوم الواقع تستند إلى علوم الماهية، وذلك من ناحيتين:

ـ أولا، هي (أي علوم الواقع). تستخدم جميعـا المنطق، وكذلك، بصفة عامة، الرياضيات (وكلاهما علم ما هوى (من علوم الماهية).

ـ وثانيا، لأن لكل واقعة ماهية دائمة ثابتة.

---

(٥٠٨) المقصود نظرية المثل، التي تقول بوجود الكليات «في ذاتها» و«بذاتها»، في عالم مفارق.

(٥٠٩) أي يمكن وجوده وعدمه على قدر متساو من الإمكان.

والعلوم الرياضية علوم ماهـوية بشكل واضح. والفلسفة الفينومينولوجية تنتمي إلى نفس العـائلـة، لأنها لا تعالج وقـائع عـابـرة، بل تدرس عـلاقـات مـاهويـة. والفلسفة الفينومينولوجية وصفية خالصة، ويقوم منهجها في وصف الماهية. وطريقة سيرها تنحصر في الإيضاح المتدرج، والذي يتطور درجة درجة بوسيلة الحدس العقلي للماهية.

وحيث أن الفينـومينولـوجيا تـدرس أسس المعرفـة، لذلك فإنها «فلسفـة أولى»، ومنهجها يتميز باليقين الكـامل. وفي نفس الوقت، فإنها علم دقيق وبرهاني. وليس من السهل تطبيـق هــذه الفلسفــة، ولكن هسرل وتــلامــذتــه بينــوا أن المنهج الفينومينولوجي فتح آفاقا واسعة أمام بحوث خصبة إلى حد يفوق المتوقع.

خامسا: الاختزال والوضع بين أقواس

إن هدف الفينـومينولوجيا هـو الوصول إلى الماهيـة، ومن أجل تحقيق هذا الهدف فإنها لا تستخدم الشـك الديكارتي، وإنما تستخـدم «تعليق الحكم»(٥١٠)، وهــو مايسميه هسرل بالاسم اليوناني époché (أي «التوقف»، حرفياً). والذي يعنيه هذا هو أن الفينـومينولـوجيا «تضع بين أقـواس» عناصر معينة في المعطـى، هي العناصر التي لا تهتم بها(٥١١).

ويميز هسرل بين عدة أنـواع من الاختزال(٥١٢). فالتوقف التاريخي عن الحكم يفعل أول مــا يفعل أن يغض الطـرف عن ســائر المذاهب الفلسفيــة، وكأنها غير موجودة، لأن الفينومينولوجيا لا تهتم بآراء الآخرين، بل تتجه إلى الأشياء ذاتها.

بعــد ذلك، بعـد هــذا الإيقـاف الأولى عـن التـداخل، يأتي دور «الاختــزال الماهــــوي»(٥١٣)، الذي يضع الـوجود الفـردي للموضـوع موضع الـدراسة «بين

---

(٥١٠) أي التوقف عن الحكم.

(٥١١) معنى «الاقواس»، كما في حالة وضع جملة عرضية في أثناء عرض موضوع أساسي، فهي توضع بين أقواس.

(٥١٢) Reduktion.

(٥١٣) Eidetische Reduktion.

أقواس»، أي يبعده هو الآخر عن التداخل في شأن البحث، لأن الفينومينولوجيا لا تهدف إلا إلى الماهية.

ومع إجراء هذا الاختزال، الذي يضع جانبا تفرد الموضوع ووجوده، يكون قد تم الإنحاء جانبا لكل علوم الطبيعة والعلوم العقلية، بتجارب هذه وفروض تلك على السواء. بل إن الإله نفسه، باعتباره منبع الوجود ومصدره، يوضع أيضا مابين قوسين. ويخضع لنفس المعاملة المنطق وسائر العلوم الماهوية الأخرى. إن الفينومينولوجيا لا تدرس إلا الماهية الخالصة، وهي تستبعد سائر مصادر المعرفة الأخرى.

وقد أضاف هسرل، في كتاباته الأخيرة، إلى الاختزال الماهوي نوعا آخر من الاختزال يسميه «الاختزال الترانسندنتالي» (أو المتعالي). ويقوم هذا الاختزال الجديد ليس في وضع الوجود، وحده، بين أقواس، بل وكذلك كل ما لا يمت إلى الوعي الخالص بصلة. ونتيجة هذا الاختزال الترانسندنتالي هو أنه لا يبقى من الموضوع إلا ماهو معطى للذات وحسب.

ومن أجل الفهم الشامل لنظرية الاختزال الترانسندنتالي، ينبغي علينا الآن أن ننظر في مذهب هسرل في «القصدية»، لأنه هو أساس تلك النظرية.

سادسا: القصدية والمثالية

الاختزال الترانسندنتالي هو تطبيق للمنهج الفينومينولوجي على الذات نفسها، وعلى أفعالها. وكان هسرل قد رأى، من قبل تقديمه لهذه النظرية الجديدة، أن ميدان الفينومينولوجيا ينبغي أن يتكون من مناطق مختلفة في الوجود. أحد هذه المناطق هو «الوعي الخالص»، وهو منطقة متميزة من مناطق الوجود. والطريق إلى هذا الوعي الخالص يكون باستخدام ذلك المفهوم ذي الأهمية العظمى، ألا وهو مفهوم «القصدية»، الذي تلقاه هسرل من برنتانو، وبشكل غير مباشر من فلسفة العصر الوسيط المسيحي.

ويقـول هسرل أنــه من بين كل الخبرات هنـاك خبرات معينــة تتميـز بأنها خبرة بمـوضـوع. هذه الخبرات يسميهـا هسرل «خبرات قصـديـة». ومن حيث أنها وعي (حب، تقدير. . . الخ) بشيء ما، فإنه يقـول إنها خبرات ذات «علاقة قصدية» مع ذلك الشي.

وحين نطبق الاختـزال الفينومينـولوجي على هـذه الخبرات القصديـة، نصل من جهة إلى إدراك الوعي باعتباره نقطة علاقة خالصة للقصدية، وباعتباره مايُعطي إليه الموضوع القصدي، ومن جهة أخرى نتمكن من الوصـول إلى موضوع لم يعد له، بعد إجراء الاختزال عليه، من وجود غير ذلك الوجود المعطى قصديا إلى الذات.

ولا ننظر في الخبرة ذاتها إلا إلى فعلهـا الخالص، الذي يبـدو، في كلمات بسيطة، أنه العلاقة القصدية بين الوعي الخالص والموضوع القصدي.

وعلى هذا النحـو تظهر الحقيقة كلها على أنها تيـار من الخبرات باعتبارهـا أفعالاً خالصـة (للوعي). وينبغـي أن نؤكد بشـدة على أن هذا التيـار، من حيث هـو هو، ليس أمرا نفسيا، إنما نحن نتنـاول هنا وحسب بنيات وتكوينات نموذجيـة خالصة. إذن، فالوعي الخالص (الذي يسمى «كوجيتو»[(٥١٤)] حين يتحقق ويعمل بالفعل) ليس ذاتا حقيقيـة، وما أفعالـه إلا علاقـات قصدية، ويختـزل الموضوع إلى أن يصبح مجرد معطى إلى هذه الذات المنطقية.

ويميز هسرل كذلك في تيار الخبرات المتتالية بين ماهو «هيولي»[(٥١٥)] (أي مادة محسـوسة) ومـاهو «صـورة» (أي الهيئـة المقصود إليهـا) ويطلق هسرل اسم Noesis (التفكير) على الجهـة التي تهب الصـورة لمادة التجـارب القصـديـة، واسم Noema (الفكر) على مجموع المعطيات القائمة في الإدراك الخالص.

ولنأخذ مثلا حالة شجـرة، فنميز بين معنى إدراك الشجرة (هو الـ Noema)، ومعنى الإدراك من حيث هو محض إدراك (وهو الـ Noesis). [(٥١٦)]

---

(٥١٤) الكلمة مأخوذة من المصطلح الديكارتي.

(٥١٥) مصطلح أرسطي، يعني المادة، أو ما تدخل عليه الصورة لتحدده فيصبح محددا.

(٥١٦) يلاحـظ وفرة المصطلحـات ذات الأصل اليونـاني عند هسرل، والمصطلحـات الأربعة الأخيرة يونانية، وتعود، في معانيها الأصلية، إلى أرسطو وأفلاطون.

ويميز هسرل كـذلك في الحكم مابين مضمـون الحكم (أي جوهـر ذلك الحكم) والحكم المنطوق، وربما كان من الممكن تسمية هـذا الأخير «بالقضية بالمعنى المنطقي الخالص» هذا إذا كانت الـ (noema) لا تحتوي، إلى جانب شكلها المنطقي، على جوهر مادي.

ماهي خـلاصة هذه التحليـلات؟ إن الطابع مـزدوج البؤرة للخبرة القصديـة قد أصبح واضحـا بما لا يدع مجالا للغمـوض: فالذات تظهـر، مع هـذه التحليلات، مربـوطة ربطـا جوهـريا إلى الموضـوع، ويظهر الموضـوع معطى جـوهريـا إلى الذات الخالصة.

ولا شك أن العالم يقف من وراء هذا كلـه (وإن لم يكن هذا هو الحال دائما، لأنه من الممكن أن يقـوم فعـل قصـدي بـدون أن يكـون لـه مـوضـوع حقيقي في العـالم الخارجي)، ولكن وجود العـالم ليس ضروريا لازما لوجود الـوعي الخالص. ونلاحظ أن عـالم «الأشياء» الترانسندنتـالية (المتعالية) يعتمد كـل الاعتماد علـى الوعي وهـو في حـالة نشـاط وفـعل. إن الحقيقة الخارجيـة عـارية في جـوهـرها عن الاستقـلال الذاتي[٥١٧]، وإنما هي وحسب «مجرد شيء ما»، ظاهرةٌ ماهي إلا قصدٌ، أو وعيٌ، من حيث المبدأ.

وهكذا تصل فلسفـة هسرل إلى نوع من المثـالية الترانسندنتـالية (المتعـالية)، التي تتشابه في أكثر من جانب مع مثاليـة الكانتيين الجدد. والاختلاف الهام الوحيد مابين هسرل ومـدرسة مـاربـورج يقوم في أن هسرل لا يقبل أن ينحل الموضـوع ليصبح مجرد قوانين صـورية، وفي أنه يقبل بـوجود تعدديـة من الذوات، التي من الظـاهر أن لها وجودها الخاص. وعلى أي حـال، فإن مدرسة هسرل لم تتبعه على طريق المثـالية هذا الذي سلكه في أخريات مؤلفاته.

---

(٥١٧) يتجلى هنا اتجاه هسرل نحو المثالية.

الفصل الخامس عشر
مـاكـس شلـر

أولا : شخصيته، تأثيرات عليه، تطوره

يحتل مـاكس شلر مكـانا متميـزا بين حلقة الفـلاسفة المتأثـرين بهسرل، وذلك بسبب أصالته ومواهبه التأملية.

وقـد ولد شلـر في ميونخ (ألمانيـا) في عـام ١٨٧٤م. وأصبح تلميذا للفيلسـوف الألماني أُيْكن. وقام بـالتدريس أولا في جامعات إينا وميـونخ، ثم في جامعة كـولونيا بدءا من عام ١٩١٩م. ثم دعى للتـدريس في جامعة فرانكفورت، ولكنـه توفى عام ١٩٢٨م. قبل أن يستطيع بدء محاضرات بها.

كـان شلـر خلقـا فـريـدا، وهـو من غير شك ألمع المفكـرين الألمان في عصره. وفلسفة الأخلاق هي ميدان قوته، ولكنه كرس بعض اهتمامه كذلك إلى فلسفة الدين وإلى علم الاجتماع وإلى مسـائل أخرى. وفكره دائما فكـر يثير الإعجاب وقـريب من الحياة، وتـزخر كتابـاته بإثـارة عدد عظيم من المشكلات. وفي ميـدان الأخلاق على الأخص، فإن كتاباته هي أهم مـا أنتجه ويتميز به النصف الأول من القرن العشرين الميلادي في الفكر الغربي.

وقد وجهت فكره تيارات عديدة ومتنوعة فيما بينها.

ففي سنوات شبابه وقع تحت تأثير أستاذه أُيْكن(٥١٨)، ويشهد على ذلك كتاباه الأولان(٥١٩). وكـان تفكير أيكن يـدور حـول حياة العقل، وهـو يمثل نـوعـا من

---

(٥١٨) راجع فيما سبق، الفصل الثالث عشر، «أولا».

(٥١٩) سيأتي ذكرهما بعد قليل.

فلاسفة الحياة، ولكنه يختلف عن فلاسفة الحياة في أن حياة العقل هي التي تحتل الأهمية الأولى عنده (٥٢٠).

وقد كان ، من جهة أخرى، معجبا بالقديس أوغسطين(٥٢١)، ويظهر هذا الإعجاب عنده، مقرونا بتأثره بأستاذه أيكن، في رأيه أن أوغسطين هو صاحب نظرية كبرى في الحب، ولكنه الحب منظورا إليه على نحو جديد تماما لم يعرفه اليونان من قبل.

وفي مرحلته الثانية استمر شلر في السير في هذا الطريق سيرا واعيا. وفي هذه المرحلة تأثر، تأثرا دائما، بخلاف القديس أوغسطين، بكل من فلسفة الحياة ونيتشه ودلتاي وبرجسون، حتى أن البعض (مثل ترولتش)(٥٢٢) سمى شلر باسم «نيتشه الكاثوليكي». ومع ذلك، فربما كان هسرل أعظم تأثيرا عليه في أثناء هذه المرحلة من أي من هؤلاء، وقد طور شلر مذهب هسرل وعدل منه واستخدمه على مستوى غير المستوى الذي وقف عنده هسرل(٥٢٣) ويُعد شلر أول الفلاسفة الفينومينولوجيين، بعد هسرل نفسه.

ويمكن التمييز بين ثلاث مراحل في حياة شلر.

المرحلة الاولى كما سبق وقلنا، تتسم بسيطرة أيكن على فكر شلر. ثم تأتي مرحلة النضوج (من حوالي ١٩١٣ الى ١٩٢٢م) وفيها تظهر أهم أعمال شلر:

ـ «النزعة الصورية في الأخلاق ونظرية الأخلاق المادية في القيم»، صدر ما بين عامي ١٩١٣ ـ ١٩١٦م وهو كتابه الأساسي، وصدر أول ما صدر في الكتاب السنوي الذي كان يصدره هسرل.

---

(٥٢٠) على غير برجسون مثلا الذي يهتم بفكرة الحياة ككل.

(٥٢١) مؤلف ورجل دين مسيحي وفيلسوف (٣٥٤ ــ ٤٣٠م) كانت فلسفته نابعة من تجاربه الشخصية وتجولاته بين المذاهب والأديان.

(٥٢٢) رجل دين بروتستاني وعالم اجتماع وفيلسوف تاريخ (١٨٦٥)ـ ١٩٢٣م).

(٥٢٣) أي انتقل من مستوى المعرفة إلى مستوى الحياة العقلية.

ـ ثم مجموعتـان من البحوث تحت عنـواني: «انقلاب القيم» (عـام ١٩١٩م)، و«عن الخالد في الإنسان» (عام ١٩٢١م).

ومذهب شلر في هذه المرحلة الثانية مذهب شخصاني[٥٢٤]، ويقول بالألوهية، ويعتنق المسيحية اعتناقا صحيحا.

ولكن شلر يتطـور من بعد ذلك تطورا داخليـا، ربما شاركت في إحداثـه طبيعتُه المنقسمة والـديناميكية الانفعـالية التي اتسمت بها حياته وهـو هنا لا يفقد عقيـدته المسيحية التي تميـز بها من قبل وحسب، بل هو يهجـر كذلك موقفـه الآخذ بـوجود الألوهية أيضا. ويظهـر هذا التطور بالفعل في كتابه «أشكـال المعرفة والمجتمع (عام ١٩٢٦م) وفي كتابه «مكان الإنسان في الكون» (صدر عام ١٩٢٨م) وذلك على نحو صريح جدا.

والفرق بين المرحلتين يقوم في أنه إذا كان شلر في المرحلة الثـانية يتخذ مركزا لفكره مفهوم إلـه الحب المشخص[٥٢٥]، فإنه أصبح يقول في مرحلتـه الثالثة بأن الإنسان إنما هو «المكـان الوحيد الذي يتكـون فيه الإله» وقـد منع الموت المفاجيء قبل الأوان شلر من أن يفصِّل تطور فكره في هذا الاتجاه الجديد.

ثانيا: نظرية المعرفة:

هناك أنواع ثلاثة من المعرفة:

ـ النوع الأول، المعـرفة الاستقرائية عنـد العلوم الوضعية. وهي تقـوم على غريزة السيطـرة، ولا تستطيع الوصـول أبدا إلى قـوانين إجباريـة. وموضـوع هذا النـوع من المعرفـة هو الـواقع الخارجي. ويقبل شلر الـوجود الحقيقي للواقـع الخارجي، ولكنه يقول متفقا في هذا مع دلتاي، أن الموجود العارف الذي كله معرفة وحسب شيء غير قائم، لأن الـواقع إنما هو ذلك الذي يعـارض أهدافنا بنوع من المقـاومة[٥٢٦].

---

(٥٢٤) نسبة إلى الشخص الإنسـاني، والمذهب بهذا يعتد بكـرامة الشخص وحريتـه ويعتبره قيمة في ذاته، وليس مجرد رقم بين الأرقام.

(٥٢٥) وهو السيد المسيح.

(٥٢٦) فالعلاقة ليست علاقة معرفة وحسب.

والصدمة مع الواقع هي التي تثبت وجود الواقع الخارجي.

- النـوع الثاني من المعرفـة، هو معرفـة «البنية الماهويـة» لكل ماهو مـوجود، أي معرفة «ما» الأشياء [٥٢٧].

ويستلزم الـوصول إلى هـذا النوع من المعرفـة أن يتوقف سير السلـوك المعتمد على الغريـزة، وأن نغض النظر عن الحضور الفعلي لـلأشياء، لأن موضوع هـذا النوع من المعـرفة هـو «القبلي» (أو الأولى). ويرى شلـر، متفقا في هـذا مع كانت، أن هنـاك معرفة بالقبلي. وهو يسمى «قبليا» كل القضـايا ووحدات المعاني النموذجية التي هي «معطاة»، وذلك بغض النظـر عن أي «موقف» للذات التي تفكر في تلك القضـايا والوحدات النموذجية.

ولكن شلر يختلف في هذا الميدان مع كانت في عدة أمور.

أولها: أن ميدان «القبلي» يتكـون من الماهيات، وليس من قضايا، كما كـان يرى كانت.

وثـانيهـا: أن ميدان «القبلي ـ البديهي» لا علاقـة له على أي نحو مع مـاهو «صوري»، كما كـان يرى كانت: فهناك قبلي مـادي، وهو مضمونـات مستقلة عن الخبرة وعن الاستقراء. والواقع أن شلر يرفض بقـوة شديدة متكافئة الاتجاه التصوري المثالي[٥٢٨] والاتجاه الاسمي الوضعي معا.

وثالثها: أن شلر لا يوافق كانت على أن نظرية المعرفة هي النظرية الأساسية فيما يخص ميدان القبليات. وهـو يرى أن أول أخطاء الكانتيين أنهم بـدأوا بوضع سؤال: «كيف يمكن أن يكون شيء ما معطى أمام العقل؟» والمفـروض هو البدء من السؤال الأهم: «ماهو المعطى؟». وعلى هذا فإن شلر يعتبر أن نظـرية المعرفة ما هي إلا جزء وحسب من نظرية العلاقات الموضوعية بين الماهيات.

---

(٥٢٧) Washeit، من Was الألمانية، أي «ما» كذا؟

(٥٢٨) مثلما كان الحال عند كانت.

ورابعها: أن شلر يعتبر أن نظرية كانت في تلقائية الفكر نظرية خاطئة تماما، وهي النظرية التي ترى أن كل ماهو علاقة ينبغي أن يكون من إنتاج العقل (أو، أحيانا، العقل العملي). والواقع، في نظر شلر، أنه لا يوجد عقل يفرض على الطبيعة قوانينه. إننا لا نستطيع أن نثبت إلا ما يعتمد على الاتفاق والاصطلاح، أما القوانين فلا يستطيع أحد فرضها.

أخيرا، فإن أكبر أخطاء كانت، وكل الفلسفة العقلية معه، هو أنه خلط ما بين القبلي والعقلي. والواقع، عند شلر، أن كل حياتنا الروحية ذات مضمون قبلي، بما في ذلك القسم الانفعالي من العقل، أي ذلك الذي يتأثر ويحب ويكره، . . . الخ. إن هناك «نظام القلب» القبلي، أو «منطق القلب» (على ما كان يقول باسكال)(٥٢٩)، بالمعنى الحرفي للتعبير. وابتداء من هذا المنظور، أخذ شلر في تطوير فينومينولوجيا هسرل على نحو اختص به هو وتميز، وفتح بذلك أمام البحث الفينومينولوجي آفاقا جديدة. ويسمى شلر هذا المذهب باسم «القبلية الانفعالية».

ـ أما النوع الثالث من المعرفة، فإنه المعرفة الميتافيزيقية، أو معرفة الخلاص (أو النجاة). وهو ينتج عن الربط بين نتائج العلوم الوضعية والفلسفة التي تدرس الماهيات. وموضوعه، أولا، هو المشكلات التي تقع على حدود العلم ولكن العلم لا يستطيع تناولها (مثلا: ما الحياة؟)، وموضوعه، ثانيا، هو ميتافيزيقا المطلق.(٥٣٠)

ومع ذلك، فإن الطريق نحو هذه الميتافيزيقا لا يمكن أن يبتدأ من دراسة الوجود الموضوعي إنما منبع هذه الميتافيزيقا هو الدراسة الفلسفية للإنسان (الانثرولولوجيا

---

(٥٢٩) راجع هامش (٢٥٥).

(٥٣٠) يقول «المعجم الفلسفي» لمجمع اللغة العربية إن المطلق لغةً هو ما كان بلا قيد ولا وثاق، واصطلاحا هو في المنطق مالا يتوقف إدراكه على غيره ويقابل المضاف، وفي الأخلاق والسياسة هو ما لايحده حد ولا يقيده قيد، ومنه الخير المطلق والسلطة المطلقة، وفي الميتافيزيقا هو ما لا يفتقر في تصوره ولا في وجوده إلى شيء آخر، ومنه الوجود المطلق، وضده النسبي.

الفلسفية)، وهي الأنثروبولوجيا التي تتناول سؤال: «من الإنسان؟». ويرى شلر أن الميتافيزيقا الحديثة ينبغي أن تكون دراسة فلسفية لأسس الانثروبولوجيا (أو كما يقول «ميتا ـ أنثروبولوجيا») (٥٣١).

ثالثا : القيم

الموضوعات القصدية للحساسية(٥٣٢) هي العنصر القبلي في الجانب الانفعالي من الإنسان: تلك هي القيم.

إن العقل، في رأي شلر، أعمى عن إدراك القيم، بينما تستطيع الحساسية إدراكها بشكل مباشر تلقائي، تماما كما يدرك البصر الألوان. والقيم قبلية(٥٣٣). وقد قام شلر بمجهود نقدي هادم قصد به، من جهة، الهجوم على كل نوع من أنواع المذهب الاسمي في ميدان القيم، وهو الذي يدعى أن القيم ماهي إلا وقائع تجريبية (٥٣٤)، ومن جهة أخرى، الهجوم على النزعة الصورية في فلسفة الأخلاق.

بهذا الجهد النقدي، استطاع شلر أن يحرر الفلسفة من الأفكار المسبقة التي سادت في خلال القرن التاسع عشر الميلادي في الفكر الغربي، وجُهده في هذا المقام يوازي جهد برجسون في الميدان النظري(٥٣٥). ولن نستطيع التفصيل في دقائق هذا النقد هنا، ونكتفي بالإشارة إلى خطوطه الرئيسية.

يميز شلر، في أوجه السلوك البشري، بين:

ـ القصد.

ـ الغايات.

---

(٥٣١) الميتافيزيقا.. أو مابعد الطبيعة. والميتا ـ أنثروبولوجيا.. أو مابعد الأنثروبولوجيا.

(٥٣٢) Intentionale Gegenstande Des Fuhlens.

(٥٣٣) أو «أولية»، وسبقت الإشارة إلى المعنى.

(٥٣٤) أي مصدرها المجتمع في النهاية.

(٥٣٥) حين هاجم العقل التحليلي على الخصوص.

ـ الأهداف .

ـ القيم .

أما الغايـة فإنها مضمون معطى من أجل أن يتحقق . وهي تنتمي دائما إلى ميدان الصور ذات المضمون وبـالتالي فإنها يمكن تصورها . ولا يحتـوي كل قصد بالضرورة على غاية .

وبالعكس ، فإن كل قصد يكون له هدف ، ويستقر هذا الهدف في داخل مسار القصد ، ولا يعتمد قيام الهدف على فعل التصور العقلي .

وفي داخل كل هدف توجد القيمة ، فالقيمة هي المضمون المباشر للهدف .

ويرى شلـر أن القول بأن الإنسان يطمـح دائما إلى الحصول على اللذة ، هـو قول خاطىء كل الخطـأ . فالحقيقة أن الإنسـان لا يقصد في حالتـه الأولية (البـدائية) إلى اللذة على الإطلاق ، ولا هو يقصد إلى أي حالة وجدانية أيا ما كانت ، إنما هو يقصد ابتداء إلى القيم . ويرى شلـر أنه حتى في الحالات التي تصبح فيها اللـذة هدفا ، فإن ذلك يحدث مع نية أن تتحول اللذة إلى قيمة .

ولكن ليست معطيات القيم مـرتبطة كلها بالقصـد والجهد من أجل تحقيق شيء ما ، ذلك لأن المرء قـد يستشعر قيما (حتى لو كانت قيما أخـلاقية)[٥٣٦] بـدون أن يقصد إلى تحققها لنفسه .

وينتج عن هذا أن القيم لا تعتمد في وجودها على الغايات ، هذا بينما تقوم القيم بالفعل في أهداف التحركات الإنسانيـة ، بل إن القيم هي أساس الأهداف ، وبالتالي فإنها تصير غايات على الدقة .

ويشير شلـر إلى أنه ينبغي عـدم الخلط بين القيمـة والواجب وهـو يميز في هـذا الصدد بين الوجود الواجب (وهو مستوى مثالي) والفعل الواجب (وهو مستوى الأمر

---

(٥٣٦) لأنها مرتبطة بالعمل أوثق من غيرها ، وبالتالي أقرب إلى ميدان الجهد والقصد .

القطعي)[537]. وفي إطار الواجب، فإن هناك مضمونا للواجب المثالي الذي يرتبط بكل قصدٍ ارتباط الشرط بالمشروط. إن القيمة هي أساس الواجب المثالي، والواجب المثالي هو أساس الواجب المعيارى. ويرى شلر أنه من الخطأ الجسيم أن تدعى الفلسفة إمكان إقامة الأخلاق على أساس من الواجب المعيارى.

وما أبعد أن تكون القيم شيئا نسبيا، بل هي مطلقة بالمعنى المزدوج للمطلق:

- فمضمونها ليس علاقة، بل هي تنتمي إلى فئة الصفة الكيفية.
- كما أنها ثابتة دائمة.

إن النسبي ليس هو القيمة، وإنما معرفتنا بها. وفي هذا المضمار يهاجم شلر بعنف وإلحاح مختلف صور النزعة النسبية، وعلى الأخص النزعة النسبية في الأخلاق. وهو يفحص على التتابع فحصا نقديا المذهب الذاتي، وهو الذي يرجع القيم إلى الإنسان، والمذهب النسبي، الذي يختزل القيم إلى مستوى الحياة، أو يعتبرها كضرورات تاريخية.

ويكتشف شلر في هذا الإطار وجود تنويعات من الشعور[538] (وبالتالي من المعرفة) بالقيم، وتنويعات من أحكام القيمة، وتنويعات من النماذج المتفردة للنظم، وللخيرات وللأفعال، وللأخلاقية العملية، التي تتصل بقيمة السلوك الإنساني، وأخيرا يكتشف تنويعات من التقاليد الراسخة عبر الأجيال ومن العادات. إن كل هذا يكتشفه التحليل عبر مسرى تطور متصل، ولكن القيم الأخلاقية ذاتها تبقى ثابتة بغير تغير. وقد يمكن أن نحسن إدراكها إلى درجة تكبر أو تصغر، أو أن نتصورها أو نصوغها إلى حد أفضل أو أقل، ولكنها في ذاتها تظل مطلقة وثابتة دائمة.

إن القيم تشكل، عند شلر، عالما من العلاقات فيما بينها، وفيه تسيطر علاقات الماهية والقوانين الصورية القبلية.

---

(٥٣٧) كنوع الأمر القطعي في فلسفة الأخلاق عند كانت.
(٥٣٨) أو «الإحساس» أو «الحس» أو الوجدان (Sentiment)

وبالتالي ، فإن كل القيم تنقسم إلى قيم إيجابية وقيم سلبية . ووجود قيمة إيجابية هو ذاته قيمة إيجابية ، وعدم وجودها هو ذاته قيمة سلبية ، ومن جهة أخرى فإن وجود قيمة سلبية هو ذاته قيمة سلبية ، وعدم وجودها هو قيمة إيجابية .

ولا يمكن لنفس القيمة أن تكون في ذات الوقت إيجابية وسلبية معا ، وكل قيمة غير سلبية هي قيمة إيجابية ، والعكس بالعكس .

وتصنف القيم في مجموعات عليا وأخرى سفلى . والقيم العليا هي الأكثر دواما ، والأقل انقساما ، والتي تؤسس الأخرى ، والتي تهب إشباعاً ورضى أعمق ، وأخيرا هي الأقل نسبية .

ويضع شلر ثبتا تصاعديا «قبليا» لأوضاع القيم ، وهو كالتالي :

١ ـ قيمة حسية : الممتع وغير الممتع .

٢ ـ قيم حيوية : النبيل والسوقي .

٣ ـ قيم روحية : الجميل والقبيح ، العدل والظلم ، المعرفة الخالصة بالحقيقة .

٤ ـ قيمتا المقدس والدنيوي .

والحقيقة تخرج عن نطاق القيم عند شلر . وهذا التصنيف لا يحتوى كذلك على القيم الأخلاقية ، لأن القيم الأخلاقية تقوم في تحقق قيم أخرى تتراوح ما بين العليا والدنيا .

أخيرا ، فان القيم تتجمع في مجموعات بحسب «السـاند» لها . وأهم التقسيمات التي يعرضها شلر في هذا الشأن ، هو تقسيم القيم إلى قيم الأشخاص وقيم الأشياء . وقيم الأشياء كلها قيم تتعلق بموضوعات قيّمة ، أي الممتلكات والأموال ، ويدخل فيها أيضا خبرات الثقافة . أما قيم الأشخاص فإنها قيم الشخص نفسه وقيم الفضيلة . وجوهرها أنها قيم أعلى من قيم الأشياء . والشخص وحده هو الذي يكون في أصله حسنا أو سيئا .

وهناك تقسيم آخر ثانوي للقيم عند شلر بحسب اتجاهات القدرة الأخلاقية ، وتقسيم ثالث بحسب أفعال الشخص . ويظهر من كل ما سبق أن القيم الأخلاقية قيم شخصية من الدرجة الأولى .

رابعا : الشخص والجماعة :

إن مشكلة الشخص تقوم في مركز النظام الفلسفي الذي يقدمه شلر. والشخص ليس هـو النفس، ولا هو حتى «الأنـا»وليس كل البشر أشخـاصـاً بالمعنى الكـامل للكلمـة. إن مفهـوم «الشخص» يتضمن الاستخــدام الكـامل للعقل، والنضج، والقدرة على الاختيار.

وليس الشخص هو جوهر النفس، لأنه ليس شيئا نفسيا، ولا علاقة له أيا ما كانت مع المشكلــة السيكلــوجيــة، ولا مــع الخُلُق والطبع، ولا مع صحـــة النفس أو مرضهـا، . . . ألخ. وهـو ليـس جـوهرا ولا موضـوعا. بل هو عنـد شلر بـالأحرى «وحدة الوجود المتعينة المكونة من أفعال»(٥٣٩)، هذه الأفعال التي ليست هي ذاتها موضوعات، إن الشخص لا يوجـد إلا من حيث أنه يقوم بأفعال. ولا يعني هذا أن الشخص مجرد «نقطة انطـلاق» للأفعال، ولا يعنـي من باب أولى أن يكون هـو هذه الأفعال ذاتها، كما كان رأي كانت. إن الشخص يكون متواجدا بكله في كل فعل من أفعاله، وهـو يأخذ أشكالا منوعة بحسب تنوع الأفعـال، ولكن بدون أن يسيطر أي فعل خاص عليه.

وحيث أن مجال الأفعال كلها هـو العقل، لذلك فإن «الشخص» كيان روحي في جوهره. ولا يعني شلـر «بالعقل» لا الذكاء ولا ملكـة الاختيار، وإلا لم يكن في هذه الحالة من اختلاف بين قرد الشمبانزي والمخترع أديسون (٥٤٠) إلا اختلافاً في الدرجة وليس اختـلافا في الماهيـة، كـلا، إنما يعني شلر بـالعقل مبـدأ جـديدا ومختلفـا كل الإختلاف عن الطبيعة(٥٤١).

والأفعال التي تحدد العقل ليست وظائف لـلأنا، إنما هي غير نفسيه (ولكنها مع ذلك ليست طبيعية أو شيئيـة من جهة أخـرى)، والفرق أن الأفعال العقليـة يفعلها العقل، بينما الوظائف النفسية تتم بغير تدخل.

---

(٥٣٩) Konkrete Seinseinheit Von Akten، أو «وحدة الأفعال الوجودية المتعينة».

(٥٤٠) المخترع الأمريكي الشهير للتلغراف والتليفون والمصباح الكهربائي وغيرها.

(٥٤١) هو اللا طبيعة.

ويرى شلر أن الذي يميز العقل الإنساني تمييزا قاطعا هو نشاط الأفكار التصورية، أي ملكة فصل الماهية عن الوجود. وبالتالي فإن العقل موضوعية، وهو إمكانية يحددها شكل أو هيئة الأشياء ذاتها.

والشخص فردي تماما، وكل إنسان، من حيث وبقدر أنه شخص، هو موجود وقيمة فريدان لا شبيه لهما. ومن حيث هذا المنظور، فإن الشخص يتعارض مع العام، وليس مع الجماعة. فنحن لا نستطيع الحديث عن شخص عام، و يرى شلر أن مفهوم «الوعي العام» عند كانت هو مفهوم بغير معنى.

والشخص مستقل من وجهين:

ـ هناك، من جهة استقلالُ تصوره عن الخير والشر.

ـ وهناك، من جهة أخرى، استقلالُ الفعل الشخصي المتصل بإرادة ما هو معطى كخير أو شر.

كذلك، فإن الشخص مربوط إلى البدن، ولكن لا توجد علاقة تبعية من أي نوع من جانب الشخص بإزاء البدن. على العكس، فإن السيطرة على البدن هي شرط من شروط وجود الشخص.

أخيرا، فإن الشخص ليس أبدا «جزءا» من العالم، إنما هو دائما على علاقة «بعالم»، بحيث أن شلر يرى أن هناك عالما يقابل كل شخص (فكرة «العالم الصغير»)، وأن هناك شخصا يقابل كل عالم.

ولكن ينقسم الشخص إلى شخص منعزل و شخص جمعي. إن من جوهر كل شخص أن يكون من حيث أصله، وفي كل وجوده ونشاطه الروحيين، حقيقة فردية (أي شخصا منعزلا) من جهة، وأن يكون كذلك، وفي نفس الوقت، حقيقة فعلية تكوّن جزءا من مجموعة. وهكذا فإنه «ينتمي» إلى كل شخص محدد، إذن، شخص منعزل وشخص جماعي. (٥٤٢)

---

(٥٤٢) أو أن كل شخص معين «يحوز» أو «يملك» في داخله شخصا «منعزلا» وآخر «جماعيا»، معاً

والشخص الجماعي تتأصل جذوره في مراكز الحياة المتنوعة، وفي كلية الحياة الجماعية.

ويميز شلر بين نماذج أربعة من الوحدات الاجتماعية:

١ ـ وحدة تتكون عن طريق العدوى وعن طريق التقليد غير الإرادي (وهي الحشد أو الجمهور).

٢ ـ وحدة تتكون عن طريق «العيش مع» أو طريق «العيش حسب»، وهو ما ينتج تفاهما بين أعضاء الوحدة، ولكن هذا التفاهم ليس سابقاً على «العيش مع» (وهو الجماعة).

٣ ـ وحدة مصنوعة، حيث تقوم كل العلاقات بين الأفراد بوسيلة أفعال إرادية مقصودة (وهو المجتمع، ولا يوجد مجتمع بغير الجماعة).

٤ ـ وحدة الأشخاص المنعزلين المستقلين في هيئة شخص جمعي مستقل روحي فردي.

هذه الوحدة، من النوع الأخير، تقوم على وحدة ماهوية[٥٤٣]، أساسها الالتفاف حول قيمة محددة.

ويرى شلر أنه لا يوجد في الواقع إلا نوعان من الأشخاص الجمعيين الخالصين:

ـ الكنيسة (قيمة المقدس)

ـ والأمة أو مجال الثقافة (وهي شخص جمعي ثقافي، وتقابله القيم الثقافية الروحية).

خامسا: الإنسان والإله

يرى شلر أن كلمة «إنسان» لها معنيان. المعنى الأول الذي تعنيه الكلمة هو «الإنسان الطبيعي»، وهو شيء ضئيل، ممر مسدود للحياة، وهو يشكل كلا فريدا

(٥٤٣) نسبة إلى الماهية.

في تطور مستمـر، ولا يخرج «الإنسان الطبيعي» عن العـالم الحيواني، فهـو حيوان فيما كان، وحيوان فيما يكـون، وحيوانا سيظل إلى الأبد. إن إنسـانية «الإنسان الطبيعي» لا وحدة لها ولا عظمـة فيها. ويـرى شلر أنـه لا يوجـد شيء يدل على خطـل الرأي أعظم من فكرة العبادة التي كرسها أوجست كونت[٥٤٤] لتلك الإنسانية، باعتبارها عنده «الموجود الأكبر».

ولكن كلمة «إنسان» تعني معنى آخـر: فالإنسان هو أيضـا الموجود الذي يصلي ويدعو، إنـه «الباحث عن الإله»، الصورة اللانهائية الحيـة للإله[٥٤٥]، إنـه نقطـة ظهور شكل من أشكال المعنى والقيمة والفاعلية أعلى من كل وجود طبيعي آخر، ألا وهو الشخص.

ويرى شلر أن تجربة الإنسان الـدينية هي تجربة أصلية وأولية ولم تنتج عن تجارب غيرهـا، لأن «الإلهي» مفهوم ينتمي إلى مجمـوعـة المعطيات الأكثـر بـدائية في الـوعي الإنساني.

وأهم تعريفات ماهية الإلهي هي : الواحدية[٥٤٦]، اللانهائية، كلية الحقيقة، القداسـة. إن الإله الـديني إله حي، إنـه شخص، بل هو شخـص الأشخاص. ويرى شلـر أن الإله المتـوحد مع الطبيعـة ماهـو إلا مجرد صورة أو انعكـاس للعقيدة القائلة بوجود الألوهية. واللوم الموجه إلى هذه العقيدة [٥٤٧]، بأنها تصور الإله على صورة الإنسان، لوم على غير أساس، ولوم لا يثير إلا السخرية منه، لأنه ليس الإله الـذي يصور على هيئـة الإنسـان، وإنما العكس هو الصحيح، فـالفكـرة الوحيـدة السليمة التي يمكن تكوينها عن الإنسان هي تصوره على صورة الإله.

ويعتقد شلر أن كل عقل محدود يعتقـد إما في إله وإما في صنم، وأمـا اللاأدريون فإنهم بدورهـم يعتقدون في العدم.

---

(٥٤٤) الفيلسوف الفرنسي المعروف، مؤسسة علم الاجتماع الغربي.

(٥٤٥) يتفق هذا كله واتجاهات المسيحية.

(٥٤٦) ens ase، أو «واحد بذاته».

(٥٤٧) يواجه اللاهوت المسيحي مشكلة أن الإله تجسد بشرا.

ويقابل العقيدة من جانب المؤمن، الوحي والكشف من جانب الإله. وهذا هو السبب، في رأي شلر، في أن الدين والاعتقاد لا يستطيع أن يهبهما إلا فعل صادر من إله مشخص.

ويرى شلر أن الميتافيزيقا غير قادرة على تأسيس الدين، لأنها دائما شرطية وافتراضية(٥٤٨). إن إله الفلاسفة ماهو إلا أساس جامد للعالم(٥٤٩). وإذا كانت الأدلة الفلسفية على وجود الإله قد اكتسبت في خلال القرون الوسطى المسيحية قوة إقناع كبيرة، فإن السبب الحقيقي وراء هذا أن ذلك العصر كان يقوم على تجربة دينية غنية(٥٥٠).

ورغم هذا التحديد لوظيفة الميتافيزيقا، فإن شلر يرى أنها الدرجة التمهيدية الضرورية باللزوم لكل معرفة دينية، لأن ثقافة بغير ميتافيزيقا أمر مستحيل من الناحية الدينية. ومن جهة أخرى فإن الدين يعيد تفسير النظام الجوهري للعالم.

ولكن شلر يضيف من عنده، مع ذلك، برهانا جديدا على وجود الإله: فكل معرفة عن الإله هي معرفة يقوم بها الإله، وحيث أن هذا النوع من المعرفة قائم، وهو المتمثل في الفعل الديني، إذن فالإله موجود. إن الإله مُعْطًى باعتباره المقابل للعالم والمتلازم معه، وكما أن كل عالم مصغر يقابله شخص محدد، فكذلك الإله من حيث هو شخصٌ يقابلُ مجموع العالم، أي العالم المكبر.

سادسا: الحب

إذا كانت التأملات التي عرضناها حتى الآن ثورية شكلا ومضمونا، فإن نظرية الحب التي قدمها شلر هي التي يعارض بها، بأقوى صورة، فكر القرن التاسع عشر الميلادي في الحضارة الغربية.

وهو، أولا، يرفض أن يكون الحب هو التعاطف، وعنده أن الحب بصفة عامة

(٥٤٨) أي تعتمد على أمور أخرى، فهي ليست مطلقة.

(٥٤٩) قارن مثلا إله أرسطو، «المحرك الأول الذي لا يتحرك».

(٥٥٠) وبالتالي كان من السهل عليه تعويض برود مضمون فكرة الإله الأرسطي.

ليس عاطفة على الإطلاق. وهـو لا يشترط قيام أي حكم من أجل أن يظهر، كما أنه ليس فعلا من أفعال التطلع. وليس في الحب بذاته شيء اجتماعي، فيمكن أن يتوجه إما إلى الذات ذاتها أو إلى الأغيار.

ويرى شلر أن كل نظريات القرن التـاسع عشر في الفكر الغربي المتصلة بموضوع الحب قد وقعت في خطأ فادح:

ـ فقد وحـدوا بين الحب والنـزعة الغيريـة، وهي فكـرة بغير قائم، وتـرى، أي الغيرية، أن الآخر ينبغي أن يحب باعتباره آخر (غيرا).

ـ وجعلوا من الحب حب الإنسانية، أي حبا لشيء مجرد، وهذا بدوره أمر غريب ذو بشاعة.

ـ ووحدوا بين الحب والميل إلى تحسين الآخر (الغير) أو مساعـدته، وهذا الأمر قد يصح أن يكون نتيجة للحب، ولكنه ليس ماهية الحب.

ويبين شلر بتحليلات دقيقة أن النزعة الغيرية، والأشكال المشابهة لها في العقلية الغـربية الحديثـة، إنما تعتمد على أسـاس هو «الغل» (أو الضغينـة)، وبالتـالي فإنها تعتمـد على الكراهيـة للقيم العليا، ولـلإله في نهايـة الأمر. ويـرى شلر أن الشعـور بالحسد بازاء أصحاب القيم العليا قد أولد المثل العليا الإنسانية للمساواة بين البشر، وهذه المثل عنده، هي في جوهرها نفي للحب(٥٥١).

إن الحب الحق (والكراهيـة الحقة) عند شلر هـو دائما حب لشخص، وليس حبا لقيمة من حيث هي قيمة، ويصل شلر إلى حـد القول إنه لا يمكن لامرىء أن يحب الخير ذاتـه. إن الحب يتجه إلى شخـص باعتبـاره حقيقـة واقعة، ومـن خلال قيمـة الشخص.

ويبين التحليل الـذي قام بـه شلر للحب الـذي يتجه إلى شخص، أن مجمـوع القيم التي يتحلى بها الشخص المحبـوب لا يمكن بحال أن تساوي وأن تتطـابق مع

(٥٥١) لاحظ تناسب هذه الأفكار مع مجتمع يقوم على الطبقية.

حبنا لـه[٥٥٢]. فيوجد دائما بعد كل هذه القيم «شيء أزيد» بدون أساس[٥٥٣]. هذا «الـزائد»، وهو شخص المحبوب الفعلي المتعين، هـو الموضوع الحق للحب. إن آخر كل القيم الأخـلاقية للشخص لا تعطى لنـا إلا في خلال «الانجـاز المصاحب» لفعل الحب الصادر عن الشخص نفسه.

والحب حركة فيها يصل الموجود الفـردي المتعين، وهو الإنسان حامل القيم، إلى أعلى القيم الممكنة لـه بحسب قدراته المثالية. إن المحـب يهدف إلى إعلاء المحبوب، ولكنـه يعلي المحب هـو الآخـر. إن شأن الحب الشـامل هـو كشأن النحـات الـذي يستطيع بحركة بسيطة وفعل واحد أن يدرك بـالرؤية خطوط ماهية الشخص، وذلك بعيدا عن كل معرفة تجريبية واستقـرائية، وهي التي تحجب ماهية الشخص أكثر من أن تكشف عنهـا. وهذا هـو السبب في أن التقـدم الأخـلاقي، وبصفة أعم التقـدم القيمي، يعود الفضل فيه دائما إلى أشخاص اجتماعيين نموذجيين: إلى العبقري، إلى البطل، إلى القديس.

إن قمة الحب هي حب الإلـه، وحب الإله المقصود هنـا ليس حب الإله عظيم الخير بغير حـــــدود، بل الحب المقصـــود هـو حب الإلـه بـاعتبـاره «الانجـاز المصاحب» لحب الإله للعالم (وهنا يـذكر شلر التعبير اللاتيني: Amare Mundum in Deo)[٥٥٤].

والإله عند شلر هو المركـز الأعلى للحب. وهو، أي الإله، الذي يهب الشخص ما يـؤسس معناه، أي يهبـه الحب. أخيرا، فإن نظريـة الجماعة عند شلـر تُبحث من نفس هذه الوجهة للنظر.

أما في الفلسفة التي بدأ في إظهارها في خاتمة حيـاته، فقد تراجع شلر عن جانب كبير من مذاهبه هذه التي عرضنا لها.

---

(٥٥٢) لأن الحب أوسع دائما وأرحب.

(٥٥٣) Unbegrundliches Plus. قارن «المتعالي» عند ياسبرز.

(٥٥٤) «محبة العالم في الإله»، أي من خلال محبة الإله.

وأصبحت قضيته الـرئيسية في كتـاباتـه الأخيرة أن الدرجـات العليا من الـوجود أضعف من الـدرجـات الـدنيـا. وهكذا، فـإن البدائي والأقـوى هـو تلك المراكـز «العميـاء» غير القـادرة على إدراك الأفكـار ولا إدراك الصـور والهيئـات ولا إدراك الأشكال، أي مـراكز العـالم غير العضوي، باعتبـار تلك المراكز نقـاط نشاط سفلي يقوم بالتأثير الأعمى.

وعلى هذا الأسـاس وضـع شلر الخطـوط الرئيسية لنظرية لاهـوتية تذكـرنا بنظرية الفيلسوف الإنجليـزي الكساندر في الالوهية، والتي كان قـد قدمها من قبل شلر[٥٥٥].

ولكن هـذه المرحلة الأخيرة القصيرة من فكـر شلر ستبقى مـرحلة غير مكتملـة، وسـوف يبقى شلر في نظـر التاريخ مفكـرا شخصانيـا وتأليهيا، وسيرى التـاريخ أن فضله الخالد أنه قطع الصلات مع الاتجاهات الواحدية للقرن التاسع عشر، وأعاد إلى الشخص الإنساني كل حقوقه.

كـذلك، فإن أهميـة شلـر تقـوم في أنـه أكـد على الطـابع غير الشيئي للشخص الإنساني، وبهذا فإنه يعد مرحلة انتقال نحو الفلسفة الوجودية.



(٥٥٥) انظر الفصل الحادي والعشرين، سادساً.

ملاحظات ختامية انتقادية حول فلسفة الماهية

إن الفكرة الأساسية وراء الحركة الفينومينولوجية هي إدراك طابع الكيان المعطى للماهيات النموذجية المثالية(٥٥٦).

وقد سبق أن عرضنا كيف استطاع هسرل وتلامذته، بفضل هذه الفكرة الأساسية، أن يتخطوا وأن ينبذوا المذهب التجريبي والمذهب المثالي، بل وكذلك الفكرة الأساسية عند كانت ألا وهي المذهب التصوري الذي ينكر وجود ماهيات مادية في الوجود الخارجي.

ومن جهة أخرى، فإن النظرية الفينومينولوجية قد هيأت الطريق أمام الاعتراف بموقفين فلسفيين لهما أهمية قصوى:

ـ موضوعية المعرفة (أي التمييز بين فعل المعرفة وموضوعها).

ـ الطابع الحقيقي للعقل الإنساني.

وكان كل الفكر التالي على كانت يدرك العقل على أنه أساس تكنيكي للعلوم الطبيعية. أما عند الفينومينولوجيين فإنه يكتسي طابع «القوة العاقلة» على نحو حقيقي، ويأخذ هيئة «القوة الضامة من الداخل»، التي لا تكتفي بالربط بين موضوعات الإدراك الحسي، بل تحوز ملكة إدراك الماهيات.

ثم خطا الفينومينولوجيون خطوة أخرى، حين اكتشفوا جوانب أخرى من العقل، سموها جوانب «عاطفية»(٥٥٧).

---

(٥٥٦) المقصود أنها مستقلة عن الإنسان وتفرض نفسها عليه، ووجودها موضوعي.

(٥٥٧) عند شلر.

وحين قامت الحركة الفينومينولوجية بتأسيس الفلسفة على أساس الموضوع، فإنها أصبحت قادرة على الرجوع إلى تصور عن الذهن الإنساني يمتاز بأنه أكثر حياة وأكثر واقعية عما سبق. وهكذا تجاوز الفيومينولوجيون المذهب الكانتي ومعه كل الافتراض الأساسي الذي تقوم عليه الفلسفة الأوربية الحديثة (١٦٠٠ ــ ١٩٠٠ ميلادية)(٥٥٨).

ومن هذه الزاوية تصبح الفينومينولوجيا إحدى القوى التحريرية الكبرى في الفكر الغربي في القرن العشرين الميلادي. وهي أكثر انقطاعا وانفصالا عن الفكر الأوربي السابق عليها عمقا وحسما من فلسفة الحياة، وتأثيرها على النصف الأول من القرن العشرين تأثير أعظم وأكبر من فلسفة الحياة تلك(٥٥٩). ولا شك أن طابعها المتخصص وصعوبة التعامل مع مفاهيمها لم يسمح لها بمنافسة النظم الفلسفية التي قدمها برجسون وجيمس، وحتى دلتاي نفسه، من حيث الانتشار الشعبي والتواجد عند الجمهور العام، ولكنها تتفوق على هذه النظم عند الفلاسفة المتخصصين، سواء من حيث قيمة مضمونها الخاص أو من حيث عمق الآثار التي أحدثتها.

كل هذا يكفي لتبرير المكانة العالية التي يحتلها هسرل ومدرسته. ولكن علينا ألا نتوقف عند ماذكرناه وحسب، لأن الفينومينولوجيين فتحوا الباب أمام عدد عظيم من المشكلات عظيمة الأهمية، منها ماهو قديم وقع في النسيان، ومنها ماهو جديد، وذلك حين شحذوا كل أسلحتهم المحاربة كل صور المذهب الاسمى سواء على المستوى النظري أو مستوى مشكلات القيمة.

وقد قام الفلاسفة الفينومينولوجيون بتنمية منهج، وإن لم يكن جديدا تماما حتى أنه يمكن اعتبار كل كبار الفلاسفة فينومينولوجيين من حيث المنهج، إلا أنه يصل معهم إلى درجة عالية من الدقة والنقاء، وقاموا بتطبيقه قصدا باعتباره المنهج الحاسم النهائي للفلسفة.

---

(٥٥٨) راجع الباب الأول من هذا الكتاب.

(٥٥٩) يقصد أنها أهم، على هذين المستويين، من فلسفة الحياة.

ويستحق شلر انتباها خاصا، لأنه اهتم بالتأكيد الحماسي على كينونة الشخص، وهو أحد الفلاسفة الذين يمثلون العودة إلى الإنسان على نحو قوي، وهي السمة المميزة للفكر الغربي في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي.

ومع ذلك، فإن الفينومينولوجيا تبقى، بمعنى ما، مرحلة انتقالية مابين فكر القرن التاسع عشر الميلادي في الحضارة الغربية والنصف الأول من القرن العشرين فيها. إن الذي ينقصها هو القدرة على إدراك الوجود المتعين، والعلة في ذلك أنها فلسفة ماهيات لا فلسفة وجود.

وشلر نفسه، وهو الذي سار في هذا الاتجاه بخطوات كبيرة، لم يستطع أن يقيم بناء ميتافيزيقيا بالمعنى الدقيق، فالشخص عنده يبقى مجرد مركز لأفعال قصدية، ووجوده يتقاسم مابين الوجود في ذاته والظاهرة. وفي كلمة واحدة، فإن الفينومينولوجيين لم يدفعوا ببحوثهم إلى المدى المناسب لكي يصلوا إلى المتعين، وهو الموجود الحقيقي.

أما الذي يبدو أنه تقدم على خط الموجود الفعلي والإنسان، فإنهما مدرستان أخريان: الفلسفة الوجودية والمدرسة الميتافيزيقية، وهما تعبيران مختلفان عن نفس الاتجاه. ومع ذلك، فإنهما كلتيهما، وبصفة عامة، يدركان إدراكا واعياً مدى ما أخذتاه عن الحركة الفينومينولوجية. فهي بحق منبع رئيسي من منابع الفكر الفلسفي في الحضارة الغربية في القرن العشرين الميلادي.



الباب السادس

الفلسفـــــة الوجوديـــة

الفصل السادس عشر
السمات العامة للفلسفة الوجودية

أولا : أوهام عن الفلسفة الوجودية

أصبحت الفلسفة الوجودية حديث الجمهـور وموضع الإ قبال في عدد من البلاد بعد الحرب العالمية الثانية . ورغم أن كتاب جان ـ بول سارتر «الوجود والعدم» كتاب شديـد الصعوبـة ، وتتطلب قراءتـه معرفـة متعمقة بتـاريخ الفلسفة ، وأن تحليـلاته شديـدة التخصص وشديـدة التجريد بحيـث أنه لا يقدر على متـابعتها إلا فـلاسفة خبراء وجيـدي التكـويـن ، على الـرغم من كل هـذا إلا أن الكتـاب لاقـى نجـاحـا عظيما .

ولاشك أن الفـلاسفة الـوجوديين الفـرنسيين قد صنعـوا لأنفسهم جمهورا واسعـا بفضل ما كتبوه من روايات ومسرحيات (٥٦٠) . ولكن هذه الشعبية ذاتها ولدّت ألوانا من سوء الفهم المختلفة بازاء الوجودية الفلسفية (٥٦١) ، وينبغي علينا منذ الابتداء إزالة ألوان سـوء الفهـم هذه . وهذا هو السبب في أننا نبدأ ببيـان ما ليس من الفلسفة الوجودية وما ليست هى عليه .

ومن الواضح أن الـوجودية تتنـاول مشكلات تسمى اليوم مشكلات «وجـودية» لـلإنســان ، من مثل مشكلـة معنى الحيـاة ، مشكلـة الموت ، ومشكلـة الألم ، بين مشكلات أخـرى . ولكن الوجـودية لا تقف عند حـد تناول هـذه المشكلات ، لأنها مسائل مما تتناوله كل العصور بالمعالجة .

---

(٥٦٠) يقصد سارتر ومارسل وإنتاجهما الأدبي .

(٥٦١) في مقابل «الوجودية الأدبية» أو الصحفية .

ومن الخطأ الشديد أن يسمى القديس أوغسطين أو باسكال وجوديين لمعالجتهما أمثال هذه المسائل. وسيكون خطأ كذلك القاء التسمية الوجودية على كُتّاب أوربيين من القرن العشرين الميلادي، من مثل الناقد الأسباني ميجل دي أونامونو (١٨٦١ ـ ١٩٣٧م)، والروائي الكبير فيودور دُستويفسكي (١٨٢١ ـ ١٨٨١م)، والشاعر الألماني راينر ماريا رِلْكَه (١٨٧٥ ـ ١٩٢٦م) (٥٦٢).

فهذه المجموعة من الكتاب والشعراء تناولوا في أعمالهم عددا من المشكلات الانسانية المتنوعة بطريقة شديدة التأثير، ولكن هذا لن يجعلهم مع ذلك من فلاسفة الوجود (٥٦٣).

وخطأ آخر أن يسمى الفلاسفة الذين يدرسون الوجود بمعناه الدقيق، أو يدرسون الموجود الكائن، أن يسموا بالوجوديين. ويضل بعض أتباع المذهب التوماوي (٥٦٤) ضلالا بعيدا حين يزعمون أن القديس توما الأكويني من أسلاف الوجوديين.

وسوء فهم آخر لا يقل فداحة عن سابقة هو ذلك الذي يريد أن يدخل هسرل في ضمن تيار الفلسفة الوجودية، لا لشيء إلا لأنه أثر عليها تأثيرا عظيما. فالواقع، أن هسرل يضع الوجود «بين قوسين» (٥٦٥).

أخيرا، فإنه لا يجب أن تحدد الفلسفة الوجودية بمذهب وجودي واحد، وليكن مثلا فلسفة سارتر، لأنه تقوم فروق جوهرية بين المذاهب الوجودية بعضها والبعض كما سنرى.

في مقابل ألوان سوء الفهم هذه جميعا، فإن المؤكد أن الفلسفة الوجودية تيار فلسفي لم يتشكل إلا في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي في الحضارة

---

(٥٦٢) شاعر ألماني تغنى بالعزلة والموت.
(٥٦٣) حاول بعض المؤرخين إدخال هؤلاء في طائفة الفلاسفة الوجوديين.
(٥٦٤) نسبة إلى فلسفة القديس توما الأكويني التي تسير على خط أرسطو.
(٥٦٥) انظر الفصل الرابع عشر، «رابعا».

الغـربية، وأن أصـوله لا تتعـدى كيركجارد، و أنـه نما وتطور وظهـر على هيئة عـدة مذاهب متباينة، والجزء المشترك فيما بينها هو وحده الذي يستحق أن يسمى عن حق بأنه «الفلسفة الوجودية» (٥٦٦).

ثانيا : الفلاسفة الوجوديون

نظن أنه من المناسب، في إطار هـذا العرض، أن نجمع، أولا، الفلاسفة الذين يعدون ضمـن المدرسة الـوجودية، وأن نحـاول، ثانيـا، استخلاص مـا يجمع بينهم ويكون مشتركا عندهم.

هناك فلاسفة أربعـة على الأقل، في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، يوصفون بأنهم وجوديـون من غير منازعة من أحد: جابريـل مارسل، كارل ياسبرز، مارتن هيدجر، وجان ـ بول سارتر. وهم جميعا يعلنون انتسابهم إلى كيركجارد، الذي يعد فيلسوفا وجوديا مؤثرا في القرن العشرين، رغم بعده في الزمان (٥٦٧).

وفيما عـدا هؤلاء الأربعـة البارزين، فإنـه لا يـوجد كثيرون غيرهم يمكن عـدهم «وجوديين» على المعنى الدقيق، على الرغم من أن الاتجاه الوجودي لاقى اهتماما عند عدد من الفلاسفة، وتأثر به البعض (٥٦٨). ويمكن أن نشير هنا إلى معاونة سارتر، وهى سيمـون دي بوفـوار (٥٦٩)، وعلى الأخص إلى مـوريس ميرلو ــ بونتي، وهـو واحدمـن أهم العقول في الفلسـفة الفرنسيـة في منتصـف القرن العشريـن الميـلادي (٥٧٠). ويمكـن أن نشير أيضا إلى مفكريـن روسيين، هما نقولاس برديائيف (١٨٧٤ ــ ١٩٤٨م)، وليون شستوف (١٨٦٦ ـ ١٩٤٢م)، اللـذين عرفا

---

(٥٦٦) راجع «رابعا» مما يلي.

(٥٦٧) حيث توفي عام ١٨٥٥م.

(٥٦٨) حاول تقديمه في مصر الدكتور عبدالرحمن بدوي. فـانظر كتاباته، وعلى رأسها كتاب «الزمان الوجودي».

(٥٦٩) وكانت صاحبتـه، وظلا معا وإن لم يتزوجـا، ولها مؤلفات مشهورة أهمها «الجنس الآخر»، و «من أجل نظرية في أخلاق الغموض».

(٥٧٠) وهو من أتباع الاتجاه الفينومينولوجي، ولكنه توفي مبكرا في عام ١٩٦١م.

عن طريق كتـاباتهم بالفـرنسية (٥٧١). ونذكـر كذلك المفكر البروتستـانتي المشهور كارل بارت (ولد عام ١٨٨٦م.)، والذي تأثر بكيركجارد تأثرا ملحوظا.

ومن جهة أخرى، فانه سيكون من الخطأ أن نعد لوى لافل بين الوجوديين، بينما هو في الحقيقة من فـلاسفة الوجود (٥٧٢). وهكذا فاننـا سوف نقتصر على الأربعة الكبار المذكورين أولا.

وها هى الملامح الكبرى لتاريخ تطور الفكر الوجودي. فقد مات كيركجارد عام ١٨٥٥م.، وفي عـام ١٩١٩م. يظهـر يـاسبرز مع كتـابه «سيكلـوجيـا النظـرة إلى العالم»، ثم يظهر في عـام ١٩٢٧م. كتاب مارسل: «يوميات ميتافيـزيقية» وكذلك كتاب هيدجر «الوجود والزمان». وفي عام ١٩٣٢م. يظهر كتاب ياسبرز «فلسفة»، ويظهر كتاب سـارتر «الوجود والعـدم» عام ١٩٤٣م. ونلاحظ أن الوجـودية لم تنل انتشارا في البـلاد المتكلمة بلغات نشأت عن الـلاتينية (٥٧٣)، وخاصـة في فرنسـا وإيطاليا، إلا بعـد الحرب العالمية الثانية، بينما كـانت مؤثرة تأثيرا قويـا في ألمانيا منذ حوالي ١٩٣٠م.

ثالثا: أصول الفلسفة الوجودية

أشار الكُتَّـاب من قبل إلى الأهمية الكبرى لمؤلفات سـورين كيركجارد (١٨١٣ ـ ١٨٥٥م.) بالنسبة إلى الـوجودية. ولم يحظ هذا المفكر البروتستـانتي الدانمركي، في أثناء حياته ذاتها، إلا بتأثير لا يكاد يذكر، ويعود السبب في إعادة اكتشافه في خلال القرن العشرين الميلادي إلى الصلة الوثيقة التي تربط بين فكره التراجيدي (المأساوي) والذاتي (٥٧٤) وروح الحضارة الغربية في خلال القرن العشرين الميلادي (٥٧٥). وقد

(٥٧١) للأول كتاب مترجم إلى العربية هو «العزلة والمجتمع».

(٥٧٢) الوجود هنا بالمعنى الميتافيزيقي التقليدي، أي الوجود الموضوعي. حول لافل، انظر فيما يلي، الفصل الحادي والعشرين، «خامسا».

(٥٧٣) المسماه باللغات «الرومانية».

(٥٧٤) «تراجيدي» لأن حياته كانت حياة ألم، و «ذاتي» لأنه مرتبط كل الارتباط بشخصه.

(٥٧٥) يقصد وقوع الحضارة الغربية في أزمات روحية ومادية شديدة إلى حد اليأس.

قدم جابريل مارسل أفكارا قريبة من أفكار كيركجارد، في وقت لم يكن قد عرف فيه بعدُ كتب المفكر الدانمركي.

ولم يقدم كيركجارد نظاما فلسفيا بالمعنى المعروف، إنما هو يهاجم أعنف هجوم فلسفة هيجل، وذلك بسبب طابعها «العمومي»، وبسبب اتجاهها الموضوعي، وهو ينكر إمكان التوفيق والمصالحة، أي إمكان هدم المعارضة بين القضية ونقيضها في تركيب جديد عقلاني ومنظم [٥٧٦]. ويؤكد كيركجارد أولوية الوجود على الماهية، وربما كان هو أول من أعطى كلمة «وجود» معناها «الوجودي».

وكيركجارد معارض للعقل إلى أقصى درجة، فهو يرى أنه لا يمكن أن نصل إلى الإله بوسيلة طرائق الفكر، لأن العقيدة المسيحية مليئة بالتناقضات [٥٧٧]، ويعتبر أن كل محاولة من أجل إضفاء طابع عقلي عليها هي تجديف وكفر.

وقد جمع كيركجارد إلى نظريته عن القلق، نظرية في وحدة الإنسان الفرد وعزلته عزلة كاملة في مواجهة الاله، ونظرية في المصير التراجيدي (المأساوي) للإنسان. وقد رأى أن اللحظة هي تركيب يجمع بين الزمان والخلود.

إلى جانب تأثير كيركجارد، كان لفينومينولوجيا هسرل تأثير عظيم على الفلسفة الوجودية. ويستعمل كل من هيدجر ومارسل وسارتر، بصفة عامة، المنهج الفينومينولوجي، على الرغم من أنهم لم يقبلوا قضايا هسرل الأساسية، ولا حتى موقفه المبدئي [٥٧٨].

كذلك، فان الوجودية تأثرت تأثرا ظاهرا بفلسفة الحياة، وهي تدفع بهذا الاتجاه إلى أبعد مما وصل إليه، بتطوير مذهبه في الفعل والنشاط [٥٧٩]، وتحليلاته حول الزمان، ونقده للمذهب العقلي، ونقده كذلك، في كثير من الأحيان، للعلوم

---

(٥٧٦) على نحو ما كان يفعل هيجل.

(٥٧٧) إشارة إلى «أسرار» العقيدة المسيحية، وفي مقدمتها التجسد.

(٥٧٨) وهو الخاص بوجود الماهيات موضوعيا.

(٥٧٩) راجع فيما سبق، مقدمة الباب الرابع.

الطبيعيـة. ويمكن اعتبـار بـرجسـون ودلتـاى، وعلى الأخص نيتشـه، أسـلافـا للوجودية.

أخيرا فان الفلسفة الميتـافيزيقية الجديدة كان لها دور هام جـدا في تكون الفلسفة الـوجوديـة. ذلك أن كل الـوجوديين يعـالجون مشكلات ميتـافيـزيقية بـالأصالـة، موضـوعها الـوجود، وبعضهم، مثل هيـدجر، يتميز بمعـرفته المتعمقـة للمذاهب الميتافيزيقية عند اليونان وفي القرون الوسطى المسيحية.

وحين يحاول الوجـوديون أن يصلوا إلى الـوجود في ذاته، فـانهم يجتهدون في نفس الوقت أن يتغلبـوا على النزعة المثـالية وأن يتعدوهـا. ومع ذلك، فان بعضهم، وعلى الأخص ياسبرز، لايزالون يخضعون خضوعا قويا لتأثير النزعة المثالية.

وهكذا، فإن الوجودية تظهر من معطف الاتجاهين الكبيرين (٥٨٠) اللذين قاما بقطع الصلات مع الفكـر السائد في القرن التـاسع عشر الميلادي (٥٨١)، كما أنها متأثـرة في نفس الـوقت بحـركـة أخـرى مميَّزة للفلسفـة الغـربيـة في القـرن العشرين الميلادي، ألا وهى الفلسفة الميتافيزيقية.

رابعا : الخصائص المشتركة بين الفلاسفة الوجوديين

أ ـ السمـة المشتركة الرئيسية بين مختلف الفلسفـات الوجوديـة في القرن العشرين الميـلادي تقـوم في أنها جميعـا تنبع ابتـداء من «تجربة» حيـة معـاشـة، تسمى تجربـة «وجودية»، ومن الصعب تعريفها تعريفا دقيقا، وهذه التجربة الوجودية تختلف بين فيلسوف وآخر من هؤلاء الوجوديين.

وهكذا، فان تلك التجربة تأخذ في حـالة ياسبرز شكل إدراك هشاشة الوجود، وفي حالـة هيدجر شكل تجربة «السير بـاتجاه الموت»، وفي حالة سارتـر شكل تجربة الغثيان. ولا يخفي الـوجوديـون أبدا أن فلسفتهم نشأت من تجربـة من هذا القبيل.

---

(٥٨٠) وهما الفلسفة الفينو مينولوجية وفلسفة الحياة.

(٥٨١) راجع الباب الأول.

ومن هنا فان الفلسفة الوجودية، بصفة عامة، بما في ذلك عند هيدجر، تحمل طابعا شخصيا بسبب هذه التجربة المعاشة.

ب ـ الموضوع الرئيسي للبحث الفلسفي عند الوجوديين هو ما يسمى «الوجود». ومن الصعب تعريف المعنى الذي يأخذ عليه الوجوديون تلك الكلمة، ولكنها تدل، على كل حال، على الطريقة الخاصة بالإنسان في الوجود. ويرى الوجوديون أن الإنسان وحده هو الذي يحوز الوجود، وهم نادرا ما يستخدمون كلمة «إنسان»، وإنما يدلون عليه بتعبيرات من مثل: Dasein (الموجود ـ هناك). و «الوجود». و«الأنا»، و «الوجود لأجل ذاته» (٥٨٢). ولنصحح قولنا أن الإنسان «يحوز»، أو يملك، وجوده، فالإنسان لا يملك وجوده، إنما الأحرى أنه هو هو (٥٨٣) وجوده.

جـ ـ يتصور الوجوديون الوجود على نحو فاعلي نشط (٥٨٤)، فلا «يكون» (٥٨٥) الوجود، وإنما هو يخلق نفسه بنفسه في الحرية، بعبارة أخرى: هو «يصير». إن الوجود دائما غير مكتمل، وكأنه يبتدأ، إنه شروع واستقبال. ويؤكد الوجوديون على نحو أقوى هذا الموقف حين يقولون بأن الوجود يتماشى تماما ويتطابق مع الزمانية.

د ـ الفرق بين هذا الاتجاه الفاعلي عند الوجوديين والاتجاه الفاعلي عند فلسفة الحياة يقوم في أن الوجوديين يعتبرون أن الإنسان ذاتية خالصة، وليس مظهرا أو تجسيدا لتيار حيوي أشمل منه (أي التيار الحيوي الكوني)، كما كان الحال عند برجسون على سبيل المثال. ويضاف إلى هذا أن الوجوديين يفهمون «الذاتية» بمعناها الخلاق: فالإنسان يخلق نفسه بنفسه، إنه هو هو حريته هو.

---

(٥٨٢) على التوالي عند هيدجر وياسبرز ومارسل وسارتر.
(٥٨٣) هنا يستخدم فعل الكينونة في اللغات الأوربية.
(٥٨٤) راجع فيما سبق هامش (٣٧١)، والمتن المقابل له.
(٥٨٥) لأن فعل الكينونة يدل على السكون.

هـ ـ لكنه سيكون من الخطأ، مع ذلك، أن نستنتج أن الإنسان عند الوجوديين منغلق على نفسه. على العكس تماما، فان الإنسان، وهو الحقيقة الناقصة والمفتوحة، هو، من حيث جوهره ذاته، مربوط أوثق ارتباط إلى العالم، وعلى الأخص إلى البشر الآخرين.

ويقول كل المفكرين الوجوديين بهذه التبعية المزدوجة [٥٨٦]، وذلك على النحو التالي: فمن جهة، يبدو لهم الوجود الإنساني مضموما في العالم، قائما في داخله إلى درجة أن الإنسان يكون دائما في موقف محدد، بل إنه هو هو موقفه، ومن جهة أخرى فانهم يرون أن هناك رباطا وصلة بين البشر، وهذا الرباط يكوّن الطبيعة الخاصة للوجود الإنساني، شأنه شأن الموقف. وهذا هو معنى مفهوم «الوجود معا Mitsein» عند هيدجر و «التواصل» عند ياسبرز و «الأنت» عند مارسل.

و ـ يرفض كل الوجوديين التمييز بين الذات والموضوع، ويقللون من قيمة المعرفة العقلية في ميدان الفلسفة. فهم يرون أن المعرفة الحقة لا تكتسب بوسيلة العقل، بل ينبغي بالأحرى التعامل مع الواقع. هذا التعامل أو الخبرة يتم على الخصوص بالقلق، أو في تجربة القلق، وفيه يدرك الإنسان أنه موجود محدود قاصر، ويدرك هشاشة وضعه في العالم، هذا العالم الذي يلقى إليه الإنسان إلقاءً، ويدرك أخيرا أنه سائر إلى الموت (عند هيدجر).

ومع ذلك، وبالرغم من هذه السمات المشتركة بين الفلسفات الوجودية، والتي يمكن إضافة سمات أخرى مشتركة إليها، فإنه توجد اختلافات عميقة بين ممثلي الوجودية، إذا أخذ كل منهم بمفرده.

وهكذا، مثلا، نجد أن مارسل، مثل كيركجارد، يعلن إيمانه بالألوهية، بينما يقول ياسبرز بوجود التعالي أو المتعالي، ولكن لا يمكن أن نقول إن كان هذا التعالي يعادل القول بوجود الألوهية أم بوحدة الوجود والألوهية أم بإنكار الألوهية، وهذه المواقف الثلاثة يرفضها ياسبرز كلها على السواء. أما فلسفة هيدجر فإنها تبدو

---

(٥٨٦) أي تبعية للعالم وتبعية للبشر.

فلسفة منكرة للألوهية، ومع ذلك فان هيدجر صرح بأنه لا ينبغي اعتبارها كذلك، وإن كان هـذا التصريح لا يعني الشيء الكثير. أمـا سارتـر أخيرا، فإنه يحاول إقـامة مذهب منكر للألوهية صريح ومتسق الأركان.

كذلك يتنوع الهدف والمنهج عنـد الفلاسفة الوجوديين. فنجد أن هيـدجر يدعى أنه يقدم نظرية في الوجود (أنطـولوجيا) بالمعنى الأرسطي للاصطلاح (٥٨٧)، وهـو يطبق منهجا دقيقا صـارما، وهو ما يفعله سـارتر أيضا على إثر هيدجـر. أما ياسبرز فـانه يـرفض كل أنطـولـوجيا في مجال التعـريف بـالـوجود، مفهـومـا على الطريقـة الوجودية، ولكنه من جانبه يمارس نوعا من التأمل الميتافيزيقي، وهو يستخدم منهجا متحررا إلى حد ما، غير مقيد بخطوات محددة.

---

(٥٨٧) أي الوجود الموضوعي.

الفصل السابع عشر
مارتـــــن هيدجــــر

أولا : مصادره وخصائصه

دخل مارتن هيدجر (ولد عـام ١٨٨٩م.)، لبعض الوقت، مدارس اليسوعيين (الجزويت)، ثم درس بعـد ذلك في جامعـة فـرايبورج الألمانيـة، ونـال منها شهـادة الدكتـوراه على يد ريكـرت، ثم اتصل بهسرل، ونـال معه شهادة اعتماد التـدريس، برسالـة عن نظرية المقولات عند دنـزسكوت، وذلك في عام ١٩١٦م، وأصبح محررا مشاركا لمجلة «حوليات الفلسفة والبحث الفينومينولوجي». وقد عين أستاذا بجامعة مـاربـورج عـام ١٩٢٣م، وفي عـام ١٩٢٧م، نشر بها كتابـه الـرئيسي: «الـوجـود والزمـان». وبعد ذلك بسنـة، في عام ١٩٢٨م، عـاد إلى جامعـة فرايبـورج بجنوب ألمانيا أستاذا بها خلفا لهسرل، واستمر فيها أستاذا حتى ١٩٤٦م. (٥٨٨)

إن هيدجـر مفكر شـديد الأصالـة، ولهذا فإن السؤال بشأن تأثير الآخـرين عليه يصبح بغير أهمية كبيرة. وعلى كل حال، فإننا ينبغي أن نشير، من بين من أثروا عليه إلى جانب هسرل، إلى دلتاى، الذي تأثر به من جوانب متعددة. كذلك، فإن محاور فكره مستـوحاة بشكل واضح من كيركجارد. وهـو يضيف إلى ذلك كله معرفة قـوية بكبار فـلاسفة الغـرب من اليونان فطـالعا، ومنهم أرسطـو الذي كثيرا مـا يشير إليه ويفسره على نحـو شخصي جـدا. وقد كـرس هيـدجـر دراسة عن كـانت أحـدثت ضجيجا حين نشرت، وهى كتاب «كانت ومشكلة الميتافيزيقا» (١٩٢٩م).

---

(٥٨٨) توفي هيدجر عام ١٩٧٦م. وقد ترجم عدد من كتبه إلى العربية.

قليل من الفلاسفة هم أصعب على الفهم من هيدجر. وصعوبة فهمه لا تأتي من قصور في اللغـة أو من افتقار الى التركيب المنطقي للأفكـار، فهيدجر يسير في عـرضه دائما على نحـو منتظم شـديـد الانتظـام، إنما يـأتي غمـوضـه من المصطلحـات غير المألوفة، بل والغريبة، التي اخترعها هيدجر اختراعا لكي يعبر بها عن مفاهيمه. وقد أصبحت هذه المصطلحات مصدرا لألوان متعددة من سوء الفهم، وعلة للتندر على فلسفة هيدجر، وخاصة عند الوضعيين المنطقيين.

ثانيا: المشكلة والمنهج

إن هدف كتـاب هيدجـر الرئيسي، «الوجـود والزمان»، هـو أن يعالج بطـريقة متعينة مسـألة «معنى الـوجود». ولم يكن هذا السـؤال قد سقط في النسيـان، ولكن هيدجـر يرى أنـه بسبب الإجابة، المزعـومة واضحـة وشاملة، التـي سبق أن قدمت بشأنه، فإن ذلك السؤال لم يوضع مطلقا على النحو الواجب أن يوضع عليه.

يرى هيدجر أن لدينا فهما عاما مشتركا، ولكنه غامض، عن الوجود، ورغم هذا يبقى مفهوم «الـوجود» أغمض المفهـومات على الإطـلاق. والواقع أن الـوجود ليس شبيها بالمتـواجد، إنما هو الذي يحدد المتـواجد من حيث هو متـواجد. وإذا أردنا أن نتعمق في دراسة سـؤال معنى الوجود، فـان علينا، في رأى هيـدجر، أن نبحث عن متواجد يكون ممكنا لنا أن نصل إليه على النحو الذي هو عليه في ذاته. ومن الواضح أن هذا السـؤال ذاته مظهر ووجـه من أوجه وجود متـواجد معين، ألا وهو المتـواجد الذي هو نحن أنفسنا. ويسمى هيدجر هذا المتواجد الإنساني باسم Dasein، أي «الموجود ـ هناك».

وهكذا يكون تحليل ذلك المتواجد الذي هـو «الموجود ـ هناك» نقطة البدء المعلنة للبحث الفلسفي عند هيدجر.

إن خاصة «الموجـود ـ هناك» (أي الإنسان) تقوم في أنه يتصل بحثـه عن الوجود بوجـوده هو ذاتـه. إن فهم الوجـود يعني بذاته تحديـدا لوجـود «الموجود ـ هناك». ولهذا، فـان «الموجود ـ هناك» كـائن «أنطولـوجي»، بينما وجود سـائر المتواجـدات

الأخرى هو وجود «تواجد» وحسب. أما الوجود ذاته الذي يتصرف «الموجود ـ هناك» (أي الإنسان) بازائه على هذه الطريقة أو تلك، فان هيدجر يسميه «الكينونة».

ويذهب هيدجر إلى أنه لا يمكن تعريف ماهية «الموجود ـ هناك» بأن نذكر ما يحتويه ذلك الموجود. إن ماهية «الموجود ـ هناك» تقوم في كينونته المتعينة، والذي يفسر تلك الماهية هو دائما هذه الكينونة.

وهكذا، فان واقعة الكينونة هى وحدها التي ينبغي أن تجعلنا نفهم السؤال الخاص بالكينونة. هذا الفهم يسميه هيدجر فهما «وجوديا». وعلى الضد من ذلك، فانه يسمى مجموع بنية الموجودات بـ«الموجودية»، ويسمى تحليل هذا النحو من الوجود بـ «الفهم الموجودي». إن ذلك الفهم الوجودي هو تفسير للخصائص الأنطولوجية «للموجود ـ هناك»، وهذه الخصائص يسميها هيدجر خصائص «وجودية» (وذلك في مقابل الخصائص الأنطولوجية للمتواجدات الجامدة الخام، أي «المتواجدات التي ليست على هيئة الموجود ـ هناك الإنساني»، والمقولات).

إن التحليل الوجودي هو أنطولوجيا أساسية، وهو يشكل أساس كل أنطولوجي وأساس كل العلوم. والمنهج الوحيد المناسب له هو المنهج الفينومينولوجيا، أو منهج الظاهرات. ولكن «الظاهرة» المقصودة هنا هى «ما يظهر نفسه بذاته»، وهكذا فان الظواهر ليست «مظاهر» (أو أوهاما) بالمعنى المبتذل للكلمة. ويرى هيدجر أن النهاية «لوجيا» في تعبير «فينومينولوجيا» تأتي من الفعل اليوناني Legein، والذي يعني، في فهم هيدجر «استخلاص المتواجد من العتمة». إن هناك كثيرا من الظواهر التي إما لم تكتشف بعد، أو أنها مُخْفيَّة لاتزال.

وهكذا، فان الفينومينولوجيا تقوم، عند هيدجر، بدور علم «التأويل» (و هو ما استمده هيدجر من فلسفة دلتاى). وهى تدرس الكينونة من أجل تفسير تركيبها وتكوينها.

وعلى هذا، تصبح الفلسفة نظرية أنطولوجية فينومينولوجية عامة، تنتج عن تأويل «الموجود هناك». وهى، باعتبارها تحليلا للكينونة، تقوم بتثبيت منتهى الخط

المتصل بين سائر المسائل الفلسفية إلى الموضع الذي تنبع منه واليه تنتهي .

ولكن هيدجر لم يتعد، في عرض فلسفته، مستوى تحليل «الموجود ــ هناك»، الذي كان من المفترض أن يؤسس نظرية أنطولوجية عامة، تقوم على دعائم هذا التحليل. (٥٨٩)

ثالثا : الوجود ـ في ـ العالم

يتميز «الموجود ــ هناك» بأنه كائن، وبأنه دائما «لي»، أي أنه لا يمكن أن يكون نسخةً من نوعٍ متشابهةٌ نسخهُ، ويتميز أخيرا بأنه يتصرف إزاء وجوده هو نفسه على أنحاء مختلفة متنوعة. وأساس هذا النحو من الوجود هو «الوجود ـ في ـ العالم». هذا «الوجود ــ في»ليس نوعا من علاقة وجود بين موجودين قائمين في المكان، ولا هو ايضا علاقة بين ذات وموضوع، إنما هو بالأحرى يتميز بذلك النحو من الوجود الذي هو «الهم»، وذلك حينما يكون الأمر متصلا بعلاقته بالمتواجدات الجامدة الخام، ويتميز أيضا بذلك النحو الآخر من الوجود الذي هو «الاهتمام»، حينما يدخل في علاقة مع الموجودات الأخرى.

إن العالم يتكون، ليس من أشياء، بل من «أدوات»، ومن جوهر الأداة أنها «شيء ما من أجل. . .». ويسمى هيدجر نحو وجود الأداة باسم «وجود ـ ما ـ في متناول ــ اليد». والأداة (ويسميها هيدجر Zuhande، حرفيا : «ما في متناول اليد»، أو «ما تحت اليد») تدخل باستمرار في علاقة مع أدوات أخرى. فكل أداة تُرجع إلى أداة أخرى غيرها، كما تُرجع أيضا إلى ذلك الذي يتعامل معها ويستخدمها. إن طابع وجود الأداة هو وضعها (Bewandtnis)، وهذا الوضع يتعلق في نهاية الامر بوجود «ما ـ هو ـ لاجله» (Wozu)، الذي يعنى «إرادة ـ من ـ

(٥٨٩) يحتوي كتاب «خطاب حول المذهب الإنساني»، وغيره من كتابات هيدجر اللاحقة على «الوجود والزمان» على آراء ومواقف تدل على تحول في اتجاه فكره. ولكن حيث أن هذا التوجه الجديد مشار إليه وحسب في تلك الكتابات الجديدة، وليس مفصلا، فاننا لن نشير إليه هنا (هامش من المؤلف).

أجل» (Worum-Willen) ، أي يتعلق بعبارة أخرى «بالموجـود ـ هناك» الإنساني. وهكذا، فان «الموجود ـ هناك» هو شرط إمكان كشف الأداة.

كل أداة لها مكان، أي أنها تُحفظ وتُرتب، ومـا إلى ذلك. والمكان الممكن لأداةٍ ما هـــو «الجوار» (Gegend) ، ويوجـد لدى «الموجـود ـ هنـاك» ميل جوهـري نحو المجاورة، أي أن يكون على مسافة (وهو مـا يعنى هنا القرب) من الأداة إن المسافات الموضوعيـة لا تتطابق مع ابتعاد الأداة أو اقترابها، إنما هو «الاهتمام» الـذي يحدد صفة القرب أو البعد. وينتج عن هـذا أن العالم هو محدد أنطولوجي «للموجـود ـ هناك»: فلا يوجد نحو «الموجود ـ هناك» إلا في العالم.

ويرى هيدجر أن سائر النظريات الانطـولوجية السابقة قد وقعت في خطأ اعتبار الأداة مجرد شيء حاضر، بينما حقيقتها أنها «شيء ـ في ـ متنـاول ـ اليد»، ويظهر هذا الخطأ بوضوح عند ديكارت على الأخص (وذلك في نظريته عن «الامتداد») إن الواقع أن «الوجود ـ الذي ـ في متناول ـ اليد» لا يُؤَسَّس مطلقا على مجرد الحضور، وبالعكس فإن «الحاضر» هو دوما «حاضر وحسب». وبالتـالي فإن الحضور هو نحو ناقص من وجود الأداة، أي من وجود «ما ـ هو ـ في ـ متناول ـ اليد».

ويجد «الموجود ـ هناك» أمامه، إلى جوار أدوات العمل، يجد «موجودات ـ هناك» آخرين: إن عالم «الموجـود ـ هناك» هو «عالم المعية». إن «وجـوده ـ في» هو «وجود ـ مع». وفوق هذا، فان «الموجود هناك» هو في جوهره «وجود ـ بالاشتراك». وإذا كان أسلوب سلـوك «الموجود ــ هناك»، بازاء الأدوات، هـو أسلوب «الانشغـال»، فان اسلوبه بازاء «الموجودات ـ هنـاك» الآخرين هو أسلوب «الاهتمام»، وهذا الاهتمام قد يظهر إمـا على صورة التكليف بتـوفير ما ينبغي تقـديمه إلى الآخـرين، أو على صورة مساعدتهم على أن يكونوا أحرارا في «همهم». إن «التعاطف» ليس ممكنا إلا في ميدان «الوجود ـ بالاشتراك».

رابعا : « الهَذِيَّة » (٥٩٠) والقلق :

إن «الموجود ـ هناك» ليس داخل العالم فقط، إنما هو يتكون جوهريا من «الوجود ـ في ـ العالم »، وهـذا هو الجانب الذي تشير إليـه كلمة «هنـاك» في تعبير «الموجود ـ هناك» وفي هـذا تقوم هذيـة «الموجود ـ هنـاك» . إن الموجود ـ هنـاك «هو ذلك» الهذا (Da) الذي يستضيء بذاته من داخله وفي هذا يقوم معنى «الانكشاف» وهذا المفهوم لا يتطـابق تماما مـع «المعرفـة»، ولكنـه يشير إلى حالـة «مـوجوديـة» (Existential) تتأسس عليها المعرفة وتقوم عليها.

هذا النحـو من الوجود يتألف من ثلاثـة عناصر: الشعور بالتـواجد في الموقف، التفسير، النطق:

١ ـ الشعور بالتواجد في الموقف(Befindlichkeit) وهو اصطلاح يعني حرفيا الشعور المداهم بأن المرء «يجد نفسه هنـاك»، أي في هذا الموقف المعين، وهو شعور، أو حالة للنفس، عن طـريقه يكشف «الموجود هناك» لنفسه أنه كـائن، وعن طريقه تظهـر للعيان ظـاهـرة «التعينيـة»، أي واقعة وجـود «الموجـود ـــ هناك» (على نحـو متعين). ويسمى هيدجر «واقعة الـوجود» هذه «الالقاء» (Geworfenheit)، أي خاصة «الموجود ـــ هناك» من حيث أنه قد ألقى به رميا ونبـذا في كينونة «الهَذِيَّة»، في داخل العـالم، لكي يـوجـد. وينبغـي أن نـلاحظ أن «التعينيـة» ليست مجرد وجـود يُعطى، بل هى خاصية لوجود «الموجود ـ هناك» .

٢ ـ التفسير (أو الفهم Verstehen) : ويفهم هذا الاصطلاح بالمعنى الذي يدل عليه القول : «إمكان الوجود أمام شيء ما»، ففي التفسير يقوم نحو وجود «الموجود ـ هناك» من حيث هـو «إمكان ـ وجود». إن «الموجود ـــ هناك» ليس، على أي نحو ولا في أي موضع، شيئـا معطى تتحدد معطيـاته مرة واحـدة وإلى الابد، إنما هـو ما

---

(٥٩٠) من «هذا»، الدالة على وجود الإنسـان «هناك». وهى تقابل ecce اللاتينية. وقد عرف دنز سكوت هذا المفهوم، وهو يحدده على النحو التالي: «هو مـا يجعل فردا (أو موجودا جزئيا) هو ما هو، ويميزه عن كل آخر».

يمكن أن يكـون : إنه إمكـان منطلق إلى الأمـام (مشروع) . إن «التفسير» نحوُ وجـودٍ حائز على بنيةٍ يسميها هيدجـر باسم «خطة ـ مشروع») (Entwurf : إننا نـدرك «خطة ـ المشروع» بوسيلة الطرق التي يخلقها في فضاءإمكانات التصرف الموضوعة أمام «إمكان الوجود» الذي يحوزه «الموجود ـ هناك» . إن التفسير هو نحو وجودٍ فيه يصبح «الموجود ـ هناك» ما كان في إمكانه أن يصير إليه . ويسمى هيدجر إدراك «الموجود ـ هناك» ، من حيث هو مفسر، باسم «الايضاح» ، ولكن ذلك الايضاح ليس بالضرورة «تعبيرا» .

٣ــ النطق (Rede) : وهو أساس اللغة ، ولكنـه ليس اللغة ذاتها . ويقصد به هيدجـر الصياغة ذات المغزى التي تحدد قـابلية الوجود في العـالم لأن يفهم على نحو عقلاني . لقد قال اليونان إن الإنسان حيـوان ذو لسان وقول ، أي إنه موجود يتكلم . ويـوسع هيـدجـر من نطــاق فهم «النطق» ، ليجعلـه قـادرا على الاشتمال على فعل الإنصات وفعل الصمت .

ويمكن للمـرء أن يحيط بمجمل بنيـة «الهذيـة» بالاعتماد على ظـاهـرة «القلق» . ويختلف القلق عن الخوف في أن التهديد ، في حالة القلق ، لا يكون محددا معينا ، إنما منبع القلق هو العالم من حيث هو كذلك . أما موضـوع قلقنا ، فانه إمكاننا أن نكون موجـودين ـ في ـ العـالم . وهكذا ، فإن القلق يظهـر «الموجود ـ هنـاك» من حيث هو وجود ـ في ــ العالم وموجود فيـه وجودا واقعيا . ولكن هذا الـوجود هو دائما أعلى من ذاته وفي المقدمة أمامها . وعلى هذا ، فان بنية «الموجود ـ هناك» هى إذن بنية الموجود ـ المتقدم ـ على ـ ذاته ـ الملقى ـ به ـ بالفعل ـ في العالم ، وذلك من حيث هو وجود قائم أمام الموجودات الأخـرى التي يقابلها ، وما هـذا كله شيء غير «الهَمّ» . وهكذا ، فإن كل ما يفعله «الموجود ـ هناك» ويشتهيه ويعرفه ، وسائر ما يشغله من انشغال واهتمام ونظريا ت وسلوك وإرادة وشهوة واندفاع وميول ، كل هذا ما هو إلا مظاهر للهم . إن الهم هو وجود «الموجود ـ هناك» .

خامسا : عالم «الناس» (٥٩١) والوجود ـ باتجاه ـ الموت

إن التحليل السابق غير مكتمل، لأن «الموجـود ـ هناك» ، وطالما هـو كائن، لا يبلغ مطلقا تمام اكتمالِ كلِّـه، ففي ماهيتـه نقص دائم. الموت وحده هو الـذي يقدم نهاية «الموجود ـ هناك». وحين يأتي الموت، فإننا لا نستطيع الإحاطة «بالموجود هناك» من حيث هو «متواجد»، ولا سبيل لنا إلى تكوين خبرة حقيقية عن موت الآخر. ومع ذلك، فان «الموجود ـ هناك» لا يكتمل بالموت، كما أنه لا يختفي على نحو بسيط : إن النهاية التي يعنيها الموت تعنى «الوجود ـ الواصل ـ إلى ـ نهايته» «للموجود ـ هناك». إن الموت هو إمكان من إمكانات الـوجود، هو الإمكان الشخصي إلى أقصى درجة، والذي ينهى كل عـلاقة إلى أقصى درجة، والذي لا يمكن تخطيـه على الإطلاق. إن محض وجود «الموجود ـ هناك» هو الوجود ـ باتجاه ـ الموت.

هذا هـو على التحديـد منبع قلق «الموجود ـ هنـاك». وهو يهرب منـه بالانغمار في العالم. وخشيـةً منه أن يكون ذاته، وخـوفا من لقاء القلق، فـانه يبحث عن ملجأ في كيـان «الناس». إن كيـان «النـاس» من نوع وجـود «المتـواجـدات»، وهو نحـوٌ من الوجـود، هو الوجود الـزائف «للموجود ـــ هناك». وفي هذا الوجـود يُخضع «الموجود ـــ هناك» نفسـه لعنصر محايـد يستعبدهـا، ويفـرض عليها وجهـة نظـره وطريقتـه في التصرف. إن كيان «الناس» هذا ليس شخصـا محددا، ولا هو «ذات جمعية». وتقوم خصـائصه المميزة في عبادة تفاهة المتوسطين، وفي ميله نحو التدني. إنه يعفى «الموجود ـــ هناك» من واجـب اتخاذ القرارات ومن كل مسئـوليـة تخصـه جميعا : لأن «النـاس» تتصرف وتتكلـم على هـذا النحـو أو ذاك. إن نحـو وجود «النـاس» يغـري ويهدىء، ويستلب «الموجود ـ هناك» ذاته. وهو يظهر ويبين في الثرثرة اليومية، التي تصبح فيها عبارة «يقـول الناس» هى فيصل الحق في الكـلام، وفي حب الاستطلاع المتقلب، وفي اللهو والالتهـاء، وفي الاهتياج المستمـر، كما يظهر أخيرا في الالتبـاس وعدم القطع،

---

(٥٩١) هذا الاصطلاح نقترحه ليقابل man بالألمانية و on بالفرنسية، وهو ما يدل على الكيان الجمعي الذي يظهر في الفاعل المجّهل وغير المحدد، والذي يعبر عنه تعبير «يقول الناس».

حيث لا يستطيع المرء أن يميز ما يعرفه مما يجهلـه . هذه العوامل تميز خصائص وجود «الحياة اليومية»، الكينونة اليوميـة، والتي تُوسم بوَسْم «السقوط»، سقوط «الموجود ـ هناك». إن «الموجود ـ هناك» يقع في السقوط ، ويغرق في هاوية العالم .

إن قلق الموت هـو الـذي يُسقط «الموجـود ـ هنـاك» في ذلك النحـو الـزائف من الوجود، نحو الوجود اليومي ، الذي هو في الواقع وجود اللا ـ حقيقة . ذلك أن كيان «الناس» لا يسمح بالتفكير في موته هو نفسه (٥٩٢) . وإنما هو يتكلم عن الأمر على صورة غير شخصية ، على هيئة : «يموت المرء» .

سادسا : الوعي والقرار

إن الانسحاب من وجود «الناس» هو اختيار وقرار يتخذه «الموجود ـ هناك»، من أجل أن يستطيع أن يكـون وجـوده، وجـود الذات (الانـا)، على وجـه حقيقي وإلى أقصى درجة . إن الشاهد على «استطاعة ـ الوجود» هذه هو الوعي .

الوعي عند هيدجر هو نحو من أنحاء «النطق» (٥٩٣)، هو نداء يجعل «الموجود ـ هناك» يتوقف عن الإنصات إلى كيان «الناس» وإلى ثرثرته . ولا يمكن تفسير الوعي عن طريق وظيفة بيولوجية ما يـؤديها، ولا بأن نرى فيه صوت قوة أجنبية عن الإنسان (الإله) : ذلك أن «المنـادي» هو الهم، هو «الموجـود ـ هناك» الـذي يتملكه القلق، وقد ألقي بـه في العالم القـاء، من جراء مـا يمكن أن يصير عليه . إن نـداء الوعي لا يقول شيئا مما يمكن وضعه في كلمات، إنما هو يُظهر الخطيئة في هيئة الصمت القلق . ولسنا هنا بازاء حالة الذنب بـالمعنى السوقي، وإنما بازاء الحالة التي تؤسسها : ذلك أن الخطيئة هى أساس العدمية وعلى هذا، فان حـالة الشعور بالذنب ليست النتيجة المباشرة للخطيئـة، بل العكس هو الصحيح، لأن العدم ينتمي إلى المعنى الـوجودي للالقـاء والنبذ، كما أن المشروع لا يتحـدد فقط بسلبية الاسـاس، إنما هو في مـاهيته

(٥٩٢) الشخص العادي، في حياته اليوميـة التي يقع خلالها تحت تأثير وجود «الناس»، لا يفكر في موته، إنما الموت عنده هو موت الآخرين، لـذلك يهرب الإنسان، «الموجود ـ هناك»، إلى هذا النحو من الوجود، لكي لا يفكر في موته هو، وليبعد عنه قلقه .

(٥٩٣) راجع «رابعا»، مما سبق في هذا الفصل .

سلبي. وعلى هـذا فان حالـة الشعور بـالذنب خـاصة جـوهريـة لوجـود «الموجود ـ هناك»، وهى تعنى: الأساس السلبي للسالبية التي يختص بها «الموجود ـ هناك».

أما الاختيار الذي ينتج عن «إرادة ـ الشعور ـ بالوعي»، فانه يتمثل في توجه نحو القلق، القلق الـذي يتم في الصمت. إن القاء الـذات إلى الأمام، والـذي يحدث في الصمت والقلق، بازاء ذلك الشعور الجوهري بالذنب، هذا الإلقاء إلى الأمام يسميه هيدجر «التصميم». هـذا «التصميم» هو إخلاص الوجود لذاتـه، إنه الحرية باتجاه الموت. إن «التصميم» يخلص «الموجود ـ هناك» من كيان «الناس»، ولكنه لا يخلصه من العالم. على العكس، إن التصميم يهب الآخرين الذين يـوجدون معنا إمكان أن يكونـوا على نحو وجودهم الأكثـر حقيقة. إن الـوجود صاحب التصميم هـو وحده الذي يكشف «الموقف»، أي الـ «هناك»، أي «الهذية»، الذي ينفتح أمـام الوجود في كل مـرة يتم فيهـا التصميم. وبفضل التصميـم، يقبل الإنسـان في شجـاعـةٍ مصيره، ويقوم بدوره في العالم في عزيمة.

سابعا: الزمانية والتاريخ

إذا اعتمدنـا على مفهوم «الوجود الـذي تقرر التصميم عليه»، فانـه يصبح ممكنا حل مشكلـة وَحْدَة «الموجـود ــ هناك». هـذه الـوَحـدة لا تؤسس على «الانـا». في الواقع، فإن كيان «الناس» هـو الذي يقول بأقصى قوة وأكثر ما يكـون: أنا أنا، وما ذلك إلا لأنه في حقيقته ليـس الأنا الحقيقي. ولكن فلسفة القدمـاء وفلسفة كانت لم تستطيعا تعـدي مستوى نظر كيـان «الناس» هـذا. وإذا حللنا مفهوم «الأنـا»، فان ذلك التحليل سـوف يظهر أن مع الأنـا يعبرعن نفسه الهمَّ. وعلى هـذا، فان «الأنـا نفسي» (Selbst) هو إذن الأساس الحاضر دائما للهم، ولا تعنى استقلالية الأنا شيئا غير «التصميم» الوجـودي الذي يستبق نفسـه. وما هـذا التصميم الوجـودي الذي يستبق نفسه بشيء غير الوجود من أجل استطاعة الـوصول إلى الوجود الأكثر حقيقة والمميز حقا «للموجود ـ هناك» (باتجاه الموت).

ولكن التصميم الوجودي غير ممكن إلا إذا كان في مستطـاع «الموجود ـ هناك» أن

يتجه صوب ذاتـه، أي أن يحمل نفسه إلى نفسه، أي أن يعود بنفسـه إلى نفسه. هذا الفعل، فعل التوجه بالـذات نحو إمكاناتها هو «المستقبل» (Zukunft) (أي حرفيا «ما يقبل») . من جهة أخرى، فإن «الإلقاء» في العالم غير ممكن إلا إذا كان «الموجود ـ هناك» القادم في المستقبل يمكن أن يكون «وجـودا ماضيا»، أي وجودا على نحو ما كان . «فالموجود ـ هناك» لا يستطيع أن يتجه إلى ذاته الإ بقدر ما أنه قادر على العودة باتجاه ذاته. أخيرا، فـان الموجود صاحب التصميم، والذي يكـون في موقف، ليس ممكنا إلا إذا تـواجد «المتواجـد» وجعل نفسه حاضرا. إن الموجـود صاحـب التصميم الوجودي يجعل نفسه حاضرا حين يستدير إلى ذاته، ويعود إليها، بأن يستبق نفسه. هذه الظاهرة تسمى في مجملهـا «الزمانية». إن الزمانيـة هى مغزى الهم، وهى بالتالي جوهر الوجود. والزمانية بطبيعتها تجاذبية وانجذاب، هى تخارج أصلي. إن المستقبل والماضي والحاضر هى انجـذابات (Ekstasen) الزمانيـة، والعنصر الأهم الأول فيها هو المستقبل. ولكن حيث أن «الموجود ـــ هناك» هو «موجود ـ بـاتجاه ـ الموت»، فان المستقبل الحقيقي ينكشف باعتباره محدودا. إن الزمان الحق محدود.

إن كل «الموجـودين» (جمع «مـوجـود») يمكن وينبغي أن يفسرو ا بـالـرجـوع إلى الزمانية، فـالزمانية هى التي تجعل وجودهم ممكنا. ولكن «الموجود ـــ هناك»لا يوجد على هيئة مجموع من الحقائق اللحظية، وهو لا يمـلأ إطارا فارغا معينا ويكون في هذا وجـوده وحسب، وإنما هـو «يمتد»، بحيث أن وجـوده المميـز يتكـون منذ البـدايـة باعتباره قدرة على الامتداد بالذات . إن «النهـاية» و «بين» لا توجدان إلا بقدر وجود «الموجود ـ هناك». ويسمى هيدجر الحركية النوعية المميزة للموجود الذي يمتد باسم «الحدث» (Geschehen) ، أي حدث «الموجود ـ هناك». واكتشاف بنية «الحدث» تعنى فهم «تاريخيـة» الإنسان. «الموجـود ـ هناك» هـو إذن موجـود تاريخي في المحل الأول، أما ما يتعدى العالم فانه ليس تاريخيا إلا على نحو ثانوي وكذلك العالم ايضا، الذي لا يكون إلا بقدر انغماس «الموجود ـ هناك» في الزمان. إن الحدث التاريخي، أو حدث التاريخ، هو حدث الموجود ـ الذي ـ في ـ العالم.

ويقوم هيدجر، اعتمادا على هذا التحليل، بتفصيل نظرية في الزمان، وينتقد النظريات السابقة، وخاصة نظريتي أرسطو وهيجل.

ثامنا : التعالي والعدم

لم يقدم هيدجر [٥٩٤] إلا الخطوط العريضة للأفكار الكبرى لميتافيزيقاه، وهذه الافكار يصعب جدا تفسيرها تفسيرا صحيحا. ولهذا، فلن نقدم هنا إلا إلماحة موجزة.

إن علاقة «الموجود ـ هناك» مع المتواجدات الجامدة الخام تحتوي على تعالٍ مزدوج. فمن جانب، نجد أن «الموجود ـ هناك» مرمى به في داخل العالم، وهو محكوم بقوانين «المتواجد»: ومن هذه الناحية فان العالم يتعالى على «الموجود ـ هناك». ولكن «الموجود ـ هناك»، من جانب آخر، هو بماهيته «بنَّاء للعالم»، فهو يتعالى على العالم، ويتعدى (Ubersteigt) الموجود، بمعنى أنه يجذب ذلك المتواجد من اللانظام الأصلي الذي كان فيه ويهبه الوجود، أي المعنى والحقيقة. بدون «الموجود ـ هناك» فلا وجود، وإن يكن من الممكن أن يكون هناك متواجدات، ولكن هذا «التعدي» يبدو مكونا «لذاتية» الموجود ـ هناك» (Selbstheit) إن «الموجود ـ هناك» يصير بأن يتعالى على المتواجد. إن ماهية «الموجود ـ هناك» هي التعالي.

وهناك تعال ثالث «للموجود ـ هناك»: تعالى العدم. إن العدم ليس مجرد مقولة منطقية وحسب، إنما هو ايضا، في أصله، مقولة موجودية (أنطولوجية): فليس النفي هو أساس العدم، إنما هو العدم (الموجودي)الذي يؤسس النفي.

ويتمثل هيدجر العلاقة بين «الموجود ـ هناك» والعدم على النحو التالي:

أولا : «الموجود ـ هناك» ليس له عمق، بل يأتي من جوف هاوية بلا نهاية من العدم.

ثانيا : إن نهايته هي الموت، وهو هاوية أخرى للعدم.

ثالثا : إن محض وجود «الموجود ـ هناك» هو ركض نحو الموت، إلى العدم: إن «الموجود ـ هناك» محمول بذاته في داخله نحو العدم. ويمكن أن يقال على وجه

(٥٩٤) حتى عام ١٩٥٠م.

عام: من العدم يأتي كل موجود من حيث هو موجود. وكان يمكن لهيدجر أن يقول على الصحة: «العدم موجود»، ولكنه يقول، من أجل أن يتفادى هذه العبارة المتناقضة، يقول: «العدم يتعادم»، وهو تعبير سخر منه كثيرون، وخاصة الوضعيون المنطقيون.

فالسؤال هو إذن: ماذا ينبغي أن يعنى «العدم»؟ وما الإجابة ببعيدة: فحيث أن المتواجد الجامد الفج يصير، ويُنتزع من العدم على يد «الموجود ـ هناك»، وحيث أن هذه الصيرورة تقوم فيما يهبه «الموجود ـ هناك» لها من معنى عقلي تُفهم به (أي: الحقيقة)، وحيث أن هيدجر يرى، كما مر بنا، أن الوجود وحده، وليس المتواجد ذاته، يصدر عن «الموجود ـ هناك»، من جهة أخرى، فإنه ربما كان من الممكن أن نفسر فكر هذا الفيلسوف في القول بأنه ينبغي أن نفهم العدم على أنه موجود جامد فج بغير وجود، وأنه «شواش Chaos» غير قابل للعقلانية مطلقا. إن «الموجود ـ هناك»، بالنسبة إلى العدم، هو «النور الطبيعي»، الذي يهب المتواجد بنية ومعنى. إذا صح هذا التأويل، فإنه يمكن تفسير فلسفة هيدجر في اتجاه المذهب القائل بـ «المباطنة» (Immanentisme) على نحو متطرف، وفيه يعتمد كل معنى على «الموجود ـ هناك» ويصدر منه. ولكن هيدجر نفسه رفض هذا التأويل رفضا قويا، رغم أنه مقبول ومنتشر بين المفسرين. وعلى كل الأحوال، فليس ينبغي أن نؤول فلسفة هيدجر في اتجاه ذاتي، حيث يقرر هيدجر في صراحة أن العالم هو أصل الذاتية والموضوعية معا.

هذه الأفكار تقودنا إلى مذهب هيدجر في الحرية. إن «الموجود ــ هناك» يكوِّن نفسه بنفسه، من حيث هو مشروع، في فعل التعدي، إن التعدي هو الحرية ذاتها. ويمكن أن نقول كذلك إن «الموجود ــ هناك» هو حرية. وحيث أن كل معنى، وبالتالي كل أساس وتأسيس، يأتي من «الموجود ـ هناك» ويُستمد منه، فإن الحرية تصبح الأساس الأخير لكل معقولية: إن الحرية هى أساس الأساس، وفي هذه العبارة تظهر الكلمة الأخيرة في فلسفة هيدجر.

الفصل الثامن عشر

جان ـ بول سارتر

أولا : إنتاجه وخصائصه

كان جان ـ بول سارتر (ولد عام ١٩٠٥م) (٥٩٥)، في الأعوام الأولى التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية، أكثر الفلاسفة الذين يتجه إليهم الاهتمام ويُعلّق على أعمالهم. صحيح أن شهرته لدى الدوائر غير الفلسفية إنما تعود بوجه خاص إلى رواياته ومسرحياته المكتوبة كتابة بارعة، وكذلك إلى المختصرات السطحية لمذهبه (كتب سارتر سنة ١٩٤٦م. كتيبا بعنوان: «الوجودية مذهب إنساني»)، ولكن سارتر، من قبل ذلك ومن بعده، مؤلف لعدد من الكتب الفلسفية بالمعنى الدقيق، وهو جدير بأن يعتبر علما رئيسيا من أعلام الفلسفة الأوربية في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، وذلك خاصة بفضل كتابه الرئيسي : «الوجود والعدم. رسالة في نظرية انطولوجية فينومينولوجيه» (١٩٤٣م.)، وهو كتاب ضخم صعب، وذو اصطلاح فني شديد الخصوصية.

ويخطيء الباحث إذا لم ير في سارتر غير مجرد كاتب، فهو ليس فقط فيلسوفا متخصصا ذا أسلوب في الفكر شديد التدقيق، أسلوب فني تخصصي وأصيل، بل هو أيضا، من بين كل الفلاسفة الوجوديين، أقربهم إلى فلسفة الوجود (٥٩٦) وينبغي، أيضا أن نلاحظ أننا لا نجد عنده، وهو الفيلسوف الوحيد الذي يعلن

(٥٩٥) (توفي عام ١٩٨٠م). وترجم إلى العربية عدد كبير من مؤلفاته من شتى الأنواع، ومنها كتاب «الوجود والعدم».

(٥٩٦) وذلك بالمعنى المحدد في الباب السابع، راجع الفصل الحادي والعشرين، «أولا».

صراحة أن فلسفته فلسفة وجودية، لا نجد عنده هو بالذات تلك اللمحات الشعرية الرومانتيكية التي كثيرا ما نجدها في ذلك الاتجاه الفلسفي. على العكس من ذلك، فإن نظامه الفلسفي مبني على نحو منطقي دقيق صارم، ويتخذ وجهة عقلانية تماما. بل تكاد تكون وجهة «أولانية» (٥٩٧). صحيح أن سارتر مشغول في معظم أجزاء فلسفته بتقديم نظريته في الإنسان (أنثروبولوجيا)، ولكن هذه النظرية الإنسانية يقيمها على دعائم من نظرية في الوجود (أنطولوجيا)، فهى تكاد تتكون كلها على التقريب من تطبيق منطقي لمبادىء أنطولوجية على الإنسان وعلى مشكلاته.

ويصح أن يرى الباحث في فلسفة سارتر تعبيرا عن يأس الإنسان الأوربي في فترة ما بعد الحرب، والإنسان الفرنسي خاصة، وأن يجد أن تلك الفلسفة هى التي تقابل «تصور العالم عند كائن بلا إيمان أو عقيدة، بلا عائلة، وبغير هدف في الحياة»، كما قال بعضهم. ومن الواضح أيضا أن تأثير سارتر يفسره إلى حد غير قليل أن فكره يدور حول مشكلات لاهوتية، ولكنه يتخذ في الواقع وجهة الحادية. ورغم كل شيء، فلا يمكن لأحد أن يتشكك في أن مذهبه الفلسفي، مأخوذا بحد ذاته، يتمتع بأهمية عظيمة، ولا يملك الباحث إلا أن يعجب بقوة معالجة سارتر لعدد من المشكلات الميتافيزيقية الأساسية.

ومن الجلي أن سارتر يسير على إثر هيدجر ولكنه ليس مجرد تابع لذلك الفيلسوف الألماني، وقد أعلن هيدجر نفسه، وعن حق، أنه غير مسئول على أي نحو عن «المذهب السارتري». وسارتر، أيضا، وشأنه في هذا شأن سائر الفلاسفة الوجوديين، تابع من اتباع المفكر الدانمركي كيركجارد، ولكنه غالبا ما يقدم حلولا معارضة تماما لما قدمه ذلك المفكر الديني الدانمركي للمشكلات الوجودية التي أثارها. ويبدو كذلك أن سارتر وقع تحت تأثير نيتشه من جوانب متعددة. ، من جهة أخرى، فإن سارتر يقيم الخطوط الرئيسية لمذهبه مستعينا بالمنهج الفينومينولوجي

(٥٩٧) يقصد أنه يضع عددا من المبادىء، ثم يأخذ في استنباط نتائجها.

الذي قدمه هسرل [٥٩٨]، وهو يستخدم هذا المنهج استخداما واسعا. ومن الظاهر أن عددا من أفكـار سارتـر الأساسيـة مصدرهـا هيجل، ومنها قضيـة التعارض بين الـوجود والعـدم، ولكنه بـالطبع تعـارض بغير مركب منهما عنـد سارتـر. ولكن آراء سارتـر الميتافيزيقيـة تجعله يتحرك في ذات الإطـار الذي تحرك فيـه الفلاسفة اليـونان الأقدمـون. ويمكن أن يُفسر مذهبـه على انه محاولـة لإقامـة فلسفة تقـابل وتعارض الفلسفـة الأرسطيـة في نفس الـوقت، كما أن عـددا من قضـايـاه بشأن الحريـة (ولن نستطيـع الخوض فيها في هـذا العرض)، وخاصـة تصـوره عـن الوجـود العارض [٥٩٩]، تقترب من مذهب القديس توما الاكويني.

ثانيا: الموجود - في - ذاته

يبتعـد المذهب الـوجودي لسـارتـر، على مـا هـو ظـاهر للعيـون، عن الأفكـار «الذاتية»، المبنية على تجارب شخصية، عند كيركجارد. إنما يظهر ذلك المذهب على هيئة نظرية أنطولوجية، حيث ينطلق سارتر من تحليل الوجود، ليطبق أهم المبادىء المستخرجة من ذلك التحليل، تطبيقـا دقيقا صارما، على ميادين مخصـوصة، ومنها مشكلات نظرية الإنسان.

وأبرز مـا يظهر من هذه المبـادىء هو النبـذ الحاسم لمذهب أرسطو في «حالـة ما بالقـوة» [٦٠٠]. ويرى سارتر أن كل ما يوجد يـوجد على ما هو عليه فعلا، وبعبارة أرسطـو، فإن كل شيء يكـون «بالفعل» (ولا يـوجـد شيء «بالقـوة» عنـد سارتـر). فسارتر يرى أنـه ليس هناك في الموجود، ولا يمكن أن تكون هناك، أيـة إمكانية، أية «قـوة» بالمعنى الأرسطي، فمن المنـاقض للمعقـول، على سبيل المثال، أن يتحـدث متحدث عما كان يمكن أن تنتجه عبقرية مارسل بروست [٦٠١]، لو كان قد عاش أطول ممـا عاش، لأن عبقـريته، في رأى سارتـر، تقوم وحسب في مجمـوع أعماله التي

(٥٩٨) راجع الفصل الرابع عشر، «رابعا».

(٥٩٩) أي ممكن الوجود، في مقابل واجب الوجود.

(٦٠٠) انظر من بعد، الفصل الرابع والعشرين، «ثانيا».

(٦٠١) روائي فرنسي مشهور (١٨٧١ - ١٩٢٢م.)، صـاحب «البحث عن الزمن الضائع»، في عدة مجلدات.

أنتجها، وليس فى شىء خارج ذلك، ولا تقوم في إمكانه أن يكتسب عملا أدبيا غير ما كتب.

إن ما يمكن أن يقال عن الوجود هو شىء واحد وحسب: أنه موجود، أنه يوجد في ذاته، وأنه هو ما هو. إن الوجود يـوجد: فلا هو «يملك» وجوده، ولا هو تلقاه من جهـة مـا (٦٠٢)، وليس هناك أسـاس ونبع لكينونـة الوجود تعتمـد عليه، إنما الوجـود عارض وغير قابل للتفسير، قـد يستطيع المرء أن يفسر الماهيات، كأن يفسر الدائرة بوسيلة صيغة رياضيـة، ولكن الجهة الأخيرة لتفسير الوجود لابد أن تكون هى الإله، بينما لا يوجد إله، بل إن مفهوم «خلق العالم» ذاته مفهوم متناقض ذاتيا في رأى سارتر.

ينتج عن كل الاعتبـارات السـابقة أن الـوجـود يسبق الماهيـة. إن حبات نبـات البسلة (٦٠٣) لا تنمو مطيعة لفكرة الهية ما، إنما هى «توجد» أولاً وقبل كل شىء.

كذلك فإن الوجود هـو «في ذاته»، ويسميه سارتر En soi «ما في ذاتـه». فهو ليس فاعـلا ولا منفعلا، ولا هـو إثبات ولا هو نفي، إنما يقـوم الوجـود معتمدا على ذاته لا أكثـر، مصمت، جامد. أخيرا، فان الـوجود هو ما هـو، وكل إشارة إلى أي وجـود آخر تكـون هنا غير واردة. ذلك أن الـوجود ليست لـه أية عـلاقة كـانت مع الموجودات الأخرى، بل هو خارج إطار الزمان.

والمؤكد أن سارتر لا يريد مطلقا إنكار التغير كصفة من صفات «ما ـ في ـ ذاته»، ولكن هذا التغير، كما يقول سارتر، تحكمه علل حتمية، وعلى هذا فينبغي أن نتصوره على هيئة التغير الجامـد، الساكن. ويظهر أمـام أعين الناظـر التماثل بين هذه الاراء ونظرية الوجود عند الفيلسـوف اليوناني بارمنيدس (٦٠٤). ولا يملـك المرء إلا أن يتساءل كيف يمكن أن يظهـر، بعد كل شىء، الإنسان صاحب المعـرفة والحرية في مثل هذا العالم الذي له مثل هذا الجمود والسكون والحتمية.

---

(٦٠٢) من الألوهية على الخصوص.

(٦٠٣) هذا المثال وغيره من أمثلة سارتر نفسه.

(٦٠٤) الوجود عند بارمنيدس (توفي حوالي ٤٧٠ ق. م.) واحد ساكن خالد، لم ينشأ ولا يفنى.

ثالثا : ما ـ لأجل ـ ذاته

يجيب سارتر على التساؤل السابق على النحو التالي : إن ذلك أمر ممكن ، لأن هناك في العالم ، بخلاف الموجود ـ في ـ ذاته ، الممتلىء ، الجامد ، الخاضع لقوانين ما هو ـ في ـ ذاته ، هناك نوع مختلف تماما من الوجود : هو «ما ـ لأجل ـ ذاته» ، وهو الموجود الإنساني على التخصيص . ولكن حيث أن كل ما هو موجود ينبغي أن يكون موجودا ـ في ـ ذاته ، فان سارتر يستنتج من ذلك منطقيا أن ذلك النوع الجديد من الوجود لا يمكن إلا أن يكون لا ـ وجودا (٦٠٥) ، وأن قوامه بالتالي هو العدم . إن سارتر يرى أن الموجود ـ لأجل ـ ذاته يظهر حينما ينعدم (٦٠٦) الوجود . ولابد من أن نأخذ كلمة «العدم» هنا بمعناها الحرفي تماما . ويشرح سارتر الأمر ، بأن العدم لا يكون (٦٠٧) ، بل لا يمكن كذلك أن نقول إنه «ينعدم» (أي يطبق فعل العدم على ذاته) ، لأن الموجود وحده هو الذي يمكن أن ينعدم ، بينما العدم يستطيع وحسب أن يبقى قائما في داخل الوجود كأنه «الدودة» ، كأنه «بحيرة صغيرة» .

أما البرهنة على أن الإنسان من حيث هو ما هو ، أي من حيث هو موجود ـ لأجل ـ ذاته ، قوامه العدم فها هي . يقرر سارتر أولا ، متفقا في هذا مع هيدجر ، أن الذي يؤسس العدم ليس هو النفي ، إنما للعدم ، على العكس من ذلك ، أساسٌ في داخل الموضوع ، فهناك بالتالي صفات سالبة ، تلك هي «السالبات» (négatités) . وعلى هذا النحو ، فاذا حدث شيء في سيارتنا ، فإننا قد ننظر إلى جهاز احتراق البنزين ، مثلا ، فنجد أنه «لا يوجد شيء» في هذا الجهاز . ولكن العدم لا يمكن أن يكون مصدره هو الوجود ـ في ـ ذاته ، لأن الموجود ـ في ـ ذاته ، كما رأينا ، ممتلىء كله بالوجود وكثيف سميك . إذن يأتي العدم إلى العالم عن طريق الإنسان . ولكن ، لكي يكون الإنسان منبع العدم ، فانه لابد أن يكون حاملا للعدم في داخل ذاته . والواقع أن تحليل الموجود ـ لأجل ـ ذاته يُظهر ، في رأى سارتر ، أن الإنسان ليس فقط يحمل

(٦٠٥) أي أنه ليس «وجودا ـ في ـ ذاته» .
(٦٠٦) أي حينما ينفي ذاته .
(٦٠٧) أو ليس بكائن ، أو لا يوجد .

العدم في داخل ذاته، بل إن العدم هو قوامه على التحديد. ولكن لا ينبغي أن نفهم من هذا أن الإنسان في شموله عدم، بل هناك في الإنسان يوجد ما ـ هو ـ في ـ ذاته : من ذلك جسمه، والأنا فيه ، وعاداته، وما إلى ذلك. ولكن ما هو إنساني على التحديد في الإنسان قوامه العدم.

رابعا : الوعي والحرية

يعلن سارتر أن الموجود ـ لأجل ـ ذاته يتميز بثلاث انجذابات : ألا وهى ميله نحو العدم ، وميله نحو الآخر، وميله نحو الوجود.

أما الانجذاب الأول، فإنه الوعي والحرية. والوعي، الذي يقوم سارتر بتحليله أولا، ليس هو ذلك الوعي التأملي، بل الوعي الذي يصاحب كل معرفة: فحين يقوم المرء، مثلا، بِعدِّ سجائره، فانه يكون على وعي (وهو وعي غير تأملي) بأنه يعدها. هذا النوع من الوعي بغير مضمون، وبغير ماهية: إنما هو كينونة خالصة، لأن ما يبدو وكأنه مضمونه يأتيه في الواقع من الموضوع. إن هذا الوعي لا «يوجد» على أي نحو كان، ولو كان موجودا، لأصبح مليئا، و لما استطاع أن يصير الآخر، ذلك الآخر الذي يصيره في فعل المعرفة، والذي به تتقوم الظاهرة الأساسية للمعرفة. فالوعي إذن هو نوع من «مخفف الضغط» للوجود، هو نوع من انقسام ما ـ هو ـ في ـ ذاته.

ويمكن أيضا أن نلاحظ فعل انعدام الوعي بالذات : فما بين ما نعي به والوعي نفسه، لا يوجد إلا فجوة العدم. وفعل السؤال نفسه، وهو مميز للإنسان، مؤسَّس على الانعدام، لأنه حتى يستطيع السائل أن يسأل، فلابد له أولا من أن يعدم الوجود (لا يمكن للوجود أن يكون موضوعا للسؤال من غير أن ينعدم)، ثم أن يعدم ذاته ثانيا، وأن يعدم يقينه، ومن غير هذا كله فإن أي سؤال سوف يكون منذ البداية غير ممكن وبغير معنى.

ثم يبدو عدمُ الموجود ـ لأجل ـ ذاته بشكل أوضح وأوضح في حالة الحرية. فلو كان الإنسان محتما ومقيدا بماضيه، إذن لما استطاع القيام بفعل الاختيار، ولكن

الإنسان يختار، إذن فهذا يعني أنه يعدم ماضيه. من جهة أخرى، فإن الإنسان يتطلع بالضرورة إلى أمر، هو، بحكم التعريف، غير موجود.[٦٠٨] وعلى هذا فإن الحرية ليست مجرد خاصية للموجود ـ لأجل ـ ذاته، بل هو الحرية والحرية هو. وكما هو الحال تماما عند هيدجر، فإن «الموجود ـ لأجل ـ ذاته» عند سارتر هو مشروع. فيكون الانجذاب الأساسي إذن هو «المستقبل»[٦٠٩].

وينتج عن هذا قضيتان هامتان. تقول الأولى إن الإنسان، من حيث هو إنسان، ليست له طبيعة ولا ماهية محددتان، إنها «ماهيته» هي الحرية، أي اللايقين. ثانيا، فان «الموجود ـ هناك»(Dasein)، هنا في مذهب سارتر، لا يسبق الماهية وحسب، كما هو الشأن في حالة الموجود ـ في ـ ذاته، إنها ماهية الموجود ـ لأجل ـ ذاته هي عين وجوده. وبهذا التقرير يصوغ سارتر بوضوح أعظم مما نجد عند أى من الفلاسفة الآخرين القضية المركزية المشتركة بين جميع الفلاسفة الوجوديين.

إن الحرية تنكشف (تكشف عن نفسها) في القلق، وهو فعل وعي الإنسان بوجوده المخصوص الذي يصنع نفسه بنفسه باعتباره عدما، أي فعل الوعي بالحرية. ويهرب الإنسان من القلق، وهو إذ يفعل ذلك يحاول أن يفلت ليس من حريته، أي من المستقبل، وحسب، بل وكذلك من ماضيه. ذلك الإنسان ليود أن يرى في هذا الماضي مبدأ حريته، بينما الماضي مكتمل تماما ونهائي وساكن وغريب عنه. ولكن الإنسان ليس في استطاعته أن يتحرر من القلق، لأنه هو هو قلقه. وهكذا يحكم على الانجذاب الأول للموجود ـ لأجل ـ ذاته بأن ينتهي إلى الفشل بالضرورة.

خامسا : الوجود ـ لأجل ـ الآخر

الانجذاب الثاني للموجود ـ لأجل ـ ذاته هو الوجود ـ لأجل ـ الآخر. إن العلاقات مع الآخر جوهرية وضرورية للإنسان. ويعلن سارتر أنه ليس لنا دوافع

---

(٦٠٨) وهو المستقبل.

(٦٠٩) أى ما سيأتي : a - venir.

جنسية لأننا نحمل أعضاء جنسية، إنما العكس هو الصحيح: فالإنسان له أعضاء جنسية لأن الإنسان في ماهيته موجود جنسي، أي أنه موجود ـ لأجل ـ الآخر.

ولا حاجة لإثبات وجود الآخر، فهذا الوجود معطى لنا بشكل مباشر، ويظهر في ظاهرة الخجل. ويظهر الآخر أمام الموجود ـ لأجل ـ ذاته، في المكان الأول، على هيئة النظرة. فطالما أنه لا يوجد شخص آخر في محيط إدراكنا البصري، فاننا ننظم كل شيء حول ذواتنا نحن باعتبار أننا نحن المركز، وتصبح الأشياء الأخرى موضوعات لنا (٦١٠) أما إذا ظهر آخر داخل هذا الإطار، وأخذ ينظر، هو الآخر، فيما حوله، فإن ذلك يحدث إضطرابا: ذلك أن الآخر يحاول الآن أن يجذب إليه في محيط إدراكه البصري هو، ليس أشياءنا وحسب، بل ونحن أنفسنا كذلك، ويصنع منا موضوعا (شيئا) في عالمه هو.

فليس هناك إذن إلا رابطة جوهرية واحدة يمكن أن تقوم فيما بين الموجودات ـ لأجل ـ ذاتها: فكل منها يسعى ليجعل الآخر موضوعا (شيئا) له. صحيح أن الأمر ليس أمر السيطرة على الآخر، وكأنه مجرد موضوع وكفى، أو كأن الهدف هو ما يقرب من قتله، إنما يهدف الموجود ـ لأجل ـ ذاته إلى السيطرة على الآخر من حيث هو حرية، وبالتالي إلى تملكه من حيث هو موضوع ومن حيث هو حرية نفس الوقت. ويسعى سارتر، من خلال تحليلات مطولة ونافذة للحياة الجنسية، السوى منها والمرضى (وإلى هذه التحليلات تعود شهرة سارتر من غير شك بين أفراد الجمهور غير الفلسفي)، يسعى إلى بيان أن تلك العلاقة تعني دائما محاولة تملك حرية الآخر على النحو الموصوف: فنحن لا نشتهي جسد الآخر، بل ولا نشتهي لذتنا نحن أنفسنا، إنما نحن نشتهي الآخر ذاته. إحدى وسائل هذا تكون، على سبيل المثال، بالتوحد مع الآخر من خلال الجسد وعن طريق مداعبات الحب. ولكن كل هذا يصل دائما إلى نهاية، ولابد بالضرورة من أن يقع في الفشل، لأن الهدف ذاته غير ممكن ولا معقول(٦١١). وهكذا، لابد أن ينتهي الانجذاب الثاني للموجود ـ لأجل ـ ذاته إلى الفشل مثله مثل الانجذاب الأول.

(٦١٠) أي موضوعاتنا نحن.

(٦١١) أي تملك الآخر وتملك حريته.

سادسا : الإمكان ، القيمة ، الإله

لا يوجد إمكـان في الموجود ـ في ـ ذاته ، إنما المنبع الوحيـد للممكن هو الموجود ـ لأجل ـ ذاته ، لأن الممكن هو غير الموجود[٦١٢] .

والقيمة أيضا ليست شيئا ، إنما هى وجه من وجـوه العدم . وأساس كل قيمة هو حرية الموجود ـ لأجل ـ ذاته ، وهو الذي يختـار ذاته بذاته ، وبالتالي فهو يختار قيمة . فليس في الأخلاق إذن إلا قانون أساسي واحـد : اختر نفسك بنفسك . هذا القانون متبع دائما ، لأن الإنسان محكوم عليه بأن يكون حرا .

ولكن هناك سـؤالا يفرض نفسـه : عم يبحث الإنسان ، في نهايـة الأمر ، دائما؟ وفيم يقوم «مشروعه» (Pro - jet) [٦١٣] الأصلي واختياره الأول ؟ إن الإجابة يقدمها التحليل النفسي الوجودي . وهى تبين أن الموجود ـــ لأجل ـ ذاته لا يشتهي ، في نهاية الأمر ، إلا شيئـا واحدا : الوجود . وهـو لا يريد ، من غير شك ، أن يصير مـوجودا ـ في ـ ذاته ، وقد وصف سارتـر في رواية مشهورة ، وبعبارات قوية الإيحاء ، «الغثيان» الذي يجتـاح الإنسان ويغزوه وهو يـواجه الموجود ـ في ـــ ذاته ، الذي يصفه بأنـه لزج ولاصق كالغراء ، ووصف قلقه وهو يرى نفسه يختنق تحت ضغط الموجود ـ في ـ ذاته ـ إن ما يـريده الإنسان هو أن يصير مـوجودا ـ في ـــ ذاته يكون في نفس الوقت أسـاسا لذاته ، بعبارة أخـرى : أن يصير موجودا ـ في ـ ذاته ـــ ولأجل ـ ذاته . ولنقل في عبارة مختلفـة : أن الإنسـان يـريـد أن يصير إلهاً . إن عـذاب الإنسـان هـو ، بمعنى مـا ، العكس من عـذاب المسيح : عذابـه أن الانسـان ينبغي أن يموت من أجل أن يحيـا الإله [٦١٤] . ولكن وجود الإله ، في رأى سارتر ، وجود مستحيل ، حيث أن الموجود ـ في ـ ذاته ـ ولأجل ـ ذاته هو تصور غير ممكن وغير معقول . وهكذا ينتهي الانجذاب الثالث للمـوجود ـ لأجل ـــ ذاته ، هو الآخـر ، ألا وهو بحثه عن الـوجود ، ينتهي الى الفشل في غاية الأمر . إن الإنسان عذاب بغير جدوى .

---

(٦١٢) أي غير قائم ، ولو كان قائما لما أصبح ممكنا .

(٦١٣) في تقسيم الكلمة على هذا النحو ما يشير إلى رمية أو قذفة إلى الأمام .

(٦١٤) عذب المسيح وصلب من أجل أن يحيا الإنسان .

سابعا : نظرية المعرفة

إن مواقف سارتـر الجوهرية في نظرية الأنطـولوجيا وفي الميتافيـزيقا ، والتي أشرنا إليها اختصارا في الفقـرات السابقة ، قد عرضها وشرحهـا ذلك الفيلسوف من خلال تحليلات فينـومينولوجيـة وسيكلوجية غـزيرة العدد (ويبـدو أن تلك التحليلات هي أقيم مـا في مذهب سـارتـر وإلى حد بعيـد) . وهـو قد قـام بمعـالجة عدد آخـر من المشكلات المخصوصة ، ولن نستطيـع هنا أن نشير، من بين هذه المشكلات، إلا إلى دراسته لمشكلـة المعرفة ، التي كـان سارتـر قد تعرض لها ، على نحـو جزئي ، في أول كتابه (أي أول «الوجود والعدم»)، وإن لم يكن ممكناً له حلُّها ، بالطبع ، إلا بالاعتماد على مبادىء نظريته في الأنطولوجيا .

يتخذ سارتر مـوقفا «ظواهريا» جذريا : فليس هنـاك غير ظواهر، وذلك بالمعنى القـائم في فلسفـة هسرل. فليس وراء هـذه الظـواهـر لا «شيء في ذاتـه»، بحسب التصور «الكانتي» (٦١٥)، ولا «جوهر»، بالمعنى الأرسطي (ولا يكاد يميز سارتر بين هذين المفهـومين) . ظاهرة من بين الظواهر هـي ظاهرة الوجود، لأن الـوجود معطى لإدراكنا هو الآخر. ولكن ليس هناك وحسب ظاهرة الوجود، وإنما هناك أيضا وجود الظاهرة. وعلى هذا، فـان ظاهرة الوجود هي إذن «أنطولـوجية»، بالمعنى الموجود في فلسفة القـديس انسلم(٦١٦) . إنها تستدعي الوجـود وتستحضره، فهي إذن تتعدى الظواهر (transphenomenal) .

ويرى سارتـر أن المثاليين، الذين يـودون إرجاع الوجود إلى المعـرفة والمعروف، لا يدركـون أنه كان ينبغي عليهم، مـن أجل ذلك، أن يقيموا أولا وجود المعـرفة، وإلا سقط كل شيء في اتجاه عـدمي جـذري. ومن جهـة أخرى ، فـان المذهب الـواقعي التقليـدي (٦١٧) واقع هو الآخـر في خطأ، وذلك حين يريد أن يتصور المعـرفة على

---

(٦١٥) راجع هامش (٣٤) .

(٦١٦) رجل دين ومتفلسف كاثوليكي (١٠٣٣ ـ ١١٠٩م.) . قدم «الحجـة الوجوديـة» على وجود الإله، بإثبات ذلك الوجود تأسيسا على محض نسبة صفة الكمال إلى الإله في الذهن، لأن الإله الكامل لابد أن يكون موجودا، لأن الوجود أحد الكمالات .

(٦١٧) انظر الفصل الرابع، رابعا، وقارن الفصل الثاني، سابعا .

صورة خاصية ووظيفـة للذات العارفة الموجودة من قبل قيام فعل المعـرفة. إن الواقع عند سارتر هـو أن كل ما يوجد يوجد على هيئـة ما ـ هو ـ في ـ ذاتـه، أما المعرفة فهى عـدم. ذلك أنـه ليس لها، كما قيل، أي مضمـون كـان، وإنما هى تـزامن مـا بين الموجود ـ لأجل ـ ذاتـه والموجود ـ في ـ ذاته ـ من حيث هـو آخر. وينتج عن هذا، أن كل ما هو على علاقة مع المعرفة، وبالتـالي على علاقة مع الحقيقة، يكون أمرا إنسانيا محضا. إن العـالم نفسه إنسـاني هو ايضا: يخلقـه الموجود ـ لأجل ـ ذاتـه ابتداء من الوجود.

إن الأشياء التي تظهـر في هذا العالم هى أدوات دائما (وهذه فكـرة هيدجر)، لأن الإنسان بحث خالد عن الوجود وعن ذاته نفسها، وهو يتضاد مع إمكاناته، ولذلك فإن الموجود ـ في ـ ذاته يظهر له ضروريا من حيث هو وسيلة تخدم مشروعاته.

يمكن للمؤرخ أن يقـول، بدون أن يغـالي فيما يقول، إن تـاريخ الفكر الفلسفي الغربي لم يشهد مطلقـا شكلا من أشكال المذهب الواقعي في المعرفـة يكون بمثل هذا التطرف الـذي نراه عند سـارتر. وقد قيل، عن حق، إن هـذه الفلسفة الوجـودية، وهى التي ينبغي أن تفسر وجود الإنسان كما يـدل اسمها، إنما هى في الحق نظرية في اللا ـ أنطولوجيا، أي نظرية في اللا ـ وجود.

ولا نذكر هنـا، أخيرا، إلا النتائج الأخلاقية لهذه النظـرية في اللا ـ أنطـولوجيا، وهى: إنكار كـل قيمة موضـوعية وكل قـانون مـوضوعي، إثبات الـلامعنى المطلق للحياة الإنسـانية (والموت نفسه عندهـا ليس معناها)، ورفض كل تبريـر للقول بأن علينا أن نأخذ الحياة مأخذاً جادا.

الفصل التاسع عشر
جـــابريل مـــارسل

أولا : تطوره وخصائصه

ينتمي جابريل مارسل (ولد عام ١٨٨٩م.) (٦١٨) ، مع كارل ياسبرز (والذي كثيرا ما يقارن به مـارسل) إلى المجموعة الثانية من الفلاسفـة الوجوديين، وهم الذين يتميـزون، على عكس هيـدجـر وسـارتـر، بأنهم، أولا: يقبلـون، إلى جـوار التعـالي «الأفقي»، نـوعا آخر مـن التعالي، هـو التعالي «الرأسي» (في اتجاه الإلـه)، وبأنهم، ثـانيـا، يرفضـون السير على طـريق الأنطـولـوجيـا بالمعنى التقليـدي للكلمـة، ولا يستخدمون في عرض آرائهم التحليلات العقلانية، وإنما يستخدمون بالأحرى منهج الوصف الحر للخبرات الوجودية.

إلى جانب ذلك، فان موقف جابريل مارسل مغرق في رفض إقامة نظام فلسفي، مما ينتج عنـه أن مـذهبه يبـدو أصعب فهما، في جملتـه، من مـذهب أي فيلسـوف وجودي آخر. والواقع أن أحدا من الباحثين لم ينجح، حتى اليوم (٦١٩)، في عرض فلسفته على نحـو منظم. لهذا السبب، يبدو لنـا أن نكتفي، من باب الحذر، بـذكر الأمور الجوهرية جدا في العرض الذي يلي، رغم الأهمية العظيمة لهذه الفلسفة.

جابريل مارسل هـو أول الفلاسفة الوجوديين مـن حيث الـزمان، حـيث قـرر، مـنذ عـام ١٩١٤م. ، عـددا مـن القضـايـا الـوجـودية في مقـالة لـه بـعنوان : «الـوجـود والموضـوعية». وهو أقرب إلى كيركجارد من كل ممثلي الفلسفة الـوجودية،

---

(٦١٨) توفي عام ١٩٧٣م.

(٦١٩) حتى ١٩٥٠م.

وإن كان علينا أن نلاحظ أنه كون آراءه الأساسية قبل أن يكون قد قرأ سطرا واحدا من كتابات كيركجارد.

ويتوازى تطور فكره ويلتقى مع طريقة تطور فكر كيركجارد، على ما يظهر من عرضه لهذا التطور في كتابه «يوميات ميتافيزيقية» (١٩١٤ ـ ١٩١٧م.)، وفي «الوجود والمِلْك» (١٩١٨ ـ ١٩٣٣م): فكما أن المفكر الدانمركي انطلق من موقف مناقض لفلسفة هيجل، فان مارسل، بعد أن درس دراسة متعمقة أفكار المدرسة الهيجيلية الإنجليزية الجديدة، والفيلسوف «رويس» على الخصوص (ولمارسل في هذا الصدد كتاب بعنوان: «الميتافيزيقا عند رويس» ١٩٤٥م.)، أخذ يتحرر شيئا فشيئا من تأثير المذهب المثالي، ليستقر على طريق فلسفة ذاتية وجودية.

لقد انطلق مارسل من فكرة تقول إنه، لكي نجيب على التساؤلات الخاصة بوجود الإله، ينبغي علينا قبل ذلك أن نحدد على نحو دقيق مفهوم الوجود ذاته. وقد أدت به دراساته وأبحاثه في هذا الصدد إلى إقامة فلسفة «عينية» (٦٢٠)، ثم تحول مارسل بعد ذلك إلى الديانة الكاثوليكية، وهو يعتبر اليوم (٦٢١)، في فرنسا أحد الممثلين الرئيسيين للكاثوليوكية في الميدان الفلسفي. ومع ذلك، فانه يحتفظ بموقف سلبي إزاء الفلسفة الكاثوليكية التقليدية، والفلسفة التوماوية منها على وجه أقصى.

وقد طلب منه، في عام ١٩٤٩م، القيام بإلقاء دروس في مجموعة محاضرات جيفورد» (Gifford Lectures)، ويكون قد حصل بهذا على أعظم تقدير (إنجليزي) فلسفي، الذي لم يمنح إلا لعدد محدود من مفكري القارة الأوربية (ومنهم دريش وجيلسن وكارل بارت، من بين آخرين). ولم يصبح مارسل، مثله في ذلك مثل سارتر، إستاذا جامعيا، ومع ذلك فان له تأثيرا ضخما على الفكر الفرنسي، ناله من خلال إتصالاته المتعددة مع الشباب. وهو، اليوم، أحد أشهر الفلاسفة في أوربا.

---

(٦٢٠) العينى، في مقابل المجرد، هو القائم بالفعل وعلى نحو مشخص ومفرد. وتعتبر ثورة كيركجارد الدانمركي على هيجل الألماني أبرز تعبير عن الاهتمام بما هو عينى في الوجود. ويمكن القول أن الوجودية، بوجه عام، فلسفة عينية.

(٦٢١) أى وقت تأليف الكتاب، كما في إشارات أخرى ستلي.

ثانيا : أفكاره الرئيسية

ينتمي كل من الـوجـود الموضـوعي والكينـونة الإنسـانيـة ، في رأى مـارسل ، إلى جهـات في الوجـود مختلفـة تمام الأختلاف . والموقـف الذي ينبهنـا بـوضوح إلى هـذا الاختلاف هو تلك الواقعة الأساسية ، التي هى واقعة «التجسد» (٦٢٢) . ذلك أنه لا يمكنني أن اصف العلاقة بين جسمي وبيني ، لا على أنها علاقة وجود ، ولا على أنها تملك . إنني جسمي ، ولكنني مع ذلك لا أستطيع أن اعتبر أنني وهو شيء واحد .

وقد أدى بحث مارسل في مسألة «التجسـد» إلى أن يميز تمييزا واضحا بين شيئين : «المشكلة» و «السر» . أمـا المشكلة فانها تتعلق بشيء يـوجد بكامله خـارجا عني ، واستطيع أن أنظر إليه نظـرة موضوعية كمشـاهد خارجي ، بينما السر ، على العكس ، هو «أمر أكون فيه أنا نفسي منخـرطا» ، وعلى هذا ، فان ذلك الأمر لا يمكنه ، بحكم ماهيته ، أن يوجد خارجا عني .

ويرى مـارسل أن الأسرار وحدها هى التـي تهم الفلسفة ، ولذلك فـان الفلسفة ينبغي أن تكون متعدية للموضوعية وشخصية ودرامية بل وتراجيدية .

إن مارسـل يذكـــر نفســـه كل يوم بهذه العبـارة : «إنني لا أحضر عـرضا مسرحيا» (٦٢٣) .

ومن رأيـه أن إمكان الانتحـار هـو نقطـة انطلاق كل ميتـافيـزيقـا حقة . هـذه الميتافيزيقا لا ينبغي أن تكون عقلانية ، ولا كذلك أن تكون حدسية (٦٢٤) ، وإنما هى نتيجة لنوع من «التفكير من الدرجة الثانية» .

وإذا كـان مارسل لم يقـدم بعد هـذه الميتافيـزيقا ، فـانه قـد عرض منهجهـا على الأقل . وهو يرى أنها ينبغي أن تقدم إجابة على الطلب الضروري في كل أنطولوجيا :

---

(٦٢٢) شغلت مشكلـة الجسد الإنسـاني إهتمام سائر الفـلاسفة الـوجوديين ، على درجـات متفاوتـة وأشكال شتى .

(٦٢٣) أى أنه ليس خارج الوجود و «متفرجا» عليه ، بل هو مندمج فيه بالضرورة .

(٦٢٤) إشارة إلى فلسفة برجسون .

ألا وهو البحث عن الموجود، فينبغي أن يكون هناك موجودٌ، أي شيءٌ ما، لا يمكن أن يفك غـوامضـه مجرد تحليل عقلي، على طـريقـة أن يقـوم علم النفس «بتفسير» أو «تأويل» الظواهر النفسية.

الذي يؤكد أن هناك موجودا هـو تلك الحقيقة ذات السر المتمثلة في «أنا موجود» (وليس الكوجيتو الديكارتي : أنا أفكـر، إذن أنا موجود). وهكذا يتم الانتصار على المعارضـة بين الذات والموضوع ، وعلى تلك الأخـرى بين الواقعية والمثاليـة، وتعديها كـذلك. إن الحقيقة الإنسانيـــة تكشـــف عن نفسها لتظهـر أنها «الإنســان المتنقـل» (٦٢٥)، أي الموجود الـذي يتحول ويصير دواما. ويـرى مارسل أن كل فلسفة تتجاهل هذه الحقيقة، وتـدعى تفسير الإنسان عن طريق نظام فلسفي، مثل هذه الفلسفة تكون غير قادرة على فهـم الإنسان.

وعلى مستوى أخص، فـان الذي يسمح بفهم الموجـود الإنساني أكثر وأكثـر هو دراسة العلاقـات الإنسانية ودراسة الحقيقـة التي تقابل أحكام المخاطـب (في قائمة الضمائر كما يدرسهـا علم النحو)، أي تلك الخاصة «بأنت». ويرى مـارسل أن هذه العلاقـات اللاموضـوعية (٦٢٦) الخاصة بـالانت هى علاقات خـلاقة : ذلك أنني أخلق نفسي بنفسي من خلال تلك العـلاقات، وفي نفس الوقت أساعـد الآخر على خلق حريته.

ويقع «الإخـلاص» (أو الوفـاء) في مركـز تلك العـلاقات المذكـورة : فالإنسـان المخلص يخلق نفسـه بنفسـه في الحرية، فيبـدو الإخـلاص تجسيدا لحقيقـة أعلى من الإنسان، حقيقة حرة. وأهم من الإخلاص وأكثر أساسية منه «الأمل» (أو الرجاء) : لأن الإخلاص ينبني على الأمل. ويـرى مارسل أن الأمل ذو طابع أنطولـوجي، لأنه يبين أن انتصار الموت كما نشاهـد في العالم ليس إلا انتصارا ظاهـريا، وأن الموت ليس هو الواقعة الأخيرة ولا له الكلمة العليا. وقد صرح مارسل نفسه بأنه يعتبر أن مذهبه

---

(٦٢٥) Homo viator .

(٦٢٦) لأنها لا تجعل طرف العـلاقة مجرد «هو»، أو كائن موضـوعي لا صلة لنا به، إنما هـى ترى فيه «الأنت»، الذي نناديه.

في الأمل هـو أهم جوانب عملـه ، والواقع أن هذا الجانـب من فلسفة مارسـل تجعله يبتعـد ابتعـادا حادا عن كل من سـارتـر وهيـدجـر، بل عن ياسبرز كـذلك على مـا يبدو.

ولكن «الانت» الإنساني يمكن أن «يتمـوضع»، أو يصبح «موضوعا»، فنـدركه بـاعتبـاره «هـو». ومع ذلك ، فـان الإنسان يـدرك أن هنـاك على الأفق الأخير يقـوم «الانت» المطلق، الذي لا يمكن أن يدرك على هيئة مـوضوع : ذلكم هو الإله. وفي رأى مارسل أنه لا يمكن البرهنـة على وجود الإله عن طريق الوسـائل العقلانية ، إنما يلتقى الإنسـان بـالإلـه على نفس المستـوى الذي يلتقـي فيه بـالآخـر، أى مستـوى «الانت» ، في إطار المحبة والعبـادة ، ويكون هذا اللقاء نوعا من المشـاركة في الوجود الحق ، وهى مشاركة ربما تبدأ مع محض وضع الفيلسوف لتساؤلاته الفلسفية .



الفصل العشرون
كـــارل يــاسبرز

أولا: خصائصه المميزة والتأثيرات عليه

كارل ياسبرز (ولد عام ١٨٨٣م) [٦٢٧] واحد من أوائل المفكرين الذين أخرجوا مـؤلفات تعبر عن الاتجاه الـوجودي. ولكن أيضـاً، من بين كل الآخرين، من قـدم نظاماً فلسفيـاً وجودياً مكتملاً أشد اكتمال، ويقترب أعظم اقتراب من الميتـافيزيقا. وهذا هو السبب في أننا ندرسه في نهاية المطاف بعد الفلاسفة الوجوديين الآخرين.

عمل ياسبرز، في بـداية حياته، معالجاً نفسيـاً. ثم أصدر كتابـه الهام «الدراسة السيكلوجيـة لتصورات العـالم». (ظهر عام ١٩١٩م)، الـذي يحدد انتقالـه إلى دنيا الفلسفة، وهـي التي كرس لها كل جهـده من بعد ذلك. وكتـابه الرئيسي مكـون من ثلاثة أجزاء، وعنوانه «فلسفة» (ظهر عـام ١٩٣٢م)، وهو يقدم نظرة شمولية لنظام ياسبرز الدقيق الكامل حتى في أبسط التفاصيل. وقد كتب، من جهة أخرى، عدداً آخر من الكتابات، منها الجزء الأول من عمل ضخم، هو «المنطق الفلسفي» (ظهر عام ١٩٤٧م، وعدد صفحاته ١٠٠٣ صفحة).

ويمتاز فكر كـارل ياسبرز بأنه أكثـر اعتدالا، في مجمله، بالقيـاس إلى الفلاسفة الوجـوديين الآخرين. ومن مظـاهر ذلك، على سبيل المثـال، أن العلوم تحتل مكـاناً أكثر بروزاً عنده ممـا لدى الآخرين، كما أنه يقدم موقفـاً بشأن نظرية العلم وعلى نحو مفصل متعمق.

---

(٦٢٧) توفي عام ١٩٦٩م. وتمت ترجمة بعض كتبه إلى العربية.

وتحتوي كتبه، التي كتبها بلغة بسيطة نسبياً وبدون استعمال التخريجات اللغوية استعمالا يخرج عن الاعتدال، وهو الأمر الذي يجعل قراءة الفلاسفة الآخرين أمراً شديد الصعوبة، نقول إن كتبه تحتوي على مخزون ثري من التحليلات الرائعة جداً.

وهو يتميز عن أقرانه من الفلاسفة الوجوديين بأنه يحاول الوصول إلى مذهب ميتافيزيقي، وإلى نوع من اللاهوت الطبيعي(٦٢٨)، هذا إلى جانب احتواء أعماله على الموقف الأساسي والاعتقادات المشتركة بين كل الفلاسفة الوجوديين(٦٢٩).

ويعلن ياسبرز أن كانت هو الفيلسوف الذي تأثر به أعظم تأثر، والواقع أنه يأخذ بقضايا الفلسفة الكانتية، كما أن كلا من كيركجارد ونيتشه وعالم الاجتماع ماكس فيبر هم المؤلفون الذين يرجع إليهم كثيراً. ومع ذلك، ينبغي علينا أن نشير كذلك إلى أربعة أسماء يشير إليها من وقت إلى آخر: أفلوطين، برونيو، اسبينوزا، شلنج. والحق أنه ليس هناك من شك في أن ياسبرز ليس فقط فيلسوفا وجودياً تأثر تأثيراً قوياً بالفيلسوف الألماني كانت، بل إنه كذلك، وربما في المحل الأول، فيلسوف يسير على خط الأفلاطونية المحدثة(٦٣٠).

ثانياً: البحث عن الوجود

إذا كان صحيحاً أن ياسبرز يرفض إمكان قيام نظرية أنطولوجية عقلانية، إلا أن موقفه، مع ذلك، هو موقف أنطولوجي وميتافيزيقي.

فهو يرى أن الفلسفة، بحسب جوهرها، ميتافيزيقا، لأنها تضع السؤال الخاص بالوجود. ولكن الوجود ليس واقعة، وليس من المعطيات التي نجدها أمامنا، كما قد يعتقد البعض غالباً. يقول: «إنه من الجنون أن نظن أن الوجود هو ما يمكن لكل واحد أن يعرفه» وهو يأخذ في هذا الصدد بالقضيتين الأساسيتين عند الفيلسوف

---

(٦٢٨) أي الحديث عن الألوهية بلغة العقل.

(٦٢٩) راجع الفصل السادس عشر، مما سبق.

(٦٣٠) انظر، فيما يلي، آخر «ثامناً».

الألماني كانت، وهو عنده «الفيلسوف على الحقيقة»، وفوق كل آخر.

فهو يقبل، من ناحية، بمسلمة الوعي: فلا موضوع بدون ذات، وكل ما هو موضوعي يحدده الوعي بصفة عامة. وهكذا فإن الوجود الموضوعي هو دائما محض ظاهرة. هذه هي القضية الكانتية الأولى التي يقبلها ياسبرز. القضية الثانية التي يقبلها من فلسفة كانت هي مسألة «الأفكار الأربعة» عند كانت، وهو يتناولها ويطورها: فالكل، وهو الفكرة الأولى، ليس معطى لنا في التجربة على الاطلاق، والأفكار الثلاثة الأخرى (العالم، النفس، الإله) تتحول عند ياسبرز إلى ما يسميه «بالمحيطات» الثلاثة.

ونتيجة ذلك، إن كل ما نعرفه لا نعرفه إلا في إطار حدود أفق معين. والذي يحيط بكل المحيطات هو المحيط الذي لا يمكن إدراكه بالمعرفة. وهناك أولاً المحيط الذي هو العالم، ثم المحيط بي الذي هو أنا نفسي، ثم أخيراً المحيط الكلي، أي التعالي. (٦٣١)

وقد أضاف ياسبرز، إلى هاتين السمتين الأساسيتين المأخوذتين من كانت، تجربةً وجوديةً ربما كانت هي ما يكوّن البؤرة المركزية لفكره، وهي تجربة هشاشة كل موجود وتهافته وتساقطه. إن العالم، من حيث هو كذلك، هو انهيار دائم وتخرب. فهو لا يظهر أي متانة أو تماسك. كذلك فإن حقيقة العالم لا تصل إلى درجة أن تصبح هي «الكل». إن الوجود الكامل لا يتحقق أبداً. وليس الإنسان إلا مجرد كينونة تاريخية ممكنة. (٦٣٢)

وهكذا فإن الحقيقة الحقة للوجود تتراجع أمامنا باستمرار، ولا تثبت إلا في هيئة التعالي. ولكن التعالي ليس من المعطيات الموضوعية التي تعطى لنا في الواقع. وهي لا تصير ذات وجود حقيقي لنا إلا في حالة قطعنا لكل صلة مع كل الموجودات، أي في القطيعة. وهكذا نصل، عن طريق الفشل في كل شيء، بما في ذلك فشل البحث

(٦٣١) وهو ما يقابل الإله.
(٦٣٢) أي أن الإنسان كائن عرضي، وليس ضرورياً، ويعيش في الزمان.

الفلسفي ذاته، إلى الوجود, (يقول ياسبرز: «إن الفشل هو الكلمة النهائية»).

ويمكن أن نتحدث عن الوجود بمعاني ثلاثة:

أ ـ فنجد أمامنا أولا الوجود من حيث هو ما يكون (Dasein، أي الكائن)، أي من حيث هو ما يكون موضوعياً (أو كموضوع).

ب ـ ونجد أمامنا ثانياً، في عملية المعرفة، الوجود من حيث هو «ما من أجل ذاته»، وهو المختلف كل الاختلاف عن كل وجود للأشياء، ويسميه ياسبرز «الوجود» (Existenz).

جـ ـ أخيراً نجد أمامنا «ما هو في ذاته» (Ansichseiende) الذي لا يمكن لا للكائن ولا للذات أن تدركه، وذلك هو «التعالي».

هذه النواحي هي أقطاب ثلاثة للوجود، أجد نفسي في مواجهتها. وأياً ما كان نوع الوجود الذي أبدأ منه، فإنني لن أستطيع أن أجد الوجود كله، ولا أن أحيط به. وهذا هو السبب في الضرورة التي تجد الفلسفة إنها مضطرة معها إلى أن «تتعالى».

ويتحقق التعالي على طرق ثلاثة:

١ ـ عن طريق التوجه في العالم.

٢ ـ عن طريق إيضاح الوجود.

٣ ـ عن طريق الميتافيزيقا.

والتعالي الأول يخرج العالم من وجوده الموضوعي المتماسك والمنضم إلى ذاته، ويصل به إلى الحدود التي لا يمكن أن يتعداها.

والتعالي الثاني، إيضاح الوجود، ينطلق من الأنا باعتبارها «كائناً»، وهي التي تكون موضوعاً لعلم النفس، ويصل بها، أي بالأنا، وعن طريق التعالي، إلى الأنا على المعنى الصحيح، أي باعتبارها «الوجود».

أخيراً، وفي الميتافيزيقا، لا يكون التعالي ممكناً إلا «للوجود» (الإنساني)، والذي يخرج من دائرة «الكائن» ليعود إلى ذاته، ويرتفع على سلم التعالي.

في كل حالة من حالات هذه الطرق الثلاثة، يكون هناك نوع من تعدي التعارض بين الموضـوع والذات، من أجل إدراك الـوجـود الحق. ومن المفهوم أن هـذا الضرب من البحث ليس مفتـوحاً أو ممكنـاً للعقل الاستدلالي. إن ياسبرز يبحـث في فلسفته عن نقطة التقاء الموضـوع مع الذات ذاتها. وفي هذا الاطار، لا يكـون ممكناً استخدام المفـاهيـم العقليـة، ولا يكـــون للكلمات من معنى، حيث أن مـن يتكلم يتكلم مستخدمـاً اصطلاحات الفكر، بينما هـذه الاصطلاحات لا يكـون لها من دلالة على مستـوى ذلك البحث عن الـوجـود الحق بوسيلـة التعـالي. إن الكلمات ليس لها من وظيفة غير وظيفة الإشارة إلى الاتجاه الذي يكون على الذات أن تتخذه.

ثالثاً : التوجه في العالم

إن التـوجه فلسفيـاً في العـالم يحاول أن يحطم الغموض الكـوني، الـذي ينشأ من التوجـه التجريبـي نحو العالم, وهـذا التوجـه الفلسفي يشير أول مـا يشير إلى حدود «الضغـوط والحدود»: فهـذه الضغوط والحدود في فهم الـريـاضيـات هي المسلمات الأولى للرياضيات، وهي في العلوم التجريبيـة تتمثل في خضوع الوقائع للنظريات، وهي في التصورات الشمولية عن العالم تظهـر في شكل صعوبة التواصل والافتقار إلى الكمال في النظام الفكري.

كذلك، فإن هذا التوجه فلسفيا في العـالم يلقي ضوءا قويا على المتناقضات التي تظهر في شتى جوانب التجربة. وهي تظهر استحـالة الوصول إلى وحدة الصورة التي نريد الوصول إليها عن العالم.

والسبب في هـذه الاستحـالـة هـو أن هنـاك في العـالم أربع دوائر لأمـور الـواقع الحقيقية، وهي: المادة، والحياة، والنفس، والعقل. وهذه الدوائر الأربع كلها فعلية وحقيقيـة، والعقل على الأخـص ليس مجرد جهـاز قصـدي، بـل هـو فعلي وواقعي بالمعنى الدقيق، وإن يكن معنى الواقعيـة هذا للعقل مختلف بعض الشيء عن معناه في الدوائر الثلاث الأخرى. هذه الدوائر الأربع جهات مختلفة ومتباينة للموضوعية، حيث أن هناك دائماً صدعاً وانفصاماً بينها.

ومثال ذلك أن ياسبرز يرى أن فكرة «التعاقب»[٦٣٣] واضحة الأهمية بالنسبة إلى كل بحث حول التوجه بازاء العالم، ولكن تلك الفكرة في تناقض مع وعي العقل. صحيح أن بعض الفلاسفة يحاول أن يجعل العقل، أو يجعل الطبيعة، هو أو هي، المطلق، وأن ينكر، في كل حالة، الحقيقة الواقعة الفعلية الأخرى، ولكن ياسبرز يعتبر أن التوجه المعتدل غير المتطرف نحو العالم هو الذي يلتزم بالواقعي الفعلي كله، ويعترف بوجود الدوائر الأربع جميعاً جنبا إلى جنب. كذلك فإنه لا ينبغي إرجاع هذه الدوائر إلى مبدأ واحد موحد، ولا حتى دائرة الكائن غير العضوي.

ويظهر «الافتقار إلى الوحدة» أيضا في أفعال التكنولوجيا، وفي أفعال الرعاية، وفي التربية، وفي السياسة: ففي سائر هذه الميادين نصطدم بحواجز وعوائق لا نقدر على تعديها. ويمثل ياسبرز لهذه التقارير بتحليل الاتجاهات المنوعة لطبيب بازاء مريضه، ويبين أن أيا منها لا يمكن أن يكون كافياً بذاته. كذلك، يقوم ياسبرز بفحص معنى العلوم الطبيعية وقيمتها، ويدرس الاعتراضات التي تقام ضدها. ثم هو يدرس علوم العقل، وتصنيفات العلوم. ويظهر من هذه الدراسة أن كل تصنيف للعلوم إنما هو نسبي ومقضي عليه بالفشل إذا زعم أنه هو الحقيقي. وهكذا، ، وكما أن العالم لا يستطيع أن ينغلق على نفسه لأنه لا يحوى في داخله على أي أساس أو قاعدة، فإن التوجه في العالم على ما تقدمه العلوم لا يستطيع أن يقف على قدميه.

ونفس الأمر نجده أيضا في مواجهة التوجه الفلسفي ذي الحدود الثابتة، من مثل المذهب الوضعي والمذهب المثالي. إن الوضعية ترى المطلق في الفكر الميكانيكي وفي المعرفة الملزمة الموضوعية، فهي لا تستطيع أن تملك نفسها بنفسها. إن وجهة النظر الوضعية تظهر من البداية إنها مذهب مستحيل، حيث أنها تقوم بتبرير ذاتها، وهو أمر بغير معنى من وجهة النظر الوضعية ذاتها. [٦٣٤] ولكن المثالية لا تقل واحدية في النظرة وخطأ عن الوضعية. إن كلا المذهبين إجابة عن سؤال: ما الحقيقة الحقة؟

---

(٦٣٣) المقصود التتالي، وخروج شيء من شيء.

(٦٣٤) لأنها توجب الخروج إلى الوقائع من أجل التبرير.

ويجيبان بأنها الكل والعام. فهما لا ينتبهان على الاطلاق إلى الموجود، ولا يعرفان الفرد إلا من حيث هو موضوع. وهما يعتبران الوجود شيئاً مبرهناً عليه ويمكن البرهنة عليه. وفي نظرياتها الأخلاقية، فقد الحكم الإنساني أصله ومنبعه. إن التوجه في العالم يثبت استحالة الوصول إلى صورة صحيحة عن العالم.

إن هذه المحاولات تؤدي خدمة إلى الفلسفة الوجودية بمحض أوجه النقص التي فيها. إن الأزمة التي تقع فيها هذه المذاهب تفتح الباب أمام طريقين لا ثالث لهما: إما الرجوع إلى السلطة وإلى الوحي، وإما التقدم نحو الاستقلال الفلسفي.

ويظهر التعارض بين الدين والفلسفة ظهوراً بينا في التأمل اللاهوتي والفلسفي، ولكن لا هذا ولا تلك بقادر على تقرير معرفة ملزمة تكون مفسرة للإيمان. ولابد من الاختيار فيما بينهما: أما الارتماء في حضن السلطة أو المخاطرة بمجابهة الأخطار التي يثيرها الوجود. إن هناك صراعاً بين الفلسفة والدين.. ولكن حيث تكون الفلسفة والدين على حقيقتهما، ولا ينزلقان إلى مستوى المعرفة الموضوعية، فإن كلا منهما يحترم الآخر، رغم عدم إمكان التفاهم المتبادل فيما بينهما.

رابعاً : الوجود

إن ما يسمى في اللغة الأسطورية «بالنفس» يسمى في اللغة الفلسفية «الوجود». إنه الموجود الذي يجابه وجود العالم كله. إن الموجود ليس كائناً، بل هو يمكن أن يكون وينبغي أن يكون. إنني أنا نفسي هذا الموجود، بقدر ما أنني لا أتحول إلى موضوع أمامي أنا نفسي. إن الوجود انفتاح على وجود العالم، ولا يقوم إلا في الفعل والسلوك. ونقابل هذا الانفتاح في «المواقف الحدية» (من مثل الموت والألم والصراع والخطيئة)، وفي الوعي التاريخي، وفي الحرية، وفي التواصل مع الآخرين.

إن تأكيد الوجود بالفكر هو «إيضاح الوجود». ولكن الوسائل التأملية الكفيلة بالوصول إلى هذه الإنارة ينبغي أن تكون ذا صفة مخصوصة، لأن الوجود ليس موضوعاً: فلن أستطيع مطلقاً أن أقول عن نفسي من أكون. إن الفكر الموضِّح لا يستطيع مطلقاً أن يدرك الحقيقة الوجودية، لأن هذه الحقيقة الوجودية لا تقوم إلا في

السلوك الفعلي. أما إذا كان الفكر الموضِّح ليس فكراً فحسب، وإنما هو مصور على هيئة ما يتعالى على الوجود (الذي هو نفسه، من جهته، يقوم أيضاً بفعل التعالي)، فإنه سيكون هو نفسه تحقيقاً للإمكان الوجودي، ويمكن له عندئذ أن يدرك الوجود الممكن.

أما مناهج إيضاح الوجود، فهي: الذهاب إلى الحدود التي تصل إلى أن تمس الفراغ والخواء، الأخذ الموضوعي للغة السيكلوجية ولتلك المنطقية ولتلك الميتافيزيقية، وأخيراً ابتداع نوع من الكلى على نحو مخصوص. هذا المنهج الأخير يسمح ببناء لغة تتلألأ فيها الامكانية الوجودية، وتقوم فيها تخطيطية صورية للوجود، وإن تكن غير متوافقة مع الوجود كامل التوافق، ولا يكون لها من معنى إلا من حيث اعتبارها وسيلة لاستجواب الوجود.

بمساعدة هذه التخطيطات، يمكن وصف الوجود بوسيلة مجموعة من المقولات المخصوصة، والمعارضة لمقولات كانت، والتي ينبغي تطبيقها على الوجود القائم: فبدلا من أن تكون الحقيقة الوجودية محكومة بعدد من القواعد، فإننا ندرك أنها ذات طبيعة تاريخية تماماً. إن لها منبعاً خاصاً بها، أي أنها حرة، ففي هذا الإطار «يوجد» يعني «يقرر». إن الوجود ليس أمراً جامداً، بل هو يتثبت من ذاته في خلال الزمان. وهو لا يعرف التبادل، وإنما يعرف التواصل. إن الحقيقي في الوجود ليس هو ذلك الذي يقابل الإدراك الحسي، وإنما هو المطلق القائم في لحظة الحسم.

إن مرتبة الوجود تتوازى هنا مع مدى عِظَم الموجود، حيث تتعارض الامكانية الموضوعية مع إمكانية الاختيار من حيث هو لا حسم للمستقبل، وفي هذا اللاحسم يقوم وجودي ذاته. وتتوازى ضرورة الموجود مع الزمان الذي هو اللحظة، بينما يتعارض الحاضر الأبدي مع الزمان اللانهائي.(٦٣٥)

---

(٦٣٥) المقابلة في هذه السطور تقوم، من جهة، بين الوجود الإنساني (المرتبة الوجودية، إمكانية الاختيار، الزمان في اللحظة، الحاضر الأبدي)، وبين الموجود من جهة أخرى (المقدار، الإمكانية الموضوعية، الضرورة، الزمان اللانهائي).

إن الوجود ليس أمراً موضوعياً، قابلاً للقياس، خاضعاً للتجربة، كلي التطبيق، إنما هو حرٌ ومنذ منبعه. إن كل وجود له زمانه، وفيه أصول ومصادر، وفيه انبعاثات جديدة.

ويقدم ياسبرز عدداً من التعريفات الزائفة للوجود (لأن التعريف الحقيقي مستحيل)، والتعريف الأنسب من بينها ربما يكون هو: «الوجود هو ما لا يصير موضوعاً على الاطلاق، إنه أصل فكري وسلوكي، وهو ما أتحدث عنه بكلمات لا تعني شيئاً. إن الوجود هو ما يرجع إلى ذاته، ومن هنا فهو يرجع إلى تعاليه».

ولكن سيكون من الخطأ الخطير أن يريد البعض إدراك الوجود على أنه ذاتية. إنما الوجود، في الواقع، ثغرة في دائرة الكينونة المكونة من الموضوع والأنا. ولكنه يقوم فيما وراء هذا التمييز بين الموضوع والأنا، لأن الفلسفة تضع موضع التساؤل كلا من الموضوعية والذاتية. إن الوجود يشق طريقه في اتجاهين: نحو الموضوعي ونحو الذاتي. وهدف الفلسفة، في هذه الحالة، هو التملك الجديد المتذبذب للموضوعية. ونرى من هذا كيف أن ياسبرز، وهو بسبيل دراسة مشكلة الموضوعية، لا يجد اصطلاحاً موضوعياً يعبر به.

وإذا أراد المرء أن يصف الوجود في دقة أكبر، فلابد من فهم واضح لمفاهيم ثلاثة: التواصل، التاريخية، والحرية، التي «هي» الوجود.

خامساً: التواصل

يولد الوجود من ذاته، ولكن ليس فقط من ذاته ومع ذاته: فليس هناك وجود إلا من حيث هو تواصل واع، بحيث أنني لا أوجد إلا في التواصل. ويميز ياسبرزين أنواع عدة للتواصل، يوجد الإنسان فيها باعتباره الكائن (Dasein) وكل هذه الأنواع لها حدودها، ثم يقوم التواصل الوجودي فيما وراءها. هذا التواصل الوجودي هو عملية كشف، وهو كذلك وفي نفس الوقت عملية تحقيق الأنا باعتبارها هي هي(Selbst). في هذا التواصل الوجودي يهب «ما هو هو» نفسه إلى نفسه في عملية من الخلق المتبادل. إن التواصل هو صراع غرامي. إن الوجود يتصارع في داخله من أجل اخلاص بغير حدود. ولكن هذا الصراع صراع من نوع مخصوص:

ذلك أن هـدفـه ليس الهيمنة أو الانتصار على الاطلاق، إنما يضع كل طرف كل ما لديه أمـام تصرف الآخر. إن الحب ليس هو بذاته التـواصل، ولكنه منبع التواصل، وبغير التـواصل الـوجودي يصبح الحب إشكـالاً. وإن صراع التـواصل الغـرامي لا يتـوقف للحظة، اللهم إلا إذا فُضَّ التواصل. ويظهـر هـذا الصراع الغرامي وكأنـه يخرج من لا شيء، أما هدفه فإنه ليس المعرفة.

يمكن أن يظهـر التواصل أيضا في القيـادة وفي الخدمة(من حيث هـي إخلاص وطيبة، وتواضع ومسئولية)، وفي العقد الاجتماعي، الذي يعتبر شرطاً لوجود الجماعة البشرية، وفي المناقشة، حين يكون هناك بين المتناقشين تفاهم متبادل، بل وحتى في الحياة السياسية، إذا لم تتحول إلى مطلق.

ويقوم التـواصل بدور بـالغ الأهمية في الفلسفـة. يقول ياسبرز في مقـدمة كتـابه الـرئيسي: «نحن لا نتفلسف ابتداء مـن العزلـة، بل ابتـداء من التواصل: إن نقطـة انطلاقنا، سواء في حال الفكر أو في حال السلوك، هي إننا إنسان بازاء إنسان، وفرد بازاء فـرد». فليس من الممكن التفلسف بغير تـواصل. إن الفكر يكـون فلسفيا على الحقيقة بقدر ما تقتضي حركة الذهن توافر التواصل. إن الحقيقة الفلسفية يقوم منبعها وحقيقتهـا في التـواصل وسبب هـذا واضح: إن فعل الفلسفـة هـو فعل من أفعـال الـوجود، وهـو الذي لا يتأصل إلا في التـواصل. وحيث أن الأمـر كذلك، فإنـه لا يمكن قيـام أيـة حقيقـة نهائيـة على هيئة نظـام فلسفي، لأن نظام الحقيقـة ذاته لا يكتسب إلا بعمليـة التطـور الشخصي، وهـو لن يتحقق إلا في نهايـة العمـر، حين تتوقف الحياة ويتوقف التطور.

سادساً: الموقف والتاريخية

إن الوجـود (Existenz) يكون في موقف دائماً. وياسبرز يقصد «بالموقف» واقعاً حقيقياً أمـام ذات تهتم بذلك الموقف من حيـث هي «كائن» (Dasein)، حيـث يفرض الموقف على الذات إما حداً مقيداً وإما امتداداً في التصرف. ويمكن أن تتعدل المواقف، أو أن تقلب قلبـاً، ولكن هناك أيضـاً مـواقف مطلقة. هـذه هي «المواقف الحدية»، التي لا نستطيع لها تعديلاً، وهي نهائية، وأمامها نجد أنفسنا في الفشل.

هذه المواقف ليست موضوعاً للمعرفة، وإنما الوجود وحده هو الذي يمكن أن يشعر بها. تلك المواقف الحدية هاهي: أن يكون الموجود دائماً في موقف محدد، الموت، الألم، الصراع، والخطيئة. إننا نرد على المواقف الحدية بتنمية الوجود الممكن فينا، وهكذا نصير نحن أنفسنا حين ننفذ، والعيون مفتوحة، في قلب المواقف الحدية. إن تحقق الوجود ككل لا يتم إلا في إطار المواقف الحدية. بعبارة أخرى، فإن الوجود الحقيقي هو الواقع التاريخي الذي يتوقف عن الكلام.

ذلك أن الوجود ذو طابع تاريخي. هذه التاريخية تكشف لي الطابع المزدوج لوعيي: إني لا أوجد ككائن إلا في الزمان وحده، ولكنني لست أنا ذاتي في الزمان: هذان الجانبان ما هما إلا نفس الشيء، في الأصل، في الوعي الوجودي. إن التاريخية هي الإتحاد ما بين الكائن (Dasein) الخام وبين الوجود، وما بين الضرورة وبين الحرية، بقدر ما أن الضرورة المطلقة والحرية بغير حدود، كلاهما على السواء، ممتنعتان في الوعي التاريخي، إن الوجود لن يكون شيئاً إن لم أكن «موجوداً»، لأنه لا يكون وجود بغير الكيان الخام الموجود. وفي نفس الوقت فلن «أكون» إن لم أكن وجوداً. فالتاريخية، إذن، هي اتحاد ما بين الزمان والأبدية. إن الوجود لا هو غياب الزمان ولا هو الزمانية من حيث هي محض زمانية، وإنما هو هذا في ذاك. هذه الخاصة التي للوجود تنكشف في «اللحظة»: اللحظة هي علاقة هوية ما بين الزمانية واللازمانية، هي تعميق اللحظة الفعلية في صميم الحاضر الأبدي.

ومن الواضح أن الوعي التاريخي لا يدرك إلا الموجود الفردي وحده، وليس الكلي على الإطلاق. وعلى ذلك، فإن التاريخية ليس من الممكن التفكير فيها. ولهذا السبب، فإنها ليست مع ذلك لا عقلية، لأن اللاعقلي هو أمر سلبي تماما، بينما التاريخي المطلق هو أمر ايجابي تماما. إن التاريخية هي ساند وعي الوجود، هي المنبع وليس الحد، الأصل وليس مجرد فضلة باقية.

سابعاً: الحرية والخطيئة

إن الوجود حرية. هذه الحرية إطارها مختلف تماماً عن إطار مشكلة الحتمية

والـلاحتمية. إن هـذين الموقفين يأخـذان الوجـود الموضـوعي وكأنـه كل الوجـود، ويفقدان الحريـة على هذا النحو. إن الحرية الـوجودية ليست موضـوعية، وهي غير قابلـة للبرهنة عليها، ولا يمكن دحضهـا سواء بسواء. إنها ليست هي المعـرفة، ولا هي الارادة الحرة، ولا هي القانون، ومع ذلك فلا حرية بغير معرفة، بغير إرادة حرة، بغير قانون.

إنني أعي الحريـة في الاختيـار الوجـودي، أي في القـرار الذي اتخذه لأصير أنـا ذاتي. وحيث أن الحريـة هي هي الوجـود، فإنـه لا يمكن وضعها في تصـور عقلي. إنني أعرفهـا على اليقين على أنها لي، ليس بالفكر، بل بمحض واقعة الـوجود. لهذا كله تبدو الحريـة مجموعا متناقضـا من الارادة الحرة ومن الضرورة: إنني أستطيع لأنه يجب عليّ. ذلك إنـه حيث أنني ذو إرادة حـرة، فإنني أوجب على نفسي أمـوراً، وأفعل، وأتحمل النتـائج. إنـه إرغـام، نعم، ولكـن ليس من جـانب الحقيقـة التجريبية، بل من جهة خلق ذاتي بذاتي لحظـة الاختيار. وينتج عن هذا أنه، كما أنه ليس هناك من وجود بغير موجود خام، فإنه ليس هناك من حرية مطلقة.(٦٣٦)

إن واقعة إدراكي أنني حر تجعلني أقر أننـي مذنب. ولكن الخطيئـة ليست أمراً خـارجياً على الحريـة: إنما هي داخلة في صميم حـريتي، وبسبب واقعة أنني حـر. ذلك أننا نوجد في نشاط هو سبب وجوده هو ذاته ومبدأ تبريره: فينبغي عليَّ أن أريد وأن أفعل من أجل أن أحيـا. حتى الـلافعل، هـو نفسـه فعل. ولكن حين أختـار وأفعل فعلاً معيناً، فإنني بهذا التقط إمكانية واحدة مما أمامي، وهذا يعني أنه ينبغي عليَّ أن أرفض الأخـرى. ولكـن الإمكـانـات الأخـرى مـا هي إلا البشر الآخـرون. وهكذا، فإنـه بقراري أن أوجد، أي بمحض وجودي ذاتـه، فإنني أقع في الخطيئة. هـذه الخطيئة تشكل شرخـاً في كل محاولة لتبريـر الوجـود القائم في الصيرورة تبريـراً داخلياً وبذاته، كما أن هذه الخطيئة الأصلية هي أساس كل الخطايا الأخرى(٦٣٧). إنها لا يمكن الهرب منها، بل هي الوجود ذاته.

---

(٦٣٦) الجسم عامل للتقييد والتحديد.

(٦٣٧) أفكار المسيحية عن الخطيئة هي الخلفية الضرورية لكل هذا.

ثامناً : التعالي

إن الموجود ليس له من أساس، وهو ممزق، والوجود افتقار ونقص بغير نهاية. إن الوجود لابد أن يدخل في علاقة مع التعالي، وإلا فلن يكون. كل وجود من حيث هو كيان قائم بذاته، وكل وجود من حيث هو حرية، هو وجود واحد، ولكنه ليس «الموجود»، بألف لام التعريف. إن الوجود الحق هو التعالي. والتعالي لا يمكن إدراكه على هيئة موضوع، إنه مخفي. أما الميتافيزيقيا التي تدرسه، فإنها لا تستطيع شيئاً غير أن تستخدم الرموز للتعبير عنه، والتفكير فيه يتحطم بذاته منطقياً. في التعالي يأتي الوجود واللاوجود تناوبياً، وفي تغير متصل. ويظهر التعالي، من حيث هو موضوعية ميتافيزقية، في الأسطورة وفي اللاهوت وفي الفلسفة وهي جميعاً في صراع دائم ولكن المنهج الصحيح للميتافيزيقا هو أن تأخذ واحداً من هذه الطرق الثلاثة: التعالي الصوري، الترابطات الوجودية، وقراءة الشفرة.

في «**التعالي الصوري**»، يحدث التعالي ليس فقط على مقولات الموجود الخام، بل وكذلك على الوجود نفسه. ولا يكاد يكون هناك مفر من أن نتصور الإله على هيئة الشخصية(٦٣٨)، ولكن الإلوهية تبقى أمراً غيبياً.

أما «**الترابطات الوجودية**» للتعالي، فهي: العناد والهجر، والسقوط، وارتقاء مدارج الوجود، وقانون النهار وهوى الليل، وثراء المتعدد والواحد. وقد أصبح مشهوراً مذهب القانونَيْن، من بين سلسلة هذه الترابطات. ذلك أن وجودنا يبدو خاضعاً، في إطار وجود الكائن (Dasein)، لقوتين اثنتين: فقانون النهار يأمر بالوضوح والأمانة ويقتضيها، ويريد أن يتحقق في العالم. أما هوى الليل، فإنه شهوة أن يحطم الوجود نفسه في العالم، وهو يلقي بسائر الأوامر أرضا، وهو ظلمة، وهو يذوب في الخضوع للأرض، للأمّ، للعِرْق. إنه يعبر عن نفسه في الإثارة الجنسية. هذان العالمان يترابط كل عالم منهما مع الآخر، ولكن اجتماعهما التركيبي لا يتحقق في أي وجود.

ويرفض ياسبرز، في نظريته عن الواحد والمتعدد، تطبيق مفهوم الوحدة أو التعدد

(٦٣٨) تبرير فلسفي للتصور المسيحي عن الألوهية.

الرقميين على الألـوهية، أو حتى تطبيق أيـة وحدة أو تعـدد، نفرضهـا، عليها. إن التعالي هو الواحد، ولكن كلا من مذهب الأحـدية والتعددية في تصور الألوهية غير كاف بذاته. بل إنـه لا يمكن حتى أن ننسب الشخصية إلى الإله، لأن الشخصية لا تـوجـد إلا مع شخصيـات أخـرى، والإلـه ليس لـه مثيل. في كل هـذا القسم من نظريتـه، يبدو ياسبرز تلميـذاً مخلصاً لأفلوطين. فـالألوهية عنـده مخفية، لا يمكن إدراكها بـالمعرفـة، وهي المطلق الذي يتعـدى كل المقولات. إنها التعـالي، ولكنها في نفس الـوقت قـائمة في الموجـود الخام كما في الـوجـود. وعلى العكس من ذلك، فإن نظريتـه في الشفرة تحتوي على أشيـاء جديـدة، وإن كان ياسبرز يبقى هنـا أيضاً على خط تراث الأفلاطونية الجديدة العظيم.

تاسعاً: قراءة الشفرات والفشل

أهم مناهج الميتافيزيقا منهج الشفرات (Chiffrelesen).

الشفرة هي الوجود الذي يضعنا في حضور التعالي، دون أن يكون على التعالي أن يصير موجوداً مـوضوعياً أو موجوداً ذاتيـاً. ومن المستحيل أن نفصل، في الشفرة، ما بين الرمز والمرموز إليه: إن الشفرة تحمل التعالي إلى الحاضر، ولكنها لا يمكن تفسيرها وتأويلهـا، إنها دوماً ملتبسـة مبهمة المعنى. وعلى ذلك، فـإنه لا يـوجد تأويل عـام للشفرات، وكل تفسير هـو دوما تأويل في إطـار الوجـود. ذلك أن الوجـود هو محل قراءة الشفـرة. هذه القراءة تتم في السلـوك الذي نقـوم به. إنني في صراعي من أجل الـوصول إلى هـذه القـراءة، أمسك بوجـودٍ في هـذه القراءة. وهي ليست على صلـة بالأنطولوجيا، فلا يوجد في صَدَرِها معرفةٌ ملزمة.

ليس هنـاك أمر لا يمكن أن يكـون شفرة: كل مـوجود، والطبيعة، والتـاريخ، والوعي بوجه عام، والإنسان نفسه، وحدته مع الطبيعة ومع عالمه، وحريته، إلى غير ذلك، كل هذا يمكن أن يكـون شفرةً للتعالي. والفن هو اللغـة التي تعين على قراءة الشفـرة. ولكن التأمل الفلسفي هـو أيضـاً قراءة للشفـرة. وعلى ذلك، فإن بـراهين وجود الإله هي الأخرى قـراءة تأملية للكتابة الشفرية، ومنبعهـا يقوم في وعي الوجود

بكينونته. ولكن لا يمكن مطلقاً البرهنة على التعالي، كل ما يمكننا الوصول إليه عنه هو الشهادة. إن الشفرة الحاسمة للتعالي هي تلاشي الموجود، هي الوجود في الفشل.

إن التجربة تعلمنا أن الفشل هو الكلمة الأخيرة: كل شيء يسقط. ولكن ما يسقط في مواقف الإنسان إنما هو الوجود ذاته. ومع ذلك، فهناك فشل بالمعنى الصحيح وفشل وهمي. وهكذا، فحين يريد المرء الفشل ويسعى إليه، وخاصة حين يرغب في نهاية كل شيء، هنا نكون بازاء الفشل الوهمي. أما الفشل بالمعنى الصحيح، فإنه يتحقق في المشاركة في بناء عالم في نطاق الموجود، مع الرغبة في أن يكون ذلك العالم منظماً وذا بقاء ودوام، ولكن مع جسارة الوعي بمخاطرة السقوط الأكيد. هذا السقوط بالمعنى الصحيح هو تأبيد (من أبدية)، ويمكن أن يصير شفرة ذات أهمية للوجود. إن وعي الفشل لايولد السلبية إلا حين يفترض المرء أن الديمومة الزمانية هي معيار القيم، وحين يجعل من الوجود الكوني مطلقا.

إن الفشل ضرورة. فحيث تكون هناك حرية، فلابد أن تكون القيمة والديمومة هشتين. ولما كانت الحرية لا تقوم إلا عبر الطبيعة وضدها، فإنها لابد أن تتحطم إما كحرية أو كموجود معطي. إن قراءة الشفرة ليست ممكنة إلا مع فشل أكاذيب الموجود المعطي، أي في فشل كل معرفة وكل فلسفة. وبصفة أخص، فحيثما يكون النهائي هو الإناء الذي يتجلى فيه الحقيقي، فلابد من أن يتحطم شذراتٍ.

ويبدو أن ياسبرز يرى أن فشل كل موجود نهائي يبشر بالوحي والكشف وتأكيد لا نهائية الإله، الذي هو الوجود الحق الوحيد. إن الإله لا يمكن أن يظهر إلا من حطام الكائن النهائي. هذا هو السبب في أن الكلمة الأخيرة لفلسفة ياسبرز هي هذه: «التفلسف، هو تدرب على الموت»(٦٣٩)، وشعارها هو: «فلنجرب الوجود في الفشل».

---

(٦٣٩) تعريف للفلسفة عند أفلاطون، في محاورة «فيدون».

ملاحظات ختامية انتقادية حول الفلسفة الوجودية

لكي نزن الفلسفة الوجودية في ميزان عدل، فإن علينا قبل كل شيء أن نميز فيها بين سمتين مختلفتين: فهي تنحصر، في المحل الأول، في عودة إلى الأسئلة الحارقة المتصلة بمصير الإنسان، والتي هي ذات أهمية في تحديد تصور عن العالم، ثم هي تضم إلى ذلك تحليلاً جديداً للوجود الإنساني على أساس من قاعدة أنطولوجية وميتافيزيقية.

أولاً: ينبغي، بغير أدنى شك، أن يحيى المؤرخ الأوربي، تحية عظيمة، هذه العودة إلى المشكلات الإنسانية، وذلك بدافع من احترامه للثقافة الأوربية، ويمكن تسمية هذا الجانب بالعنصر «المصيري» الذي يوجد في الفلسفة الوجودية. فالواقع أن الاهتمام بمصير الإنسان يبدو مربوطاً برباط لا ينفصم إلى الثقافة الأوربية، على نحو ماكونتها القوى اليونانية والرومانية والمسيحية، ولكن في خلال العصور «الحديثة» اختفى هذا العنصر اختفاء تاماً على التقريب في الفلسفة الأوربية. لقد قالها اسبينوزا منذ القرن السابع عشر الميلادي: «الإنسان الحر لا يفكر في شيء أقل من تفكيره في موته»، أما في القرن التاسع عشر الميلادي، فإن كل شيء يخص الشخص الإنساني كان يعد «غير علمي».

ولا ينبغي، مع ذلك، أن نفهم أن ذلك العنصر «المصيري» هو سمة دينية. فلا يمكن اعتبار نيتشه مثلاً مفكراً دينياً، رغم أنه مفكر «عصري» من الدرجة الأولى. ومن الجهة الأخرى، فإنه ليس ممكنا كذلك مقارنته، أي ذلك المصيري إلى العنصر الديني: فلا القديس أوغسطين ولا باسكال كانا مفكرين وجوديين. وربما أدت مقارنةٌ بين «هِكّل» ونيتشه إلى إيضاح أهمية هذا العنصر في الفلسفة. فكلاهما كان ملحداً وقائلاً بالحتمية، ومع ذلك فإن فكريهما سارا في طريقين مختلفين

كل الاختلاف. وهكذا، فإن عدم وجود الإله هو قضية مبرهن عليها عند هكّل، أما عند نيتشه فإنها تراجيديا. ولو حدث وسار مفكرو الفلسفة الأوربية في الطريق الذي اقترحه هكّل، إذن لكان في هذا فناؤها وفناء الثقافة الأوربية بوجه عام. وهكذا، فإن تأكيد الفلسفة الوجودية على عنصر «المصير» من جديد هو مشاركة، من غير شك، في جهد تصحيح الحياة والفكر الأوربيين.

بالطبع، لقد غالت الوجودية، كما يحدث كثيراً، في رد فعلها ضد الماضي، وهو رد فعل قد يكون مبرراً في ذاته. ذلك أن كثيراً من فلاسفة الوجودية يرون أنه لا يوجد شيء آخر في الفلسفة غير مسائل المصير هذه، ويدور كل تأملهم الفلسفي حول الموت والألم والفشل وما شابه. وهم بهذا يهملون عاملاً آخر جوهرياً في الثقافة الأوروبية: ألا وهو العقل، الذي طوره اليونان بخاصة، العقل المدرك للموضوعي والمدرك للعلم. إن الوجودية تؤكد غالباً على عنصر المصير، وبقوة شديدة، حتى أنها لا تعود تظهر على هيئة فلسفة أوربية، بل بالأحرى كأنها فلسفة هندوسية، أي تأمل يهدف وحسب، حتى رغم المنطق الذي يأتي به، إلى تحقيق الخلاص. لهذا السبب تصطدم الوجودية برفض له ما يبرره من جانب كثير من فلاسفة أوربا الجادين، بل من معظمهم.

ثانياً: إلى جوار الاهتمام بعنصر «المصير»، فإن الفلسفة الوجودية تتميز بجانبها التكنيكي الفلسفي. من هذا الجانب أيضاً، يمكن للمؤرخ أن يسجل عدداً من الأفكار والنتائج من كل نوع، والتي هي ذات قيمة عظيمة.. فليس من يجادل في أن هؤلاء المفكرين قد أثروا الفلسفة بعدد غفير من التحليلات السيكلوجية والفينومينولوجية المتميزة، بل إنهم استكشفوا، ولأول مرة، ميادين جديدة، ومنها على سبيل المثال الارتباطات ذات الطابع الشخصي المحض بين البشر («الوجود-مع»، «الوجود-من أجل-الآخر»، «الأنت»، «التواصل»). وهكذا ظهرت إلى الوجود سلسلة جديدة من المشكلات، وهي تؤذن بتوسع كبير جوهري لميدان الفلسفة.

إن تحليلات الفلاسفة الوجوديين تحليلات أساسية في مواجهة الوضعية، من

جانب، والمثالية، من جانب آخر. في مواجهة الوضعيين، يدفع الوجوديين، دفعاً ناجحاً، بأن الموجود الإنساني لا يمكن أن يختزل وجوده إلى المادة، كما يتعدون المثالية حين يقررون أولية الوجود على الفكر، وذلك في حماس وقوة إقناع بليغين. وقد أظهر الوجوديون، من ناحيتهم، غالباً، نظريات أنطولوجية، كما أن بعضهم طور فيها، وتوّجَها بمذهب في الميتافيزيقا.

ونلاحظ أخيرا، وبوجه خاص، أن فهمهم لمختلف المشكلات المتصلة بنظرية الإنسان يتعدى ببعيد كل ما أنتجه القرن التاسع عشر الميلادي في هذا الصدد. ولذلك فإن المؤرخ ليس بحاجة إلى التأكيد كثيراً على أن الفلسفة الوجودية ليست وحسب صيحة نبوءة، بل هي أيضاً فلسفة ذات اصطلاح ومناهج تكنيكية فلسفية خاصة، وأنها من أكثر من منظور، ذات قيمة عظيمة.

ولكن هذا الجانب «الفني» الاصطلاحي للوجودية يظهر كذلك أكبر مظاهر الضعف فيها. ذلك أن هؤلاء الفلاسفة لم يكادوا يتعدون المثالية إلا قليلاً، فهم يفترضون أن الموضوعي ينبغي بالضرورة أن يكون خاضعاً لشروط الذات، ويبحثون بهذا عن الوجود في مجال «ما يتعدى الموضوع» (Transobjectif) المزعوم، والذي لا هو ممكن تصوره بالفكر، ولا هو، بالتالي، ممكن الادارك بالكلمات.

إن المُتعيِّن هو ما يهتمون به أعظم اهتمام، حتى أصبحوا لا يشتغلون بشيء غير ذواتهم، وهكذا، غالباً ما تحولت فلسفاتهم إلى سيرة حياة ذاتية خالصة، تعبر وحسب عن محض حالات شعورية وعواطف خالية من المعنى على التقريب، وذلك بطريقة شاعرية، فضلاً عن كونها غير علمية.

والأمر أخطر كثيراً، بوجه عام، حينما ينظر المؤرخ في أنطولوجيا الوجوديين. ففي نظر النظرية الجادة التي تدرس الوجود في هذا العصر تبدو هذه الأنطولوجيا، غالباً، كأنها ألعاب هواة يلعبون بمفاهيم لم يُتعمق فيها بما فيه الكفاية (وخاصة عند سارتر مع مفهوم «العدم»). ولم يتوصل أحد من فلاسفة الوجودية إلى فحص مسألة الوجود من حيث هو وجود، وهم جميعاً يخلطون دائماً ما بين درجة الوجود المخصوصة، وهي

خاصية للإنسـان من حيث هـو إنسان، ونحـو للوجـود معين، الذي ينسبـونه إلى الإنسـان عن خطأ. وهكذا، فإن الانقسـام الديكـارتي للوجـود، إلى وجود إنسـاني ووجود غير إنسـاني، وهو الذي وجه كل الفكـر الأوربي «الحديث»، على التقريب، وجهـةً مشؤومـةً، هـذا الانقسام لم يتعـداه الفـلاسفة الـوجـوديون بـواسطـة نظريـة أنطولـوجية حقيقية، بل هـو على العكس، قد تعمق عنـدهم أكثر وأكثر. هـذا هو السبب في أن الوجودية، رغم عظيم ميزاتها والعديـد من المشاركات الميتافيزيقية ذات القيمة، ومن بينها تحليلهـا لعَرَضية الوجود وحدوثه ولتعـالي الإله، أنها تبقى في نهاية الأمر قليلة الإقناع. هذه المشكلات سوف تُعـالج على نحو أكثر جدية بكثير، وأكثر عمقاً، على أيدي فلاسفة الوجود.(٦٤٠)



(٦٤٠) الذين يتناولهم الباب السابع.

الباب السابع

فلسفـــة الوجـــود

الفصل الحادى والعشرون

فـلسفـات الميتافـيزيقا

أولا: مفهوم الميتافيزيقا

يـدرس هذا البـاب، تحت عنوان «فلسفـة الـوجود»، ذلك التيـار الفلسفي في الفكـر الأوربي في النصف الأول من القـرن العشرين الميـلادي، الـذي يحق لـه أن يكـون على أعلى درجة من الأهميـة. ومعظم فـلاسفة هـذا التيار ينحـازون الى صف الميتافيزيقا، وعدد منهم يريد لنفسه أن يكون «أنطولوجيا» وحسب (٦٤١) وحيث أن كلمة «ميتافيـزيقا» تحتمل العديد من المعـاني، فاننا نبدأ بتحديـد المعنى الذي سوف نستخدمه هنا، على تدقيق أكبر.

مصـدر الكلمة هـو المحقق الارسطي اليـوناني أنـدرونيقوس من رودس، الـذي سمىَّ بهذا الاسم عـددا محددا من كتـابـات ارسطو، وهـو بسبيل تـرتيب المؤلفـات الأرسطية. لقـد كان يـريد أن يسميٌ هكـذا وحسب «المقالات التي أتت بعـد كتاب «السفيـزيقـا» (Metaphysica). وقد تحولـت هذه الـ «بعد» (Meta)، خـلال العصور، إلى معنى مختلف: فلم يصبح المفهوم هو ما يأتي «بعد» كتاب الفيزيقا، بل ما «يعلو» على ميدانها، وهو مايفهم الآن مـن كلمة «ميتافيزيقا». أخيرا، فان بعض أصحاب الأقلام من الأدباء ومن شابههم، والذين كانوا على غير علم وثيق بالموضوع إلى درجـة أو اخـرى، وكـذا فلاسفـة الاتجاهـات الحدسيـة، ومعهم دعـاة المذهب الوضعي، كل هـؤلاء فرضـوا على القراء مفهومـا شعبيا عن الميتافيـزيقا: وفيـه تكون

(٦٤١) سيأتي بعد قليل الحديث عن التفرقة بين الأمرين

الميتافيـزيقا انطـلاقةً نحو الغيب والماوراء، نحـو الإله وما شـابه، وهي تُـدرك هذا الماوراء بوسيلـة دفقة من الخيـال الذي لا يعتمـد على أي برهـان مضبوط. هـذا هو المعنى الذى يفهم عليه الجمهور غير الفيلسوف اليوم اصطلاح «الميتافيزيقا».

ولكن الكلمـة تحمل معنى مغايـرا تماما عند معظـم الفلاسفة الـذين سنأتي إلى الحديث عنهم، ومن المهم أن نبدأ بإيضاح هذا المعنى إذا أردنا فهم تلك الكلمة. إن هؤلاء الفلاسفة يطلقـون اسم «الميتافيزيقا» على نظرية الـوجود من حيث هو وجود، إذن فإنهم يقصدون نظريـة الوجود، وهم يجتهدون في تفصيل القول في هـذه النظرية بوسـائل عقلانية. وهم بهذا يتعـدون، بطبيعة الحال، معطيات العلـوم الطبيعية، ولكن معظم الفلاسفة الغربيين اليوم متفقون على أن ذلك ضرورة لازمة.

وتختلف «العقلانية» عنـد فلاسفة الوجود عنها عند الفـلاسفة الوضعيين، فهي لاتعنى تحديـد البحـث بحـدود خبرة علـوم الطبيعـة، ولكنهـا مع ذلك تنص على الحذف الكامل لوسيلتي الخيال والعاطفة مـن طريقة البحث التأملية، وكذا أيضا، عند معظمهم، على حذف المنهج المسمى بالمنهج «الوجودى».

ومن المعتاد، اليوم، أن يُنظر إلى التفرقة بين «الميتافيزيقا» و«الأنطولوجيا» على أنها تقوم في أن مبحث الأنطـولوجيا يقتصر على تحليل بنية الموجود، وبـالتالي على تحليل ماهيته، على حين أن الميتافيزيقا تقدم قضـايا وجودية، أي تتصل بكينونة الموجود. خذ مشكلة المعرفة مثلا. فهي من هذه الزاوية مشكلة ميتافيزيقية في جوهرها، لأنها تبحث في كينونة الوجود في ذاته. هناك تمييز آخر بين الأنطولوجيا والميتافيزيقا، وهو يأتي من أن هذه الأخيرة لا تقتصر على فحص مشكلات محددة، وإنما هي تريد، من حث المبـدأ على الأقل، أن تتوصل إلى تصـور عام عن الحقيقـة. وهكذا يكـون من المبرر أن نُـدخل فلسفـة نيكولاى هـارتمان في إطـار فلسفـة الوجـود، وإذا كـان من الصحيح أن هذا الفيلسوف يقـول تصريحا إنه أنطولوجي وحسب، فـان الواقع بغير شك ممكن أنه يشتغل بالمسـائل الميتافيزيقية، وخذ مثلا على ذلك نظـريته في قانون القوة.

ولكن، لا ينبغي أن نستنتج من الملاحظات السابقة أن فلاسفة الوجود يحددون نشاطهم بحدود تحليل الوجود. على العكس، فـانهم كلهم أو يكاد قدموا فلسفة طبيعية، ونظرية في الإنسان، وأخرى في القيم، من بين ميادين أخرى. إنما يقوم الاختلاف فيما بينهم وبين الفلاسفة الآخرين في أن نظرياتهم في الأنطولوجيا العامة وفي الميتافيزيقا تقف موقف الأساس من شتى مذاهبهم المتصلة بالتخصصات الفلسفية المعينة.

ثانيا: المفكرون

هناك من الميتافيزيقيين اليوم الكثير، إلى درجة أننا لا نستطيع مجرد ذكر أسمائهم وحصرهم جميعا. كذلك، فإنه ليس من السهل تصنيفهم إلى مجموعات، لأنك إذا أخذت كلا منهم بمفرده، فإنك واجد بينهم اختلافا بعيدا. ومع ذك، فسوف نميز فيهم بين مجموعات أربع.

نضع في المجموعة الأولى فلاسفة، هم من الألمان في معظمهم، يتجهون وجهة الواقعية غير المباشرة ولكنهم مع ذلك أقاموا نظريات ميتافيزيقية، ويغلب عليها الطابع الاستقرائي. وينبغي أن نذكر منهم أول من نذكر هانزدريش (١٨٦٧ ـ ١٩٤١م)، وقد جاء من تخصص علم الحياة، وقدم فلسفة عن العالم العضوى تتقارب، من بعض الجوانب، مع فلسفة أرسطو، ثم عاد وأقام على هذا الأساس فلسفة ميتافيزيقية. ولنذكر من هذه المجموعةأيضا هنريش ماير (١٨٦٧ ـ ١٩٣٣م)، وعالم النفس المعروف أرك يانش (١٨٨٣ ـ ١٩٤٠م).

تتألف المجموعة الثانية من مفكرين متدينين، يقولون بالالوهية، ويعتمدون على منبع المذهب الأفلاطوني المحدث (٦٤٢). وقد تطور هذا التيار في إنجلترا على الخصوص، وممثله الرئيسي هو المفكر الافلوطيني المعروف وليام انجه (ولد عام ١٨٦١م). وبعض الواقعيين الجدد يقتربون من هذا التيار هم أيضا، وإن لم يميلوا إلا قليلا ناحية الأفلاطونية الحديثة، ومن هؤلاء جون ليرد (ولد عام ١٨٨٧م)

---

(٦٤٢) أو «الأفلاطونية الجديدة»، أو «المحدثة»، وأهم فلاسفتها أفلوطين (توفى عام ٢٧٠م)

وخاصة الفرد ادوارد تايلور (١٨٦٩ ــ ١٩٤٥م) وفي فرنسا، يتخذ موريس بُلندل (١٨٦١ ــ ١٩٤٩م) وجهة مماثلة، حيث بدأ بتقديم فلسفة تنتسب إلى الروح البرجسونية إلا أنه فصل القول، من بعدُ، في مذهب ميتافيزيقي، نجد فيه عناصر من الفلسفة التومارية ومن الافلاطونية المحدثة ومن فلسفة الحياة، وحتى من الفلسفة الوجودية. ورغم أن أفكاره يشوبها بعض الاطناب، إلا أنه كان له تأثيره الكبير على كهنة الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، وعلى بعض رجال الدين المسيحي في كثير من البلدان. ويقابل هذا التيار في المانيا ما يسمى بالاتجاه الاوغسطيني[٦٤٣]، ويمثله على الخصوص يوهان هسن، وهو فيلسوف يعرض فكره على نحو أكثر تنظيما مما يفعل بُلندل وتلامذته.

المجموعة الثالثة تتكون من فلاسفة اتجاه «فلسفة الروح» (Philosophiedel'esprit) الفرنسيين، وقادتها رُنيه لوسِنْ (ولد ١٨٨٢م) ولوى لافِلْ (ولد ١٨٨٣م).

ولا توجد مجموعة أخرى من الفلاسفة الميتافيزيقيين أثر فيهم المذهب المثالي بأكثر مما أثر في هؤلاء، بل إن لوسن يذهب مدى بعيدا في هذا الصدد إلى حد إمكان ربطه بالمثالية بأكثر من ضمه إلى اتجاه الميتافيزيقا. وفي ذلك فإن سائر هؤلاء الفلاسفة يضعون مسألة الوجود من حيث هو وجود في مركز اهتماماتهم، كما أن مذاهبهم تدل، من نواحي أخرى، على حيازتها على الخصائص المميزة لفلسفة الوجود.

يمكن، أخيرا أن نضع في مجموعة رابعة عددا من المفكرين ذوى الاتجاهات الطبيعية، ولا بد من أن نذكر منهم صامول الكساندر (١٨٥٨ ـ ١٩٣٨م) على الأخص، والمفكر الامريكي، الذى له تأثيره أيضا في أوربا جورج سانتيان. (ولد ١٨٦٣م).

وإذا كان هذا التصنيف الرباعي يبدو بالفعل مدرسيا، فإنه يضاف إلى هذه الصفة أنه لا يترك مكانا نضع فيه الميتافيزيقيين الآخرين. . ونذكر من هؤلاء

(٦٤٣)

بخاصة، الانطولوجي الألماني جونترياكوبي (ولد ١٨٨١م) وعالم الاجتماع النمساوي من فيينا اتمار شبان (ولد ١٨٧٨م) والمفكر السويسرى من مدينة بال باول هيبرلن (ولد ١٨٧٨م) ومنطقي الرياضيات الألماني الكبير هنريش شولتز (ولد عام ١٨٨٤م)، الذي هو في نفس الوقت ميتافيزيقي أفلاطوني.

ولكن سائر ممثلى الميتافيزيقا الجديدة تسودهم شخصيتان ترتفعان وتبرزان:

الفرد نورث وايتهد (١٨٦١ ـ ١٩٤٧م) ونيقولاى هارتمان (١٨٨٢ ـ ١٩٥٠م) ومدرسة تبرز هي الأخرى هي المدرسة التوماوية. وسوف نقوم بالتالي بدراسة هذه الفلسفات الثلاث بالتفصيل. ومع ذلك ومن أجل تقديم فكرة عن الاتجاهات الأخرى، فسوف نبدأ بعرض أهم ملامح المذاهب الفلسفية لكل من الكساندر ولافل وهيبرلن.

وقد حدد اختيارنا أن هؤلاء الفلاسفة الثلاثة يعتبرون ممثلين لاتجاهات ثلاثة مختلفة.

ثالثا: التأثيرات

تتنوع أصول المدارس الميتافيزيقية المختلفة، في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، تنوعا شديدا. وهكذا نجد أن الكساندر ووايتهد يأتيان من جانب الواقعية الجديددة الإنجليزية، ويخرج هارتمان من مدرسة ماربورج (٦٤٤) ويخضع لتأثيرات قوية من جانب الفينومينولوجية، بينما يسير الفلاسفة التوماويون على آثار التراث الوسيط في أوربا. وقد كان لكل من فلسفة الحياة والفينومينولوجيا، وهما الحركتان اللتان فتحتا الطريق أمام الفكر الأوربي في القرن العشرين الميلادي، كان لهما تأثير ضخم على معظم الميتافيزيقيين في هذا العصر.

ولكن، إذا أراد المرء أن يبحث عن القوة الحاسمة التي يعود إليها في النهاية تحريك كل هذا التيار الفلسفي، فسوف يجد أمامه، يقينا، أفلاطون وأرسطو.

---

(٦٤٤) راجع، فيما سبق، الفصل العاشر، «رابعاً»

وتختلف أهمية كل منهما بحسب كل فيلسوف ميتافيزيقي مأخوذا على حدة: فالانجليزي وايتهد تلميذ لأفلاطون أكثر منه لأرسطو، بينما المدرسة التوماوية وهارتمان يتابعون خطوط التوجه الأرسطية. ولكن هؤلاء الميتافيزيقيين، في معظمهم، يظهرون تأثير أرسطو عليهم. ويظهر هذا، على الأخص، في أنهم يجمعون في فكرهم، معا وفي نفس الوقت، بين المذهب العقلي واتجاه تجريبي وتوجه نحو تفسير شامل للحقيقة، وهذا المجموع لانجده إلا عند الارسطيين. من منطلق هذه السمات الارسطية، والبونانية بعامة، فإننا نجد هؤلاء الميتافيزيقيين في معارضة حادة مع روح الفلسفة الكانتية. (٦٤٥)

ورغم أن هؤلاء الفلاسفة الميتافيزيقيين الذين نحن بصددهم قد تعدوا، في مجملهم، مرحلة الفلسفة الكانتية (٦٤٦)، وتعدوا معها توجهات الفلسفة الغربية الحديثة (١٦٠٠ ـ ١٩٩٠م)، فإن هذا لا يعني مع ذلك أنهم تخلصوا تماماً من تأثير الفلسفة الكانتية، ولا نجد أحداً منهم قد تراجع إلى المواقف الفلسفية السابقة على «كانت». صحيح أن وايتهد يقول إنه أفلاطوني بالمعنى الدقيق، وأن التوماويين يؤكدون تكراراً أنهم يأخذون لأنفسهم مذهب القديس توما الأكويني (١٢٢٤/ ١٢٧٤م)، ولكن الواقع أن هذا وهؤلاء يثرون المذاهب التي يعودون إليها إثراء عظيماً، وذلك بأن يضعو في إطارها مشكلات جديدة.

وهكذا، فإن مشكلة المعرفة، موضوعة على الطريقة الكانتية، تقوم بدور في كل النظم الميتافيزيقية التي نحن بصددها، وتظهر حاضرةً فيها، ولكن النتائج التي يتوصل إليها هؤلاء الفلاسفة تقف على النقيض تماماً عن مواقف الفلسفة الكانتية. في نفس الوقت، فإن هذه الفلسفة الميتافيزيقية في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي تعترف بأهمية علوم الطبيعة، وإن لم نجد أيا من هؤلاء الفلاسفة الذين سوف نتحدث عنهم، مع استثناء ألكساندر، يعتمد على تلك العلوم الطبيعية مأخوذة

(٦٤٥) الفلسفة اليونانية تدور من حول مشكلة الوجود، بينما تصبح المعرفة هي موضوع الفلسفة الأول عند كانت.

(٦٤٦) راجع، فيما سبق، الفصل الأول، «ثانيا»، والفصل الثاني، «سابعا»، وغير ذلك من المواضع.

كأساس يعتمد عليه وينطلق منه، ذلك لأن موضوع هذه الفلسفة يقوم فيما يتعدى ميدان علوم الطبيعة، ومع هذا، فإننا نجد أن عدداً وافراً من النظريات العلمية، وخاصة نظرية التطور، قد وجد، في هذه النظريات الميتا فيزيقية الحالية، أكمل شكل فلسفي يعبر عنه. ويصدق هذا الحكم على المفكرين الإنجليز على نحو خاص.

أخيراً، فإن الفلسفة الوجودية، في العقد الخامس من القرن العشرين الميلادي، قد بدأت تؤثر على الفلاسفة الميتافيزيقيين. ويبدو أنهم يقتربون من دراسة مشكلة الوجود الإنساني، ابتداء من وجهة نظرهم الميتافيزيقية.

وبصفة عامة، فإننا نجد، عند الفلاسفة الميتافيزيقيين، تَمَثُّلَ التياراتِ الحديثة نفسَه الذي وُجِد عند الفلاسفة الوجوديين. بل إن معظم هؤلاء الميتافيزيقيين يتقدم خطوة أبعد: فبينما هم يفصِّلون القولَ في كل ما أتى به الفكر الجديد في القرن العشرين الميلادي، فإنهم كذلك وفي نفس الوقت يغترفون من منبع أفكار اليونان والعصر الأوربي الوسيط والعصر الحديث السابق على كانت.

رابعاً: الخصائص

هذه هي، فيما يلي، السمات الأساسية للنظم الميتافيزيقية التي ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي في أوربا:

أ ـ التجريبية: يرى ممثلو هذا الاتجاه أن التجربة هي الأساس الوحيد السليم الذي تقوم عليه الفلسفة وتنطلق منه. وعلى هذا، فإنهم، جميعاً، يرفضون المعارف «القبلية» بالمعنى المعروف عند كانت. وإذا كان لدى الإنسان معارف خارجة عن حدود الحس، فإن هذا لا يعني، في رأي الميتافيزيقيين، أنه يمكن للمرء أن يعرف أي شيء كان إلا من خلال خبرة المعطى في التجربة الحسية.

ب ـ المذهب العقلي: الفرق الكبير بين هذا الموقف القابل للمذهب التجريبي على تلك الصورة، وبين فلاسفة المادة أو فلاسفة الحياة، يقوم في أن الميتافيزيقيين متفقين في ذلك مع فلاسفة الفينومينولوجيا، يقبلون إمكان قيام تجربة ذهنية عقلية

(مختلفة عن التجربة الحسية). إن المعرفة عندهم لا تتكون وحسب، وعلى نحو نهائي، من تجارب حسية تترابط فيما بينها بروابط وعلاقات منطقية: إنما هناك في قلب الحقيقة مضمونات عقلية، وهي معطاة لنا على نحو متميز مستقل بنفس القدر الذي تُعطى لنا فيه المضمونات الحسية.

جـ ـ المنهج العقلي: يرفض معظم الميتافيزيقيين منهج برجسون الحدسي، ويتطلعون نحو تأسيس قضاياهم باستخدام عمليات عقلانية. إنهم عقلانيون مخلصون، ويتفقون مع هيجل في أن كل ما هو حقيقي فإنه عقلي. وهم يستخدمون مناهج عقلية في كل الميادين الفلسفية.

د ـ الاتجاه الأنطولوجي: يتميز الميتافيزيقيون عن أنصار الفلسفة الفينومينولوجية بتأكيدهم على أهمية مسألة الوجود. إن موضوع فلسفتهم ليس «الظاهرة»، ولا الماهيات وحدها، بل هو الوجود في كله وشموله، في ماهيته، وفي كينونته المتعينة، وفي سائر الأوجه التي يوجد عليها.

هـ ـ النزعة الكلية (Universalisme) : كما أن الميتافيزيقيين يستكشفون الوجود على سائر الأوجه (Modes) التي يظهر عليها، فإنهم كذلك لا يُقْصون عن اهتمامهم وبحوثهم أيةَ درجة من درجات الوجود، ولا يقولون بأن أية درجة منها هي الحقيقة وحدها دون الأخريات، وذلك لأنهم ينظرون إلى كل الحقيقة من منظور الوجود. نفس هذا الاتجاه نحو الكلية والشمول يظهر في أن الميتافيزيقيين لا يعدلون عن محاولة تفسير الحقيقة في كليتها (وهم من هذه الزاوية التيار الفلسفي الوحيد الذي يقف هذا الموقف). لهذا السبب، فإنهم جميعاً، أو يكاد، يعالجون مشكلة اللاهوت الطبيعي[٦٤٧]، ويجتهدون في إعطاء نظرية حول المبادىء العليا للعالم.

ومن المناسب أن نشير إلى أن السمتين الأخيرتين لا توجدان عند جميع الميتافيزيقيين على نفس الدرجة من القوة. وهكذا، وعلى سبيل المثال، فإن التوجه الأنطولوجي ضعيف الظهور عند الكساندر، بينما يتحرز هارتمان، رغم أنه ينضوي

---

(٦٤٧) أي الكلام في الألوهية بوسيلة العقل الطبيعي، في مقابل الوحي.

تحت لواء النزعـة الكلية، من أن يدعي أنه يحاول تفسير الحقيقـة في كلها، وهو تحرز يبديه من ناحية المبدأ. وإذا كان لهاتين السمتين نفس الدرجة من الأهمية عند كل من وايتهـد والتـومـاويين، إلا أن أتباع القـديس تـومـا الاكـويني يتجهـون إلى الاهتمام بالأنطولوجيا على نحو أبرز مما يفعل المفكر الإنجليزي.

و ـ النـزعية الإنسـانية: على عكس الفلاسفـة الماديين، الذين يهتمـون هم أيضاً بحسب المناسبات بـالنظر في مجمل العالم مأخوذاً ككل، فإن الفلاسفـة الميتافيزيقيين يتسمون بـالنزعـة الإنسانيـة رغم توجههم إلى الاتجاه الكلي، أو بسببـه، وتحتل نظـرية الإنسـان مكـاناً كبيراً في مـذاهبهم الفلسفيـة. ولكنهم، بطبيعـة الحال، لا يقصرون اهتمامهم على هذا الميدان وحسب، على نحو ما يفعل الفـلاسفة الوجوديون، وذلك لأنهم يـرون أن الإنسان ليس هـو محور الفلسفة. ولكنهـم، جميعـاً قدمـوا مشاركـات هامة في حل المشكلات الإنسانية الكبرى، وخاصة مشكلات التاريخ، والأخلاق، والدين.

إن الميتـافيـزيقـا المعـاصرة تحـوز، إذن، إلى درجـة كبيرة، على سمات الفكـر الجديـدفي النصف الأول من القرن العشرين الميـلادي فهي تَأَمُلٌ يتجـه نحو دراسـة المتعين[٦٤٨]، ونحو دراسة الـوجود الإنساني. ومن هذه الوجهـة للنظر، فإنه ينبغي تقديـر هذا التيار باعتبـاره أحد أشكال التعبير المتميزة عن هـذا العصر (في الحضارة الغربية).

خامساً: فلسفة الروح الفرنسية (لافِلّ)

نما، في خـلال فترة الأعـوام العشريـن، الممتـدة مـا بين ١٩٣٠، و١٩٥٠م. في فرنسـا، نوعٌ من الفلسفة واضح التميـز، تحت اسم «فلسفة الـروح». وهي تتعارض معارضة قوية مـع المذهب المثالي الـذي ساد الجامعة الفرنسية[٦٤٩]، أو مع المذهب

(٦٤٨) راجع، فيما سبق، هامش (٦٢٠).

(٦٤٩) راجع الفصل الأول، «رابعاً» و«خامساً»، حول أسماء أهم الفلاسفة الفرنسيين في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

الوضعي على السواء، وتجتهد في أن تدفع عن نفسها تطاول سلطات الدولة وتعديها على استقلال المفكر.

وهناك ثلاثة مبادىء، على الخصوص، يأخذ بها فلاسفة هذا الاتجاه، كقاعدة لهم: الاعتراف بوجود المطلق، أخذ كل التجربة الإنسانية في الاعتبار، قبول سائر الاتجاهات الروحية التي يتطلبها فهم الشخص الإنساني. وعلى الرغم من اختلافهم فيما بينهم حول عدد من المسائل، إلا أن هؤلاء الفلاسفة يجمعهم وسم أساسي مزدوج، وهم يشتركون فيه جميعاً: قبولٌ لنوع ما من الاتجاه الحدسي، وميلٌ ظاهر نحو طريقة التفكير الأفلاطونية المحدثة. من جهة أخرى، فإنهم يعبِّرون جميعاً عن أفكارهم في لغة يعتنون في اختيارها عناية كبيرة، وإن تكن لغة صعبة على الفهم.

ويظهر لوى لافِل (ولد عام ١٨٨٣م)، إلى جوار رنيه لوسن (ولد عام ١٨٨٢م)، باعتباره قائد «فلسفة الروح». ويحوز مذهبه الفلسفي أهمية وامتداداً عظيمين، حتى أننا لن نحاول هنا ولو مجرد تقديم مجمل مختصر عنه.

لقد وصف بعضهم لافِلْ (٦٥٠) حيناً، بأنه فيلسوف وجودي، وحيناً بأنه مثالي، بل وُصف حيناً ثالثاً كذلك بأنه «فيلسوف وجودي يقول بالماهية» وفي الواقع، فإنه يمكن أن يُحدَّد مكانُه على الحدود ما بين الفلسفة الوجودية وفلسفة الوجود. أما هو، فإنه يقول عن نفسه إنه ميتافيزيقي، ومن بين ما نشر من الكتب كتابٌ بعنوان «في الوجود» (١٩٢٧م)، وكذا «مدخل إلى الأنطولوجيا» (١٩٤٧م). في السطور التالية، لن نستخرج، من مجموع مذاهبه الثرى جداً، إلا بضع أفكار تبدو أساسية عنده، وما يتميز منها أيضا بالوضوح النسبي.

يرى لأفِلْ أنه لا يمكن قيام ميتافيزيقا تدور حول ما هو موضوعي، إنما الميتافيزيقا ينبغي أن تكون علم «الخصائص الذاتية الحميمة الروحية»، ويظن لافل أنه قد عثر على فكرة الوجود في كيان هذا «الحس الداخلي الحميم»، ويحاول أن يبين، بوسيلة نوع من البرهان الأنطولوجي، أن هذه الفكرة تحتوي على حقيقة. إن الوجود

---

(٦٥٠) توفي عام ١٩٥١م.

ينكشف على هيئة الواحد وعلى هيئة واحد المعنى خلال شتى الصور (Univoque)، ولكنه في نفس الـوقت لا نهائي، كما أنه على الأخص فعل خالص: إنـه الإله. وكل مايوجد يوجد بوسيلة «المشاركة» في هذا الفعل الخالص اللانهائي. ويقصد لافل من استخدام فكرة «المشـاركة» هذه أن يتجاوز القـول «بوحدة الوجـود والألوهية»، وأن يقرر تعالِي الإله. وتؤدي ميتافيزيقـا هذا الفيلسوف إلى القول بأخلاق تطور الذات، ونمـوهـا، والانتصـار على الطبيعـة، وبـالحب. ولن نستطيع أن نفحص عن نحـو قريب لا تحليلاته الطـويلة والدقيقة للوجود (بالمعنى «الـوجودي»)، ولا للموضوع، ولا للظاهرة، ولا للقيمة وللزمان، من بين مسائل أخرى درسها.

سادساً : صامْوِل أَلِكْساندر

هو مفكر من أصل استرالي (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨م). كـان أستاذاً بجامعة مانشستر في إنجلترا، ووضع في مؤلفه الكبير الهام، «المكان والزمان والألوهية»، نظاماً فلسفياً عظيماً يقول بوحدة الوجود والألـوهية آخذاً باتجاه طبيعي وتطوري. إن الفلسفة، أي الميتافيزيقـا، عنده، هي علم الوجود مـن حيث هو وجود ومحمولاتـه الجوهرية. إن العنصر الأساسي في العـالم يتكون، في رأيـه من مجمع المكـان ـ الـزمان، وهـو مجموع الأحداث الخالصـة (pure events) ، أو ما يسميه نقاط المكـان الزمان (أو النقاط المكانيـة ـ الزمانيـة). والذي يحدد عنصر المكان ــ الزمان هو مقـولات تخصه بشكل جوهري، فهي إذن محمولات تحمل على كل موجود. ويقدم الكساندر، معتمداً على كلٍ من أفلاطون وكـانت، نظاماً لهذه المقولات يتسم بالطرافـة الشديدة. ثم هناك، بعـد ذلك، «صفـات» (Qualities) تنبثق الواحـدة منها بعد الأخـرى على هيئة درجات للـوجود، كل درجة منها تتسم بـالجدة الكاملة، وهـذا الانبثاق يتم بفضل الطفرة الخلاقـة (Nisus)، ولا يمكن أن نتنبأ، ابتداء من النظر في إحدى درجات الوجود هـذه، بطبيعة الدرجة التي تليها، وهي التي تظل، من بعـد ظهورها، غير قابلة للفهم والتفسير هي ذاتها، منظورا إليها من وجهة النظر هذه.

هــذا التصور عن التطور، تحت اســم «التطور الانبثاقي» (Emergent Ev-olution)، نجده، أيضا عند الفيلسوف وعالم الحياة الإنجليزي كونفي لويد مورجان

(١٨٥٢ ـ ١٩٣٦ م). وقد تـوصل إلى أفكاره في هذا الصدد مستقـلا عن الكساندر، ويُلاحظ أن ذلك التصـور التطوري أصبح موضعـا للنقاش لمدة طويلـة في الفلسفة الإنجليزية وهو يتعارض معارضة بارزة مع تصور هربرت اسبنسر عن التطور، ولكنه قريب من تصور برجسون حول الموضوع.

ويرى الكساندر أن علينـا أن نقبل واقعة التطور باحترام طبيعي عميق (Natural Piety). وقد ظهرت، في رأيه، حتى الآن درجات أربع من درجات الوجود:

١ ـ الحركة الخالصة، ٢ ـ المادة، ٣ ـ الحياة، ٤ ـ الوعي

وإذا اعتبرنا كل درجة من هـذه الدرجات فإن التالية تبـدو دائما، من وجهة نظر سـابقتها، تبـدو أنها الألـوهية. ويسمى الكسـانـدر موجـودات الـدرجة الخامسـة بـالملائكة أو «الآلهة». إن الإلـه عنـده هـو العالم كلـه وهـو يتجه تـواقـاً إلى تحصيل التأليه.

وتكوِّن نظـرية المعـرفة مجرد قسم من الميتـافيزيقـا عند الكسـاندر. وهـو يدافع، بحجج هي غاية في الدقـة واللطف، عن اتجاه في الواقعية الجذرية[٦٥١]: فليسـت معطيات الحس وحدهـا هي التي يرى أنها توجد «في ذاتها»، بل الأشياء أيضـا توجد في ذاتها. أما المعرفة فهي علاقة حضور متشـارك، من نفس نوع العلاقة التي نجدها في كل صوب بين موجودين، ولكن علاقة المعـرفة لها هذه الخاصية: أن العارف فيها يعي مشاركته في عـلاقة التشارك هذه. ويرى الكسانـدر أن ليست المعرفة وحسب، بل وكـذلك الـذاكـرة، والتوقع، والتصـور، لها جميعـا مـوضـوعـات خارجـة عنهـا وتتعداهـا، فموضـوعات الذاكـرة مثلا توجـد بذاتها، وهي الموضـوعات التي تتسم بالصفة الحقيقيـة «للماضوية» (Pastness)، ولهذا الفيلسوف مذهب آخـر طريف متصل بهذا الميـدان، وهـو تفـرقته بين تأمـل الموضوع واستمتـاع الـذات، والشروط والأفعال المتصلة بكل هذا.

---

(٦٥١) أي المتطرفة.

أما القيم، فإنها «صفات ثالثية». فبينما الصفات الأولية وتلك الثانوية (ومنها مثلا الألوان) موضوعية تماما، فإن القيم من جانبها ليست موضوعية إلا من حيث أساسها، ولكنها لا توجد إلا بقدر وجود الذات المقيمة (أو المقومة)، وهي توجد على هيئة علاقات ما بين هذه الذات والموضوع. وهناك ثلاث فئات من القيم: قيم الصواب، وقيم الجمال، وقيم الخير. ولا تكوّن القيم الدينية فئة قائمة بذاتها، لأن الدين ما هو إلا الشعور بالسير بهديٍ من الوحي في خلال المسيرة الكونية باتجاه الألوهية.

سادساً: باول هيبرلن

يرى الفيلسوف وعالم النفس والتربية السويسري من مدينة بال، باول هيبرلن، أن الميتافيزيقا كلها ما هي إلا ايضاح للحقيقة الأصلية، التي هي: «أنا أوجد» ذلك إن وجود الإنسان يعني أولا مقابلة شيء ما، وهكذا نجد أمامنا معطى هو وجود الواقع. إن الموجود الكائن جوهر فريد، ولكنه مكون مع ذلك من تعددية وظيفية تتمثل في الأفراد. والأفراد في جوهرهم موجودات فاعلة، فهم أحياء بالتالي. وينتج عن هذا تغير دائم ونشط يتحقق في العالم، . وهذا التغير لا ينتج أفرادا جددا، لأن أفراد الوجود لا تنقسم وهي بالتالي خالدة، وإنما هو ينتج مواقف جديدة. إن الحتمية المتبادلة وواحدية الاتجاه التي تتسم بها المواقف لا تمنع حرية الأفراد، لأن كل فرد يرد على الأفعال بردود ابتداء من موقفه السابق، وهذا الموقف ناشيء عن نشاط سابق حر.

صحيح أن العالم لا نهائي في الزمان والمكان (وهذان ليس بذاتهما وجودين، وإنما هما نظامان للموجودات)، ولكنه مخلوق. وربما كانت العلِّية لا تتعدى في مفعولها حدود العالم، ولا تصل إلى التأثير في أساس الوجود، ولكن العالم يظهر في مواجهتها على هيئة الضرورة الموضوعية، ومصدر هذه الضرورة هو الخالق، وهو الإله. أما ماهية الإله، فإنها سر مطلق. ولعل أيسر رمز نتمثله عليه هو هيئة الشخص. (٦٥٢) إن الإله لا هو داخل العالم، ولا هو خارجه، إنما هو خالقه.

---

(٦٥٢) قارن هامش (٦٣٨)، من قبل.

على أساس هذا المذهب الميتافيزيقي، بنى هيبرلن نظاماً فلسفياً كاملاً، ولن نستخرج منه هنا إلا بعض تقريراته بشأن نظرية الإنسان ونظرية القيم.

يرى هيبرلن أنني لست مطابقاً لجسدي، فليس هو أنا، لأن هناك النفس أيضاً. هذه النفس، وهي «فرد» خالد بحسب اصطلاح هيبرلن، تخلق لها جسداً، تماماً كما يكوّن الإنسان مجتمعاً: فهي تسود على الجسد نحواً من السيادة «السياسية». إن النفس تتطلع، فيما بعد الموت، إلى خلق جسد جديد، ولا ندري إن كانت ستنجح في هذا أم لا. والنفس ليست هي «الروح» (Esprit)، إنما الروح بالأحرى هي ارادة العلو، فوق المصالح والاهتمامات الحيوية، باتجاه ما هو موضوعي.

ويدافع هيبرلن عن المذهب الموضوعي، سواء في ميدان النظريات أو في ميدان القيم. إن الحكم القيمي، من حيث هو كذلك، صحيح دائماً ومطلق، ولكن ليس الحال كذلك فيما يخص القيمة ذاتها التي يثبتها ذلك الحكم. إن معنى الوجود الإنساني ليقوم في جهد الإنسان أن يضفي على نفسه بجهده معنى موضوعياً. ولنلاحظ كذلك أن هيبرلن يرى أن المعرفة الحقة والعقيدة الحقة يلتقيان التقاء تطابق، أما العقيدة التي تدعي انها هي الحقيقية، وتفرض نفسها فرضاً دوجماطيقياً، فإنها عقيدة زائفة، هي وهم باطل.



الفصل الثاني والعشرون
نيقولاي هارتمان

أولا: خصائصه

لاشك في أن نيقولاي هارتمان (١٨٨٢ ـ ١٩٥٠م). واحد من الشخصيات التي تمثل الفلسفة الأوربية في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي أعظم تمثيل. وهو ينبغي أن يعد واحداً من رواد الميتافيزيقيا في هذا العصر، جنباً إلى جنب مع وايتهد وماريتان، وهو قد يكون أقل في نزعته النظامية من هذين، ولكن قوته تقوم في دقة التحليل، وفي موهبته، النادرة بين الألمان، في أن يعرض أفكاره، على هيئة واضحة، هيئة تأسر القارىء، بجلائها اليقظ وبعمقها على السواء. وتعتبر كتبه نماذج حقيقية للدقة المقتصدة والمتانة العلمية.

يأتي نيقولاي هارتمان من مدرسة ماربورج، وتشهد كتاباته الأولى على روح هذا التيار المثالي. ولكن كتابه الهام الأول، الذي صدر عام ١٩٢١م، حمل عنواناً لا يرضى عنه أي فيلسوف مثالي: «المبادىء الأساسية لميتافيزيقا المعرفة». وبعد خمس سنوات، أخرج كتابه الكبير «الأخلاق» (١٩٢٦م)، ثم أخذ في إنتاج نظرية كاملة في الأنطولوجيا، ذات أجزاء عدة: الأول منها، «في تأسيس الأنطولوجيا» (١٩٣٣م)، يؤسس لهذا العلم، والثاني، «الإمكان والواقع» (١٩٣٨م)، والثالث «بناء العالم الحقيقي» (١٩٤٠م)، والرابع «فلسفة الطبيعة» (١٩٥٠) وهي تعرض جميعاً لبناء تلك النظرية الأنطولوجية ذاتها. إلى جوار هذه الأعمال الكبرى، ينبغي أن نذكر على الخصوص من بين منشوراته العديدة الأخرى: «مشكلة الوجود الروحي» (١٩٣٣م)، حيث يعرض هارتمان لفحص المذاهب التقليدية حول الذهن الفردي،

ومذهب هيجل في «الروح الموضوعية» ثم يطور هذا كله، كما نشير أيضا إلى كتابه «فلسفة المثالية الألمانية» (١٩٢٣ ـ ١٩٢٩م)، وهو مهم خاصة في جزئه الثاني، الذي يدرس هيجل.

لقد تأثر هارتمان تأثراً قوياً بأرسطو، وهو يشير إليه باستمرار، ولكن دون أن يقبل سائر مواقفه الأساسية. ولم تكن الفلسفة الفينومينولوجية بغير تأثير عليه هي الأخرى، وكذلك كانت وهيجل. ولكنه يترك وراء ظهره، تماماً أو يكاد، فكر القرن التاسع عشر الميلادي: فيحارب الوضعية، والمذهب الذاتي، والنزعة الميكانيكية، وتلك المادية، بنفس القوة التي حاربها بها جميعاً أصحاب فلسفة الحياة والفينومنيولوجيا. وهو ينحي جانباً وجهة النظر المثالية، منحازا إلى الموقف الواقعي. بل حتى الفينومينولوجية ذاتها، وهي التي قَبِل فائدتها في حدود معينة، يحل محلها عنده، من حيث المضمون ومن حيث المنهج معا، فلسفة الوجود.

ومن بين الإضافات الأصيلة أعظم الأصالة في فلسفة هارتمان، نجد: تمييزه بين الواقعي والنموذجي، نظريته في الإشكالات (Apories) وفي «المتبقى» (Residu) غير العقلي في الواقع، ومذهبه في الروح الموضوعي. وليست هذه غير بعض من الأفكار المركزية في فلسفته، التي تحوى كذلك عدداً غفيرا من مذاهب القدماء (اليونان)، والتي كانت قد سقطت في زاوية النسيان منذ ديكارت، وكذا عددا من المعارف التي هيأت لهارتمان أن يُثري الفكر الفلسفي الأوربي، وفي ميدان الأخلاق خاصة.

ثانيا: الميتافيزيقا والأنطولوجيا

يقرر هارتمان، في مواجهة الفلسفة السابقة عليه سائرها على التقريب، إن المسائل الأساسية، في كل ميادين البحث التي يعمل فيها الفكر الفلسفي، هي مسائل ذات طبيعة أنطولوجية. وهو يرى أن المثالية ذاتها، وكذا المذهب الذاتي حتى في أكثر صورة تطرفاً، (٦٥٣) لا يستطيعان أن يمتنعا عن تفسير «مظهر» الوجود على

---

(٦٥٣) كما عند باركلي، على سبيل المثال.

الأقل، وذلك على طريقة ما من الطرائق، أي أن الفكر النظري الذي لا يكون أنطولوجيًّا في أعماقه، أي الذي لا يضع التساؤل الخاص« بالوجود من حيث هو كذلك»، مثل هذا الفكر النظري لا يوجد على أية صورة من الصور.

الواضح، في رأي هارتمان، أن من جوهر الفكر ألا يستطيع التفكير إلا في «شيء ما»، وليس في «العدم»، وهذا «الشيء ما» هو الذي يؤدي إلى وضع مشكلة الوجود. على الجانب الآخر، فإن علوم الطبيعة لا تستطيع أن تمتنع عن أن يكون لها أساس أنطولوجي. ثم يظهر العنصر الميتافيزيقي في أعجوبة الحياة، وهي التي لا يستطيع العقل تفسيرها لا بالمذهب الميكانيكي ولا بذلك الغائي. ونفس الأمر أيضاً بالنسبة إلى علم النفس وفلسفة التاريخ والمنطق والاستيطيقا، وإلى نظرية المعرفة وفلسفة الأخلاق على الأخص.

لقد أخطأت الميتافيزيقا القديمة خطأ مزدوجاً. فقد كانت تدعى، من جانب، أنها تقدم حلاً لما هو غير قابل للحل، حيث «الميتافيزيقي» يعني اللاعقلي، واللاعقلي غير ممكن المعرفة. ومع ذلك فإن كل موجود يمكن إدراكه ومعرفته من جانب ما. والدليل على ذلك وجود مشكلات لا حصر لعددها، وكذا التناقضات التي نلقاها أمامنا من كل جهة (الحرية والحتمية، المباطنة والتعالي، الحياة والسلوك الميكانيكي)، وليس في استطاعتنا أن نجد حلا لهذه المسائل، ومع ذلك، فإنه بفضل المناهج المناسبة نستطيع أن نتقدم إلى الأمام في إيضاحها وتفسيرها، وأن نجعل حدود «البواقي اللامعروفة» تتراجع وتتقهقر.

من جانب آخر، فإن الميتافيزيقا القديمة ارتكبت خطأ حين كونت نظماً فلسفية مغلقة، وحاولت أن تخضع الواقع والحقيقة لها. ويرى هارتمان أن هذه النظم الفلسفية قد ولى زمانها، والمهم هنا، وذو ـ القيمة، في مؤلفات عظام الفلاسفة، ليس نظمهم الفلسفية، بل المشكلات التي أثاروها في أبحاثهم. إن كل النظم تعلن انتصاراتها في سماء التأملات. وطريقة عمل السابقين تقوم في أنهم يضعون قبلياً عدداً من المبادىء، ثم يستنبطون القضايا التي تنتج عن هذه المبادىء. وإذا كان ينبغي أن

نعتبر أن وحدة العـالم هي معطى لنا في التجربـة ، إلا أننا لا نعرف في الحقيقة مـا هو مبـدؤه الأعلى . إنما ينبغي إذن أن نتَّبع المنهج المعـاكس تماما . إن «الفلسفـةالأولى» ، التي على الفيلسـوف أن يقـدمهـا ، لا يمكـن أن تكـون في الـواقع ، وبحكم أدوات المعرفة التي لنا ، إلا «الفلسفة الأخيرة» ،(٦٥٤) وذلك لأن «العقل العارف» (Ratio Cognosceudi) يتجـه في الاتجاه المعـاكس «للعقل المدرك للماهيـات» (Ratio Es-sendi).

نفهم الآن ، بالنظر إلى هـذا النقد لميتافيزيقا القدمـاء ، على أي نحو كان هارتمان يفهم مصطلحي «الميتافيزيقا» و«الأنطولـوجيا» . على عكس المعنى التقليدي القديم للكلمة ، فإن الميتـافيزيقا ليست علماً عنـد هارتمان ، بل هي مجموعـة من الأسئلة لا يمكن تقديم أية إجـابة عنها . وفي مقابل هذا ، فإن الجانب ممكن المعرفـة في الوجود يصبح من اختصاص الأنطولوجيا .

هذه الأنطـولوجيـا هي علم ، وهي لا تختلط عند هارتمان مع الفينـومينولـوجيا ، التي وإن كانت عظيمة القدر من حيث كونها تهيئة ومدخلا ، إلا أنها لا تغطي ميدان الأنطولوجيا كله . إن الفينيومينولوجيا تنزلق بالضرورة على سطح المشكلات ، وهي ، بحكم تعـريفها ، لا تتعـدى مجرد المظـاهـر ، أي الانعكاس الخارجي للحقيقـة . إن الفينومينولوجيا تمكث ، من حيث المبدأ ، عند «مظهر وجود» (Sosein) الأشياء ، ولا تستطيع أن تخرج منه على أي حال .

لقد استطلع هارتمان مسألة طبيعة «المشكلة» استطلاعاً جليلاً غير مسبوق ، وهو يرى أن المشكلـة ، حتى وهي بسبيل التعلق بموضوع ممكن المعرفـة ، لابد أن تفترض خليطاً من المعروف وغير المعروف . إن محض واقعة أننـا نميز المشكلات بعضها عن

(٦٥٤) المقصود الفلسفـة التي تقدم المبـادىء المؤسسة ، ولكننا لا نصل إليهـا إلا بعد دراسـة العلوم الأخرى والإشارات هنـا كثيرة إلى مفاهيم لأرسطو . ومعنى التقرير التـالي في المتن هو أننا نصل إلى المبادىء الأولى بعد بحث يقتضي زمناً طويلاً ، بينما تلك المبادىء سابقة منطقياً وقائمة منذ البدايـة وقبل البحث . والذي يقـوم بالبحث هـو «العقل العارف» ، ومـا يدرك المبـادىء هو «العقل المدرك للماهيات» .

بعض يـدل على أننا نعرف شيئـاً ما عن المسـائل التي تتناولها تلك المشكـلات. ومع ذلك، فإن تلك المشكلة تبقى، في نفس الوقت، أمـرا غير معروف، حيث أنها مدار بحث لاتزال. إن المهمة الرئيسية للفيلسوف هي أن يضع المشكلات.

ثالثاً: الوجود الحقيقي من حيث هو معطى

المفهومـان الأساسيان في نظـرية المعرفـة عند هـارتمان هما «الوجود بـذاته» (An-sichsein) و«التعالي». ومعنى أن شيئاً ما يوجد «بذاتـه» هو أنه يوجد، أنه كائن، وأن وجوده لا يتعلق بنا نحن وحسب. أما الفعل المتعـالي، فإنه الفعل الذي لا يقوم فقط في الـوعي، من مثل الفكر والتصـور وغير ذلك، بل هـو الفعل الذي يتعـدى الوعي ويربطه إلى الموجود بذاته مستقلاً عنه (أي عن الوعي). إن المعرفة عند هارتمان هي فعل متعال. وهي تتميـز على شتى الأفعال المتعاليـة الأخرى، بأنها فعل الإدراك الخالص بلا زيـادة. والعلاقة بين الذات ومـوضوعها في ذاته، في فعل المعـرفة، هي علاقة واحـدية الجانب، واستقبالية. أن تعـرف هو أن تدرك الموجود بـذاته. وهناك كذلك في المعرفة نوعٌ من التلقائية، ولكنها ليست نشاطاً موجهاً باتجاه الموضوع، وإنما تستنفد كلهـا في تركيب التصـور. إن علاقة المعـرفة هي عـلاقة بين الـذات الحقيقية والموضوع في ذاته.

لقد رفض كل من المذهب الشكـي والمذهب النقدي، وبعض أشكال المثـالية، أن يكون هنـاك «ما يقوم بـذاته». وليس من الصعب دحض هذه النظريات. فهي جميعاً تعرض تنويعات مختلفة لأفكار ثلاث: الفكرة الأولى هي مبدأ الوعي (وتقول: الموضـوع يقوم داخل الـوعي، فلا يمكـن إذن أن يكون هنـاك وجود قـائم بذاتـه)، والثانية هي الفكرة المسبقـة القائلة بالتقابلية (وتقـول: ليس هناك من وجود لا يكون موضوعاً لذات)، وتعتمد الثالثة على افتراض أن القيمة والمعنى في العالم لا يمكن أن يفسرهما إلا وجود الذات واهبة القيمة والمعنى. إن القضية الأقوى في هذا الصدد هي تلك التي تقـول بأن «القائم بذاتـه» لا يحتاج إلى بـرهان على وجـوده: ذلك أن صفة «المعطي» التي تميـزهُ، محتواةٌ في الظـاهرة الأساسيـة التي هي ظـاهرة الوجـود المعطى

للعالم. وينتهي هارتمان إلى أن ظاهرة المعرفة مكونة على نحو يجعلها تتعدى خاصيتها هي ذاتها كظاهرة.(٦٥٥)

ومع ذلك، فإن تحليل المعرفة لا يكفي لدفع كل شيء في صدد وجود الوجود القائم بذاته. إن تعالي الظاهرة محدود في كونه مجرد تعد للظاهرة إلى ما هو أعلى منها: وذلك باتجاه قرار يُتخذ بشأن وجود مضمونها وجوداً خارجياً أو عدم وجوده. أما ألا يكون هناك شيء قائم بذاته في موضوعات المعرفة، فإنه ليس إلا إمكاناً خالصاً من حيث المبدأ، وإذا صح ذلك، فعنده لن تكون ما نسميه بالمعرفة معرفة على الاطلاق. ويرى هارتمان أن الأهمية النظرية لمثل هذا الشك أهمية ضئيلة، لأن هذا الشك يحتاج إلى أن يُقدِّم هو نفسه البرهان على ما يقول. ومع ذلك، فإن هذا النوع من الشك قائم حتى الآن.

إنما الذي يزيح هذا الشك بالكلية في صدد وجود الوجود القائم بذاته هو «الأفعال الانفعالية المتعالية».

يميز هارتمان ما بين الأفعال الانفعالية الاستقبالية (من مثل التجريب، الاختبار، المعاناة)، وفيها تدركنا قسوة الواقع، وبين الأفعال الانفعالية التوقعية (من مثل الانتظار، الميل، الاستطلاع الأمل وغيرها)، وفيها نقوم بانتظار شيء يأتينا من الواقع، وأخيراً الأفعال الانفعالية التلقائية (من مثل الرغبة، الإرادة، التصرف، الصنع). وينحصر تعالي هذا النوع الأخير من الأفعال في أنه يتجه إلى إنتاج ما هو واقعي. وكل هذه الأفعال تشترك معاً في أن فيها نجد شيئاً «يعارض» الذات. وليس الفعل المقصود هنا فعل تصادم، ومع ذلك فإن هذه الأفعال تُظهر على أقوى ما يكون أن المعرفة موضوعها هو ما يقوم بذاته.

إن واقعة أن إداركنا لأهمية وجود الأشخاص الآخرين هو إدراكٌ نشعر به شعوراً لحظياً في الحال ومباشراً، وذلك إلى درجة أن أكثر المغرقين في المثالية لم يصلوا إلى حد إنكار وجود الأشخاص الآخرين، هذه الواقعة إنما تقوم على أساس من الرابطة

(٦٥٥) وفي هذا معارضة واضحة للفلسفة الكانتية.

الانفعالية بين شخص وشخص، وهي رابطة أقوى وأثـري من أية رابطة أخرى. إننا إذا وُضعنا في مـواجهة بعضنا البعض نعـرف على نحو تلقائي توجهـات الأشخاص الآخرين وأحوالهم، وهذه واقعة غامضة كالسر، ولكنها مع ذلك جلية بدهية.

ويلاحظ هارتمان أن موضوع المعرفة وموضوع الأفعال الانفعالية المتعالية هما واحد ونفس الشيء. إن المعرفة المنعزلة هـي مجرد إمكان نظري. إن علينا، إذن، أن نُدخل على كل شيء تسلسل الحيـاة وترابطهـا. والعمل والحيـاة في إطار الترابط الكـوني هما مثلان على ذلك. إن التعـالي الظواهري للمعرفـة غير يقيني، إذا أخذ بذاتـه، ولكنه يتحول إلى يقين بوسيلة التعالي الظواهري للأفعال الانفعالية، وهي التي تتأسس على التسلسل والترابط الـواقعي للحيـاة. فيمكن، إذن، أن يقـرر هارتمان، في مـواجهـة ديكارت، أن خبرة حقيقية مع ما هو خارجي هي خبرة مباشرة قدر مباشرة خبرتي مع ذاتي الباطنية.

رابعاً: أبعاد الوجود وأشكاله

إذا كان من الواضح أن هارتمان يوجه اهتمامه قبل أي شيء آخر، وسواء كان ذلك في موقفه الأساسي أو في نظـريته في المعرفة، إلى «الوجود من حيث هـو وجود»، فإنه يهم أن ننظـر الآن إلى الصفات والتحـديدات التي يسم الـوجود بها، وبهذا ننفـذ إلى الأبحاث المتسعة جداً التي يحتويها كتابـه الرئيسي المكون من عدة مجلدات، ولكننا لن نشير إلا إلى ما هو جوهري من بينها.

إن القضية الـرئيسية التي يقدمها هـارتمان بشأن الوجود تقول بأن الـوجود يتركب على بعـدين، ويتركب مـن أربع دوائر للـوجـود متمايـزة تمامـاً الـواحـدة منهـا عن الأخريات، ومن درجات للوجود معينة في كل دائرة من هذه الدوائر.

فيما يخص «دوائر الـوجود» فإن هـارتمان يبدأ بأن يميـز بين دائرتين أوليتين: دائرة الواقعي ودائرة النمـوذجي، وهو يسمى هاتين الـدائرتين بـ «أنحاء الـوجود» (Sein-sweisen)، من جهة، وبين دائرتين ثانويتين، وهما دائرتـا المعرفة والمنطق، من جهة أخرى.

إن الـوجـود الحقيقي (Reales Sein) لا ينبغي أن نخلطـه مع الحقيقـة (Wirk-lichkeit)، لأن هناك إمكـاناً واقعيـاً كما أن هناك حقيقـة نموذجيـة، وهذا التمييـز ينتمي إلى مبحث تحليل أنحاء الوجود.

وفيما يخص العلاقات بين مجمـوعتي الدوائر، فإن هناك رابطـة وثيقة ما بين دائرة المعـرفـة ودائرة نحـو الـوجـود الـواقعي، ومـا بين دائرة المنطق ودائرة نحـو الـوجـود النموذجي. ويتسم ما يقدمه هارتمان من تفصيلات بشأن هذه الرابطة الأخيرة بأهمية خاصة، لأنـه يؤكد أن الوجود النموذجي يـوجد تماماً بقدر وجود الـوجود الواقعي، ودليل ذلك أننا نستطيع معرفتـه، وإن المعرفة ما هي، في جوهـرها، إلا إدراكُ وجودٍ قائم بذاته.

وأكثر ما نعـرف من أنواع دائرة الوجود النموذجي هو ميـدان القيم، وكذا ميدان الـوجود الـريـاضي. وهذا الأخير، أي الـوجـود الريـاضي، يظهـر على صورة البنيـة الأساسية التي يتشكل عليها الوجود الـواقعي، ولكن بدون أن يُختزل الوجود الواقعي إلى محض الوجود الرياضي.

وهناك مضمونات من الوجود النمـوذجي لم تتحق بعد في الوجود الواقعي، ومن ذلك مثـلاً المكان ذو الأبعـاد الأكثـر من ثلاثـة. ومن جهـة أخرى، فإن هنـاك من الـوجود الـواقعي مـالا يخضع لأحكام الـوجـود النموذجـي، ومن ذلك ما هـو غير منطقي، والمعارض للقيم، والواقعي المتناقض.

كل وجـود نمـوذجي حي هـو عـام وكلي، وهـو يختـزل إلى أشكـال، وقـوانين، وعلاقات. وإذا قـارناه مع الوجود الحقيقي، فإنه أقل منـه من حيث الأهمية، ويرى هارتمان وجـوب رفض الموقف الأفلاطوني القائل بأن الـوجود النموذجي هو الـوجود «الأعلى والأسمى». ولا ينبغي الخلط بين الـوجود النمـوذجي والوجـود العقلي، لأن اللاعقلي يضم في ميدانه ما يدل في نفس الوقت على أنه قائم بذاته، حيث نرى ما هو متعد للعقل يتهرب من سيطرة العقل عليه.

وقد قام هارتمان بتحليل دوائر الوجود الأخرى على نحو مشابه، وتوصل هكذا إلى تعريف البعد الثاني للوجود، ألا وهو طبقات الوجود، أو ما يسميه «درجات الوجود» (Seinsstufen).

في دائرة الوجود الواقعي هناك درجات هي: المادة، الحياة، الوعي، العقل. ويقابلها، . في دائرة وجود المعرفة: الإحساس، الحدس، الإدراك، والعلم. أخيراً، فإن الوجود المنطقي يتكون، على ما هو معروف تقليديا، من التصور والحكم والاستدلال. هذه الدرجات المعينة ينبغي أن يتم تجديدها بوسيلة مقولات طبقة الوجود التي نكون بصددها في كل حالة. ويميز هارتمان بين نوعين من المقولات: مقولات أوجه الكلام (Catégories Modales)، ويخصص هارتمان لها بحثاً مخصوصاً، والمقولات الأساسية، التي تظهر على هيئة أزواج متعارضة. هذه الأخيرة، وعلى خلاف مافعله كانت وكذلك الكساندر، لا يقدم هارتمان لها نظاماً محدداً، بل يعرضها وحسب مصفوفة على نحو حر في جدول للمتضادات في الوجود. ونجد من بين الأزواج الإثنى عشرة الموجودة في ذلك الجدول، وعلى سبيل المثال: الصورة والمادة، الداخلي والخارجي التحديد والتبعية، الكيف والكم.

وقد خصَّص هارتمان دراسات ثاقبة، بشأن مسألة المقولات، ضمن كتابه الضخم: «موجز النظرية العامة لمقولات بنية العالم الواقعي». في قمة عرضه في هذا الكتاب، وبعد فحص متعمق للآراء السابقة، يقدم صياغة لعدد من قوانين المقولات. ومن بين أهم هذه القوانين نجد قانون القوة (الأدنى هو الأقوى)، وضده: قانون الحرية (المرتبة العليا مستقلة بذاتها، لأنها أثرى من المرتبة الدنيا). وإذا كان من الصحيح أن هناك طبقة دنيا دائماً تحمل فوقها طبقة عليا، إلا أن العلاقات بين هذه الطبقات ليست على نسق واحد في كل الأحوال. فالعضويات مثلاً، وهي طبقة الحياة، ليست إلا «تكويناً أعلى» (Ueberformung) للطبقة الجسمية المكانية للمادة، بينما درجات الوعي والعقل ترتفع فوق طبقة الحياة على هيئة «بناء فوقي» (Ue-berbauung) مستقل، أي أن سائر مقولات الدرجة الدنيا لا يعود لها وجود فيها.

المجمـوعة الكبرى الثـانيـة للمقولات، التـي تدرسهـا نظـرية أنحـاء (Modes) الوجـود، تكون قسماً من أهم أقسام ميتافيـزيقا هارتمان. وتقوم جـدة هذا المذهب، بشكل خاص، في كونه يقرر أن تحليل «أنحاء الوجود»، في الدوائر الأربع الوجودية، يؤدي إلى نتـائج مختلفة جداً. فيوجـد إذن في داخل كل دائرة أنحاء للوجـود متمايزة، ولكن أهمها جميعاً هي تلك القوانين التي تنطبق على الوجود الواقعي.

تنقسم أنحـاء الـوجـود إلى أنحـاء مطلقـة (الحقيقـي وغير الحقيقي)، وأنحـاء عـلاقات (الإمكـان والامتنـاع والضرورة). ويضاف إلى ذلك نحـوُ الـوجودِ المضـادِ بالسلب لنحو الضرورة، ألا وهي المصادفة، وهكذا تكون الضرورة المطلقة هي أيضاً المصادفة المطلقة.

وينبغي أن نذكـر على الخصوص إضافـات هارتمان بشأن مسألة الإمكـان. وهو يرى أن الممكن في الوجود الواقعي هو وحده ما تحققت واقعياً سائر شروطه. وهكذا، فإن كل ما هو ممكن هو في نفس الوقـت واقعي وضروري، وبالمقابل: فإن كل ما هو ممكن سلباً هو غير واقعي وممتنع. ولكن هذا لا يعني مع ذلك أن أنحاء الوجود ذاتها هي متطـابقـة بـالهويـة، لأن التضمن لا يعني الهويـة. وتقوم التفـرقـة بين الإمكـان الإيجابي والإمكـان السلبي على قانـون تشعب الإمكـان الإنفصالي، وهـو ينطبق على الوجود الواقعي، بينما لا ينطبق على الوجود المنطقي.

ويتعرض هارتمان، وهو بسبيـل إقامة نظريته في الأُنطولـوجيا، للتمييز التقليدي بين الماهية والوجود، وهو يسمى هاتين اللحظتين الوجوديتين، يسميهما على التوالي: (Sosein) (ما هـو الشيء) و Dasein (واقعة إنه يوجـد). والمهم في الأمر أن هاتين اللحظتين الوجـوديتين تظهران بشكل مختلـف في دائرتي الوجـود الأوليتين. وهكذا، فإن «ماهية الشيء» (Sosein) و «واقعية الشيء» (Dasein) النموذجيتين لا يمكن معرفتهما إلا على نحو «قبلي» (A. Priori) فقط، بينما «واقعية الشيء» الواقعية تعرف «بعديا» (A. Posteriori) وحسب وليس من الممكن أن نماثل ما بين «ماهية الشيء» و«الـوجود النمـوذجي» في اصطـلاح هـارتمان، ولا بين «واقعيـة الشيء» و«الوجـود

الواقعي». على العكس، يرى هارتمان أنه لا يوجد اختلاف مطلق بالمرة، في علاقات الوجـود داخل العالم، ما بين «مـاهية الشيء» و«واقعية الشيء»، لأننا نكـون في هذا المجال بـازاء لحظات نسبيـة. (يقول هارتمان إن «واقعيـة الشيء» التي لورقـة الشجر تنتمي إلى «مـــاهيـــة الشيء» التي للشجــرة، كما تنتمي «واقعيـــة الشيء» التي للشجرة، إلى «مـاهية الشيء» التـي للغابة، إلى آخـر ذلك». وفي نهايـة الأمر، وحين ننظر إلى الكون في شموله، فإن هذا التمييز لا يصبح قابلاً للتطبيق بالمرة.

خامساً: الوجود الروحي

إذا كان «الروح» (Esprit)، من وجهة نظر الوجود المحايدة، ليس له من مغزى إلا بقدر كونه طبقـة من طبقات الوجود، إلا أن هذه الدرجة تتميز بأهميـة جوهرية، حتى أن الإحـاطة بها تتطلب أبحـاثـاً مفصلة. وتُظهـر هـذه الأبحاث التي قـام بها هارتمان: أولاً، أن الـوجود الروحي متميـز في طبيعته عن الوجـود النفسي، وكذا عن درجة الوعـي، وهي الدرجة التي توجـد حتى لدى الحيوانات. إنما الوجـود الروحي يـمثل عنصراً مقوليـاً (نسبة إلى المقولات) جديـداً، وهو غير ممكن الإحاطـة بـــه ولا تفسيره بالـعـقل (Irrationnel) بالأصـالـة (Par excellence)، ولا نستطيع إدراكه إلا على نحو جزئي وفي جانب بنيته الأساسية، بوسيلة أبحاث محددة دقيقة.

ومن الظاهر إذن أن الروح يكوِّن طبقة من الوجود فريدة في نوعها، ولكنها تنقسم مع ذلك إلى ثلاثة أشكال من الوجـود: الروح الشخصي، الروح الموضوعي، والروح المتموضـع والشكلان الأولان يكـوِّنان الروح الحي. إن الـروح كله واقعـي، وفردي، وحائز على الكينونـة، وهو زماني. وزمانيته هي زمـانية العالم (في مقابل مـا كان يرى أفلاطون، وما يراه الفلاسفة الوجوديون).

ويحوز الروح على مقولات وسمات يختص بها دون غيره. إنه لا يخضع للصيرورة، وحسب، بل هو الصيرورة هو نفسه. وليس فيه جوهر (بينما تحتوي صيرورة الطبيعة على جوهـر)، وهو لا يعيـد تشكيل نفسه (بينما الحيـاة تعيد تشكيـل ذاتها): إنما هو

ينبغي أن يتطابق بالهوية هو نفسه مع ذاته. والروح خارج عن مقولة المكان، ولكنه مع ذلك مربوط إلى المكان. وهو يقوم في العالم الواقعي، ويتبع له، ولكنها تابعية الحاكم بازاء القوى التي يقوم هو على حكمها.

فأما الروح الفردي، فإنه يتميز بالوعي الروحي. هذا الشكل من الروح هو وحده الذات بالمعنى الصحيح. ووعيه متخارج على ذاته (Excentrique)، وهو بهذا وعي بموضوعات. ولكن الروح أمر أكثر من هذا: إنه مشتبك في الكل الحالي للحياة، وهو يتسمى، من حيث هو بؤرة تنوع هذا الكل الشمولي وتعدده، باسم «الشخص».

إن «الشخصية» هي العلامة المميزة للفرد الروحي، وهي، شأنها شأن كل ما هو روحي، لا يمكن أن تُعرَّف بحدود أو أن تُحد، وإنما هي يمكن وصفها وحسب. والسمة الأولى للروح الشخصي أنها تتكون أو تتحقق بذاتها وعلى نحو تلقائي. ونجد هارتمان يتحدث، في هذا الصدد، عن نوع من «الإخلاص»، وهو ما يذكر ببعض قضايا جابريل مارسل. سمةٌ أخرى للروح الشخصي تقوم في تعالي أفعاله. ذلك أنه يقف في موقف، مثله مثل الحيوان، ولكن ذلك الموقف، بفضل وعي الروح الشخصي بالموضوع، ليس مطلقاً مجرد موقف تعرض لشيء آخر، أو نبذ، بل هو دوماً موقف استثارة إلى الفعل والعمل. إن الشخص ليس فقط الموجود الذي يتعالى بذاته عن طريق أفعاله، ولكنه أيضا ذلك الموجود الذي يحيا، من خلال وجوده كله وفي شموله، بما يدفعه فوق ذاته وإلى أعلى منها، ويشير إلى شيء ما، يفوقه هو نفسه. إن الروح، بحكم تعريفه، امتدادي، وأخيراً، فإنه حر.

أما «الروح الموضوعي»، فإنه معروف معرفةً أقوى من معرفتنا بالروح الشخصي. وهناك خاصية أساسية للحياة الروحية، تلك هي سمة إمكان انفصال المضمونات المعرفية (الموضوعات القصدية) عن الشخص الذي يصدرها.. فما أن يطلق شخصٌ أمراً ما، إطلاقاً يجعله موضوعاً خارجياً، وذلك بوسيلة التعبير، حتى لا يعود ممكنا له أن يسترجعه مرة أخرى، بل «يسافر» ذلك المضمون الموضوعي من شخص إلى

شخص. هذه هي الخاصية الأساسية، في رأي هارتمان، للروح الموضوعية.

ولكن سائر أشكال المضامين التي من هذا النوع، من مثل القانون، العرف، اللغة، الاعتقادات، العلم، الفن، إنما تنتمي إلى ميدان الروح التاريخي. ومع ذلك، فإن طابعها التاريخي نفسه يدل، على التحديد، على أن تلك المضامين لا يمكن أن تُختزل إلى محض سمة مضمونية، بل هي مما يعرف الحياة والصيرورة والموت، وهذه الأمور الأخيرة تكوّن نحواً معيناً من أنحاء الوجود. بهذا المعنى، تَستخدم اللغةُ تعبير «الروح اليونانية»، «روح شعب ما»، إلى غير ذلك.

هذا الروح الموضوعي ليس هو هو الأفراد، ولا حتى هو هو مجموع الأفراد، كما أنه ليس هو الجماعة، على الرغم من أنه لا يوجد مطلقاً من غير تجمع بشري ما.

ويؤكد هارتمان، معارضاً لهيجل، أن الروح الموضوعي ليس جوهراً، بل هو عنده حياة الروح في كليتها وشمولها، وعلى نحو ما تنمو بفعل سلوك جماعة بشرية. ولكنه ليس مجرد مفهوم كلي، من الناحية الأخرى. إن الروح الموضوعي فريد، فردي، تاريخي، مستقل بذاته، وفي كلمة واحدة: إن الروح الموضوعي حقيقةٌ وفعليٌ بكل معنى الكلمة.

إن العلاقة بين الروح الموضوعي والروح الشخصي هي علاقة السائد بالمسنود، والعكس بالعكس. فنجد، من جهة، أن الفرد ينمو في إطار الروح الموضوعي، ولكن، ومن الجهة الأخرى وفي نفس الوقت، نجد أن الروح الموضوعي يعيش في الأفراد وبهم. إن الروح الموضوعي لا يُورَّث، وإنما هو ينقل وحسب (قانون التقاليد). وهو لا يختزل، فيما يخص مضمونه، إلى أي من هؤلاء الذين يمثلونه. لهذا السبب، ينبغي الاعتراف له بنوع من الديناميكية الذاتية التي يختص بها. إن أبرز ما في الروح الموضوعي هو افتقاره إلى الوعي المتناسب. ذلك أن الروح الموضوعي لا هو وعي جمعي ولا هو شخص جمعي، كما أنه في نفس الوقت ليس روحاً «لا شعورياً»، ولا هو «فوق الشعور». إن وعي الروح الموضوعي لا يقوم فيه، بل في

الأشخاص المفردة. وحيث أن الروح الموضوعي لا يوجد في هؤلاء الأشخاص بشكل مناسب(٦٥٦)، فإنه يَنتُج عن ذلك أنه روح غير مكتمل. إن الروح الموضوعي يتمثل في الجماعة بوسيلة الوعي، الذي يقوم مقامه ويشخصه، أيْ وعي أحد الأفراد (قائد).

وطالما أن الروح الموضوعي والروح الشخصي يتقابلان ويتموضعان(٦٥٧)، فإنه ينتج عن ذلك تكون «الروح المتموضع». ويثير هذا الأخير مشكلات عظيمة الصعوبة ذلك أنه حين يظهرهذا الروح المتموضع، فإنه يظهر على مستويين مستوى: البنية الواقعية الحسية، وهي الطبقة الحاملة، ومستوى «المضمون الروحي» المحمول على البنية الأولى. كيف يجتمع هذان المستويان على عظيم اختلافهما، وكيف يستمر الروح المتموضع، وهو ينسلخ عن الروح الحي، كيف يستمر في الحياة؟ هذه بعض من العديد من المشكلات التي يدرسها هارتمان في هذا الجزء من كتابه، الذي يحتوي كذلك على فصول هامة بشأن الاستطيقا والتاريخ والعلم، وميادين الثقافة الأخرى.

سادساً: الأخلاق. حرية الارادة

كتاب هارتمان: «الأخلاق» كتاب أساسي، ذو أهمية ضخمة، وكان له عظيم الصدى في ألمانيا وفي بلاد اللغة الإنجليزية. ولا نستطيع، مع الأسف، أن نعرض منه غير مجملٍ لأهم سماته.

في القسم الأول من الكتاب، يدرس هارتمان بنية الظاهرة الأخلاقية، وتبنى، قبل أي شيء آخر، الآراء الأساسية لأخلاق القيم التي قدمها ماكس شلر، ولكنه يهيىء منها بحيث تصبح نظاماً جديداً، وينميها ويطورها على طول الخط، ويُدخل عليها عديداً من التعديلات. وهكذا، مثلاً، فإنه يقبل وجود القيم الأخلاقية

---

(٦٥٦) لأن كل شخص لا يستطيع أن يتمثل الروح الموضوعي في كماله.
(٦٥٧) أي يصبح كل منهما «موضوعاً» للآخر.

باعتبارها ميداناً مستقلاً، ثم يرفض فضلاً عن ذلك مذهب «الشخص الجماعي»، ويرى أن الإنسان الفرد هو وحده الشخص. وحيث أن الإنسان يحوز هذه الصفة المخصوصة له، فإنه، باعتباره موجوداً أخلاقياً، حاصل على استقلالية ذاتية (Au-tonomie) في ميدان القيم. ولا يوجد فوق الإنسان أي مبدأ غائي أعلى، ولو وجد مثل هذا المبدأ الذي يتعدى الإنسان، فإنه سوف يحدد العالم في إطار الحتمية، ولو حدث مثل هذا، لأصبح الإنسان، من حيث هو موجود أخلاقي، في مواجهة الممتنع الذي لا يستطيع معه فعلا، ولصار، من حيث هو شخص، إلى العدم. ويرى هارتمان أن الواقع أنه لن يكون في مستطاع أي شخص أن يبرهن على وجود عناية غائية إلهية إلى جوار تلك التي للإنسان.

في القسم الثاني من كتاب «الأخلاق»، يبني هارتمان مملكة القيم الأخلاقية على هيئة نظام متسع الأرجاء، وهو نظام فلسفي هو أكمل وأعمق ما قدمته الفلسفة الأوربية. وهو يعتمد هنا، على الخصوص، على أرسطو، «شيخ البحث الأخلاقي»، حيث يأخذ، مثلاً، نظرية أرسطو في الفضيلة، باعتبارها وسطاً عدلاً، ويعمقها. ويرى هارتمان أن الفضيلة «وسطٌ» من وجهة النظر الأنطولوجية وحسب، بينما هي، من وجهة النظر القيمية، ومثلما هو الحال عند أرسطو قيمة عليا. وهكذا. فإن «توسط» الفضيلة لا يدل على قيمة متوسطة.

ولكن كل هذا القسم من الكتاب، ما هو في نهاية الأمر إلا استعادة وتنمية، مهما كانت رائعة، لأفكار من عند أرسطو وماكس شلر. وعلى العكس من ذلك، فإن نظرية الحرية، التي يعرضها هارتمان في القسم الثالث من كتابه العظيم، تظهر باعتبارها مشاركة شديدة الأصالة، حيث تجتمع فيها، وتُوحَّدُ في إطار نظام ممتد أفكارٌ أرسطية وتوماوية وكانتية جديدة (من الفيلسوف كوهن)، وأفكار كانتية على الأخص (مع التخلص مما بهذه الأفكار الكانتية من سمات مثالية).

ويفرق هارتمان، مثل كانت، ما بين الحرية السلبية (اللاحتمية) والحرية الايجابية (التحدد على وجه معين). ولا يمكن أن تكون هناك، في مواجهة العالم المحدد

بقوانين العلية، أيةُ حـريةٍ سلبية، أو لا حتمية. ولكن مشكلة الحريـة يقوم أساسها فيها يتعدى الصراع بين الحتمية واللاحتمية. إن الحتميـة التي تفرضها قوانين الطبيعة لا يمكن أن تؤثـر على أي نحو على الحريـة الايجابية، وذلك بقـدر ما أننـا لا نتصور الحتمية السببيـة من منظور موقف يقول بـواحدية الـوجود. لقد أثبتت الأنطولـوجيا فساد الـرأي القائل بواحديـة طبقات الوجود، وذلك الآخـر القائل بواحديـة قوانين الوجود.

من جهة أخـرى فإن حرية الإرادة، في عـالم متعدد الطبقات الوجـودية، ليست ظاهرة فريدة، حيث أن قانون الاستقـلال الذاتي ينطبق على علاقات سائر الطبقات العليا مع تلك الدنيا. إن حريـة الإرادة ليست «شيئا أقل»، في مواجهة الحتمية، بل هي شيء أكثـر»، فهي لا تهدم الحتمية التي تقيمهـا القـوانين السببية مطلقـاً، وإنما تبعـدهـا وحسب عن طـريقهـا بـوسيلـة وسيط ذي تحديـد ضمني أعلى: تلك هي الحرية.

ولكن حريـة الإرادة تعني كذلك الحريـة بازاء المبدأ الأخـلاقي ذاته (القيم). إن الحريـة بازاء المبـدأ الأخلاقي تبـدو حريـة سلبية، حيث أن الحقيقـة الأخلاقيـة غير محددة، على خـلاف حالـة العـالم الواقعـي، وهو المحـدَّد تماماً بقوانين العلبـة. إن الشخص هو الـذي يحدد ذاته، من أجل أن يقـوم بعد ذلك بتحديـد العالم، بفضل ذلك التحديد الـذاتي. وهكذا يظهر الإنسان باعتبـاره ملتقى التقاطع بين قوتين غير متجانستين: العالم الواقعي والعالم النموذجي. وعن طريق الإنسان وحده، وبوسيلة حريته، تؤثر القيم في العالم الواقعي.

ولكن حـريـــة الإرادة هـذه، أليست وهماً؟ إن هـــارتمان يبني حقيقتهـا بتصرف منهجي، مماثل لذلك الـذي استخدمـه من قبل من أجل البرهنـة على أن موضـوع المعرفـة «قائم بذاتـه»، أي القول بأن الدليـل يقع عبء تقديمه على الشـاك في حقية حريـة الإرادة، كما هو الحال في نظريـة المعرفة على نحـو ما رأينا. فليس في الظـواهر مايمكن أن يبرر الشك. وعلى الجانب الآخـر، فإن الوعي بالخطيئة هـو علامة، بين علامات ودلائل، على أن حرية الإرادة حقيقةٌ.

وينتهي كتـــاب «الأخـلاق» لهارتمان بحشـد لسلســة من التعــارضـات (An-tinomies) بين الأخلاق والدين، كان ينبغي على فلسفة الدين أن تقوم على الاهتمام بها (لم يقم هــارتمان بهذا البحث). ولكن هنـــا أيضـــا تقف الفلسفــة أمــام ذلك اللغز: أمام اللاعقلي الذي لا يمكن رده إلى مبدأ تأسيسي له يُفسَّر به.



الفصل الثالث والعشرون

وايتهـــــــد

أولا: خصائص فكره وتطوره

يُنظر إلى ألفرد نورث وايتهد (١٨٦١ ـ ١٩٤٧م)، عمـوما، على أنه أبرز فلاسفة العالم المتكلم بالإنجليـزية في النصف الأول من القرن العشرين الميـلادي، ويبدو أنه يستحق هـذا التقـدير، وعن حق. وعلى أيـة حـال، فإنـه يظهـر على صورة المفكـر صاحب الفكر الأصيل والذي يشع قـوة روحية فائقة. أما مسار حيـاته العملية فإنه فـريـد بين الفـلاسفة. فقـد أتم دراسـاتـه في جـامعـة كمبردج، حيث تخصص في الرياضيات، ثـم درَّس فيها علم الهندسـة وعلم الميكانيكا لمدة ثلاثين عاما، ثم عين محاضرا في هذين التخصصين في «يـونيفرستي كولج» في لنـدن، في عام ١٩١١م، في عمر يبلغ الخمسين عاما. ثم درَّس الريـاضيات التطبيقية في «إمبريال كولج» بلندن أيضـا، من عام ١٩١٤، إلى عـام ١٩٢٤م. وفي عام ١٩٢٤م هـذا، وعمره ثـلاث وستون سنـة، يصبح استاذا للفلسفة في جامعـة هارفرد الأمريكيـة، حيث استمر في هذا المنصب حتى عام ١٩٣٧م.

يمكن للمؤرخ أن يميـز تمييزا واضحا بين ثلاث مراحل في تطـور وايتهد، حيث تتميز كل مـرحلة بكتابـات علمية متميـزة. فقد أخرج عـددا من المؤلفات في المنطق الريـاضي، منذ عام ١٨٩٨م. تتوجت جميعـا بالمؤلف الضخم المشهور الـذي أنتجه بالمشـاركة مع برتراند رسل: «مبادىء الرياضيـات» («برنكيبيا ماثماتيكـا»)، والذي صدر مـابين عامي ١٩١١ و١٩١٣م. وفي المرحلـة التاليـة انكب على الاهتمام بعلم

الطبيعة، ونشر عـددا من الكتب الهامـة في فلسفة علم الطبيعـة. أخيرا، في المرحلة التـاليـة، قـدم نفسـه على هيئة الفيلسـوف الميتـافيـزيقي مع كتـابـه «العلم والعـالم الحديث»، الذي صـدر عام ١٩٢٦م، ثم نشر بعـد ثلاث سنـوات من ذلك، عام ١٩٢٩م، كتـابه الـرئيس: «الصيرورة والـواقع»، حيث عرض فيـه نظـاما فلسفيـا مكتملا.

إن وايتهد عقل متسع الآفاق إلى درجة فائقة. فهو رياضي متميز، وأحد مؤسسي علم المنطق الرياضي الحديث، وهو في نفس الوقت فيلسـوف قدم فلسفة عضوية. وبينما هو متخصص في العلوم الطبيعية، فإنه يُبدي كذلك اهتماما شديدا بالتاريخ، ويحوز معارف تاريخيـة واسعة الامتداد. ويقوم نظـامه الفلسفي على أساس من علم الطبيعة، ولكنه يحتوي على عدد وفير من الأفكار البيولوجية، ثم ينتهي إلى فلسفة في الدين، ثم إن أسلـوب هذا المنطقي الكبير يقترب أحيـانا من لغة المتصـوفة. ويضم وايتهد إلى شمول معرفته عمومية ذهن وذكـاء متفتح على تيارات روحية وفنية شديدة التنـوع. وهو واقعي ووضعـي في «طريقـة» عـرضه للمشكـلات، وبحـاثـة شديـد الانكباب على بحوثـه، تحليلي في تناوله للتفاصيل، موهوب أعظم مـوهبة في تقديم الرؤى الشموليـة التركيبية، وهو يمثل بأعماله نموذج الفيلسـوف في جوهره، وبأنبل مافي هذه الكلمة من المعاني.

وليس من السهل أن نحدد مكان وايتهد في تاريخ العقل. إنه ينتمي، على غرار برتراند رسل، إلى مجموعة «الواقعيين الجدد» الإنجليز، وهم الذين يشاركهم في الأخذ بالمنهج التحليلي، وبـالواقعيـة، وبتقديـر العلم تقديـرا عظيما. ويعد إنتـاج وايتهد أكمل وضع فلسفـي لنتـائج العلـم الطبيعي ظهـر حتى منتصف القـرن العشرين الميـلادي. في نفس الوقت، فإنـه أفلاطـوني. ويقول هـو نفسه أنـه كذلك بـالمعنى الكامل للكلمـة، بل ويضيف أيضا أن الفلسفـة الأوربية سائرهـا، بعد كل شيء، ماهي إلا سلسلة من التعليقات أسفل صفحات أفـلاطون. ولكن أفلاطونية وايتهد أفلاطونية شديدة الخصوصية، حيث يرى أن «المثل» ليست ذات وجود فعلي، وإنما هي إمكانات خـالصة. كما نجد عند وايتهد أثارا من الارسطيـة، وتتمثل هذه الآثار

على الخصـوص في أخـذه بـالمذهب العقلي صراحـة، مربـوطـا إلى الأخـذ بـالمذهب التجريبي في هيئته الواسعة. كذلك، نجد وايتهد، في نظريته عن «الإدراك»، يقترب من ليبنتز، كما يقترب من اسبينوزا (من حيث فكرة الجوهر عنده)، بينما ترجع نظريته الاستيطيقيـة إلى كـانت، رغم اتخاذهـا لخط السير الأرسطي. وهـو يـدافع، مثل برجسون، عن فكـرة الديناميكية في فهم الوجود وعن مـذهب التطور، ويأخذ، على غـراره أيضـا، بمـوقف انتقـادي بـازاء العلم، ولكنـه يصل إلى الإلـه بطـريق عقلي خالص.

ومع كل هذا، فانه ليس صحيحا أن يرى المرء في وايتهد مفكرا انتقائيا. ذلك أن نظامه الفلسفي يتميز، قبل أي شيء آخر، بوحدته الداخلية. ففي سائر أرجاء ذلك النظـام، وعلى نحو منظم متسق، ورغم التعـديلات المنـاسبة في كل ميـدان، يطبق وايتهد فكـرتيه الأساسيتين الأصيلتين: فكـرة الخلق، وفكرة الإدراك. وهكـذا يظهر وايتهد، من جانب، فيلسوفا حديثا تماما، واحدا من أشد الفلاسفة حداثة ومن أبرز الفلاسفـة في النصف الأول من القرن العشرين الميـلادي، حيث يعرف معرفـة وثيقة علم الطبيعـة إلى جـانب علم الريـاضيـات إلى جـانب علم البيـولوجيـا إلى جـانب فلسفـات القرن العشرين الميـلادي، هـذا من جهـة، ولكنه من جهـة أخـرى يضع تأملاتـه الميتافيزيقيـة على مستوى الخلود خارجـا بها عن ظروف الزمـان الذي يعيش فيه، وهو نفس المستوى الذي وضع عليه أفلاطون مشكلاته.

وفي الصفحـات القادمـة لا نقدم غير إطـلالة شـديدة على نظـام لنظام وايتهـد الفلسفي، وسنعتمـد في هـذا الشأن على كتـابـه: «العلم والعـالم الحديث»، ولن نستطيع، مع الأسف، أن نـرجع هنـا إلى كتـابه الأكبر، «الصيرورة والـواقع»، وهـو كتاب شديد الصعوبة.

ثانيا: الفلسفة

حيث إن كل فكـر كان هـو بـالضرورة تجريد، فـإن الفلسفة لن تستطيع القيـام بعملها بغير تجريدات. ولكن هذه التجريدات، وبقدر ماهي مفيدة، إلا أنها أيضا

خطرة. ذلك أنها غالبا ماتكون مستنبطة من قاعدة ضيقة ومثال ذلك هو العلم الطبيعي الغربي، كما أنها غالبا ما تؤدي إلى تصلب عقلي، به ينغلق المرء على سائر عناصر الحقيقة التي لا يجد لها مكانا في صياغته المجردة. فالواقع، أنه ما أن نقوم بالتجريد حتى يصبح لدينا اتجاه «نحو اعتبار مبادئه وكأنها عقائد نهائية، ونحو اعتبار تلك التجريدات وكأنها حقائق. هذه المغالطة الخاصة بـ «التعين الموضوع في غير مكانه» (Fallecy of misplaced concretness) تنذر بجمود الثقافة وجفافها. وينتج عن كل ذلك، أن مهمة الفيلسوف الأولى إنما هي نقد التجريدات.

إن الواجب هو فحص الأفكار الموضوعة مبادىء عليا، وهي المبادىء التي يقبلها العلماء بغير مناقشة لها، والمقارنة بين سائر الصيغ التنظيمية (Schémas) المجردة (في مختلف العلوم فيما بينها، وفيما بين العلوم والدين).

من جهة أخرى، فإن الفلسفة تتبنى نظامها الخاص بها، معتمدة هكذا على حدوس أكثر تعينا من تلك الحدوس التي تقبلها العلوم وتقوم عليها. إن الفلسفة تستخدم، على سبيل المثال، حدوس الفنانين والعبقريات الدينية، وتضيف عليها حدوسها الفلسفية.

الفلسفة، إذن، ليست علما إلى جوار العلوم الأخرى، وإنما هي تتعدى العلوم جميعا. إن ضرورة الفلسفة أمر واضح للعيان، لأنه بدون هذا النوع من الفحص العقلي فإن البشر سوف يبنون، على غير شعور منهم، نظما بغير رقابة من جانب العقل.

منهج الفلسفة ينبغي أن يكون عقليا إذن. إن وايتهد يستنكر استسلام العقل أمام الوقائع، وهو الاستسلام الذي حدث في العصر موضوع الحديث في هذا الكتاب، ويأمل أن يكون قد حان الوقت لنزعة عقلية حقة. إن مطلب العقلانية يتأسس على الحدس المباشر بعقلانية العالم. هذا الحدس لا يمكن بيانه بالاستقراء، كما لا يمكن البرهنة عليه بالاستنباط، إنما هو رؤية مباشرة تسمح لنا بإدراك أن العالم

محكوم بقوانين منطقية وبتناسق وانسجام استيطيقيين. إن الاعتقاد (Belief) المبني على هذا الحدس، هو وحده القادر على جعل العلم ممكنا. ونجد عند وايتهد صفحات رائعة فصَّل فيها القول في هذا الاعتقاد، وبين كيف وصل إلى ازدهاره في المسرحيات الدرامية اليونانية وفي فكر المفكرين اليونان وفي العصور الوسطى المسيحية. (٦٥٨) وهو يؤكد على أن هذا الاعتقاد لم يكن عقيدة عمياء: فالوجود عقلاني ويمكن إدراكه بالذهن، ويكفي أن نتصور هذا الاعتقاد حتى ندرك صحته.

ومع كل ذلك، فإن وايتهد ليس مفكرا عقليا بالمعنى التقليدي والدقيق للكلمة. فالذي يبدو أمامه خصبا ومثمرا هو الاتصال مع الواقع المتعين، وينبغي في رأيه أن نبحث عن أسس الأشياء في داخل طبيعة الموجودات الفعلية المحددة وحدها، ويقول: «حيثما لا يكون موجود قائم، لا يكون هناك أساس. إن الفيلسوف يفسر المجرد، لا المتعين. إن التجربة وحدها هي التي تكشف لنا الحقيقة». ومن نافلة القول أن وايتهد، مثله مثل هسرل، لا يقصر التجربة على المعرفة الحسية. ويؤكد وايتهد، من جانب آخر، على التزامه بالمذهب التجريبي التزاماً قوياً حين يقرر أن الميتافيزيقا لا يمكن أن تكون إلا دراسة وصفية.

ويحذر وايتهد الفلاسفة من استخدام مناهج العلوم الطبيعية، حيث لا يمكن لهم أن يحققوا نقد التجريدات بوسيلة التعميمات التجريبية. وليس أقل من هذا بعدا عن المعقول محاولة إقامة الميتافيزيقا على التاريخ، لأن كل تفسير للتاريخ إنما يفترض هو نفسه ميتافيزيقا مفصلة تقف من ورائه.

ثالثا: نقد المادية

يقول وايتهد إن المادية تقوم على المذهب القائل بأن المادة موجودة، وبصفة عامة أن المادة وحدها هي الموجودة. ويتصور أصحاب المادية المادة على هيئة شيء له خاصية مميزة هي « الموضع البسيط » (Simple location) ، ويقصد بها التحديد

---

(٦٥٨) هذه هي الخلفية التي يعمل في إطارها عقل ذلك الفيلسوف، وهو لا يفكر في غيرها.

البسيط للموضع من حيث المكان والزمان. ولو كـانت هذه النظرية صحيحة لصار الزمان عَرضا للمادة، ولصارت المادة هي ذاتها ثابتة، وما كان سيمكن «للحظة» (In-stant) أن يكون لها أي دوام.

يرى وايتهد أن مـن الواضح أن المادة ماهي إلا تجريد مـزدوج: فلا يعتبر الموجود مـوجـوداً إلا في إطـار عـلاقـاتـه مع الموجـودات الأخـرى، وحتى في داخل هـذه العلاقات، لا يهتم إلا بتلك المكانية ـ الزمانية. ومنذ العالم الإيطالي جاليليو(٦٥٩) أصبحت التخطيطة (Schéma) المادية هي التخطيطة المسيطـرة، وذلك لأسباب تاريخية وأخرى متصلة بنظام العـالم، وأفادت من نمو العلوم حتى اكتمل تكوينها. ومع ذلك، فإن من الظـاهر، في رأي وايتهـد، أن هذه التخطيطـة باطلـة. ذلك أن المادية تؤدي بالضرورة إلى نفـي الوجود الموضوعي للصفات الثانـوية، وهو أمر محال ويتعـارض مع ما تشهـد به كل تجربـة. أيضا، فإن الماديـة تؤدي بـالضرورة إلى نفي المسئولية الإنسانيـة، وهو أمر مخالف للعقل، كذلك. أخيرا، فإنها تنتهي إلى تحطيم الأساس ذاته الذي تقوم عليه، وهو الاستقـراء، لأنه إذا كانت جزئيات المادة معزولة بـالكـامل عن بعضهـا البعض، ولا تصل فيما بينهـا إلا عـلاقـات مكانيـة زمـانيـة خالصـة، فلن يكون من الممكن أن نصل مطلقا إلى استنتـاج ماسيحدث لموجـود ما ابتداء مما حدث لموجود آخر.

وليس من الممكن أن تدعـو المادية العلـوم الطبيعية إلى نصرتها في العصر الحالي، حيث أن كلا من النظريـة الموجية في الضوء، ونظرية الـذرة (منذ أن نقلت إلى ميدان علم الحياة)، ونظـرية بقاء الطـاقة والمذهب التطـوري، قد اكتشفوا جميعـا وقائع لا يستطيع إطـار الماديـة أن يفسرهـا. أخيرا، فإن هـذه الفلسفـة السطحيـة أصبحت مستحيلة التصـور بعد ظهـور نظريـة الكمات(٦٦٠) التي تتطلب تصـورا عضـويـا «للمادة» هي ذاتها. لكن الضربة القاضية التي يوجههـا وايتهد ضد المادية هي ضربة فلسفية: فمن السهل بيان أن هذا المذهـب ينحصر في جوهره في الخلط بين الحقيقة

(٦٥٩) من أهم مؤسسي العلم الغربي (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢م).

(٦٦٠) أو نظرية «الكوانتم»، قدمها العالم الألماني ماكس بلانك. راجع هامش (٧٣).

وبين تجريد مـريح ، حتى وإن كـان خصبا . إن الجسم، على نحـو ما تصـوره عليه جاليليـو وديكارت، غير مـوجود، ومـاهو غير تجريـد . وهنا يظهـر بجلاء نمـوذج «مغالطة التعين الموضوع في غير مكانه».

رابعا: نظرية الآلية العضوية

إن النظـرية الصحيحـة عن الطبيعة ينبغي أن تقبل، في مـذهب وايتهد، وقـائع التجربة التالية: التغير، البقاء (endurance)، التخلـل (interfusion)، القيمة، الموجودات العضوية، والموضوعات الخالدة (eternal objects). إن شيئا ما يتعدل، ويبقى ويستمـر شيئا آخـر، كما هو الحال في الجبل. إن الأشيـاء ليست منعزلـة عن بعضها البعض في الطبيعـة، وإنما هي «يتخلل» (interfused) بعضهـا البعض. كذلك، فإن هنـاك في العالم قيم ومـوجودات عضويـة. أخيرا، نجد في العـالم أيضا أشياء لا تبقى وتستمر وحسب، بل هي خالـدة، ومن ذلك على سبيل المثال لون ما محدد. فإذا اختفى جبل ما، فلن يعود إلى الـوجود يوما مـا، وحتى لو حدث ذلك، فلن يكون هـو نفس الجبل، أما مع الألوان، وعلى النقيض من الحالة السـابقة، فإن اللون الأخضر مثلا هو دائما نفس اللون.

فوق هذه المقـولات جميعا يعلو التصور الذي يحويها جميعا، وهـو التصور الرئيسي في فلسفة وايتهد، ألا وهو مفهوم «الحدث» (event) فهو يرى أن العالم لا يتكون من أشياء، بل من أحداث، أي مما يحدث (happens)، أما إذا كنا أمام مقطوعة زمانية من «الحـــــدث» أو «قطرة من التجربـة»، أو فعل فردي من التجربـــة الحية المباشرة الممتعة (self- enjoyment)، فإن وايتهد يعطيه اسم الحادثة» (Occasion).

وكل «حدث» هو «إدراك» (prehension)، وهو كيان عضوي. هو «إدراك» لأنه يُـدرك في ذاته الكون كلـه، كما لو كان يعرفـه معرفة عميـاء. وماضي «الحدث» قائم فيـه، ومستقبله معلن عنـه، وعالم «الحوادث» الأخرى ممثل فيـه بواسطـة فعلها عليه. إن «الحدث» هـو الوحدة التركيبيـة مأخوذة باعتبارهـا كيانا واحـدا. من جهة أخرى، فإن كل حدث كيان عضوي، فـأجزاؤه لا تقف مجرد وقوف إلى جوار بعضها

البعض، وإنما هي تكون كلا، حيث كل جزء لا يتجزأ منه يؤثر على الكل، كما يحدد الكل الاجزاء. ولنأخذ مثلا الإلكترون حينما ينفذ إلى داخل ذرة، والذرة إذا دخلت إلى خلية حية، كلاهما يخضع لتحولات عميقة. إن كل «حدث»، شأنه شأن «الموناد» «عند ليبنتز»، هو مرآة للكون.

إن وجهة النظر هذه تسمح، في رأي وايتهد، بأفضل انتظام ممكن لنتائج علم الطبيعة الغربي الحديث وعلم الحياة وعلوم الروح، وهي تبين على أوضح صورة خطأ المادية وطبيعتها «التجريدية» المغالية. وهكذا، مثلا، فإن المكان في نظر المادية إنما هو تجريد من علاقات تخلل متبادلة معينة بين الاحداث، والزمان تجريد لكل ديمومة من ديمومات الأحداث المتعاقبة. ومن هذا المنظور، فإن وايتهد يشارك برجسون أفكاره المتصلة بهذا الموضوع، ولكنه يرفض صراحة موقف برجسون النابذ للمذهب العقلي.

إن العالم يظهر، من خلال منظور الآلية العضوية، وكأنه مجتمع عملاق، حيث الكل يؤثر في الكل، وحيث لا توجد علاقة واحدة تكون محض علاقة خارجية.

خامسا: نظرية المعرفة

يقبل وايتهد المذهب الموضوعي، وذلك من حيث أنه يرى أن العالم يحتوي، فعلا وحقا، على أفعال المعرفة، ولكن ليس فقط على هذه الأفعال. وهو يقدم ثلاثة أسباب لهذا الموقف: تجربتنا الإدراكية تظهر لنا أننا موجودون في عالم يمتد إلى ماهو أبعد منا، والتاريخ يخبرنا بوجود ماض طويل يسبق وجودنا نحن، والسلوك الإنساني يفترض وجود التعالي.

ومع كل هذا، فإن الفكر لم يصل إلى حسم سؤال: ماهو المذهب الصحيح، الواقعية أم المثالية؟ إلا أن وايتهد يعلن اختياره للواقعية في نهاية الأمر، ويرد على سائر الحجج المثالية ويرفضها، مطبقا في هذا نظريته في «الإدراك». إن مبدأ «المباطنة» (immanence) الذي يقول بأننا لا نعرف إلا ما هو «فينا»، أصبح مبدأ قد عفا عليه الزمن، لأنه يقوم على التصور المادي الخاص بانعزال الأشياء بعضها عن بعض.

فالحق، أن كل «حدث» يتعدى نفسه بفضل «الإدراك» (prehension). إننا نعرف «هنـا» الأشياء القـائمة «هنـاك». ومن الطبيعي أن يكون هنـاك تحريف وتشويـه في المعرفـة، وأن نكون واقعين تحت تأثير الظـروف الذاتيـة، هذا طبيعي لأننـا لا نعرف «الحوادث» الأخرى إلا بقدر ماهي جزء من ذواتنا نحن.

ولنكمل هـذا العرض شـديـد الايجاز لنظريـة المعرفـة عنـد وايتهد بإشـارة، على الأقل، إلى مذهبه في الاستقراء ونظريته في السببية.

إن الاستقـراء، من وجهة نظـر فلسفة الكيـان العضـوي، يقوم في الانتقـال من خصائص فردية إلى توصيف عام لمجتمع من الحادثات (Occasions). إن الاستقراء ليس خطوة ذهنيـة عقلية، بل هـو نحو من «التخمين». إنـه لا يكشف الستار عن قوانين ثـابتة، للكون، بل يكشف عن خصـائص معينة لمجموعـة محدودة في المكان والزمان.

وفيما يخص السببية، فإن وايتهـد يؤكد على واقعـة أننا حائزون على معرفـة مباشرة مزدوجـة، إلا وهما معرفـة المعطيات الحسيـة (Sense-data)، وهي التي يسميهـا اصطلاحا «المباشرة التصويرية» (Presentational immediacy)، ومعرفة السببية. أن المذهـب التقليـدي لا يعترف إلا بـالنـوع الأول من المعـرفـة المبـاشرة، ولا يـرى في السببية غير افتراض أو نتيجـة. ولكن الـواقع، في رأي وايتهد، أننـا ندرك الفـاعلية السببية (causal efficacy) إدراكا مباشرا. وهي ليست أقل من بنية فوقية ذهنية، ولكنها تؤسس المعرفة عن طريق «المباشرة التصويرية».

سادسا: نظريته النفسية

يـرى وايتهد أن واحـدا من أكبر الأوهام وأخطـرهـا مما ظهـر في العصر الحديث لأوربا، كـان تفرق (bifurcation) الطبيعة إلى مادة وعقل. إن وجـود العقل أمر خارج عن الشك يقينـا، بل هو أمـر واضح. ولكن لا ينبغي أن ننظر إلى العقل، لا هو ولا المادة، على أنـه جوهر، إنما هو سلسلـة من «الحوادث»، شأنه شأن الجسم. إن الوعي وظيفـة. ويشير وايتهد، في هذا الصدد، إلى مقـالة وليم جيمس الشهيرة

«هل للوعي وجـود؟»، ويبدي اعجابـه بها، وينحاز إلى التصـور الوظيفي الخالص الذي تعـرضه تلك الدراسة. ومع ذلك فإنـه ليس من الممكن، فيما يقول، أن نعتبر العقل ظاهرة ثانوية من ظواهر المادة.

إن من الصعب، بـوجـه عـام، أن نقيم الحدود بين العقل والمادة، ولكن يمكن القول إن كل «حدث» هو ثنائي البـؤرة، وأنه وعيٌ حين يُرى من الداخل. إن عنصر العقل يبـدو بغير أهميـة في الأجسـام غير العضـويـة، ولكن وجـوده ظـاهـر بَيِّنٌ في الحيوانات العليا وعند الإنسان.

إن فلسفة الكيان العضوي لا يمكن أن تقرر، ولا تنفـي مقدما من جهة أخرى، وجود طرق ومسارات عقلية خالصة، ولا أن الطرق المادية ذات العلاقة معها ليست بغير أهميـة (فكـرة العقـول الخالصـة). ولا يمكن إثبـات بقـاء النفس، ولا حتى خلودها، إلا على أساس تجربة مخصوصة، التجربة الدينية مثلا.

سابعا: الميتافيزيقا

إن الميتافيـزيقا (ولا يميز وايتهد بينهـا وبين الأنطولوجيـا) هي وصف للحقيقة، ومن هـذا الـوصف تصـدر المبـادىء العـامـة لكل تفسير. إن القضيـة الكبرى التي يقدمهـا وايتهد في هذا المضمار هي تقـريره أن فهم الفعلي يقتضي إشارة وإرجـاعا إلى المثالي. ذلك أن تحليل المعطيات يُظهر أن الفعلي هو نهر من «الحوادث»، هو صيرورة أبـدية حيث لا وجـود فيها لجواهـر أو لـدوام حقيقي. إن وايتهد يعـرض مذهبـا في ديناميكية كل شيء دينـاميكية جذرية. ولكنه يرى، مع ذلك، أن واقعـة ظهور هذا «الحدث» هنـا، وذاك «الحدث» هنـاك، يتطلب تفسيرا. لهذا الاعتبـار ينبغي قبـول وجود عوامل ميتافيزيقية عديدة، هي بوجه عام، ليست من فئة الموجودات.

فينبغي أن يكون هنـاك، أولا، موضوعات خـالدة (Eternal objects)، وهـي إمكانات لما هـو في صيرورة، وهذه هي المثل الأفلاطونية، ولكن وايتهـد يدركها على هيئة إمكانيات موضوعية خالصـة في موضوعيتها. ثانيا، إن التحليل يكتشف وجود دفعة إبـداعية عمياء، هي مـايسميه Creativity، وهي تبدو في نفس الـوقت علة

فاعلة ومادة الصيرورة معا. إن كل شيء هو في صيرورة بفضل هذا «الجوهر» (بالمعنى القائم في فلسفة اسبينوزا)(٦٦١)، الذي هو غير محدد في ذاته على نحو كامل. أخيرا، فحيث أنه لا «الموضوعات الخالدة» ولا «الدفعة الإبداعية» محددة، وأنهما لا تستطيعان تفسير ظهور المتعين، فلابد من قبول وجود عامل ثالث، فعلي وزماني، ألا وهو «مبدأ الحد» (principle of limitation)، وهو الذي يحد ويحدد «الحوادث» التي في صيرورة. هذا المبدأ هو الإله.

وتحدث الصيرورة على نحو يؤدي إلى إنتاج وحدة (Prehension) تركيبية جديدة، وذلك تحت تأثير الدفعة الخلاقة «للجوهر» بالتعاون مع «الحدث» الموجود بالفعل من قبل. هذه الوحدة التركيبية الجديدة مزدوجة: «فالحدث» المخلوق جديداً يجمع في تركيبه بين «الموضوعات الخالدة» (وهي تدخل فيه، أو لها مدخل فيه in-gression، سواء إيجابا أم سلبا) وكذلك أوجه «الحوادث» الأخرى الواقعية سواء بسواء. إن الإله هو الذي يحدد ماينبغي أن يظهر إلى الوجود، بأن يضع الحدود، وبهذا يجعل التحديد ممكنا. إن «الحدث» هو الفرد الواقعي، بإصطلاح وايتهد su-perject، هو الفعلي، والذي هو قيمة. ذلك أن كل ماهو فعلي متعين، عند وايتهد، هو قيمة.

ونرى من كل هذا أن كل «حدث» يشكل، بذاته، على هيئة محددة، تركيبية للكون، ويدرك ويجمع كل أوجه العالم الواقعي، وكل «الموضوعات الخالدة» والدفعة الخلاقة والإله. على ذلك، فإن الإله مباطن في العالم. ومع هذا، فإن «الحدث»، دائما هو شيء يزيد على العالم الذي يسبقه: لأن له فردية تخصه، وهو يقوم على خلق كيان فعلي جديد، وعلى خلق قيمة جديدة.

ثامنا: الإله

يضع وايتهد متطلبات ثلاثة ينبغي توافرها في المنهج المناسب للوصول إلى الإله.

---

(٦٦١) الجوهر، عند اسبينوزا، هو مايكون في ذاته، وما لا يفهم إلا من خلال ذاته، ولا يحتاج في وجوده إلى شيء آخر، بحيث إنه لا يوجد في النهاية إلا جوهر واحد، هو الطبيعة أو الإله.

إن طريقة البحث ينبغي أن تكون عقليـة، وهي لا يمكن أن تكون لا حدسا، فنحن لا نملك إدراكا حدسيا للإله، ولا برهـانا على مثال برهان القديس أنسلم(٦٦١). كذلك فإن البرهان الكوني الذي قدمه أرسطو ليس بذي فائدة، لأنه يقوم على فيزياء أصبحت عتيقـة وتعداهـا العلم، كما أنـه لا يتحـدث، على كل حال، إلا عن إلـه متعال، غريب عن الأهداف الدينية(٦٦٢).

ينبغي قبـول وجـود الإلـه، في رأي وايتهــد، إذا أردنـا تفسير الظـواهـر، لأن الإلـه ضروري، من حيث هـو «مبدأ التعيين» (principle of Concretion)، وهـذا من جهتين: حيث بغيره لن تستطيع فهم لا كيف «تكـون» «الأحداث» ولا مـاهي. وإذ أنكر المرء وجود الإله، فلن يبقى ممكنا أمامه غير إنكار وجود الموجودات المتعينة.

كـان وايتهد في البـداية (عـام ١٩٢٦م) لا يعتقـد أنه من الممكن تعـدي نظريـة أرسطـو في شأن طبيعة الإلـه بكثير، ولكنـه، بعد ذلـك، كوَّن هـو نفسـه نظريـة في الإلهيات كاملة. وقد أقامها على أساس التمييز بين جانبين في الإله: طبيعته الأولانية (primordial) وطبيعته النـاتجة (consequent). من حيث طبيعتـه الأولانية، فإن الإله ثابت وخـارج الزمان، ووجوده الفعلي لا نهائي وكـامل. إن الإله أبدي، ولكن أبـديته أبـدية ميتـة. ومن هـذه الوجهـة للنظر، فـإن الإله ليس إلا صفـة «للدفعـة الخلاقة»، والخلق وحده هو الذي يدفع به إلى الحياة.

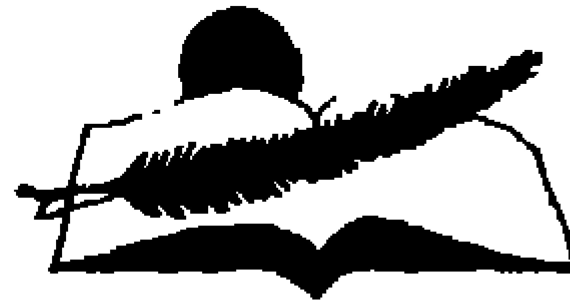
ولكن للإلـه طبيعة أخرى ناتجة، ويبـدو أنها تتمثل في الصفات الذاتيـة الأخرى التي ينسبها وايتهد إلى الإله. فالإله، من حيث طبيعته الناتجة، هو «الإدراك» (pre-hension) الواعي التصـوري الكلي، وهو كلي الحضـور، وما العـالم المثالي إلا وصف له. إن سائر المفـردات والسمات المخصصة التي في العالم عليها أن تتنـاسق فيما بينها وأن تتكايف مع بعضها البعض، وذلك في إطار الرؤية الإلهية اللانهائية. ولكن الإله محدد، من حيث طبيعتـه النـاتجة، وهو في صيرورة، ويثـري بغير تـوقف من جـراء «إدراك» عناصر جديدة تباعا.

---

(٦٦٢) إله أرسطو هـو المحرك الأول الذي لا يتحرك، عقل خالص لا يفكر إلا في ذاتـه، ولا صلة له بالعالم، ولا بالإنسان من باب أولى.

إن الإله مبـاطن في العالم ومتعـال عنه في نفس الـوقت، هـو مباطن فيـه، بقدر مـاهو حـاضر في كل مـوجود، وهـو متعـال عنه بقـدر مـايتعالى كل «حـدث» على «حـدث» آخـر. ويـروق لـوايتهـد، في هــذا الصـدد، أن يجمع في مــذهبـه بين المتناقضات، حيث يستخـدم هنا لغة مختلفة كثيرا عن لغتـه المعتادة في معظم أعماله الأخرى، ألا وهي لغة التصوف الأفلاطوني المحدث.

ولن نـدخل في تفاصيل نظـريـة وايتهد الـلاهوتيـة، ولكنـا نشير إلى جزئيـة من جزئيـاتها. إن الشر، في رأي وايتهد، منظـورا إليه في ذاتـه، هو شيء إيجابي، ولكنـه يؤدي إلى الفـوضى والتدني في العـالم. ولما كان الإله هـو مبدأ التنـاسق والانسجام، ومبـدأ النظـام، ومبـدأ القيمـة والسـلام، فإن الشر لا يمكن أن يأتي من مصـدره. وينتهي وايتهد إلى أن الإله خيِّر بـالمعنى الأخلاقي، وأنه هو الـذي يتسبب في التقدم النوعي الذي يحدث في العالم. إن غاية الإله تتجسد في المثل العليا الجزئية في الوضع الحاضر للعـالم. ومن هذا الجانب، فـإن الإله هـو القـائم على تقييم العالم. إنـه في صراع مع الشر، وهـو رفيق كل هـؤلاء الـذين يتعـذبون، والـذين هم معـه في صفـه يحاربون.



الفصل الرابع والعشرون
الفلسفة التوماوية

أولا: خصائصها وممثلوها

تعتبر المدرسة التوماوية (والمسماة أيضا التوماوية الجديدة)، والتي تطور الآراء الرئيسية التي عرضها القديس توما الأكويني (١٢٢٤ ـ ١٢٧٤م)، واحدة من أهم الحركات الفلسفية في هذا العصر. وقد وافقت الكنيسة البابوية على فلسفة القديس توما الأكويني موافقةرسمية في الرسالة البابوية المعنونة «Aeterni Patris»، والمنشورة في عام ١٨٧٩م ومعظم أتباع التوماوية من الكاثوليك، ولكنها ليست هي الحركة الفلسفية الوحيدة في داخل العالم الكاثوليكي[٦٦٣]. من جهة أخرى، فإن عددا من ممثليها المميزين من غير الكاثوليك (مثلا، المفكر الأمريكي م. أدلر والفيلسوف الإنجليزي ا. ل. ماسكول).

وقد كانت التوماوية حركة منزوية غير معروفة كثيرا، خارج الدوائر الكهنوتية، حتى الحرب العالمية الأولى، إلا أنها أصبحت تعتبر في منتصف القرن العشرين

(٦٦٣) يمكن إيجاز أبرز اتجاهات الفلسفة الكاثوليكية الحالية فيما يلي:
أولا: الاتجاه الأوغسطيني (نسبة إلى القديس أوغسطين)، وهو اتجاه حدسي فعلي، وغالبا مايكون براجماتيا كذلك، ويمثله يوهانس هسن وبيتر فست.
ثانيا: الاتجاه المدرسي الجديد (ذو توجه عقلي)، وفيه:
١ ـ أتباع دنز إسكوت (المدرسة الفرنسسكانية)
٢ ـ أتباع سوارز (وهم ب. سكوك، ل. فوتشسر، ٣ ـ التوماوية، وفيها: أ مجموعة تجتهد في التوحيد بين التوماوية والتوجهات الحديثة غير المدرسية (ج. مارشال، و. جايسر، ب ـ أتباع لويس دي مولينا، جـ ـ التوماوية بالمعنى الدقيق. هذه المجموعة الأخيرة هي أهمها جميعا سواء من حيث عدد مفكريها أو من حيث تأثيرهم، وإن كانت ممثلة في ألمانيا تمثيلا ضئيلا.
(هامش من المؤلف).

الميلادي واحدة من أهم الحركات الروحية لهذا العصر. والواقع، أن أي مجموعة فلسفية أخرى ليس لها ما للتوماوية من مثل هذا العدد الكبير من المفكرين ومن مراكز البحث ويكفي أن نشير أن الصحيفة الببليوجرافية للمدرسة، وهي Bulletin Thomiste، تحتوي سنويا على حوالي خمسمائة عرض لكتب ومؤتمرات، وأنه يظهر في العالم ما لا يقل عن خمسة وعشرين صحيفة علمية توماوية.

لقد شهدت الحركة التوماوية أكبر نمو قوي لها في فرنسا وفي بلجيكا، ولكن لها ممثلين ومراكز للبحث في كل البلاد الغربية على التقريب. أهم هذه المراكز هو «المعهد العالي للفلسفة» في جامعة لوفان، في بلجيكا، والذي أسسه دزيريه مرسيه (١٨٥١ ـ ١٩٢٦م)، و«المعهد الكاثوليكي» في باريس و«الجامعة الكاثوليكية» في ميلانو، ومعهد «الانجليكوم» في روما، وجامعة فرايبورج في سويسرا. وفي الأعوام الأخيرة انتشرت المدرسة بقوة في بلاد اللغة الإنجليزية في الغرب، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية.

ولن نشير هنا إلا إلى بعض وحسب من الجمهرة الغفيرة من المفكرين التوماويين. ففي جيل سابق يبرز إلى جوار مرسيه، امبراواز جارديُّ (١٨٥٩ ـ ١٩٣١م)، ويوزف جرت (١٨٦٣ ـ ١٩٤٠م). ومن أبرز أتباع «جردت» ريجنال جاريجو ـ لاجوانج (ولد عام ١٨٧٧م)، وربما كان هو المفكر الأكثر نظامية في المدرسة. ولكن أشهر الفلاسفة التوماويين هو جاك ماريتان (ولد ١٨٨٢م)، الذي يعد في منتصف القرن العشرين قائد الفلسفة التوماوية. ولنذكر إلى جواره أيضا أنتونان د. سرتيانج (١٨٦٣ ـ ١٩٤٨م). وهناك فيلسوف فرنسي آخر، اشتهر على الخصوص في ميدان تاريخ الفلسفة، ولكنه معروف أيضا بكتاباته النظامية، ألا وهو إتْيِنّ جِلْسُن (ولد ١٨٨٤م).

أما في بلاد اللغة الألمانية، فلنذكر جالوس أم. مانسر (١٨٦٦ ـ ١٩٤٩م)، والكسندر هورفات (ولد ١٨٨٤م)، ومؤرخ الفلسفة في العصور الوسطى المسيحية المعروف مارتن جرابمان (١٨٧٥ ـ ١٩٤٩م)، ويوزف ماوسباخ (١٨٦١ ـ ١٩٣١م).

والتوماوية الحديثة «مدرسة» بالمعنى الدقيق للكلمة، فلها مشكلاتها الخاصة، ومنهجها الخاص، وعدد من المبادىء المشتركة التي يعلنها سائر ممثلي المذهب. وهي تشبه، من هذا الجانب، الوضعية الجديدة والمادية الجدلية والمدارس الكانتية الجديدة. ولكنه يوجد، في نفس الوقت، في داخل المدرسة اختلافات قوية في الرأي بشأن عديد من المسائل. إن الفلاسفة التوماويين يجابهون جميعا المشكلات الحالية، ولكنهم يتناقشون فيما بينهم بشأن مسائل تخصهم نوعيا من حيث هم تيار فكري. وتقام بانتظام مناقشات فيما بينهم في المؤتمرات التي يقيمونها كثيرا. ومن بين الدورات الحديثة للمؤتمرات التي عقدها التوماويون مؤتمر ١٩٣٢م. الذي خصص للفلسفة الفينومينولوجية، ومؤتمر ١٩٣٣م، وخصص لما يسمى «بالفلسفة المسيحية»، ومؤتمر ١٩٣٥م الذي درس العلاقات بين الفلسفة والعلوم الطبيعية، وكذا مؤتمر الأكاديمية التوماوية في روما، عام ١٩٤٧م، الذي قام بمناقشة الفلسفة الوجودية.

ثانيا: الوجود «الفعل» و«القوة»

في قلب الفلسفة التوماوية تقوم الميتافيزيقا، وهي والأنطولوجيا كالأمر الواحد، وموضوعها الوجود من حيث هو وجود.

إن مفهوم الوجود ليس واحدي المعنى، بل هو «تماثلي» (Anologique)، أي أن كلمة «وجود» يكون لها معنيان مختلفان حينما تطبق على موضوعين مختلفين، ولكن معناها يظل هو هو تناسبيا.

أهم مذهب يقول به التوماويون في صدد الوجود هو مذهب «الفعل» و«القوة»، وهو يشكل القضية المركزية في نظامهم الفلسفي، حيث تترابط سائر تقريراتهم بالارتباط بهذه القضية المركزية. وهكذا يميز الفلاسفة التوماويون بين الوجود في حالة الفعل والوجود في حالة «القوة». وماهو بالفعل من وجهة نظر معينة، هو مايكون «موجودا» ابتداء من هذه الوجهة للمنظر. وماهو «بالقوة» هو غير الموجود، ولكنه يمكن أن يوجد وجودا حقيقيا. مثال ذلك، الطفل الذي يمكن أن يصير عالما رياضيا هو رياضي «بالقوة»، من حيث الإمكان. والعلاقة المتبادلة مابين ما بالقوة

وما بالفعل هي علاقة الأساس (أو الأرضية) القابل للتحديد مع فعل التحديد الذي يدخل عليه.

أول تطبيق هـام لنظريـة القوة والفعل يـوجـد في مذهب الماهيـة والوجـود. كل وجود، ماعدا الإلـه، يتكون من ماهية ومن وجود. الوجود هـو فعل الماهية الذي به هي تتحقق بـالفعل. في الوجـود المتعين المتحقق لا يفترق الحدان، ولكنهما مع ذلك متمايزان تمايزا حقيقيا.

تطبيق آخر لقضية القوة والفعل: نظرية المقولات. إن المقولة الأساسية هي مقولة الجوهر، وهو الموجود الوحيد الذي يجوز الـوجود بذاته، بينما المقولات الأخرى، التي تسمى «بالأعراض»، تحديدات تدخل على الجوهر، بالمعنى الذي تكون فيه علاقاتها به كعلاقـة الفعل «بالقوة». وكثيرا ما أسيء فهم المذهب التـوماوي في الجوهر، ولهذا فإنـه من الضروري أن نلاحظ أن هـذا المذهب لا يتصور الجوهـر على هيئة الموضـوع الجامد الذي يـدخل عليه التغير، وإنما هو يتصوره على هيئة الموجود الـذي هو وجود بذاته، أي وجـود بالمعنى الكامل للكلمة، وليست الأعراض أمامـه سوى تحديدات تدخل عليه، ووجودها ليس إلا وجودا في داخل وجود اخر (وليس بذاته).

وتستند النظـرية التـوماويـة في التغير هي الأخرى إلى مذهـب القوة والفعل. إن التغير هو عبـور من حـالة الإمكان إلى حـالة الفعـل، وهو من هـذه الوجهـة وجود ناقـص، حقيقة منقـوصة. وبالتـالي، فإن كل تغير يفترض جـوهرا يتغير، أي كـائنا بالمعنى الكامل. ويظهر تعبير برجسون: إن في التغير أكثر مما في الوجود، يبدو، على هذا الضوء، تعبيرا مقلوبا. ولكن علينا أن نميز، من التغير بالمعنى المشار إليه، علينا أن نميز الفاعليـة، التي هي النتيجة الميتافيزيقيـة لوجود الموجود على حـالة الفعلية: كلما زادت درجة الوجود زادت معها درجة الفـاعلية. وهكذا، فإن الإله، وهو كمال الوجود، هو أيضا كمال الفاعلية.

وهناك نظريـة أخرى ترتبط أيضا بمذهـب القـوة والفعل، وإن كنا لن نشير إليها إلا بإيجاز، ألا وهي نظرية العلل الأربع. هذه العوامل الأربعة هي: المادة (ما يتألف

منه شيء ما أو يصير إليـه)، الصورة (تحديد المادة)، العلة الفاعلة، والغـاية. تؤلف هذه العلل الأربع تـرتيبا تصاعـديا فيما بينهـا، حيث تبدو الغايـة هي العلة الأعلى. ذلك أن كل علة فـاعلة تفعل، واعية أم غير واعية، من أجل غـاية، بينما الصورة لا تدخل على المادة إلا بفعل العلة الفاعلة.

ثالثا: فلسفة الطبيعة

إن الموجود الخاضع للتغير مرتب رأسيا بحسب درجة حالة الفعلية التي يحوزها، أي بحسب درجة كمال الوجود فيه. في هذا الميدان، فإن المذهب التوماوي الأساسي هو مـذهب الصورة والمادة. إن كل مـوجود مـادي يتكون من «مـادة» ومن «صورة» تحدد تلك المادة. وعـلاقة المادة بـالصورة كعلاقـة «القوة» بـالفعل. إذا حللنـا أحد الموجـودات من هذه الـزاويـة، فإننا نجـد في النهايـة، وبعـد تجريده ذهنيـا من كل صـورة، نجد «مـادة أولى» هي عنصر ذلك الموجـود، والتي تتمنع على أي تحديـد، وتقبع، من حيث كونها إمكانية خالصـة، في أقصى الحدود الملامسة للاوجود. هذه «المادة الأولى» هي مبدأ التعدد والقابلية للانقسـام في الأشياء المادية. أما وحدة هذه الأشياء الماديـة فتأتيها من الصـورة وحدهـا، وهي التي تُعَد أيضـا مبدأ الفـاعلية في الموجود الكائن. إن الصـورة هي التي تقود الكائن، وتكوّن مع المادة فيـه وحدة هي ألصق مايكون بين أي عنصرين مختلفين في الطبيعة.

أدنى الصور هي صـورة الأجسام الجامدة، فالنـاقص في هذه الحالة هو الـوحدة العضويـة والفاعليـة الذاتية، فـالجسم الجامد هو أكثـر الموجودات سلبيـة، وهو لا يستطيع أن يدخل في نشـاط ما إلا عن طريق موجـود آخر. ثم تظهر وحدة وفـاعلية من درجة أكبر في ظاهرة الحياة، فالكائنـات الحية تمتاز دائما بفاعليتها الذاتية الموجهة بازاء غاية، وإن كان هـذا التوجه غالبا مايكون غير شعوري. ويـرى التوماويون أنه من غير الممكن أن نفسر الحيـاة على نحو ميكـانيكي صرف، ولكننا لا نحتـاج، من جانب آخـر، إلى القول بوجـود جوهرين مختلفين في النبـات والحيوان، جوهـر مادي وجوهر حيـوي. ذلك أن المبدأ الحيوي إنما هو بالأحرى صـورة الكائن الحي، أي أنه مضمون أعلى، وهـو الذي يحدد الموجود الحي في كلـه. وتظهر في الحيـوانات، على

الأخص، درجة أعلى، فالحيوانات ليست فاعلة وحسب، وإنما تتجه فعاليتها صوب غاية تعرفها. إن استقلالها الذاتي، ومن هنا نشاطها الخاص بها، يصير لهذا السبب أكبر وأكبر، وهو مايفسر حيازتها لدرجة أعلى من كمال الوجود. أما عند الإنسان أخيرا، الذي يقف عاليا فوق مرتبة الصور النباتية والحيوانية، فإن النفس العاقلة تظهر، وهي تحوز كمالات سائر الصور الدنيا في إطار صورة فريدة روحية أعلى. إن الإنسان لا يعرف غايات فاعليته وحسب، بل إنه أيضا قادر على وضع تلك الغايات بارادته. فهو، إذن، الحائز على أعلى كمال للوجود يكون ممكنا على الأرض.

رابعا: العقل

العقل هو أعلى درجة من درجات الوجود. وهو يتميز بأنه لا مادي، وهذه اللامادية مظهرها عدم قابليته للانقسام، وعلى الأخص استقلاله الذاتي. وهو غير مربوط إلى نظام المكان والزمان، وهو قادر على معرفة الماهيات العقلية غير المادية، عبورا بمعرفة الظواهر المادية، وعلى إرادة الغايات التي تتعدى الماديات.

والمعرفة إما حدسية، وهي تأخذ اسم «القوة العاقلة»، وإما استدلالية، وهي التي تأخذ اسم «العقل» والإرادة استجابة وتفاعل، مثل سائر الاستجابات والتفاعلات المعروفة، ولكنها تنتمي إلى النظام العقلي. وكما أن القوة العاقلة يمكن أن تعرف الماهيات غير المادية، فإن الإرادة تستطيع أن تريدها.

وحيث إن الإرادة، بسبب لا ماديتها، منفتحة على اللانهائي، فإن أي موضوع محدود نهائي لا يستطيع أن يحددها، بل الإرادة حرة بازاء الموضوعات المحدودة النهائية. إن أي خير محدد لا يستطيع أن يحدد الإرادة ويوجهها. لهذا، فإنها حرة، ليس فقط بمعنى أنها تلقائية الحركة، بل وكذلك لأنها قادرة على الفعل أو اللا فعل بعد تحقق كافة الشروط اللازمة للسلوك.

ولكن العقل في الإنسان مرتبط أوثق ارتباط بالتكوين العضوي النفسي في كله: إن النفس العاملة إنما هي «الصورة» الواحدة للموجود الإنساني. إن الإنسان بتركيبة جسمه، وبوظائفه العضوية، يلتقي مع الحيوان، ومن هنا فإن ماهيته حاوية

للوظائف النباتية والفيزيقية والكيميائية. في الإنسان، يعتمد العقل اعتمادا ظاهرا على الكيان العضوي الذي للإنسان، وهو مايظهر من واقعة أن إتلافا هينا للمراكز العصبية يمكن أن يؤدي إلى إلحاق الشلل به.

هذه النتيجة لها أكثر من مظهر. في ميدان المعرفة، تقدم الحواس والمخيلة الموضوعات التي ستعمل عليها المعرفة العقلية. في ميدان الإرادة، تضغط الإندفاعات الانفعالية على الإرادة ضغطا شديدا. ومن المهم أن نلاحظ، فيما يخص ميدان المعرفة، أن هذه التبعية المشار إليها ليست ذاتية، بل هي تبعية موضوعية. ومثال ذلك، أن اضطراب المراكز العصبية يؤثر مباشرة (ذاتيا) على المخيلة، ويجعل قيامها بنشاطها غير ممكن، وفي هذه الحالة، ونظرا لغياب الموضوعات التي لا تقدمها المخيلة إلى العقل، فإن العقل لا يستطيع أن يعمل. وفي المقابل، فإنه ليس هناك من تبعية ذاتية للعقل بإزاء الجسم. نعم، إن النفس هي صورة الجسم، ولكن النفس العاقلة ترتفع فوق مستوى المادة. إن النفس خالدة، لأنها ليست بذات أجزاء، نظرا لكونها غير مادية، فلا يمكن أن تفنى بالتفكك أمام الموت.

خامسا: المعرفة

لا تشكل نظرية المعرفة، عند معظم المفكرين التوماويين، موضوعا لمبحث مخصوص، وإنما هي مجرد جزء من الميتافيزيقيا، كما هو الحال عند الكساندر الإنجليزي وهارتمان الإلماني. وهي لا يمكن أن تكون أساسا لفلسفة الوجود، بل، بالعكس، هي التي تتأسس على أساس من نظرية الوجود: ذلك أن المعرفة هي أن يصبح المرء الآخر من حيث هو آخر(٦٦٤) وقد يبدو هذا الوضع، لأول وهلة، غريبا، ولكنه يتضح حين ننتبه إلى الطبيعة العقلية للنفس: فالنفس ليست مادية، وبالتالي فهي غير محدودة، وهي قادرة على أن تصبح، «قصدا»، شيئا آخر غيرها، بدون التوقف عن أن تستمر هي هي إن هذا هو مايحدث فعلا في المعرفة الحسية،

(٦٦٤) الإدراك تمثل، وحين تدرك شيئا ما، شخصا أو مكانا أو فكرة، فكأنك تمتلأ به أو بها، وتصير هذا الشخص أو ذلك المكان أو تلك الفكرة، على مستوى مضمون التعقل، على نحو ما.

بقدر مايحتوي هذا النوع من المعرفة على قدر معين من اللامادية(٦٦٥). ولكن هناك فرقا جوهريا مابين المعرفة الحسية وتلك العقلية: فالأولى لا تدرك غير المادي المتعين، الحسي العرضي، ولا تستطيع على الإطلاق أن تعرف الوجود من حيث هو وجود، ولا أي مضمون عقلي كان. أما الثامية، وعلى الضد، فإن محورها هو الوجود، وهي تدرك الكلي والعام مباشرة وبذاتها والكلي والعام هو وحده ممكن المعرفة على التمام.

ولكن لا ينبغي، مع ذلك، استنتاج أن العالم يحتوي على «كليات» من حيث هي كليات. إن الموجود هو الموجود الفردي المتعين. ولكن كل موجود كائن له ماهية عقلية (اللا موجود هو وحده اللامعقول، وكل موجود هو موضوع ممكن للعقل). هذه الماهية توجد وجودا متعينا في الواقع، ولكن العقل هو الذي يرفعها إلى مقام الكلية والعمومية، وذلك بوسيلة التجربة. فهو يجردها أولا من ظروف التواجد المفرد، ثم يقارنها مع الموجودات المفردة الأخرى، ويصل إلى إكسابها طابع الكلية. بعبارة أخرى: إن المضمون العقلي موجود بالفعل في الأشياء، بينما الكلية ذاتها إنتاج من العقل، هي وجود عقلي ذهني يتأسس على ماهو قائم في الواقع. إن التجريد ينطلق من النسخ الحسية التي تقدمها المخيلة إلى العقل، من رسوم يقوم بصنعها التخيل.

ولا توجد معرفة «قبلية» بالمعنى المعروف عند كانت. فما أن تكون التصورات، حتى يصبح ممكنا، وبدون العودة إلى المعرفة الحسية، تكوين قوانين كلية بوسيلة تحليل التصورات. ثم نصل بوسيلة هذه القوانين، وبالتحليل الذي يقوم به الفكر، إلى قوانين جديدة، ليمكن أن تصبح إثراء وإضافة حقيقيين إلى المعرفة، كما هو ظاهر في ميدان المعرفة الرياضية. ذلك أن الفكر يسمح لنا بأن نستدر من المفترضات شيئا كان قائما فيها، ولكنه كان قائما فيها على هيئة الإمكان، «بالقوة».

إن نظرية المعرفة التوماوية، كما نرى، نظرية واقعية، بالمعنى الدقيق للكلمة

---

(٦٦٥) حين تدرك الباب، فإن خشبه لا يدخل إلى العينين، وإنما صورته وحسب.

فـالذات عنـدهـا لا تنتج الموضـوع، بل تنتج وحسب رسمـه العقلي، وهو مـايسمى بالنوع» . أن المعرفة لا تعني صنع الشيء المعروف(٦٦٦) ، بل إدراكه في ذاته وحسب .

كذلك ، فإن التـوماوية مـذهب «عقلي» . فالقوة العـاقلة وحدهـا هي القادرة ، بمعونة العقل ، على إيصالنـا إلى معرفة الواقع معرفة حقيقية . هـذه المعرفة لا يمكننا الحصول عليها «قبليا» ، بدون الخبرة الحسية ، إنما هي تكتسب بطرق مناهج العقل . إن هذا لا يتعـارض مع التجربـة ومع الحياة ، لأن المعـرفة العقليـة هي الصورة الأعلى للتجربة ، وهي اكتمال الحياة ، حياة العقل .

سادسا : الإله

إن الفكر لمضطـر إلى التسليم بوجود الإله . فحيث أن الـلامعقول مستحيل (لأن الموجود والحقيقي مفهومان متبادلان : Ens et verum convertuntur) ، فلا يمكن الأخذ بـوجود الموجـودات التجريبية المعـروفة بـدون الاعتراف في نفس الوقت بـوجود خـالق لها . ذلك أن الماهيـة ، في كل موجـود تجريبي ، مختلفـة اختـلافا حقيقيـا عن الوجود ، وليس من الممكن العثور على سبب كاف لتفسير إتحادهما معا ، اللهم إلا إذا صعدنا إلى موجـود يكون وجوده هو هو عين ماهيته . ولا يـوجد لهذا الموجود أي حد يرد على ماهيته ، التي ينبغي إذن أن تكون لا نهائية ، و«فعلا» متحققا خالصا ، كامل الوجـود ، ومن ثم فإنه ينبغي أيضا أن يكـون كامل الخير ، كامل الجمال ، وكـاملا من جهة سائر القيم .

ومع ذلك ، فإنه لا يمكن لنـا أن نتصور الإله على هيئة الموجـود المخلوق المتنامي حتى بلـوغ مستوى اللانهائيـة . إنما هو مـوجود بـالمعنى «التماثلي» ، ومن ثم فـوجوده مختلف عن وجـود المخلوقـات . ويبدو على هـذا الضـوء تهافت النظريـات القائلـة بوحـدة الوجـود والالوهية ، والتي تنطلق من افتراض أنـه من غير الممكن أن نقبل في نفس الـوقت إلها لا نهائيـا والعـالم معا . وتضـاف ، ضـد نظـريـات وحدة الـوجـود والإلوهية ، حجة أخرى ، هي أن الإلـه ، وهو الكامل في وجوده ، لابد أن يتصف بما

(٦٦٦) كما هو الحال في مذهب كانت .

نسميه العقل، وبالإرادة، والمحبة والمعرفة، وأنه ينبغي بالتالي أن يكون شخصا، وإن كان شخصا بالمعنى «التماثلي» هنا أيضاً (٦٦٧).

ويوصِّف الفلاسفة التوماويون العلاقة بين الإله والعالم على الوجه التالي:

أولا: وفيما يخص الماهية، فإن كل ماهية محددة نهائية تكون على هيئة المشاركة (participatio) في ماهية الإله، الذي ينبغي أن نتصوره على هيئة النموذج والمنبع اللانهائيان لكل الماهيات. فمحل عالم المثل الأفلاطونية (وهو محال في نظر العقل Absurde عند التوماويين) نجد أمامنا الإله صاحب الوجود الحقيقي.

ثانيا: إن وجود سائر الأشياء هو، أيضا، مشاركة في وجود الإله. فالموجود الكائن المخلوق، من حيث هو مكون من حالة الفعلية وحالة «القوة»، هو، من هذا الجانب المزدوج، مشاركة في حالة الفعلية الخالصة اللانهائية التي هي للإله (Actus Purus). ولكن على حين أن وجود الإله يحدد بالضرورة كل ماهية، وعلى نحو لا يكون في مقدور الإله ذاته تعديلها، فإن وجود كل شيء يعتمد على إرادة الإله الحرة. من هذا المنظور، يبدو تاريخ العالم كله على هيئة تحقق لخطة إلهية أبدية، أنشأها الإله حرا بإرادته. ويصبح من الواضح، من ثم، أن للعالم غاية، وهذه الغاية لا يمكن إلا أن تكون ذات الغاية التي هي للإله، وبالضرورة كذلك، ألا وهي الإله ذاته (٦٦٨) ومن جهة أخرى، فإنه يصبح واضحاً الآن أن الحقيقة، بالمعنى المنطقي وبالمعنى الانساني، إنما هي حقيقة مشتقة وليست أصلية، لأن أساسها هو الحقيقة الأنطولوجية الوجودية، المتمثلة في توافق الموجود المخلوق مع فكر الإله.

إن الفلسفة لا تعرف الإله إلا من حيث هو مبدأ للعالم، وليس في مقدورها أن توضح أي إيضاح طبيعة حياته الباطنة. وإذا كانت هذه المعرفة الأخيرة ممكنة، فإنها لن تكون ميسرة إلا بفضل الوحي والإيمان. ومن المؤكد أنه ليس ممكنا إدخال عنصر الوحي في إطار النظام الفلسفي على هيئة عنصر مكوِّن إيجابي في هذا النظام، لأن

---

(٦٦٧) أي أنه شخص، ولكن ليس على نموذج الشخص الإنساني.
(٦٦٨) الإله غاية ذاته.

الفلسفة تشق طريقها لا بشيء إلا بالمنهج العقلي، وابتداء من منطلق التجربة الطبيعية. على الجانب الآخر، فإن الفلسفة لا تحوز أي أساس تعتمد عليه في إنكار إمكانية الوحي. كذلك، فإن مضمون الوحي لا يمكن أن يكون متناقضا مع المذاهب الفلسفية والعلمية، لأن العالم والوحي يأتيان كلاهما من نفس الإله الحق شامل العلم. إلا أن الفلسفة، وبصرف النظر عن أي وحي إلهي بعينه، تستطيع أن تقدم نظرية في الدين الطبيعي، وهو ماقامت به الفلسفة التوماوية في شتى عصورها، ولكن في هذا العصر الأخير بخاصة.

سابعا: الأخلاق

العقل الإنساني له علاقتان مع الوجود القائم: ذلك أن الوجود، من حيث هو موضوع للمعرفة، يكّون أساس المعرفة، ومن حيث هو الإرادة فإنه أساس الخير. ويميز التوماويين بين الخير المطلق، والخير الممتع، والخير النافع. ولكن هذا الخير النافع ليس إلا تابعا للأول.

إن نظرية القيم التوماوية هي نظرية في الخير، وهي تشابه كثيرا نظريتها في الكليات. ذلك أن القيم، هي الأخرى، لها أساسها القائم في الوجود، ولكنها لا توجد، من حيث هي قيم، إلا عند الذات المقومة.

ويميز المفكرون التوماويون بين عالمين كبيرين من القيم: فهناك عالم القيم الجمالية، حيث موقف الذات بإزاء الخير هو موقف التأمل، وهناك كذلك عالم القيم العملية، وفيها يكون الموقف موقف فعل ونشاط. وهم يميزون، من جديد، في عالم القيم العملية، مابين عالمين: عالم التكنولوجيا، حيث يتكون موضوع النشاط خارجيا، وعالم الأخلاق، حيث يكون الموضوع هو نفسه فاعل قائم بالعمل. ويرى التوماويون أنه لا توجد قيم دينية لا تكون في نفس الوقت، من حيث هي كذلك، قيما أخلاقية.

إن الأخلاق التوماوية أخلاق غائية، ولا يمل التوماويون من تكرار التأكيد على أن الأخلاق هي في جوهرها نظرية السلوك الإنساني، وأنها، بالتالي ينبغي أن تستقيم

على أساس من مذهب في الغاية، وهم يفعلون ذلك في وجه المذهب الكانتي، الذي يقيم الأخلاق على الواجب، من جهة، ووجهة النظر الفينومينولوجية، التي ترى أن مفهوم القيمة هو مركز الأخلاق، من جهة أخرى. هذه الغاية التي يهتم بها الفلاسفة التوماويون هي الغبطة (Beatitude) للإنسان، مفهومة على أنها نشاط دائم وكامل لموجود كامل.

وهكذا يظهر الطابع الديناميكي للفلسفة التوماوية في مجال الاخلاق أيضا. وحيث أن النشاط الدائم ليس ممكنا إلا حينما يكون الذات الفاعلة قد انضبطت، من حيث سائر ملكاتها، بوسيلة الاتجاهات المستقرة (Habitus)، فإن الفضائل تصبح ذات أهمية عظيمة في النظام الأخلاقي التوماوي. وعلى هذا، فإن الاخلاق التوماوية هي، جوهريا، أخلاق في تكوين الخلق وأخلاق تربوية. وهي ترى أن الإنسان يحوز توجيهات غريزية، ولكن عليه أن يصل بها إلى حد الكمال عن طريق جهد التربية الذاتية، والفضيلة التي يحصلها لقاء هذا الجهد تصِّيره حراء بالمعنى الكامل للكلمة. إن الأمر ليس أمر الإخضاع العنيف للعواطف تحت قيادة القوانين الأخلاقية، بوسيلة قوة الإرادة. إنما المثل الأعلى هو بالأحرى تنظيم الجهاز النفسي للإنسان وتهذيبه، بحيث يمكن للإنسان ليس فقط أن يفعل ويسلك على نحوٍ خيِّر، بل وكذلك أن يسلك سلوكا طيبا على نحو ميسر منطلق.

الفضيلة الكبرى هي فضيلة الحكمة العملية (Prudence)، وهي تقوم في توجه الذكاء نحو تكوين حكم عملي صحيح بشأن مسألة متعينة من مسائل السلوك، . وهنا نجد أنفسنا أمام وجه مميز للنزعة العقلية التوماوية. إلا أن الحكمة العملية لا يمكن أن تعمل على وجه صحيح إلا مع تهذيب الإرادة وتنظيمها، تحت توجيه العدل بمعناه الأوسع والأعم، ومع تهذيب الانفعالات وتنظيمها هي الأخرى، تحت قيادة القوة والاعتدال.

يقوم مذهب القانون الاخلاقي، هو الآخر، بدور هام في النظام الأخلاقي التوماوي. إن الوعي هو الذي يحدد على وجه مباشر السلوك الإنساني. ولكن هذا الوعي ماهو إلا تعبير عن القانون الطبيعي، أي عن قوانين أخلاقية مباطنة للطبيعة

البشرية ذاتها. مثال ذلك، فإن القانون الإخلاقي يـدين الزنا، لأن الطبيعة الإنسانية (نفسيا وفيزيولـوجيا) تتطلب من الإنسان واحدية الزواج. هـذا القانون الطبيعي يجد في القـانون الـوضعي تـوضيحا لـه وتطبيقا في نفس الـوقت، بينما هـو، أي القانـون الطبيعي نفســه، تعبير عن القانـون الأبدي، أي عن الخطـة الإلهية التي هي أسـاس تكـوين العـالم. ولكن لا ينبغي فهم المذهب التـومـاوي على أنـه يعني أن الأسـاس الأخير للنظام الأخلاقي يعتمد على الإرادة الإلهية، لأن الإله ذاته غير قادر على تغيير القوانين الأخلاقية، لأنها لا تتأسس على إرادته، بل على وجوده.

ويقـوم المذهب الاجتماعي، كـذلك، بـدور هـام في الأخلاق التـومـاويـة. إن الإنسان الفرد هو أعلى مراتب الوجـود في العالم، ولذلك ينبغي على سائر الموجودات الأخرى أن تكون في خدمته. ولكن المجتمع ليس أمرا مصطنعا، وهو أكثر من مجموع البشر فيه، لأنه يحتوي، من بعد البشر، على عـلاقات واقعية حقيقية. كذلك، فإن الإنسان، بطبيعتـه، كائن اجتماعي، ويقوم الخير المشترك بدور حـاسم في السلوك، وذلك في إطار نظام الفضائل. وهكذا، فإنه العدل الاجتماعي، في نهاية الأمر، الذي يقتضي إنماء الفضـائل «الشخصيـة» الخالصة، ومنهـا الاعتـدال على سبيل المثـال، وذلك لأن قيمة الإنسان تمثل قيمةً بالنسبة للمجتمع.



ملاحظات ختامية انتقادية حول فلسفات الوجود

في الاتجاهات الفلسفية الأخرى في الفكر الأوربي في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، يمكن أن نضع أيدينا، في كل حالة، على فكرة جوهرية محددة، هي التي تبدو موحية بأفكار الفيلسوف المعين الأخرى. مثل هذه الفكرة الجوهرية لا وجود لها عند الفلاسفة الميتافيزيقيين. العلة في هذا أنهم فلاسفة الوجود، ويميزهم أنه يتعدون سائر وجهات النظر المخصوصة، وأنهم يقبلون في نظمهم الفلسفية كل الأفكار الجزئية التي تقدمها المدارس الأخرى. ينتج عن هذا أنه لا يمكن للمؤرخ أن يعارض تيار الميتافيزيقا المعاصر بالحركات الفلسفية الأخرى، ولا أن يقارنه معها. فهذا التيار يقف في موقع أعلى منهم، كشأن الفلسفة من حيث هي فلسفة، حين تشرف من علو على العلوم المخصوصة.

وهكذا استطاع الميتافيزيقيون أن يشبعوا حاجات إنسانية خالدة، وهي تبدو حاجات ملحة في هذا العصر على الخصوص. إن فلسفتهم هي فلسفة الوجود المتعين، وهي على الخصوص فلسفة عن الشخص الإنساني. انهم لا يرفضون أي مشاركة إيجابية قدمها ممثلو المدارس الأخرى. فهم يعترفون بنتائج العلوم باعتبارها جزءا حقيقيا من المعرفة الإنسانية، وليس هذا إلا مثالا واحدا على توجههم ذاته، ولكنهم ينتظمون هذه النتائج، مثلها مثل غيرها، في إطار كلٍ شامل عضوي فيه يحتل الإنسان، الذي يفهمونه هكذا أفضل من فهم المدارس الأخرى له، المكان الجدير به، محتفظا بكل ثراء وجوده وبالامتداد الواسع لمشكلاته. ولكن هذه النزعة الشخصانية لا تقف دون الاهتمام بميادين الواقع الأخرى وإيفائها حقها. إن أي نظام فلسفي آخر لا يمكن أن يتصف بمثل هذا التوازن وبمثل هذا الاعتدال وبمثل هذه

العقلانيـة، قدر مايتصف بـذلك كله تيار الميتافيـزيقا والنظم الفلسفية التي قـدمها الميتافيزيقيون.

إن الفـلاسفة الميتـافيـزيقيين يناقشـون أكثر المشكـلات تنـوعا منـاقشـة شاملـة متعمقة. ولن نـدخل في هذا الصدد إلى التفاصيل، ولكنـا نشير على سبيل المثال إلى تحليل المعرفة عند وايتهد، واستكشاف مشكلة الترابط بين النفسي والفزيولوجي عند التوماويين، وما قدمه هارتمان من أفكار جديدة، بشأن الحرية. ويكفي وحسب أن مجرد عرض المشكـلات يحتل عند هـؤلاء الميتافيـزيقيين مكانـا أرحب مما يحتلـه عرض حلول فلاسفة التيارات الأخرى.

ومن الطبيعي أن يكـون لكل نظـام فلسفي، ممـا درسنا، نقـاط ضعفـه. ولكن ينبغي، قبل كل شيء، من أجل تقـدير هـذه النظم الميتافيـزيقية تقـديرا عـادلا، أن ننتبه إلى ضخامة المشـاركة الإيجابية للميتافيزيقيين، وهي مشاركـة ظهر عجز فلسفة القرن التاسع عشر الميـلادي، وهو بسبيل الانتهاء، عن الإتيان بمثلها عجـزا تاما: أي تقديمهم لنظرية أنطولوجية وتصور عضوي عن الواقع كله.

فإذا فحصنا الميتـافيزيقا الأوربية في النصف الأول من القـرن العشرين الميلادي، ابتداء من هـذه الوجهة المزدوجـة، وجدنا في هـارتمان فيلسوفـا أنطولوجيـا من درجة عليا، ولكنه يرفض، من حيث المبدأ، أن يتقدم بتفسير ميتافيزيقي (وإن لم يبق دوما محافظا على هذا المبـدأ). في الناحية الأخرى المقـابلة، نجد صامـول الكساندر، من غير شك، ونرى جهده، المثمـر غالبا، في الوصول إلى تركيب عـام، ولكن تصاحبه مشاركة ضعيفـة في النظرية الأنطولوجية. وتقف في الـوسط بين هذين التطرفين نظم كل من وايتهد والتوماويين، الـذي يقدمون نظرية انطولوجية ومـذهبا ميتافيزيقيا في نفس الوقت. ولكن أنطـولوجيا التـوماويين لا تقل بحـال في أهميتها عن أنطولـوجيا هارتمان، كما أنها من جانب آخر تتأسس على تصور للواقع والحقيقة الشاملة، يتمتع بإتساق وتماسك وبامتداد هو أوسع مما لدى هارتمان.

ولكن الظاهـر للعيان، وأكثر من جـوانب الاختلافات بين التيارات المتنـوعة في

داخل فلسفة الوجـود، إنما هو جوانب الاتفاق فيما بينها، والتي تطبع بطـابعها هذه الفلسفة. إن هذا التوافق لجدير بالانتباه بقدر تنوع منابع هذه التيارات تنوعا شديدا: فهناك فيزياء آينشتين، ومـدرسة ماريورج، والفلسفة المدرسية. إن فـلاسفة الوجود هؤلاء يتفقون تمامـا، على اختلافهم، بشأن تصوراتهم الأساسيـة المؤثرة عن الطبيعة، وعن المعـرفـة، وعن التكـوين المتـدرج للعـالم، وعن العقل وعن الحريـة. إن هـذه التصـورات، نتيجة البحث الفلسفي، ربما تمثل أفضل مـا أتى به الفكـر الأوربي في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي.

ولكن هذا العصر يزل يتحمل خسارة فادحة من جراء النتائج المشئومة التي حملها فكـر معادٍ للميتـافيزيقـا. ولكن واقعـة أن أوربا تملك في هـذا العصر مجموعـة من الميتافيزيقيين البـارزين والمؤثرين يسمح لكاتب هذه الصفحـات بالأمل في مستقبل أفضل لأجيال قادمة، مستقبل يكون فيه الإنسان، وحاجاته، ومتطلباته الجوهرية، قد وجد فلسفة عقليـة تفهمه فهما أفضل، وتقدره تقديرا أعلى ممـا قدر عليه في هذه الفترة.



ثبت أسماء الأعلام (١)

أدلر	Adler, Mortimer,
آدمن (١٨٥٢ ـ ١٩٠٢م)	Adamson, Robert,
إدنجتون (١٨٨٢ ـ ١٩٤٤م)	Eddington, Sir Arthur Stanley,
أرديجو (١٨٢٨ ـ ١٩٢٠م)	Ardigo, Roberto,
إرنفلز (١٨٥٠ ـ ١٩٣٢م)	Ehrenfels, Christian,
إسبافنتا (١٨١٧ ـ ١٨٨٣م)	Spaventa, Bertrando,
إسبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣م)	Spencer, Herbert,
إسبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧م)	Spinoza, B.,
إستيوارت (١٨٦٣ ـ ١٩٤٦م)	Stewart
إستبنج (١٨٨٥ ـ ١٩٤٣م)	Stebbing, L. Susan,
أستفالد (١٨٥٢ ـ ١٩٣٢م)	Ostwald, Wilhelm,
أسموس	Asmus, W. F.,
اشبرانجر (١٨٨٢ ـ ١٩٦٣م)	Spranger, Eduard,
اشتاملر (١٨٥٦ ـ ١٩٣٨م)	Stammler, Rudolf,
اشبنجلر (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦م)	Spengler, Oswald,
أفيناريوس (١٨٤٣ ـ ١٨٩٦م)	Avenarius, Richard,
الأكويني (القديس توماالأكويني (١٢٢٤ / ٥ ـ ١٢٧٤م)	Aquinas, Thomas Aquinas
ألان ١٨٦٨ ـ ١٩٥١م)	"Alain". See Émile Chartier
ألكساندر (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨م)	Alexander, Samuel,
ألكساندرف	Alexandrov, G. F.,
إنجاردن (١٨٩٣ ـ)	Ingarden, R.,
إنجلز (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥م)	Engels, Friedrich,
إنجه (١٨٦١)	Inge, William Ralph
أوليانوف (انظر لينين)	Ulyanov, Vladimir Ilich. See Lenin
أوليه ـ لابرون (١٨٣٩ ـ ١٨٩٩م)	Ollé-Laprune, Léon,
أونامونو (١٨٦١ ـ ١٩٣٧م)	Unamuno, Miguel de,

(١) أثبت المؤلف بعض الأسماء دون ذكر تواريخ حياتها، وتابعناه في ذلك (المترجم)

آير (١٩١٠ ـ ١٩٨٩م)	Ayer, Alfred J.,
أيكن (١٨٤٦ ـ ١٩٢٦م)	Eucken, Rudolf,
آينشتين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥م)	Einstein Albert,
بارت (١٨٨٦ ـ ١٩٦٩م)	Barth, Karl,
باركلي (١٦٨٥ ـ ١٧٥٣م)	Berkeley, George,
باوخ (١٨٧٧ ـ ١٩٤٢م)	Bauch, Bruno,
بارودي (١٨٧٠ ـ)	Parodi, Dominique,
باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢م)	Pascal, Blaise,
باشلار (١٨٨٤ ـ ١٩٦٢م)	Bachelard, Gaston,
باير (١٨٦٢ ـ ١٩٢٩م)	Bayer, Raymond,
بتزولت	Petzoldt, Joseph,
برادلي (١٨٤٦ ـ ١٩٢٤م)	Bradley, Francis, Herbert,
برادينس	Pradines, Maurice,
برايس (١٨٩٩ ـ)	Price, H.H.,
برديائيف (١٨٧٤ ـ ١٩٤٨م)	Berdyaev, Nikolai,
برجسون (١٨٥٩ ـ ١٩٤١م)	Bergson, Henri,
برنتانو (١٨٣٨ ـ ١٩١٧م)	Brentano, Franz,
برنشفيك (١٨٦٩ ـ ١٩٤٤م)	Brunschvicg, Léon,
برود (١٨٨٧ ـ ١٩٧١م)	Broad, C. D.,
بفاندر (١٨٧٠ ـ ١٩٤١م)	Pfander, Alexander,
بكر (١٨٩٣ ـ)	Becker, Oskar,
بل	Boll, Maurice,
بلانك (١٨٥٨ ـ ١٩٤٧م)	Planck, Max,
بلندل (١٨٦١ ـ ١٩٤٩م)	Blondel, Maurice,
بوانكاريه (١٨٥٣ ـ ١٩١٢م)	Poincaré, Henri,
بوبر ، كارل (١٩٠٢)	Popper, Karl,
بوبر (١٨٧٨ ـ)	Buber, Martin,
بوترو (١٨٤٥ ـ ١٩٢١م)	Boutroux, Émile,
برايس (١٨٩٩ ـ ١٩٨٤م)	Price, H.H.,
بافلوف (١٨٤٩ ـ ١٩٣٩م)	Pavlov, Ivan,
باولسن (١٨٤٦ ـ ١٩٠٨م)	
بوزانكت (١٨٤٨ ـ ١٩٢٣م)	Bosanquet, Bertrand,

بوشنر (١٨٢٤ ـ ١٨٩٩م)	Buchner, Ludwig,
بوشنسكي (١٩٠٢ ـ)	Bochenski, I.M.,
بوفوار (سيمون دي بوفوار)	Beauvoir, Simone de,
بول (١٨١٥ ـ ١٨٦٤م)	Boole, George,
بونيه (١٧٢٠ ـ ١٧٩٣م)	Bonnet, Étienne,
بيانو	Peano, Guiseppe,
بيرس (١٨٣٩ ـ ١٩١٤م)	Peirce, Charles Sanders,
بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦م)	Bacon, Franciss,
تارسكي (١٩٠٢)	Tarski Alfred,
تايلور (١٨٦٩ ـ ١٩٤٥م)	Taylor, Alfred Edward,
ترلتش (١٨٦٥ ـ ١٩٢٣م)	Troeltsch, Ernst,
تستا	Testa, Alfonso,
تفاردفسكي (١٨٦٦ ـ ١٩٣٨م)	Twardowski, Kazimierz,
تومسون (١٨٦١ ـ ١٩٣٣م)	Thomson, Sir Arthur,
توينبي (١٨٩٩ ـ ١٩٧٥م)	Toynbee, Arnold J.,
جاردي (١٨٥٩ ـ ١٩٣١م)	Gardeil, Mercier Ambroise,
جاريجور لاجرانج (١٨٧٧)	Garrigou-Lagrange, Reginald,
جانيه (١٨٢٣ ـ ١٨٩٩م)	Janet, Paul,
جايجر (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧م)	Geiger, Moritz,
جايزر	Geyser, J.,
جرابمان (١٨٧٥ ـ ١٩٤٩م)	Grabmann, Martin,
جرت (١٨٦٣ ـ ١٩٤٠م)	Gredt, Joseph,
جرين (١٨٣٦ ـ ١٨٨٢م)	Green, Thomas Hill,
جنتيلي (١٨٧٥ ـ ١٩٤٤م)	Gentile, Giovanni,
جود (١٨٩١)	Joad, C.E.M.,
جوليتيه (١٨٥٨ ـ ١٩٤٢م)	Gaultier, Jules de,
جونست (١٨٩٠ ـ)	Gonseth, Ferdinand,
جلسن (١٨٨٤ ـ)	Gilson, Étienne,
جيمس (١٨٤٢ ـ ١٩١٠م)	James, William,
جينز (١٨٧٧ ـ ١٩٤٦م)	Jeans, Sir James Hopwood,
دارون (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م)	Darwin, Charles,
دانتك (١٨٦٩ ـ ١٩١٧م)	Dantec, Felix Le,

Dante	دانتي (١٢٦٥ ـ ١٣٢١م)
Deborin, G.A.,	دبورين
Driesch, Hans,	دريش (١٨٦٧ ـ ١٩٤١م)
Dostoievsky, Feodor M.,	دستويفسكي (١٨٢١ ـ ١٨٨١م)
Dilthey, Wilhelm,	دلتاي (١٨٣٣ ـ ١٩١١م)
Duns-Scott	دنز ـ اسكوت (١٢٦٦ ـ ١٣٠٨م)
Duncan-Jones, A.E.,	دنكان ـ جونز
Durkheim, Emil,	دوركايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧م)
Duhem, Pierre,	دوهم (١٨٦١ ـ ١٩١٦م)
Diderot, D.,	ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤م)
Descartes, René	ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م)
Descors, P.,	ديكور
Dewey, John,	ديوي (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢م)
Rashdall, Hastings,	راشدال (١٨٥٨ ـ ١٩٢٤م)
Ravaisson-Moliet, Felix,	رافيسون (١٨١٣ ـ ١٩٠٠م)
Ryle, Gilbert,	رايل (١٩٠٠ ـ ١٩٧٦م)
Reinach, Adolph,	رايناخ (١٨٨٣ ـ ١٩١٦م)
Rubinstein, N.,	ربنتشتين
Rothacker, Erich,	رتاكر (١٨٨٨)
Russell, Bertrand,	رسل (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠م)
Rilke, Rainer Maria,	رلكه (١٨٧٥ ـ ١٩٢٦م)
Rougier, Louis,	روجييه
Royce, Josiah,	رويس (١٨٥٥ ـ ١٩١٦م)
Reid, Thomas,	ريد (١٧١٠ ـ ١٧٩٦م)
Reichenbach, Hans,	ريشنباخ (١٨٩١ ـ ١٩٥٣م)
Rickert, Heinrich,	ريكرت (١٨٦٣ ـ ١٨٣٦م)
Renouvier, Charles,	رينوفييه (١٨١٥ ـ ١٩٠٣م)
Riehl, Alois,	ريل (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤م)
Rey, Abel,	ري
Ziehen, Theodor,	زيهن
Satre, Jean-Paul,	سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠م)
Santayana, George,	سانتيانا (١٨٦٣ ـ ١٩٥٢م)

ستالين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٣م)	Stalin, Joseph,
ستاوت	Stout, George Frederick,
سترت	Sturt, Henry,
سدجويك	Sidgwick, Alfred,
سرتيانج (١٨٦٣ ـ ١٩٤٨م)	Sertillanges, Antonin D.,
سوروكين (١٨٨٩ ـ ١٩٦٨م)	Sorokin, Pitirim,
سيمل (١٨٥٨ ـ ٩١٨م)	Simmel, Georg,
زدانوف	Zhdanov, A.A.,
شارتييه (أنظر ألان)	Chartier, Émile,
شاكا	Sciacca, M.F.,
شبان (١٨٧٨ ـ)	Spann, Othmar,
شتاين (١٨٩١ ـ ١٩٤٢م)	Stein, Edith,
شتومف (١٨٤٨ ـ ١٩٣٦م)	Stumpf, Carl,
شرودر (١٨٤١ ـ ١٩٠٢م)	Schroder, Ernst,
شستوف (١٨٦٦ ـ ١٩٤٢م)	Shestov, Leo,
شلر (١٨٧٤ ـ ١٩٢٨م)	Scheler, Max,
شللر (١٨٦٤ ـ ١٩٣٧م)	Schiller, F.C.S.,
شلنج (١٧٧٥ ـ ١٨٥٤م)	Schelling, Friedrich Wilhelm Joseph,
شليك (١٨٨٢ ـ ١٩٥٦م)	Schlick, Moritz,
شوبنهور (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠م)	Schopenhauer, Arthur,
شولتز (١٨٨٤ ـ)	Scholz, Heinrich,
فاربر	Farber, Marvin,
فارسكو (١٨٥٠ ـ ١٩٣٣م)	Varisco, Bernardino,
فايهنجر (١٨٥٢ ـ ١٩٣٣م)	Vaihinger, Hans,
فتجنشتين (١٨٨٩ ـ ١٩٥١م)	Wittgenstein, Ludwig,
فراري (١٨١٢ ـ ١٨٧٦م)	Ferrari, Giuseppe,
فرانك	Franck, Ph.,
فراير (١٨٨٧ ـ)	Freyer, Hans,
فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩م)	Freud, Sigmund,
فريجه (١٨٤٨ ـ ١٩٢٥م)	Frege, Gottlob,
فست	Wust, Peter,

Fechner, Gustav Theodor,	فشنر (١٨٠١ ـ ١٨٨٧م)
Fichte, J.G.,	فشته (١٧٦٢ ـ ١٨١٤م)
Windelband, Wilhelm,	فندلباند (١٨٤٨ ـ ١٩١٥م)
Fuetscher, L.,	فوتشر
Vogt, Karl,	فوجت (١٨١٧ ـ ١٨٩٥م)
Vorlander, Karl,	فورلاندر (١٨٦٠ ـ ١٩٢٨م)
Voltaire	فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م)
Wolff, Christian,	فولف (١٦٧٩ ـ ١٧٥٤م)
Volkelt, Johannes,	فولكلت (١٨٤٨ ـ ١٩٣٠م)
Hartmann. Eduard von,	فون هارتمان (١٨٤٢ ـ ١٩٠٦م)
Wundt, Wilhelm,	فنت (١٨٣٢ ـ ١٩٢٠م)
Vouillemin, Charles Ernest,	فويلمان
Feuerbach, Ludwig,	فويرباخ (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢م)
Fouillee, Alfred,	فوييه (١٨٣٨ ـ ١٩١٢م)
Weber, Max,	فيبر (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠م)
Vera, Augusto,	فيرا
Vico, Giovanni Battista,	فيكو (١٦٦٨ ـ ١٧٤٤م)
Catteneo, Carlo,	كاتانيو (١٨٠١ ـ ١٨٦٩م)
Carnap, Rudolf,	كارناب (١٨٩١ ـ ١٩٧٠م)
Cassirer, Ernst,	كاسيرر (١٨٧٤ ـ ١٩٤٥م)
Kant, Immanuel,	كانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م)
Cantor, G.,	كانتور (١٨٤٥ ـ ١٩١٦م)
Keyserling, Hermann,	كايسرلنج (١٨٨٠ ـ ١٩٤٦م)
Kedrov, B.M.,	كدروف
Groce, Benedetto,	كروتشه (١٨٦٦ ـ ١٩٥٢م)
Klages, Ludwig,	كلاجز (١٨٧٢)
Koyré, Alexander,	كواريه
Cornelius, Hans,	كورنيليوس (١٨٦٣ ـ ١٩٤٧م)
Cousin, Victor,	كوزان (١٧٩٢ ـ ١٨٦٧م)
Kulpe, Oswald,	كولبه (١٨٦٢ ـ ١٩١٥م)
Collingwood, Robin, George,	كولنجوود (١٨٩١ ـ ١٩٤٣م)
Comte, Auguste,	كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧م)

كوهن (١٨٤٢ ـ ١٩١٨م)	Cohen, Hermann,
كيابلي (١٨٥٧ ـ ١٩٣٢م)	Chiapelli, Alessandro,
كيرد (١٨٣٥ ـ ١٩٠٨م)	Caird, Edward,
كيركجارد (١٨١٣ ـ ١٨٥٥م)	Kierkegaard, Soren,
كيز	Case, Thomas,
لابرتنيير (١٨٦٠ ـ ١٩٣١م)	Laberthonniere, Lucien,
لابريولا (١٨٤٣ ـ ١٩٠٣م)	Labriola, A.,
لابلاس (١٧٤٩ ـ ١٨٢٧م)	Laplace, P. S. De,
لاس (١٨٣٧ ـ ١٨٨٥م)	Laas, Ernst,
لاسك (١٨٧٥ ـ ١٩١٥م)	Lask, Emil,
لاشلييه (١٨٣٢ ـ ١٩١٨م)	Lachelier, Jules,
لافل (١٨٨٣ ـ ١٩٥١م)	Lavelle, Louis,
لالاند (١٨٦٧ ـ ١٩٦٣م)	Lalande, Andre,
لامتري (١٧٠٩ ـ ١٧٥١م)	La Mettrie, Julien Offray,
لانجه (١٨٢٨ ـ ١٨٧٨م)	Lange, Friedrich Albert,
لانيو (١٨٥١ ـ ١٨٩٤م)	Lagneau, Jules,
لست (١٨٨٠ ـ)	Litt, Georg,
لوازي (١٨٥٧ ـ ١٩٤٠م)	Loisy, Alfred,
لودانتك (١٨٦٩ ـ ١٩١٧م)	
لوروا (١٨٧٠ ـ ١٩٥٤م)	Le Roy, Edouard,
لوسن (١٨٨٢ ـ ١٩٥٤م)	Le Senne, René,
لوطزه (١٨١٧ ـ ١٨٨١م)	Lotze, Rudolf Hermann,
لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م)	Locke, John,
ليبرت (١٨٧٨ ـ ١٩٤٧م)	Liebert, Arthur,
ليبمان (١٨٤٠ ـ ١٩١٢م	Liebmann, Otto,
ليبنتز (١٦٤٦ ـ ١٧١٦م)	Leibnitz, G.W.,
ليرد (١٨٨٧ ـ ١٩٤٦م)	Laird, John,
ليفي ـ بريل (١٨٥٧ ـ ١٩٣٩م)	Lévy-Bruhl, Lucien,
لينين (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤م)	Lenin, Nikolai,
ماخ (١٨٣٨ ـ ١٩١٦م)	Mach, Ernst,
مارتيوس	Martius, H. Conrad,
مارسل (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م)	Marcel, Gabriel,

مارشال	Marechal, J.,
ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣م)	Marx, Karl,
ماركوف	Markov, M.A.
ماريتان (١٨٨٢ ـ ١٩٧٣م)	Maritain, Jacques,
ماسكول	Mascall, E.L.,
ماكتجارت (١٨٦٦ ـ ١٩٢٥م)	McTaggart, John McTaggart Ellis,
ماكسيموف	Maximov, A.A.,
مانسر (١٨٦٦ ـ ٩٤ ١٩م)	Manser, Gallus M.,
ماوسباخ (١٨٦١ ـ ١٩٣١م)	Mausbach, Joseph
ماير	Maier, Heinrich,
متين	Mitin, M.B.,
مرسلي (١٨٥٢ ـ ١٩٢٩م)	Morselli, Enrico,
مرسييه (١٨٥١ ـ ١٩٢٦م)	Mercier, Désiré,
مرلوبونتي (١٩٠٨ ـ ١٩٦١م)	Merleau-Ponty, Maurice,
مش (١٨٧٨)	Misch, Georg,
مل (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣م)	Mill, John Stuart,
مور (١٨٧٣ ـ ١٩٥٨م)	Moore, G.E.,
مورجان (١٨٠٦ ـ ١٨٧٨م)	Morgan, Augustus de,
مورجان (١٨٥٢ ـ ١٩٣٦م)	Morgan, C.L.,
موليشط (١٨٢٢ ـ ١٨٩٣م)	Moleschott, Jakob,
مونستربرج (١٨٦٣ ـ ١٩١٦م)	Munsterberg, Hugo,
ميس	Mace, C.A.,
مين دي بيران (١٧٦٦ ـ ١٨٢٤م)	Maine de Biran, Francois-Pierre,
مينونج (١٨٥٣ ـ ١٩٢١م)	Meinong, Alois,
ناترب (١٨٥٤ ـ ١٩٢٤م)	Natorp, Paul,
نان (١٨٧٠ ـ)	Nunn, Sir T. Percy,
نويرات (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥م)	Neurath, Otto,
نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م)	Nietzsche, Friedrich,
نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧م)	Newton, ISaac,
وزدم (١٩٠٤ ـ)	Wisdom, John,
واطسون (١٨٧٨ ـ ١٩٥٨م)	Watson John B.,
وايتهد (١٨٦١ ـ ١٩٤٧م)	Whitehead, Alfred North,

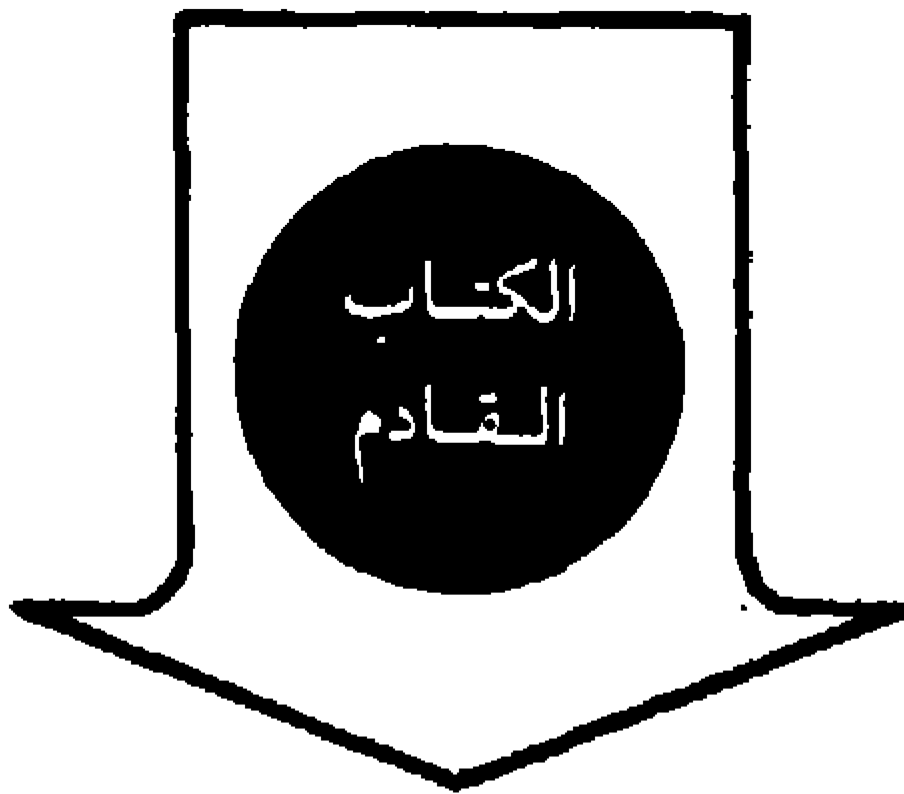
Haberlin, Paul,	هيبرلن (١٨٧٨ ـ ١٩٦١م)
Hartmann, Nicolai,	هارتمان (١٨٨٢ ـ ١٩٥٠م)
Haldane, John Scott,	هالدان (١٨٦٠ ـ ١٩٣٦م)
Hamelin, Octave,	هاملان (١٨٥٦ ـ ١٩٠٧م)
Hahn, Hans,	هان (١٨٨٠ ـ ١٩٣٤م)
Herbart, Johann, Friedrich,	هربارت (١٧٧٦ ـ ١٨٤١م)
Husserl, Edmund,	هسرل (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨م)
Hessen, Johannes,	هسن
Hicks, George Dawes,	هكس (١٨٦٢ ـ ١٩٤١م)
Huxley, Thomas Henry,	هكسلي (١٨٢٥ ـ ١٨٩٥م)
Hofler,Alois,	هفلر
Haeckel, Ernst,	هكل (١٨٣٤ ـ ١٩١٩م)
Hildebrand, D. von	هلدبرانت
Helvetius, Claude Adrian,	هلفيتوس (١٧١٥ ـ ١٨٧١م)
Helmholtz, Hermann,	هلمهلتز (١٨٢١ ـ ١٨٩٤م)
Hobbes, Thomas,	هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م)
Horvath, Alexander,	هورفات (١٨٨٤ ـ)
Holbach, Paul Heinrich Dietrich von,	هولباخ (١٧٢٣ ـ ١٧٨٩م)
Haldane, John Scott,	هولدن
Honigswald, Richard,	هونجز فالد (١٨٧٥ ـ)
Hegel, G.W.F.,	هيجل (١٧٧٠ ـ ١٩٣١م)
Heidegger, Martin,	هيدجر (١٨٨٩ ـ ١٩٧٦م)
Hume, David,	هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦م)
Jacoby, Gunther,	ياكوبي (١٨٨١ ـ)
Jaspers, Karl,	ياسبرز (١٨٨٣ ـ ١٩٦٩م)
Jaensch, Erich,	يانش (١٨٨٣ ـ ١٩٤٠م)
Jodl, Friedrich,	يودل (١٨٤٨ ـ ١٩١٤م)
Ewing, A.C.,	

المؤلف في سطور

- ولد عام ١٩٠٤م.
- عمل أستاذا في جامعة فرايبورج، سويسرا.
- وهو رجل دين كاثوليكي، من أصل بولندي.
- اهتم على الخصوص بالمنطق الرياضي. ولكن الكتاب الحالي هو الذي قدمه إلى الجمهور الكبير في أوربا وأمريكا.

المترجم في سطور

- أستاذ بكلية الآداب بجامعتي عين شمس والكويت.
- له ترجمات لبعض محاورات أفلاطون، عن النص اليوناني، وشروح لها، منها كتاب: «أفلاطون. فيدون. في خلود النفس»، الذي فاز بجائزة الدولة التشجيعية في مصر، ١٩٧٥م.
- صدر له في سلسلة عالم المعرفة: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، ١٩٨٠م.



الأمومة

(نمو العلاقة بين الطفل والأم)

تأليف:

د. فايز قنطار

صدر عن هذه السلسلة

١ـ الحضارة	تأليف : د/ حسين مؤنس
٢ـ إتجاهات الشعر العربي المعاصر	تأليف : د/ إحسان عباس
٣ـ التفكير العلمي	تأليف : د/ فؤاد زكريا
٤ـ الولايات المتحدة والمشرق العربي	تأليف : / أحمد عبدالرحيم مصطفى
٥ـ العلم ومشكلات الإنسان المعاصر	تأليف : د/ زهير الكرمي
٦ـ الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها	تأليف : د/ عزت حجازي
٧ـ الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية	تأليف : / محمد عزيز شكري
٨ـ تراث الإسلام (الجزء الأول)	ترجمة : د/ زهير السمهوري تحقيق وتعليق : د/ شاكر مصطفى مراجعة : د/ فؤاد زكريا
٩ـ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة	تأليف : د/ نايف خرما
١٠ـ جحا العربي	تأليف : د/ محمد رجب النجار
١١ـ تراث الإسلام (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ حسين مؤنس د/ إحسان العمد مراجعة : د/ فؤاد زكريا
١٢ـ تراث الإسلام (الجزء الثالث)	د. حسين مؤنس د/ إحسان العمد مراجعة : د/ فؤاد زكريا
١٣ـ الملاحة وعلوم البحار عند العرب	تأليف : د/ أنور عبدالعليم
١٤ـ جمالية الفن العربي	تأليف : د/ عفيف بهنسي
١٥ـ الإنسان الحائر بين العلم والخرافة	تأليف : د/ عبدالمحسن صالح
١٦ـ النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية	تأليف : د/ محمود عبدالفضيل
١٧ـ الكون والثقوب السوداء	إعداد : رؤوف وصفي مراجعة : زهير الكرمي
١٨ـ الكوميديا والتراجيديا	ترجمة : د/ علي أحمد محمود مراجعة : د/ شوقي السكري د/ علي الراعي
١٩ـ المخرج في المسرح المعاصر	تأليف : / سعد أردش

٢٠ـ التفكير المستقيم والتفكير الأعوج — ترجمة حسن سعيد الكرمي
مراجعة : صدقي حطاب

٢١ـ مشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي — تأليف : د/ محمد علي الفرا

٢٢ـ البيئة ومشكلاتها — تأليف : رشيد الحمد
د/ محمد سعيد صباريني

٢٣ـ الرق — تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني

٢٤ـ الإبداع في الفن والعلم — تأليف : د/ حسن أحمد عيسى

٢٥ـ المسرح في الوطن العربي — تأليف : د/ علي الراعي

٢٦ـ مصر وفلسطين — تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن

٢٧ـ العلاج النفسي الحديث — تأليف : د/ عبدالستار ابراهيم

٢٨ـ أفريقيا في عصر التحول الإجتماعي — ترجمة : شوقي جلال

٢٩ـ العرب والتحدي — تأليف : د/ محمد عماره

٣٠ـ العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة — تأليف : د/ عزت قرني

٣١ـ الموشحات الأندلسية — تأليف : د/ محمد زكريا عناني

٣٢ـ تكنولوجيا السلوك الإنساني — ترجمة : د/ عبدالقادر يوسف
مراجعة : د/ رجا الدريني

٣٣ـ الإنسان والثروات المعدنية — تأليف : د/ محمد فتحي عوض الله

٣٤ـ قضايا أفريقية — تأليف : د/ محمد عبدالغني سعودي

٣٥ـ تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي (١٩٣٠ـ ١٩٧٠) — تأليف : د/ محمد جابر الأنصاري

٣٦ـ الحب في التراث العربي — تأليف : د/ محمد حسن عبدالله

٣٧ـ المساجد — تأليف : د/ حسين مؤنس

٣٨ـ تكنولوجيا الطاقة البديلة — تأليف : د/ سعود يوسف عياش

٣٩ـ إرتقاء الإنسان — ترجمة : د/ موفق شخاشيرو
مراجعة : زهير الكرمي

٤٠ـ الرواية الروسية في القرن التاسع عشر — تأليف : د/ مكارم الغمري

٤١ـ الشعر في السودان — تأليف : د/ عبده بدوي

٤٢ـ دور المشروعات العامة في التنمية الإقتصادية — تأليف : د/ علي خليفة الكواري

٤٣ـ الإسلام في الصين — تأليف : فهمي هويدي

٤٤ـ اتجاهات نظرية في علم الاجتماع — تأليف : د/ عبدالباسط عبدالمعطي

٤٥ـ حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي — تأليف : د/ محمد رجب النجار
٤٦ـ دعوة إلى الموسيقا — تأليف : د/ يوسف السيسي
٤٧ـ فكرة القانون — ترجمة : سليم الصويص
مراجعة : سليم بسيسو
٤٨ـ التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان — تأليف : د/ عبدالمحسن صالح
٤٩ـ صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي — تأليف : صلاح الدين حافظ
٥٠ـ التكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية — تأليف : د/ محمد عبدالسلام
٥١ـ السينما في الوطن العربي — تأليف : جان ألكسان
٥٢ـ النفط والعلاقات الدولية — تأليف : د/ محمد الرميحي
٥٣ـ البدائية — ترجمة : د/ محمد عصفور
٥٤ـ الحشرات الناقلة للأمراض — تأليف : د/ جليل أبو الحب
٥٥ـ العالم بعد مائتي عام — ترجمة : شوقي جلال
٥٦ـ الإدمان — تأليف : د/ عادل الدمرداش
٥٧ـ البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية — تأليف : د/ أسامة عبدالرحمن
٥٨ـ الوجودية — ترجمة : د/ إمام عبدالفتاح
٥٩ـ العرب أمام تحديات التكنولوجيا — تأليف : د/ انطونيوس كرم
٦٠ـ الأيديولوجية الصهيونية (الجزء الأول) — تأليف : د/ عبدالوهاب المسيري
٦١ـ الأيديولوجية الصهيونية (الجزء الثاني) — تأليف : د/ عبدالوهاب المسيري
٦٢ـ حكمة الغرب — ترجمة : د/ فؤاد زكريا
٦٣ـ الإسلام والاقتصاد — تأليف : د/ عبدالهادي علي النجار
٦٤ـ صناعة الجوع (خرافة الندرة) — ترجمة : احمد حسان عبدالواحد
٦٥ـ مدخل إلى تاريخ الموسيقا المغربية — تأليف : عبدالعزيز بن عبد الجليل
٦٦ـ الإسلام والشعر — تأليف : د/ سامي مكي العاني
٦٧ـ بنو الإنسان — ترجمة : زهير الكرمي
٦٨ـ الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية — تأليف : د/ محمد موفاكو
٦٩ـ ظاهرة العلم الحديث — تأليف : د/ عبدالله العمر
٧٠ـ نظريات التعلم (دراسة مقارنة) القسم االأول — ترجمة : د/ علي حسين حجاج
مراجعة : د/ عطيه محمود هنا
٧١ـ الإستيطان الأجنبي في الوطن العربي — تأليف : د/ عبدالمالك خلف التميمي
٧٢ـ حكمة الغرب (الجزء الثاني) — ترجمة : د/ فؤاد زكريا

٧٣ـ التخطيط للتقدم الإقتصادي والإجتماعي	تأليف : د/ مجيد مسعود
٧٤ـ مشاريع الاستيطان اليهودي	تأليف : أمين عبدالله محمود
٧٥ـ التصوير والحياة	تأليف : د/ محمد نبهان سويلم
٧٦ـ الموت في الفكر الغربي	ترجمة : كامل يوسف حسين مراجعة : د/ إمام عبدالفتاح
٧٧ـ الشعر الإغريقي تراثا إنسانيا وعالميا	تأليف : د/ أحمد عتمان
٧٨ـ قضاياالتبعية الإعلامية والثقافية	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن
٧٩ـ مفاهيم قرآنية	تأليف : د/ محمد أحمد خلف الله
٨٠ـ الزواج عند العرب (في الجاهلية والإسلام)	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني
٨١ ـ الأدب اليوغسلافي المعاصر	تأليف : د/ جمال الدين سيد محمد
٨٢ ـ تشكيل العقل الحديث	ترجمة : شوقي جلال مراجعة : صدقي حطاب
٨٣ ـ البيولوجيا ومصير الإنسان	تأليف : د/ سعيد الحفار
٨٤ ـ المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية	تأليف : د/ رمزي زكي
٨٥ ـ دول مجلس التعاون الخليجي ومستويات العمل الدولية	تأليف : د/ بدرية العوضي
٨٦ ـ الإنسان وعلم النفس	تأليف : د/ عبدالستار ابراهيم
٨٧ ـ في تراثنا العربي الإسلامي	تأليف : د/ توفيق الطويل
٨٨ ـ الميكروبات والإنسان	ترجمة : د/ عزت شعلان مراجعة : د/ عبدالرزاق العدواني، د/ سمير رضوان
٨٩ ـ الإسلام وحقوق الإنسان	تأليف : د/ محمد عماره
٩٠ ـ الغرب والعالم (القسم الأول)	تأليف : كافين رايلي ترجمة : د/ عبدالوهاب المسيري، د/ هدى حجازي مراجعة : د/ فؤاد زكريا
٩١ ـ تربية اليسر وتخلف التنمية	تأليف : د/ عبدالعزيز الجلال
٩٢ ـ عقول المستقبل	ترجمة : د/ لطفي فطيم
٩٣ ـ لغة الكيمياء عند الكائنات الحية	تأليف : د/ أحمد مدحت إسلام
٩٤ ـ النظام الإعلامي الجديد	تأليف : د/ مصطفى المصمودي

٩٥ ـ تغير العالم	تأليف : د/ أنور عبدالملك
٩٦ ـ الصهيونية غير اليهودية	تأليف : ريجينا الشريف ترجمة : أحمد عبدالله عبدالعزيز
٩٧ ـ الغرب والعالم (القسم الثاني)	تأليف : كافين رايلي ترجمة : د/ عبدالوهاب المسيري د/ هدى حجازي مراجعة : د/ فؤاد زكريا
٩٨ ـ قصة الأنثروبولوجيا	تأليف : د/ حسين فهيم
٩٩ ـ الأطفال مرآة المجتمع	تأليف : د/ محمد عماد الدين إسماعيل
١٠٠ ـ الوراثة والإنسان	تأليف : د/ محمد علي الربيعي
١٠١ ـ الأدب في البرازيل	تأليف : د/ شاكر مصطفى
١٠٢ ـ الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية	تأليف : د/ رشاد الشامي
١٠٣ ـ التنمية في دول مجلس التعاون	تأليف د/ محمد توفيق صادق
١٠٤ ـ العالم الثالث وتحديات البقاء	تأليف جاك لوب ترجمة : أحمد فؤاد بلبع
١٠٥ ـ المسرح والتغير الاجتماعي في الخليج العربي	تأليف : د/ إبراهيم عبد الله غلوم
١٠٦ ـ «المتلاعبون بالعقول»	تأليف : هربرت . أ . شيللر ترجمة : عبدالسلام رضوان
١٠٧ ـ الشركات عابرة القومية	تأليف : د/ محمد السيد سعيد
١٠٨ ـ نظريات التعلم (دراسة مقارنة) (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ علي حسين حجاج مراجعة : د/ عطية محمود هنا
١٠٩ ـ العملية الإبداعية في فن التصوير	تأليف : د/ شاكر عبدالحميد
١١٠ ـ مفاهيم نقدية	ترجمة : د/ محمد عصفور
١١١ ـ قلق الموت	تأليف : د/ أحمد محمد عبدالخالق
١١٢ ـ العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث	تأليف : د/ جون . ب . ديكنسون ترجمة : شعبة الترجمة باليونسكو
١١٣ ـ الفكر التربوي العربي الحديث	تأليف : د/ سعيد إسماعيل علي
١١٤ ـ الرياضيات في حياتنا	ترجمة : د/ فاطمة عبدالقادر الما

١١٥ ـ معالم على طريق تحديث الفكر العربي	تأليف : د/ معن زيادة
١١٦ ـ أدب أميركا اللاتينية (قضايا ومشكلات) القسم الأول	تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو ترجمة : أحمد حسان عبدالواحد مراجعة : د/ شاكر مصطفى
١١٧ ـ الأحزاب السياسية في العالم الثالث	تأليف : د/ أسامة الغزالي حرب
١١٨ ـ التاريخ النقدي للتخلف	تأليف : د/ رمزي زكي
١١٩ ـ قصيدة وصورة	تأليف : د/ عبدالغفار مكاوي
١٢٠ ـ سيكولوجية اللعب	تأليف : د/ سوزانا ميلر ترجمة : د/ حسن عيسى مراجعة : د/ محمد عماد الدين إسماعيل
١٢١ ـ الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم	تأليف : د/ رياض رمضان العلمي
١٢٢ ـ أدب أميركا اللاتينية (القسم الثاني)	تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو ترجمة : أحمد حسان عبدالواحد مراجعة : د/ شاكر مصطفى
١٢٣ ـ ثقافة الأطفال	تأليف : د/ هادي نعمان الهيتي
١٢٤ ـ مرض القلق	تأليف : د/ دافيد . ف . شيهان ترجمة : د/ عزت شعلان مراجعة : د/ أحمد عبدالعزيز سلامة
١٢٥ ـ طبيعة الحياة	تأليف : فرانسيس كريك ترجمة : د/ أحمد مستجير مراجعة : د/ عبد الحافظ حلمي
١٢٦ ـ اللغات الأجنبية (تعليمها وتعلمها)	تأليف : د/ نايف خرما، د/ علي حجاج
١٢٧ ـ اقتصاديات الإسكان	تأليف : د/ إسماعيل إبراهيم درة
١٢٨ ـ المدينة الإسلامية	تأليف : د/ محمد عبدالستار عثمان
١٢٩ ـ الموسيقا الأندلسية المغربية	تأليف : عبدالعزيز بن عبدالجليل
١٣٠ ـ التنبؤ الوراثي	تأليف : د/ زولت هارسيناي، ريتشارد هتون ترجمة : د/ مصطفى إبراهيم فهمي مراجعة : د/ مختار الظواهري

١٣١ ـ مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الاسلام	تأليف : د/ أحمد سليم سعيدان
١٣٢ ـ أوروبا والتخلف في أفريقيا	تأليف : د/ والتر رودني
	ترجمة : د/ أحمد القصير
	مراجعة : د/ إبراهيم عثمان
١٣٣ ـ العالم المعاصر والصراعات الدولية	تأليف : د/ عبدالخالق عبدالله
١٣٤ ـ العلم في منظوره الجديد	تأليف : روبرت م . اغروس / جورج ن . ستانسيو
	ترجمة : د/ كمال خلايلي
١٣٥ ـ العرب واليونسكو	تأليف : د/ حسن نافعة
١٣٦ ـ اليابانيون	تأليف : إدوين رايشاور
	ترجمة : ليلى الجبالي
	مراجعة : شوقي جلال
١٣٧ ـ الاتجاهات التعصبية	تأليف : د/ معتز سيد عبدالله
١٣٨ ـ أدب الرحلات	تأليف : د/ حسين فهيم
١٣٩ ـ المسلمون والاستعمار الاوروبي لأفريقيا	تأليف : عبدالله عبدالرزاق ابراهيم
١٤٠ ـ الانسان بين الجوهر والمظهر (نتملك أو نكون)	تأليف : إريك فروم
	ترجمة : سعد زهران
	مراجعة : د/ لطفي فطيم
١٤١ ـ الأدب اللاتيني (ودوره الحضاري)	تأليف : د/ أحمد عتمان
١٤٢ ـ مستقبلنا المشترك	إعداد : اللجنة العالمية للبيئة والتنمية
	ترجمة : محمد كامل عارف
	مراجعة : علي حسين حجاج
١٤٣ ـ الريف في الرواية العربية	تأليف : د/ محمد حسن عبدالله
١٤٤ ـ الإبداع العام والخاص	تأليف : الكسندرو روشكا
	ترجمة : د/ غسان عبدالحي أبو فخر
١٤٥ ـ سيكولوجية اللغة والمرض العقلي	تأليف : د/ جمعة سيد يوسف
١٤٦ ـ حياة الوعي الفني (دراسات في تاريخ الصورة الفنية)	تأليف : غيورغي غانشف
	ترجمة : د/ نوفل نيوف
	مراجعة : د/ سعد مصلوح
١٤٧ ـ الرأسمالية تجدد نفسها	تأليف : د/ فؤاد مُرسي

١٤٨ ـ علم الأحياء والأيديولوجيا والطبيعة البشرية — تأليف : ستيفن روز وآخرين
ترجمة : د/ مصطفى إبراهيم فهمي
مراجعة : د/ محمد عصفور

١٤٩ ـ ماهية الحروب الصليبية — تأليف : د/ قاسم عبده قاسم

١٥٠ ـ حاجات الإنسان الأساسية في الوطن العربي «الجوانب البيئية والتكنولوجيات والسياسات» — (برنامج الأمم المتحدة للبيئة)
ترجمة : عبد السلام رضوان

١٥١ ـ تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية — تأليف : د/ شوقي عبد القوي عثمان

١٥٢ ـ التلوث مشكلة العصر — تأليف : د/ أحمد مدحت إسلام

(ظهر هذا العدد في أغسطس ١٩٩٠، وانقطعت السلسلة بسبب العدوان الغاشم، ثم استؤنفت في شهر سبتمبر ١٩٩١ بالعدد ١٥٣)

١٥٣ ـ الكويت والتنمية الثقافية العربية — تأليف : د/ محمد حسن عبدالله

١٥٤ ـ النقطة المتحولة : أربعون عاما في استكشاف المسرح — تأليف : بيتر بروك
ترجمة : فاروق عبدالقادر

١٥٥ ـ مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي — تأليف : د/ مكارم الغمري

١٥٦ ـ الفصامي : كيف نفهمه ونساعده، دليل للأسرة والأصدقاء — تأليف : سيلفانو آرتي
ترجمة : د/ عاطف أحمد

١٥٧ ـ الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي — تأليف : د/ زينات البيطار

١٥٨ ـ مستقبل النظام العربي بعد ازمة الخليج — تأليف : د/ محمد السيد سعيد

١٥٩ ـ فكرة الزمان عبر التاريخ — ترجمة : فؤاد كامل عبدالعزيز
مراجعة : شوقي جلال

١٦٠ ـ إرتقاء القيم (دراسة نفسية) — تأليف : د/ عبداللطيف محمد خليفة

١٦١ ـ أمراض الفقر (المشكلات الصحية في العالم الثالث) — تأليف : د/ فيليب عطية

١٦٢ ـ القومية في موسيقا القرن العشرين — تأليف : د/ سمحة الخولي

١٦٣ ـ أسرار النوم — تأليف : الكسندر بوربلي
ترجمة : د/ أحمد عبدالعزيز سلامة

١٦٤ ـ بلاغة الخطابة وعلم النص — تأليف : د/ صلاح فضل

سلسلة عالم المعرفة

عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت ـ وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير عام ١٩٧٨ .

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارىء بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة ، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة . ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفاً وترجمة :

١ ـ الدراسات الإنسانية : تاريخ ـ فلسفة ـ أدب الرحلات ـ الدراسات الحضارية ـ تاريخ الافكار.

٢ ـ العلوم الاجتماعية : اجتماع ـ اقتصاد ـ سياسة ـ علم نفس ـ جغرافيا ـ تخطيط ـ دراسات استراتيجية ـ مستقبليات .

٣ ـ الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي ـ الآداب العالمية ـ علم اللغة .

٤ ـ الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن ـ المسرح ـ الموسيقا ـ الفنون التشكيلية والفنون الشعبية .

٥ ـ الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، علم الحياة ، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) والدراسات التكنولوجية . أما بالنسبة لنشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية فأمر غير وارد في الوقت الحالي .

وتحرص سلسلة عالم المعرفة على ان تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع / المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل خمسة عشر فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي أو تسعمائة دينار أيهما أكثر بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتياً مقابل تقديم المخطوطة ـ المؤلفة و المترجمة ـ من نسختين مطبوعة على الآلة الكاتبة.

الاشتراك السنوي : وهو مقصور على الفئات التالية :

● المؤسسات والهيئات داخل الكويت	١٠	دنانير كويتية
● المؤسسات والهيئات في الوطن العربي	١٢	ديناراً كويتيا
● المؤسسات والهيئات خارج الوطن العربي	٨٠	دولارا أمريكيا
● الأفراد خارج الوطن العربي	٤٠	دولارا أميركيا

الاشتراكات :

ترسل باسم الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص . ب : ٢٣٩٩٦ الصفاة/ الكويت ـ 13100
برقيا : ثقف ـ تلكس : ٤٤٥٥٤ TLX. NO. 44554 NCCAL
فاكسميلي : ٤٨٧٣٦٩٤

طبع من هذا الكتاب أربعون ألف نسخة

مطابع السياسة ـ الكويت

هـذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب عرضا شاملاً وموجزاً للفكر الفلسفي الغربي حتى عام ١٩٥٠ ، وقد ظهر في العديد من اللغات الأوربية ، وهو ينفرد بدقته واستقصائه واتـزان أحكامـه ، فضلا عن امتداد نظـرته إلى مـا قبل القرن العشرين الميلادي . فيقدم المؤلف لموضـوعه بفصلين عن اتجاهات القرن التـاسع غشر في الغـرب ، وعن «الأزمـة» العميقـة التي واجههـا الفكـر الغربي ، في العلـم والفلسفة خصوصـا ، في أواخر تلـك الفترة ، ليعرض انطلاقا من تلك الخلفيـة ، خصائص الفكر الغربي الجديـد ، الذي يرى أنـه مختلف جـوهـريا عما يسميـه بـاسم «الفلسفـة الحديثـة» (١٦٠٠ ـ ١٩٠٠م) وهـو يعرض بـالتفصيل ، في خـلال الفصـول التاليـة ، لأهم تيـارات هذا الفكـر . وهي : فلسفـة المادة ، الفلسفـة المثـالية ، فلسفـة الحيـاة ، الفينـومينـولـوجيا ، الفلسفـة الـوجـوديـة ، وأخيرا الفلسفـات الميتافيزيقية ، ويلتقي القارىء خلال صفحات الكتاب بأفكار أهم ممثلي العقل الفلسفي الغـربي ، رسل ، الـوضعيـون المنطقيـون ، الماركسيـون ، كروتشه ، برنشفيك ، الكانتيون الجدد ، برجسون ، وليم جيمس وديوي ، دلتاي ، هسرل ، شلـر ، هيدجـر ، سارتـر ، مارسل ، يـاسبرز ، هارتمان ، وايتهـد ، التومـاويون ، وغيرهـم . إنـه كتـاب للقراءة ومـرجع يرجع إليـه معا .

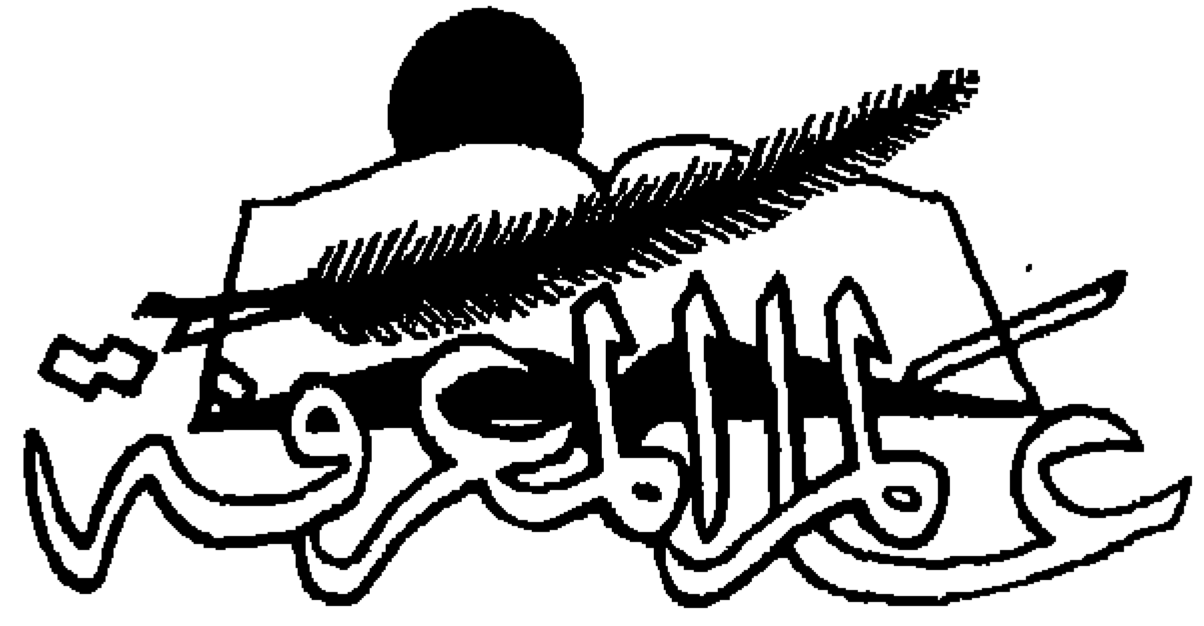
عالم المعرفة
١٦٦

الأمومة

نمو العلاقة بين الطفل والأم

تأليف: د. فايز قنطار

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

الأمومة
نمو العلاقة بين الطفل والأم

تأليف: د. فايز قنطار

١٦٦ - ربيع الثاني ١٤١٣ هـ ، أكتوبر/ تشرين أول ١٩٩٢م

المراسلات:
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الأمومة

نمو العلاقة بين الطفل والأم



المحتـــــــوى

شكر وتقدير

أود أن أتقدم بـالشكر والتقديـر إلى كل من ساعـدني أثناء إعداد هـذا الكتاب. وأخص بالذكر الدكتور بنوا شال (B.Schaal) من مركز البحوث الفرنسي الذي كرس وقتا طـويلا لمناقشـة موضوعـات عديدة من هـذا الكتاب. وكذلك الـدكتور روبير سـوسينيـان (R.Soussignan) الذي كـان لجهوده دور كبير في المعالجة الإحصـائية للمعلومات.

وأتوجه بالشكر والامتنان إلى الأستاذ ترامبلي (R.Tremblay) عميد كلية التربية في جامعـة مونتريـال (كندا) الـذي فتح أبـواب كليته، خصـوصا أبـواب مكتبتها، واستضـافنا على الطـريقـة العربيـة، ووفـر لنا فـرصـة الاطلاع على أحـدث المراجع العلمية، وفرصة الحوار مع العديد من الباحثين في أمريكا الشمالية.

إلى الأستـاذ نوفل صـلاح مديـر معهـد إعداد مـدرسي اللغة العـربية في محافظـة السويداء (سوريا) خالص الشكر والتقدير للساعات الطويلة التي أمضاها في قراءة المخطـوطـة وللمناقشـات العـديـدة التي كـان لها أثر لا ينسـى. له جـزيل الشكـر والامتنان.

إلى الفاحص المجهـول عميق الشكر والتقدير؛ فلقـد كان لملاحظاته القيمـة أثر عميق في بلورة النص النهائي لهذا الكتاب.

إلى كل هؤلاء، عميـق الشكر والامتنان مع التـأكيد على مسؤوليتي وحـدي عن الثغرات والأخطاء.

د. فايز قنطار

مدخـــل

ما دور الأم ؟ وما سلوك الأمومة؟ وما وظائف هذا السلوك؟ ومامدى تأثير الأم في طفلها؟

تبدو الإجابة على هـذه الاسئلة سهلة للوهلة الاولى، فكل منـا يعرف أن العلاقة بين الأم وطفلهـا تأخـذ طـريقهـا على نحـو عفـوي، وكل أنثى تملك من المعـارف الشخصية حدا أدنى يمكّنهـا من تنشئة طفلها. فالطبيعة أهلتهـا للقيام بهذا الدور، وبالرغم من هذا، فإن النظر المتفحص إلى هذه العلاقة يظهر مدى تعقيدها وتداخل عوامل متعددة في تحديد مسارهـا؛ فنشاط الأم اليومي وسلوكها تجاه الطفل يبين غنى سلوك الأمومة وتنوعه، ويبين في الوقت نفسه الفرق بين أم وأخرى في التعبير عن هذا السلـوك. فالصبغـة العاطفيـة التي تلـون هذا السلـوك أو ذاك، والمدة الزمنيـة التي تقضيها الأم في حالة نشاط تجاه الطفل وتكرار هذا النشاط أو ذاك وخصائص أخرى توضّح التنوع في سلوك الأمومة، حيث تلعب عـوامل الثقافة، وشروط الحياة العامة، وعوامل الشخصية دورا هـاما في هذا السلوك. إلا أن علاقة الأم بصغـارها غير ممكنة دون قاعدة بيولوجية ثابتة. وتتحدد هذه العلاقة ـ لدى الأنواع الأخرى ـ بشكل شبه كامل بوسـاطة آلية (mechanism) غريزية وراثيـة. فنشاط الأم تجاه صغارها يمكن إظهاره بصورة آليـة عند الحيوان مثلا؛ إلاّ أن الأمـر يختلف عند النوع البشري، حيث يتميـز الإنسان عن الأنـواع الاخـرى بقدرتـه على تكييف سلـوكـه في ضوء المعـارف المكتسبة. وعلى الـرغم من أهمية العوامل البيـولوجية في تحديد السلـوك الإنساني فأن التجربة والخبرات المكتسبة تلعب دورا حاسما في تعديل هذا السلوك.

إن مـايميز الإنسـان عن الأنـواع الأخرى ليست قـدرتـه على استعمال الوسـائل فحسب بل قدرته على الاتصال (communication) أيضا، فبواسطة الاتصال يتم

نقل المعارف والخبرات من جيل إلى جيل آخر. فالإنسـان بفضل قدرته على الاتصال مع الأفراد الآخرين من أبنـاء جنسه تمكن من حل مشكلاته الأساسيـة المتعلقة ببقاء النوع وتطوره باستمرار.

إن معالجة سلوك الأمومة، وعلاقة الأم بطفلها تضعنا أمام ظاهرة معقدة، فسياق التكيف بين الطرفين سياق ديناميكي، يلعب التعلم والاكتساب فيه دورا هاما، وإن كانت المورثـات هي التي تزود (الميكـانيزم) الـذي يسمح بدوره بتحقق هـذا السياق التكيفي. إن سلوك الأمومة يتحدد بعوامل عديدة، فالأم الشابه تتأثر بسلوك أمهات أكثر تجربـة وخبرة منها فهي تلاحظ سلـوك الأمومـة عند والدتها، وتحاول تقليـدها، والتقيد بـالقيم والتقاليـد التي يفرضهـا الوسـط الاجتماعي ـ الثقـافي. إن الاعتبارات المختلفة لطبيعة سلـوك التعلق تقود إلى إشكالات علمية تتأثر بطـريقة الولادة، ودور الطبيب والقـابلـة في مشافي التـوليـد، والنصائح التي يجب أن تعطـى للأم، وطـرق التعـامل مع القادم الجديـد. وهكذا تأخـذ دراسـة سلوك الأمـومة أهميـة خاصـة في العملية التربـوية لأن التربية في المراحل الـلاحقة من حيـاة الطفل يجب أن تستند إلى الأسس التي وضعتها الأسرة وخصوصا الأم. سوف نقوم أحيانا بمقارنة سلوك الأمومة عند أنـواع مختلفة؛ ففـي ذلك أهمية بـالغة لإلقـاء الضوء على هـذا السلوك وأسبـابه ووظـائفه والعـوامل المؤثرة فيـه، إلا أننا نحـذر من خطر تعميم نتـائج البحث التي تتعلق بنوع من الأنواع على نوع آخر. إن الطمأنينة التي توفرها الملامسة الجسدية مثلا أثنـاء تفـاعل الأم مع صغيرهـا عند بعـض الثدييـات لا يمكن تعميمهـا على النـوع البشري، وإن كان في مقارنة النتائج التجريبية لأنواع مختلفة فائدة كبيرة لفهم الأصول البيولوجيـة للسلوك بشكل عام ولسلوك الأمومـة بشكل خاص؛ إن من أهم وظائف سلوك الوالدية* ضمان حياة الصغار والمحافظة على بقاء النوع، ويختلف هذا السلوك باختلاف الأنواع لكي يتلاءم والظروف الايكولوجية (البيئية) لكل منها.

إن معظم أنواع الطيور وجميع الثـدييات تولي صغارها عناية خـاصة، تتمثل هذه العناية عند الطيـور بحضن البيوض وتغذية الفراخ وإبقائها في درجـة حرارة مناسبة

---

* Parenthood أي كل ما يفعله الوالدان من أجل الأطفال.

وحمايتها من الأخطار. ويعتبر إرضاع الصغار من أهم خصـائص سلوك الأمومة عند الثدييات (Slukin and Herbert, 1986)، بينما يكون لنقل المعارف والمعلومات من الكبار إلى الصغار أهمية خاصة عند النوع البشري.

تلعب الأم دورا بارزا في سلوك الـوالدية (Parental Behaviour)، إلا أن الأب عند العديد من الأنواع يشارك في العناية بالصغار ويقوم أحيانا بالدور الرئيسي في هذا السلوك.

يتأثر سلـوك الوالـدية، إلى درجـة كبيرة بسلوك الصغـار، مما يستـدعى النظر إلى وظيفة الـوالديـة في إطار التفـاعل بين الأهل والطفل. إن هـذا السلوك الموجـه نحو الصغار يمكن إثارته بمثيرات خاصة تحمل من الخصائص مايمكنها من إطلاق هذا السلـوك، حيث يظهر سلـوك الأمومـة تحت تأثير جملة واسعـة من المؤثرات الشميـة والبصرية والسمعيـة واللمسية الخ. . . فبكاء الطفـل البشري من أهـم المؤثرات التي تنشط سلوك الأمومة. ويؤلف سلوك الأمومة مـركبا معقدا ويزيد في تعقيده أنه يتناول شخصين اثنين: الأم وطفلها، إذ يتأثر الواحد بـالآخر ويقوم كل منهما بدور محدد في بناء العلاقـة التي تربطهما. إن تطور الـدراسات المتعلقة بالسلـوك قد حمل الباحثين على استخلاص مبـادىء وقوانين تحكـم تطور الظـاهرة السلـوكية وتـؤثر فيهـا. فلا نستطيع أن ننكر مسـؤولية الكبير نحو الطفل. فتطور الصغير يتأثـر ـ إلى درجة كبيرة ـ بمواقف الكبار، وبالطريقة التي يعاملونه بها وبالقيم السائدة إلخ. . .

سنحـاول في هذه الـدراسة أن نلقي الضـوء على عـلاقة الأم بـالطفل ونمو هـذه العلاقة وأثرها في تطور الصغير.

إن التأكيد على مسؤوليـة الكبار نحو الأطفال لا يقصد به إضـافة اتهام جديد إلى المرأة ـ الأم، فهـي تعيش في وسط ثقافي ــ اجتماعي ينكر الاستقلاليـة على الضعيف عامـة وعلى الصغير بوجـه خاص ويؤكـد التسلط والقمع، كقيمة تـربويـة في تنشئة الصغار، وفي علاقات التواصل الاجتماعي.

إن غالبيـة الأمهات يتصرفن نحـو الصغير حديث الـولادة كما لو كنّ يتعلقـن به

بقوة، ولكن بعضهن يشعرن نحوه بعدم الاكتراث. ومع مرور الوقت تشعر معظم الأمهات بتعلق قوي يربط بينهنّ وبين الصغير.

إن سلوك الأمومة يترجم هذه المشاعر إلى أفعال محسوسة يمكن ملاحظتها وقياسها. وتعتبر معرفة كيفية تشكل هذه الروابط وزمن تشكلها غاية في الأهمية، على الصعيدين النظري والعملي.

إن مسألة قياس درجة التعلق بين الطفل والأم مسألة معقدة، ولا تزال موضع نقاش بين الباحثين. فمنهم من يرى أن بعض صيغ سلوك الأم الموجهة نحو الصغير كالملامسة الجسدية، وحمل الصغير، وتقبيله، واحتضانه، والنظر المطول إليه بعد الولادة مؤشرا هاما بالنسبة لمستقبل التعلق بين الطفل والأم (Klaus and Kennell, 1976) بينما يرى آخرون إن هذه المظاهر السلوكية لا تعبر عن طبيعة التعلق تعبيرا دقيقا فلا بد من اعتماد مؤشرات إضافية (Slukin and Herbert, 1986)، وتختلف الآراء، نظرا لتضارب نتائج البحوث المتعلقة بهذا الموضوع. ربما يعود ذلك لاختلاف المناهج المتبعة في دراسة التعلق، حيث لا تزال مشكلة المنهج المعتمد مشكلة قائمة لم يتفق الباحثون حولها بشكل نهائي.

لقد أشار بعض الباحثين (المرجع السابق) إلى أثر الاشراط البافلوفي التقليدي في تطور علاقة الأم بالطفل وفي نمو محبتها له، حيث يصبح الصغير مصدر المؤثرات ـ الاشراطية وغير الاشراطية ـ التي تثير محبة الأهل وعنايتهم به. ويمكن للاشراط الوسيلي أن يساهم في نمو التعلق بين الأم والطفل، إذ يثبت السلوك المعزّز ويلغي الأفعال غير المعزّزة. فالأم تفعل كل شيء يمكن أن يكون مفيدا بالنسبة للطفل. ويكون ذلك بمثابة تعزيز لهذه الأفعال . . وعند التقدم التدريجي والتعرف على الطفل والإلمام بحاجاته، تحاول الأم معرفة أفضل الوسائل لإرضاء تلك الحاجات، فتغذية الطفل، وتنظيفه وإبقاؤه في جو من الدفء، تصبح أفعالا راسخة عند الأم، وشعورها بالرضى (التعزيز) بعد كل فعل يسهم في تطور سلوك الأمومة عندها وفي نمو محبتها وتعلقها بالصغير. إلا أن بعض الصغار قد يخفق في أشعار الأم بالرضى

مما قد يتسبب في قلة محبتها له وفي رفضه وعدم تقبلها له .

إن مـايجري في السنـوات الأولى بين الطفل والأم يهم المشتغلين في التربيـة التي تهدف إلى إيجاد الوسائل ، وتوفير الشروط التي تسمـح بتنشئة الطفل بطـريقة مثلى ، وتجنيبه المرض والانحراف وهدر الطاقات الطبيعية .

فالطفل الـذي لا تتوفـر له الفـرص اللازمة لتنميـة شخصيته ، وقـواه المختلفة ، يصعب أن يصبح شابـا مبدعا خلاقـا . إن الهدف الأساسي لكل عملية تربـوية هو تهيئـة الظـروف التي تمكّن الطاقـات والقـابليـات الكـامنة عنـد الفـرد من التفتح ، والتحقق . ويجمع علماء النفس والتربيـة على أهميـة السنـوات الأولى في تكّـون الفـرد ونموه ؛ لذا شهدت العقـود الماضية تزايدا مطردا في الدراسـات والبحوث التي تتناول سلوك الأمومـة وعلاقة الأم بطفلها ، إلا أن المكتبـة العربية تفتقر إلى هـذه الدراسات بالـرغم من أهميتها الخاصـة في مجتمعاتنا ، لتعـرضها إلى تغيرات سريعـة ، في الميادين الاقتصاديـة ، والاجتماعية ، ممـا ينعكس على طرق التنشئـة وعلاقـة الطفل بالأسرة ؛ فالأم الشابة تتنازعها من جهة الطريقةُ التقليدية في الأمومة ، ومن جهة أخرى الطرائقُ الحديثـة القـادمة من الغـرب ؛ من هنـا تبرز مسـؤوليـة المختصين العرب في تطـويـر الملاحظـة ، والـدراسـة والمناقشـة والبحث في مسـائل التربيـة في المراحل المبكـرة من العمر ، والعمل على صيـاغة نظـرية عـربية تستبعـد القوالب الجاهـزة ، وتأخذ بعين الاعتبـار ثقـافتنـا وخصائص مجتمعنـا ، وتضع منجـزات البحث والعلم في خـدمـة الأمهـات والمربين بما يضمن توفير الشروط المنـاسبة لتنشئـة الطفل ، ورعـاية القـوى الواعـدة في وطننا العربي . وتجدر الإشارة إلى مسـؤولية المؤسسات الأكاديميـة في هذا المجال إذ تفتقر إلى برامج منهجية للبحوث العلميـة ، وإلى مراكز للمعلومات حيث تتم عملية تجميع وتنسيق المراجع والوثائق الضرورية للبحث .

كما يجب أن تأخذ المناهـج التربوية بعين الاعتبار كيف يمكن تهيئـة أطفال اليوم كي يكونوا أمهات وآباء المستقبل . فتـوسّع المعلومات المستقاة من البحث العلمي لا يعني تحول فن تربية الأطفال إلى علم ولا يعني تحديد صيغـة واحدة ، وجرعة سحرية

إجبارية، لتربية الصغار لتحل محل التعددية في طرائق التطبيق التربوي، وفي علاقة الأهل بأطفالهم؛ فتوسع المعارف لا يلغي فنية الفنان ولا التعبير العفوى المبدع لديه.



الباب الأول

الأصول السلوكية للأمومة

الفصل الأول

السلوك عبر التطور

تكيف السلوك عبر التطور:

إن السلوك الفطري الـذي يأخذ صيغة معينة عنـد جميع أفراد النوع يبـدو ثابتا في الوسط المعتـاد للعضوية، وبـالرغم من تميز هذا السلـوك بالثبات والاستقـرار، فهو عرضـة للتأثر العميق بشروط المحيط عنـدما تتغير بشكل جذري عما هـو معتاد. إن النمل مثـلا؛ الـذي يصنف جميع فصـائل النمل في صنفين: الأصـدقـاء والأعـداء يتعامل مع كل صنف منهما على نحو مختلف جدا، فيتوجب على النملة أن تتعلم من هو الصديق، ومن هـو العدو. إن تربية النمل، بطريقة تجريبيـة في وكر لصنف آخر (معادٍ) يـؤثر في تعلم النملـة فيما بعد إذ ينعكس الأمر فتعـامل النملة النـوع المعادي معاملة الأصدقاء، وتعامل أفراد النوع نفسه معاملة الأعداء؛ فالسلوك الفطري ليس وراثيـا، فـالوراثـة تعطي القـدرة الكـامنة التـي تسمح بتطور نظـام سلـوكي معين. ويختلف هذا النظام بطبيعته وبصيغته، حسب شروط المحيط الذي تطور ضمنه.

إن الأسس السلوكية كالأسس العضـوية لا يمكنها أن تسهم في بقاء النوع إلا إذا تطـورت ووضعت على المحك في محيط يوفـر حدودا معينـة تسمح بذلك. فأعضـاء الحوت تتمتع بفعاليـة عاليـة عند وجوده في المحيطـات، أما إذا نقل منهـا فهي تفقد معظم فعاليتها. كذلـك بالنسبة لنظام سلوكي ما، فقد يكـون مناسبا في محيط معين وقد يقـود إلى العقـم والموت في محيط آخر. فـالقرقب * لا يمكنـه التكاثـر في محيط لا يوفر له وجـود حفرةٍ يبني بها العش؛ فالأجهزة العضوية والسلوكيـة تفقد فعاليتها، وتكون غير مثمرة إذا طلب منها التعامل مع محيط لم يسبق لها التكيف معه.

---

* طير من الحوائم.

يعتبر مفهوم التكيف، من وجهة النظر البيولوجية، مفهوما أساسيا، وينطوي على صعوبة بالغة عندما يتعلق الأمر بالأنظمة السلوكية عند الحيوان، وتتضاعف هذه الصعوبة بالنسبة لسلوك الإنسان. لقد كان من المتعذر قبل النظرية الداروينية فهم كيف يمكن لبنية عضوية معينة عند الحيوان، أو عند الأعشاب، أن تتكيف بصورة فعالة؛ فالقدرة على التكيف لأية بنية بيولوجية أو فيزيولوجية أو سلوكية تكون نتيجة للانتخاب الطبيعي والذي أدى، في محيط معين إلى النجاح في التكاثر، وبالنتيجة إلى المحافظة على الأنواع الأكثر تلاؤما، وفي نفس الوقت أدى ذلك إلى اختفاء الأنواع الأقل تلاؤما، حيث أنها أقل حظاً في التكاثر من سابقتها.

إن تبني هذه النظرية ـ المتعلقة بالتطور العضوي والفيزيولوجي للحيوانات ـ يعود إلى وقت طويل. أما فيما يتعلق بتبني هذه النظرية في ميدان السلوك فيرجع إلى مرحلة قريبة إذ يعود الفضل في ذلك إلى الايتولوجيين *(Ethologists). إن هؤلاء حاولوا فهم دور الوسائل السلوكية في البقاء، وفي المحافظة على نوع ما، في محيطه الطبيعي المعتاد. هذا المنهج ساعد على فهم الجوانب الأساسية لسلوك الإنسان خاصة ما يسمى بالسلوك الفطري. إن بنية النظام السلوكي الفطري تسمح بالتوصل إلى نتيجة مفيدة للفرد؛ إلا أن هذه الفائدة ليست سوى فائدة مباشرة، فالفائدة النهائية تكون فائدة النوع فلو تعلق الأمر بمضغ الطعام، أو الحماية الذاتية، أو الاتحاد الجنسي، أو الدفاع عن الأرض، فالمحافظة على النوع تكون النتيجة النهائية لهذه الأنظمة السلوكية، إن الفرد يشكل عضوا في هذا النوع، والنظام البيولوجي الذي ينطبق عليه مفهوم التكيف ليس فردا وإنما وحدة اجتماعية (Population)(Bowlby, 1969)

السلوك الفطري والسلوك المكتسب:

إن التقدم الذي شهدته العقود الأخيرة في علوم الايتولوجيا (Ethology) وعلم النفس التجريبي وفيزيولوجيا الجملة العصبية قد ساهم في إعادة النظر في العلاقة بين الفطرة والاكتساب وفي تطور الحوار بين أنصار هذين المفهومين. ويتميز السلوك

* المختصون في دراسة السلوك عند الأنواع المختلفة بواسطة ملاحظة هذه الأنواع في وسطها الطبيعي المعتاد.

الذي يسمى عادة بالسلوك الفطري بالخصائص التالية :

١ ـ يتطابق السلوك الفطري مع نموذج متشابه لدى جميع أفراد النوع .

٢ ـ لا يعتبر هذا السلوك استجابة بسيطة لمؤثر بل يكون سلسلة من الأفعال ، تتبع طريقا خاصا يمكن توقعه .

٣ ـ يكون لهذا السلوك فائدة كبيرة حيث يسهم في المحافظة على بقاء الفرد وعلى استمرارية النوع .

٤ ـ يمكن للعضوية أن تظهر هذا السلوك بالرغم من غياب فرص التعلم أو ندرتها .

لقد اتسمت النقاشات التقليدية بالتعارض بين الخصائص الفطرية والخصائص المكتسبة ، إلا أننا ندرك الآن بأن مسألة التعارض بين السلوك الفطري وبين السلوك المكتسب مسألة غير واقعية ، حيث يصعب فهم الواحد بمعزل عن الآخر كما يصعب تصور المساحة بلا طول أو بلا عرض . إن الخصائص البيولوجية في جوانبها المختلفة ـ التشريحية أو الفيزيولوجية أو السلوكية ـ هي نتيجة للتفاعل بين المعطيات الوراثية وشروط المحيط . يجب إذن إعادة النظر في مفهوم الفطرة والاكتساب وإيجاد مصطلح جديد ليحل محلهما .

وتتميز الخصائص التي نُعتت بالفطرية بنوع من الاستقرار والثبات بينما تتميز الخصائص المكتسبة بالتغير والتأثر بشروط المحيط . فالسلوك «الغريزي» يتمتع بدرجة من الاستقرار في الوسط طالما أن هذا الوسط يبقى في الحدود التي يعيش ضمنها النوع . ويظهر هذا السلوك في صيغة متوقعة عند جميع أفراد النوع وهذا ما يسمى بخصائص النوع أو مميزاته .

وتعتبر البنية التشريحية والفيزيولوجية لدى الإنسان استمرارا لما هو عليه الحال عند الأنواع الأخرى . إلا أن الأمر مختلف بالنسبة للبنية السلوكية . فبالرغم من أن البنية السلوكية الأساسية للكائن البشري تتشابه مع نظريتها عند الثدييات العليا ، إلا

أنها تعرضت خـلال التطور إلى تغيرات خـاصة تسمح بـالوصـول إلى نفس الأهداف بطرق ووسائل أكثر تعددا. فالوجود الإنساني، في عـلاقته بالأنواع الأخرى، له تركة بيولوجية هامة، يعتبر فهم هذه التركة مقدمة ضرورية لفهم السلوك البشري.

ومن وجهة نظر الداروينية الجديدة (Neo - Darwinism) يجب على كل مخلوق أن يتكيف مع محيطه كي يتمكن مـن البقاء. ويتم هذا التكيف ليس فقط بـواسطة الأعضاء الجسدية البيولوجية، بل أيضا بواسطة السلوك (Wilson, 1975) من هنا نستطيع أن ندرك أن دراسـة السلوك أصبحت فرعـا من فروع البيولوجيـا وأن السلوك يدرس ويحلل ـ كالأعضـاء الجسدية ـ من حيث مركباته ووظـائفه في تكيف العضوية وقدرتها على البقا ء والاستمرار.

يـؤكد بعض البـاحثين على أهمية العـوامل الوراثيـة في تحديد السلـوك الاجتماعي (Lorenz, 1935) وهناك من يبالغ في دور هــذه العوامل (Wilson, 1975, Daw-kins, 1976) وهناك من يرى أن السـلوك الغريزي لا يمكن أن يكـون نتيجة للتعبير الجامـد للـوراثة. يظهـر هـذا السلـوك عند فـرد معين تحت التأثير المزدوج والمتـلازم للتجربة وللنضج البيولوجي الجسدي (Campan, 1980). إن هذا التصـور الأخير يظهر ديناميكية السلوك وتطوره التدريجي تحت التأثير المتبادل بين النضج والتجربة، مما يقـود إلى تغير فـردي في التكيف ليس فقط على صعيـد النمـو الحركي الفـاعل للعضوية بل أيضا في خصائص وميزات فعالية التعبير السلوكي.

السلوك البشري عبر التطور:

يتميز الإنسان عن غيره من الكائنات بقدرته على التغيير والتجديد في محيطه، إذ تمكّن من توسيع الأوسـاط التي تسمح له بالبقاء والعمل والتكـاثر، في شروط معقدة جدا. لقـد تمكن الإنسان أيضـا من التغيير الجذري في شروط المحيط بحيث اصطنع جملة من الأوساط الجديدة خصوصا خـلال عدة الآلاف سنة الماضية. لقد سمحت هـذه التغييرات بتضاعف سريع لسكـان المعمـورة. وعلى العكس من ذلك بالنسبـة للكائنـات الأخرى، فالمحيط عند معظم هـذه الكائنات يتميز بـالاستقرار النسبي، فهو لا يتغير إلاّ بشكل محدود، ويتم هـذا التغيير ببطء شديـد. فكل نوع يعيش في

وسط كبير التشابه مع ذلك الوسط الذي تطورت ضمنه الأنظمة السلوكية للنوع وعملت بشكل ملائم. فالمحيط الذي تعيش ضمنه الأنواع اليوم كبير التشابه ـ إن لم يكن متطابقا ـ مع نفس المحيط الذي شهد تطور كل نوع من هذه الأنواع.

إن التنوع الذي أحدثه الإنسان في محيطه ـ خاصة في مجال السكن ـ والتغير السريع الذي شهده هذا المحيط أدى إلى تجاوز مبدأ الانتخاب الطبيعي بدرجة كبيرة. إن ذلك حمل بولبي (Bowlby, 1969) على القول بأن محيط الإنسان المتمدن، أو نصف المتمدن، لا يتطابق مع المحيط الذي سمح لأنظمة السلوك الفطرية بالتطور والتكيف.

لقد عاش الإنسان في محيط شبه مستقر طيلة مليوني سنة، ومنذ عشرة آلاف سنة تقريبا بدأ المرحلة الزراعية التي ترافقت بتعديل كبير في المحيط ووصل إلى قمته في المرحلة الصناعية في العصر الحديث. إن هذا التعديل في المحيط البشري لا يمثل إذن أكثر من ٥ , ٠٪ من عمر الوجود الإنساني (Tobias, 1965).

إن الأنواع الأخرى تعدل في محيطها أيضا، فذلك ليس وقفا على الإنسان، فالحشرات والعصافير مثلا تبني أعشاشها. إلا أن ذلك يعتبر نتاجا للسلوك «الفطري» ويتم بصورة شبه آلية، مما يساعد على إقامة التوازن بين النوع والمحيط، على خلاف التغيرات التي يحدثها الإنسان في محيطه فهي ليست نتاج السلوك الفطري وإنما نتاج التقاليد الثقافية التي تنتقل من جيل إلى آخر. وتعاني التقاليد الثقافية من تسارع كبير في عصرنا الحالي، بسبب التقدم التكنولوجي الهائل، مما يؤدي إلى اختلال التوازن بين الإنسان ومحيطه. فالعلاقة بين الطرفين فقدت استقرارها في عصر الثورة الالكترونية.

إن فهم المحيط البدائي الذي عاش وتطور فيه الإنسان يمكّننا من فهم أفضل للسلوك الفطري. ومن هنا تبدو أهمية دراسة الأقوام التي لازالت تعيش في وسط مشابه للوسط البدائي للإنسان، وكذلك أهمية المكتشفات الأثرية التي يمكن أن تزودنا بالمعلومات المتعلقة بحياة الأولين.

العلاقة بين الأم والطفل :

تبين دراسة علاقة الترابط بين الأم والطفل، عند جماعات بشرية متنوعة، أن العائلة هي الوحدة الاجتماعية الأساسية عند البشر. لقد أشارت الدراسات المختلفة التي تناولت أقواما عديدة إلى أن النساء والصغار يترافقون دوما برجال بالغين، وإن لم يكن هؤلاء الرجال دائما آباء، بل من المقربين. لقد اعتبر (فوكس Fox, 1967) الأم وأطفالها ــ وربما أطفال أبنتها ـ القاعدة الاجتماعية الأساسية للجنس البشري. وتختلف هذه الأقوام بعضها عن بعض في علاقة الأب أو عدم علاقته بهذه الوحدة الأساسية. ففي بعض المجتمعات يرتبط الأب بهذه الوحدة بشكل دائم نسبيا، وفي مجتمعات أخرى يرتبط بعدة وحدات (تعدد الزوجات). بينما لا يرتبط الأب في مجتمعات أخرى لا من قريب ولا من بعيد بهذه الوحدة الاجتماعية؛ فذلك يتشابه إلى حد بعيد مع الأنواع القريبة من الإنسان.

إن مايميّز الأنواع الراقية ـ ومن ضمنها الإنسان ـ عن غيرها هو كونها تعيش في زمر اجتماعية مؤلفة من الجنسين، من أعمار متفاوتة، فمن النادر مصادفة الأنثى والأولاد بلا ذكر، ويندر كذلك وجود الذكور في حالة وحدة. وتبقى الزمرة الاجتماعية عادة ثابتة طيلة العام وإن تعرضت للتفرقة ـ من وقت إلى آخر ـ والتشكل من جديد. فمغادرة الفرد للزمرة لا يحدث إلاّ نادرا، وغالبا مايقضي حياته بالقرب من أفراد سبق أن اعتاد مرافقتهم.

تعيش الزمرة الاجتماعية في مساحة محدودة من الأرض، وتميل إلى البقاء والاستقرار ضمن حدودها. وغالبا ماتعيش الأنواع المختلفة في وسط متداخل مع أعداء متربصين بأفراد النوع، وهذا مايدفع إلى تبني نظام سلوكي يسهم في حماية النوع، إذ تنظم الزمرة الاجتماعية دفاعا ذاتيا، فيقوم الذكور البالغون بالتعاون لطرد العدو وعند تعرض أحد الأفراد للتهديد. بينما يبتعد الصغار والأناث عن منطقة الخطر. فالفرد الذي يتعرض للمفاجأة في حالة من العزلة عن الزمرة يمكن أن يكون فريسة سهلة. هكذا يكون التنظيم الاجتماعي عند الحيوانات الراقية، وكذلك عند الإنسان البدائي.

وتختلف الأنواع في درجة نضجها بعد الولادة، وبالتالي في درجة اعتمادها على البالغين؛ فالمولود البشري يقطع شوطا طويلا من النمو والتعلم قبل التمكن من البقاء دون مساعدة الكبار.

ويلاحظ عند العديد من الأنواع ميل عام عند الصغار للتعلق القوي مع بعض الكبار البالغين من أفراد نفس النوع. ويأخذ التعلق شكل الاقتراب المكاني بين المولود والكبير، ويؤدي الانفصال بين الطرفين إلى ظهور علامات الاضطراب والخوف عند الصغير. ويعتبر إرضاع الصغير واحدة من الوظائف المتعددة التي تقوم بها الأم للمحافظة على حياته. ويأخذ سلوك التعلق بين الأم المرضعة وطفلها قيمة هامة في المحافظة على بقاء النوع أثناء عملية الانتخاب الطبيعي.

سلوك التعلق

يعرّف سلوك التعلق(Attachment Behaviour) بأنه كل صيغة من السلوك المؤدي إلى التقارب بين الأم والصغير. إن الطبيعة تزودنا بأمثلة محسوسة، فملاحظة مختلف الأنواع تؤكد وجود الصغار حول الأم عند الطيور والخيل والبقر والمواشي، وكذلك عند البشر، يتميز سلوك التعلق بالتقارب بين الأم والصغار وإعادة التقارب في حال اختلاله.

ومن الملاحظ أن الأم تتعرف على صغارها دون غيرهم، وكذلك الصغار سرعان مايتعرّفون على الأم ويتبعونها دون غيرها من الكبار. والشذوذ عن ذلك يعتبر نادرا وحالة غير طبيعية. إن السلوك الأهلي المقابل لسلوك التعلق هو سلوك العناية والاهتمام بالصغار ورعايتهم.

التعلق عند الحيوانات الدنيا:

إن الاستجابة المباشرة بين الأم والمولود الجديد تعتمد على برمجة غريزية حيث تحدد

هذه البرمجة الاستجابة المباشرة والسريعة بين الأم والمولود لدى الحيوانات الدنيا. فآلية (ميكانيزم) التعلّق السريع عند العصافير تعتبر مثلا واضحا على تنوع العلاقة بين الأهل والطفل وتعقدها، وكذلك عند الثدييات يبدأ التعلق أيضا مباشرة بعد الولادة، فالصغير يتعرف على أمه ويبقى إلى جانبها دون غيرها، والأم بدورها ترعى وتغذي وتحمي وليدها دون غيره. وبنفس الوقت فالخصائص التي تجذب الأم نحو طفلها ليست بالضرورة نفس الخصائص التي تجذب الطفل نحو أمه. ولكن يبدو أن الطرفين يملكان نظاما سلوكيا فطريا فعالا ومتلازما.

التعلق عند العصافير ومفهوم الانطباع أو السمات المؤثرة (Imprinting):

إن الصيغة التي يأخذها نظام سلوكي معين عند الكبار، لدى العديد من الأنواع، تعتمد إلى حد كبير على الوسط الذي تكبر فيه. فدرجة التأثر بالمحيط تختلف نسبيا من مرحلة إلى أخرى خلال مراحل النمو اذ يمكن لنظام سلوكي ما أن يكون شديد التأثر بالمحيط في مرحلة ما، وبعدها تتوقف قابليته للتأثر. ويمكن لمجموعة من المؤثرات أن توقظ نظاما سلوكيا معينا إذا تعرضت لها العضوية في مرحلة محددة من مراحل النمو، في حين تفقد هذه المؤثرات أهميتها في مرحلة أخرى، وربما بشكل نهائي.

يقترب الصغار من الأم بتأثير المؤثرات الصادرة عنها. فالمؤثرات المألوفة تحمل الصغار على الاقتراب، بينما تؤدي المؤثرات الغريبة على السلوك إلى الابتعاد والتجنب عندهم. ويمكن الإشارة في هذا الصددإلى سلوك اتباع الأم عند فراخ البطل والأوز؛ فخلال الساعات الأولى، بعد مغادرة البيضة، يتبع الفراخ أول شيء يتحرك يمكنهم إبصاره، بغضّ النظر عن طبيعة هذا الشيء، ثم يتبعون هذا الشيء بذاته ويتجنبون أي شيء آخر. فهذا التعلم السريع باتباع ماهو مألوف يسمى الانطباع (im-printing) أو السمات المؤثرة (Loreng, 1935). يتميز الانطباع بحدوثه فقط في مرحلة قصيرة من مراحل النمو، وفي حال حدوثه يصبح من غير الممكن الغاؤه وهو يتجاوز فردا بعينه ليشمل جميع أفراد النوع، ويسهم الانطباع بايقاظ وتنشيط مجموعة سلوكية لم يسبق ظهورها عند العضوية.

وتبين التجربـة أن تنشئة عصفور صغير في وسط محايـد وبحالة عزلـه، تؤدي إلى تعذر حدوث الانطباع، إلا أن القابلية لحدوث الانطباع تستمر، حيث يمكن تمديد المرحلة الحساسة للانطباع، ولكن ليس إلى مالا نهاية. وتنتهي عادة المرحلة الحساسة بحدوث الانطباع.

لقد تعدل مفهوم الانطباع بعض الشيء، فهو يتشابه في سياقه مع بعض حالات التعلم ويستخـدم مفهـوم الانطباع حـاليـا ليعني السياق المؤثـر في سلـوك التعلق، والذي يجعل هذا السلوك عند صغار الطيـور وصغار الثدييات يتوجه بشكل مفضل ومستقر نحو فرد أو عدة أفراد.

يعـرف بـاتسـون (Batson, 1966) الانطبـاع بأنـه السياق الـذي يحدد عملية التفضيل الاجتماعيـة لتشمل فقط مجمـوعـة معينـة، دون غيرهـا، مـن الأفـراد أو الأشياء.

ويمكن استخدام مفهـوم الانطباع عند مناقشـة التعلق عند الطفل البشري، إلا أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار المسافة التي تفصل مختلف الأنواع في سلم التطور؛ فمن المهم معرفة فيما إذا كـان السياق الذي تأخذه ظاهرة الانطباع هـو نفسه لدى مختلف الأنواع، أو يختلف من نوع إلى آخـر. لقد أشار (هاينـد) إلى أن خطَّي التطور اللذين أديـا إلى الطيور من جهـة، وإلى الثـدييـات من جهة أخـرى، قـد افترقـا في مرحلـة الزواحف الاولى في وقت لم يظهر فيه بعد سلوك التعلق. فكل فرع في مملكة الحيوانات طـوّر سلوك التعلق بشكل مستقل عن الفـرع الآخـر. إن التشابـه في أشكال سلـوك التعلق لـدى أنواع مختلفة ليـس سوى نتيجة لتطـور متقارب، وهـذا يمكن أن يخفي الكثير من الاختـلاف في السيـاق الـذي أدى إلى هـذا السلـوك. إن معـالجة سلـوك الانطباع، وأثـره في التعلق عند العصافير يأخـذ أهمية خـاصة، لأنه أدى حـديثا إلى خلخلة نظرية التعلق التقليدية المستندة إلى الفرويدية والتحليل النفسي. فمن وجهة نظر فرويد، يعتبر التعلق دافعـا ثانويا ينمو ويتطور على هـامش الدوافع الأساسية. بينما يرى بولبي (Bowlby) إن دافع التعلق هو دافع أساسي كدوافع الجوع والعطش

والجنس. فعلاقة الصغير بالكبير (الأم) هي ضرورية للنمو الطبيعي، كضرورة الغذاء. فملاحظات لورنس (Lorenz) أكدت بأن دافع التعلق مستقل عن الدوافع الأخرى، حيث يمكن ملاحظة سلوك التعلق عند صغار الأوز والبط دون أن تتلقى أي غذاء أو أي معزز آخر من قبل الأم. فبعد بضع ساعات من مغادرة البيوض، يمكن ملاحظة ميل قوي عند صغار البط والأوز لاتباع أي شيء يتحرك في مجالهم البصري سواء الأم، أو رجل، أو كرة متحركة.. وبعد اتباعهم شيئا محددا يلاحظ تفضيلهم لهذا الشيء بالمقارنة مع الأشياء الأخرى. وبعد مدة من الزمن لا يتبعون إلاّ هذا الشيء بعينه، وبذلك يكون قد حدث الانطباع، ويصبح من الصعب بل من المستحيل إلغاؤه أو تغيير موضوعه.

بعد التحقق من مكتشفات لورنس كان من الطبيعي امتحان سلوك التعلق لمعرفة فيما إذا كان هذا السلوك يتطور على نحو متشابه عند الثدييات وعند الإنسان، تجاهل لورنس ـ في باديء الأمر ـ إمكانية حدوث الانطباع عند الثدييات، إلا أن ذلك تغير مع مرور الزمن حيث أصبح مفهوم الانطباع أكثر شمولا. إضافة إلى ذلك أوضحت الملاحظات التجريبية أن هناك تشابها كبيرا في تطور الانطباع بين الثدييات والطيور.

التعلق عند الفئران ودور العوامل الكيميائية:

تلعب الرائحة دورا هاما في سلوك الاتصال عند الكثير من الثدييات الدنيا، خاصة في الروابط التي تقوم بين الأم وصغارها. فالمادة ذات الرائحة الخاصة الصادرة عن حيوان ما والتي تؤثر في سلوك حيوان آخر تسمى فيرومون (Pheromone). لقد تأكدت وظيفة الفيرومون لدى دراسة الأم والصغار عند الفئران. فعندما يفصل الصغار عن الأم، حيث توضع هذه الأخيرة في علبة مخبأة بالقرب من علبة مجاورة تضم فأرة محايدة، يمكن للصغار العثور على الأم في حال مرور تيار هوائي قادم نحوهم من جهة الأم. ويتعذر ذلك إذا كان التيار في الاتجاه المعاكس لأن الهواء يحمل المركب الكيميائي (الفيرومون) الذي ينقل رائحة الأم.

ولقد طرح الباحثون العديد من الأسئلة لتفسير هذه الظاهرة، فهل يكون الصغير مجذوبا برائحة الأم؟ كانت الإجابة على هذا السؤال بالنفي حيث تمكن بعض الباحثين (Leon, et al. 1977) من اكتشاف مفرزات السيكوتروف (Cecotrophe) التي تتميز، برائحة خاصة عند الفأرة الأم، وهذه الرائحة هي التي تجذب الصغار. يتصاعد إفراز هذا الفيرومون عند الأم تدريجيا بعد الولادة حتى يصل إلى مداه الأقصى في اليوم السادس عشر بعد الولادة. لقد أوضح ليون أن جاذبية الأم تتناسب طرديا مع تزايد هذه المفرزات ومن الممكن جذب صغار الفأر إلى علبة مخفية بعيدة تحوي هذه المفرزات، في حال وجود تيار هوائي ينقل رائحتها باتجاه الصغار، وذلك بالرغم من غياب الأم.

إن حساسية الصغار لهذا الفيرومون ليست ثابتة، فهي تبدي القليل من التأثر برائحة الفيرومون في عمر أقل من عشرة أيام، وقد أوضح ليون أن هذه الحساسية تصل إلى قمتها في عمر ستة عشر يوما، فالتغير في جاذبية الأم وفي حساسية الصغير تجاه هذه الجاذبية يتزامن مع قدرة الصغير على الحركة والتنقل خارج الوكر. إن عمر الستة عشر يوما هو العمر الذي يقترب من الفطام، فقبل عمر عشرة الأيام يبقى الصغير داخل الوكر، وبعدها يبدأ بالخروج بحثا عن الغذاء ويعود إلى الوكر بالاستناد إلى رائحة الفيرومون الصادرة عن الأم. وتبدأ استجابة صغير الفأر للفيرومون بالتناقص عندما يتمكن من العثور على الغذاء بمفرده دون الاعتماد على الأم (المرجع السابق).

لقد أوضح هذا الباحث في سلسلة من التجارب (Leon, 1983) أن صغير الفأر يتجه إلى الوكر بالاستناد إلى رائحة الفيرومون (سيكوتروف)، بغض النظر عن كونها صادرة عن الأم الطبيعية أو عن أم أخرى. فالسؤال الذي يطرح الآن هو: كيف يمكن للصغير التعرف على وكره في حال وجود عدة أوكار متقاربة؟ وتكون الإجابة على هذا السؤال على النحو التالي:

١ ـ لا تبني الفئران أوكارها بشكل متقارب في الشروط الطبيعية.

٢ ـ في حال عودة الصغير إلى وكـر آخر فالامر لا يشكل خطورة بـالنسبة له، لأنه لا توجد عند هذا النوع علاقـة انتخابية محدودة بين الأم والصغار، فالأم تتقبل صغار فأره أخـرى والصغار بدورهـم يتمكنون من الـرضاعة مـن عدة أمهات. فـالتعلق بـالمعنى الدقيق لا ينطبـق على هذه العـلاقـة التي تقوم على جـاذبيـة متبادلـة بين الامهـات والصغار وتتـزامن هذه العـلاقة مع نمـو الصغار، إذ ينخفض سلـوك الأمومة، واهتمام الأم بالصغار، عندما يتمكن هؤلاء من الاعتماد على أنفسهم.

ويـؤدي فصل الأم عن الصغار إلى تـوقف اهتمامها بهم وبعـد إعادة الصغـار لها تستمر باللامبالاة وبعدم الاهتمام. فهي لا ترضعهم نفس المدة المعتادة. إلا أن تزويد الأم بالمزيد مـن الصغار حديثي الولادة من غير صغـارها يؤدي إلى إطالـة أمد سلوك الأمومة، فإحضار الصغار يثير سلوك الأمومة عندها، حيث تؤثر خصائص الصغير تأثيرا هامـا في استمرار عنايـة الأم طالما أن هـؤلاء الصغار بحاجـة إلى ذلك. لا يتأثر سلوك الأمومة عند الفئران فقط بالمؤثرات الحسية ـ كالبصر والسمع واللمس والشم ـ وإنما يخضع لعـوامل هــرمـونيـة وعصبيـة، فــالتغير في السلـوك يترافق بتغيرات في النشاطات الغدديـة وتعتبر هذه النشاطات من أهم العوامل البيولـوجية التي تتزامن مع الحمل والـولادة. لقد بينت تجارب عـديدة أن حقن الحيـوان بهرمون الاستروجين (Estrogen) يدفعه إلى إظهار سلوك الأمومة، ويمكن منع هذا السلوك في حال حقنه بهرمــون البروجييستيرون (Progeseprone). لقـد اعتمدت دراسـة تأثير الجهـاز العصبي في سلوك الأمـومة على تعطيل بعض المناطق العصبيـة في الدماغ ومـلاحظة تأثير ذلك في سلوك الأمـومة؛ إلا أن هذه الطـريقة تصطدم بصعـوبة كبيرة تكمن في معـرفة تحديـد الجزء الـذي تم تعطيله في الـدمـاغ، والذي أدى إلى التأثير في سلـوك الأمـومة، لأن تعطيل جـزء ما من الـدماغ يـؤدي إلى التأثير في أجزاء أخـرى، وذلك بقطع الواصلات التي قـد تمر من الجزء المعطل أو بالقرب منه. إن استئصـال جزء ما من الدماغ قد لا يؤدي فقط إلى اضطـراب سلوك ما بعينه، بل إلى اضطراب السلوك بمجمله.

نخلص من هذه الملاحظـات إلى إدراك مدى صعوبة دراسة التأثير البيـولوجي ـ العصبي في سلوك الأمـومة. وبالرغم من الـدراسات الوصفية للتأثير البيـولوجي في

سلوك الأمومـة لأنواع متعددة، إلا أن هناك فـروقا هامة لـوحظت بين هذه الأنواع، فما يصلح لنـوع مـا قـد لا يصلح لنـوع آخـر حيث تظهـر الأنـواع المختلفـة فـروقـا فيزيـولوجية وسلـوكية هامـة. فتاريخ كل نوع من هـذه الأنواع قد يكـون على صلة بالميكانيزم التي تحكم الفروق الملاحظة بين هـذه الأنواع. وإن معرفة هذه الفروق على درجة كبيرة من الأهمية في دراسة تطور سلوك الأمومة.

التعلق عند الثدييات العليا :

إن دور الفيرومون غير معروف بشكل جيد عند الحيـوانات العليا إذ يتجه البحث لإيضاح دور الإفـرازات الهرمونية في إقـامة التعلق بين الأم والصغير. فلحس الصغير من قبل الأم بعد الولادة يسهل سلوك العنـاية به ويسهل الإدرار عند الغنم والكلاب وأنواع أخرى؛ كذلك يجعل تعرف الأم على صغيرها ممكنا. وكذلك يساعد لحس الأم الصغير في إيجاد حلمة الثدي والبـدء بالرضاعة بعـد الولادة. فإذا منعت النعجة من لحس وليدهـا فلن يتمكن من البدء بـالرضـاعة بعـد الولادة بنفس السرعـة المعتادة. وتعتبر الحرارة الجسدية ضرورية لحياة الصغار، حيث لا تتمكن صغار معظم الأنواع من المحـافظة على درجـة الحرارة الجسـدية دون احتضـانها من قبل الأم بشكل دوري ومنتظم ويكون ذلك عامل جذب متبادل بين الأم والصغير.

تشير تجارب كلـوبفـر (Klopfer, 1971) إلى أن فردية العلاقـة بين مولود الماعز والأم تتحدد في الدقـائق الخمس الأولى بعد الولادة. فالإبقـاء على الجدي إلى جانب الأم لمدة خمس دقائق بعد الولادة، ثم فصله عنها لمدة ساعة، لا يؤثر في تقبل الأم لهذا الجدي بعينه بعد عودته فهي تقبله بينما ترفض أي جدي آخر.

وفي حال فصل المولـود مباشرة بعد الولادة، ثـم إعادته إلى الأم بعد سـاعة، فهي سترفضه كأي جـدي غريب آخـر. فمن الواضح أن الأم شـديدة الحسـاسية لإقـامة روابط التعلق مع الصغير خلال فترة قصيرة بعد الـولادة، وبعدها ترفض أي صغير. يعـزو كلوبفـر ذلك إلى أن وجـود الصغير بالقـرب من الأم يـؤدي إلى إفـراز هرمـون الاكسيتوسين (oxytocine) ويحدث هذا الإفراز في الدقائق الخمس الأولى التي تلي الولادة.

وتحتل الإصدارات الصوتية مكانا بارزا في الاتصال والتجاذب بين الأم والصغير. فصغير القرد يصدر بكاء مميزا عند فصله عن الأم التي تعود إليه لدى سماعها هذه الأصوات. ولكن الأم لا تصدر هي نفسها صوتا خاصا في هذا السياق. إلا أنه من المحتمل أن يكون لحاسّة اللمس والاحتكاك الجسدي الدور الأساسي في تطور العلاقة بين الأم وصغارها عند القردة. فالملامسة الجسدية، والتفلية، والتنظيف، والتقبيل يتكرر حدوثها بشكل ملوحظ عند القردة. وتتفاعل جميع الحواس، وتؤثر في تحديد سلوك التعلق. إن سلوك التعلق عند القردة ـ كغيرها من الأنواع العليا ـ يعتمد على العوامل الفطرية وعلى عوامل التجربة، إذ تتفاعل هذه العوامل مجتمعة لتسهم في صياغة هذا السلوك وتطوره.

إن المعطيات التجريبية المتعلقة ببعض الأنواع (الخراف ـ والكلاب والقردة) تبين أن سلوك التعلق عند صغار هذه الأنواع يمكن أن ينمو ويتطور تجاه كائن ما بمعزل عن أي حاجة أخرى، أي دون أن يقوم هذا الكائن بتقديم أي مشجع إلى الصغير كالغذاء أو الحرارة أو الجنس.

لقد أوضحت تجارب شيبلي (Shipley, 1963) إن عزل خنزير الهند بعد أربع ساعات من الولادة يؤدي إلى استجابته ومتابعته لشكل خشبي متحرك، فاستجابته لا تتضمن فقط الاقتراب، بل أيضا جملة من الأفعال ذات الصبغة الاجتماعية كالاستنشاق والملامسة واللحس. كما بينت تجارب أخرى بأن الخروف الذي ينشأ على صلة بصرية سمعية وشمية مع كلب لعدة أسابيع، يسلك هذا الخروف تجاه الكلب سلوكا مماثلا لسلوك الخراف تجاه الأم. فيطلق صياحات الثغاء باحثا عن الكلب في حال انفصالها، ويتبعه في كل مكان في حال لقائهما.

لقد عززت تجارب هارلو على القردة الاتجاه المعارض للنظرية التقليدية التي تعتبر التعلق ميلا ثانويا.

أخذ هارلو صغار القردة منذ الولادة، ووضعهم بالقرب من تماثيل للأم مصنوعة من الخيوط المعدنية أو مغطاة بقماش ناعم الملمس. ويمكن تغذية الصغار بواسطة زجاجة ذات ثدي مخبأ في التمثال.

لقد بينت هذه التجـارب تأثير الغذاء من جهة وتأثير الملامسـة من جهة أخرى، في سلوك التعلق عنـد الصغار. فـالغذاء ــ على عكس الملامسة ــ لا يؤثـر في سلوك التعلق. وتؤثـر الملامسة في التنشيط العاطفي تجاه الموضـوع الذي يحل محل الأم، بينما لا يبدو ذلك نحـو الموضوع المزود بالرضـاعة. تأكدت هذه النتيجـة في تجارب أخرى لنفس المؤلف، فصغير القرد الـذي تربى مع أم بـديلة مصنوعـة من القماش الناعم يهرع باحثا عن هذه الأم، مباشرة عندما يتعرض للخطر، للتثبت بها بالرغم من كونها غير مزودة برضاعة اصطناعية. إن الصغير يسلك على نحو مشابه للحالة الطبيعية، فيجـد الأمن بالقـرب من هذه «الأم» ويهدأ روعـه، ويبـدأ بتفحص ما أثـار فزعـه. ويختلف سلوك الصغير الذي ربى بالقرب من أم بديلـة مصنوعة من الخيوط المعدنية ومزودة بـرضاعـة. فهو لا يبحث عن «الأم المرضعـة» عند تعـرضه للخطـر، وتستمر مظاهر هلعه، ولا يتفحص الشيء الذي أثار هذا الهلع.

وفي تجربة أخـرى وضع صغار القرد، حيث يوجـد العديد من الألعاب في غـرفة مجهولة؛ لقد اختلف سلوك هؤلاء عند حضـور هذه الأم القماشية البديلة عنه في حالة غيـابها؛ ففي حضور الأم ــ القماشيـة النـاعمة الملمس ــ يقـوم الصغـار باكتشـاف الوسـط، وتفحص الألعاب ثم العـودة نحو هـذه الأم من حين إلى آخر. وفي حـالة غيابها يركضون في كل الاتجاهات داخل الغرفـة ويبدون نماذج سلوكية جامدة كوضع الرأس بين اليديـن، والصاق الوجه في الأرض والصراخ. إن إحضـار الأم المعدنية لا يحقق الأمن لهؤلاء الصغـار ولا يغير من مظـاهــر السلـوك الغـريبـة عنـدهم، حتى بالنسبة للصغار الذين لم يسبق لهم التعـرف إلا على هذه الأم المعدنية المرضعة» فذلك لا يغير من مظاهر خوفهم وذعرهم شيئا ولا يبدون نحـوها أية مظاهر عاطفية (Har-low, 1961). لقد ألح هذا البـاحث عـلى تأثير سلـوك الملامسة الجسـديـة في تعلق الطفل بالأم بصورة مستقلة عن الرضاعة.

الاستقرار في سلوك التعلق

وماذا عن استمرار سلوك التعلق؟ إن ذلك يختلف من نوع إلى آخر، وبصفة عامة

يمكن أن يستمر إلى ما قبل سن البلوغ، ويتـوقف سلوك التعلق في نهاية السنة الأولى عند معظم أنواع الطيور؛ ولا توجد فروق بين الجنسين في ذلك، على خلاف الثدييات حيث يتميـز الجنسان بفـرق أسـاسي في سلوك التعلق؛ فـالتعلق بـالأم عند الانـاث يستمر حتى الهرم كما هو الحال عند الغنم مثلا فالأناث تبقى قريبة من الأم التي تبقى بدورها قريبة من الجدة بينما تبتعد الذكور في مشارف مرحلة البلوغ عن الأم، ويتبعون غالبا ذكورا أكبر سنا.

إن سلـوك التعلق يستمـر بقـوة عنـد القـردة في الأشهـر الأولى من الحيـاة وأثنـاء الطفولة، ويستمر عند بعض الأنواع في مراحل متأخرة بعد البلوغ (Sade, Goodall, 1965).

إن حالة عدم النضج الجسدي عند الطفل البشري بعد الولادة وتباطؤ نموه يفسر تأخر ظهور سلوك التعلق عنده بالمقارنة مع الأنواع الأخرى.

ويـرى «بـولبي» أن روابط الطفل بـالأم هي الصيغـة الإنسـانيـة لسلـوك التعلق الملاحظ عند الأنواع الأخرى، وهو يعالج طبيعة هذه الروابط في هذا السياق التطوري إلا أنـه يؤكـد أن المقـارنة بين الأنـواع يجب أن تؤخـذ على درجـة من الحذر، خاصـة مايتعلق بسلـوك الطيور، فمن المعروف أن خطـيَ التطور اللذين أديّـا إلى الطيور والى الثدييات . . سبق أن تميّزا منذ مرحلـة الزواحف الأولى، مما يعني أن سلوك التعلق قد تطور بصورة مستقلة عند الثدييات بالمقارنة مع الطيور.

بينما يؤكد «بولبي» أهمية دراسة سلوك الثدييات العليا في القاء الضوء على السلوك الإنساني.

إن جميع صغـار الثدييـات تتشبث بـالأم بعد الـولادة (باستثنـاء الطفل البشري) وتستمر العلاقة الجسدية المبـاشرة (الملامسة) طيلة الطفولة الأولى، ولا يبتعد الصغير عن الأم إلاّ مسافة محدودة لا تتجاوز عدة أمتار.

وبالمقـابل تعمل الأم بدورهـا على إبقاء الصغير بالقـرب منها. ومع تقـدم العمر تنخفض نسبة الملامسة الجسدية بين الأم والصغير، إلاّ أنه ينام إلى جانبها ليلا. ويبدأ

الصغير بالابتعاد عن الأم أكثر فأكثر أثناء رحلاته، ولكنه سرعان مايهرع نحوها مع أية علامة خطر.

إن صغير القردة من نوع (Singe Rhesus) يبقى خلال الأسابيع الأولى على صلة جسدية شبه دائمة مع الأم، وتحتل هذه الصلة نسبة عالية، ثم تنخفض إلى ١٠٪ أو ٢٠٪ خلال السنة الثانية. إلا أن الصغير يبقى تحت مراقبة الأم. وعندما تنتقل الأم يتعلق الصغير في بطنها، فيتشبث بيديه ورجليه وبفمه ماسكا حلمة الثدي.

ويبدأ الصغير باتباع الأم عندما يستطيع السير وحيدا وذلك بتشجيع منها. وإذا ما أضاعت الأم صغيرها فهي تطلق نداء قصيرا باحثة عنه. وإذا حدث العكس وأضاع الصغير أمه فإنه يطلق نداء طويلا مقدما شفتيه إلى الأمام مما يدفع أنثى أخرى لحملة في حالة عدم العثور على الأم. وفي حالة اضطراب مافي وضع الزمرة سرعان مايتجه الصغير والأم الواحد منهما نحو الآخر. ويتشبث الطفل ببطن الأم ماسكا الثدي بفمه، ويستمر هذا السلوك عدة سنوات. وكما هي الحال عند هذا النوع يبقى صغير القردة (من نوع: Baboon) متعلقا ببطن الأم كما هي الحال عند النوع السابق خلال الأشهر الأولى. ثم يبدأ تدريجيا بالابتعاد لاستطلاع المحيط منذ الشهر الرابع من عمره. وبعد الشهر السادس يبدأ اللعب الاجتماعي مع الأقران، وهذا ما يستهلك معظم وقته وطاقته، إلا أنه حتى إتمامه السنة الأولى يبقى بالقرب من الأم ويتبعها على قدميه وينام معها.

وفي السنة الثانية يبقى الصغير مع أترابه وتتسم علاقته بالأم بالتأزم، حيث يتوقف الحليب ويعود الحيض، وتبدأ الأم بالتزاوج من جديد. ففي هذه المرحلة تبدأ بدفع الصغير وبمنعه من الأخذ بالثدي أو من الصعود على ظهرها وترفضه حتى أثناء الليل. إلا أنه بالرغم من هذا الرفض يلاحظ أن الأم والطفل يتجه أحدهما نحو الآخر في حالة الخطر، وتحاول الأم حماية الصغير إذا تعرض لإزعاج الأتراب أو الكبار، ثم تتوقف العلاقة بين الطرفين حيث تكون الأم قد وضعت صغيرا جديدا. وعندها يهرع الصغير نحو الذكور الكبار عند تعرضه للخطر حيث يتولون حمايته اذ تكون الأم مسؤولة عن الأصغر.

يبقى الشمبانـزي ـ كغيره من القدميّات بالقـرب من أمه طيلة الطفـولة الأولى؛ ويعتقد كودال (Goodall, 1965) أن العلاقات بين الأم وصغيرها يمكن أن تستمر طويلا حتى أثناء البلوغ.

وتشكل هذه العلاقـات الحلقة الأساسية في زمرة مـؤلفة من أنثى وصغيرها وطفل آخر أكبر سنا ومراهقا وشابا يقترب من البلوغ.

أما عند الغور يلا فيتعذر على الصغير التشبث بـالأم فتقوم هي باسناده بذراعيها حتى عمر ثلاثة أشهـر حيث يتمكن الصغير من ذلك. وحتى سن ستة أشهر يبقى الصغير بـالقـرب من الأم فهي تشجعـه على ذلـك، ولا تسمح لـه بـالابتعـاد وتبقى تحركـات الصغير ضمن إطار المجمـوعـة حتى عمـر السنة، ولا يبتعـد كثيرا عن الأم وأثناء الراحة يبـدأ بالجلوس بالقرب منها بـدلا من الجلوس على ركبتيها، وترفض الأم نقل الصغير بعد أن يبلغ عمر ثمانية عشر شهرا، ولا تسمح لـه بالصعود على ظهرها إلا في حالات الخطر.

العلاقات بين الصغار والكبار في عالم القردة:

يقضي الصغير خلال مرحلـة الطفولة المبكرة معظم الوقت مع الأم وتنـدر مرافقته للكبـار من دونها؛ وعندمـا يبتعد عن الأم يكـون غـالبا مشغـولا باللعب مع صغـار آخرين. إلا أنـه يلاحظ أحيانـا أن أنثى بالغـة تلعب دور «الأم» مع صغير أم أخرى وتنجح أحيـانـا بالاحتفـاظ بـه وتبنيـه، وفي غـالبية الأنـواع لا تحب الأمهـات ذلك وتستعيد صغارها بسرعـة. لقد لاحظ شالر (Schaller,). روابط قـوية بين صغيري غوريـلا وأنثى بالغة غير الأم وبقـاءهما معظم الوقت معهـا، وإن رجعا من وقت إلى آخر لمشاهدة الأم فمعظم أوقاتهما يقضيانها بصحبة الأنثى الأخرى.

ويهتم الذكور البالغون عند معظم أنواع القردة بالأمهات اللواتي يمتلكن صغارا، ويتسامـح هؤلاء معهن بـالجلوس بـالقرب منهم، وغـالبا ما يتبـع الذكـور الأمهات لاسنادهم وتأمين حمايتهم. إلا أن الذكر لا يحمل الصغير إلا في حالات نادرة.

وفي العديد من الأنواع ومع تقدم الصغير بالعمـر يبّدأ بمرافقة الذكور البالغين، وإن اختلف هذا العمـر من نوع إلى آخر. فيبـدأ صغير القرد اعتبارا من السنة الثـانية باللجوء إلى الـذكر البالغ بدلا من الأم عند تعـرضه إلى حالة خطر، وصغـار الغوريلا يجذبهم الذكر المسيطر، ويجلسون ويلعبون بالقرب منه أثناء الراحة، وأحيانا يتسلقون عليه، ويطلبـون منه أن يحملهم وهـو يبدي التسامـح تجاههم حين لا يكون اللعب شديد الاضطراب.

إن هذه العلاقات الودّية بين الصغار والكبار يتعذر ملاحظتها عند الشمبانزي، فيجب انتظار المراهقة ليبدأ الشمبانزي بمرافقة الذكور الكبار.

وبالنظـر لاختـلاط التـزاوج عنـد جميع هذه الأنواع فيصعـب تحـديد الأب مـن بين الذكور.

دور الأم ودور الصغير في التعلق

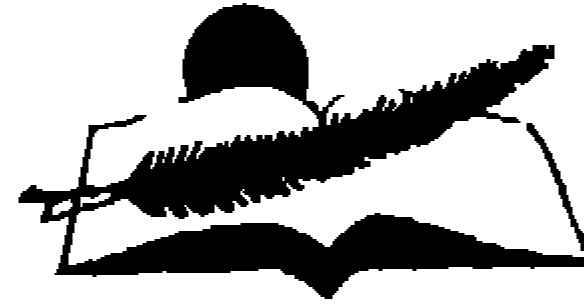
تلعب الأم عند الثدييات دورا بارزا في العـلاقة التي تربطها بالطفل، فهي تحافظ على بقـاء الصغير بـالقرب منهـا، إذ تسـانـده كي يتشبث بها إذا لم يتمكن من ذلك بمفرده، وتقوم بجلبه إلى جوارها إذا ابتعد عنها.

إن صغير القردة (مـن نوع : Rhesus) يتعلم التعلق بأم معينة خـلال الأسابيع الأولى بعد الـولادة (Harlow and Harlow, 1965) . فهو يفضل التـوجه نحو الأم دون غيرهـا من القرود، وذلك في الأيـام الأولى التي تلي الـولادة، وتؤكـد العديـد من الملاحظات أن صغير القـردة يمكن أن يتعلق بمن يقـوم بالعنـاية به مـن المجربين أو الباحثين. وعند شعوره بالخطر ينطلق الصغير متوجها نحو الأم ويتشبث بها.

إن مـلاحظة هـذا السلـوك عند الصغـار دون استثنـاء يمكن أن يوضح أسبـاب سلوك التعلق ووظائفه.

وتبدأ المدة التي يقضيهـا الصغير مع الأم بالانخفـاض شيئا فشيئا مع تقـدمه في

العمر، بينما ترتفع المدة التي يقضيها مع أترابـه ثم مع البالغين الآخرين ، وعند بعض الأنواع تقوم الأم بـدفع الصغير وردعه عن البقاء بقربها مدة طويلـة عندما يقترب من عمر السنة . إنـه من المؤكد أن سلوك التعلق يبدأ بالانخفـاض مع التقدم في العمر، انخفاض في تكرار هذا السلوك وانخفاض في حدته .



الفصل الثاني

سلوك التعلق عند الإنسان

التعلق المبكر

يقر معظم المشتغلين بعلم النفس بأن علاقات الطفل الأولى تكـون بمثابة حجر الـزاوية في تكـون شخصيتـه، إلا أن الاختـلاف يتركـز غـالبـا حـول أصـول هـذه العلاقات. . فمن الواضح أن الطفل خلال السنـة الأولى يقيم علاقة قوية مع الأم. وتلك حقيقة ثابتة تنطبق على معظم الأطفـال. إلا أن الجدال يدور حول طبيعة هذه العلاقة وسياق توثيقها وسرعة إقامتها ومدتها ووظيفتها.

إن النظريات التي سيطرت على علم النفس تأثـرت إلى حد بعيد بنظرية التحليل النفسي وبأفكار «فرويد» ويلخصها «بولبي» بأربعة اتجاهات:

١ ـ فالاتجاه الأول يقول إن حـاجات الطفل الفيزيولوجية وخاصـة حاجة الغذاء والحرارة تتطلب من يرضيها. فالطفل يتعلق بوجه مـا (الأم) لأنه يرضي حاجاته. إن الطفل يتعلم أن الأم مصـدر منح وعطاء. فـالأم من وجهة النظـر هذه هي مـوضوع للتغـذية وإرضـاء الحاجات، وينشأ التعلق على هـامش هذه الـدوافع الأولية. لـذا سميت هذه النظـرية من قبل «بـولبي» بنظريـة الدوافع الثـانويـة. إن تعبير الأم هنا يقصد به الشخص الذي يهتم بالطفل بصورة دائمة، فالأم الطبيعية التي تضع طفلها مع مربية وتراه مرة في السنة تبقى بالنسبة للطفل غريبة كل الغرابة عن عالمه.

٢ ـ أما الاتجاه الثـاني فيعتقد أن الصغير يشعر بالندم بعد الـولادة بسبب مغادرته بطن أمه وهـو يرغب بالعودة إليه. تفسر هـذه النظرية تعلق الطفل بالأم بـأنه نتيجة رغبته بالعودة إلى بطن الأم.

٣ ـ والاتجاه الثالث يرى أن حاجة الطفل إلى الثدي هي حاجة غريزية، فهو بحاجة إلى مصه وامتلاكه. ويتعلم الطفل أن الثدي جزء من الأم وبسبب ذلك يتعلق بها.

٤ ـ أما الاتجاه الرابع فيرى أن الطفل يميل إلى التواصل والتشبث بشخص ما، فهذه الحاجة موضوع مستقل عن التغذية وعن الحاجات الأخرى.

ويعتبر الاتجاه الأول أو النظرية الأولى أكثر الاتجاهات انتشارا، ففي رأي «فرويد» أن التعلق بالثدي المغذي هو مصدر الحب.

إن «بولبي» يرى أن هذه النظريات غير قادرة على إيضاح سلوك التعلق فهو يقترح فرضية مختلفة تستند إلى نظرية السلوك الفطري.

إن العلاقة بين الأم والطفل هي نتيجة لنشاط جملة من الأنظمة السلوكية تهدف إلى المحافظة على إبقاء الطفل بالقرب من الأم.

ويبدو ذلك بوضوح خلال السنة الأولى من عمر الطفل عندما يبدأ التنقل والحركة في محيطه. إذ يمكن ملاحظة سلوك التعلق بكافة خصائصه عند الغالبية الساحقة من الأطفال. ويمكن تنشيط الأنظمة السلوكية الخاصة بالتعلق عند مغادرة الأم للطفل أو عند شعوره بالخطر. إن المؤثر الكفيل بوضع حد لذلك هو مشاهدة الأم أو سماعها أو ملامستها. ويمكن تنشيط مختلف الأنظمة السلوكية للتعلق بسهولة حتى نهاية السنة الثالثة، وبعد هذا العمر يصعب تنشيط هذه الأنظمة لأن الاقتراب من الأم لا يعود حاجة ملحة. وفي مرحلة المراهقة والبلوغ تحدث تغيرات أخرى خاصة بما يتعلق بتغير الشخص الذي يتوجه نحوه سلوك التعلق (Bowlby, 1969. p. 248).

وتجدر الإشارة إلى الملاحظات التالية:

ـ إن سلوك التعلق أحد مظاهر السلوك الاجتماعي، وبنفس الدرجة من الأهمية التي

يحتلها سلـوك التزاوج مثـلا وسلوك الـوالديـة*، ويتمتع سلـوك التعلق بــوظيفـة بيولوجية خاصة لم تؤخذ سابقا بعين الاعتبار.

- إن الأنظمة السلوكية المختلفة تتطور عند الطفل كنتيجة لتفاعله مع المحيط وخاصة مع الوجـه الأساسي في هذا المحيط وهو الأم. فالتغـذية لا تلعب إلا دورا محدودا في هذا التطور.

- تتمثل الجوانب الأساسية لسلـوك التعلق عند الطفل بسلوك المص وسلوك التشبث وسلوك الاتبـاع وسلوك البكاء وسلـوك الابتسام وتنظم هـذه الأنظمة بحيث تعمل على بقاء الطفل بالقرب من الأم.

التعلق كدافع أولي:

بالرغم من أن التجربة تظهر وجوب استبعاد نظرية الميل الثانوي في تطور التعلق عند معظم الثـدييات، فالمسألـة لم تسوّ نهائيا بالنسبـة للإنسان. وبـالرغم من ذلك فـالعـوامل المنـاسبـة لسلوك التعلق عنـد الإنسـان، ليست مغـايـرة جـدا لما يمكن ملاحظته عند الثدييات الأخرى.

ويرى بـولبي أن نظرية الـدافع الثانـوي ليست مقنعة في تفسيرها لظـاهرة التعلّق عند الإنسان، وهي النظرية التقليديـة التي ترى أن التعلق ينمو ويتطور على هامش الـدوافع الأساسيـة كـالجوع والجنس. ويعتبر هـذا المؤلف التعلق دافعـا أوليا يتميّـز باستقلالية كبيرة بالنسبة للدوافع الأخرى.

يستنـد بولبي في وجهـة نظره هـذه إلى نتائج البحـوث والدراسـات التي تبين أن التعلق يمكن أن ينمو ويتطـور تجاه أفراد غير معنيين بالعناية الجسـدية للطفل. ففي دراسة شافر و إمرسون (Schaffer and Emerson, 1964) تبين أن الطفل مهيأ للرد على المؤثـرات الاجتماعية لـدرجة أنـه يمكن أن يتعلق بأطفـال آخرين، ويعـرب عن سخطه واحتجاجه عند غيابهم.

* (كل ما يفعله الأهل (الأب والأم) من أجل الأطفال).

يشعر المولود الجديد بالرضى والارتياح للكبار، وخاصة في حالة التبادل الاجتماعي معهم، عندما يؤخذ بين الذراعين، أو عندما يقوم الكبير بمحادثته ومداعبته وملامسته بحنّو. ويتطور سلوك الثغثغة والابتسام بشكل ملحوظ عند المولود إذا لقي استجابة اجتماعية من قبل البالغين. وقد أوضحت الدراسات الحديثة (Bowlby, 1969) أن الصغير يستجيب بسهولة للمؤثرات الاجتماعية، ويمكنه المشاركة في التبادل الاجتماعي مع الكبار، وذلك بمعزل عن الرضاعة أو العناية الجسدية.

ويرى بولبي أن تطور سلوك التعلق عند المولود البشري يتوافق مع تطور نفس السلوك عند الثدييات الراقية، وإن كان أكثر بطئا عند الإنسان. وفي رأي هذا المؤلف يتصف سلوك التعلق عند الإنسان بما يلي:

١ ـ في البداية يمكن إثارة الاستجابات الاجتماعية عند المولود بواسطة جملة عديدة من المؤثرات. وبعدها يقل تدريجيا عدد المؤثرات التي تحدث استجابات اجتماعية عند الوليد، حتى تقتصر على المؤثرات القادمة من شخص محدد أو من عدة أشخاص معيّنين.

٢ ـ يستجيب الطفل إلى عدد من المؤثرات دون غيرها.

ـ يتصاعد سلوك التعلق بشخص معين طردا مع تكرارا التفاعل الاجتماعي بين الطرفين.

٤ ـ إن قدرة الصغير على تمييز وجوه مختلفة، يتبع عادة المرحلة التي يتمكن بها الطفل من تثبيت انتباهه، مما يدفع إلى التفكير بأن التعلم يمكن أن يلعب دورا ما في تنمية سلوك التعلّق.

٥ ـ يبدو أن سلوك التعلق في الوجه المفضل، ينمو ويتطور خلال السنة الأولى من حياة الطفل. إذ يحتمل وجود مرحلة حساسة، تسمح بتسهيل تطّور سلوك التعلق.

٦ ـ بعد عمر ستة أشهر، يمكن ملاحظة استجابات الخوف والذعر عند الطفل لدى رؤيته وجها غريبا، خاصة عند بلوغه ثمانية أشهر، علما بأن ردود فعل الطفل هذه تكون أقل حدة قبل هذا العمر. ويستحيل ملاحظتها عند الاطفال في الأشهر الأولى، وبالنظر لتكرار ردود فعل الخوف وقوتها نحو الغريب، يصعب على الصغير التعلق بوجه جديد بعد عمر السنة.

٧ ـ عندما يحدث التعلق بوجه معين، يميل الطفل إلى تفضيل هذا الوجه بالمقارنة مع الآخرين، ويستمر هذا التفضيل بالرغم من الانفصال.

وخلاصة القول: إن سلوك التعلق، نحو وجه متميز عن الآخرين، ينمو ويتطور عند الإنسان بطريقة مشابهة لنمو وتطور التعلق عند الثدييات الأخرى. وتؤكد الدراسات السابقة على ثلاث مسائل أساسية:

أولا: تستند العلاقة بين الأم والطفل إلى قاعدة بيولوجية غريزية. فكل أم قادرة على القيام بدورها كأم في الوقت المناسب. فالتعلق حاجة أساسية تمكن الطفل من النمو نموا سويا من النواحي البيولوجية والعاطفية والاجتماعية، وتمكن الأم من ممارسة سلوك الأمومة.

ثانيا: إن تطور العلاقة بين الأم والطفل يتجاوز تلبية الحاجات البيولوجية، ويعتمد إلى حد كبير ـ على طبيعة التفاعل بين الجانبين. فإرضاء حاجات الطفل الأساسية عملية ضرورية، ولكنها غير كافية لنمو التعلق بين الأم والطفل، وغالبا مايكون إرضاء هذه الحاجات فرصة للتفاعل المتبادل بكل أشكاله، الكلامية وغير الكلامية. فعندما ترضع الأم طفلها، تشعره بحرارة جسدها وبحنو لمساتها وبرقة عباراتها ومناغاتها، ثم قد يتحول ذلك إلى تفاعل معقد، فتبحث الأم لالتقاط بصر الطفل، وتقوم بدغدغته، وبتوجيه ابتسامتها نحوه. ويظهر الطفل بدوره علامات الرضى والارتياح لسلوك الأم، مما يشجعها على الاستمرار في التفاعل معه. وسنرى في فصل لاحق مدى تأثير الطفل في سلوك الأم، خاصة عندما يبدأ بالابتسام حيث يعتبر ذلك معززا ومنشطا لسلوك الأم، مما يدفعها لاصدار المزيد من المؤثرات

الاجتماعية نحو الطفل.

ثالثا: تتحد العوامل الغريزية وتتفاعل مع عوامل المحيط، أي مع الشروط المادية والثقافية المحيطة بالأم والطفل، فسلوك الأمومة والتعلق هما نتاج التفاعل المستمر لهذه العوامل مجتمعة.

مقارنة التعلق عند الإنسان والثدييات الأخرى

إن الفرق الجوهري الـذي يميز سلوك التعلق عند القـردة من نظيره عند الإنسان هو أن هذا الأخير لا يستطيع التشبـث بالأم والتوجه نحوهـا قبل أن يتمكن من الحبو أو المشي.

إلا أن بعض الأنواع عند القردة (الغوريلا) تتميز بذلك أيضا، فالأم تقوم بحمل الصغير حيث لا يستطيع هـذا الأخير التشبث بها. وكـذلك الأمـر عند الإنسـان في بعض المجتمعات (الصيـد والقطاف)؛ فالطفل يُحمل على ظهـر الأم وليس في سرير أو عربـة. ففي رأي بولبي (Bowlby, 1969, p 272) إن دراسة سلـوك التعلق تبين نوعـا من الاستمرارية في سلم التطور من الثـدييات الدنيا إلى الإنسـان؛ فعند بعض الأنواع الدنيا (من هذه الأنواع: Lemur , Monkey) يتوجب على الصغير التشبث بالأم منذ البداية لأنه لا يتلقى أية مسانـدة من جانب الأم، وعند القردة الأكثر تقدما و(Baboon) (Rhesus) فإن على الطفل أن يتشبث بها، إلا أن الأم تساعده في الأيام الأولى من الحياة.

وعند الأنواع الأكثـر تقدما كالغوريلا والإنسـان يتابعُ الطفل التشبث، ولكنه لا يمتلك القوة اللازمة لذلك مدة طويلة، ففي الأشهر الأولى، تقوم الأم بالمحافظة على وجود الطفل بالقـرب منها (المحاذاة). ولا يشذ عن ذلك إلا المجتمعـات الصناعية المتطورة حيث يوجد الطفل غالبا خارج دائرة الاتصال مع الأم خلال ساعات طويلة أثناء النهار وكذلك أثناء الليل.

إن صغير القـردة (Rhesus) يتمكن من التشبث بجسـد الأم قبل أن يتمكن من تمييـزها من غيرهـا من القردة، بينما يكـون الطفل البشري قادرا على تمييـز الأم قبل أن يتمكن من التشبث بها أو حتى من التحـرك نحـوها. ومن هنـا تأتي صعـوبة تحديـد معايير سلوك التعلق التي تسمح بتحـديد بداية هذا السلوك عنـد الإنسان (المصدر السابق p. 273).

سلوك التعلق في السنوات الأولى :

يرى أصحاب نظرية التعلق (Ainsworth, 1967; Bowlby, 1969) إن الصغير عند معظم الأنواع، يمتلك الأسس الغريزية التي تسهل نمو التعلق، وتطور العلاقات المتبادلة بينه وبين الحاضن (أي الأم في الأغلب). فسلوك الصغير حديث الولادة يثير اهتمام الأم واستجاباتها نحوه؛ فالنظام التفاعلي بين الأم والصغير يتأثر إلى حد بعيد بالاستجابات الأولية لهذا الأخير.

إن هذه الأسس الغريزية تجعل كلا منهما قادرا على إدراك إشارات الآخر.

وتبين الملاحظة اليومية أن الطفل في عمر أربعة أشهر يستجيب بشكل مختلف إلى الأم بالمقارنة مع غيرها، فهو يبتسم ويثغثغ بسهولة استجابة للأم ويتبعها بنظره مدة أطول من أي شخص آخر في محيطه. إلا أن التمييز الحسي للأم لا يمكّننا من القول بأن الطفل يحافظ على البقاء بالقرب منها. فبكاء الطفل لدى مغادرة الأم ومحاولته اتباعها يعتبر مؤشرا لسلوك التعلق. لقد أكدت الملاحظة وجود هذا السلوك عند الأطفال منذ عمر أربعة أشهر وفي عمر ستة أشهر يصبح ذلك أكثر وضوحا (Ainsworth, 1967)، وتبين دراسة أنسويرث بأنه يمكن ملاحظة سلوك التعلق عندغالبية الأطفال في عمر ستة أشهر حيث يعبر الطفل عند ذلك بالبكاء عند مغادرة الأم، وبالابتسام وتغاريد الفرح عند عودتها. ويستمر هذا السلوك حتى نهاية العام الثاني. وفي عمر تسعة أشهر يتمكن الطفل من متابعة الأم عند مغادرتها المكان، ويبدأ البكاء بالانخفاض التدريجي، كما يقوم الطفل بالتشبث بالأم، خاصة عندما يشعر بعدم الأمن عند حضور شخص غريب، ويمكن لسلوك التعلق أن يتجه إلى شخص آخر بالاضافة إلى الأم. ففي عمر الثمانية عشر شهرا يميل الطفل إلى إبداء هذا السلوك تجاه الأب أو الأخوة والأخوات، إلا أنه يكون أقوى عندما يتوجه إلى الأم بالمقارنة مع الآخرين.

إن تطور قدرات الطفل خلال السنتين الثانية والثالثة يعود إلى تغير في إثارة سلوك التعلق، ففي السنة الأولى يحتج الطفل بعد مغادرة الأم واختفائها عن مجال الرؤية. أما فيما بعد فبإمكانه أن يتوقع ذلك من خلال ملاحظة سلوكها الذي يسبق مغادرتها ويبدأ بالصراخ والاحتجاج. وبسبب ذلك غالبا ما تحاول الأم إخفاء السلوك المتعلق بالتحضير للمغادرة حتى الدقائق الأخيرة تجنبا لإثارة سلوك الاحتجاج والبكاء عند الطفل خاصة أثناء السنة الثانية من العمر. إن هذا السلوك يمكن ملاحظته عند الطفل بشكل واضح ومنتظم حتى نهاية السنة الثالثة حيث لا يوافق الطفل على الانفصال عن أمه قبل هذا العمر.

يبدو الاضطراب عند مغادرة الأم بوضوح على سلوك الأطفال في دور الحضانة، فبعد إعلان البكاء الذي قد لا يدوم وقتا طويلا يبقى نشاط هؤلاء محدودا ويطلبون تدخل المربية غالبا. أما إذا بقيت الأم، فإن الأطفال يتصرفون بطريقة مختلفة. إلا أن ملاحظاتنا في دور الحضانة تبين الاختفاء التدريجي لمظاهر الاضطراب في سلوك الطفل عند مغادرة الأم، وهذا يعتمد إلى حد بعيد على درجة تكيف الطفل مع زمرة الأتراب، وطبيعة علاقته بالمربيات، ودرجة تعوده بالذهاب اليومي إلى الحضانة. فبعد عدة أشهر من الذهاب المنتظم يهرع الطفل في عمر السنتين مسرعا باتجاه الأتراب لمشاركتهم اللعب حالما يدخل دار الحضانة غير آبه بمغادرة الأم (Kontar, 1987).

إن تغيرا أساسيا يطرأ على سلوك الطفل، فهو يشعر بالأمن في مكان غريب عليه مع أشخاص آخرين غير الأم تربطه بهم علاقة ما.

إلا أن هذا الشعور يرتبط إلى حد بعيد بطبيعة علاقة الطفل بهؤلاء الأشخاص، فالعلاقة الحميمة، تعزز من مشاعر الأمن، والطمأنينة لديه.

كذلك الحالة الصحية الجيدة للطفل وتجنبه مصادر الخوف المفاجىء في الوسط الجديد. ويجب أن يعرف الطفل أين هي أمه، ويتأكد من أنه سيشاهدها بعد حين وأن انفصالها مسألة مؤقتة.

إن مشـاعـر الطمأنينـة تتصاعـد مع العمـر؛ فقـد أوضح (مـورفي Murphy in Bowlby, 1969) ذلك في دراسة تناولت الأطفال من عمر السنتين ونصف إلى خمس سنـوات. يتصرف هؤلاء بشكل مختلف عنـد دعـوتهم للمشاركـة في اللعب في مركـز مخصص لذلك. لقد رفض غالبية الصغـار الذهاب إذا لم ترافقهم أمهاتهم بينما وافق على ذلك الأكبر سناً.

يظهر الأطفال بعـد الثالثة من العمر سلـوك التعلق بشكل مختلف، فيصبح هذا السلوك أقل إلحاحا وأقل تكـراراً حتى يأخذ مظاهر أخـرى في المرحلة المدرسية وحتى المراهقة. إن سلوك التعلق يستمر في مرحلة النضج عنـد الكبار لدى غالبية الناس، وفي الكثير من المجتمعات يعتبر تعلق الأنثى بأمها أقوى من تعلق الذكر.

أشكال سلوك التعلق

يعتبر «بولبي» أن التعلق يمكن مـلاحظته من خـلال ردود فعل الطفل التي تقود إلى سلـوك التعلق. فـالبكـاء والابتسـام يسهمان في حمل الأم على الاقتراب من الطفل والبقاء بجـانبه. وسلوك المتابعـة والتشبث.. يسمح للطفل بالبقاء بـالقرب من الأم ويرى هذا المؤلف أن سلوك المص يمكن أن يعبر عـن التعلق، وكذلك سلوك النداء الـذي يلاحظ بصـورة مبكرة على شكل صراخ هـادىء، ثم يتطور مع العمـر إلى أن يتمكن الطفل من مناداة أمه باسمها.

إن هذا السلوك يعبر عن مشاعر الطفل تجاه الأم، وعن محبته لها، واستقبالها بفرح وحبور ويعلن عن غضبه وسخطه عند ابتعادها عنه.

لقـد اعتبر انسـوورث (Ainsworth, 1967) أن الطفل يستخـدم الأم كقاعـدة أمنية، فعندما يبدأ بالحبو يبتعد قليلا عن الأم لاكتشاف المحيط ويعود إليها من وقت إلى آخـر. إلا أن ذلك يتوقف حـالما يشعـر الطفل بالخطـر، أو عنـدما يـدرك أن الأم ستتحـرك من مكانها الأصلي. فمنـذ عمر تسعـة أشهر يمكن مـلاحظة الفـوارق في سلوك الاستطلاع عند الطفل في حالة حضور الأم بالمقارنة مع حالة غيابها.

وظائف سلوك التعلق

لقد تبين كما أوضحنا سابقا أن سلوك التعلق حاجة أساسية يُظهرها الصغار عند مختلف الأنواع بصورة مستقلة عن الحاجات الأخرى.

إن الصغير البشري يبدي استعداده للتفاعل الاجتماعي، ويحب مرافقة أشباهه، ويمكن للتعلق أن ينمو ويتطور عنده تجاه شخص أو عدة أشخاص بغض النظر عن ارتباطهم في إرضاء الحاجات الجسدية.

إن الوظيفة التي يشغلها سلوك ما يجب أن تتحدد في مساهمة هذا السلوك في بقاء النوع. فسلوك التزاوج مثلا يؤدي إلى التكاثر، وبالتالي يسهم في المحافظة على النوع.

فما هي وظيفة العلاقة بين الطفل والأم؟ إن الدراسات التقليدية التي تعتبر هذه العلاقة دافعا ثانويا ينمو ويتطور على هامش الدوافع الأساسية، خاصة دافع الجوع، هذه الدراسات تعترف ضمنا بأن هذه العلاقة مفيدة كونها تسمح للطفل بالبقاء بالقرب من مصدر الغذاء. إلا أن أصحاب نظرية التعلق الحديثة (Bowlby, 1969) يرون أن وظيفة سلوك التعلق تكمن في تأمين الحماية للصغير من أعداء النوع. وهناك نظرية أخرى تمّ اقتراحها تعتبر أن سلوك التعلق يهيىء الفرصة للطفل كي يتعلم من الأم نشاطات متنوعة ضرورية للبقاء.

إن سلوكا ما يمكن أن يندمج في التجهيزات البيولوجية لنوع من الأنواع خلال التطور، وهذا الاندماج ينتج عن الامتيازات التي يحققها هذا السلوك بالنسبة لأفراد النوع. لأن الأفراد المزودين بالقابلية لتطوير السلوك المشار إليه لهم عدد مرتفع من الخلفاء بالمقارنة مع من لا يمتلكون هذه القابلية. ومن خلال الوراثة يمتلكون بدورهم هذه القابلية، وستأتي مرحلة يكون فيها جميع أفراد النوع مزودين بهذه القابلية. ولكي يمكن تحديد الوظيفة البيولوجية لسلوك التعلق يجب الاجابة على السؤال التالي:

ماهي الامتيازات التي تواكب سلوك التعلق؟ إن الإجابة على هذا السؤال تفترض وجود أفراد يمتلكون القابلية لإعلان هذا السلوك وأفراد لا يمتلكونها، ولما كان تحقيق هـذا الافتراض بايجاد زمـرتين متبـاينتين متعذرا فإن «بـولبي» يقترح جملـة من الحجج للدفاع عن نظـريته التي تعتبر وظيفة سلوك التعلق وظيفة أمنيـة أي وظيفة حماية من القناصين المتربصين بـالنوع. إن العاملين في مجال الملاحظـة الميدانية لسلـوك الأنواع المختلفة يقتنعون بأهمية سلوك التعلق لحماية الصغار من هجمات الأنواع المعادية، إلا أن علماء النفس غير معتادين على المحاكمة بهذه الطريقة.

فـالقـابلية لتبنـي السلوك الـذي يحمي من الهجمات المعـاديـة لا تقل أهميـة عن السلـوك المؤدي للحصـول على الغـذاء أو سلـوك التزاوج بـالنسبـة للمحـافظـة على النوع.

فحجـة المؤلف الأولى أن الحيوان المعـزول أو الذي يعيش على هـامش المجموعـة يعتبر فريسة سهلة بالمقارنة مع نظيره الذي يندمج بالزمرة مع أفراد آخرين، أما الحجة الثانيـة التي يوردهـا لدعم نظريتـه فهي أن سلوك التعلق يمكن إثـارته بسهولـة عند الأفراد الضعفاء كالصغار والإناث والمرضى (ص ٣٠٧). أما حجته الثالثة فتتلخص بأن سلـوك التعلق الأقوى يمكن مـلاحظته في حـالات الخطر عنـدما يتعـرض الفرد لتهديد ما أو يشعر بهذا التهديد.

يخلص بـولبي إلى القول بأن وظيفـة التعلق هي وظيفـة حماية قبل كل شيء وهـذا يفسر أيضا كيف يكـون تعلق الصغيرقوياً بـالأم عندما تعـاقبه، فالعقـاب يستدعي طلب الحمايـة أي التوجـه نحو الأم وتكـرار العقاب يستـدعي تكرار طلب الحمايـة، وبالتالي يبدو أن تعامل الأم بقسوة مع صغيرهـا يزيد من إفراطه في التعلق بها. ولعله من المفيـد الإشارة إلى أن تجارب متعـددة أجـريت على القطط والخراف أوضحت أن الصغير بالـرغم من العقـاب يكرر ـ بـالحاح ـ إظهـار سلوك التعلق. كـذلك لاحظ هارلو أن صغير القردة يلتصق بالأم بشدة بالـرغم من تعرضه لعقابها، وتتناسب شدة تعلقه بها طـردا مع شدة العقاب. فسلـوك التعلق الشديـد يبدو أيضا عنـد الصغار الذين تعاملهم أمهاتهم بقسوة مفرطة.

فهذا التناقض يبدو كنتيجة حتمية لتعرض الصغار للخطر وللقسوة في المعاملة. فسلوك التعلق يمكن إثارته في جميع الحالات التي يتعرض فيها الصغير للخوف والخطر.

العوامل المؤثرة في سلوك التعلق

يتأثر سلوك التعلق إلى حد بعيد بمتغيرين اثنين: السرعة التي ترد بها الأم على إشارات الصغير، وشدة عملية التفاعل التي تقوم بين الطفل والأم. وتتميز استجابات الأم التي توفر لصغيرها علاقة آمنة عن نظريتها التي لا توفر مثل هذه العلاقة، فتكون أكثر حساسية و إصغاء للإشارات الصادرة عن صغيرها، فالأم التي تتجاهل تعابير و إشارات طفلها أو التي تستجيب متأخرة لهذه الإشارات لا توفر لطفلها مثل هذه العلاقة الآمنة حيث لا يعرف الطفل ما يمكن أن ينتظر منها مما يخلق في نفسه مشاعر القلق والاضطراب.

لقد أجمع الباحثون على اعتبار العلاقة بين الأم والطفل بمثابة ركيزة أساسية في النمو الاجتماعي والانفعالي المبكر عند الطفل. إن التفاعل بين الطفل والأم يشمل الغالبية العظمى من تجربة الطفل اليومية ويحدث هذا التفاعل في لحظات هامة جدا بالنسبة للطفل كفترات الغذاء أو اللعب أو الانفراج.

ويبدو أن العلاقة مع الأم تؤثر تأثيرا كبيرا ومباشرا في الطفل أكثر من أية علاقة أخرى. إلا أن ذلك لا يعني أن علاقة الأم بالطفل هي وحدها المهمة، فهناك أشخاص آخرون يزودون الطفل بتجارب هامة، خاصة الأب والأتراب. وتجدر الإشارة إلى أن الأحداث التي تجري خارج دائرة الأم والطفل مثل حضور الأب أو حضور معيل آخر يقدم الدعم والمساعدة للأم تؤثر في خصائص التفاعل المتبادل بين الأم والطفل؛ فمن غير الحكمة النظر إلى علاقة الأم بالطفل دون الأخذ بعين الاعتبار الاطار الاجتماعي الانفعالي الذي يحتوي هذه العلاقة، والبيئة حيث يحدث التفاعل بين الطرفين.

سنحاول هنا توضيح تأثر علاقة الطفل والأم بالحوادث الخارجة عن الطرفين

وتأثيرهـا بها، كيف يمكن للتـوتـر والاحبـاط والتغير في حيـاة الأسرة وظـروفهـا المختلفة أن يـؤثر في علاقـة الأم والصغير؟ وكيف يمكن أن يؤدي ذلك إلى التغيير في طبيعة التعلق الآمن بينهما؟ إن ذلك سيقودنا إلى دراسة هذه العلاقة دراسة ديناميكية تأخذ بعين الاعتبـار طبيعة المتغيرا ت المحيطـة بهذه العلاقة، خـاصة مـا يتعلق منها بشروط الأسرة.

إن الحوادث المحيطـة بالطـرفين تـؤثر تأثيراً بـالغاً في طبيعـة عـلاقتهما الثنائيـة، وخصـوصا في أمن التعلق واستقـراره عبر الـوقت. كيف يمكن لطبيعـة علاقـة الأم والطفل أن تؤثر في طـريقة سلوك هذا الأخير عند لقـائه الأول بشخص غريب؟ يرى أصحاب نظريـة التعلق بأن معظم الأطفال يتمتعون بعلاقـة مميزة مع أهلهم، إلا أن الخصـائص الأمنيـة لهذه العـلاقـات تختلف بشكل كبير وتُعـزى هـذه الفـروق إلى خصائص التفـاعل الاجتماعي بين الصغير والـراشد القـائم على شؤنـه، كاستجـابة الواحـد للآخـر في الوقت المناسب والتنـاغم الانفعالي بينهما. وبـالرغم من تأثير الأم والطفل كليهما في تنـاغم التعلق إلا أن معظم البـاحثين يعتبرون تأثير الأم أكثر أهميـة من تأثير الطفل في سيـاق التعلق. فحساسيـة الأم لإشارات الصغير وحـاجاتـه على درجة كبيرة من الأهميـة في تكون سلـوك التعلق عند الصغير؛ فـالأم الجاهزة انفعـاليا والمتمتعة بحساسيـة عالية في استجـاباتها للطفـل تمكنه مـن أن ينمي تعلقـا آمنا، (Secure Attachment).

إن الأم اليقظـة لإشـارات الطفل، والحاضرة عند حـاجتـه لها تعـزز لديـه الثقـة بالكبـار، فالطفل يعمم هذه الثقة على الآخـرين، فهو لا يشعر بـالخوف والفـزع عند مشـاهـدة شخص غـريب للمـرة الأولى، بينما تسهم الأم المغفلة انفعـاليـا والقليلـة الحسـاسية بـالنسبـة لإشارات الطفل، في تنميـة التعلق القلق عنـده ممـا يخلق لديـه الغمـوض وعدم الثقـة في الكبار عـامـة، ويُظْهر الخوف والهلع عنـد رؤيته شخصـاً غريباً للمرة الأولى.

إن فن التعلق الآمن يرتبط بخصائص تـوقعات الصغير من الأهل، حيث تستند

هذه التوقعات إلى تجربته من خلال التفاعل اليومي معهم.

لقد أظهر منهج انسورث (Ainsworth et al 1971) ومعاونيها تشابها قويا بين السلوك الاجتماعي الانفعالي الملاحظ في وضعية غريبة والملاحظ في البيت أو في الوسط الأسري.

إن الفروق الفردية في أمن التعلق ترتبط إلى حد كبير بسلوك الأم؛ فأم الطفل ذي التعلق الآمن تبدو أكثر حساسية في استجاباتها لإشارات الطفل وأكثر دعما له ومساندة عند تعرضه لمشكلة ما، أو أكثر تعبيرا عن عواطفها وانفعالاتها. وبتعبير آخر تكون أكثر اندماجا في حياة الطفل بالمقارنة مع أم الطفل ذي التعلق غير الآمن.

كذلك تظهر الفروق عندما يتعلق الأمر بالقدرة الاجتماعية مع راشد غريب أو مع الأتراب، فالطفل ذو التعلق الآمن يكون أقل اضطرابا من غيره عند مواجهة غريب للوهلة الأولى، ويبدي تنوعا في سلوكه الاجتماعي يسمح له بالاتصال مع هذا الغريب. وكذلك بالنسبة للأتراب، فالطفل الذي يشعر بالأمن في علاقته بأمه يكون أقدر من غيره على التفاعل الاجتماعي مع الأتراب، وفي اتخاذ المبادرة لإثارة اللعب والنشاطات المختلفة ضمن جماعة الأقران.

ماهو مدى استمرارية هذه الفروق الفردية؟ في دراسة لسلوك الطفل في وسط جديد (strange situation) قام واترز (Waters, 1978) بملاحظة (٥٠) طفلا مع أمهاتهم من الطبقة المتوسطة في وضعية «أنسوورث»، «الغريبة» وذلك في عمر اثنى عشر شهرا وثمانية عشر شهرا، لقد حصل (٤٨) طفلا من هؤلاء على التصنيف نفسه في المناسبتين؛ ولقد خلص هذا الباحث إلى النتيجة القائلة بأن التعلق بين الأم والطفل يبقى ثابتا إلى حد كبير بعد نهاية السنة الأولى.

إن هذه النتيجة على درجة كبيرة من الأهمية إذ تشير إلى استمرارية العوامل التي تؤدي إلى الفروق الفردية خلال السنة الثانية من حياة الطفل، أو إلى وجود «مرحلة حساسة» في السنة الأولى تتحدد خلالها طبيعة التعلق، وتتدعم خصائص العلاقة

بين الأم والطفل، ويصبح من غير المحتمل تعديلها فيما بعد. إلا أنه قد تبين أن هذا الاستقرار في طبيعة سلوك التعلق كان نتيجة لاختيار العينة، حيث كانت على درجة عالية من الاستقرار المهني والسكني.

ففي دراسة طومسون ولامب (Thompson and Lamb, 1984) تم اختيار العينة بطريقة عشوائية بحيث تمثل الطبقة الوسطى تمثيلا دقيقا، وتمت ملاحظة الأطفال في مرحلتين متباعدتين: الأولى في عمر اثنى عشر شهرا ونصف والثانية في عمر تسعة عشر شهرا ونصف. وذلك باتباع طريقة «أنسوورث» في الملاحظة؛ ولقد أشارت نتائج هذه الدراسة إلى أن (٥٣٪) فقط من الأطفال يحافظون على الاستقرار في علاقتهم بالأم، وأن هناك درجة عالية من التغير في سلوك التعلق أثناء السنة الثانية من العمر.

يخلص هذا البحث، إلى القول بأن هذا التغير في سلوك التعلق كان نتيجة لتغير الشروط المحيطة بالطرفين (الأم والطفل)، وأن التعلق أكثر ديناميكية مما اعتقده الكثير من الباحثين, فسلوك الطفل في «الوضعية القريبة» يبدو على علاقة محدودة بخصائص سلوكه السابق أثناء تفاعله مع الأم، ويشهد هذا السلوك تغيرات كبيرة خلال السنة الثانية من العمر.

الشروط الأسرية وتغير سلوك التعلق:

إن دراسة سلوك التعلق بين الأم والطفل في أسر متواضعة اقتصاديا واجتماعيا (Vaughn et al., 1972) تظهر أن (٦٢٪) فقط من العينة المدروسة تحافظ على الثبات في سلوك التعلق بعد دراسة هذا السلوك في عمر الـ (١٢) شهرا والـ (١٨) شهرا، وأن التغير الملحوظ في عناصر السلوك المعبر عن الشعور بالأمن في التعلق يرتبط بحوادث الضغط والمعاناة التي تتعرض لها الأسرة خلال الفترة الفاصلة بين القياسين، فأمهات الأطفال الذين تغيروا من «تعلق يتصف بالأمن» إلى «تعلق يفقد هذه الصفة «أقروا بالعديد من حوادث الضغط والمعاناة التي تعرضت لها الأسرة بالمقارنة مع أمهات الأطفال الذين استمروا في إطار «التعلق المتصف بالأمن»؛ ففي

الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية المتدنية يمكن للمشكلات والضغوط المتعددة التي تعاني منها الأسرة أن تعرقل تطور التعلق المتصف بالأمن والطمأنينة بين الصغير والحاضن. ويتفاقم أثر هذه الضغوط والمشكلات عندما يتعلق الأمر بالطبقات المحرومة بالمقارنة مع الطبقات المتوسطة حيث تتمتع هذه الأخيرة بقدرة أكبر على مجابهة هذه الضغوط مما يخفف نسبيا من تأثيرها في التعلق.

إنه من الواجب تفحص الحوادث الأسرية التي ترتبط مع تغير طبيعة التعلق. إن تكرر الأحداث المزعجة والمكدّرة للعيش ارتبط ارتباطا وثيقا بتغير التعلق؛ فالتجارب الحرجة التي تعاني منها الأسرة كالانفصال عن الأم او عودة الأم إلى العمل بعد إجازة الأمومة أو وضع الصغير في كنف مربية أخرى بشكل منتظم أو الانتقال وتغيير المسكن. جميع هذه الاحداث قد تخلق صعوبات للصغير وتتطلب منه جهودا للتكيف مع وسط جديد ومع شخص غريب.

لقد أظهرت دراسة طومسون ولامب (Thompson and Lamb, 1984) أن التغيرات في الوسط الأسري أثناء العام الأول من عمر الطفل ترتبط بتغير سلوك التعلق في عمر لاحق. وقد تحقق ذلك عند قياس هذا السلوك في عمر (١٢$\frac{١}{٢}$) شهرا وعمر ($\frac{١}{٢}$ ١٩ شهرا).

ماهي الحوادث الأسرية التي تؤدي أكثر من غيرها إلى تغيير سلوك التعلق؟ لقد بينت الدراسة السابقة أن هذه العلاقة تتأثر بشكل خاص بحدثين أساسيين:

أولا: عودة الأم إلى العمل بعد إجازة الأمومة.

ثانيا: التجربة المنتظمة في وضع الصغير في كنف مربية أثناء عامه الأول.

إن الحوادث الأسرية التي ترتبط ارتباطا قويا بتغير التعلق هي التي تؤثر في كمية وفي كيفية التفاعل بين الطفل والأم.

إن هذه الحوادث تؤدي إلى اضطراب الأسرة، وتصيب الطفل في أحد الجوانب الهامة من تجاربه اليومية، وهي مسألة التعود على المحيط المادي عند تغيره. وكذلك

يكون وقع هذه الحوادث أقسى بالنسبة للأسر التي تنتمي إلى الطبقات الدنيا، وتستنزف الاضطرابات معظم الطاقات الانفعالية والمادية للأسرة الفقيرة. بالاضافة إلى ذلك تملك هذه الأسر مصادر محدودة في الخارج لتتمكن من تلقي الدعم والمساعدة، على العكس من ذلك يكون حال الأسر الميسورة حيث تكون أقدر على التفاعل الايجابي مع الاضطرابات والازعاجات التي تصيبها، فبإمكان هذه الأسر الحصول على مساعدات فعالة من خارج الأسرة؛ فالاستقرار والثبات في التعلق بين الأم والطفل يتأثر بشكل عميق بالحوادث المحيطة بظروف الأسرة.

إن كيفية السلوك الوالدي ذو تأثير كبير على التعلق الآمن بين الطفل والأم.

التعلق الآمن والسلوك الاجتماعي نحو الغريب

إذا كان من الواضح أن التعلق الآمن يتغير عبر الوقت فماهي العلاقة بين سلوك التعلق والأبعاد الأخرى للاستجابات الاجتماعية؟ وهل الفروق الفردية في سلوك التعلق تنعكس على السلوك الاجتماعي للطفل مع أشخاص آخرين؟

يرى أصحاب نظرية التعلق أن الطفل «يعمم» عناصر التفاعل مع الأم عند لقائه للأشخاص الآخرين؛ فالطفل الذي يتمتع بعلاقة طمأنينة وثقة مع الأم يقوم بتعميم هذه الثقة أثناء تعامله مع الآخرين، في حين تتميز استجابة الطفل الذي لا يملك مثل هذه العلاقة مع الأم بالسلبية تجاه الآخرين بسبب تاريخ التفاعل مع الأم غير المستقر وغير المرضي. لقد دعمت نتائج متعددة وجهة النظر هذه، فلقد أوضح باستور (Pastor, 1981) إن الطفل الذي يتمتع بتعلق آمن مع الأم في عمر (١٢) شهرا و(١٨) شهرا يكون أكثر اجتماعية مع الأقران أثناء اللعب بين عمر الـ (٢٠) شهرا و(٢٣) شهرا بالمقارنة مع الأطفال المفتقدين للأمن في علاقتهم مع الأم.

وفي دراسة ثانية (Waters et al 1979) تَبَيَّن أن الطفل ذا التعلق الآمن في عمر الـ (١٥) شهرا يكون أقدر على التفاعل الاجتماعي في عمر ثلاث سنوات ونصف وذهبت نتائج أخرى (Easterbrooks and Lamb, 1979) إلى تصنيف الأطفال في درجات متفاوتة بالاستناد إلى علاقة الأمن مع الأم. تبين ملاحظة هؤلاء الأطفال مع

أقران اللعب أن درجة الأمن والطمأنينة في العلاقة مع الأم تنعكس على درجة التفاعل مع الأقران، فدخول الطفل في علاقات وتفاعلات متعددة مع الأتراب يرتبط بدرجة شعوره بالأمن في علاقته مع الأم.

ولقد أوضحت مان (Main, in Thompson and Lamb, 1984)، عندما قارنت بين زمرتين من الأطفال، إن أطفال الزمرة التي تتمتع بالأمن في علاقتها مع الأم، هم أقدر على التفاعل مع الراشد الغريب وعلى إبداء تعاونهم معه وإظهار سلوكهم الودّي نحوه بالمقارنة مع ما يفعله أطفال الزمرة الثانية التي لا تتمتع بالأمن في العلاقة مع الأم.

يعتبر تفسير هذه النتائج على درجة كبيرة من الصعوبة حيث تحاول الربط بين طبيعة التعلق بين الطفل والأم في مرحلة محددة وبين علاقات اجتماعية أخرى مع الأقران أو مع شخص راشد غريب في مراحل لاحقة من حياة الطفل. إن هذا التغير يفترض الثبات والاستقرار في علاقة الطفل والأم. لقد أشار طومسون ولامب (Thompson and Lamb 1984) إلى أن هناك ترابطا قويا بين التعلق المتسم بالأمن والقدرة الاجتماعية مع الشخص الغريب، وكذلك يتصف التفاعل الاجتماعي بالثبات والاستقرار عندما يتميز التعلق بالثبات والاستقرار عبر الزمن.

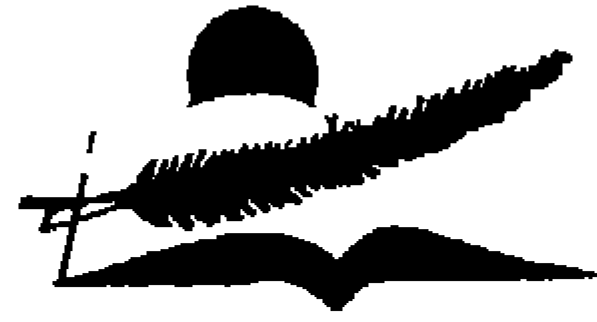
إن فرضية أنسوورث (Ainsworth) القائلة بأن الصغير الذي يتمتع بعلاقة آمنة مع الأم يكون أقدر وأكثر فاعلية مع الأقران هذه الفرضية تحتاج إلى التحقيق لأن الآليات التي تفسر العلاقة بين الوضعين غير معروفة وغير محدودة.

إنه لمن دواعي الاستغراب ملاحظة تأثر معظم الدراسات التي تعالج العلاقة بين الأم والطفل بنظرية التعلق عامة وبمنهج أنسوورث خاصة (انظر الصفحة ٢٢٧)، ومن المعروف أن هذا المنهج يعتمد على ملاحظة الأم والطفل في شروط مخبرية وفي وسط مصطنع أعدّ خصيصا لجمع الملاحظات المتعلقة بسلوك الأم والطفل.

لقد تعرضت هذه الطريقة للانتقاد الشديد، خاصة من قبل الايتولوجيين الذين يدعون لملاحظة السلوك في تعبيره العفوي في الوسط الطبيعي أثناء الحياة العادية، لأن

تغيير هذا الـوسط قد يغير من سلوك الطفل والأم، ويمنع ظهـور السلوك الحقيقي، مما يـؤدي إلى الحصول على نتـائج لا تعبر عن حقيقة العـلاقة بين الأم والطفـل. لقد أُخذ على طـريقة أنسـوورث أنها قصيرة جدا وغير صـالحة من الناحيـة الايكولـوجية (البيئة أو الـوسط) حيث تتطلب تعديل المحيط المعتـاد الذي يتفـاعل ضمنه الطفل والأم، وتنطوي على عناصر تثير القلق بالنسبة للأم وطفلها.

لقد اعتمدت الدراسات الحديثة على ملاحظة التفاعل بين الأم والطفل في الوسط المعتاد بالنسبة للطرفين وأثناء نشاطهما في الحياة اليومية، أثناء اللعب أو الطعام أو في مناسبات أخرى.



الفصل الثالث
سلوك الأمومة عند الرئيسات

الأسس البيولوجية لسلوك الأمومة :

يعتبر البحث في الأسس البيولوجية لسلوك الأمومة حديث العهد عند الثدييات. وتركز معظم المعطيات المتوفرة على الفئران والقطط والخراف، بينما تقل هذه المعطيات عند الرئيسات* غير البشرية. إن العوامل الهرمونية والعصبية تؤثر في سلوك الأمومة، ويمكن لدراسة الأنواع القريبة من النوع البشري أن تكون نموذجا للبحث في سلوك الأمومة عند الإنسان.

إن النجاح في التكاثر يتطلب المحافظة على حياة الصغار، ونظرا لأهمية وظيفة سلوك الأمومة لبقاء النوع، فهو يتخذ خصائص غريزية حيث تتوسع أسسه في بيولوجية النوع. ويتخذ سلوك الأمومة أشكالا مختلفة تحددها خصوصية النوع. فتغذية الصغار أكثر عناصر الأمومة شيوعا، خاصة عند الثدييات. وكذلك تأمين الحماية ضد الأنواع المفترسة التي تهدد الصغار. ومن العناصر الأساسية للأمومة أيضا، تهيئة الصغير للحياة ضمن الزمرة الاجتماعية، وتنظيم تفاعله مع بقية أعضاء الجماعة. وتتفاعل هذه العناصر المختلفة مع مشاعر الأم لتشكل الروابط التي تربط بين الأم والطفل أو مايسمى بالتعلق بين الاثنين. إن الكثير من البحوث يهدف إلى معرفة العوامل التي تؤثر في الانتقال من مرحلة ماقبل الأمومة إلى مرحلة الأمومة. ولقد أشارت هذه البحوث إلى أنه «ميكانيزمات» متعددة يمكن أن تتدخل في انبثاق سلوك الأمومة، وفي المحافظة على هذا السلوك واستمراره. وتحتل الأم من وجهة

---
* Primates : رتبة من الثدييات.

النظر البيولوجية ـ كمصدر للعناية ـ مركزا رئيسيا في التطور الاجتماعي للطفل، ويشارك الإنسان الكثير من الثدييات في عدم قدرته على البقاء بشكل مستقل في بداية حياته.

ويتصف سلوك الأمومة عند الرئيسات بالديمومة والاستمرار، كما هو الحال عند الإنسان. وتعيش هذه الحيوانات حياة اجتماعية تختلف في درجة تعقيدها من نوع إلى آخر.

لقد بينت التجارب التي أجريت على الرئيسات، أن سلوك الأمومة يخضع ـ كغيره ـ لضبط وتنظيم مركزي دماغي. إن جرح لحاء الفص الجبهي الأمامي يؤدي إلى تعطيل سلوك الأمومة عند القردة. كما يؤدي استئصال الجزء اللوزي الأميكدال (Amygdal) عند الأم إلى تصاعد سلوكها العدواني والجنسي (Kling, 1972). لكن جرح الفص الصدغي المتوسط لا يؤدي إلى اضطراب مباشر في سلوك الأمومة، فالاضطراب يبدأ بعد عدة أسابيع، إذ تتجاهل الأم طفلها تماما. مما يؤدي إلى موته بعد ثلاثة أسابيع، وتظهر الأم تراجعاً وانسحاباً ليس فقط تجاه الطفل، وإنما نحو أي عضو آخر من الجماعة، فالاصابة لحقت في السلوك الاجتماعي برمته، ولم تقتصر على تجاهل الطفل فقط.

تسمح دراسة السلوك الاجتماعي عند هذه الرئيسات، بإيجاد نقاط التلاقي، وجوانب الاختلاف بينها وبين النوع البشري خاصة فيما يتعلق بالسلوك، والفيزيولوجيا الإدراكي المعرفي. إن التجريب على الأنواع القريبة من النوع البشري يهدف إلى تفهم الأنظمة المشابهة عند الإنسان، لتلك الأنظمة عند الحيوانات، وذلك لتعذر التجريب على البشر لأسباب أخلاقية وإنسانية، وإن كانت هذه الأسباب نفسها تستدعي منع التجريب على الحيوانات. إننا مدينون بالكثير لهذه الكائنات الضحيّة؛ ففي المجال الطبي، سبق أن جربت غالبية الأدوية على الحيوانات قبل الإنسان، وإن كانت شركات الأدوية المتعددة الجنسيات، لا تتورع عن تجريب منتجاتها الجديدة على سكان العالم الثالث قبل تقديمها في صيغتها النهائية لمواطني البلدان الصناعية.

إن التقدم في تفهم الفيـزيولوجيـة القلبية، والـوظائف الحسية الحركيـة، والنظام العصبي ـ البصري، وفيزيـولـوجيا الإنجـاب . . . الخ كـان نتيجة التجـريب على الرئيسات غير البشريـة . وكذلك الأمر بالنسبـة للتطور الاجتماعي، وسلوك التعلق، والتطور الإدراكـي ـ المعـرفي يمكن أن يأخذ سيـاقا مشـابها عند الإنسـان ونظيره عند الرئيسات غير الإنسانية (Harlow and Mears, 1979) .

إن السلوك الضروري لبقاء النوع يتمثل في (ميكانيزم) بيـولوجية ـ عصبية، تكون على درجة من الأهمية بالنسبة لوظيفة الدماغ .

فتعطيل هـذا الميكانيـزم يؤدي إلى تعطيل وظيفـة السلوك في المحـافظة على بقـاء النوع . إن استخدام هذه الطريقة التجريبية يسمح بالكشف عن التعديل الذي يطرأ على السلوك الأولي الضروري للبقاء لدى تعطيل هذا الجزء أو ذاك من الدماغ .

تتشـابـه الأعـراض النـاتجة عن تعطيل أجـزاء من الـدمـاغ مع تلك التي يمكن ملاحظاتها بعد عزل الحيوان، أو فصله عن الأم . إن الفصل المبكر بين صغير الحيوان وأمـه يؤدي إلى احتجـاج الصغير، وذلك بتصـاعد سلـوكـه الحركي وازديـاد نداءاتـه الصوتية . وفي مـرحلة لاحقة يتميز سلـوكه بالخمول وقلـة النشاط الحركي وانخفاض كميـة الطعام والشراب، وتـدهور الاستقـامة الجسـدية، وقـد يموت الصغير لعـدم تدخل الأم في رعـايته (Suomi and Harlow, 1977) . إن العزل لمراحل متنـوعة في السنة الأولى يـؤدي إلى انحراف السلـوك الاجتماعي والجنسي، وإلى عـدم القدرة على الإنجاب فيما بعـد . وفيما لو لقحت الأنثى بشكل اصطنـاعي، فهل تقتل صغـاره بعد الولادة (Goldfoot, 1977) .

وفي دراسة أخرى تتعلق بأثر العزلة على الشمبانزي، أوضح بلوج (Plooij, 1979) أن غياب الأنتظام والاستمـرار في علاقة الأم بالطفل، يؤدي إلى مظاهـر سلوكية غير طبيعية أثناء العزلة الاجتماعية .

تشير هذه الأمثلة إلى أن القاعـدة البيولوجية ـ العصبية للعضوية تتأثـر تأثراً بالغاً بعد الانفصـال عن الأم أو من يحل محلها (موضـوع التعلق)، بغض النظر عن التأثير

المباشر لعناية الأم بالصغير من الناحية الجسدية؛ فالانقطاع المفاجىء في التعلق الاجتماعي، يؤدي إلى اضطراب خطير في الوظائف البيولوجية ـ العصبية الحيوية، والضرورية لاستمرار النوع. وذلك لأن أنظمة التعلق الاجتماعية ترتبط بشكل وثيق بالوظائف البيولوجية ـ العصبية للدماغ عند الرئيسات، فتطور التعلق الاجتماعي ليس مسألة ثانوية بالنسبة لبقاء النوع ـ كما كان يراه البعض ـ بل مسألة أساسية، إذ أن عرقلة هذا التطور تؤدي إلى اضطراب الميكانيزم المتعلقة بالوظائف الحيوية.

وتجدر الإشارة إلى أن العزلة بالنسبة للحيوان تعني فقر المحيط بالمؤثرات الاجتماعية الصادرة عن الأم أو عن باقي أفراد الجماعة. وتؤثر العزلة في النمو البيولوجي، حيث يؤدي عزل صغار القردة إلى انخفاض في عدد العصيّات الدماغية، وفي وزن القشرة الدماغية. كما تؤثر العزلة في الكيمياء العصبية وفي تنظيم مرونة القشرة الدماغية.

يمكن أن نخلص مما سبق إلى أن الشروط المبكرة للتربية تلعب دورا أساسيا في تطور أنظمة التعلق الاجتماعي. فالتغيرات التي تطرأ على الجملة العصبية المركزية، والأعراض البيولوجية ـ العصبية الناجمة عن انقطاع التعلق، في مرحلة مبكرة، قد تكون مسؤولة عن السلوك غير الطبيعي، وعن الأضرار التي تلحق بالتطور في مراحل لاحقة.

إن معظم الأدوية المستخدمة في علاج الحالات النفسية المرضية تؤثر في السلوك الاجتماعي وتهدف إلى تعديل هذا السلوك، وتقريبه من السلوك الطبيعي وذلك عن طريق إعادة تنظيم الميكانيزم العصبية.

سلوك الأمومة عند الغوريلا (Gorillas)

لقد لفت نظر بعض الباحثين عدم قدرة الغوريلا الموجودة في حديقة الحيوانات، على إظهار سلوك الأمومة بشكل مناسب. إذ تميز سلوكها بتجاهل الصغير، أو قتله في بعض الأحيان. ويُعزى ذلك غالبا، إلى تجربة الغوريلا المبكرة، نتيجة تربيتها في حديقة الحيوانات حيث فصلت عن أمها في عمر السنة أو السنتين، وتم وضعها في

قفص بحضور واحـد أو اثنين من أترابها دون مخالطـة البالغين من نفس النـوع. لقد فسر كير شهوفـر (Kierchshofer, 1970) عدم قدرة الغوريـلا على إظهار سلوك الأمومة المنـاسب بعدم اختلاطها بـالكبار، ونقص النماذج السلوكيـة في محيطها، مما يؤدي إلى قصـور في تعلمها السلوك المنـاسب في سنوات تكوّن السلـوك. لقد خلص هذا البـاحـث إلى القول بـأن النقص في معايشـة الكبار، وعـدم التجربة مـع الصغار حديثي الـولادة، يؤدي إلى اضطراب سلـوك الأمومـة عند الغوريـلا وإلى الاخفاق في تعلم سلوك العناية المناسبة بالصغار.

إن هـذه الخلاصة تستنـد إلى نتائج الأبحـاث المتعلقـة بالقـردة (Rhesus Mon-keys) والشمبانزي (Chimpanzees) إذ بينت هذه النتائج أن فصل هذه الحيوانات عن الأم بعد الـولادة وعزلها عن أفراد النـوع في المراحل المبكرة من تطورهـا، يؤدي إلى إخفـاق هذه الحيـوانـات في التفـاعل مع أقـرانها فيما لو وضعت بينهم مـن جديـد. وبـالنسبـة لـلإناث التي ربيـت بهذه الشروط لا تستطيع إبداء سلـوك الأمـومـة تجاه صغارها بعد الولادة.

يلاحظ نـادلر (Nadler, 1984) أنه بالرغم من تشابـه الغوريلا مع هذه الأنواع فهي تختلف اختلافـا هاما عنهـا. ففي حين أن القردة والشمبـانزي فصلت عن الأم منذ الولادة بقيت الغوريلا طيلة سنة أو سنتين مع أمها. إذن لا يمكن أن يعزى عدم ظهور سلوك الأمومة إلى الانفصال عن الأم بعد الولادة.

لقد قام نـادلر بسلسلة من التجارب حيث أوضح أن بقـاء الغوريلا مع الأم فترة طويلـة بعد الـولادة لا يعني أن سلوك الأمـومة عندهـا سيكون منـاسبا كما هـو الأمر بالنسبـة للأنـواع السابقـة. لقد عـزل هذا البـاحـث الغـوريلا بعـد ولادتها ووضعها وطفلها في قفص خاص؛ ففـي الأسبوع الأول تمكن من ملاحظة العنـاصر الأساسية لسلوك الأمـومة حيث قامت الغوريـلا بإرضاع الصغير واحتضانه وتبـادل الأصوات معه. إلا أن سلوك الأم اضطرب اضطرابا حـاداً في الأسبوع الثاني، مما حمل المسؤولين عن حديقة الحيوان إلى فصل الصغير لأنه عرضة لمعاملة شديدة القسوة من قبل الأم.

وفي تجارب أخـرى أدى إدخـال ذكـر بـالغ إلى نفـس القفص، حيث تـوجـد الأم والصغير، إلى توقف الاضطـراب في سلوك الأم. لقد تكـررت هذه التجربة في مـراكز عديدة، وتم التوصل إلى نفس النتائج، وهذا ما حمل على القول بأن العزلة الاجتماعية قبل الولادة، وبعدهـا يمكن أن تكون عاملا حاسما في اضطراب سلـوك الأمومة عند الغوريـلا. ففي سبع حالات من ثمانية لوحـظ أن الغوريلا تقوم بـدورها كأم بشكل مناسب عند وجودها مع ذكر أو مع زمرة من نوعها أثناء الولادة وبعدها. بينما أبدت ثمان من تسع أمهات، اضطـرابا في سلوك الأمـومة، عنـدما عزلت مع صغيرهـا بعد الولادة. إن هذه النتائج تدعم الفرضية القائلة بأن الوسط الاجتماعي المناسب يسهل ظهور سلوك الأمـومة المناسب، ويُظهر قـدرات الغوريلا ـ حبيسة حـديقة الحيوان ـ على ممارسة أمومتها بشكل مقبول.

سلوك الأمومة عند الشمبانزي (Chimpanzees) والاورانغوتان (Orangutans)

لقد قام روجـرز ودافنبورت (Rogers and Davenport,1970) بمقارنـة زمرتين من إناث الشمبـانزي تختلفان في مدة تعـايشهما مع الأم. فبقيت الزمرة الأولى مع الأم مدة تـزيد على ثمانية عشر شهـرا بعد الولادة، بينما كـانت هذه الفترة أقل من ذلك عند الزمرة الثانية. وعند مقارنة سلوك الأمومة عند هاتين الزمرتين تبين أن الأنثى التي بقيت مدة أطول مع أمها أثناء طفولتها، تقوم بإظهار سلوك الأمومة تجاه صغيرها بشكل أفضل ممـا تفعله إنـاث الزمـرة الثـانية. إلا أن إنـاث الزمـرتين يظهرن تحسنـا ملحوظا، في سلوك الأمومة، اعتبارا مـن الولادة الثانية. وفي تجارب أخرى قام هذان الباحثان بعزل مجموعة من إناث الشمبانزي عن أمهاتها، ووضعها في أقفاص فردية، منذ الـولادة وحتى نهاية السنـة الثانيـة. وفي عمر البلـوغ لم تتمكن هذه الإنـاث بعد الإنجاب، من إبداء سلـوك الأمومة المناسب تجاه صغارهـا، ولم يطرأ تحسن ملحوظ على هذا السلوك بعد عدة ولادات متعاقبة. تبين هذه التجارب أن الحرمان الاجتماعي المبكر، يعرقل تطور الأمومة المناسبة، فالأنثى التى ربيت في حالة عزلة غير قادرة على تربية صغارها.

إن الأبحاث والملاحظات التي تتناول الشمبانزي، توضح بعدين هامين للتجربة المتعلقة بسلوك الأمومة:

أولا: التجربة المبكرة مع الأم في السنة الأولى، فالشمبانزي مهيأة لدرجة قد تزيد أو تنقص للاستفادة من تجربة الأمومة التي تعيشها مع أمها، عند بلوغ سن النضج والإنجاب، ويمكنها تنمية القدرات التي تمكنها من الأمومة المناسبة، بالرغم من عزلتها الكاملة بعد فصلها عن الأم.

ثانيا: التجربة المتأخرة التي تتلو الولادة الأولى. يكون سلوك الأمومة في وقت لاحق وفي الولادات المتعاقبة أمرا غير محتمل بمعزل عن التجربة المبكرة مع الأم. فالتجربة المبكرة مع الأم تؤثر أيضا في سلوك الأمومة وزيادة فعاليته عند الولادات المتعاقبة. أما بالنسبة للأورانغوتان فالمعطيات المتوفرة عن سلوك الأمومة قليلة بالمقارنة مع الأنواع الأخرى. ويبدو سلوك الأمومة عند هذا النوع أقرب إلى نظيره عند الشمبانزي منه إلى الغوريلا فيمكن للأم أن تربي صغيرها عند وجودها وحيدة معه في القفص أي في حالة عزلة اجتماعية. ويرى نادلر أن الفرق بين سلوك الأمومة للغوريلا من جهة، وللشمبانزي والاورانغوتان من جهة ثانية يستند إلى قاعدة بيولوجية. ويبدو ذلك عند ملاحظة هذه الأنواع في الحالة الطبيعية بعيدا عن حديقة الحيوان. فكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة يعكس تكيف السلوك الخاص بالنوع وتلاؤمه مع شروط المحيط التي تطور ضمنها. يعيش الأورانغوتان في حالة شبه عزلة، ويقوم تنظيمه الاجتماعي على التوزع والانتشار في المكان. ويعيش الذكر وحيدا معظم حياته، ويقتصر التبادل الاجتماعي عند الأنثى على صغارها، وبالإضافة إلى البنية الاجتماعية الموزعة، والتفاعل الاجتماعي المحدود، لهذا النوع، تربى الأنثى صغارها، في الشروط الطبيعية في وضع من التبادل المحدود، مع أفراد النوع، فالأم تقوم بدورها في غياب العلاقات الاجتماعية المعقدة، فالبنية الاجتماعية للشمبانزي تختلف عنها عند الأورانغوتان، حيث تعيش الشمبانزي في تجمعات واسعة، تضم الإناث والذكور من مختلف الأعمار: إلا أن هذه التجمعات تنقسم إلى زمر متغيرة التركيب. فالزمرة الأكثر استقرارا، هي تلك المؤلفة من الأنثى وصغارها.

فهي تشبه الأورانغوتان من حيث تجمعها على شكل زمر مشتتة داخل التجمع الكبير. ومن حيث تفاعلها وباقي أفراد الزمرة، إذ تتفاعل الأم بشكل محدود مع باقي أعضاء التجمع، وخاصة في المراحل الأولى من حياة الصغار.

لقد أشارت الأبحاث المتعددة في هذا المجال إلى أن تربية صغير الشمبانزي ـ وكذلك تربية صغير الأورانغوتان ـ لا تتطلب تفاعلا اجتماعيا واسعا خارج العلاقة الثنائية بين الأم والطفل، ولا تستدعي اتحادا دائما بين الأم وأعضاء آخرين في القطيع عند الأطفال؛ بينما يختلف الأمر عند الغوريلا، فالملاحظة المنهجية لهذا النوع في الحالة الطبيعية تبين أنه يعيش ضمن جماعات مستقرة، تقوم على تنظيم اجتماعي «عائلي» فتتألف الجماعة عادة من ذكر بالغ قائد، وعدة إناث مع صغارهن. ويمكن للأنثى ـ كما للذكر ـ مغادرة الزمرة التي ولدت فيها، ولكن فقط قبل الإنجاب. وعادة تبقى الأنثى وتلد بشكل متعاقب، في نفس الزمرة. فتختلف أنثى الغوريلا، في الحالة الطبيعية، عن مثيلاتها لدى الشمبانزي والأورانغوتان. فهي تربي صغارها برفقة أعضاء آخرين من نفس النوع، يربطها بهم اتحاد وثيق خلال مدة طويلة نسبيا. بينما تربي أنثى الشمبانزي والاورانغوتان صغارها في حالة من الاستقلال النسبي، وفي غياب أية علاقة اجتماعية طويلة الأمد مع أبناء جنسها. وفي حديقة الحيوان تتمكن الانثى عند هذين النوعين من تربية صغارها بشكل مقبول، عندما توضع مع صغيرها في غرفة معزولة.

تختلف شروط حياة أنثى الغوريلا في الظروف الطبيعية، حيث تربي طفلها برفقة أطراف أخرى، تربطها بهم علاقة طويلة نسبيا. فهي تجتمع مع عدة أناث حول ذكر واحد، وتقضي معظم الوقت بالقرب من الذكر القائد، خاصة في المراحل الأولى من حياة الصغار. إن اختلاف هذه الشروط، يمكن أن يفسر إخفاق سلوك الأمومة عند الغوريلا أثناء عزلها في غرفة فردية مع الصغير. فسوء معاملتها للصغير، وقسوتها تجاهه في ظروف حديقة الحيوان، تكون نتيجة لعدم تمكنها من متابعة الطريقة الخاصة بالنوع في تربية الصغار.

وتفضل أنثى الغوريلا البقاء بالقرب من الذكر القائد، عندما يكون الصغير في

عمر مبكر، مما يعزز سلوك الأمومة المناسب، فالوجود بالقرب من القائد يكون مفيدا للأم ويوفر لها الحماية من هجمات المعتدين. بينما لا تتطلب ذلك تربية الصغار عند الشمبانزي والأورانغوتان في الظروف الطبيعية. فالسلوك الخاص بالنوع لم يضطرب في ظروف العزلة الاجتماعية، في حديقة الحيوان. وذلك بعكس الغوريلا التي لا تتمكن من إقامة علاقة وثيقة بصغيرها في غياب المؤثرات الصادرة عن أفراد الزمرة التي تعيش ضمنها في الظروف الطبيعية، فتجاهل الصغير ومعاملته بقسوة بالغة من قبل الأم، تتوقف غالبا، عند إحضار أحد أفراد النوع إلى الغرفة التي تجمع الأم وصغيرها، إذ يمكن حينئذ ملاحظة سلوك الأمومة المناسب تجاه الصغير.

إن دراسة الأمومة عند الأنواع القريبة من الإنسان، من الناحية البيولوجية، يسهم في صياغة بعض الأسئلة حول هذا الموضوع. ويرى نادلر أنه عند دراسة الأمومة عند الجنس البشري يمكن الأخذ بالفرضيتين التاليتين:

أولا: إن سلوك الأمومة عند البشر يمكن أن يكون أيضا متلائما مع الصيغة الخاصة لتنظيمنا الاجتماعي. من هنا تبدو الأهمية القصوى في تفحص ودراسة الأنظمة الاجتماعية في مختلف أشكالها ودرجاتها.

ثانيا: إن الاضطراب في سلوك الأمومة وفي علاقة الأم بصغيرها يكون غالبا نتيجة التغير المفاجىء في الشروط والعادات الطبيعية. إن عرقلة سلوك الأمومة، واضطرابه، يحدث عندما يربي البشر أبناءهم في شروط مغايرة ومخالفة لصيغة التنظيم الاجتماعي الخاصة بالنوع. إلا أن ذلك ليس أمرا واضحا. فالمجتمعات البشرية تتبع طرقا وأساليب مختلفة جدا ومتنوعة في تربية الصغار.

وأخيرا يمكن أن نطرح السؤال التالي: هل يمكن ملاحظة خصائص معينة للأهل المتعاملين مع أطفالهم بقسوة أو المتجاهلين لهؤلاء الأطفال؟ وهل العزلة الاجتماعية للأهل ترتبط بسوء معاملة الطفل كما أشار إلى ذلك (إلمر Elmer. et al 1967)؟ إن الإجابة على هذه الاسئلة ليست بالأمر السهل، فالبحث المنهجي في بنى اجتماعية ــ ثقافية متعددة يمكن أن يسهم في إيضاح العلاقة المحتملة بين سلوك الأمومة بأشكاله وطرائقه المختلفة، ونمو علاقة الأم بطفلها.

سلوك الأمومة عند الإنسان

إن التغير في الإفـرازات الهرمـونيـة المرافقـة للحمل والـولادة يضع المرأة في حـالـة جاهزية لتقديم العناية اللازمـة للمولود الجديد؛ فالتجارب على الحيوانات يمكن أن تزودنـا بأمثلة عديـدة في هذا المجال، فلقـد تمكن بعض الباحثين من إظهـار سلوك الأمـومـة عنـد إنـاث لم يسبق لهن الحمـل أو الـولادة، وذلك بحقنهن ببعض أنـواع الهرمونات.

وقد تطـول المرحلة الـلازمة لاظهـار سلوك الأمـومة بعـد الولادة أو تقصر حسب النوع، وتختلف هذه المرحلـة من حيوان إلى آخر. ومعظم الإناث تحتـاج إلى مشاهدة الصغير بعض الوقت قبل تنشيط سلوك الأمومة. وتبدو التغيرات الهرمونية المرتبطة في سياق الولادة على صلـة بالتنشيط السريع لسلوك الأمومـة عند بعض الأنواع. إلا أن دور الهرمونات يقتصر على المرحلـة التي تلي الولادة مباشرة، ويتضـاءل هذا الدور في سلوك الـولادة فيما بعد، حيث تأخذ المؤثـرات الصادرة عن الصغير أهمية خـاصة في استمرار سلوك الأمومة في المراحل الـلاحقة. . فإذا كان هذا السلوك يخضع إلى ضبط هرموني في مرحلـة مؤقتة بعد الولادة، فاستمراره في مـراحل لاحقة يعتمد إلى حد كبير على المؤثرات الصادرة عن الصغير.

أما بـالنسبة للثدييات العليـا فإن تأثير الهرمونات يكون أقل من تأثير التجـربة، فالنعاج مثلا تبدي سلـوكا أكثر فعالية ومناسبة تجاه صغارهـا بعد الولادة الثانية، أو بعد فترة من تجربة العناية بالصغير (Poindrou and Neinder, 1980).

أما فيما يتعلق بالبشر فترجح الكفة لصالح التجـربة بالمقارنة مع التأثير الهرموني. إن تأثير الوسط الاجتماعي يدفع الأم إلى أن تتصرف حسب طـريقة محددة. فالعوامل الثقافية، والقيم الاجتماعية تـؤثر تأثيرا هاما في سلوك الأمومـة. فقابلية الأهل للتبني وتـزويد الأطفـال المتبنين بالعنـاية والمحبـة، يظهر الـدور البارز للعـوامل الثقافيـة ـ الاجتماعية، كما يظهر محدودية تأثير العوامل الهرمونية.

يتـوافق سلوك الأمـومـة مع احتيـاجـات الطفل منذ الـولادة، وتسـاعد العـوامل البيولوجية الغريزية في انطلاقـة هذا السلوك، وفي بداية السياق، الذي يمهد السبيل للتوافق بين سلـوك الأم ومتطلبات الطفل (Schaffer, 1984, P. 37). لقـد تـوافق سلـوك الأمومـة، عبر التطور، مـع سلوك التعلق عنـد الطفل، وتتلخـص وظيفـة هـذين النظامين السلوكيين في حماية الصغير الـذي كان عرضة للافتراس (Bowlby, 1969). فحين يستخدم الطفل مؤثرات كالبكاء أو التمسك، تقوم الأم بالاستجابة لحمايته، فتأخذ بيده عندما يبتعد أكثر مما يجب، وتزوده بالغذاء، وتعمل على إرضائه عندما يعاني من كربة.

يستـدعي كلا النظـامين ــ (سلوك الأمـومة، وسلـوك التعلق) ــ المحافظـة على الاتصـال بين الأم والطفل، ويقود الاتصـال بدوره إلى تبـادل عاطفي بين الطـرفين. فسياق التعلق يتم عبر التجربة بين الاثنين (المصدر السابق).

تستنـد نظريـة بولبي إلى بعـد بيولـوجي، وتستدعي تـركيز الاهتمام على الطبيعـة التبـادلية في سلـوك الأم والطفل، فبالـرغم من أن التبادل المشترك يستنـد إلى قاعـدة داخلية عنـد الأم، فهو لا يأخذ طريقـه إلى النور إلا مع وجود الطفل. فـالخصائص السيكوبيـولوجيـة الاستثنائيـة للطفل عند الـولادة تدفع إلى الاعتقـاد بأن الاتصـال، والتفاعل الاجتماعيين بين الأم والطفل مـوجهان ليلعبا دورا خاصـا في التطور النفسي البشري. فـالطفل حـديث الـولادة يعتمـد على البـالغين في بقـائه، حيث تتضمن التجربة الاجتماعية التي يتعرض لها، طرفـا عالي القدرات (الأم)، مؤهلا ثقافيا، بينما يكون الطرف الآخر (الطفل) صفحة بيضاء من هـذه الناحية. فالتحويل الثقافي من جيل إلى جيل عند البشر، يحل محل الانتقـال بالوراثة عبر الجينـات والمورثات (New-son, 1979). ويعتقـد هـذا المؤلف ــ على خـلاف الفكـرة السـائدة ــ بأن السلـوك الطبيعي للأم البيولـوجية، (الوالدة) لا يكمن في دافع غريزي خـاص بالأمومة، إنما يكمن في المسؤوليـة الثقافية الاجتماعيـة للكائن تجاه أنجـاله، مسؤوليـة تحتمها القيم الأخـلاقية والثقـافيـة السائدة، المتعلقـة بطـريقة التعـامل مع الصغير بلطف ومحبـة وحنان، فهو أحد أفراد العائلة، ويحتاج للمساعدة كونه سريع العطب.

فمن وجهة نظر هذا المؤلف، مشكلة التواصل مع الصغير هي تعلّم جملة العناصر التي تؤهل أي شخص للتفاعل مع هذا الصغير، شخص يمتلك الدافع ليفعل ماهو ضروري من أجل الصغير، ويخصص الوقت المناسب للحوار معه. فالمسألة ليست مسألة ضرورة بيولوجية، إذ يمكن للذكر أن يربي الطفل في شروط مناسبة.

ومن الواضح أن هذا المؤلف قد بالغ في دور العوامل الاجتماعية الثقافية في سلوك الأمومة، وأغفل دور العوامل الغريزية في هذا السلوك. ولعله من المفيد دراسة سلوك المرأة الحامل لإلقاء الضوء على سلوك الأمومة وإيضاح دور الآليات (الميكانيزمات) المعقدة التي تؤثر في تطور هذا السلوك.

. الحمل وسلوك الأمومة

إن الحمل ينطوي على الكثير من الجهد الجسدي. فالتغيرات العضوية وتكيف عملية الاستقلاب تستهلك الكثير من الطاقة الجسدية للمرأة الحامل. ويترافق ذلك مع تكيف نفسي، فالمرأة تحلم بدورها الجديد، وتحضر نفسها لهذا الدور، إذ تمتزج لديها مشاعر القلق والسعادة وكثيرا ما يلاحظ تغيرات قوية في مزاج الحامل، فحينا تجدها سعيدة حالمة متفائلة، وحينا تعاني من الانقباض والقلق (Brazelton, 1981). وتظهر الحامل رغبة قوية بالتعرف على كل ما يتعلق بالحمل والولادة وتلجأ غالبا إلى الصديقات والمقربات من صاحبات التجربة لتطرح الأسئلة التي تهمها.

وفي معظم المجتمعات الصناعية مؤسسات متخصصة تعمل على تصنيف المعلومات، وتدريب النساء الحوامل وتحضيرهن للولادة. حيث أنه من الأهمية بمكان بالنسبة للشابة الحامل أن تلتقي بمن هن في نفس الوضع أي بالحوامل وبذوات الخبرة ممن يستطعن زرع الطمأنينة والثقة في النفس، وخاصة اللواتي تجاوزن مرحلة الولادة. ففي ذلك دليل محسوس يمكن أن يعزز الشعور بالأمن ويخفف من حدة القلق والمخاوف.

ويكون الحمل عند المرأة أشد وقعا حيث يتوجب عليها القيام بمتطلبات عملها وتوفير الوقت كي تتمكن من التلاؤم مع هذا الوضع الجديد. فلابد من أن تأخذ الوقت والحرية كي تعيش هذه المرحلة المضطربة وتطلع على الطريق الأمثل للتكيف مع دورها القادم كأم.

إن الغالبية العظمى من النساء يظهرن بعد الولادة الحاجة إلى التعاضد والمساندة والمحبة. ويمكن أن يلعب الزوج والأقرباء دورا هاما في هذه المرحلة مما يساعد الأم في توفير الأمن والحنان للمولود الجديد، ويساهم في بداية سعيدة في العلاقة بين الأم وطفلها.

العلامات الأولى للحمل:

إن توقف الدورة الشهرية المترافق ببروز وتوتر في الثديين يمكن أن يكون احتمالا كبيرا بحدوث الحمل، ويمكن ملاحظة بعض الأعراض الأخرى كالغثيان والتقيؤ في الأسابيع الأولى حيث تؤكد هذه الأعراض حدوث الحمل، وكذلك يمكن للفحص الطبي أن يؤكد الحمل في الشهر الثاني. وفي الشهر الرابع يمكن للحامل الشعور بحركة الجنين على شكل ارتجاف، ثم تصبح هذه الحركة بعدها أكثر وضوحا.

في هذه المرحلة تشعر الحامل ببعض الصعوبات الجسدية نتيجة عملية التكيف مع الحالة الجديدة، إلا أن مشاعر التعب والإرهاق لابد أن تكون عابرة وغير مهمة؛ فيجب الأخذ بعين الاعتبار أن الحمل مسألة طبيعية يجب ألا تكون مصدرا للقلق بل على العكس مصدرا للتفتح والكمال.

المراقبة الطبية:

بالنظرة لأهمية مرحلة الحمل بالنسبة لصحة الحامل ولصحة الجنين وتطوره بشكل مناسب فلابد من المراقبة الطبية المنتظمة في مرحلة الحمل. ففي بلد كفرنسا مثلا يطالب التشريع بأربع فحوص طبية على الأقل أثناء الحمل، ولا يمكن للحامل

الاستفادة من المساعدات الاجتماعية والتعويضات النقدية إلا إذا التزمت بالمراقبة الطبية.

وتحتاج المرأة الحامل إلى العناية الجسدية والراحة والنوم وتجنب الإجهاد، وتنصح بالمشي وتجنب التدخين وعدم الجلوس في الأماكن السيئة التهوية. وكذلك تحتاج الحامل إلى التغذية المناسبة والمتوازنة ويجب أن تتجنب المواد المخدرة وعدم أخذ الأدوية إلا باستشارة الطبيب.

التغذية أثناء الحمل وبعد الولادة:

يسود الاعتقاد في مجتمعاتنا بأن الحامل إذا اشتهت نوعا من الطعام ولم تأكله قد يترك أثرا ملموسا في جسد الطفل. وبالرغم من عدم استناد هذا الاعتقاد إلى الحقائق العلمية فهو يعكس أهمية التغذية بالنسبة للمرأة الحامل لأن الجنين يعتمد عليها ويشاركها غذاءها (سنية النقاش عثمان ١٩٧٤).

ويجب الاهتمام بنوعية التغذية وكميتها. وذلك بأن يتضمن النظام الغذائي للحامل العناصر الضرورية كالحليب ومشتقاته واللحوم والسمك والبيض والبقول والخضر والفواكه. مع عدم الإكثار من النشويات والملح ومراقبة الوزن بحيث لا يزيد بشكل ملفت للنظر. إن الغذاء السليم والمتوازن يمكن الحامل من المحافظة على صحتها ومن توفير عوامل النمو الصحيحة للجنين أثناء الحمل.

إن تقاليدنا العربية تولي مسألة التغذية بعد الولادة أهمية خاصة ومن عاداتنا الحميدة أن نخص النفساء (الأم بعيد الولادة) بنظام غذائي خاص غني بالبروتينات يتضمن الطعام والشراب الذي يساعد الأم على استعادة حيويتها ونشاطها (كالمغلي بالاضافة إلى الجوز والأطباق المتنوعة التي تقدم للمرأة).

كيف يمكن التحضير للولادة:

لقد ثبت حديثا أنه من الممكن اتباع بعض الطرق التي تجعل الولادة تحدث دون خوف ودون ألم. وتستند أهم هذه الطرق إلى الارتكاس الاشراطي البافلوفي. فتذوق

طبق شهي للمرة الأولى يؤدي إلى إفراز اللعاب في الفم، وهذا ما يسمى ردة فعل طبيعية، ولكن يكفي فيما بعد الحديث عن هذا الطبق أو مشاهدته ليحدث إفراز اللعاب في الفم، وهذا مايسمى بالمنعكس الشرطي المتعلم. فمنذ مئات السنين ترتبط كلمة ولادة بكلمة ألم، فالمرأة التي تشعر بالتقلصات الأولى تقول بأنها تشعر ببداية الألم مما يؤدي إلى فعل منعكس شرطي متعلم. فالخوف من الألم والمعاناة يخلق لدى الحامل ردة فعل من الاحتراس والريبة وهذا ما يبعث على التوتر بدلا من الاسترخاء، مما يؤدي إلى عرقلة التطور الطبيعي لعملية الولادة، وبالتالي إلى مضاعفة الآلام وتضخمها وجعل الولادة صعبة ومعقدة. إذن يجب العمل على إلغاء الخوف وحذفه، ولابد من تحضير جسدي ونفسي لتحقيق ذلك.

إن متابعة بعض الدروس المبسطة حول مايجري أثناء الحمل وأثناء الولادة يمكّن الحامل من التعرف على مراحل تطور الجنين، والمكان الذي يحتله والطريق الذي سيتبعه كي يرى النور، وبذلك يمكن استبدال مشاعر الخوف بالثقة وبالمشاركة النشطة في عملية الولادة بدلا من الخوف منها. وهناك بعض التمارين الرياضية التي تسهل حدوث الولادة فيما لو نفذتها المرأة أثناء الحمل. إن ذلك يجعل الحامل تواجه لحظات الولادة بهدوء وانبساط، وتستقبل وليدها بشروط مناسبة دون آلام ودون إعياء.

ولا شك بأن عمر الأم ومدى نضجها يلعب دورا هاما في مدى تقبلها لدورها كأم، وربما يؤثر في الولادة وفي سلوك الأمومة بشكل عام. فلقد أشارت بعض الدراسات الحديثة إلى وجود علاقة بين عمر الأم وقدرة الطفل على التكيف الاجتماعي. ففي دراسة أجريت على الأمهات المراهقات (قبل بلوغ العشرين) تبين أن اضطراب السلوك عند الطفل في عمر خمس سنوات يرتبط إلى حد بعيد بعمر الأم ومدى نضجها (Wadsworth, et al).

إن الإنجاب المبكر يضع المرأة أمام مسؤولية كبيرة قد لا تكون مهيأة لها. فلابد من اكتمال نضجها وقابليتها الجسدية والنفسية على تحمل مسؤولية القادم الجديد.

إن الـزواج المبكر ظـاهرة واسعـة الانتشار في البـلاد العربيـة، ونظرا لغيـاب البحث العلمي المتعلق بعمر الأم وعـلاقة ذلك بتطـور الطفل، في المجتمع العربي، يصعب معالجة هذه المسـألة. إلا أن نتائج البحث في مجتمعات أخـرى، تبين الآثار السلبية للإنجاب المبكر وانعكاس ذلك على سلوك الأمومة وعلاقة الأم بطفلها.

اللقاء الأول بين الأم والوليد:

لعل الحدث الأهم في حياة المرأة هو أن تضع في هذا العالم طفلها الأول. فالولادة الأولى تعني تحولا كبيرا في حيـاتها. ويتمثل ذلك بشعورهـا العميق بالنضج وقـدرتها غير المحدودة على العطاء، فهي تغذي للمرة الأولى كائنـا آخر من جسدها، وتشعر بأنها مسـؤولة عنـه وعن تطوره وأمنـه. فـالولادة الأولى تعني ولادة العـائلة كما يقـول برازلتـون (Brazelton, 1981). فهي تنطوي على انقلاب عـاطفي كبير وعلى شعور متعاظم بالمسؤولية، ويمكن أن يترافق ذلك بالخوف والشك بعدم القدرة على الارتفاع لمستوى المسؤولية تجاه هذا المخلوق الجديد.

كـانت الأسرة التقليـديـة تتلقى دعما هـامـا مـن قبل المحيط الاجتماعي (الأهل والأقـربـاء والجيران. .) لمواجهـة حدث الـولادة. أمـا اليـوم ـــ ومع خلخلـة النمط التقليـدي في العلاقـات الاجتماعيـة ـــ لا يقدم المجتمع المسـاعـدة المنـاسبة لـلأسرة الحديثة العهد للتخفيف مـن حدة المخاوف والقلق الناتج عن عـدم التجربة ونقص الخبرة في طرق التعامل مع هذا القادم الجديد.

يتزايد اليوم عدد الـولادات التي تحدث في دور التوليد بإشراف طبي ولقد درجت العادة على فصل الصغير عن الأم مبـاشرة بعد الولادة لأسباب العنـاية الصحية. إلا أن النتائج الحديثة للأبحاث العلمية تخلص إلى القول بوجوب وضع الوليد على تماس حسي مع الأم بعد الولادة مباشرة، وذلك لأهمية هذه اللحظات في العلاقات اللاحقة بين الطفل والأم. فالتماسّ الجسـدي بين الاثنين يمكن أن يؤثر في الاتصـال المتبادل بين الطفل والأم، وهذا ما توضحه الدراسة التالية حيث تمت مقارنة ثلاث مجموعات

من الصغار تعـرضـت المجموعة الأولى إلى تماس جسـدي مطول وذلك بـوضـع المولود على بطن الأم بعد الولادة مباشرة لمدة ثلاثين دقيقة، بينما تعرضت المجموعة الثانية إلى تماس قصيرة لمدة خمس دقائق. ولم تتعـرض المجموعـة الثالثـة للتماس مع الأم وذلك لأسبـاب طبيـة. تبين هـذه الـدراسـة بأن التماس المطـول يمكن أن يسهل على الأم التعرف على رائحة الطفل، ويكون الطفل في الأيام التاليـة أكثر حساسية لرائحة الأم بالمقارنـة مع روائح محايدة أو مع رائحة أم أخرى. لقد أوضحت الـدراسات المتعلقة بتأثير الرائحة في علاقة الأم بطفلها بأن الرائحة تلعب دوراً هاماً في تطور هذه العلاقة خـاصــة في المرحلـة الأولى بعــد الـولادة (Mac Farlane, 1975; Russell 1976; Schaal, 1984).

إن التعرف على الطفل بواسطة الشم يكون أكثر احتمالا عندما تتهيأ للأم والطفل فرصة اللقاء اللمسي المطول بعد الولادة مباشرة.

لقـد أكـدت الأبحاث السـابقـة على أهميـة تـوفير الفـرصة لـلأم لـرؤيـة الطفل وملامستـه بعد الولادة مبـاشرة. فهي في أشد الحاجـة لتحسه وتتلمسه وتشمـه. لذا يجب المزيد من الحذر قبل التفكير بفصل الطفل عن الأم بعد الولادة مباشرة.

تؤثر مشاعر الأم نحو الطفل بعـد الولادة في العلاقة المستقبلية بينهما. فالمتغيرات المختلفة في هـذه المرحلة قد تعـرقل أو تسهل سياق هذه العـلاقة. فلابـد من الأخذ بعين الاعتبار شعور الأم تجاه المولـود الجديد خاصـة فيما يتعلق بجنسه (طفلـة كانت أم طفلا) لدى دراسة الروابط التي ستقوم بين الاثنين، إذ تتـأثر هذه الروابط بمشاعر الأم نحـو الطفــل، وبآلام واعيـاء الـولادة الصعبـة (Carek and Capelli, 1981) وتجدر الإشـارة إلى مـوقف الـوسط الاجتماعـي تجاه البنت أو الصبي وتأثير ذلك على الأم، أن للأب دورا هـاما في هذا السيـاق. ففي بعض الأحيان تعم البهجـة والفرح عند الإعلان عن ولادة صبي، بينما يحصل العكس بالنسبة لولادة بنت، فهذا التقليد الـذي بدأ بـالتراجع يـؤثـر تأثيرا سلبياً في معنـويـات المرأة وفي استعـادتها لنشاطهـا وحيويتهـا بعد الولادة، وكذلك في قـدرتها على التعامل مع الطفل وفي تنمية عـلاقة سليمة معه.

التجربة المبكرة بين الطفل والأم :

لقد أشار بعض الباحثين إلى أن الفروق الفردية عند الصغار ترتبط بالفروق الملاحظة في تفاعلهم مع الأم في الأيام العشرة الأولى التي تعقب الولادة (Dunn and Richards, 1977). ومن الممكن أن تكون هذه الفروق قد تطورت نتيجة للظروف التي أحاطت بمرحلة الحمل حيث أوضحت بحوث أخرى أن الأمهات اللواتي سبق أن عانين من القلق أثناء الحمل يلجأ أطفالهن للبكاء أكثر من غيرهم في المرحلة التي تلي الولادة. وهكذا يمكن لمرحلة الحمل أن تؤثر في صياغة مزاجية الطفل، وهذا بدوره يؤثر في طبيعة التفاعل مع الأم وفي تطور العلاقة بينهما.

إن التجربة المبكرة التي يتعرض لها الطفل والأم يمكن أن تؤثر في مستقبل العلاقات المتبادلة بينهما. فمن الناحية البيولوجية ثبت أن التغير المبكر في محيط الطفل يمكن أن يغير مجرى تطوره، خاصة خلال الثمانية عشر شهرا الأولى؛ في هذه المرحلة، ينمو دماغ الطفل بسرعة قصوى لا يبلغها في مراحل لاحقة. فالنضج الداخلي ومؤثرات المحيط المختلفة تعمل بتفاعل دائم، وهي ذات أهمية قصوى بالنسبة لتطور الطفل (Yarrow et al., 1972) ومن وجهة النظر النفسية يشدد علماء النفس على أهمية التاريخ المبكر في تطور الفرد خاصة من الناحية العاطفية.

لقد بينت الدراسات التي أجريت على الأنواع الأخرى أنه يوجد مرحلة حساسة بعد الولادة تؤثر في نمو العلاقة بين الأم والصغير وأن منع الاتصال الحسي أو ندرته يمكن أن يؤدي إلى تعديل في سلوك الأم (Harlow 1961)، أما بالنسبة للنوع البشري هناك من يقترح بأن الأربع والعشرين ساعة التي تلي الولادة يمكن أن تلعب دورا هاما في تحديد سلوك الأمومة، ويمكن اعتبارها مرحلة حساسة في نمو العلاقة بين الأم والطفل. فالاستجابة الطبيعية للأم تجاه المولود الجديد تتأثر تأثرا هاما في هذه المرحلة. وكذلك بالنسبة للاختلافات الكمية والكيفية في سلوك الأمومة في مرحلة لاحقة فهي تعتمد إلى حد كبير على طبيعة الاتصال في الساعات الأربع والعشرين الأولى بعد الولادة (Kennell et al., 1973 ; Klaus et al., 1970 ; Leifer et al 1972) وفي رأي هؤلاء يمكن أن يؤدي الانفصال بين الأم وطفلها إلى اضطراب

العلاقة بينهما فيما بعد. إلا أن بعض الباحثين وجه انتقادا إلى هذا الرأي يتعلق بمدى صلاحية الطريقة التي أدت إلى تلك النتائج (Myers, 1984)؛ فمفهوم المرحلة الحساسة أو المرحلة الأمثل مفهوم جامد لا يأخذ بعين الاعتبار مرونة نظام التطور عند العضوية الصغيرة. فمن المؤكد أن الولادة والأيام التي تتبعها تعتبر مرحلة مهمة، إلا أن هذه المرحلة لن تكون المرحلة الأولى ولا الأخيرة من حيث الأهمية، لأن سياق العلاقة بين الأم وطفلها يبدأ قبل الولادة بوقت طويل، ويستمر بعدها بوقت طويل أيضا.

وتبين دراسة أخرى (Wigeers et al., 1985) مدى تأثير علاقة الأم بطفلها في تطور التعبير الانفعالي عند الطفل في السنة الأولى. إلا أنه من غير الواضح إسناد الفروق الفردية بعد السنة الأولى إلى طبيعة العلاقة بين الأم والطفل.

ويرى شافر (Schaffer, 1984) أن القول بأن تجربة التبادل المبكرة يمكن أن تفسر العلاقات الاجتماعية اللاحقة قول مفرط في التبسيط، يتجاهل تأثير العوامل الأخرى التي يمكن أن تعدل من مسار نمو الطفل في فترة تالية. فالترابط بين علاقات التبادل المبكرة للأم والطفل وبين النمو الاجتماعي عند هذا الأخير في مرحلة لاحقة يمكن إثباته فقط في حالة استمرارية ظروف المحيط عند الطفل.

التجربة السابقة للأم:

إن خصائص شخصية الأم تؤثر في تنظيم سلوك الأمومة في المراحل اللاحقة، وفي طريقة تعاملها مع الطفل، وتفاعلها معه، ويعتبر ذلك على علاقة بمسار تطور الطفل؛ فعوامل التجربة السابقة للأم تؤثر في نوعية العناية التي تقدمها لطفلها، وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن الطفلة المحرومة ستكون بدورها أماً محرومة، أي أن معاناتها المبكرة والقصور في تطور شخصيتها كطفلة سيؤدي إلى القصور في دورها كأم. وهذا يعني الدخول في حلقة مفرغة يصعب الخروج منها (Rutter and Madge, 1976).

إن هذا القول يبقى مجرد شعور لا يستند إلى براهين قوية.

مفهوم المرحلة الحساسة :

إن الإلحاح على أهمية التجربة المبكرة في ميدان التربية وعلم النفس، وأثر ذلك في التطور اللاحق للطفل، حمل الكثير من الباحثين على دراسة الاتصال المبكر بين الأم والطفل وتأثير ذلك في تطور العلاقة بينهما.

من الدراسات المعروفة في هذا الميدان دراسة كلوز وكينيل (Klaus and Kennell, 1976) والتي تناولت زمرتين من الأمهات تختلفان في مدة الاتصال بين الأم والمولود الجديد، فالزمرة الأولى كان لها الفرصة الاعتيادية في الاتصال الجسدي اللمسي بالطفل والمتعارف عليها في دور الولادة، بينما أعطيت أمهات الزمرة الثانية فرصة (١٦) ساعة إضافية خلال الأيام الثلاثة الأولى من عمر الطفل. ثم تمت ملاحظة جميع الأمهات بعد شهر أثناء تغذية الطفل وبمناسبة زيارة طبية. لقد أظهرت هذه الدراسة فروقا بين الزمرتين، فأبدت أمهات الزمرة الثانية سلوكا لطيفا تجاه الطفل وتبادلا بصريا أكثر من أمهات الزمرة الأولى.

لقد أشارت الملاحظات اللاحقة للتبادل بين الأم والطفل في عمر السنة إلى أن سلوك الأم تجاه طفلها يكون أكثر حنوا له وأكثر اهتماما به في الزمرة التي أتيحت لها فرصة الصلات الإضافية مع الطفل بعد الولادة بالمقارنة مع الزمرة العادية. إن تكرار هذه الملاحظات في عمر السنتين أكد استمرار الفروق بين الزمرتين؛ وفي عمر خمس سنوات أشارت هذه الدراسة إلى أن المستوى الذكائي والقدرات اللغوية يكون أعلى عند الأطفال المستفيدين من فرصة أطول للاتصال مع الأم بعد الولادة.

إن هذه النتائج حملت كلوز وكينيل على الاقتراح بأن الاتصال الاضافي بين الأم وطفلها بعد الولادة يمكن أن يؤثر تأثيرا إيجابيا في سلوك الأمومة، ويمكن استمرار هذا التأثير عدة سنوات فيما بعد. ففي رأيهما تعتبر الساعات الأولى التي تلي الولادة مرحلة حساسة، يجب أن تتوفر خلالها فرصة الاتصال بين الأم والطفل، مما يمكن الطفل من تطور أمثل فيما بعد، فالنقص في الاتصال خلال هذه المرحلة يمكن أن يؤثر سلبيا في سياق التعلق، وفي روابط الطفل والأم. فالمرحلة التي تلي الولادة تحتل

أهمية خاصـة في صياغة سلوك الأمـومة. والتجربة خـلال هذه المرحلة قد تـؤثر على المدى البعيد في العـلاقة مع الطفـل. لقد كان لهذه الـدراسة تأثير ايجابي هـام حيث لفتت الأنظار إلى الأسـاليب الجامدة المتبعة في دور الولادة، التي لا تترك الحريـة للأم في أخذ الطفل متى تشـاء عندما يتم فصله عن الأم دون الإدراك بأن ذلك يـؤثر تأثيرا سلبيا في تطور سلوك الأمومة. إلا أن تأثير هذه التجربة على المدى البعيد بقي موضع تساؤل، فالكثير من المكتشفـات اللاحقة لم تؤكد وجهـة نظر كلوز وكينيل فيما يتعلق بتأثير الصلات الأولى في تطور الطفل على المدى البعيد.

لقد وجد وايتن (Whiten, 1977) أيضا فروقا بين زمرتين من الأمهات، الأولى تستفيد من صلات إضافية بعد الولادة. والثـانية تتمتع بصلات «عادية» ولكن هذه الفـروق تضاءلت في عمـر الشهرين. وكـذلك الأمـر بالنسبـة لدراسـة (كارلسـون) (Carlsson et al. 1978 ; 1979) فالفروق الملاحظـة بعد الولادة تلاشـت بعد ستة أسابيع.

وفي دراسة أخرى تبين أن الصلات الجسـدية الإضافية بعد الولادة تـؤثر في تكرار الحديث وسلوك الملامسة الموجه إلى الطفل خلال الأيام الخمس الأولى، وبعدها تقل أهمية هذا التأثير (Eibl - Ebesfeldt, 1983). إنه لمن التسرع الشديد القول بالتأثير الـدائم للصلات الجسـدية (الملامسـة) «الإضافيـة» بعـد الولادة ــ في علاقـات الأم والطفل. فاعتبار هـذه المرحلة مرحلة حرجة في علاقـات الطرفين ينطوي على بعض المبالغـة. فبالـرغم من التأثير المباشر لـلاتصال الجسـدي في تنمية نظـام الروابط بين الطفل والأم إلا أن هـذا النظـام على درجة كبيرة مـن المرونة، فإحضـار الصغير بعـد الانفصال، يضمن تطور تعلق قوي عند الأم نحو طفلها.

إن الفكـرة القائلـة بأن سلوك العضـوية في المستقبل سيتحـدد من خلال تجربـة خـاصة في مـرحلـة معينـة لا تصمد أمـام المعطيـات الحديثة للبحث. فـالـزعم بأن مستقبل علاقة الأم بطفلها يمكن أن يستشف من خـلال معرفة الحوادث التي جرت خلال الساعات الأولى التي تلت الولادة، هذا الزعم يتعارض مع نموذج علاقة الأم بالطفل الذي تبلور في السنوات الأخيرة.

فيجب النظر إلى علاقة الأم بالطفل كنظام مفتوح يتفاعل داخله الطفل والأم، ويتأثر تدريجيا الواحد بسلوك الآخر، مع الأخذ بعين الاعتبار التأثير الخارجي في هذا النظام.

أهمية العلاقات الأولى في حياة الطفل:

ماهو مدى تأثير طريقة التعامل مع الطفل في المراحل الأولى من العمر؟ إن المفهوم المتضمن تأثير الأهل العميق على الطفل في السنوات الأولى، وامتداد هذا التأثير مدى الحياة، لايزال مفهوما واسع الانتشار. لقد عبر واطسون (Watson, 1952) عن هذا المفهوم في شيء من التطرف إذ زعم بأنه يستطيع أن يجعل من اثنى عشر طفلا أطباء أو محامين، فنانين أو تجارا، شحاذين أو لصوصا وذلك بتحديد وتغيير شروط المحيط، بغض النظر عن مدى عبقرية وقدرة هؤلاء الأطفال.

إنه من الصعب ـــ في وقتنا الحالي ـ الاقتناع بدقة تحديد خصائص الأطفال على الشكل الذي يراه واطسون. إلا أن معظم النظريات المعاصرة تتفق على أن أصول الجنوح والانحراف ترجع إلى السنوات الأولى من حياة الطفل. ولابد من الاعتراف بأن الاعتقاد السائد عند الأهل وعند الكثير من المختصين ينطوي على التأثير التكويني الدائم للاتصالات الأولى للطفل مع المحيط. بالرغم من ذلك يرى (شافر ١٩٨١) بأن هذا المفهوم يستند إلى الاعتقاد لا إلى الوقائع، لأن التطور البشري أكثر تعقيدا مما يحسبه المدافعون عن هذا المفهوم، ولا يمكن تحديده على هذه الدرجة من الجمود. إن المعارف المعاصرة تشير إلى أن التجارب المعزولة لا تترك آثارا دائمة مهما كانت قوتها. فلحسن الحظ يمكن للتربية أن تؤثر وتعدل في شخصية الطفل وسلوكه، بالرغم من تعرضه لتجارب سلبية مؤلمة إذ يمكن التدخل للتخفيف من أثر هذه التجارب، فالاعتقاد بأن الشخصية قد تثبتت، بشكل نهائي لا عودة فيه، في السنوات الأولى، يلغي دور التربية وتأثيرها في تطور الطفل. وهذا يعني أيضا أن الطفل الذي تجاوز سنواته الأولى دون مشكلات لن يتعرض للخطر فيما بعد مهما كانت التجارب التي سيتعرض لها قاسية ومهما كانت شروط المحيط، لأن دعائم

شخصيته قد ثبتت» «وتحصّن» لمواجهة مشكلات المستقبل.

إن المبالغة في تأثير التجارب الأولى ينطوي على خطـر مؤكد، ويؤدي إلى التقليل من أهمية التجارب اللاحقة في التأثير في نمو الطفل وتطوره.

إن الجهود المبذولة لمساعدة أطفال الأوساط المحرومة أثبتت هـذا الخطر. فتزويد هؤلاء الأطفـال بجرعة من التعلم المناسب قبل المرحلـة المدرسية (لفترة محدودة فقط) بقصـد تعـويض مـافـاتهم من نمـو إدراكي كـان مخيبا لـلآمـال. فسرعـان مـا تبين اضمحلال هـذه الجرعة وعدم تأثيرها ممـا يثبت بأن تركيز الاهتمام على مـرحلة محددة دون غيرها وعلى تجارب معزولة لا يؤدي إلى نتيجة تذكر.

فـالتدخل يجب أن يتم بشكل متـواصل ويندمج بكـامل حياة الفـرد كي يعطي النتائج المرجوة.

استمرارية التطور:

إن الاعتقاد بأهميـة التجارب الأولى في تكوين شخصية الطفل يستنـد إلى مفهوم المراحل الحرجـة أثناء النمـو ويفترض مراحل ثـابتة من التطـور عند الطفل، يكـون خلالها شديد الحساسية والتأثر. لقد تأثر ذلك إلى حد كبير بمفهوم «الانطباع» (Im-printing) عند العصافير الذي سبقت مناقشته. ولكن بعض البحوث أوضحت أن «المرحلة الحرجة» ليست ثابتة الحدود، إذ يمكن تـوسيعها وتعديلها حسب التجارب التي تتعرض لها الحيوانـات. بالاضافة إلى ذلك يتعرض مفهـوم «المرحلة الحرجة» إلى انتقاد واسع عندما يتعلق الأمر بالتطور البشري. فمن المؤكد أن الفرد أكثر حساسية، في بعض المراحل من تطوره، لنوع معين من المؤثـرات. إلا أنه من الصعب عزل هذه المؤثرات أثناء تطور الطفل. فالمؤثرات المحـددة لا تصل وحدها، بل تندرج في إطار متصل ضمن شبكة متداخلة من التأثير المتبادل.

إن الطفل الذي يفقد والـده مثلا يتعرض إلى جملة متـداخلة من المؤثرات يصعب فصل الواحد عن الآخر. فهذا الحدث يؤثر أيضا في حياة الأم، مما ينعكس بدوره على

علاقتها بالطفل، ومن الممكن أن يترافق ذلك بصعوبات اقتصادية تدفع الأم للعمل خارج المنـزل، وربما للبحث عن سكن أقل كلفة وتبني طريقة مختلفـة عن السابق في الحياة اليوميـة، فمن الخطأ الاعتقاد بأن المشكلة التي يعاني منهـا الطفل تتعلق بنقطة محددة هي فقدانه لأبيه، فهذا الحدث ذاتـه يعتبر حلقة في سلسلة طويلة. إذن يجب الأخذ بعين الاعتبار الحوادث المتعددة التي تبعت ذلك والتي يمكن أن يستمر تأثيرها طيلة سنـوات. وفي دراسة أجريت في إحـدى دور الحضانـة في لبنان حيث يتضمن نظـام التعـامل مع الصغـار القليـل من الاهتمام من قبل الكبـار إذ يترك الأطفـال في السرير طيلـة النهار، وينـدر وجود الألعاب المنـاسبة في دار الحضـانة. لقـد تعرض هؤلاء الأطفال نتيجة لـذلك لقصور شديد في معدل الذكاء الـذي كان في نهاية السنة الأولى أقل من النصف بالمقـارنة مع الأطفال العاديين. وبالـرغم من ذلك لقد تمكن بعضهم من التعـويض في فترة لاحقـة عندمـا تم تبنيهم، إذ أصبح معـدل ذكـائهم (٨٥) وارتفع إلى (٩٦) عنـد الأطفال الـذين تم تبنيهم قبل الثـانيـة من العمر. أمـا بالنسبة للأطفال الذين بقوا في دار الحضـانة حتى عمر السادسة، تم نقلهم فيما بعد إلى مـؤسستين مختلفتين واحـدة للذكـور وثـانيـة للإنـاث حيث كـانت هـذه الاخيرة استمرارا لدار الحضانة، يسودها نظـام قاصر وضحل. لقداتضح أن مستوى الذكاء عنـد الفتيـات بين عمـر (١٢) و(١٣) سنــة هـو (٥٤). أي أن الفتيـات احتفظن بالقصـور طيلة مرحلة الطفـولة (Dennis, 1973). أما المؤسسـة الخاصة بالـذكور فيسودها نظام مغاير إذ تقدم بعض التسهيلات في مجال اللعب، وتوفر المواد التربوية والرحـلات الخارجية ويكـون الأطفال أكثر عـرضة للمـؤثرات. فلقـد ارتفع مستوى الذكـاء عند «هؤلاء الأطفال إلى (٨٠). وبـذلك أمكنهم التعويض بالمقارنـة مع ما كان عليه الحال في نهاية السنة الأولى.

تبين هذه الـدراسة أنـه بالـرغم من الحرمان الاجتماعي والفكـري خلال الطفـولة الأولى تمكّن الأطفال ـ المتبنون وكذلك الذكور الموضوعون في مؤسسة غنية بالمؤثرات ـ من التعـويض في مـراحل لاحقـة عندمـا تغيرت شروط المحيط في مجملهـا. فنتيجـة الحرمان المبكر لم تكن غير قابلة للرجعة في المراحل اللاحقة.

لقد أكـد باحثون آخـرون نتائج الدراسة السابقة، خاصة دراسـة كاجان وكلاين (Kagan and Klein, in Schaffer,) التي أشـارت إلى أن التأخر والقصـور في السنة الأولى أو الثـانية يمكن تعـويضه، وأن التجـارب الأولى بـالرغم من شـدة وطأتها في المرحلة نفسها لا تؤدي إلى نماذج سلوكية ثابتة وغير قابلة للتغيير.

إن البحث العلمي الحديث يتجـه لمعالجة التأثير المبـاشر لمختلف الحوادث التي يعيشهـا الطفل، وأثـر العلاقـات المختلفـة في وسطـه الاجتماعي، وخاصـة طبيعـة علاقته بالأم، في تطور شخصيته، ونموهـا، دون اللجوء للربط بين حوادث الطفولة وطبيعة الشخصية عند الكبير. إنه لمن المجدي أثناء دراسة العلاقة بين الطفل والأم، تـركيز الاهتمام على تأثير كل منهما على الآخـر، قبل محاولـة تحديـد الروابط بين تجربـة الطفل الرضيع وبين سلوك الرجل البالغ.



الفصل الرابع
الأمومة وسلوك التغذية

تغـذيـة الطفـل :

شهدت الأبحـاث المتعلقة في مسألـة تغذية الطفل تـزايدا كبيرا. وسـاهمت هذه الأبحاث في اتساع معارفنا عن طبيعة العنـاصر المختلفة وتركيبها البيوكيماوي وقيمتها الغذائية بالنسبة للصغير، وسـاهم ذلك مساهمة كبيرة في تحسين شروط التغذية، وفي توفير النمـو المناسب للطفل، إلا أن معظم الأبحـاث تخلص إلى مايلي: بـالرغم من التقـدم الهائل في صناعـة الحليب والأغذيـة الخاصـة بالأطفـال يبقى لبن الأم أفضل مايمكن تـوفيره للطفل وأكثر غنى في تـركيبه وفي ملاءمتـه للطفل خاصـة في الأشهر الأولى. فحليب الأم لا يفـوق في قيمته الغـذائية الحليب الاصطنـاعي فحسب، بل يمكّن الطفل من اكتساب المناعة ضد العديد من أمراض الطفولة.

إن إرضـاع الصغير يعني قبل كل شيء مسألـة عـلاقـة بين الأم والطفل، ويعني تجسيـد المحبة التي تكنهـا الأم لطفلها ووضع هـذه المحبـة موضع التطبيق. وكل مـا يشاع من أن إرضـاع الطفل قد يضعف الأم جسـديا ويشـوّه صدرهـا، لا يستند إلى أساس من الصحة. بل على العكس، فـالإرضاع يزيدها نضـارة، وإشراقا. فإعطاء الثدي للوليد يعزز شعور الأم بالنجاح والتحقق ويكمل دورها كأم ويبعث في نفسها السعـادة والحبور، ويشعـرها بـراحة الضمير، وهـذا ينعكس على وضعها الجسـدي وتوازنها النفسي.

فالأم المرضع يجب أن تدرك أن إعطاء الثدي في الأشهر الأولى يعتبر على قدر كبير من الفـائدة بـالنسبـة للطفل وبـالنسبـة لها أيضـا، إذ يلعب دورا هـامـا في تـدعيم العلاقات العـاطفية بين الاثنين، ويساهم في انطلاقـة جيدة بالنسبة لهما. فـالوضع المتمثل بأخـذ الطفل بحنـو، وإعطـائه الثـدي يعتبر مصـدر رضى وسرور جسـدي وروحي بالنسبة للأم والطفل معا.

إن حليب كل نوع من الأنـواع يتلاءم ونمـوّ صغار هذا النـوع. فحليب الأم هو أكثر مناسبة للطفل، إذ تتناسب مركباته وحاجات الطفل خاصة في الأشهر الأولى. فمحتويات حليب الأم من مواد دهنية وسكرية وأملاح معدنية وفيتامينات.. تتلاءم تماما وعضـوية الطفل، وتضعه في مأمن من اضطرابـات عسر الهضم. لأنه يتضمن عناصر سهلة للهضم ومساعدة في الدفـاع عن العضوية ضد الأمراض المختلفة التي تهدد الطفل، لذا يعتبر حليب الأم أكثر طزاجة وأطيب مذاقا وأقل كلفة من كل أنواع الحليب.

بـالإضافـة إلى مـا سبق يعتبر اللبن رابطـة فيزيـولجيـة محسوسـة بين الطفل والأم وإمتـدادا لحبل الـولادة. فعلاقـة الطفل بـالثـدي تحل محل علاقتـه بحبل الـولادة. وخلال المراحل المختلفة من الحياة البشرية كان الإرضاع بواسطة الثدي يمثل الطريقة الحيويـة في تغذيـة الصغار. إذ كـان في ذلك الإمكانيـة الوحيـدة التي تسمح للطفل بالبقـاء. لذا فإن قـابلية الأم لتغذيـة طفلها متأصلـة جدا، وقـديما كان من أصعب الأشياء على الأم ألاّ يكون لديها الحليب الكافي لتغذية صغيرها.

بالإضافـة إلى الدور الحيوي للرضـاعة في التغذية، فهي تأخـذ الكثير من المعاني الـرمـزيـة، وتتشكل حـولها جملـة من الطقـوس والمعتقـدات ومنهـا مـا يشير إلى أن الخصـائص الوراثيـة غير مكتملـة عند الطفل بعـد الـولادة، ومع الحليب يمكن أن ينتقل إلى الطفل شيء مـا من خصـائص الأم، لأن نقل الخصـائص لا يتم فقط عن طريق «الدم» بل عن طريق «الحليب».

ومن هنا تأخذ المرضعة أهميـة خاصة في الثقافة العربيـة، فالأمومة لا تقتصر على الحمل والولادة بل تستمر أثنـاء الرضاعة. إذ تعتبر الأم المرضعة بنفس الـدرجة كالأم الـوالدة، حتى أصبحت الـرضاعـة في ترتيب الأخـوة الحقيقية إذ تحرم أكثـر المذاهب الإسلامية زواج الأخوين في الرضـاع. ومن خلال الأمثال الشعبية يمكن إدراك أهمية حليب الأم وعلاقة ذلك بـالقوة الجسدية لرجل المستقبل «فـالبطل المنقذ» من يرفض الظلم ويقيم العدالة يصفه الناس بأنه قد سبق له أن «شبع من حليب أمه».

الإرضـاع الاصطنـاعي :

إن إرضاع الطفل منـذ ملايين السنين بواسطة الثـدي حتمته ضرورة الحفاظ على بقاء النوع البشري. أما الآن فتلك الضرورة لم تعد ضرورة إذ تمكنت الصناعة من إيجاد البديل.

ليس الهدف من هـذا البحث إشعار الأمهـات بالـذنب وبالتقصير نتيجـة عدم إرضـاع أطفـالهن. فمن حق الأم حـريـة الاختيار، ويجب أن يُحترم قـرارهـا في إتبـاع الطريقة التي تراها مناسبة لتغذية طفلها. إلا أن الأم الشابة تجهل ـ في معظم الأحيان الجوانب الإيجابية أو السلبية لكـلا الطريقتين الطبيعية والصناعيـة في تغذية الطفل، وغالبـا مايتخذ القرار بـالاستناد لأسباب ثـانوية أو لنصيحة أشخـاص غير مؤهلين لإسداء النصح في هذا الميدان. فلا بد من اطلاع الأمهات على نتائج البحث المتعلقة بتغذية الطفل كي يُتخذ القرار بالاستنـاد إلى معرفة دقيقة بمختلف جوانب الموضوع، إلا أن ذلك ليس بالأمـر السهل، فتعميم النتائج المستقاة من المجتمعات الصنـاعية ينطوي على بعض المخـاطر، لأن ظروف الحيـاة الاجتماعية والاقتصاديـة تختلف عنها في العالم الثالث. فمثلا لقد انتشرت التغذية الصناعية في المجتمعات المتطوّرة دون أن تترافق بالأخطـار، إلاّ أن الأمر مغـاير لذلـك في البلدان الناميـة، إذ تعتبر الزجـاجة المرضعة سلاحا مميتا لنسبة عالية من الأطفال وذلك للأسباب التالية :

١ ـ إن انخفاض الدخل في بلدان العالم الثالث يجعل من سعر الحليب بالنسبة لموازنة الأسرة، عبئا كبيرا، فالتغذية اليومية لطفل في عمر ستة أشهر في الولايات المتحدة الأمريكيـة يمثل ٦٣٪ من أجر العـامل في مصر و ٥٨٪ في أفغانستـان. إن هذا العبء المادي يدفع الأمهـات إلى تخفيض المقادير المصطلح عليها بقصـد التوفير مما يؤدي إلى نقص كبير في المواد الغذائية اللازمة للطفل.

٢ ـ ان استخدام الـزجاجة المرضعة يحتاج إلى التقيـد الدقيق ببعض الشروط الصحية كالنظافة وتطهير الزجاجة بانتظام بواسطة الغلي. وليس ذلك دوما بالأمر اليسير في البلدان النامية، مما يجعل الزجاجة مصدرا للميكروبات والأمراض.

٣ ـ إن توفـر الإمكانات الطبية في البلدان المتطـورة يسمح بمعالجة الكثير من أمراض الطفولـة الناجمة عن نقص المنـاعة التي يـوفرها حليـب الأم. بينما لا تسمح هذه الإمكانات بذلك في الدول النامية.

٤ ـ إن فضائح شركة نستلة في السنوات الأخيرة قدمت مثلا صارخا على أن الكثير من الشركات العـالمية لا تتردد في أن تطـرح في أسواق العالم الثـالث أنواعـا رديئة من الحليب وأحيانا فـاسدة وفاقدة الصلاحيـة. فالعديد من الشركـات اللاهثة وراء الـربح لا تكترث بصحـة الأطفال خـاصـة في البلـدان النـامية. لقـد بين أحـد الأبحـاث بأن بعض هـذه الشركـات تمكنت حتى من اختراق القـائمين على الخدمات الطبية. ففي بعض دور الولادة تعطى الأم بعض العقاقير لوقف الإدرار دون أن يؤخذ رأيها ودون أن تعلم بذلك (Julien, 1980, p.55).

إن الأسباب الآنفة الذكر حملت منظمة الصحة العالمية على تبني التغذية الطبيعية للأطفال، وخاصة في البلدان النامية، وأوصت بعدم اللجوء إلى التغذية الصناعية إلاّ في الحالات الصحية الخاصة وبعد مراقبة طبية.

يجب إعلام الأم مبكرا أثناء الحمل وإطلاعهـا على طريقة تغذية الطفل لأن ذلك يحتـاج إلى وقت من التحضير النفسي، فلقـد لـوحظ مـؤخرا في البلـدان الصنـاعيـة تصاعد نسبة الأمهـات اللواتي يرضعن بواسطة الثدي في الاوسـاط المتعلمة مما يوضح أهمية توعية الأم في هذا الميدان.

يجب ألا نفهم ممـا تقدم رفض التغـذية الاصطنـاعية رفضـا أعمى. فالـزجاجـة المرضعة لابد منها عنـدما يتعذر على الأم إرضاع طفلها لأسباب صحيـة، أو عندما لا يكفي حليبها، فلا بد من تدعيم الرضاعة الطبيعية بواسطة الزجاجة. وبعد عمر (٤ ـ ٦) أشهـر يجب البدء بـادخال عنـاصر جديـدة في تغذيـة الطفل حيث يصبح حليب الأم غير كاف ليحقق النموّ المنـاسب. وهناك من يرى أن الرضـاعة الطبيعية يجب ألاّ تتجاوز مـدة ستة أشهـر (المرجع السابق)، يتوجب بعـدها إدخـال عناصر غذائية متنوعة تضمن للطفل نموا مناسبا في مختلف مراحل تطوره.

الإرضاع الطبيعي :

إن صحة المولود الجديد، وكذلك الطفل الصغير، تتطلب تغذية صحية وحماية ضد الالتهابات والهجمات الميكروبية. لقد قامت الأم المرضعة بتوفير ذلك عبر قرون طويلة. إلاّ أن إرضاع الصغير البشري ـ وعلى عكس الكثير من الثدييات ـ يعتبر جزءا من السلوك المتعلّم عند المرأة، لذا فهو يتأثر بالوسط الإجتماعي وبطريقة تحضير أم المستقبل، وإعلامها بكل مايتعلق بتغذية الطفل. ويتأثر سلوك الأم بتشجيع المجتمع ومساعدته لها ونظرة الوسط الاجتماعي لدور الرضاعة والطرق البديلة التي يقدمها هذا الوسط لتدعيم الإرضاع الطبيعي أو لتحلّ محله.

إن وجود البديل للإرضاع الطبيعي لم يكن ممكنا قبل بداية هذا القرن. فلقد كان الإرضاع بواسطة الثدي عنصرا أساسيا في عملية الإنجاب والمحافظة على النوع البشري، فالمحاولات الأولى في إيجاد البديل لثدي الأم أدت إلى نتائج سلبية وغير مشجعة. أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد بدأت نسبة الإرضاع الطبيعي تنخفض بالتدريج نتيجة للتقدم التقني في صناعة الحليب ونتيجة لعمل المرأة، خارج المنزل على نطاق واسع.

لقد ورد في دراسة منظمة الصحة العالمية أن الإرضاع الاصطناعي يتزايد باستمرار في بلدان العالم الثالث خاصة في الأوساط الاجتماعية الميسورة والمثقفة. على عكس ماهو الحال في الدول الصناعية ـ فهناك من ٢٠ إلى ٣٠٪ من الأمهات يستخدمن الإرضاع بواسطة الزجاجة منذ الولادة في مدن غواتيمالا والفيليبين. بينما تبقى هذه النسبة منخفضة في الأوساط الريفية.

وتجدر الإشارة إلى أنه في السويد وهنغاريا ـ حيث تتخذ السلطات إجراءات تشجيعية للإرضاع الطبيعي ـ تبقى نسبة هذا الإرضاع عند مختلف الفئات الاجتماعية أعلى منها بالمقارنة مع الفئات الاجتماعية التي تقطن المدن في الفيليبين وغواتيمالا. وتشير هذه النتائج إلى أن الإرضاع الطبيعي لا يتعارض مع التنظيم المدني الحديث المتوافق مع توعية جدية في هذا المجال.

الجوانب الايجابية والسلبية للرضاعة الطبيعية :

يعتبر حليب الأم من حيث تركيبه أفضل من الحليب الاصطناعي حيث يهيىء الشروط المثلى لنمو النسيج الدماغي وللوقاية من العديد من أمراض الطفولة ومن السمنة. كما أن مخاطر الالتهابات والتلوث بالميكروبات تقل في حالة الإرضاع الطبيعي بالمقارنة مع الرضاعة الاصطناعية. لقد تأكدت هذه المزايا في أبحاث حديثة نسبيا ولكن الفروق لم تكن دائما ذات دلالة قوية.

أما من الناحية النفسية فإن الفرق بين الطريقتين لم يتوضح بشكل قاطع حتى الآن. إلاّ أنه أصبح من المسلم به بأن التلامس الجسدي بين الأم وطفلها ــ والتي تفرضها الرضاعة الطبيعية ـ يمكن أن يؤثر تأثيرا هاما في تطور العلاقة بينهما فيما بعد.

أما سلبيات الإرضاع الطبيعي فأهمها أنه يستوجب حضور الأم في كل رضعة.

العوامل المؤثرة في الإرضاع الطبيعي :

من أهم العوامل المؤثرة في الإرضاع الطبيعي والمساعدة في اتباعه هو الوقت الفاصل بين الولادة والرضعة الأولى. فالأمهات اللواتي بدأن بالإرضاع خلال الـ ١٢ ساعة التي تلي الولادة يتزايد عندهن تكرار الإرضاع ومدته بالمقارنة مع الأمهات اللواتي بدأن ذلك بعد مضي (١٢) ساعة على الولادة.

بالإضافة إلى ذلك فإن إبقاء المولود في غرفة الأم يترابط مع تزايد في تكرار الإرضاع ومدته، فحضور الصغير يعتبر بمثابة المؤثر الذي ينشط الإدرار ويسهل عمل الغدد.

ويترافق إعطاء الثدي حسب طلب المولود عند إعلانه الجوع مع إدرار أغزر ومع مصّ أقوى من قبل الرضيع. فالأمهات اللواتي يعطين الثدي عند الطلب يتابعن الإرضاع مدة زمنية أطول من اللواتي يعطينه في ساعات محددة.

وتجدر الإشارة إلى أن خصائص أسرة الأم قد تؤثر في الإرضاع ويُشاع أن الأمهات

اللـواتي ينتسبن إلى أسرة كبيرة العـدد يمكن أن يعطين الثدي بنسبـة أكبر من اللـواتي ينتسبن إلى أسر صغيرة . إلا أن نتـائج البحث لم تـؤكـد هذا القـول الـذي يستنـد إلى الفكـرة القـائلـة بأن المرأة التي تعيش في وسط عـائلي محدود العـدد تفتقـد الـدعم والتشجيع الذي يساعدها على تحضير نفسهـا لمهمة الإرضاع . ويمكن تحديد بعض العوامل الأخرى التي تؤثر في طريقة الإرضاع :

١ ـ المستـوى التربـوي :

إن النتائج المتعلقة بالمستوى الثقافي ـــ التربوي للأم تختلف حسب بلد الدراسة . ففي البلدان الصنـاعية (السـويد، بريطـانيا، الولايـات المتحدة الأميريكيـة) يرتبط المستوى التربوي بشكل إيجابي مع الإرضاع الطبيعي، حيـث ترتفع نسبة الإرضاع مع ارتفاع المستـوى الثقافي ـــ التربوي للأمهـات . بينما يكون الأمـر معكوسـا في البلدان النامية إذ تقل نسبة المرضعات في الأوساط المتعلمة . توضح هذه الظاهرة أن الأنظمة التربـوية في البلـدان الصناعيـة تأخذ بعين الاعتبـار الأهداف الصحيـة، وتسهم في إعداد الفرد إعدادا مناسبا بينما لا يؤخذ ذلك مأخذ الجد في البلدان النامية .

٢ ـ عمر الأم وترتيب الطفل بالنسبة للأخوة والأخوات :

إنه من المعتقد بأن فعالية الإدرار تكتمل ـ كغيرها من الجوانب المتعلقة بالإنجاب ـ قبل عمر العشرين سنـة، وتطرح المشكلة بصورة حـادة إذا علمنا بأن نسبة (٧٢٪) من الولادات الأولى في بعض بلدان العالم الثالث تحدث قبل أن تبلغ الأم الثامنة عشرة من العمر حيث ترتبط هـذه المشكلة ـ إلى حد بعيد ـــ بوضع المرأة الثقافي والاجتماعي (التنير ١٩٨٣) . إن الأبحـاث التي تنـاولت هـذه المشكلـة تقتصر على المجتمعـات الصناعية دون غيرها، ونحن لا نعرف الآثـار المترتبة على الإنجاب المبكر . فما يسمى في الغرب بمشكلة أمومة المراهقات تختلف عن مشكلة الإنجاب المبكر في مجتمعاتنا . إلاّ أن القاعـدة المشتركة لهذه الظـاهرة هي عدم نضج الأم وعـدم قدرتها على ممـارسة أمومتها وتحمل مسؤولية مولود جديد وتربيته و إعداده بطريقة مناسبة .

تقوم القابلة (الداية) المحلية بـدور هام في ميدان الرضاعة الطبيعية، فهي تشرف

على الـولادة وتعمل على عـزل الأم والطفل معاً لمدة تتراوح بين (٢١) إلى (٤٠) يـومـا تلجأ خلالها الأم مع طفلها إلى الراحة والسكينة مما يوفر لهما فرصة التفاعل معا، وتقوم القـابلة خـلال هـذه الفترة بـزيارة الأم يـوميـا، وتشرف على العنـاية بـالطفل وتقـوم بمساعدة الأم. وتكون الداية مصدرا للثقة والطمأنينة بالنسبة للأم الشابة قليلة الخبرة فهي تسـاعدهـا علي المضي قدمـا بدورهـا الأمومي، وخـاصة في تأسيس الـرضاعـة وإنجاحها (المصدر السابق).

إلاّ أن الأم ـ في حالة الإنجـاب المبكر ـ غالبا ما تكون منفعلـة لا فاعله. تعتمد إلى حـد كبير على ذوات الخبرة والتجربـة ممن يحطن بها. وهـذا ما يترك بعض الآثـار السلبية، وينعكس على أمومتها، فهي تميل إلى تقليد بعض أنماط السلوك الثابتة غير الملائمـة عنـد تعـاملهـا مع الصغير، إن هـذه المشكلـة تستلـزم جهـودا كبيرة على الصعيـدين التربوي والتشريعي، وذلك بتـوعية النـاشئة للجـوانب السلبية للـزواج والإنجـاب المبكرين، وسن التشريعـات والقوانين التي تحدد سن الـزواج بعد بلـوغ الثامنة عشرة على الأقل.

إن الإرضـاع الطبيعي للطفـل الأول على درجـة بـالغــة من الأهميـة لأن احتمال الإرضاع يكون قويا جـدا لدى الأم التي أرضعت طفلا سابقا (Garballo, 1980)، ويقل هذا الاحتمال عنـد الأم التي لم ترضع طفلهـا السابق. فـالتجربـة ضرورية قبل الـوصول إلى قمـة الأداء. فالأم التي لا تـرضع طفلها الأول ينـدر أن ترضع الأطفـال الآخرين.

٣ ـ المستوى الاقتصادي الاجتماعي:

من المؤسف بأننـا لا نملك إحصـاءات عن العـالم العـربي تتعلق بطرق تغـذيـة الطفل. ونخشى أن يكـون الأمـر مشـابها لما هو عليـه الحال في بعض بلـدان العـالم الثالـث حيث ترتفع نسبـة الإرضاع الإصطنـاعي في الأوساط الاجتماعيـة الميسورة في الفيلبين وغواتيمالا وأثيـوبيا مثـلا. وترتفع هـذه النسبة كـذلك عند الأمهـات اللواتي يلدن في المستشفـى أو في دار التوليـد بالمقارنـة مع الأمهـات اللواتي يلـدن في المنزل.

ويُعتقد بأن انتشار الطرق الاصطناعية يعبر عن الانتماء الاجتماعي وعلى القدرة المالية لتي تسمح «بالتمدّن» واستهلاك المواد الصناعية المستوردة وبالتالي «الارتقاء» في السلم الاجتماعي الاقتصادي.

٤ ـ الإعلام والضغط الدعائي :

إننا نعيش في عصر الإعلام الذي يغزو أدمغة البشر صغارا وكبارا صباحا ومساء. وكل منا يعرف كيف تقدم الدعاية أغذية الأطفال بطرق جذابة، وكيف تربط بين صورة الطفل الجميل ذي الحيوية والنشاط وبين هذا النوع أو ذاك من الحليب المصنع. فالدعاية تشحذ الرغبة للاستهلاك، وتحمل المرء على تغيير سلوكه لأسباب غير موضوعية. وتقوم الشركات المنتجة بتقديم نماذج «مجانية» من منتجاتها لدور الولادة. فتبدأ الأم باستعمال نوع محدد من الحليب «المجاني» في الأيام الأولى لتجد نفسها مرغمة على شرائه فيما بعد ويصعب على الأم الشابة أن تقاوم وسائل الضغط الإعلامي المتنوعة في غياب التوعية القائمة على المعرفة الحقيقية بطرق تغذية الطفل.

٥ ـ إخفاق الأم في إرضاع طفلها بشكل كاف :

لقد بينت إحدى الدراسات أن ٤٣٪ من الأمهات اللواتي يخترن إرضاع الطفل بواسطة الثدي يتوقفن عن ذلك قبل عمر (١٥) يوما وذلك بسبب الفشل في تغذية الصغير كما أثبتت ذلك فرانسواز جوليان (Francoise Julien, 1980). وترى هذه الباحثة أن أسباب الفشل تعود إلى أن دور الولادة بالرغم من فعاليتها من الناحية التقنية وتجهيزها بأحدث الوسائل والامكانات، تفتقر إلى معرفة دقيقة بالعوامل المؤثرة في سلوك الأمومة، ففصل الطفل عن الأم بعد الولادة وعزل الصغير ومنع الأم من لمسة يؤثر في الإدرار وفي انتظام عملية الرضاعة الطبيعية وخاصة في الأيام الأولى بعد الولادة.

إن عزل الصغير بقصد حمايته من الميكروبات يجب أن لا يؤدي إلى منع التبادل بين الطفل والأم وبالتالي إلى عرقلة الرضاعة الطبيعية.

لقد تمكنت هذه الباحثة من جمع الكثير من الشهادات من أمهات يرغبن في إرضاع أطفالهن، إلاّ أن جهل القائمين على دور الولادة بأهمية هذه المسألة أدى إلى تعطيل هذا الدور. فالكثير من المواقف الجامدة، والكثير من النصائح المغلوطة تأخذها الأم وكأنها حقيقة وذلك لصدورها عمّن يرتدي الثوب الأبيض ثوب «الطب والعلم».

إن تدارك المشكلة يجب أن يستند إلى سياسة تسهل على الأم المرضع القيام بمهمتها، وذلك عن طريق تربية الكوادر القادرة على مساعدة الأم، وإعادة النظر في تأهيل الكوادر الصحية بحيث تستوعب أبعاد المشكلة وأهميتها. ولا بد من سن التشريعات والقوانين التي تمكن الأم من التفرغ لأمومتها لمدة لا تقل عن ستة أشهر. إن في تجربة السويد مثلا يجب أخذه بعين الاعتبار إذ تصل نسبة الأمهات المرضعات إلى (٩٤٪). ويعود الفضل في هذه النسبة المرتفعة إلى البرنامج المكثف الذي وضعته ونفذته السلطات السويدية في توعية كافة القطاعات العاملة في الصحة والتربية والشؤون الاجتماعية حول أهمية الرضاعة الطبيعية.

وفي دراسة أخرى لـ سنو (Snow et al., 1979) تبين أثر تشجيع القائمين على دور التوليد للأم في مدة الرضاعة الطبيعية. فالأمهات الإنجليزيات يرضعن مدة أطول من الأمهات الألمانيات ويعزى ذلك إلى أن دور التوليد الإنجليزية تشجع الرضاعة الطبيعية وهذا ما يفسر رغبة الأمهات في الإرضاع لمدة ستة أشهر. بينما لا تتجاوز هذه المدة عدة أسابيع بالنسبة للأمهات الألمانيات حيث لا تشجع دور التوليد مسألة الرضاعة الطبيعية.

فيزيولوجيـــة الرضاعـــة

١ ـ إفراز الحليب :

إن الثدي هو غدة تفرز الحليب وعضلة قابلة للدفع نحو الخارج في آن واحد. وتعتمد بداية إفراز الحليب على سياق هرموني لا يخطيء، إذ يحدث هذا الإفراز تحت

تأثير البرولاكتين * (Prolactine). وجميع النساء يفرزن الحليب بعد الولادة، ولكي يحصل صعود الحليب بشكل مناسب لابد من وضع الطفل على الثدي، وحدوث ذلك يرتبط ـ إلى حد بعيد ـ بحضور الطفل وبحاجته للرضاعة، وفعالية رضعاته وقوتها. إن علامات الرضى التي تلاحظها الأم عند الطفل أثناء الرضاعة تشجع إفراز المزيد من الحليب. ويترتب على الأم أن تتخذ المبادرة وتبدأ الخطوة الأولى لتهييء نفسها وصغيرها للرضاعة. وذلك على عكس الأمر عند الكثير من الكائنات الأخرى حيث يقوم الصغير بالبحث عن الحلمة مستعينا بالرائحة للوصول الموفق إلى الهدف، فالرضاعة الناجحة تستلزم أن يتمكن الصغير من أن يجد الثدي ويمصه بعد الولادة مباشرة ويكون ذلك ممكنا عندما تتقبله الأم وتوفر له الفرصة لذلك. وكلما وضع الطفل مبكرا على الثدي كلما ساعد ذلك في صعود الحليب وانتظام عملية الرضاعة. بالإضافة إلى ذلك فإن للرضعات الأولى أهمية خاصة لكون الحليب بعد الولادة يحتوى على نسبة عالية من الكولوستروم (Colostrum)؛ ويكون حليب الأم المصدر الوحيد لذلك، وهو ذو أهمية خاصة لإحتوائه على كميات كبيرة من المركبات (I G A) التي تساعد على تقوية الأمعاء وتحصينها. وفي غياب هذه المركبات تكون أمعاء الطفل عرضة لاختراق الفيروسات والميكروبات، مما يؤدي إلى إصابات عديدة وإلى ظهور أعراض الربو والأكزيما في بعض الأحيان. فالطفل لا يتمكن من تكوين هذه المركبات بمعزل عن حليب الأم قبل عمر خمسة أشهر (*Julien, F., 1980*).

أما بالنسبة للأم فالمص المبكر للحلمات، بعد الولادة، يؤدي إلى تقلصات رحمية تحد من استمرار النزف.

إن استمرار إفراز الحليب في الأسابيع الأولى يعتمد على البرولاكتين حيث يؤدي مص حلمة الثدي إلى تنشيط الأجزاء الدماغية التي تعمل على إفراز البرولاكتين الذي يساهم بدوره مساهمة أساسية في استمرار الإدرار وغزارته. وتحدد كمية الحليب المفرزة حسب «طلب» الطفل. فدرجة جوع الطفل تحدد فعالية رضعاته وقوتها وهذا يؤدي بالتالي إلى دفع الأم إلى الإدرار. فالطفل يساهم بانتاج غذائه بنفسه بواسطة رضاعة

* هرمون يفرزه الدماغ.

الثدي. فهو إذن يلعب دورا فاعلا في عملية إنتاج الحليب ولابد من إرضاعه بتكرار وانتظام لكي يستمر الإدرار. إن ذلك يبين مدى خطورة الفصل بين الأم وطفلها في اضطراب آلية الإدرار.

٢ ـ دفع الحليب :

يدفع الثدي الحليب بشكل نشيط أثناء الرضاعة. وتتم إثارة هذه العملية تحت تأثير المص من قبل الطفل. إن دفع الحليب يرتبط بالعوامل النفسية والحسية والعاطفية التي تحيط بالأم والطفل (المصدر السابق)، ويتعلق ذلك بمنعكس عصبي هرموني، إذ تنشط المؤثرات الإيجابية إفراز هرمون الأوسيتوسين (Ocy-tocine)، وبالتالي دفع وضخ الحليب؛ ومن هذه المؤثرات رؤية الطفل وصرخاته وسلوكه المعبر عن الجوع. ولكن المؤثرات السلبية يمكن أن تلعب دورا معاكسا، فالألم والقلق أو الخوف من عدم توفر الحليب يمكن أن يؤدي إلى منع منعكس الضخ ـ أو الدفع ـ عن العمل وذلك بالرغم من الرضاعة الفعالة للطفل. من هذا تبدو أهمية مساعدة الأم وطمأنتها حول قدرتها على إرضاع طفلها. فهذه النقطة غالبا ما يتم تجاهلها في المستشفيات الحديثة، وكما تقول فرانسواز جوليان (المرجع السابق) إن موقف الفريق الذي يشرف على العناية في دور الولادة الحديثة يتناقض مع القواعد الأساسية لفيزيولوجية الرضاعة.

٣ ـ الأداء في الرضاعة :

يرتبط مستوى الأداء في الرضاعة بشروط التغذية وبعوامل فيزيولوجية عديدة. ففي الأسابيع الأخيرة من الحمل تختزن المرأة كمية من الطاقة تعمل كاحتياطي في حالة الحرمان المفاجىء من الغذاء، وتكون الأم المرضعة أقدر من الأم التي لا تغذي طفلها بالثدي على التخلص من هذا المخزون والعودة إلى الحالة الجسدية التي سبقت الحمل. إن الدهن المختزن يتحول إلى طاقة في الحليب، وكذلك تحول طاقة غذاء الأم إلى حليب بكفاءة عالية، وهذا يفسّر قدرة الأم على إرضاع طفلها وإشباعه رغم بسوء التغذية التي قد تعاني منها.

بالإضـافة إلى ذلك تنخفض قـدرة المرأة على الأداء مع التقدم في السـن، ونتيجة لطول المدة الزمنية الفاصلة بين النضج عند البلـوغ وقيام الغدة بوظيفتها بعد الولادة. كما تؤثر التجربة في الرضاعة حيث يكـون الإرضاع في المرة الثانية والثالثة أكثر نجاحا من المرة الأولى.

وتجدر الإشـارة إلى أن الأم التي تتفـاعل مع صغيرهـا بمـرح وحبور تكـون أكثـر نجاحا في إرضـاع طفلها. فالثقة بـالنفس والشعور بالسرور والرضـى والبيئة المفعمة بالتعاطف والصداقة تعزز وتشجع تطور عملية الرضاعة.

الاخفاق في سلوك الإرضاع:

يجب أن يتم إعداد الأم للإرضاع في المرحلة التي تسبق الولادة. وذلك بمساعدتها وإقناعهـا بتكوين اتجاه إيجابي نحو الـرضاعـة الطبيعية. ففرص النجـاح في الإرضاع الطبيعي تتـزايـد عندمـا تكـون لـدى الأم رغبـة حقيقية بـذلك، حيث تبين إحـدى الدراسات أن ٧٤٪ من الأمهات ذات الإتجاه الايجابي نحو الـرضاعة الطبيعية، يتوفر لديهن الحليب الكـافي بعد خمسة أيـام من الولادة، وذلك مقـابل ٣٥٪ من الأمهات اللواتي لا يمتلكن مثل هذا الاتجاه (التنير، ١٩٨٣ ص ١١٨). وتكـون هذه النسبة ٢٦٪ بين الأمهـات ذوات الاتجاه السلبـي. ويمكن أن يـرجع الإخفــاق في سلـوك الإرضاع إلى الأسباب التالية:

١ ـ **تأخر الرضعة الأولى**: من أهم الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى الفشل في تحقيق الإرضاع تأخر الرضعة الأولى خـاصة في دور الولادة الحديثة حيث ينتزع الطفل من أمه بعد الولادة إذ تعتبر الأم الشابة ـ من قبل القائمين على هذه الدور ـ جاهلة بما يتعلق بالعنـاية بأمر الطفل. وغـالبا ماتفـرض عليها قواعـد صارمة تتعلق بحـريتها بحمل الطفل أو إرضاعه ومـاعليها إلاّ الاذعان. إن هذا الأمر على غـاية من الأهمية من الناحيـة النفسية، إذ يفقـد الأم الشابـة ثقتها بنفسهـا وقدرتها على تأمين العنـاية والأمن لطفلهـا، وهذا مـايؤثـر سلبـا في الإرضاع. لـذا يجب إعادة النظـر في تأهيل القائمين على شـؤون الولادة. فإنـه من اللازم مساعـدة الأم ودعمها في هـذه المرحلة

الصعبة على الصعيدين الجسدي والنفسي. ويجب أن تسهم هـذه المساعدة في تعزيز الثقة بالنفس والقدرة على ممارسة دورها كأم وعدم إشعارها بانتزاع هذا الدور.

إن تأخير إعادة الطفل إلى أمـه كي ترضعـه غالبا مـايؤدي إلى اضطـراب السياق الذي يسهل انطلاقة سلوك الإرضاع. فلقد أوضحـت دراسة الدكتور كاربالو (Car-ballo, 1980) بأن نسبة الإرضاع الطبيعي عند الأمهـات اللواتي يلدن في دور الولادة تكون منخفضـة بالمقارنة مع الأمهـات اللواتي يلدن في المنزل. فـالانتظار كي تتمكن الأم من تجاوز الإرهاق النـاجم عن الولادة قبل إعطائها الطفل قـد يلعب دورا سلبيا في سلوك الإرضاع الذي يجب تحقيقه في أبكر وقت ممكن بعد الولادة.

ومن المعـروف عـدم وجود الحليب في الأيـام الأولى التي تلي الـولادة. ومن الخطأ القول لـلأم «ليس لديك حليب» فقـد يؤدي ذلك إلى تـلاشي سلوك الإرضـاع الذي يعتبر في بداياته. وتتطلب الرضعة الأولى تنسيقا كاملا بين سلوك الأم وسلوك الطفل فالطفل لديـه غريزة البحث وإيجاد حلمة الثدي ثم مصهـا في السـاعة الأولى التي تلي الـولادة (Odent, 1979) . فلابد إذن من تهيئـة الشروط التي تسمح للأم والطفل بتحقيق ذلك.

٢ ـ **الإرضـاع في ساعـات محددة:** لقـد أشار الكثير من المختصين إلى سلبيـات الإرضاع في سـاعات ثابتـة ومحددة. ففي البداية وقبل أن تتم عمليـة صعود الحليب بشكل كامل «يجب أن يكون الهدف هو تأمين إفراز الحليب وتنشيطه، ولتحقيق ذلك يجب عدم اتبـاع قاعدة جـامدة. فالإفـراز أو الإدرار يرتفع بارتفـاع عدد المرات التي يوضع فيها الطفل على الثدي وبقدر مايفرغ الثدي في كل رضعة. فيجب إذن إعطاء الثدي للطفل في كل مـرة يعلن عن ذلك. ومن الأفضل أن تكون الـرضعات قصيرة ويجب أن تتوقف عند توقف الطفل من أخذ الثدي (المصدر السابق).

فبقـدر ارتفـاع الامتصـاص عنـد الطفل يـرتفع الإدرار عنـد الأم. فغـدد الإدرار تستجيب لطلب الطفل وحـاجتـه. وهـذا المفهـوم غير معـروف حتى في الكثير من الأوساط الصحية العاملة في دور الولادة. فمن الواجب شرح هذا السياق لكل امرأة تنتظر طفلا خاصة قبل الولادة الأولى.

٣ ـ **وزن الرضعات وإضافة الحليب الاصطناعي** : لقد درجت العادة في دور الولادة على وزن الطفل قبل الرضاعة وبعدها لمعرفة نصيبية من الحليب والتحقق مما إذا كان قد رضع مافيه الكفاية . إن الطفل حسب رأي المختصين يجب أن يرضع (٦) مرات في اليوم خلال الأيام الثلاثة الأولى . ويجب أن يكون مقدار الرضعة في اليوم الأول (١٠) غ ويرتفع إلى (٢٠)غ في اليوم الثاني ثم إلى (٣٠) غ في اليوم الثالث . وغالبا مايعطى حليب الزجاجة إذا لم يأخذ الطفل ما «يجب» أخذه ، ويتم تحذير الأم إذا أخذ الطفل أكثر مما «يجب» ، إن التطبيق الحرفي الجامد لهذا المفهوم قد ينعكس سلبا على سلوك الإرضاع الطبيعي فالطفل قد يرغب أحيانا في أخذ بضع غرامات أكثر أو أقل مما يحدده له «المختص» ، ويتم تأنيب الأم إذا أخذ الطفل بعض الغرامات زيادة عما يستحق ، أو يتم إعطاؤه حليب الزجاجة إذا نقص عليه بعض الغرامات . وإن ذلك يمكن أن يؤدي إلى اضطراب الإرضاع إذ تتفاوت الرغبة في الرضاعة بين طفل وآخر ، فلا نستطيع أن نتصّور أن الطفل الذي يزن (٤) كغ سيكتفي بنفس الكمية التي يأخذها من يزن (٢) كغ . فيجب التريث والمرونة كي يتم السماح لسلوك الإرضاع الطبيعي بالتحقق ، إذ ساهم هذا السلوك بالمحافظة على النوع البشري وبتغذية الصغار منذ فجر الإنسانية . فالتقدم العلمي والتقني يجب أن يدعم هذا السلوك ويساعده على التحقق بما فيه خير الأم والطفل . . فالمراقبة الطبية لاستدراك الحالات الخاصة والنادرة التي تحتاج إلى تدخل هام يجب ألاّ يعرقل الانطلاقة الصحيحة لسلوك الإرضاع .

٤ ـ **استخدام الأجهزة في سحب حليب الأم** : لقد تم تطبيق هذه «التقنية» حديثا في بعض دور الولادة ، وتقوم على سحب الحليب قبل صعوده بواسطة آلة كهربائية وذلك بقصد «تسهيل» صعود الحليب . وأحيانا بقصد التخفيف من آلام الأم في حالة صعود الحليب .

إن هذه العملية تلغي دور الطفل ، وتعطل المنعكسات الطبيعية التي تؤدي إلى الإرضاع وغالبا ما تؤدي إلى عكس النتيجة المنتظرة .

الملاحظات التي يجب مراعاتها في الرضاعة

١ ــ يجب حماية العلاقة المبكرة بين الطفل والأم وعدم فصلهما بعد الولادة إلاّ لأسباب صحية جدية. فوجود الطفل بالقرب من أمه يساهم في إقامة التفاهم المتبادل بينهما، فهو سيرضع ويعرف كيف يعلن عن جوعه، فهو يرفع رأسه ويستنشف بواسطة أنفه ويحرك شفتيه وإذا لم يلبّ طلبه يبدأ بالصراخ. وسرعان ماتدرك الأم معنى هذه الإشارات ويبدأ الاتصال بالتعابير والرموز بين الأم والطفل.

٢ ـ إن فعالية منعكس المص عند الطفل تكون في أوجها خلال الساعات الأولى من حياته. وتبدأ هذه الفعالية بالهبوط اعتبارا من الساعة السادسة بعد الولادة ولا تعود إلى فعاليتها السابقة قبل (٤٨) ساعة (Thirion, 1980).

٣ ـ إن الطفل الذي يبدأ بالرضاعة الطبيعية سيجد التوازن الغذائي خلال عدة أيام أو عدة أسابيع، على أن يعطى الثدي عند الطلب. ويجب عدم إرغامه على الرضاعة مهما كانت طريقة تغذيته، وعدم إيقاظه لهذا الغرض بل يجب إعطاؤه الغذاء عندما يعلن عن ذلك. فعدد الرضعات وانتظامها يحددها الطفل بحسب حاجته لا بالاستناد إلى توقيت محدد. وهذا يتطلب المرونة في وقت الرضاعة مع محاولة جعل المدة الفاصلة بين الرضعة والأخرى تتراوح بين الساعتين والساعتين ونصف على الأقل فذلك يساعد على انتظام هضم الطفل ونومه. إلا أنه ليس من المفيد ايقاظه الطفل حتى بعد (٥) أو (٦) ساعات من النوم بقصد إرضاعه. فحاجة الطفل العضوية وتوقيت إعلانه عن هذه الحاجة يمكن أن يكون مقبولا مع محاولة التعديل الخفيف والتدريجي الممتد طيلة أسبوعين بحيث تتركز معظم الرضعات في النهار.

٤ ـ إن عدد الرضعات يتغير من طفل إلى آخر ويتراوح من (٤) إلى (٨) رضعات في الـ (٢٤) ساعة والكثير من الصغار يأخذون (٦) رضعات تقريبا. إلا أن هذا يمكن أن يتغير من يوم إلى آخر. وتتغير مدة الرضعة الواحدة عند الأطفال ويجب أن

تتصف بالمرونة مع محاولة تمديدها من (١٠) دقائق إلى (٣٠) دقيقة لعدم إرهاق الأم. ويجب أن يترك تحديد كمية الحليب المأخوذة في كل رضعة للطفل وأن تحدد الأم إعطاء الثدي الواحد أو الاثنين معا في كل رضعة وذلك حسب عمر الطفل وغزارة الإدرار.

إن المرونة المطلوبة في عدد الرضعات اليومية ومدتها وكمية الحليب المأخوذة من الثدي ــ لا تعني غياب المراقبة واليقظة. فالطريقة الأفضل لمراقبة غذاء الطفل هي ملاحظة سلوكه، فإذا نام بعد الرضاعة بانشراح وهدوء من ساعتين إلى ثلاث ساعات يمكن الاطمئنان إلى أن تغذيته صحيحة.

الصعوبات التي يمكن أن تواجهها الأم في بداية الإرضاع

بالرغم من أن الإرضاع عمل طبيعي وسهل إلاّ أنه ينطوي على بعض الصعوبات خاصة في البداية. إن هذه الصعوبات قد تكون السبب في توقف الأم عن إعطاء الثدي واستبداله بالزجاجة. ويمكن إيجاز هذه الصعوبات بمايلي:

أولا: الإخفاق في إعطاء الثدي للطفل عندما يظهر علامات الجوع وتقوم الأم بإعطائه الثدي فيرفض ذلك. فقد لايتمكن من التقاط الحلمة أو يرفض المص. وأحيانا يمكن للطفل أن يرضع بعض اللحظات ثم يلقي برأسه إلى الخلف بعيدا عن الثدي ويترافق ذلك بالبكاء والصراخ بعصبية. وفي هذه الحالة يجب عدم الالحاح في محاولة إقناع الطفل بأخذ الثدي لأن ذلك قد يؤدي إلى تعقيد الأمر لدى الطفل ولدى الأم وبالتالي إلى الإخفاق في الإرضاع. وحيال هذا الوضع يجب اتخاذ الاحتياطات التالية:

- عدم وضع أي شيء على الثدي فالطفل مرهف الحساسية لرائحة الثدي ويمكنه بواسطتها التعرف على الحلمة، ووجود رائحة أخرى قد يؤدي إلى اضطراب هذه العملية.

- يجب أن يكون الطفل حرا طليقا في حركاته غير مثبت في وضع جامد. بل يجب

دعمـه بمـرونة وحنـو. كما يجب أن يكـون تنفس الطفل أكثـر انتظـاما في حـالـة الرضاعة الطبيعية بالمقارنة مع الرضاعة بواسطة الزجاجة (التنير ١٩٨٣).

- عنـدما لا يرغب الطفل في المص. يجب عدم إرغـامه على ذلك وتركه بـالقرب من صدر الأم دون محاولة متابعة الإرضاع مما يؤدي إلى استكانته وهدوئه.

- عـدم إعطائه الـزجاجـة في حال صعـوبة الإرضـاع، لأن في إمكانـه الحصول على حليب الزجاجة بسهـولة مفرطة، وتعود الطفل على ذلك قد يـدفعه للاستمرار في رفض حلمة الثدي.

- يجب أن تدرك الأم أن الإخفاق في الإرضاع، مـرة أو عدة مرات، ليس مسألة كبيرة الأهمية، فمن الممكن للطفل بعد فترة من الراحة والهدوء أن ينجح في أخذ الثدي ومـايحتـاجـه من الغـذاء. فـلابـد من الانتظـار بعض الـوقت والتحلي بـالهدوء والطمأنينة وعدم إظهار القلق.

ثانيا : البطء في صعود الحليب : بالرغم من المص بفعالية تستمر معاناة الطفل من الجوع لأن الحليب يصعـد ببطء شـديد. إن السبب الأسـاسي في ذلك غـالبا مـا يكون طريقة الإرضـاع غير المناسبة. التأخر في إعطاء الثدي بعـد الولادة، وقلة عدد الـرضعـات قـد يـؤدي إلى هـذه الأعـراض، ويمكن تـلافي ذلك بمضـاعفـة عـدد الرضعات؛ وتنصح الأم بالراحة وبالشرب المتزايد، وبتجنب القلق لأنه يؤثر أيضا في عرقلة فيزيولوجية الرضاعة.

وفي حال استمرار هذه الظاهـرة بعد اليوم الرابع، يمكن إكمال الإرضاع الطبيعي باستخدام الزجاجة بعد كل رضعة بحيث يمكن للطفل أن يأخذ مايحتاجه. ويمكن استخدام ذلك في مرحلة انتقالية ريثما تتـزايد كمية الإدرار. وعندما يشبع الطفل عن طريق الإرضاع الطبيعي سيرفض بطبيعة الحال الرضاعة من الزجاجة.

ثالثـا : الإرهاق الذي تعاني منه الأم: تتعـرض الأم لحالة من التعب خاصة إذا تعـرضت لبعض التعقيـدات أثنـاء الـولادة . إلا أن ذلك لا يمنع الإرضـاع فيجب

مساعدة الأم لتجاوز هذه المرحلة الصعبة وتشجيعها لاستعادة قواها الجسدية والمعنوية .

رابعا : الصعوبة في استيقاظ الطفل : قد تكون الصعوبة في استيقاظ الطفل سببا في اضطراب الإرضاع ، ويمكن تجنب هذه المشكلة لأنها غير قائمة في حال حصول الطفل على الكمية اللازمة لنموّه نمّوا عاديا بالرغم من أخذه ثلاث أو أربع رضعات فقط . ففي هذه الحالة يجب عدمُ القلق واحترامُ حرية الطفل في النوم والرضاعة طالما أنه يأخذ في عدد قليل من الوجبات كمية الحليب اللازمة لنموه نموا سليما . أما في بعض الحالات النادرة وخاصة عند الأطفال المولودين قبل الأوان ، وعندما ينام الطفل بشكل مفرط ، ولا يستيقظ بمفرده ، ويعاني من توقف منحنى النمو، يجب تدخل الطبيب لمعالجة كل حالة فردية بحيث يتمكن الصغير من النمو الطبيعي .

بالإضافة إلى ذلك فردود فعل الطفل المتعلقة بالرضاعة تتطلب سلامة الجهاز العصبي الحركي فاستخدام الأم للعقاقير المخدرة أو المنومة قد يضعف استجابات الصغير لمؤثرات البيئة ، ويعرقل التعلم في المواقف الغذائية الأولى ، فضعف الامتصاص الناجم عن مثل هذه العقاقير يؤدي إلى ضعف استجابة ثدي الأم للإرضاع .

وأخيرا لا بد من اليقظة ومضاعفة الاهتمام خلال الأسبوعين الأولين بعد الولادة . فإذا سارت الأمور بشكل مناسب في هذه الفترة تبقى إمكانية التعقيدات محدودة جدا بعدها ، ويمكن للإرضاع الطبيعي أن يسير دون إشكالات ، مما يمهد الطريق لانطلاقة سليمة في العلاقة بين الأم والطفل .

الفصل الخامس
تكيف الصغير وسلوك الأمومة

القدرات التكيفيّة عند الطفل الحديث الولادة

في المرحلة مابين الولادة وعمر السنتين، يحدث التغير النضجي الأكثر أهمية في حياة الإنسان، فخلال الثمانية عشر شهرا الأولى ينمو الدماغ بسرعة لن يعرفها في المستقبل (Pomerleau et Malcuit, 1983). وتزداد أهمية مرحلة النضج السريع عند توفر المؤثرات الكافية والمتنوعة لأن تطور الطفل وتفتح شخصيته يرتبط بعوامل المحيط المادي والاجتماعي.

لقد كان يعتقد بأن الطفل الحديث الولادة غير قادر على استيعاب المعلومات القادمة من المحيط الخارجي، وكان يعتبر محدود النشاط النفسي متسما بالغموض وعدم الانتظام، وكان يظن أن كل ما في وسع الطفل أن يفعله هو أن يأكل وينام، فانتظام تجاربه يضمنه له الأهل بصورة خاصة، وهذا ما يحمل التنظيم والتنسيق إلى ذهنه (Schaffer, 1981). كانت هذه الأفكار نتيجة لجهلنا بقدرات الطفل المختلفة ولعدم تمكننا من تقدير إمكاناته تقديرا قريبا من الواقع.

إن الأمر يختلف كليا الآن حيث تضاعفت معارفنا عن سلوك الطفل الحديث الولادة خاصة خلال العقدين الماضيين، مما ساهم في دحض الكثير من الأفكار الخاطئة. فالطرق والمناهج تسمح بقياس جوانب عديدة من سلوك الطفل، والتعرف على جوانب كانت مجهولة قبل سنوات. إن تراكم المعارف في هذا الميدان يوضح أن مختلف جوانب حياة الصغير تخضع لتنظيم معين وأنه أكثر قدرة مما كان يعتقد.

لقد بدأ الباحثون حديثا باكتشاف القدرات المختلفة للطفل الحديث الولادة،

خاصة القدرات المتعلقة بالتواصل «والتفاهم» مع العالم الخارجي. فبعد الولادة مباشرة يستطيع الصغير أن يستخلص الأوكسجين، ويمسك حلمة الشدي بفمه، ويمتص الحليب بشكل صحيح، ويعبر عن استيائه باعلان الصراخ أو عن ارتياحه بانفراج أسارير الوجه. ويكون الطفل جاهزا لتمارس أجهزته العضوية وظائفها المختلفة، ويحتاج إلى بعض الوقت كي تترسخ آلياته المتعلقة بالتنفس والهضم والطرح وكذلك آلياته الهرمونية التي يجب أن تتلاءم مع الوسط الجديد، ويختلف وزن الوليد حسب تغذية الأم أثناء الحمل، ويتأثربعوامل وراثية وحضارية ويكون وسطيا (٣ كغ)، ويتناقص قليلا بعد الولادة مباشرة ليعود إلى النمو والارتفاع بصورة سريعة.

ويخفق قلب الصغير على نحو أسرع بمرتين من قلب البالغ (١٢٠/ د) ويتنفس ضعف تنفس الكبار. ويكون تكرار التبول وحركة الأمعاء لديه أضعافها عند الراشدين. وكذلك بالنسبة للحركة حيث تصل إلى أربعة أضعاف حركة الراشد نسبةً إلى وزن الجسم (إسماعيل ١٩٨٦).

إن استقرار الآليات الفيزيولوجية المختلفة وانتظامها في الأسابيع الأولى يؤثر تأثيرا كبيرا في معاملة الطفل من قبل القائمين على رعايته خاصة الأم. ويكون لانتظام النوم أهمية خاصة حيث يتطور النوم والاستيقاظ بشكل سريع خلال الأسابيع الأولى ويؤثر ذلك تأثيراً عميقا في التفاعل بين الطفل والأم.

النوم واليقظة وعلاقة الأم بطفلها:

لقد اقترح بعض الباحثين تصنيف حالات الطفل حسب قدرته على الاستجابة للمؤثرات الخارجية، ويميل بعضهم إلى تصنيف هذه الحالات بالاستناد إلى المتغيرات السلوكية التي يمكن ملاحظتها. فهذه الحالات تعتبر امتدادا للنشاط الدماغي، وتتمثل بأشكال مختلفة تتراوح بين النوم العميق والنشاط المفرط. وتنتظم هذه الحالات بواسطة آلية (ميكانيزم) داخلية غير معروفة بشكل واضح حتى أيامنا هذه، ومما لا شك فيه أن هذه الميكانيزم تتأثر بالشروط الخارجية. وتتميز حالات الطفل

المختلفة بانتظام مدتها وحدوثها بشكل دوري يمكن توقعه. ويظهر هذا التصور الميزتين الأساسيتين لسلوك المولود وهما التلقائية والدورية.

وتؤثر حالة الطفل (نوم عميق، أو انعدام النشاط، أو النشاط) تأثيرا هاما في تحديد طريقة استجاباته لمؤثرات العالم الخارجي. ومن الواضح أن القدرة على تفسير حالة الطفل تمكن الأم من إنجاح طريقة العناية التي تقدمها له. فهي تقدم المؤثر المناسب في الوقت المناسب وبالاستناد إلى قراءة وفهم حالة الطفل ودرجة يقظته. إن في ذلك ما يزيد من فعالية عملها ويمهد الطريق لتفهم حالات الطفل المختلفة.

ويتم انتقال الطفل من حالة إلى أخرى بشكل دوري إذ أنه من المحتمل وجود نظام في القاعدة التي تظهر هذا الانتقال. وينتهي هذا الانتظام إلى مركز عصبي حيث تؤدي إصابة هذا المركز إلى الغاء الدورية أو إلى اضطرابها.

وهناك العديد من المؤشرات التي تدعو إلى القول بأن الطفل يمتلك الميكانيزم الداخلية المنظمة لحالاته المختلفة، خاصة حالات النوم واليقظة.

لقد كان الاهتمام سابقا يتركز على مدة النوم، إلا أن الباحثين حديثا يهتمون خاصة بما يحدث في الحالات المختلفة أثناء النوم، فلقد تبين الآن عدم دقة الفكرة القائلة بأن الوليد يقضي معظم الوقت (١٤ ـ ١٨) ساعة يوميا في حالة نوم، حيث أوضح بـاملي (Pamele, et al 1964) أن معدل النوم في الأسبوع الأول هو (١٦) ساعة و(٢٠) دقيقة يومياً ينخفض إلى (١٤) ساعة و (٥٠) دقيقة يومياً في الأسبوع السادس عشر. وتجدر الإشارة إلى أهمية الفروق الفردية هنا. إلا أنه يمكن القول بأن غالبية الصغار يبقون في حالة يقظة ثلث النهار حتى خلال المرحلة التي تلي الولادة.

إن التغير الأساسي الذي يطرأ على النوم لا يتمثل في مدته فقط بل في المراحل المتعاقبة نوم ـ يقظة، وفي توزع هذه المراحل خلال (٢٤) ساعة. فالطفل الحديث الولادة يميل إلى النوم المتكرر لفترات موزعة بالصدفة أثناء النهار تتخللها فترات قصيرة من اليقظة. ومع التقدم في العمر تأخذ فترات النوم وفترات اليقظة صيغة

أكثر انتظاما، حيث تبدأ بالتمدد والتوزع بصورة أقل عشوائية لتحدث في الليل بصورة أساسية. وتشير نتائج الدراسة السابقة إلى أنه منذ البداية يغلب نوم الطفل ليلا على نومه في النهار بشكل طفيف في الأسبوع الأول حيث ينام الصغير (٧) ساعات و(٤٥) دقيقة في النهار و(٨) ساعات و(٢٠) دقيقة في الليل. ثم تميل مدة النوم لمصلحة الليل في الأسابيع التالية، فينام (٤) ساعات، و(٣٥) دقيقة في النهار و(١٠) ساعات في الليل تقريبا، إن انتظام اليقظة في النهار والنوم في الليل يبدأ بالتموضع بشكل واضح وهذا من أهم مظاهر التطور التي تطرأ على الوليد في المراحل الأولى من حياته حين يجعل مهمة الأهل، خاصة الأم، أقل صعوبة في التعامل مع الطفل. كما يوضح هذا الانتظام تأثير الوسط الخارجي - بضغوطه المختلفة - على التنظيم الداخلي للطفل حديث الولادة (Schaffer, 1981).

كيف يمكن لانتظام النوم واليقظة عند الصغير التأثير في علاقته مع الوسط خاصة مع الأم؟ إن استقرار الاستيقاظ تدريجيا في النهار وانتظام النوم ليلا عند الطفل يهيىء للأم فرصة الخلود إلى الراحة والنوم ليلا، ويساعدها على استعادة انتظام اليقظة والنوم. بينما قد يؤدي اضطراب نظام النوم عند الطفل إلى تمديد الفترة التي تجد الأم نفسها مضطرة للاستيقاظ ليلا بشكل متكرر، مما يؤثر في طبيعة علاقتها بالطفل، فاضطراب النوم عند الأم يتصاحب غالبا بالتعب والنزق والعصبية مما ينعكس على طريقة تعاملها مع الصغير.

درجات النوم:

لا يمثل النوم حالة متميزة ومتجانسة عند الطفل ولا عند البالغ، وكذلك بالنسبة للعديد من الأنواع، ويمكن تمييز درجتين من النوم الأولى نشطة والثانية هادئة. ويستند هذا التمييز إلى الحركات الجسدية خصوصا الحركات السريعة للعين. لقد تأكد هذا التمييز بواسطة المقاييس الفيزيولوجية للموجات الدماغية ولسرعة خفقان القلب وحركة الجهاز التنفسي. إلا أن أهم مايميز مرحلتي النوم طبيعة حركات العين، فالمرحلة الأولى (المرحلة النشطة) تترافق بحركات العين

السريعة (Rapid Eye Movement : R E M) بينما تنعدم هذه الحركات في المرحلة الثانية مرحلة النوم الهادىء (no R E M) لقد بينت إحدى الدراسات (Asermns-ky et Kieitman, 1955) أن النـوم عند الطفل بعـد الولادة يتشكل من فترات مـدة الواحدة منهـا خمسون دقيقة (تكون هذه المدة (٩٠) دقيقة عنـد البالغين) ينام الطفل نـوما هـادئا من (٢٠) إلى (٢٥) دقيقة بينما يبـدي فيما تبقى من هـذه الفترة حركـات جسدية عديدة، كحركات الأطراف والعينين.

يخضع انتظـام النوم عنـد الصغير لنظام خـاص محدد، وتنظمـه عوامل داخليـة دقيقـة. وتتعرض عنـاصر فترة النوم إلى تعـديل كبير خلال الأشهـر الأولى. فالنـوم النشط يشكل نسبـة (١٠٠٪) عند الجنين، بينما ينعـدم النوم الهادىء. إلا أن نسبـة هذا الأخير تبـدأ بالارتفـاع التدريجي بعـد الولادة حتى تصـل إلى (٥٠٪)، وفي نهاية الشهـر الثـالـث تمثل هـذه النسبة ضعـف نسبة النـوم النشط. إن مـدة النـوم النشط ونسبته تميلان إلى الانخفاض مع تقدم العمر. فماهي وظيفة النوم النشط حيث تغلب مدته في البدايـة بالمقارنة مع مدة النوم الهادىء؟ يعتبر التزايـد المطرد في نشاط الخلايا العصبية وتـدفق الدم في الـدماغ ضرورة حيويـة لنمو الأنسجة الـدماغيـة. فالجنين المتمتع بالحماية داخل الرحم، والمولـود الصغير ذو القدرة المحدودة، لا يتعرضان إلا للقليل من مـؤثرات المحيط، فيمكن للنـوم النشط أن يكون نظـاما فطـريا للتـزويد الذاتي بالمؤثـرات، يزود الطفل بالنشـاط ويساعد في تحضير الدمـاغ لمواجهة المؤثرات الحقيقيـة (Schaffer, 1981)، وهذا مـا يفسر تقلص دور النوم النشط، حيث تحل المؤثرات الحقيقية محل المؤثرات التي تلاحظ أثناء هذا النوع من النوم.

إن محاولة التعرف على الحالات المختلفة للطفل تمكننا من تفهم أفضل لسلوكه. فالأنشطـة العصبية تختلف مـن حالة النـوم العميق إلى النشـاط غير المركز فإلى حـالة الإثـارة والنـزق. إن هـذه الحالات تنظمها آليات داخليـة لم تعـرف بشكل واف إلى اليوم، فحـالة الوليـد تؤثر تأثيرا هـاما في تحديـد الطريقة التي سيستجيب بمـوجبها لمؤثرات العالم الخارجي.

ويتوقف نجاح مهمـة الأم أثناء عنايتها بالصغير وتفاعلهـا معه، على إداركها لحالاته وللقـوانين التي تنظم التغير في هـذه الحالات. ولساعـات حـدوث تغيرات هامـة في حالة الصغير. فذلك يساعد على التكيف بين الطرفين ويمكن الأم من القيام بدورها بصورة أكثر فاعلية.

سلـوك المص عند الطفــل:

لعل أهم المظاهر السلوكية للصغير تأثرا بالتغير المنتظم هي ظاهرة المص. فالمص بالنسبـة للطفل هو الـوسيلة الأولى للاتصـال بالعـالم الخارجي. ويبدأ هـذا السلوك بالعمل عند الـولادة، إلا أنه بحاجة إلى بعض التدريب، فهو استجـابة فطرية ذات فائدة بيولوجية حيوية.

إن تنفيذ هذا السلوك بطريقة مناسبة يتطلب سلسلة من الأفعال المتناسقة: فتح الفم والتقاط الحلمة بـواسطة الشفاه ثم المص فالبلع؛ ويجب أن تكـون هذه الأفعال متزامنـة مع عملية التنفس بحيث تعمل بشكل بالغ الحسـاسية لتتمكن من تشكيل نظام يتكيف مع المتغيرات المحيطة، فخصائص الثدي تختلف عن الزجاجة، وغزارة الحليب ليست ثابتة وكـذلك درجة حرارته. إذن يتـوجب على الصغير امتلاك القدرة على التلاؤم مع هذه الشروط المتغيرة. إن مثل هذا التنسيق موجود منذ الولادة فلو كان على الأم أن تعلم الطفل كل ذلك لكانت مهمتها شديدة الصعوبة.

الدورية والانتظام في سلوك المص:

يبدو سلوك المص للوهلة الأولى سلوكا بسيطا، إلا أن تحليل هذا السلوك يبين أنه على درجة عاليـة من التعقيد، إذ يتميز بتنظيم محكم لسلسلة من الأفعـال المتزامنة، تحدث بايقاع معين، بحيث تكون على شكـل سلسلة أو دفعة سريعة من المص (٥ ـ ٢٠) مرة تتلوهـا برهة من التوقف تتراوح من أربع إلى خمس عشرة ثانيـة. فهذا الايقاع تنظمه آلية دماغيـة فطرية، فلا تؤدي أعراض التشوه الفمي لاضطـربه، إلا أنه يتأثر في حالة الاصابة الدماغية (Schaffer, 1981).

تظهر الدورية والانتظام في سلوك المص، إذ يبقى تكـرار هذا السلوك ثابتا نسبيا من دفعة إلى أخرى ولا يتغير إلا بشكل طفيف من طفل إلى آخر.

وينتظم المص غير الغـذائي لدرجـة يمكن معها تـوقع لحظـة حدوث كل دفعـة ومدتها. فحسب المصاصة عندما تبدأ دفعة المص لا يؤدي إلى توقف هذا السلوك بل يتابع الطفـل المص في الفراغ بما يعادل العـدد المعتاد. إن هـذه الدرجـة من الانتظام والثبات تفترض وجود ميكانيزم تضمن ضبط هذا السلوك.

تكيـف سلـوك المص:

يتأثر سلـوك المص، بالـرغم من انتظامـه وضبطه داخليـا، بالعـوامل والمؤثرات الخارجية فسرعة المص تتوافق مع طبيعـة ضخ الحليب وكميته في الثدي، ومع حجم الحلمـة والحاجة لضغطهـا للحصـول على الحليب الذي تـؤثر نـوعيتـه وخصائصـه الغذائيـة في سلوك المص. فالطفل الحديث الـولادة يستجيب بطريقتين مختلفتين إذا أعطي نوعين من الحليب مختلفي التركيب. إلا أن الدورية لا تتضح بشكل جلي أثناء المص الغذائي الذي يتم بشكل متصل خلال بضعة دقائق، وذلك قبل الانتظام على شكل موجـات من المص يليها برهة تـوقف. فمن المحتمل أن تتحكم كمية الحليب في هذه الظاهـرة، فعند نقل الطفل إلى الثدي الآخر يبـدأ بالمص المتصل خلال بضع دقائق، وبعدهـا يأخذ المص شكل سلسلة متتالية ثم يتوقف لبرهـة قصيرة قبل بداية سلسلـة جديـدة من المص، فمن الواضـح أن التوقف يفـرضه انخفـاض الحليب. وتكون مدة دفعة الرضعات الغذائية أطول منها في حالة الرضعات غير الغذائية. بينما تكـون بـرهة التـوقف أقصر في الـرضعـات الغـذائيـة بـالمقارنـة مع الـرضعـات غير الغذائية.

إن الميكانيزم المركزية التي تتحكم في هذا السلوك تتأثر بمؤثرات داخلية وخارجية وتتميز بمرونة كبيرة مما يمكن الطفل من تكييف سلوك المص في ظروف متغيرة، فهذا السلوك ليس سلوكـا جامدا يمكن إثارتـه بمؤثر بسيط، بل يتم ضبطه بـدقة وكفاءة عـاليتين، ليس فقط بتنظيمـه الـداخلي، بل أيضـا بطـريقة تـزامنـه مع الـوظـائف

الفيزيولوجية الأخرى كالبلع والتنفس.

إن عالم الطفل لا يسوده الغموض والفوضى كما كان يعتقد، بل يتصف بالدقة والانتظام. فالتنفيذ المناسب لسلوك المص يتطلب التنسيق والتوافق بين سلوك الأم وسلوك الطفل. إذ يلعب ذلك دورا هاما في زيادة فعالية وظيفة هذا السلوك. وقد يكون في تنظيم عملية المص والرضاعة بداية التوافق والانسجام بين الأم والطفل، فهذا الانتظام برمته وبتنوعه يجب أن يلتقي منذ الولادة بنظام استجابة الأم ويتزامن معه في مختلف المراحل الأولى من نمو الطفل وتطوره.

إن نجاح الأمومة يتوقف إلى حد بعيد على طبيعة التزامن والانسجام والتوافق بين الطفل والأم في مختلف جوانب أنظمتها السلوكية.

تنظيم الحواس وإدراك العالم الخارجي عند الطفل الحديث الولادة:

لا يقتصر نشاط الطفل حديث الولادة على النوم والرضاعة، فهو يتنبه لما يدور حوله ويتأثر بأحداث العالم الخارجي، وذلك على عكس ماكان يعتقد حتى وقت قريب. فهو لا يشعر فقط باحساساته الداخلية كالألم والبرد والجوع بل يشعر أيضا بالمؤثرات القادمة من المحيط الخارجي.

لقد مكنتنا المناهج الجديدة للبحث من التعرف على القدرات الحسية المختلفة والتي تعمل - في معظمها - منذ الولادة، ولو بدرجة محدودة. إلا أن الصغير يتمكن بسرعة من تلقي معلومات عديدة تتعلق بالعالم الخارجي.

يكون الطفل خلال اليقظة قابلا للتأثر بمتغيرات المحيط، وتكون الأم بشكل عام أهم هذه المتغيرات حيث تبقى معظم الوقت قريبة منه، تسهر على أمنه ونظافته، وتهتم بكل ما يتعلق به. ويستند التبادل بين الطرفين إلى عناصر حسية تمكنهما من التفاهم والحوار، يستطيع كل منهما - تدريجيا - أن يحلل ويفهم الرموز الصادرة عن الآخر.

التنظيم البصري:

بالرغم من عدم اكتمال القدرات البصرية عند الولادة، إلا أنها حاضرة وتتكامل

بسرعة كبيرة خلال الأسابيع الأولى، فمنذ البداية تتوسع حدقة العين وتضيق للتحكم في كمية الضوء المستقبلة، كذلك يغمض الصغير عينه بسرعة عند اقتراب شيء ما منها بشكل مفاجىء، وذلك اعتبارا من عمر الشهرين (Schaffer, 1981). ويتمكن الصغير ببصره من متابعة موضوع متحرك وإن كانت فعالية هذه المتابعة محدودة في البداية، إلا أنها تصبح أكثر انتظاما، فالطفل في الشهر الرابع أو الخامس من عمره، يمكنه متابعة عيني شخص آخر بدون صعوبة.

ويتمكن الطفل بعد الولادة من تثبيت بصره على مسافة (٢٠) سم وكل ماهو أقرب أو أبعد من هذه المسافة يبدو غير واضح. إلا أن حقل الرؤية ينمو بسرعة بحيث يصل إلى حدوده المعروفة في عالم الكبار اعتبارا من الشهر الرابع.

لقد أشارت بعض الملاحظات إلى أن الطفل يتمكن من تقليد التغيرات المعبرة لوجه الأم في الأسبوع الأول من العمر. فهو يعبر عن الانبساط والسرور أو عن الغضب أو التهجم وذلك حسب تعابير وجه الأم (Field et al., 1987) فالتقليد المبكر يفترض قدرة الطفل على رؤية وجه الأم ليتمكن من تقليدها. ويحاول الطفل الحديث الولادة النظر إلى مختلف الأشياء في محيطه، وعندما يكون في حالة نشطة لا ينفك عن تأمل الأشياء التي يمكن أن يقع عليها بصره.

تخضع حركات العين ـ كغيرها من النشاطات السلوكية للصغير ـ لانتظام محدد، وتتكرر على وتيرة معينة حيث تنظمها آلية دماغية، وتتطور القدرات البصرية لتصبح أكثر تعقيدا في مراحل لاحقة من حياة الصغير. فيلاحظ منذ الولادة التزامن بين حركة العينين من جهة، والتناسق بين حركة العينين وحركة الرأس، وحركة الأعضاء التي تمكن الطفل من متابعة خط سير موضوع ما متحرك من جهة ثانية، ويستند هذا التناسق إلى أسس فطرية، إذ يمكن ملاحظته منذ الولادة، كما يلاحظ عند الأطفال المكفوفين. إلا أن التجربة تزيد من فعالية هذا التناسق.

أما التغير الأساسي الذي يطرأ على السلوك البصري فهو نسبة الوقت الذي يقضيه الصغير في حالة يقظة، ويتمكن تدريجيا وبصورة نشطة من استعمال الآليات

البصرية لاختيار موضوع ما من حوله، ليتفحصه بتمعن، وتظهر إحدى الميزات الهامة للاحساس عند الطفل ألا وهي قدرته على الاختيار حيث يبدأ بتفضيل ما يهمه لينظر إليه.

إن معارفنا في هذا المجال تعتمد على منهج التفضيل البصري الذي وضع أسسه فانتز (Fantz, In Schaffer, 1981) ويتضمن ذلك تقديم مؤثرين بصريين للطفل في نفس الوقت، ثم قياس تكرار ومدة النظر إلى كل منهما، فإذا نظر الطفل بانتظام إلى مؤثر دون آخر فيكون قادرا على التمييز بين المؤثرين وتفضيل أحدهما على الآخر. إن قياس مدة تركيز النظر على كلا المؤثرين تبين قدرة الصغير على التمييز بينهما وعلى درجة تفضيله لهذا المؤثر أو ذاك.

لقد سمي هذا المنهج بتقنية التفضيل البصري. وتكمن نقطة ضعفه في كون التفضيل البصري لا يسمح بالقول بأن الطفل يميز مباشرة بين مؤثرين. إلا أن هذه الطريقة مكنت من اكتشاف أن الطفل الحديث الولادة يمكن أن يعير انتباهه إلى بعض الخصائص دون غيرها. فالوجه البشري وخصوصا العيون، تثير اهتمام الصغير فهو من الموضوعات الشديدة الجاذبية. فالصغير في عمر أربعة أشهر يبتسم لقناع مزود بنقطتين كبيرتين تشبهان العينين. فهو مهيىء للتجاوب مع بعض المؤثرات الخاصة التي تصدر عن الكائن البشري. فمن الفائدة بمكان بالنسبة للصغير أن يكون قابلا منذ البداية للتفاعل مع الكائنات البشرية الأخرى.

إن الطفل في عمر ثلاثة أشهر يبتسم عندما تعرض عليه صورة أمامية لوجه بشري أكثر مما لو كانت الصورة جانبية أو إذا استبدلت بشيء آخر. فالصغير منذ البداية يظهر إعجابه بالوجه البشري خصوصا وجه الأم لأنه أكثر عرضة لهذا المؤثر.

ويكون لحاسة البصر دور أساسي في تنسيق التفاعل بين الصغير والأم. فالبصر يمكن الأم ليس فقط من مراقبة الصغير، بل من تنظيم التفاعل وتنسيق التبادل الكلامي واللاكلامي، بين الاثنين، حيث إن التزامن في عملية التفاعل هذه يعتمد على البصر بوجه خاص، ويؤثر ذلك في توثيق علاقة الطفل بالأم وفي تطور التفاعل الاجتماعي بينهما.

إن تطور النظام البصري في الأسبوع السادس بعد الولادة يمكنه من تثبت بصره في عيني أمه مما يؤثر تأثيرا بالغا في التفاعل الاجتماعي بين الاثنين، إذ تدرك الأم للمرة الأولى بأن الصغير ينظر إليها فعلا وأن الاتصال الحقيقي قد بدأ بينهما (Stern, 1977) حيث يأخذ سلوك الأم أكثر فأكثر طابعا اجتماعيا.

وفي نهاية الشهر الثالث يتمكن الصغير، ليس فقط من التواصل البصري مع الأم، بل من متابعتها عندما تغادر أو تقترب أو عندما تتحرك داخل الغرفة. وهذا يؤدي إلى توسع إمكانية الاتصال بين الطفل والأم توسعا ملحوظا.

الذاكرة البصرية عند الصغير :

لقد أشارت بعض الدراسات إلى أن الطفل في الأسبوع الأول يتمكن من تذكر المعلومات البصرية وأنه يميل إلى تفضيل المؤثرات الجديدة بالمقارنة مع المؤثرات التي يعتاد عليها (Slater et al., 1982)، ويستبعد أن تكون عملية التعود ناجمة عن تغيرات في مستوى الشبكية بل يمكن تدخل القشرة الدماغية العليا في مراقبة المعلومات البصرية (المرجع السابق).

وفي دراسة أخرى تناولت قدرة الطفل على تمييز تعبيرين من تعابير الوجه: الابتسام والعبوس وتم تقديم هذين المؤثرين لأطفال في عمر ثلاثة أشهر. لقد بينت هذه الدراسة أن في إمكان الطفل في هذا العمر من التمييز بين التعبيرين المذكورين، ليس فقط عندما يتعلق الأمر بصورة الأم، وإنما أيضا عندما يشاهد هذين التعبيرين لامرأة لا يعرفها (Barrera and Maurer, 1981).

لقد أوضحت هذه الدراسة أيضا أن الطفل ينظر إلى المؤثرات الجديدة، مدة أطول مما هو عليه الحال بالنسبة للمؤثرات المعتادة. إن نتائج هذه الدراسة تستدعي الملاحظتين التاليتين:

أولا: إن تمييز الطفل بين الابتسام والعبوس عند الأم يكون أكثر سهولة بالمقارنة مع امرأة غريبة. إذ أن (٢٣) طفلا من (٢٤) تمكنوا من التمييز بين التعبيرين عند

الأم بينما لم يتمكن من ذلك عند امرأة أخرى سوى واحد وعشرين طفلا من بين ثمانية وعشرين شاركوا في التجربة.

ثانيا: إن نسبة الأطفال المنسحبين من التجربة بسبب بكائهم الشديد تصل إلى اثنين من أربعة وعشرين عند رؤية الأم في حالة عبوس، بينما يصل هذا العدد إلى ستة أطفال من ثمانية وعشرين عند رؤية نفس التعبير عند امرأة غريبة.

لقد تركز البحث في السنوات الأخيرة على تحديد المرحلة الزمنية التي يتمكن خلالها الرضيع من التعرف على أمه وتمييزها عن غيرها. وكان الغرض من التجارب العديدة في هذا المجال تحديد دور القنوات الحسية المختلفة في التفاعل المتبادل بين الأم والطفل، لأن التعرف على الأم وتمييزها مسألة حيوية عند الطفل البشري إذ يؤثر في تطور الروابط الانفعالية بينه وبين الأم.

لقد أشارت بعض الدراسات إلى أن الطفل يتعرف على أمه قبل عمر ستة أشهر والكثير من الأمهات يعتقدن بأن الطفل يعرفهن ويميزهن قبل عمر ثلاثة أشهر، إلا أن السؤال الذي يطرح بالحاح هو متى يتمكن الطفل من التعرف على وجه الأم بالاستناد إلى البصر؟

لقد حاول المؤلفان السابقان (Barrera and Maurer, 1981) الإجابة على هذا السؤال بعد سلسلة من التجارب. لقد تبين أن الطفل يمكنه التعرف على صورة الأم وتمييزها من غيرها في عمر ثلاثة أشهر.

البصر والتفاعل بين الطفل والأم:

يتطلب التفاعل بين الطفل والأم تدخل أكثر من قناة حسية وكثيرا ما يلعب البصر دورا تنسيقيا في وصلات التفاعل المختلفة. وبواسطة البصر يتم تنظيم تدخل كل طرف في عملية التفاعل المتبادل، فيأخذ كل دوره بالاستناد إلى التواصل البصري، خاصة عندما يتعلق الأمر التبادل ا لصوتي.

لقد أشارت ملاحظات سترن (Stern, 1977) إلى أن الأم تنظر بشكل تلقائي إلى

الطفل أثناء التفاعل واللعب بينهما، وتقضي مايقارب من (٧٠٪) من الوقت في النظر إلى طفلها، وتكون مدة النظرة الواحدة اثنتين وعشرين ثانية في حالة اللعب، واثنتى عشرة ثانية أثناء تغذيتها الطفل، فهي تقوم بدور من يصغي إلى الطفل في حالة اللعب وتنظر إليه في معظم الوقت. بينما تقوم بدور «المحدث» أثناء تغذيتها الطفل فهي تقلل من سلوك المناغاة، وتتزامن نظراتها وهمساتها نحو الطفل بشكل لا يؤدي إلى عرقلة التغذية. وعلى هذا النحو يتمكن الطفل من اكتساب نظام الاتصال الملائم عند النضج، حيث يتمكن من تنظيم صلته بالآخرين.

وفي عمر ستة أشهر، يصبح الطفل قادرا على القبض على شيء ما وتفحصه نتيجة لنمو قدرته على التنسيق بين حركة اليد والعين. وذلك على درجة من الأهمية، حيث تتحول العلاقة بين الأم والطفل من علاقة ثنائية إلى علاقة ثلاثية، حيث يتدرج الشيء في العلاقة بين الطرفين.

لقد تطرقت بعض الدراسات إلى طريقة استقرار التنسيق في التوجه البصري ودوره في عملية التفاعل الاجتماعي بين الأم والطفل. فالأم لا تكتفي بتوجيه النظر إلى نفس اللعبة التي ينظر اليها الطفل بل تقوم بالتعليق والشرح والتفسير أيضا. فهي التي تبدأ بتحديد نقطة التركيز البصري للصغير، وتنظر هي بنفس هذا الاتجاه، وتحاول أن تبقى في وضع يمكنها من رؤية وجه الصغير.

وتجدر الإشارة إلى أنه يتعذر عادة على شخصين تثبيت النظر المتبادل، كل في عيني الآخر أكثر من عشر ثوان دون أن يترافق ذلك بالكلام (المصدر السابق). فتبادل النظر المطول يحدث في حالات عاطفية خاصة كما هو الحال بين المتحابين أو العشاق أو كما يحصل بين الأعداء: فالنظر المطول يكون غالبا مشحونا بصبغة عاطفية قوية، إلا أن الأمر يختلف بين الأم والطفل فبإمكانهما تبادل النظر المركز الواحد في عيني الآخر طيلة ثلاثين ثانية أو أكثر.

لقد أجمع معظم الباحثين على أهمية التزامن البصري في تطور التفاعل بين الطفل والأم. فتنسيق هذا السلوك بين الطرفين يلعب دورا أساسيا في التفاعل بينهما.

ويحتل الطفل مع أمه مكانا محددا، تحاول الأم من خلاله إقامة التوازن بحيث تحمي الصغير من المؤثرات البصرية الزائدة والكثيفة، وتوفر له الفرصة للتعرض لهذه المؤثرات بما يتناسب وقدراته.

التنظيم السمعي:

يتأثر الجنين بأصوات أعضاء الأم، خصوصا دقات القلب. وقد استخدم ذلك في تهدئة الطفل الذي يعاني من اضطراب النوم فيما بعد. وتشير الملاحظات اليومية إلى أن الأم عندما تحتضن طفلها تأخذه غالبا بطريقة يكون رأسه ملقى على صدرها الأيسر وكأنها ـ بإسماعه نبضات قلبها ـ تشعره بالأمن والطمأنينة، وتحمله إلى حالة من الاستكانة والهدوء.

لقد بينت نتائج الأبحاث الحديثة بأن الطفل شديد الحساسية للأصوات البشرية وخاصة صوت الأم، وأن قدرته الحسية الصوتية تقترب من قدرة البالغين (Schaffer, 1981, p. 58). وتبين دراسة أخرى (Josse et Robin, 1981) أن الأم تستخدم غالبا كلمات مبعثرة لا رابط بينها، وتعابير قصيرة، ومناغاة تترافق مع العناية الجسدية للطفل، خصوصا أثناء استحمامه وإلباسه.

لقد انصب اهتمام الباحثين على دراسة المرحلة ما قبل الكلامية في التبادل بين الأم والطفل. وذلك بقصد تفهم السياق الذي يؤدي إلى تطور الكلام عند الطفل.

وفي دراسة (Freedle and Lewis, 1977) يرد الطفل على مؤثرات الأم غالبا بالمناغاة والتي تثير بدورها استجابات مماثلة عند الأم، ويمكن أن يكون في ذلك تمهيد للمحادثة المتبادلة فيما بعد. وتلعب الأم دورا بارزا في إصدار المؤثرات الصوتية الكلامية. ويكون غالبا اتجاه هذه المؤثرات أحادي الجانب (أم طفل) في السنة الأولى. فهي تحاول جادة إدخال الطفل في علاقة حوار متبادل.

المناغاة عند الطفل: (Vocalization)

يمكن ملاحظة الأصوات المتعددة عند الطفل في الأسابيع الأولى حيث يبدأ

بتمييـزها، تـدريجيـا ويصدر الطفل بعض المقـاطع الصـوتيـة الجزئية التي ستنـدمج لتشكل العناصر الكـلامية في نهايـة السنة الأولى، وتجدر الإشـارة إلى أن الباحثين لم يتفقوا فيما إذا كان الكلام - فيما بعد - استمـرارا لمرحلة المناغاة «والثغثغة»، أم أن هناك استقلالية لكل منهما.

إن الطفل الرضيع يظهر سلـوك المناغاة عندمـا يكون وحيدا أكثر ممـا يكون عليه الحال أثناء وجود أشخاص آخرين. لقـد قام أندرسون ومعاونوه (Anderson et al., 1978) بدراسة سلـوك المناغاة عند الطفل في عمـر ثلاثة أشهر بالاستنـاد إلى المسافة التي تفصلـه عن الأم. فتم تسجيل النسبـة المئـوية الـزمنيـة التي يقضيهـا الطفل في المناغاة في أربع حالات:

١ - الأم تحمل الطفل: كانت نسبة المناغاة (٢ ,٩٪) من الوقت.

٢ - الأم قرب الطفل ولكنها لا تلمسه: كانت نسبة المناغاة (٢ ,١٩٪).

٣ - الأم بعيـدة عن الطفل ولكنهـا ضمن مجال رؤيتـه: كـانت هـذه النسبـة (٤ ,١١٪).

٤ - الأم خارج غرفة الطفل: كانت نسبة المناغاة (٦ ,١٦٪).

إن نتائج هذه الدراسة تشير إلى أن وجـود الأم على مسافة قريبة من الطفل يمكن أن يسهل إظهـار سلـوك المنـاغـاة. بينما ينخفـض هـذا السلـوك في حـال الملامسـة الجسـدية، حيث يكف الطفل عن المنـاغاة عنـدما يكـون بين يدي الأم. إن ارتفـاع نسبة المناغاة في غياب الأم تستدعي الانتباه.

وفي دراسة أخرى تبين أن الكبير يظهر استجابات اجتماعيـة بعد كل مناغاة يقوم بها الطفل، ممـا يعزز هـذا السلوك عنـده ويشجعه على تكـراره (Rheingold et al., 1959). إلا أنه تمت الاشارة في دراسة أخرى (Bloom and Esposito, 1975) إلى أن السلوك الاجتماعي للكبير يلعب دور المثير لسلـوك المناغاة عند الطفل أكثـر منه دور المعزز. ويـلاحظ هذا التأثير عندما يـرى الطفل عيني الكبير فقط، وفي غياب ذلك

يتعذر حدوث المناغاة.

ويتضح من الدراسات السابقة أننا لا نزال نجهل الشروط المحددة التي تظهر سلوك المناغاة عند الطفل. لقد أظهرت دراسة أخرى العلاقة بين تطور المناغاة والتطور الادراكي عند الطفل. فعند بلوغ الصغير مرحلة متقدمة من التطور الإدراكي يمكنه أن يستخدم المناغاة للحصول على شيء ما (Harding and Golinkoff, 1979). فوصول الطفل هذا المستوى من النضج المعرفي ينعكس على علاقته بالأم، ويترتب على ذلك نتائج هامة تؤثر في طبيعة الاتصال الصوتي بين الطرفين.

المناغاة والسلوك الصوتي عند الأم:

تستخدم الأم صوتها بطريقة خاصة أثناء تفاعلها مع الطفل، فهي تضخم بعض المقاطع الصوتية وتكررها، وتتبنى طريقة لغوية خاصة في مخاطبتها لطفلها؛ فالطريقة التي يتبعها الكبار خصوصا الأم، في مخاطبة الطفل وتوجيه الكلام إليه، بالرغم من التأكد أنه لن يفهم، وأنه يستحيل الحصول على جواب، طريقة تلفت النظر، فمنذ البداية يعتبر الكلام جزءا هاما من محيط الطفل، لا يتميز بالاستمرار والثبات، ويتناسب مع مختلف مراحل تطور الطفل، فالكلام المحيط بالطفل، يطلق بصورة عشوائية فهو غالبا على علاقة بما يفعله الطفل ويتناسب مع درجة يقظته. وتقوم الأم بإصدار المناغاة بما يتناسب وقدرة الطفل على الاستقبال، إذ تتخلل دفعات المناغات برهات من الراحة، وكأن الأم تأخذ في الحسبان طاقة الطفل.

وتجدر الاشارة إلى الفروق الفردية، إذ بينت بعض البحوث أن العوامل الثقافية والاجتماعية يمكن أن تؤثر في الصلات الكلامية بين الأم والطفل، فالأم التي تنتمي إلى الطبقة الوسطى تقضي وقتا أطول في التحدث إلى طفلها وجها لوجه بالمقارنة مع الأم المنتمية إلى الطبقة العاملة (Kagan and Tulkin, 1971).

فمن المحتمل أن تتأثر القيمة التي تعطيها الأم لهذا النوع من الاتصال بدرجة ثقافتها وبانتمائها الاجتماعي وبطبيعة عملها اليومي.

إن قدرات الطفل على الاتصال لا تقتصر على حاستي السمع والبصر، ففي تفاعله مع المحيط يوظف الصغير وسائل معقدة كالحركات الجسدية والابتسام والتقليد والرائحة . . . . . . الخ في تفاعله مع المحيط خصوصا مع الأم .

سلوك الأمومة والعناية الجسدية بالطفل :

يعتبر فرويد أن الطفل يمر بسلسلة من المراحل يكون خلالها قابل الحساسية لنوع محدد من المؤثرات . وحسب هذه النظرية ، تتأثر شخصية البالغ بطريقة إرضاء الحاجات الفيزيولوجية أثناء الطفولة . وهذا ما يبرز أهمية طريقة التغذية في نمو الطفل وتطوره في المراحل اللاحقة ، إن استراتيجية الأم فيما يتعلق بالتغذية والعناية الجسدية ، ـ كإعطاء الطفل الثدي أو تغذيته بواسطة الزجاجة ، وعمر الفطام ، وطريقة تعليم الطفل كيف يكون نظيفا وقادرا على مراقبة طرح الفضلات الجسدية ـ يلعب دورا هاما في تكوين الشخصية .

لا تملك هذه النظرية البراهين المحددة ، إذ استند فرويد إلى ذكريات مرضاه من الكبار (Schaffer, 1981) . لذا يجب الأخذ بهذه الملاحظات مع الكثير من الحذر، واعتبارها فرضيات يجب التحقق من صحتها بواسطة البحث المنهجي .

لقد حاول العديد من علماء النفس التحقق من هذه الفرضيات ، مثلا : هل الطفل الذي يتغذى بواسطة الثدي يمتاز عن الطفل الذي يتغذى بواسطة الزجاجة؟ وهل إرضاع الطفل عندما يطلب أفضل من إرضاعه في ساعات محددة؟ وهل يؤثر الفطام المبكر في حياة الطفل على المدى البعيد؟

لقد عمل الباحثون منذ وقت طويل للإجابة على هذه الأسئلة ، ويمكن أن نخلص إلى مايلي : لا شيء يسمح ـ على ضوء معارفنا الحالية ـ بإثبات أن طريقة محددة في إرضاء حاجات الطفل أو العناية به ستؤدي حتما إلى تأثيرات نفسية ثابتة في مراحل لاحقة (المرجع السابق) فهناك ـ ولا شك ــ أسباب وعوامل أخرى أكثر عمقا وتعقيدا من تلك التي تتعلق بالرضاعة أو الفطام ، وتؤثر في نمو الطفل وتطوره وتجعل منه رجلا على هذا النحو أو ذاك .

لماذا هـذا الإخفـاق؟ إن عـدم قـدرة البحث على إيجاد الأجـوبـة المؤكـدة على التسـاؤلات السابقـة يمكن تفسيرها في صعـوبـة إيجاد المنهج الذي يسمح بـذلك. فالبحث الـذي يمتد ليشمل مراحل طـويلة لابد أن يصطدم بجملـة من المشكلات المعقدة. فلكي يمكن التحقق من تأثير التجربة المبكرة ـ كطريقة الرضاعة ـ في سلوك الـرجل البالغ، لابـد من الأخـذ بعين الاعتبـار الحوادث التي حصلت أثناء المرحلـة الواقعة بين الحدثين. وإنه لمن الصعوبة بمكـان مراقبة كل العوامل المؤثرة خلال فترة طويلة تشمـل سنوات عديدة من حياة الفـرد. وبالرغم من عدم وضـوح تأثير طرق العناية الجسديـة بالطفل في مراحل متأخرة من العمر، فإنه مـن المؤكد تأثيرها المباشر والآني في سلـوك الطفل الصغير. بـالإضـافـة إلى ذلك فـالتطـور السريع لتكيف الأم والطفل الحديث الـولادة يجعل من الخطأ تعميم المعلومـات التي تـم جمعها في مـرحلة الطفـولة المبكـرة. ولابـد من الأخذ بعين الاعتبـار أن الأم تلجأ إلى استخـدام طريقـة خاصة جـدا في تعاملها مع الصغير، وقد تبدع مصطلحاتها الخاصـة في مخاطبته، مما يجعل فهم ما يدور بين الاثنين على درجة كبيرة من الصعوبة بالنسبة للملاحظ.

ففي رأينـا أن المسألـة الجوهريـة لا تكـون في شكل الطريقـة التي تتبعهـا الأم في تعاملها مع الطفل، وإنما في طبيعة العلاقة المتبادلة بينهما.

لقد أشارت دراسـة السلوك الغذائي للطفل في مراحل لاحقـة (١٨ ـ ٢٤ شهرا) إلى أن الطفل الذي يبدي صعـوبات في سلوك التغذية ــ كقلة الشهية ورفض الكثير من العنـاصر الغـذائية ــ يثير غضب الأم التي تحاول أن «تسـاعـده» وتعطيه الغـذاء بنفسها. ويأتي تـدخل الأم في وقت ينزع فيـه الطفل إلى الاستقلالية وتأكيـد الذات، فيعارض تدخلها ويرفض «مساعدتها»؛ وغـالبا مايكون هذا السياق مصدرا للتبادل العدائي بين الطرفين (Kontar, 1987).

يمكن للأم أن تطمئن إلى أن قرارهـا بإعطاء الثدي أو الزجاجـة للرضيع لن يكون على درجة من الخطـورة بحيث يؤثر في تحديد شخصيـة رجل المستقبل، فليس هناك مـايثبت بأن لهذا الأمر في حـد ذاته تـأثيرا عميقا في تكـون الشخصية. فمهما كـانت الميزات الجسدية للرضاعة، فلن يترافق ذلك بظاهرة نفسية معينة. وعلى هذا القياس

يمكن أن يكون الأمر بالنسبة للجوانب الأخرى للعناية الجسدية في الطفولة المبكرة. فإذا كانت الشخصية قد تثبتت بشكل لا عودة فيه من خلال تطبيق هذه الطريقة أو تلك في التعامل مع الطفل، فالفرد يبقى إلى الأبد تحت رحمة تجاربه السابقة. إلا أنه من المؤكد بأن الأمور لا تجري على هذا المنوال. حيث يبدو أن الطبيعة قد نظمت الأشياء بشكل أكثر مرونة وأكثر تسامحا مما اعتقده فرويد.

موقف الأم من العناية الجسدية بالطفل:

إن العناية الجسدية بالطفل تأخذ معناها في إطار عام وفي موقف الأم تجاه الطفل. فالأكثر أهمية من الفطام المبكر بحد ذاته هو الدافع الذي حمل الأم على اتخاذ هذا القرار. هل هي التقاليد الثقافية الاجتماعية؟ أم الرغبة في تسريع الاستقلالية عند الطفل؟ هل تتعامل الأم مع الطفل بتسامح ومحبة أم بقسوة وعنف؟ ما طبيعة العلاقات السائدة في الوسط العائلي؟ هل هي علاقات ودية حارة؟ أم علاقات يسودها التوتر وعدم الانسجام؟ إن العوامل المؤثرة في شخصية الطفل هي تلك التي تحدد طبيعة الوسط، حيث يقضي الطفل سنواته الأولى. فطريقة العناية الجسدية نفسها يمكن أن تتبع من قبل أم يقظة وعاطفية أو من قبل أم غير مبالية وعدائية، ونفس الطريقة يمكن استخدامها في وسط عائلي مناسب ومتسامح أو في وسط جامد ومتسلط، ويمكن استخدامها أيضا في جو من الكراهية والتوتر أو في جو من المحبة والألفة. ربما يكمن هنا التأثير الحاسم في تكون شخصية الطفل.

لقد حاول العديد من الباحثين الربط بين موقف الأهل تجاه الطفل وبين خصائص شخصيته فيما بعد. لقد جمع سيرز وزملاؤه (Sears et al. In-schaffer,1981) استبيانات لـ ٣٧٩ أم تتعرض للطرق التربوية التي اتبعنها في مختلف مراحل نمو الطفل منذ الولادة وحتى عمر خمس سنوات، خاصة فيما يتعلق بطرق التغذية والفطام وتطبيق النظافة وموقف الأم تجاه مختلف جوانب سلوك الطفل خاصة السلوك العدواني. وتتناول أيضا طريقة الأم في تلقين الطفل قواعد الانتظام أو مايسمى بقواعد «تأديب» الطفل. وكذلك مشاعر الأم أثناء الحمل ومدى تلاؤمها مع الحياة الزوجية.

ثم تتالت الأبحاث المتعلقة بالمسائل المطروحة سابقا مما سمح بتحديد بعض الخصائص التي تميز سلوك الأهل ــ خاصة الأم ــ نحو الطفل، من أهم هذه الخصائص.

١ ـ العاطفة أو البرود ويستند هذا التصنيف إلى درجة العاطفة والحبور التي تظهرها الأم نحو الطفل ومدى تقبلها لاعتماده عليها في الكثير من الأشياء.

٢ ــ المبالغة في التسامح أو القسوة ويتمثل ذلك في درجة تسامح الأم تجاه سلوك الطفل ومدى تأكيدها على «الطرق الجيدة» في قواعد الأكل والشرب والجلوس. . . ومدى إلحاحها على الطفل في الطاعة واستخدامها للعقوبة الجسدية.

وفي أبحاث أخرى أدت إجابات الأهل إلى إظهار بعدين أساسيين في تربية الطفل:

يتراوح البعد الأول بين المحبة والعدوانية بينما يتراوح البعد الثاني بين المراقبة والاستقلالية. إذ أمكن تصنيف طرق التعامل مع الطفل حسب الخصائص المذكورة.

تبرز الصعوبة في هذا المنهج عند محاولة الربط بين خصائص الأهل من جهة وبين سلوك الطفل من جهة أخرى. لقد حاول سيرز ومعاونوه وصف هذه العلاقة إذ تبين مثلا أن الاضطراب الأكثر أهمية ينتج عن استخدام القسوة في تعليم الصغير «النظافة»، أي مراقبة طرح البراز والبول ويتداخل هذا مع عوامل البرودة العاطفية عند الأم تجاه الطفل. فالطفل الذي يشعر بأنه غير مقبول لدى أهله يبدي سلوك الاعتماد على الغير بدرجة أكثر من غيره.

لقد أشار هذا البحث أيضا إلى أن العدوانية القوية عند الطفل ترتبط بموقف يتميز بالتسامح المبالغ فيه والمترافق من وقت إلى آخر بالعقوبات الشديدة.

أصبحت هذه الملاحظات مقبولة بشكل عام. إلا أن تأكيد ذلك يتطلب

الحصول على نفس النتائج لدى إعادة البحث، وهذا لم يتحقق عندما حاولت (ماريان رادك يارو) ومعاونوها التأكد من ذلك (Schaffer, 1981).

إن الترابط بين الطرق المستخدمة من قبل الأهل وتطور شخصية الطفل ليس على درجة من الوضوح كما كان يعتقد. فمن الصعب توقع شخصية الطفل بالاستناد إلى الطرق المتبعة من قبل الأهل خاصة الأم (المصدر السابق).

ويمكن تلخيص الصعوبات التي تنطوي عليها الأبحاث السابقة على النحو التالي:

١ ــ الهامش بين ما يقال وما يفعل. فإنه من الصعب أن يحصل الباحث على معلومات موضوعية عن سلوك الأم ومشاعرها حيث تميل الإجابة على الاستبيانات والاستمارات إلى التقيد بالقيم الاجتماعية المتعارف عليها، وتبدو متأثرة بذلك إلى حد بعيد. فالمقارنة بين نتائج الاستبيان والملاحظة المباشرة للسلوك توضح الفرق بين الطريقتين.

٢ ـ إن بعض الترابط بين طريقة الأم تجاه الطفل وخصائص شخصية هذا الأخير لا يعني وجود علاقة سببية بين الأمرين. وبالرغم من ذلك يميل الكثير من الباحثين إلى اعتبار سلوك الأم سببا في سلوك الطفل، وينسى أن التأثير في هذه العلاقة يكون ذا اتجاهين لا اتجاه واحد، أي أن سلوك الطفل أيضا يؤثر في سلوك الأم.

٣ ـ إن قياس الطرق المستخدمة في التعامل مع الطفل، يتم غالبا بصورة إجمالية وتقريبية.

فوصف الأم بأنها مفرطة في التسامح لا يأخذ بعين الاعتبار أن هذا التسامح يمكن أن يتغير في سلوك آخر. فيمكن للأم أن تكون متسامحة نحو تصرفات الطفل المتعلقة باللعب، بينما تكون شديدة القسوة عندما يتعلق الأمر بتناول الطعام. ويمكن أيضا أن يتغير موقف الأم حسب مراحل النمو المختلفة، فالأم المتسامحة مع الصغير في عمر سنتين يمكن أن تكون قاسية معه في عمر ثلاث سنوات.

تبين هذه الملاحظات أن تأثير الطرائق المتبعة من قبل الأهل ــ خاصة الأم ـ في تطور الطفل، ليس ذات تأثير آلي. فالعلاقة بين الطرفين علاقة دينامية معقدة تتأثر وتتفاعل بمختلف عوامل المحيط.

الاشراط في سلوك الأمومة:

لقد أشارت بعض الدراسات إلى أهمية الإشراط في تطور علاقة الأم بطفلها. فالمؤثرات الصادرة عن الطفل كالأصوات أو الحركات اللاإرادية تأخذ تدريجيا معاني محددة بالنسبة للأم، وتثير في نفسها عواطف المحبة، وكثيرا ما يرتبط سلوك الأمومة تجاه الطفل بهذه المؤثرات والحركات الصادرة عنه. فالمؤثر المحايد في بداية الأمر ـ كصوت الطفل، وملابسه ـ يصبح مؤثرا اشراطيا فيما بعد، حيث يثير مشاعر المحبة وسلوك الأمومة. وعلى هذا النحو، فالاشارات الصادرة عن الطفل، أو المرتبطة به، تثير عواطف الأمومة؛ وبذلك يصبح الطفل قادرا وبالتدريج على إثارة محبة الأم نحوه بالذات دون غيره، فهو قادر على إصدار المؤثرات الإشراطية وغير الإشراطية، بينما قد لا يتمكن من ذلك طفل آخر.

ولعله من المفيد التطرق إلى الحادثة التالية حيث حصل الخطأ في تحديد هوية طفلين حديثي الولادة في أحد المستشفيات، حيث أُعطي كل منهما إلى أم غير أمه، وبعد أسبوعين تم اكتشاف الخطأ، فما كان من إحدى الأمهات إلا أن عبرت عن عدم رغبتها في إعادة طفلها وذلك لتعلقها بالطفل الذي قامت برعايته لمدة أسبوعين (Sluckin and Herbert 1983).

إن الإشراط التقليدي البافلوفي واحد من سياقات التعلم التي يمكن أن تتدخل في تعزيز الروابط بين الأم والطفل. فالإشراط الفاعل أو الوسيلي قد يلعب دورا هاما في تقوية العلاقة بين الطفل والأم واستقرارهما. ويحدث هذا الإشراط عندما يتبع فعل ما دون غيره بمعزز إيجابي (مكافأة)، فالفعل المكافأ يتعزز ويصبح أكثر تكرارا وأكثر استقرارا.

وفي علاقة الأم بالطفل تقوم الأم بفعل كل ما تعتقد أن فيه خير الطفل ومنفعته، ويعتبر ذلك معززا لسلوك الأم. فتغذية الطفل وحمايته ونظافته.. كل هذه

النشاطـات تبعث الرضى والحبـور في نفس الأم، وفي هذا تعزيـز لسلوكهـا، مما يوثق العـلاقة بينها وبين الطفل. وعلى العكـس فالاخفاق في إرضـاء الطفل كثيرا ما يقود إلى رفضه وعدم تقبله.

وتجدر الإشارة إلى التأثير الثقافي في تشجيع سلوك الأمـومة حيث تلجأ الأم الشابة إلى تقليد أمها في التعـامل مع الصغير، أو إلى ملاحظة من لها تجربة سـابقة في سلوك الأمومـة. وهذا ما يؤدي إلى استقـرار جملة من السلوك والعـادات للتعامل مع الطفل في بيئة اجتماعية ـ اقتصادية معينة.

ويقترح هارلـو أن محبة الأم تنمو وتتطور في الأشهـر الأولى من حياة الطفل. بينما يرى بعض الأيتولوجيين أن التعلق بين الطفل والأم يستقر بصورة مبكرة.

إن التفــاعل بين الطفل والأم على درجـة كبيرة مـن التعقيـد بحيث يجعل هــذه العلاقة وحيدة من نوعها، ومتميزة عن غيرها في طريقة تطورها ونموها.



الباب الثاني

التفاعل بين الطفل والحاضن

الفصل السادس
التفاعل بين الطفل والأم

بنية العلاقة المتبادلة بين الطفل والأم :

تهدف هذه الدراسة إلى وصف بنية التفاعل الاجتماعي بين الطفل والأم، وتحديد العناصر التي تشكل هـذه البنية . فكل فعل أو حركة لأحد الطـرفين يقع ضمن جملة مترابطة ، تشكل وحدة سلوكية متكاملة ومتوافقة مع أفعال الطرف الآخر.

ويعتبر التـزامن بين العنـاصر السلوكيـة للطـرفين المشاركين في عمليـة التفـاعل الاجتماعي على درجـة كبيرة من الأهمية . فـاستمرار التفاعـل المتبادل يتوقـف إلى حد كبير على التزامن بين سلوك المعنيين في هذا التفاعل .

ويتفـاوت تأثير العناصر السلـوكية لكـل من الطرفين في سلـوك الطرف الآخـر، حيث يكون بعضها محدود التأثير، بينما يكون بعضها الآخر على درجة كبيرة من الفعل والتأثير في سلـوك الآخر. ويمكن عـزل هـذه العناصر السلـوكيـة وتحديدهـا بشكل منهجي من خلال الملاحظـة العلمية ، وذلك بتسجيل الأنشطة السلوكيـة المختلفة ، بتزامنها وتوافقهـا ، ومعرفة كيفية حدوث هذا التزامن وهـذا التوافق. فالتقدم التقني في مجال تسجيل السلوك يسمح بتحليل دقيق لمختلف العناصر التي تشكل وحدات سلـوكية متماسكـة ، ويمكن أيضـا من معـرفـة توقيت حـدوث كل عنصر من هـذه العناصر ودوره في الوحدة السلوكية .

تستخـدم معظم الأدبيـات المتعلقة بـالتفـاعل بين الطفل والأم للقيـاس الكمي

لعناصر السلوك المتبادلة كالتكرار والمدة الزمنية. وفي نهاية الملاحظة يعتبر القياس الكمي للمدى الذي وصل إليه كل فرد مشارك في التفاعل ويعتبر ـ حسب هذه الطريقة ـ كل نشاط تم قياسه بمثابة مؤشر لبعض القدرات التي يتمتع بها الفرد.

إن مسألة التفاعل بين الأم والطفل على درجة كبيرة من التعقيد مما يحتم إجراء تحليل وصفي تعدادي متنوع الوجوه لمختلف جوانب السلوك التي تظهر أثناء هذا التفاعل (Collis, 1979)، عند عينة واسعة، بهدف القيام بجرد كامل للعناصر السلوكية التي يظهرها أفراد نوع محدد من الأنواع، وهذا ما يسمى في الأيتولوجيا التقليدية بالايتوغرام (Ethogram). ويقترح المؤلف السابق بناء مقياس (Dyado-gram) يتضمن العناصر السلوكية للأم والطفل ويأخذ في الحسبان التنظيم المتبادل للسلوك أثناء تفاعلهما.

العناصر الاساسية للتفاعل بين الطفل والأم:

يكون الطفل ـ كما لاحظنا سابقا ـ مزودا بما يمكنه من تكييف سلوكه مع سلوك الأم، والتي تقوم باصدار التعابير الملائمة لاهتمامات الطفل. إن بنية الاتصال بينهما على درجة كبيرة من الغنى والتنوع، فالأم تظهر العناصر السلوكية المختلفة بطريقة تثير اهتمام الصغير الذي يقوم بدوره بالاستجابة بطريقة ما عند تعرضه لمؤثرات الأم.

التفاعل الصوتي:

يعتبر الترابط بين الكلام والقناة السمعية الصوتية على درجة من الأهمية في التفاعل الاجتماعي بين البشر. فأثناء التفاعل بين الطفل والأم ـ كما هو الحال بالنسبة للمحادثة بين الراشدين ـ يأخذ كل طرف دوره في مرحلة محددة ويترك المجال للطرف الآخر في مرحلة أخرى. لقد بيّنت دراسة ستيرن وزملائه أن التبادل الصوتي بين الطفل والأم يحدث بتناسق محدد بحيث يأخذ كل منهما دوره تاركا الفرصة للآخر، وأن الأم تأخذ غالبا المبادرة في هذا التبادل، خاصة عندما يقوم الطفل بإصدار نشاط صوتي. ويتوضح ذلك مع تقدم الطفل في العمر، حيث يقوم الطفل باتخاذ المبادرة

بمتابعة النشاط الصوتي عندما تطول برهة توقف الأم عن هذا النشاط .

ولقد أشار كـوندون (Condon, 1979) في دراسته للتزامن السلـوكي عند الطفل لدى تعـرضه لمؤثـر صوتي إلى أن جسـد الطفل الذي يعـاني من صعوبـات في التعلم يضطرب بطريقـة مختلفة عن الطفل العادي . وتبدو حركة الطفل المعـوّق متزامنة مع الصوت كما هو الحال عند الطفل العادي ، إلا أنها تحدث متأخرة بالنسبة للمؤثر ، كما لو كان الأمر يتعلق بفيلم تتحرك صوره متأخرة عن الصوت .

لقد كرر هـذا الباحث التجربة على أطفـال يعانون من مشكلات دمـاغية مختلفة وتوصل إلى فرضيتين أساسيتين :

١ ـ يحصل الاضطـراب الجسدي ـــ الانفعالي ، بعد تعـرض الأطفال المعـوقين لمؤثر صوتي إلا أن المدة الفاصلة بين المؤثر والاستجابـة تكون أطول عند هؤلاء الأطفال بالمقارنة مع الأطفال العاديين .

٢ ـ تأخذ الاضطرابات المرضية صيغة استجابة متعددة لكل مؤثر صوتي وتبدو على شكل اهتزازات متتابعة تحدث بعد فاصل زمني محدد من التعرض للمؤثر .

تشير هـذه النتائج إلى أن العنـاصر الانفعاليـة الجسـدية التي تتبع مـؤثر صـوتي تختلف عند الطفل المعوق عقليا بالمقارنة مع الطفل العادي . فالطفل الذي يعاني من صعوبات في التعلم يعاني أيضا من صعوبات في تزامن الحركة مع الصوت .

لقد أوضح هذا المؤلف أن الطفل يتفاعل مع الصوت الكلامي بعد عشرين دقيقة من الولادة . وأن ذلك يلعب دورا هـاما في سياق تطور الطفل وتشربـه سمات الوسط الثقافي الذي يكبر فيه . ويشبه هذا المؤلف ذلك بايقاع راقص جميل حيث يلعب هذا التزامن دورا أساسيـا في إقامة العلاقات مع العـالم الخارجي خاصة بين الطفل والأم . وفي دراسـة لنـا (Kontar, 1987) لأطفـال تتراوح أعمارهم بين الشهر الثـامن عشر والشهر الـرابع والعشرين ، تبين أن الطفل والأم يقضيان نصف مدة الملاحظة ـــ أثناء تناول الطفل لوجبة العشـاء ـ في تبادل صوتي كلامي . وغالبـا ما تأخذ الأم المبادرة في هذا السلوك (٦٢٪) .

التفاعـل الـبصري :

إن قيام الطفل بتـوجيه بصره نحو الأم يدفعهـا إلى تركيز بصرهـا نحوه، والعكس صحيح أيضا، فتوجيه بصر الأم نحو الطفل يدفع هذا الأخير لإظهار نفس السلوك، ومبـادلة الأم النشـاط البصري. لقد اعتبر البـاحثون أن التفـاعل البصري بين الطفل والأم لا يقتصر على تبـادل النظرات، بل يتعـدى ذلك إلى قيام كـلا الطرفين بنشـاط بصري مشترك، يتـوجـه نحـو شيء مـا في المحيط، ويقارن هـذا النشـاط بـالنشـاط البصري المتبادل، فالتـزامن بين بصر الأم وإشارة أصبعها إلى شيء محدد (Pointing) في غاية الأهمية في تطور التفاعل بين الأم والطفل.

وغالبا مـايتزامن النشاط البصري مع النشاط الصـوتي. فالطفل في عمر السنتين يمكنه التنسيق بين نظراتـه إلى الأم ونشاطه الصوتي من الثغثغـة والمناغاة (Schaffer, 1977)، بينما يتعذر ذلك عند الطفل في عمر السنة (Collis, 1979).

وبـالرغم من التأثير المتبـادل بين الأم والطفل في هـذا السلوك، فإنـه يختلف من مرحلة إلى أخرى من مراحل نمـو الطفل. ففي السنة الأولى من العمر، تنظر الأم إلى الصغير أكثر مما ينظـر هو إليها: (Schaffer, 1977 , Stern, 1974) ويستمـر ذلك أثناء السنة الثانية (Kontar, 1987) إذ تنظر الأم إلى الطفل أكثر مما ينظر هو إليها. ويمكن تفسير ذلك بأن الأم تحاول إبقـاء الطفل تحت مراقبتهـا. لقد بينت الـدراسة التي قـام بها المؤلف (Kontar, 1987) والتي تنطوي على ملاحظـة الأم والطفل أثناء تناوله وجبة العشاء بأن الأم تتوجه ببصرها إلى الصغير إحدى وستين مرة خلال ثلاثين دقيقة، بينما يفعل الصغير ذلك خمس عشرة مـرة،، وتستمر الأم، بـالنظر إلى الطفل خـلال ٣١٪ من مـدة الملاحظـة، بينما ينظـر الطفل إلى الأم ٧, ٤٪ من هـذه المدة. ويصل التبادل البصري بين الاثنين إلى ٥, ١٥٪ من مدة الملاحظة التي تستمر ثلاثين دقيقة.

إن نتائج هذه الدراسة تنطوي على ملاحظتين اثنتين:

١ ـ إن الأم أثناء تفاعلها مع الطفل تقوم بدور هام في النشاط البصري.

٢ ـ يحتل التـواصل البصري المتبادل بين الطفل والأم أهمية خاصـة إذ يمثل أكثر من ١٥٪ من الوقت الكامل للملاحظة .

ويمكن تلخيص العناصر الأساسية التي تلعب دورا هاما في التفاعل الاجتماعي بمايلي :

١ ـ توقيت الفعل أو الحركة أو الإشارة الصادرة عن المشاركين في التفاعل .

٢ ـ اشتراك الاثنين في نشاط مـوحـد (عنـدما تفعل الأم الشيء نفسـه كـالطفل أو العكس) .

٣ ـ تبادل الأدوار وذلك عنـدما يتعاقب فعل أحد الأطـراف وفعل الطرف الآخر أو حركتـه أو إشاراته حيث يصبح أحـدهما نشطا بينما يتوقف نشاط الآخـر ويتكرر تبادل الأدوار أثناء التفـاعل . فتبادل الأدوار هذا بين الأم والطفل، خـاصة أثناء الـرضاعـة، يشبـه إلى حـد بعيد الحوار، حيث تحاول الأم من خـلالـه أن تكيف سلوكها حسب الإيقاع الطبيعي لسلوك الطفل، وترى كاي(Kaye, 1977) بأن الأم تنفذ من خـلال هذا الإيقاع لتحمل الطفل على تبادل الأدوار. وبـالرغم من تقدم البحث، وتراكم النتائج المتعلقـة بالتفاعل بين الصغير والأم، إلاّ أن فهمنا لبنية هـذا التفاعل لايـزال أوليا، ولا بـد من قطع خطوات كبيرة لمعـرفة الطفـولة معرفة حقة .

التفاعــل اللمسـي :

في معظم الثقـافـات التي لم تتاثـر تأثـرا كبيرا بالحضـارة الحديثـة، يتم الاتصـال اللمسي بين الطفل والأم على نطـاق واسع دون قيوداإجتماعيـة . فالطرق التـي تتبعها هذه المجتمعات توفر للطفل فرص الاتصال الجسدي وترضى حاجاته دون عقبات، من حيث تعـريضه للمؤثـرات وإرضاعـه بطريقـة طبيعية . وتنـويمه عنـد الحاجة، ويجعل ذلك من الطفل أكثر يقظة وتنبها للعالم الخارجي . فالطفل يستريح وينام على جسـد الأم حسب رغبتـه وحاجتـه . وعنـدمـا يكبر يقـوم أطفال أكبر منـه بحملـه

واصطحابه. وتنمو هذه العلاقة بالاستناد إلى التجاذب المتبادل بين الصغار والأطفال الأكبر عمرا، وعندما يشعر الطفل بحدث غير متوقع في محيطه، سرعان مايبحث عن التلاصق الجسدي وكأنه يطلب الحماية من الأم أو من شخص آخر.

ويمكن للطفل أن يرضع في أي وقت حيث يكون ثدي الأم مكشوفا. ويتمتع الطفل بحرية واسعة في سحب الثدي والامساك به ومداعبته.

وتتغير هذه العلاقة من ثقافة إلى أخرى. ففي المجتمعات الصناعية تقل الفرص التي تمكن الطفل من الاتصال اللمسي بالأم. خصوصا عندما يتجاوز السنة الأولى من العمر وعندما يتمكن من الجلوس والمشي، حيث يتم وضعه في كرسي خاص ليتناول وجبته، وينام منذ الولادة في سريره الخاص دون أن يتمكن من ملامسة الأم. ففي دراسة للمؤلف (Kontar, 1987) تبين أن الطفل اعتبارا من عمر الثمانية عشر شهرا يتناول طعامه دون أن يتمكن من الاتصال اللمسي بالأم، بالرغم من قصر المسافة الفاصلة بينهما، فالأم في المجتمعات الصناعية الغربية لا تسهل هذا النوع من الاتصال بل تعمل على قمعه، على عكس ما يلاحظ في المجتمعات العربية التقليدية وفي مجتمعات كثيرة حيث تكون الأم جاهزة في كل وقت للتبادل اللمسي مع الطفل.

٤ ـ التفاعل الشمي :

يبدو أن تأثير الرائحة في التفاعل بين الأم والطفل قد أثار اهتمام الباحثين حديثا. لقد قام ماكفارلين (Mac Farlane, 1975) بجملة من التجارب لدراسة هذه الظاهرة. تتضمن إحدى تجارب هذا المؤلف وضع قطعتين قماشيتين في محاذاة رأس الطفل الحديث الولادة، تحمل إحداها رائحة الأم (رائحة إفرازات الثدي أو الغدد المجاورة له) بينما تحمل الثانية رائحة محايدة أو رائحة أم أخرى، لقد أظهر الصغير استجابات مختلفة باختلاف مصدر رائحة الأم.

إنه يتجه بحركاته إلى مصدر رائحة الأم بالمقارنة مع رائحة محايدة، ويتابع تفضيل

رائحة الأم بالمقارنة مع رائحة أم أخرى. لقد اعتبر هذا الباحث حركة الرأس باتجاه مصدر الرائحة كمؤشر لتفضيل الطفل وتمييزه لرائحة ثدي الأم.

لقد أشارت نتائج هذه الدراسة إلى أن تمييز الطفل للرائحة يلاحظ اعتبارا من اليوم السادس بعد الولادة. ويصبح تفضيل الطفل لرائحة الأم أكثر وضوحا في اليوم الثامن عشر.

لقد تأكدت هذه النتائج وتحددت بعد سلسلة الأبحاث التي قام بها بنوا شال (Benoist Schaal, 1984, 1988)، حيث أجرى هذا الباحث تجاربه في أحدى دور الولادة بمدينة بيزانسون (فرنسا) وقام بتعليق القطع القماشية بمحاذاة الوجه أثناء تعريض الطفل لمؤثرات مختلفة. لقد اعتبر هذا الباحث النشاط الحركي للرأس والأطراف العليا كمؤشر على تمييز الطفل لرائحة الأم.

ويرى هذا المؤلف أن رائحة الأم تلعب دورا مهدئا للطفل عندما يكون في حالة توتر أو بكاء. إن تمييز الطفل لرائحة الأم في مرحلة مبكرة يترك الطريق مفتوحا أمام الافتراض القائل بأن الاتصال الشمي يلعب دورا هاما في التعلق بين الأم والطفل. فظهور علامات الرضى والانبساط عند تعرض الطفل لرائحة الأم، يؤثر في استجابات الحنو والعطف التي تظهرها الأم بدورها تجاهه. وفي سلسلة أخرى من التجارب أوضح هذا المؤلف أن الأم أيضا يمكنها التعرف على رائحة الطفل في مرحلة مبكرة بعد الولادة (من اليوم الأول حتى عمر عشرة أيام). لقد تم وضع قطعة قماشية على جسد الطفل لمدة تتراوح بين اثنتي عشرة ساعة وأربع وعشرين ساعة، بهدف تحميلها رائحة الطفل. وبعدها تعرض هذه القطعة القماشية، مع قطعتين أخريين تخلوان من أية رائحة، على الأم بعد عصب عينيها. لقد أوضحت هذه التجارب أن الأم تتعرف على رائحة الطفل وأن المؤثرات الحسية التي تتبع الولادة ــ كالملامسة الجسدية ـ يمكن أن تؤثر في قدرة الأم على التعرف على رائحة طفلها. لقد وزعت الأمهات في ثلاث زمر بالاستناد إلى مدة الملامسة الجسدية:

١ ـ زمرة عادية تتراوح مدة وضع الطفل على جسد الأم من عشر دقائق إلى خمسة عشر دقيقة بعد الولادة.

٢ ـ زمرة ثانية تكـون مدة وضع الطفل على جسد الأم بين ثلاثين إلى أربعين دقيقة، وقد تم تشجيع الوليد على الرضاعة الطبيعية وأخذ الثدي.

٣ ـ زمرة ثالثة محرومة من الملامسة الجسدية بسبب التحذير أو التدخل الجراحي.

لقد أشارت هذه الدراسة إلى أن نسبة التعرف على رائحة الطفل تكون أعلى بكثير عند الأمهـات اللواتي أتيحـت لهن الفرصة للتبـادل اللمسي لمدة طويلـة مع الـوليد، بالمقارنة مع الأمهات اللواتي لم يتمكن من ذلك أو بالمقارنة مع أمهات الزمرة العادية. (Schaal and Kontar, 1985).

٥ ـ الحركات الجسدية:

يكون الصغير منـذ الولادة مـزودا بآليات تجعلـه على درجة من الحسـاسية بحيث يمكنـه الاتصال مع الآخـرين، والتعبير بطـرق مختلفة، وتشكل الحركـات الجسديـة عنصرا هاما من عناصر سلوك الاتصال، إذ تمكن الصغير من التواصل والتفاعل مع محيطه. وتأخـذ هذه الحركات أشكالا متعددة، ويمكن أن تتسـق في صيغة معقدة، ضمن سياق اتصالي محدد.

وللـوضع الجسدي أهميـة خـاصة في التـواصل بين الأفـراد، وكـذلك للمسافـة الفاصلـة بين شخص وآخر حيـث تؤثر في عمليـة التفاعل الاجتماعي. ولعـل درجة اليقظة أو الانتباه أكثر العوامل أهمية في هذا التفاعل، إذ تتأثر بذلك القدرة على تلقي الإشارات والرموز وتحليلها وإصدار الإشارات والاستجابات المناسبة. فتوافق النظر، والتعبير الـوجهي، ووضع الجذع، والحركـات البـدنيـة المختلفـة، يعبر عن درجـة الانتباه وقابلية العضوية على تلقي الإشارات الصادرة عن الآخر.

سنحاول في هـذه الدراسة إلقـاء الضوء على دور الحركات الجسـدية ـ خصـوصا التعبير الوجهي والتقليد ـ في تطور التفاعل بين الأم والطفل، وفي السياق الذي يجعل لهذه الحركات معاني اتصالية بالنسبة لهما.

التعبير الوجهي (Facial Expression) :

يرى داروين أن بقاء الأنواع الاجتماعية العليا يعتمد إلى حد بعيد على قابليتها على الاتصال من جهة، وعلى قدرة أعضائها المختلفة التي تمكنها من المجابهة أو الهرب من جهة أخرى. فالسؤال الذي شغل الباحثين هو كيف يتمكن الإنسان من اكتساب التعابير الخاصة التي تحتل مكانا هاما في سلوك الاتصال بين أفراد النوع؟ وهل هذه التعابير فطرية متأثرة بسياق التطور مثلها مثل الأعضاء الجسدية المتعددة؟ أم هي متصلة؟

إن التعابير الوجهية ـ كقاعدة لانفعالات اللذة، والكدر، والغضب، والخوف، والفرح، والحزن، والاشمئزاز أو الرفض ـ حاضرة عند الولادة، وتظهر بشكل جلي خلال الأشهر الأولى وتتأثر قليلا بالحياة الاجتماعية.

لقد أظهرت الأبحاث الحديثة عددا كبيرا من التعابير الوجهية عند الطفل الحديث الولادة حيث تكون قريبة من مثيلتها عند الكبار. إلاّ أن ظهور هذه التعابير ليس مرفقا عند المولود بنفس المعاني التي تحملها عند الكبار.

وتتميز التعابير الوجهية عند الصغير بدرجة عالية من النضج العصبي ـ العضلي. وتندمج حركة العضل الوجهي بشكل جزئي في بعض الاستجابات لتأخذ دلالة اجتماعية فيما بعد.

ويمكن ملاحظة الفروق الفردية بين الصغار منذ الولادة عند التأمل في التعابير الوجهية المبكرة. فدرجة الاندماج العضلي. العصبي لتقاسيم الوجه تؤثر، منذ البداية، في طبيعة الإشارات والرموز المختلفة، والتي ستلعب دورا حيويا في سلوك الاتصال عند الطفل وفي قدرته على التفاعل مع محيطه الاجتماعي. ويؤثر ذلك أيضا في الاستجابة للمؤثرات الاجتماعية التي سيتلقاها الطفل، إذ أن اللمح المبكر لشخصيته تم بالاستناد إلى طبيعة تعابيره الوجهية.

الابتســام :

يمكن مـلاحظة سلـوك الابتسـام عند الصغير في الأسبـوعين الأولين أثناء النـوم الحالم (في مرحلة النوم النشط حيث تتسارع حركات العين (R E M)وأثناء الوسن*، ومن النادر مـلاحظة الابتسام أثنـاء اليقظة. ويتميـز سلوك الابتسام في هـذه المرحلة بالتنوع، فمنـه ما يكون سريعا وآخر يدوم بعض الـوقت، ويلاحظ تمدد جانبي الفم أثناء الابتسام وأحيانا يتمدد جانب واحـد فقط، ولا يبدو سلوك الابتسام على علاقة مع أحـداث العـالم الخارجي في هـذه المرحلـة، فهـو يعكس الإثـارات العصبيـة ـ الفيزيولوجية إذ يرتبط بنشاط الدماغ الذاتي، ويسمى بالابتسام الانعكاسي.

أما بالنسبـة للابتسام المرتبط بالحوادث الخارجيـة فيلاحظ بعد عمر ستـة أسابيع (Stern, 1977)، إذ يمكن إثارة هـذا السلوك بمؤثرات خـارجية، فالوجـه الإنساني والبصر والصوت والـدغدغة تعتبر من أكثـر المثيرات لسلوك الابتسـام، ويكمن هذا التطـور المهم في أن الابتسـام يـأخـذ طـابعـا اجتماعيـا مع الاحتفـاظ بخصـائصـه المورفولوجية الأصلية، فخلال الشهر الثاني من العمر يصبح الابتسام إشارة اجتماعية فعليـــة(Trevarthen 1979). وبعد عمـر ثلاثة أشهـر يشهد هذا السلـوك تطورا جديـدا، إذ يصبح وسيلة هامة لإثـارة استجابة مـا كابتسامة الأم أو نشـاط صوتي، فالطفل يصدر سلـوك الابتسام للتأثير في محيطة الاجتماعي. وبعد عمـر أربعة أشهر يصبح الابتسام أكثـر تنسيقا ورقة وقـدرة، ويصبح التعبير الوجهي المرافق لـلابتسام أكثر تعقيدا.

تتـزامن مراحل تطـور سلـوك الابتسام مع تقـدم مـواز في قدرات الطفل الحسيـة والإدراكيـة، حيث يسمح نمـوّ هـذه القـدرات بظهـور الابتسـام في شروط مختلفـة، كاستجابة لمؤثرات متنوعة.

يظهر سلـوك الابتسام عنـد الأطفال المكفوفين منـذ الولادة، ممـا يعطي وزنا كبيرا لحجة القـائلين بفطريـة هذا السلوك. فـالطفل الذي لم يسبق لـه مشاهـدة الابتسام

---

* الخمول القريب من النعاس

يمكنـه إظهار هـذا السلـوك دون تعلم مسبق ويتشـابه هـذا السلـوك عند الأطفـال المبصرين والمكفوفين حتى الشهـر السادس من العمر. إلا أنه يبدأ بـالضعف ـ كغيره من التعابير الوجهيـة ـ عند الأطفال المكفـوفين بعد الشهر السادس. فـالابتسام عند المكفوفين أقل جاذبية وإشراقا من الابتسام عند المبصرين. فهذا السلوك ـ بالرغم من فطريتـه ـ يحتاج إلى مؤشـرات المحيط، وإلى تعزيزات مقـابلة كي يأخذ أبعاده كـاملة ويتحقق بشكل أمثل.

يبـدأ الابتسام على شكل منعكس فطـري بسيط، ثم يأخـذ أبعادا إجتماعيـة، إذ يصبح وسيلة سلوكية هامة في الاتصال بين الطفل والعالم الخارجي، ثم يندمج سلوك الابتسـام في أشكال متعـددة من التعـابير الوجهيـة بشكل منسق ومنسجم ثم يأخـذ بالتعقيد خلال مراحل نمو الطفل المختلفة.

وخلافا للابتسام، فالضحك لا يظهر في المراحل الأولى بعد الولادة بل في مرحلة لاحقة. ففي عمر ستة أشهر يمكن إثارة الضحك كاستجابة لمؤثرات خارجية حسية كالملامسـة أو الدغـدغة. وبعـدها يمكن للمثيرات السمعيـة أو البصرية إثـارة هذا السلوك.

الكـــدر :

يتكـون سلـوك الكـدر من سلسلـة معقدة مـن التعابير الـوجهيـة، تبـدأ عـادة بالعبوس، ثـم التجهم الأكثر عمقا المتمثل في عقد الحاجبين وإغـلاق العينين جزئيا ثم ميلان زاوية الفم إلى أسفل. وتترافق هذه التعـابير بالصراخ في حالة البكاء حيث تكون الحالة القصوى التي تظهر الكدر وعدم الرضى عند الصغير.

تتغير تعابير الكدر وتمر في مراحل عـدة من التطور، شأنها شأن سلوك الابتسام. فهي جملة مـن الانعكاسات الموجـودة منذ الـولادة، وتتصف بالشمـولية حيث تمت ملاحظتها عند الاطفال من عروق وأقوام مختلفة.

ويمكن إثارة هذا السلوك في شروط خـارجية محددة، حيث تصبح تعابير الكدر

والعبوس والبكاء وسائل سلوكية وتستخدم هذه التعابير منفصلة أو مركبة في جملة معقدة كوسيلة اتصال اجتماعي، تسمح للطفل بضبط تفاعله مع الأم.

لقد أشارت الأبحاث الحديثة إلى أن الطفل يتمكن من إظهار التعابير الوجهية الستة الأساسية، التي تعتبر الركيزة البيولوجية للانفعالات التالية : السرور، والغضب، والخوف، والمفاجأة أو الدهشة، والحزن، والاشمئزاز.

وتجدر الإشارة إلى أن التعابير الوجهية المختلفة والبصر تندمج في وحدات سلوكية اتصالية، يتعلم الطفل تنسيق هذه الوحدات في الأشهر الأولى من العمر. وبالرغم من وجود هذه الوحدات عند الولادة إلا أنها تتأثر في سياق التعلم والتجربة. فالتعبير الانفعالي ينبثق ويتموضع خلال تطور الفرد، ويأخذ دورا تكيفيا أثناء نموّ الطفل خصوصا فيما يتعلق بسلوك الاتصال بين الطفل والأم.

وتتمتع هذه الوحدات السلوكية بوظيفة هامة في الاتصال بين الطفل والمحيط، إذ تتصرّف الأم بالاستناد إلى التعابير الصادرة عن الصغير.

يتبين مما سبق الدور النشط للطفل، إذ يمكنه التأثير في من حوله خصوصا الأم منذ الأسابيع الأولى. فالكثير من استجابات الأم تتأثر بالتعابير والإشارات الصادرة عن الصغير. إن ملاحظة سلوك الأم عندما يبكي طفلها مثلا تبين مدى تأثير ذلك في تصرفات الأم حيث تبني استراتيجيتها السلوكية بالاستناد إلى هذا المؤثر الصادر عن الصغير، فهي تحاول معرفة لماذا يبكي؟ هل هو جائع؟ هل يشعر بعدم الرضى بسبب ملابسه الرطبة؟ فهي تأخذه وتداعبه وتلامسه بحنو حتى يهدأ انفعاله. أما إذا ابتسم الطفل فتستجيب الأم غالبا بالابتسام والمناغاة واللعب الذي قد يستمر وقتا طويلا.

وتوضح هذه الأمثلة أن الطفل ليس كائنا منفعلا يكتفي بملاحظة مايجرى حوله فحسب، بل يلعب دورا نشطا في تطور علاقته مع الأم.

٦ ـ التقليد :

لقد أشار زازو (Zazzo, 1945 In Nadel, 1986) إلى أنه قد لاحظ صدفة طفله البالغ من العمر خمس وعشرين يوما يمد لسانه كاستجابة على مد اللسان من قبل زازو نفسه، تكرر ذلك عدة مرات متتابعة استجابة لما أصدره زازو نفسه.

لقد كرر هذا الباحث التجربة عندما بلغ الطفل سبعة وثلاثين يوما وحصل على نفس النتائج السابقة، وبعدها أصبح مجرد حضور زازو نفسه أمام الطفل يثير عند هذا الأخير مدّ اللسان. وتم التحقق من هذه التجربة فيما بعد حيث تبين أن الطفل يمكنه أن يقلد بعض الحركات في مرحلة مبكرة من العمر. وتتبع استجابة الصغير دائما سياقا محددا، إذ يقوم بتثبيت نظر على حركة اللسان المنتظمة للمجرب، ثم يحرك فمه ويخرج لسانه مرةً أو عدة مرات متتابعة.

وتجدر الإشارة إلى أن الطفل يتوقف عن النظر إلى المجرب عندما يبدأ بتحريك فمه ولسانه، كما لو أن إطلاق الحركة وتنفيذها يستوجب توقف التثبيت الحسي.

تتعارض النتائج السابقة مع وجهة نظر (بياجيه) القائلة بأنه من غير الممكن ملاحظة سلوك التقليد في الشهر الأول من العمر. إذ يميز مرحلة تمتد من عمر شهر إلى عمر خمسة أشهر حيث يظهر سلوك التقليد، بشكل محدود ومتفرق، على هامش بعض المنعكسات كالمصّ والصراخ وبترديد النموذج بشكل أولي. واعتبارا من الشهر السادس يمكن ملاحظة التقليد بالمعنى الدقيق، وفي مرحلة لاحقة تمتد حتى عمر السنة يمكن ملاحظة التقليد لنماذج جديدة. ويظهر الطفل سلوك التقليد بحضور النموذج (التقليد المباشر) في عمر أحد عشر أو أثنى عشر شهرا، أما في الشهر الخامس عشر فإن سلوك التقليد يتطور تطورا هاما حيث يتميز بصفتين أساسيتين:

١ ـ يتمكن الطفل من تقليد نموذج جديد بشكل صحيح وعلى الفور.

٢ ـ يتمكن الطفل أيضا من التقليد بعد غياب النموذج (التقليد المؤجل)

التقليد المبكر :

قام بياجيه بملاحظة طفله الصغير في دار الولادة في مواقيت مختلفة : في عمر (١٢) ساعة و(٣) أيام و(٤) أيام و(٦) أيام. لقد بينت هذه الملاحظات أن بكاء الطفل المجاور، وتأوه ونواح بياجيه المفتعل، يثير بكاء الصغير، لقد خلص هذا الباحث إلى القول بأن البكاء يتميز بخصوصية تثير بكاء الطفل الحديث الولادة حيث أنه يبدي استجابة لهذا المثير دون غيره من المثيرات الصوتية (Nadel, 1986, p. 30). ولم يتطرق بياجية إلى افتراض التقليد عند ملاحظة ذلك.

لقد تعاقبت الأبحاث المتعلقة بظاهرة التقليد في السنوات الأخيرة وأشارت بعض الملاحظات إلى أن الطفل بين عمر (١٢) و(٢١) يوما يمكنه تقليد التعابير الوجهية وبعض حركات اليد، إذ يمكنه إنتاج حركات على أجزاء غير مرئية من جسده (Meltzoff et Moore, 1977). لقد ناقش هذان الباحثان نتائجهما بالاستناد إلى الفرضية التي تعتبر قابلية التقليد قابلية فطرية، إلاّ أن ذلك قوبل بانتقادات عنيفة (Nadel, 1986) وقام باحثون آخرون بإعادة التجارب الآنفة الذكر، وخلصوا إلى القول بعدم وجود عناصر حاسمة تؤكد سلوك التقليد بعد الولادة.

ونخلص مما سبق إلى الملاحظات التالية :

١ ـ ربما كان التعارض في نتائج الأبحاث المتعلقة بسلوك التقليد نتيجة لصعوبة تعريف هذا السلوك. فالتشابه بين تعبيرين أو حركتين لا يعني بالضرورة تقليدا.

٢ ـ يستند انطلاق سلوك التقليد أثناء مراحل تطور الطفل إلى قواعد عصبية بيولوجية مختلفة ويمكن إثارة سلوك التقليد بواسطة مؤثرات بصرية. فالمعلومات البصرية وحدها قد تكفي لإثارة هذا السلوك.

٣ ـ تشير بحوث متعددة إلى وجود قدرات لإظهار سلوك التقليد في الأشهر الأولى، وتختفي هذه القدرات في عمر (٣ ـ ٤) أشهر لتظهر بعدها من جديد. ويختلف

سلوك التقليد اللاحق عن سابقة باستناده إلى معايير تتعلق بما يعنيه المؤثر بالنسبة للطفل، فلم يعد هذا السلوك عبارة عن منعكسات بسيطة، بل يتم انتخابه حسب المعاني التي يحملها المؤثر. فالمؤثرات الأهم بالنسبة للطفل هي تلك الصادرة عن المقربين خصوصا الأم، حيث تأخذ المؤثرات الصادرة عن «النموذج» (سلوك الأم) صيغة عاطفية.

بالرغم من أن بعض النتائج الحديثة تعزز الفرضية القائلة بوجود سلوك التقليد في الأشهر الأولى أثناء التبادل الاجتماعي بين الطفل والأم، إلاّ أن ذلك لا يزال يفتقر إلى دراسات منهجية ومنتظمة.

٤ ـ يكون سلوك التقليد بين الأم وطفلها في الأشهر الأولى غالبا من فعل الأم إذ يحدث التقليد على دفعات متكررة بهدف التعليم، فالأم تريد أن تعلم الطفل شيئا ما بواسطة التقليد المتكرر، لأن تكرار فعل ما أو حركة ما يؤدي إلى تثبيت انتباه الطفل وبصره (Field, 1977)، كما يمكن لهذا التكرار أن يؤدي إلى استجابة الطفل (Stern, 1977) وإلى إطالة مدة التفاعل بينه وبين الأم. كما يبدو تكرار التقليد وسيلة هامة لتحقيق الشروط الضرورية لتعليم الطفل ممارسة هذا السلوك. وبذلك يكون التقليد وسيلة تعليمية تربوية بالإضافة إلى كونه وسيلة اتصال. وغالبا مايثير سلوك التقليد عند الأم الابتسام ومناغاة الفرح عند الصغير في عمر ثلاثة أشهر. وعندما تلحظ الأم سلوك التقليد عند طفلها في الشهر السادس من عمره تقريبا تستجيب غالبا بالابتسام والقبلات. ويكون هذا السلوك بمثابة قاعدة لإقامة الاتصال بين الطفل والأم. فعندما تختار الأم بعض حركات الطفل أو أصواته أو تعابيره لتقليدها وترددها وتضخمها في بعض الأحيان فهي تدخل الرتابة والانتظام والتوقع في علاقتها بطفلها، وتأخذ المبادرة لاقامة التبادل بينها وبينه.

٥ ـ يميل الصغير إلى تقليد الحركات والأفعال التي يمتلكها هو بالذات، حيث تؤخذ هذه الأفعال والحركات من قبل الأم لتعيد إنتاجها كي تظهرها للطفل.

بطريقة خاصة. فتقليد الأم للصغير يكون أكثر من مجرد مرآة تعكس سلوك الطفل، بل تحاول الأم عبر ذلك أن تأخذ الطفل من عالمه الخاص لتتوجه به في اتجاه مختلف. فهي تقلّد الصغير أحيانا لتبدل سلوكه، إما عن طريق المبالغة في إعادة إظهار السلوك المقلد أو عن طريق حذف الكثير من عناصر هذا السلوك كي يتلاشى. فمثلا عندما يبدأ الطفل بالبكاء تجيب الأم ببكاء سريع يدوم بعض اللحظات قبل أن تنتقل الأم إلى بسط أساريرها وحمل الطفل على التوقف عن البكاء. وكذلك عندما تريد الأم إطعام طفلها الذي لا يبدي رغبة في ذلك، فهي تدخل في تفاعل معه، وتظهر سلوك الابتسام والتقليد، لتحمله على فتح فمه.

وتجدر الإشارة إلى أن التقليد عند الصغير البالغ أربعة أسابيع يظهر دون أن يركز انتباهه على النموذج بينما يختلف الأمر في عمر شهرين أو ثلاثة أشهر حيث يظهر سلوك التقليد بعد مرحلة من تركيز الانتباه على الحركة أو الفعل المقلد. فمشاركة الطفل وتركيز انتباهه يصبح نشاطا نفسيا حقيقيا (Trevarthen, 1977).

يرتفع سلوك التقليد تدريجيا عند الطفل خصوصا في النصف الثاني من عامه الأول، حيث لا يحتل هذا السلوك أهمية خاصة في التفاعل بين الأم والطفل. مما يضفي على هذا السلوك صفة التبادلية. إلاّ أن الدور الأهم في سلوك التقليد يبقى دور الأم. ففي دراسة حديثة للمؤلف (قنطار 1989 ; Kontar, 1987). تتعلق بالسلوك المتبادل بين الأم والطفل في النصف الثاني من عامه الثاني، أشارت هذه الدراسة إلى أن الأم تلعب دورا رئيسيا في سلوك التقليد، فمتوسط تكرار هذا السلوك في مدة (٣٠) دقيقة يكون (٩ , ٤) عند الأم و(٢) عند الطفل.

لقد أوضحت نتائج هذه الدراسة أيضا التأثير المتبادل بين سلوك الأم وسلوك الطفل. فتوزيع الأمهات في زمرتين:

زمرة مرتفعة التقليد، وثانية قليلته، يبين أن تكرار التقليد عند أطفالهن يتناسب مع تكرار التقليد عند الأمهات.

فالأمهات اللواتي يقلدن أطفالهن بكثـرة، يقوم الأطفال بدورهم بتقليدهن كثيرا . بينما يكون سلوك التقليـد قليلا عند أطفال الأمهات قليلات التقليـد . ويكون الفرق بين الزمرتين فرقا ذا دلالة من الناحية الإحصائية .

ويتأثر سلوك التقليد عند الأم بنفس السلوك عند الطفل حيث أوضحت الدراسة السـابقة أن أمهـات الأطفـال ذوي السلوك المرتفـع يقلدن أطفـالهن أكثـر مما تفعلـه أمهات الأطفال ذوي السلوك المنخفض، ويكون الفرق ذا دلالة أيضا .

تبين هذه الدراسة أن الأم في حالة التفاعل التلقائي مع الطفل حتى عمر السنتين وفي ظروف الحياة اليومية، تلعب دورا هاما في إظهار سلوك التقليد بالرغم من التأثير المتبادل بين سلوك التقليد عند الأم ونظيره عند الطفل .

وتجدر الإشارة إلى أن سلوك التقليـد عند الطفل يرتفع ارتفاعا هامـا نحو الأتراب في النصف الأول من عـامـه الثـالث (المصـدر السـابق)، فهل يترافق هـذا الارتفـاع بإرتفـاع مماثل نحـو الأم؟ أم أن تطور هذا السلـوك يرتبط بـالتفاعل مـع الأتراب؟ في وقتنا الحاضر تصعب الإجابة على هذين السـؤالين لتعذر الدراسات المنهجية لسلوك التقايـد أثناء التفاعل بين الأم والطفل . فمن غير المعـروف في أية مرحلـة من مراحل العمر يكون تكرار هذا السلوك عند الطفل مساويا لنظيره عند الأم .

دور الصغير في سلوك الأم :

في علاقـة الأم بالطفل، يصعـب أحيانا تحديـد السبب وتحديد النتيجـة، حيث يتعذر معرفـة فيما إذا كانت معاملة الطفل على هذا النحو دون ذاك قـد أثارها الطفل نفسه في مـراحل مختلفة من عمـره، أم أن الأم قد تبنّت هذه الطـريقة في تعـاملها مع الطفل وفرضتها . إلاّ أن القول بالتعديل التدريجي المتبادل في سلوك الطرفين أثناء نمو الطفل يبقى أقرب إلى الحقيقة . فالتغيرات في تطـور الطفل تعدّل في سلـوك الأم الذي يؤثر بدوره في الطفل فهو مزود منذ الولادة بصيغ متعددة من التنظيم النفسي، بحيث يتمكن من دفع الآخر للتصرف نحوه بطريقة معينة، فخصائص الصغير تؤثر إلى حد

بعيد في طبيعة العلاقة بينه وبين الأم. إلا أن ذلك يجب ألا يدفعنا إلى إغفال تأثير الأم وفعـاليتهـا فهي تضفي على عـلاقتهـا مـع الصغير معـاييرهـا وآمـالها وحـاجـاتها الشخصية.

لقد سيطرت، ولمدة طـويلة، بعض الأفكار الخاطئة المتعلقـة بقدرات الطفل في الأسابيع الأولى، فكـان من المعتقد بأنـه محدود القدرة النفسيـة والجسديـة وغير قادر على تلقي المعلومات من الوسط الخارجي، وهو كائن غامض غير منتظم. فالتجربة التي ينظمها الأهل قادرة وحدها ان تحمل هـذا الكائن على الانتظام فكل مايستطيعه هو أن يأكل وينام. إلاّ أن تقدم المعارف المتعلقة بالطفل الحديث الولادة وتوسعها قد غير من هذه الأفكـار وعدل تعديـلا أساسيا النظرة إلى الـوليد وطرق التعـامل معه، فلقد أثبتت بحوث عديدة بأن الطفل منذ الولادة يلعب دورا نشطا في صياغة العلاقة مع الأم. وبدأ البـاحثون الآن الأخذ بعين الاعتبـار التأثير المتبادل بين الأم والطفل في تحديد العلاقة بينهما.

ويمكن لخصـائص الطفل أن تعـدل مسار العـلاقـة بينه وبين أمـه مثل العمـر والجنس وقدرة الطفل على الاستجابة للمؤثرات الحسية، البصرية والسمعية الصادرة عن الأم. وتؤثر هذه الخصـائص في موقف الأم تجاه الطفل، فالطفل الصعب يشعر أمه بالقهر والإحباط، ويعزز لديها مشاعر العجز والإخفاق وعدم القدرة على ممارسة دورها (Lamb et al. 1979).

ويتعلم الطفل من خلال تجربته طرق التأثير في سلوك الأم. حيث يؤدي التبديل الـذي يطـرأ على سلـوك الطفل في مـراحل تطـوره المختلفـة إلى التأثير في سلـوك الأم تجاهـه، ومن المعتقد أن استجـابة الأم لمؤثـرات الطفل وإرضـاء حاجـاته في الـوقت المناسب وبـالقوة المنـاسبة يعـزز لدى الصغير قـدرته على التأثير في المحيط بـواسطة سلوكه.

يعتبر البحث المعاصر الصغير طرفـا هاما في العلاقة مع الأم فهو مـزود بالقدرات، اللازمة للاتصـال مع الآخرين خاصة الحاضن، فعدم تكامـل هذه القدرات وعدم

نضجها لا يعني غيابها. فالوسائل الاجتماعية للطفل وحواسه المختلفة، وقدراته الحركية تقوده إلى الدخول في علاقات اجتماعية متبادلة. ويُظهر التفاعل الاجتماعي في الأشهر الستة الأولى أن اهتمام الطفل يتركز على المؤثرات الصادرة عن الأم.

إلا أنه بالرغم من إشارة الكثير من الدراسات إلى تأثير الطفل في سلوك الأهل خصوصا في سلوك الأم إلا أننا لا نعرف بدقة العلاقة بين خصائص الطفل ومدى تأثيرها في سلوك الأهل.

يؤثر مزاج الطفل في قدرته على التكيف والتلاؤم مع الظروف المحيطة به فالطريقة التي يظهر الطفل سلوكه بها (المزاج) إما أن تكون جامدة هشة، وإما أن تتصف بالمرونة حيث يتمكن الطفل من تعديل سلوكه في ظل بعض الظروف. ويلعب ذلك دورا هاما في درجة السهولة أو الصعوبة التي يمكن أن تتطلبها تربية الطفل.

وعندما يعتقد الأهل أن تربية طفلهم تتميز بالسهولة، غالبا مايتميزون هم أنفسهم بدرجة كبيرة من الصبر، والقدرة العالية على بذل الجهود في تنشئة الطفل.

كذلك تؤثر الحالة الصحية للطفل في سلوك الأهل وفي كفاءتهم. فالطفل الصحيح جسديا يخفف الكثير من معاناة الأهل ويجعل من السهل على الأبوين التحلي بالصبر، ويعزز شعور الأمل والتفاؤل عندهما، وكل هذا بدوره يسهم في دفع طاقاتهم وجهودهم المبذولة في التنشئة.

ومن الخصائص الهامة التي تؤثر في صياغة سلوك الأهل عمر الطفل وجنسه، فغالبا ما تختلف معاملة الصغير عن الكبير، إذ يبذل الأهل طاقات أكبر في تعاملهم مع الأصغر، ويكون لمرحلة النمو التي يمر بها الطفل ولترتيبه بين الأخوة والأخوات تأثير كبير في سلوك الأهل. ويلاحظ لدى شعوب مختلفة دور الأب المحدود في تربية البنات، وندرة تدخله في شؤون الرضيع، بينما يتزايد شعوره بأنه معنى بشؤون الطفل عندما يكبر قليلا خاصة إذا كان ذكرا.

ومن الجدير بالذكر أن الأهل ذوي الكفاءة العالية ينجبون أطفالا من السهل تربيتهم، والعكس بالعكس ومما لا شك فيه أن التأثر والتأثير بين الأهل وأطفالهم

يكون في اتجاهين اثنين، فإذا كان من الصحيح أن الطفل ينتج تطوره ونموه بنفسه، فالأهل ينتجون بأنفسهم سلوكهم كأهل.

وبالرغم من أهمية دور الصغير في صياغة العلاقة مع الأم إلاّ أن دور الأم يكون أكثر إيجابية في تحديد هذه العلاقة (Kaye, 1979) وذلك للأسباب التالية:

١ - تتمتع الأم بمرونة كبيرة، وتأخذ في الحسبان برنامجها اليومي، وتتمكن من توقع طريقة التعبير السلوكي عند الطفل وطريقة نشاطاته المختلفة.

٢ - تقوم الأم غالبا بدفع الطفل في طريق تطوري بحيث توفر له فرص النمو التدريجي.

٣ - تتمتع الأم بقدرة عالية على تغيير تعابيرها وتكييفها حسب وضع الصغير، وعلى توفير الفرص للتقليد المتبادل.

٤ - تتميز الأم أيضا بقدرتها على إيجاد المعنى البديل من خلال استجاباتها المتنوعة بالمقارنة مع استجابات الطفل المحدودة، وتتميز أيضا بقدرتها على الإبداع والتنويع في سلوكها أثناء تفاعلها مع الطفل.

ويمكن للصغير أن يكيف سلوكه بالاستناد إلى تعابير الأم، وهو يستجيب إلى أنواع عديدة من الإشارات البشرية إذ تبرهن هذه الاستجابات على إدراك الصغير للأشخاص؛ فقدرة الطفل على التقليد في مراحل مبكرة، وإعادة صياغة سلوك ما، وتكييف عناصره، وإخراجه على شكل تعبير عفوي يمكن الطفل من تطوير قدراته الاتصالية مع الأم في المراحل الأولى (Trevarthen, 1979). ويبدي الصغير في عمر شهرين إلى ثلاثة أشهر صيغة معقدة من التفاهم المتبادل مع الأم، وينظم ذلك بشكل طبيعي وعفوي. فهو يظهر تعابير متنوعة بعضها على درجة عالية من الانفعالية، ويحاول أن يلعب دورا فاعلا في توجيه التبادل مع الآخرين (المرجع السابق).

إن التحليل التقليدي لعلاقة الأم بالطفل يركز على التأثير من جانب واحد، أي

من جانب الأم، في تطـور هذه العلاقة . إلا أن البحوث الحديثـة تميل إلى الأخذ بعين الاعتبار التأثير المتبادل بين الأم والطفل في دراسة هـذه العلاقة، حيث يسهـم كلاهما في التبـادل القائم في سيـاق معقد من التفـاعل (Lewis and Rosenblum, 1979; Kontar, 1987).

وخلال السنـة الثانية من العمر يتميـز سلوك الأم والطفل بالترابط ذي الـدلالة، عنـدما يتعلق الأمـر بسلـوك النداء والتقليـد والألفـة (المداعبة، التقبيل، العطـاء، الابتسام . . .) فسلوك الواحد يؤثـر في سلوك الآخر ويرتبط به إلى حد كبير (Kontar, 1987). وهذا ما يدعم قول ميد وهايمان (Mead and Hayman, 1965) : «تبتسم الأم عندمـا يبتسم طفلها، وتستجيب لـه عند بدايـة لعبه، فـالطفل يعلم العالم بأن هناك مكاناً يمكن داخله للناس أن يتبادلوا التفاهم والأمزجة والطباع».

وتتوسع القدرات الحسية والإدراكية للطفل خلال عـامه الثاني، وتنمو قدرته على فهم حوادث العـالم المحيط به مما يستتبع تعـديلا في سلوك التعلق، وفي العـلاقة بين الطفل والأم؛ فهو في هـذه المرحلة يلعب دورا نشطا في التبـادل مع الأم. وعند تحليل العناصر السلوكيـة المتبادلة بين الأم والطفل في عامه الثاني تبين تسـاوي تكرار سلوك الإصدارات والنـداءات والاستجابة لـذلك عند الطـرفين. وبشكل التفاعل السلبي الـذي ينطوي على المنع والقمع والأمـر والتهـديـد والعدوان (١٠٪) من مجمل مـدة التفاعل بين الأم والطفل (Kontar, 1987) ويكون الطفل غالبا صاحب المبادرة في هذا السلوك، بينما تلعب الأم دورا أكثر أهميـة في سلوك الألفة (الابتسام، الضحك، المداعبة، التقبيل، الهدية٩ . وأوضحت الدراسة السابقة أن الأم تلعب دورا نشطا في سلوك التقليد إذ تبدي (٧١٪) من هذا السلوك، بينما يبدي الطفل (٢٩٪) فقط .

وكذلك يكون دور الأم أكثر أهمية من دور الطفل في اتخاذ المبادرة للتبادل الصوتي الكلامي .

ويتبين التأثير المتبادل في التفاعل بين الطرفين عنـد دراسة سلوك الابتسام وسلوك التقليد. فـالأطفال المتميـزون بتكرار عـال لهذين النوعين من السلـوك، لهم أمهات

يتميـزن أيضا بتكـرار عـال لهذين السلوكين. وإذا تـم التحليل باتجاه آخـر يتبين أن الأمهات اللـواتي يتميزن بتكرار عال لسلـوك الابتسام ولسلوك التقليـد يميل أطفالهن أيضا إلى إظهار تكرار عال لهذين السلوكين (المصدر السابق).

تظهر هذه النتـائج أهمية الدور الذي يلعبـه الطفل في سلوك الأم والتأثير المتبادل بين الطرفين، بحيث يكون من الصعب القول بأن دور هذا الطرف هو أكثر أهمية من دور الطرف الآخـر، وهذا يبرز أهميـة التبادلية في عمليـة التفاعل القـائمة بين الطفل والأم، وأهمية المقارنة بين مختلف الجوانب السلوكية لدى الطرفين. مما يسمح بالتعرف على الدور الذي يلعبـه كل منهما في مختلف مراحل تطور الطفل. ففي مرحلـة ما قد يميل الطفل إلى تبني سلوك الابتسام أو قد يميل إلى اعتماد التقليد. وفي مرحلة أخرى قد يفضل وسـائل أخرى في تفـاعله مع الأم، فـالدراسـة التطورية لمختلـف جوانب السلوك تمكننـا من الإجابة على الأسئلـة المتعلقة بدور الطفل واستراتيجيتـه المتبعة في عملية الاتصال في مختلف مراحل تطوره.

تعتقد غالبية الأمهات أن الطفل الحديث الولادة يصبح شخصا واقعيا عندما يبدأ الابتسام، ويتفق معظم البـاحثين على أن أهمية دور الابتسام تكمن في إقامـة الروابط بين الطفل والأم. فتكـون نسبـة الأطفال المتميـزين بعـلاقـة آمنة مع الأم عـاليـة بين الأطفال الذين يتكرر عندهم سلوك الابتسام. إن (٨٦٪) من الأطفال الذين يظهرون تكرارا مرتفعا لـلابتسام يتمتعون بعلاقة آمنة مستقـرة مع الأم. بينما تكون هذه النسبة (٤٠٪) عند الأطفال الذين يظهرون تكرارا منخفضا للابتسام.

ويمكن أن يكـون للابتسـام وظيفة أخـرى في العـلاقة بين الأم والطفل، وظيفـة تهدئة وتلطيف وخفض للتوتر والتهـديد. ففي ملاحظة للمـؤلف (المصدر السابق) تبين أن زمرة الأمهـات التي تلجأ غـالبا إلى سلـوك التهديد لها أطفـال يتكرر عنـدهم سلوك الابتسام. فيمكن أن يكون ذلك بقصد التهدئة وتخفيف التوتر. فالطفل يظهر غـالبـا سلوك الابتسـام ليـواجـه تهديدات الأم، ويتبنىّ استراتيجيـة تمكنـه الحد من عدوانيتها. فإظهار سلوك الابتسام أمـام تهديد الأم يؤدي غالبا إلى تقنين هذا السلوك ووقفه وعدم تحوله إلى عدوان.

إن التنسيق المتبادل بين الطفل والأم وتزامن تدخلهما في قضية التفاعل على درجة كبيرة من الأهمية . فتنسيق المؤثرات التي يصدرها كل طـرف وتزامنها بالنسبة لمؤثرات الطرف الآخر يجعل السلـوك المتبادل بين الأم والطفل أكثر فعالية . فبـالرغم من أهمية الدور الذي يلعبـه كل طرف في صياغة التفـاعل بينهما، إلا أن التزامن والتنسيق بين سلوك الطرفين يعطي هذا الدور أهمية وفعاليتة .

الفصل السابع
الأمومة في الأسرة العربية وكفاءة الأهل

الأسرة العربية

بالرغم من تميز العلاقات الأسرية في المنطقة العربية بالثبات والاستقرار منذ عدة قرون، إلا أن هذه العلاقات تشهد تغيرا سريعا في وقتنا الحاضر. إن مظاهر التنمية الاقتصادية، وتسارع الهجرة من الريف إلى المدينة، وتعاظم دور وسائل الاتصال الحديثة، أدى إلى تغير أساسي في البنية الاجتماعية والاقتصادية التي ارتكزت عليها الأسرة العربية منذ قرون طويلة. ولابد أن تنعكس هذه التغيرات على تنشئة الطفل وعلاقته بالأسرة، وعلى طريقة التعامل معه.

لقد أكدت الأدبيات التي تطرقت للأسرة العربية خاصة (إبراهيم ١٩٨٥) على السمات التالية:

١ ـ الأسرة العربية أسرة ممتدة حيث يتقاسم المسكن الواحد أجيال قرابية متعاقبة، تربطها شبكة معقدة من العلاقات.

٢ ـ تتميز الأسرة العربية بهرمية السلطة الأبوية، حيث تبدأ بأكبر الذكور سنا وتتدرج إلى أسفل حيث أصغر الإناث عمرا.

٣ ـ تتسم الأسرة العربية بالتضامن والتماسك، فهي وحدة عضوية اقتصادية ودفاعية، وهي أيضا وحدة تكافل نفسي واجتماعي تضمن لأفرادها الأمان.

٤ ـ الأسرة العربية أسرة تقليدية محافظة، حيث تؤكد على استمرارية القيم والأعراف والطقوس الدينية، وعلى اعتبارات السمعة والشرف وتأكيد الولاء الأسري.

وعنـد الإشارة إلى هـذه السمات لابد من الأخـذ بعين الاعتبـار التفاوت من قطـر عربي إلى قطر آخر، والفروق الأيكولوجية (البيئية) من البادية إلى المدينة، والفروق الطبقية بين الطبقات الشعبية والطبقة صاحبة الامتياز.

٥ ـ التسـامح المفرط في الطفـولة المبكرة مما يشعر الطفل بـالأمن والطمأنينة. وتتغير معـاملة الأسرة تـدريجيا وتصبح أقل تسـامحا بعـد سن السادسـة. فمن الملامح الأسـاسية لـلأسرة العـربية التغير الحاد بين الطفـولـة الأولى التي تحظى بالحريـة والتسـامح وبين الطفـولـة المتأخـرة والمراهقـة التي تعـاني من التسلط والتحكم والتوجيه.

لقد أصابت التغيرات الحديثة المتتالية في ملامح الأسرة العربية الطبقات الوسطى بشكل خـاص حيث تتجه بها نحـو نمـوذج الأسرة النوويـة*، ففي دراسة لإدريس عزام (١٩٨٥) تبين أن الأسرة الأردنية الحضرية ـ مثلا ـ لم تعد تميل إلى الروابط القوية مع الأقارب، وأن الأسرة النـووية تأخـذ أهميتها على حسـاب الأسرة بالمفهـوم الواسع الشامل للأهل والأقارب (أسرة التوجيه أو الأسرة الممتدة).

لقـد أشارت هـذه الـدراسة إلى أن البعـد السيكـولوجي لأسرة التـوجيـه قد بـدأ بالتلاشي. فلم تعـد أسرة التوجيه جماعة مرجعيـة بالنسبة للأسرة الزواجيـة «النووية» المؤلفة من الزوجين والأولاد. وهـذا ما يفقد العلاقات الترابطية مع الأقـارب أبعادها المادية والمعنـوية. وتميـل الأسرة النوويـة الحضرية الحديثـة إلى الاستقلاليـة والاكتفاء بالعلاقة الشكلية مع هؤلاء الأقارب.

إن هذا التعديل في العلاقات والروابط الاجتماعية سينعكس بلا شك على العلاقة داخل الأسرة النـوويـة، وبـالتـالي على علاقـة الطفل بـالأم والأب والأخـوة والأخوات.

من هنا تأخذ مسألة تطوير البحث العلمي في هـذا المجال أهمية خاصة. فلابد للبحث من السير بخطـا حثيثـة كي يتمكن من رصد هـذه التغيرات. فـالأسرة هي

* الأسرة المؤلفة من الأب والأم والأطفال

المؤسسة التربوية الأولى التي يمكنها أن توفر للطفل الأمن والطمأنينة. فالتنشئة الأسرية المتسامحة، القائمة على المحبة والديموقراطية تؤدي إلى تعزيز شعور الطفل بالأمن والثقة بالعالم. تحتل طريقة معاملة الوالدين لأطفالهما مكانة هامة في تكوين شخصية الأبناء. فتنشئة الطفل في جو من الحنان والمحبة والتسامح يفعل فعله الكبير في تنمية ثقته بنفسه وقدرته على مواجهة شروط الحياة السمحة والقاسية على السواء. بينما يؤدي التعامل مع الطفل بنفور وكراهية إلى الشقاء والتعاسة ويدفع الطفل إلى النظر نحو العالم نظرة متشائمة.

المرأة ـ الأم في الأسرة العربية:

إن المجال الوحيد للمرأة في عالم الرجال هو مجال الأمومة. فالمرأة في المجتمعات العربية تتحدد بأمومتها، التي تعتبر القاعدة الأساسية لاستقرار المرأة في عائلتها الجديدة (عائلة الزوج). وتشعر المرأة التي تضع ذكرا بالاعتداد والرضى لمساهمتها في «شرف العائلة ورفعتها»، وتحظى بنظام غذائي خاص بعد الولادة على الأقل لا تحظى به تلك التي تلد بنتا (Lacoste-du Jardin, 1985).

ويتميز سلوك الأمومة بالتقارب الجسدي بين الأم والطفل والذي يعتبر امتدادا لحالة الحمل. فيتم اللقاء والتوحد الجسدي بين الطرفين خصوصا أثناء الرضاعة التي قد تستمر طيلة سنتين. وتخاطب الأم الطفل وتغني له وتلامسه بحنو. فالاتصال شبه الدائم بين الأم والطفل يسهم في إقامة علاقة قوية بينهما، ويسرّع الايقاظ الحسي للطفل.

وتفرط الأم في احتضان الطفل، ويلاحظ ندرة استخدام العربة الخاصة بالطفل حيث تقوم الأم بحمله في أغلب الأحيان، مما ينعكس على طبيعة الاتصال بين الأم والطفل.

تبدأ الأم دخول الحياة الاجتماعية العامة بفضل أمومتها، وفي حال إرمالها* يمكن أن تلعب دورا اجتماعيا هاما، خصوصا إذا كانت أما لذكر أو لعدة ذكور، فالأمومة

* فقدان الزوج

تكسب المرأة احتراما وتقديرا في عالم الرجال؛ ففي مجتمعاتنا يرتبط استقرار المرأة العائلي والاجتماعي وحتى النفسي بقدرتها على الإنجاب.

ويقتصر دور الأمومة على الأم فقط في البنية الاجتماعية العربية، فلا تزال مشاركة الرجل محدودة جدا في هذا المجال بالمقارنة مع المجتمعات الصناعية حيث بدأ الرجل مشاركة سلوك الأمومة، والمساهمة أكثر فأكثر في تنشئة الأطفال وفي القيام بدور نشط للعناية بهم.

وظيفة الأسرة:

إن الوظيفة الأساسية للأسرة هي توفير الأمن والطمأنينة للطفل، ورعايته في جو من الحنان والمحبة إذ يعتبر ذلك من الشروط الأساسية التي يحتاج إليها الطفل كي يتمتع بشخصية متوازنة قادرة على الانتاج والعطاء. فمن حق الطفل أن يكبر في جو مفعم بالمحبة وفي أسرة يحكم علاقاتها التفاهم والثقة.

وتقوم الأسرة بوظيفة حيوية إذ تلقن الطفل العناصر الأساسية لثقافة الجماعة ولغتها وقيمها وتقاليدها ومعتقداتها، مما يهيىء الطفل للحياة الاجتماعية، ويمكنه من السلوك بطريقة متوافقة مع الجماعة، ومن التكيف مع الوسط الذي يعيش فيه. فالتنشئة الاجتماعية عملية تربوية تقوم على التفاعل بين الطفل والأسرة.

وتختلف طريقة التنشئة حيث تنهج بعض الأسر نهجا قائما على الحوار المتبادل مع الطفل، وأخذ مشاعره وآرائه بعين الاعتبار، والإصغاء إليه بحيث يتمكن من التعبير عن ذاته بحرية. فالطريقة القائمة على الديمقراطية والتسامح تمهد السبيل لإقامة علاقة أسرية صحية متماسكة، يكون الطفل طرفا فاعلا فيها، مما يمكنه من النموّ والتفتح، وتنمية الاستقلالية والاعتماد على الذات، وتعزيز الثقة بالنفس. فذلك لا يعني الخضوع لرغبات الطفل والانقياد لأهوائه، بل يعني مشاركته القرار الذي يتعلق به.

وتنهج بعض الأسر نهجا مغايرا للطريقة السابقة، نهج يقوم على الاستبداد

والتسلط ويستند إلى القمع والقسوة. ويؤدي هذا النهج إلى توجيه الطفل، وقبوله ما يفرض عليه وقتل روح المبادرة والاستقلالية في ذاته، أو إلى ثورة الطفل وتمرده ومعارضته المستمرة لكل ما تريد الأسرة منه أن يفعله، يترك هذا النهج في التنشئة آثاراً سلبية في شخصية الطفل وقد تستمر هذه آثاراً على المدى البعيد. فلقد أشارت دراسة الريحاني (١٩٨٥) إلى أهمية أساليب التربية في تعزيز شعور المراهقين بالأمن أو اضطراب هذا الشعور. كما تؤثر أساليب التنشئة في قدرة المراهقين على التكيف وعلى صحتهم النفسية.

في دراسة للأسرة والابداع، أشار سعد الدين إبراهيم (١٩٨٥)، إلى أن هناك تنوعا هائلا في الأوساط الأسرية والاجتماعية التي أنجبت كبار العلماء والمبدعين فبعضهم نشأ في أسر ميسورة، بينما نشأ آخرون في أسر فقيرة، وبعضهم كان في مواقع السلطة والوجاهة بينما تعرض آخرون لتعسف السلطة وبطشها. فهذا التنوع في الظروف التي عاشها المبدعون يحمل على الظن بصعوبة تحديد الشروط اللازمة للإبداع.

وتشير نتائج البحوث المختلفة إلى أهمية الشعور بالاطمئنان في المراحل المبكرة من حياة الطفل، ليتمكن من الصمود في مواجهة المثبطات والسلبيات في مراحل لاحقة من العمر. فالتعامل مع الطفل بإيجابية ومحبة، واحترام فرديته، يساهم في تفتح شخصيته وتنمية قدراته الابداعية.

وتؤكد هذه الدراسة أهمية الأسرة في حياة الطفل، وفي إيقاظ الإبداع لديه، إذ ترتفع القدرات الإبداعية لدى الأطفال عندما تتيح لهم الأسرة فرصة التعبير عن أفكار جديدة، وتشجعهم على القيام بأعمال غير مألوفة لمن هم في عمرهم، وتوفر لهم فرص القراءة والمناقشة وطرح الأسئلة. إننا نشارك السيد سعد الدين إبراهيم الرأي عندما يخلص إلى القول «إن التنشئة الاجتماعية في الأسرة العربية بالرغم من أنها توفر بعض المقومات الضرورية للإبداع، إلا أنها تجمّد أو تدمر معظم المقومات الأخرى». والمشكلة الصعبة هنا اجتماع «سمتي التسلطية والتقليدية المحافظة وتفاعلها معا.

وبذلك تعتبر الأسرة العربية نموذجا مصغرا للمجتمع ذاته، ويعتبر المجتمع نموذجا مكبرا للأسرة. فمؤسسات المجتمع الأخرى - وخاصة المدرسة والدولة - تغذي وتدعم ما بدأته الأسرة مع أبنائها في مرحلة الطفولة المتأخرة. والأسرة بدورها تتلقى قيمها ومعاييرها من مؤسسات المجتمع، وخاصة من المؤسسة الدينية المحافظة، والمؤسسة الاقتصادية شبه الاقطاعية أو الريعية، ومؤسسة الدولة التسلطية. فهذه المؤسسات تتوقع من الكبار الامتثال والطاعة وإلا فالحرمان والقمع والعذاب في الدنيا أو الآخرة أو فيهما معاً (المرجع السابق ٨١).

ربما كانت وظيفة الأسرة الأهم والأخطر هي وضع المجتمعات العربية خارج هذه الحلقة المفرغة من التخلف والتمزق والتبعية. ربما كان على التربية أن تنجز هذه المهمة الصعبة التي فشلت المؤسسات الأخرى في إنجازها. فإذا توقفت الأسرة عن توجيه الأفراد وتطبيعهم وتهيئتهم «للتكيف» أو «التلاؤم» مع شروط الواقع المتخلف خارج المنزل فإنها سوف تسهم في القضاء على رموز التخلف. وربما لم تتهيأ إلى الآن الشروط المناسبة التي تمكن الأسرة من إنجاز هذه المهمة الخطرة.

تحقق الأسرة في تنشئتها أغراض الكبار من أربابها ومن أرباب المؤسسات الاجتماعية الأخرى في المحافظة على السلطة والاحترام والهيبة. فالأسرة التي تخرج عن ذلك تعرّض أفرادها للاحباط وربما للهلاك. فهي إذن تزوّد أفرادها بآليات الحماية الذاتية للمحافظة على الاستمرار والبقاء، فالأسرة حلقة في سلسلة اجتماعية معقدة، إلا أنها أكثر تأثيرا على الفرد في المراحل التكوينية الأولى، وأكثر حرصا على أمنه. فإذا كان الإبداع ينطوي على خطر الموت — لأنه يفترض الاختلاف مع ما هو شائع - فمن الطبيعي أن تعمل الأسرة على تجنيب أفرادها هذا الخطر.

ويمكن النظر إلى المستقبل بشيء من التفاؤل لأن التغيير يتناول قطاعات كبيرة من الأسرة العربية. إلا أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار بأن التغيير الصحيح يحتاج إلى الحرية.

التنشئة في الأسرة العربية:

إن الولادة مناسبة سعيدة تحتفل بها الأسرة، خصوصا إذا كان الطفل ذكرا،

حيث تكتسب الأم مكانة هامة بالنسبة للزوج، وبقية الأقارب بعد الولادة الأولى.

ويكاد يكون أسلوب تنشئة الأطفال تكرارا لأسلوب الجيل السابق (إبراهيم ١٩٨٥). فالأم تستقي معلوماتها في العناية بالطفل من قريباتها، ونادرا ما تستشير مربيا أو طبيبا أو كتابا.

ويعيش الصغير ملتصقا بأمه وغالبا ما يتغذى من ثدييها، ويحظى بدفء جسدي وعاطفي. ولا يخضع نومه وتغذيته لجدول مسبق، فذلك يرتبط بحاجات الطفل ورغباته، ويتسم بالمرونة والتلقائية، ويستمر هذا الأسلوب التسامحي إلى سن الرابعة أو الخامسة. فالطفل يأكل وينام ويلعب حينما يرغب. وهو يستقطب اهتمام الكبار وحنانهم وتدليلهم. إلا أن الأمر يختلف بعد ذلك حيث يبدأ الأهل مطالبة الطفل بالطاعة ويزجر سلوكه عندما يتعارض مع قواعد «التهذيب» ويلعب الأب دورا حاسما في ممارسة السلطة التي تراقب وتقمع بصرامة وقسوة بعض الأحيان. ويشارك الذكور الكبار من الأقارب الأب في تسلطهم على الصغار بقصد «تهذيبهم». وفي هذه المرحلة يبدأ الفصل بين الأولاد والبنات. ويطالب الطفل بأداء بعض الأعمال التي تتدرّج في الصعوبة مع تدرجهم في العمر.

فبقدر ما تتسم الطفولة المبكرة بدرجة عالية من التسامحية والمرح والحيوية واليقظة، تتسم الطفولة المتأخرة بدرجة عالية من التوجيه والتحكم والقمع مما يطبع الطفل ـ الشاب بالخجل والتشاؤم والتردد.

لقد تباينت الآراء عند تقييم التنشئة في الأسرة العربية. فمنهم من يرى بأن الطفولة ـ خصوصا في الريف ـ هي طفولة دافئة يحيطها الحب والحنان وتتميز بالحرية والانطلاق. وأن العائلة العربية تتصف بالمودة والتكافل والأخوة. بينما يرى آخرون أن نظام العائلة العربية بالرغم من مزاياه الإيجابية في التكافل، والقائم على احترام الكبار إلا أنه يقوم على الخلاف والتنافر أكثر مما يقوم على الوئام والتعاون. كما أن العلاقات الأسرية تتميز بالغيرة والحسد أكثر من تميزها بالمحبة والتسامح. وينمي الأهل كذلك روح الغيرة في نفوس الأطفال عند التمييز بينهم ولو بدرجة محدودة. فالطفل شديد

الحساسية لكل كلمة تنطوي على تفضيل أحد أخوته أو أخواته.

وبالرغم من أن الأسرة الممتدة تهيىء للطفل نماذج متعددة للتفاعل، وفرص أكبر للعطف والتعاون منها في حالة الأسرة النووية، إلا أن الأسرة الممتدة التي تعيش فيها أجيال مختلفة من حيث العمر، ومن حيث درجة القرابة تشهد الكثير من الصراعات، ويسودها عدم الشعور بالأمن والاطمئنان.

بالإضافة إلى ذلك، تتسم التنشئة في الثقافة العربية بالتسلط والقمع الذي يمارس من قبل الأب الرازح هو نفسه تحت نير التسلط والديكتاتورية التي تمتد إلى أبعد من الأسرة لتشمل الحياة الاجتماعية بمختلف جوانبها. ويكون نمط هذه التسلطية واحدا في جميع الأقطار العربية بالرغم من اختلاف ثقافاتها الفرعية (إسماعيل ١٩٨٦). فالتنشئة الاجتماعية للطفل تقوم على تطبيعه للانصياع لإرادة الكبار، وذلك عن طريق التسلط، أو عن طريق الرعاية المبالغ فيها. فقيمة الفرد تتحدد بعوامل السن أو الجنس، لا بما يفعله أو بما يمارسه من مسؤوليات ومن نشاطات، مما يخلق شخصيات جامدة متسلطة تفرض جوا من الاستبداد والانصياع والسلبية.

إن اعتماد أسلوب العقاب الجسدي خاصة في أوساط الطبقات الدنيا، كوسيلة من وسائل التنشئة والتهديد بالحرمان من العطف والمحبة، يهدف إلى ترويض الطفل وتعويده «الطاعة والأدب».

ينطوي الاتجاه الاستبدادي في التنشئة على مخاطر جسيمة إذ يثبت الخوف في نفس الطفل ويعرضه للعقاب الجسدي والنفسي، ويعيق النمو النفسي - الاجتماعي للطفل بصورة سوية. ففي ذلك خطر، ليس فقط على الفرد ونموّ شخصيته بل أيضا على المجتمع بأسره، ونجد من الواجب أن نضم صوتنا إلى أصوات الكتّاب والمفكرين الذين نبهوا إلى خطورة هذا الاتجاه على مستقبل الأمة العربية ومصير أجيالها.

يتلقى الطفل المديح عندما يكون «مطيعا ومؤدبا» ويعزز سلوكه هذا بطرق مختلفة في البيت أو المدرسة أو خارجهما. وتكون الفتاة أكثر تعرضا للقمع حيث تشعر الفتيات بالحرج من الغرباء، ويبدين اهتماما محدودا في النشاط الاجتماعي، ويشعرن

بحالات من الخجل والعصبية في المواقف الاجتماعية.

إن التطور السوي للشخصية والتفتح المناسب لقدرات الطفل وإمكاناته يستوجب استبعاد الخوف والتسلط، ووجوب اعتماد الأهل لاستراتيجية تقوم على توفير الأمن والطمأنينة وعلى تعزيز الحوار مع الطفل وتفهم تصرفاته «غير المؤدبة».

ولابد من إعادة النظر في قصص الأطفال بحيث تخلو من العدوان، وكذلك الأمر بالنسبة لبرامج التلفزيون. فالمشاهد المليئة بالخوف والرعب وفصول العنف والعدوان مضرة جدا للأطفال. فاختيار القصص والبرامج التلفزيونية يتطلب عناية دقيقة، ويجب أن يتولى ذلك لجنة متخصصة. ومن الجدير بالذكر أن الكثير من الكتابات التي تناولت الأسرة العربية تنطوي على الانطباعات الشخصية والتعميمات الناقصة، مما يستدعي دفع البحث العلمي بحيث يتناول بالدراسة المنهجية مختلف الأوساط الاجتماعية بدوية كانت أم حضرية، ومحاولة توضيح الفروق في التنشئة بين مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية.

العوامل المؤثرة في كفاءة الأهل:

تتمثل كفاءة الأهل في طريقة تربيتهم للطفل بحيث يتمكن من تنمية شخصيته واكتساب القدرات اللازمة للتفاعل المناسب مع محيطه الايكولوجي ـ الاجتماعي خلال المراحل المختلفة من الحياة: مراحل الطفولة والمراهقة والبلوغ. وتعتبر قدرة الطفل على التكيف مع وسطه عنصرا أساسيا يمكن أن يحدد نجاح الأهل أو إخفاقهم في تنشئة الطفل.

إننا نملك القليل من البحوث والدراسات المتعلقة بسلوك الأهل. وبالرغم من محاولات النظرية الفرويدية التي أدت إلى توفر بعض المعطيات المتعلقة بدور الأهل وأثرهم في نموّ شخصية الطفل، تبقى البحوث العلمية محدودة في هذا المجال، وهذا ما يفسر اهتمام الباحثين الأمريكيين في دراسة سلوك الأهل وفي كفاءة الأهل (Pa-rental competence). توضح الملاحظات المتعلقة بالطفولة الأولى أن القدرات

المعرفية ـ والدوافع تنمو بتأثير الانتباه والحنو والاستجابة غير المحدودة للحاضن أو الأم وقدرتها على أن تكون مصدرا للمؤثرات المختلفة التي تلزم الصغير أثناء نموه، وتسهم في تفتح مختلف جوانب شخصيته وإيقاظها. ففي حالات الولادة قبل الأوان، تبين أن الأم المرضع الملبية لحاجات الصغير، والراضية عن طفلها كما هو (غير مكتمل النضج) تتميز بقدرة عالية من التعاون والتفاعل مع صغيرها، وتساهم في تنمية مشاعر الأمن والطمأنينة في التعلق بينهما (Belsky et al. 1981).

ويؤدي المستوى المرتفع من التنشئة والاهتمام من قبل الأهل إلى تعزيز قدرات الصغير أثناء الطفولة، خلال المرحلة قبل المدرسية، وذلك بتفاعله مع الأقران ومع الكبار بطريقة ودية تتسم بالتعاون، وكذلك الأمر بالنسبة للقدرة على استخدام الوسائل المتوفرة، ونضج القدرة على التفاعل مع المحيط الاجتماعي والمادي. فذلك يرتبط إلى حد كبير بمستوى التنشئة وبدرجة اهتمام الأهل بالطفل ورعايتهم له.

يحاول الأهل المتسمون بالتحكم والتسلط صياغة ومراقبة سلوك الطفل وقياسه في حالة محددة ـ كحالة التأزم، أو الطاعة لسلطة الأهل ويميلون إلى اتخاذ إجراءات تأديبية عند دخولهم في خصومة مع الطفل، بينما يحق الأهل المفرطون في التسامح بأن يصبحوا عاملا نشطا في صياغة سلوك الطفل أو في تعديل هذا السلوك في المستقبل. فهم يَقبلون سلوك الطفل دون تحفظ مما يحمل أطفالهم أن يوجهوا أنفسهم بأنفسهم. وغالبا ما يستخدم الأهل كفاءتهم وسلطتهم، وذلك لقناعتهم بحاجة الطفل إلى الاهتمام والمراقبة. فهذه الطريقة في التنشئة يمكن أن تشجع التبادل بين الأهل والطفل. كما تعبر هذه الطريقة عن إقرار الأهل بمسؤوليتهم العميقة تجاه الصغير، وذلك بممارسة تأثيرهم عليه.

وتؤثر طبيعة سلوك الأهل في تطور الطفل، فمراجعة الأدبيات المتعلقة في هذا الميدان تبين الترابط بين عناصر سلوك الأهل ونمط تصرف الطفل مما يحمل على الاعتقاد بأن سلوك الأهل يفسر الكثير من الفروق الفردية بين الأطفال.

درجة حساسية الأهل:

إن تحديد الكفاءة العالية في تطبيق سلوك الأبوة أو الأمومة أو مايسمى بسلوك

الأهل يعتمد على درجة الحساسية (sensitivity) التي يتمتع بها الأهل للوصول بقدرات الصغير إلى تطور أمثل، وتهيئة المؤثرات والفرص لنموه الانفعالي والسلوكي والاجتماعي والعقلي، وشعوره بالأمن والطمأنينة، وتعني هذه الحساسية القدرة على فهم الصغير بحركاته وإشاراته وحاجاته، وتقديم الاجابة المناسبة في الوقت المناسب. كما تعني أيضا متابعة تزويده بالعطف والحنان في السنوات الأولى خاصة، ومتابعة ذلك بما يتناسب وعمر الطفل، ويتوجب على الأهل توجيه سلوك أطفالهم ونشاطاتهم الأساسية دون عرقلة تطور استقلاليتهم ومهاراتهم الذاتية. ويمثل تطور التغير في سلوك الأهل استجابة لتطور العضوية البشرية. فعندما يتمكن الصغير من تنظيم سلوكه بنفسه يجب على الأهل تقديم الدعم اللازم لبزوغ هذه القدرة. إن سلوك الأهل المناسب يجب أن يحمل الطفل من نظام المراقبة المفتوحة إلى نظام ممارسة الضوابط والقواعد التي تنبع من ذاته. وعندما يكبر الطفل يكون مدعما من الناحيه النفسية ومزودا بما يلزم لمواجهة المراحل الانتقالية من الطفولة إلى المراهقة فالبلوغ.

لقد اقترح بعض الباحثين الأمريكيين نموذجا لكفاءة الأهل، يستند إلى عنصرين رئيسيين: الحساسية نحو الطفل، والإحاطة بشؤونه. ويتحدد هذان العنصران بالصبر والثبات في محاولة تفهم عالم الطفل والاعتراف بحاجاته للنمو والتطور، وبالقدرة على التحمل، كون القيام بدور الأهل يتطلب طاقات كبيرة، ومما يساعد الأهل في بذل الجهود الكبيرة الأمل الواعد الذي يعلقه الأهل على الطفل حيث يحملهم ذلك على التضحيات الجمة أثناء قيامهم بدورهم.

دور الطفل في سلوك الأهل:

تستند الدراسات الحديثة المتعلقة بسلوك الأهل إلى تصور هام يبرز دور الطفل في سلوك الأهل حتى ذهب بعضهم إلى القول بأن الطفل يحدث تطوره بنفسه. إلا أننا نملك القليل من النتائج المتعلقة بدور الصغير وتأثيره في سلوك الأهل تجاهه وإن كان معظم هذه البحوث يميل إلى القول بأهمية ردة فعل الطفل تجاه الأهل في صياغة سلوكهم نحوه، وتأثير الفروق الفردية بين الأطفال في سلوك الأهل تأثيرا هاما ويتعلم

الطفل من خلال التجربة التأثير في سلوك الأهل، وهذا ما يعزز لديه الشعور بالقدرة على التأثير في المحيط بشكل عـام. ومما لا شـك فيـه أن التأثـر والتأثير بين الأهل وأطفالهم يكون في اتجاهين اثنين، فالعلاقة بين الطفل والأهل علاقة تتسم بالتبادل. ويكون الطفل نشطا في هذا التبادل.

العلاقات الزوجية وسلوك الأهل:

تؤثـر طبيعة العلاقات الـزوجية القائمة بين الأم والأب في سلـوكهما كأهل. وهنا يبرز دور الأب، الذي لا يقل أهميـة عن دور الأم، إلا أن ممارسة هـذا الدور تنعكس بصورة غير مبـاشرة على الطفل، وذلك من خلال عـلاقة الأب بالأم، مما يستوجب اعتبار النظـام الأسري كلا متكـاملا، تتداخل عنـاصره وتتفاعل باستمـرار، فالتـوتر والتأزم المتكرر في العلاقـات الزوجية يرتبط بمستـوى منخفض من الكفاءة في أوضاع الطفل من قبل الأم (Pederson, 1982). بينما يرتبط التناغم في العلاقات الزوجية، والتفاهـم بين الـزوجين بتدخل الأب في شئون الطفل والعنـاية به فكلما سـاد التفاهم والصداقة، هذه العلاقات، ازداد اهتمام الأب ومشاركته في العناية بالرضيع.

يلجأ غالبا الأهل ذوو المشكـلات الزوجية الحادة إلى استخدام متكـرر للعقوبات الجسديـة، ونادرا ما يعتمدون الحوار المنطقي مع الطفل في استراتيجيتهم التربـوية. وكثيرا ما تؤثر العلاقات الزوجية المتوترة في ارتفاع نسبة جنوح السلوك عند المراهقين. فسلوك الأهل يؤثر بمجمله في تطوّر الطفل، ويتـوجب عند دراسة هذا التأثير الأخذ بعين الاعتبار طبيعة العلاقة الزوجية القائمة بين الأب والأم.

بالإضـافة إلى ذلك يكون للـدعم الاجتماعي بأشكالـه المنظمة أو العفويـة درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للأهل، ويترك أثـره الكبير في علاقتهم بالطفل ويساعدهـم على مواجهة الأحداث المزعجة والمؤلمة.

إن نشـاط المؤسسـات الاجتماعيـة من أجل مسـاعـدة الأسرة، وتقـديم الـدعم والعـون، خصوصـا في الظروف الصعبـة، يمكن أن يوفـر في عمليات الانفـاق على

المدى البعيد، في الميادين الأخرى الاجتماعية منها والصحية.

إن سلوك الأهل هو أحد الأبعاد الوظيفية للإنسان ويتأثر كغيره بالخصائص الفردية وبالتاريخ النمائي للفرد وكذلك بالحالة النفسية الراهنة. فطفولة الأهل تؤثر في سلوكهم اللاحق كأهل، كما يتبين من نتائج دراسات الأطفال المعاملين بقسوة، فعدم كفاءة الأهل تنتقل من جيل إلى جيل (Belsky, 1980)، إلا أن هذه النتائج تستند إلى دراسة بعض الحالات السريرية، فيجب الحذر وعدم محاولة تعميمها على الحالات العادية. كذلك بالنسبة لدراسة أصول العنف والعدوانية إذ تشير إلى وجود ارتباط بين مراحل التطور المبكرة عند الأم وسلوكها اللاحق نحو طفلها.

تؤثر التجربة المبكرة في طاقات الفرد وقدرته على توظيف هذه الطاقات في دوره كأب أو كأم. فالطفل الذي يرفضه أهله ـ بالمقارنة مع الطفل المتمتع بقبول الأهل ورضاهم ـ يكون أكثر عدوانية وعنفا، ويضطرب من الناحية الانفعالية وفي تقديره لذاته، ويحمل وجهة نظر سلبية عن العالم. وسيكون أكثر قابلية لأن يرفض أطفاله عندما يصبح راشدا، بالمقارنة مع الأهل الذين سبق لهم وتمتعوا بقبول الأهل ورضاهم:

إلا أن المسألة التي تبقى بحاجة إلى إيضاح هي الإجابة على السؤال التالي: في أية مرحلة من مراحل التطور الفردي يكون تأثير هذه التجربة أو تلك تأثيرا ذا دلالة في سلوك الأبوة؟

إن النتائج السابقة، بالرغم من محدودية آثارها، وكونها تتعلق بأبحاث إكلينيكية (سريرية) لحالات متطرفة، فهي تفتح أمام البحث طرقا جديدة على درجة كبيرة من الأهمية:

١ ـ ماهي العلاقة بين اضطراب الأطفال وسلوكهم كأهل في المستقبل؟

٢ ـ وماهي العلاقة بين الخصائص الشخصية والقدرات والطاقات الذاتية للفرد

وبين سلوكه كأب أو كأم.

لقد حاولت بعض الدراسات الإجابة على السؤالين السابقين، ومنها ما أشار إلى وجود علاقة بين اضطراب الطفولة وبعض خصائص الحياة الأسرية كعدم التفاهم بين الأبوين، والانفصال بينهما، ورفضهما للطفل.

ويرى بعض الباحثين أن من أهم الخصائص الثابتة في تاريخ الأسرة التي تسيء معاملة الصغير انتقال ظاهرة القسوة وإساءة معاملة الطفل من جيل إلى جيل، ومن أهم العوامل المؤثرة في سلوك الأهل تجربتهم السابقة مع أهلهم. فالتجربة التي تتميز باللطاقة وشعور الطفل بأنه موضع الاهتمام والمساعدة، تبقى حاضرة في الذهن ومؤثرة في السلوك عندما يصبح الطفل بدوره أبا أو أما (Sluckin, et al; 1983). .

أما بالنسبة للكبير (السيكوباتي) الذي يعاني من الاضطرابات النفسية وغير القادر على إقامة علاقات مع الكبار، سوى علاقات سطحية استغلالية وعدائية، يظهر هذا الكبير علاقات مشابهة مع الأطفال، في حال كونه أبا أو أما.

تأثير العوامل الاجتماعية في سلوك الأهل

يتأثر سلوك الأهلية (الأمومة والأبوة) بشروط البيئة والثقافة والمعتقدات السائدة والقيم الأخلاقية. حيث توجه هذه العوامل سلوك الناس في حياتهم اليومية. فسلوك الأهل ـ خصوصا سلوك الأم نحو الطفل ـ يتأثر بالعوامل الخارجة عن نطاق الأسرة وأهمها:

ـ الخصائص المهنية لعمل الأب أو الأم. فالآباء الراضون عن عملهم هم أكثر نجاحا من غيرهم بدورهم كآباء. ويميلون إلى اتباع استراتيجية الحوار والديموقراطية مع الطفل بدلا من استخدام العقاب الجسدي. وكذلك بالنسبة للأم العاملة حيث تختلف عن الأم غير العاملة في طموحاتها وفي آمالها التي يكون الطفل موضعا لتحقيقها. واختلاف الأساليب المتبعة من قبل الأهل يؤدي إلى فروق نمائية عند الأطفال.

ـ تقـوم الأسرة بدورها في ظل علاقـات اجتماعية محددة وقيم ومعتقدات وتقـاليد سائدة. ويمكن فهم سيـاق تأثر الأسرة بمن حولها. فالأشخـاص المقربون يمكنهم مساعدتها وتقـديم الدعم المادي والمعنوي لها عن طريق محبتها واحترامها وتقـديرها. وهذا يلعب دورا إيجابيـا في علاقتها بصغيرهـا وعنايتها بـه. ونخلص مما سبق إلى أن سلوك الأهلية يتحـدد ويتأثر بالقدرات والامكانات الشخصيـة للفرد، وبخصائص الطفل وبـالمصادر المتـوفـرة في المحيط إيجابيـة مسانـدة أم سلبيـة محبطة. فكل هـذه العـوامل تؤثـر مجتمعـة في صيـاغة سلـوك الأهل الـذي يحمل كنظام متكـامل بتأثـر بالعنـاصر السالفـة الذكـر. فإذا أصاب الخلـل أحد هذه العنـاصر تأثـرت العناصر الأخـرى. وتشير أدبيات البحث في هـذا المجال إلى أن أهـم هذه العنـاصر طاقـات الأهل وكفاءتهم. فـالخلل الذي يصيب خصـائص الطفل مثلا يمكن تعـويضه إذا تمتع الأهل بكفاءة منـاسبة (Belsky et al. 1984). فالطفل الذي يـولد قبل الآوان يمكنه التطور تطـورا عاديا في الطبقات الـوسطى حيث تجتمع كفاءة الأهل، وشروط المحيط الايجابية الداعمـة، بينما يختلف الأمر لمثل هذا الطفل في الطبقـات الدنيا، إذ قد تتسبب الولادة قبل الآوان في طرح مشكلات مستعصية.

يتبين مما سبق أن سلـوك الأهل عامة ومـوقف الأم تجاه صغيرها خصـوصا يمكن أن يتأثر بعـوامل عديـدة، وقد تتداخل هـذه العوامل وتتعـارض في تأثيرها حيث أن مصادر التأثير ليست متساوية في دعمها وفي درجـة حاجتها من قبل الأهل. فارتفاع كفاءة الأهل يرتبط إلى حد بعيد بالدعـم العاطفي، وبالمساعدة الفعالة وبإقرار الجماعة لهذه الكفاءة وتشجيعها.

الفصل الثامن

سلوك الأمومة وتطور الطفل

دور الأم في تعلم اللغة

مرحلة ماقبل الكلام:

غـالبا مـا يتوقف الطفل الحديث الـولادة عن البكاء عنـدما يسمع صـوت الأم، وكـذلك تتوقف الأم عن فعل أي شيء عنـدمـا تسمع صوت طفلهـا. فكأن الطفل والأم يملكان القابلية لسماع بعضهما البعض، وإصغاء الواحد منهما إلى الآخر.

منذ الأيام الأولى يحدث التبادل بين الأم والطفل وجها لوجه، ويشترك الاثنان في تفاعل معقـد. فالصغير يحرك وجهه وشفتيـه وجذعه وذراعيـه باتجاه الأم التي تتلقى هذه الإشـارات والحركات بدورهـا، وتتوجه نحوه بـالاصدارات الصوتيـة والحركات الاشارية.

وتبدأ الأم بـالحديث إلى الطفل بحنو واهتمام وتتغير صيغة هـذا الكلام، وتصبح أكثر انتظـاما وموسيقيـة، وتتميز بالتكـرار وبنبرة خاصة وهـذا ما يعرف بـالكلام إلى الطفل الحديث الولادة.

وتصبح الأم أكثـر نشاطـا وتظهـر اللعب وحركـات إيقـاعية محددة، وتبـالغ في حركات رأسها وجسدها، وتحاول مـلامسة الطفل بمحبة وحنان. وعندما تلعب مع الصغير بهذه الطـريقة تحاول أن تستخـدم أصـواتـا بلا معنى، وتغنـي بصوت عـال مقاطع غنائية لا معنى لها (Trevarthen, 1979). ويرى تريفارتن أنه من المحتمل خضوع الكلام الموجه للطفل الصغير إلى قواعد تعبيريـة لا شعورية، يتم استدعاؤها

بطريقة آلية، وهي مبنية بحيث يكـون فهمها محدودا. ويرفض الاعتقاد السائد الذي يعتبر هذه الخصائص تعبيرا عن التبسيط، ويرى فيها صيغة خاصة من التواصل بين الأم والطفل.

يبدو هـذا التكيف الآلي لسلوك الأم وكأنه يهدف إلى التقاط إحسـاسات الصغير وقدراته الاتصالية. ويعتبر حديث الأم المتزامن مع حركات جسدية خاصة صيغة من التكيف مع القدرات المعـرفية والتعلمية والمعلـوماتية للطفل، ودعما قويـا للتطورات المعرفية الأولية عنده (Papousek and Papousek, 1977).

ويوافق الكثير من الباحثين على أن الاتصـال اللاكلامي * (بواسطـة الإشارات الجسديـة: التقليد، التعـابير الوجهيـة، الابتسام، الكـدر، العبوس، الإصـدارات الصوتية) يعتبر نقطـة انطلاق هامة في تطور الاتصال الكـلامي في مراحل لاحقة من العمر.

يشبه البعض هذا التبـادل بتطور اللغة عند الطفل، وربما كـان المرحلة التي تمهد لاكتساب اللغة الكلامية، فالسيـاق الإبداعي الذي يؤدي إلى التفاهم والتفاعل بين الأم والطفل يشكل حجـر الزاويـة في تطـور الطفل المعـرفي واللغوي وإدراكـه المعني (Trevarthen, 1977).

كيف يبدأ الطفل بـإدراك المعنى؟ وكيف يستخدم ذلك في تخاطبه مـع الآخرين؟ لكي نتمكن من الإجابة على هـذين السؤالين لابد من دراسة منهجيـة لتطور اللغة في مختلف مراحل نموّ الطفل، وتطور قدرته على بنـاء نظام لغوي واستخدامه في تفاعله مع الآخرين.

لقد اكتسب النـوع البشري القدرة على تعلّم اللغة عبر التطور، فـالكائن البشري تطور كمخلوق لغوي. ويعتمد هـذا السياق الذي ينتقل من جيل إلى جيل في تطوره على تفاعل الطفل مع الأم.

يتمكن جميع البالغين الطبيعيين من الكلام، ويظهـرون درجة معقدة من التعابير

* الاتصال اللاكلامي Non - Verbal Communication

الوجهية وحركات الأيدي التي تتزامن مع الكلام، فالتعبير البشري يستند إلى قاعدة فطرية مشتركة بين جميع البشر مهما اختلفت عروقهم وثقافاتهم. فالكلام يندمج مع التعابير الانفعالية الخاصة باللغات المختلفة، ويبدو النشاط الحركي المرافق للكلام أكثر وضوحا في بعض اللغات.

ويعتبر الابتسام من الميزات الاجتماعية للنوع البشري المكتسبة أثناء التطور، ويظهر هذا السلوك بفعالية كبيرة في الشهر الثاني من العمر كإشارة للسرور وللاستعداد للتواصل.

فالابتسام وثغثغات الفرح التي يبديها الصغير، تثير اهتمام الأم إذ تكون شديدة الحساسية للجهود التي يبديها الطفل عندما يبتسم ويحرك شفتيه فهي تفسر ذلك كمحاولة منه للكلام (Trevarthen, 1977).

ويحاول الصغير إجابة الأم بأصوات محددة وبطريقة متناسقة مع أسئلتها المتكررة التي تطرحها بإيقاع موسيقي معين وتتخللها برهة زمنية «مخصصة» لاستجابة الصغير. ويتميز الاتصال ما قبل الكلامي عند الطفل بتغير هام في عناصر التفاعل مع المحيط أثناء السنة الأولى من العمر. ويصعب تفسير تطور اللغة عند الطفل بالاستناد إلى سياق الاتصال غير الكلامي. فاللغة بالمعنى الدقيق يمكن أن تكون نظاما منفصلا يبدأ بالتطور في مراحل لاحقة تتناسق وتتزامن مع وسائل الاتصال اللاكلامي.

ولا تزال مسألة العلاقة بين تطور الاتصال اللاكلامي وتطور اللغة مثار جدل في أوساط الباحثين. فمنهم من يرى أن الأم تحضر الطفل في السنة الأولى لتطوير عناصر أساسية ضرورية لتعلم اللغة، وهذا ما يفضي إلى القول بأن الأهل يعلّمون اللغة والطفل يملك القابلية والاستعداد لذلك. فالطفل في عامه الثاني يكون قد حضّر من خلال تفاعله مع الحاضن الأولي لتعلم قواعد اللغة والتعلم بشكل عام ضمن ظروف مثلى.

ويمكن الافتراض أن العناصر الأساسية لتعلم اللغة تنمو وتتطور بصورة منهجية

من خـلال السلوك المتبـادل بين الطفل والأم. إلا أنـه لم يتم التحقق من صحة هـذه الفرضيـة كما لم يتم نفيها. فالتحقق من هـذه الفرضية يجب أن يتم من خـلال دراسة الفروق الفردية للتفاعل بين الطفل والأم.

أظهرت دراسة ريكس (Ricks, 1979) للاتصال الصوتي عند الطفل في المرحلة قبل الكـلاميـة، أن الصغير بين (١٢ و١٨ شهـرا) ينطق ببعض الكلمات «مـامـا» «دادا»، «بـابا» دون أن تتعلق بشيء واقعي فهـو يقلد هـذه الكلمات عند نطقهـا من قبل الكبار. وفي مرحلة لاحقة تظهر مجموعـة أخرى من الكلام كإجابة على أحداث محددة.

لقد أشـارت هذه الدراسـة إلى أن تقليد الكلمات من قبل الطفل العـادي يعتمد على قدرته على الإمسـاك بمعناها. فعندما يتلفّظ الصغير بكلمـة يصغي لها ويكررها أكثـر مما لـو كانت صـادرة عن الأهل أو الآخرين. فـالطفل في خطواتـه الأولى على طـريق اكتساب اللغـة يصغي للمضمون أو للمعنى وبعـدها فقط تـؤثر خصـائص الصوت في استجابته. تتوجه الأم بالكلام إلى الصغير معتبرة إياه قادرا على المحادثة، فهي عندمـا تتحدث إلى طفلهـا تعامله كما تعـامل الآخرين القـادرين على التحدث بنفس اللغـة (Snow et al; 1979). ويلاحـظ هذا السلوك في بعـض المجتمعات والزمر الثقـافية دون غيرها، عندما تعتقـد الأم أن الطفل كائن مستقل يجب الاتصال معه. بينما لا يلاحظ ذلك في المجتمعات التي يسـودها الاعتقاد أن الطفل هو إمتداد للأم ـ كما هو الحال في الثقـافة اليابانية ـ وبـالتالي ليس من الضروري مخاطبته والحال هذه ككائن مستقل (المرجع السابق).

كما أشارت الدراسة السابقة إلى اعتقاد الأم أن الأصوات الصادرة عن الصغير على عدة أنواع، لكل منها معنى خـاص. وهي تشعر أن الطفل في الشهر السادس يفهم بعض خصائص كلام الكبار، خاصة عندما تتكرر الجملة بنبرة معينة. كما تعتقد الأم أنه يتعذر على الطفل فهم عبارة تتضمن أكثر من كلمتين.

تظهر الأم التعبير الكـلامي أثناء حوادث وفرص محددة قـد تتعلق بسلوك الطفل

أو بسلوك الأم. إلا أن الكلام يظهر أيضا دون أن يكون على صلة بذلك، وإنما يكون عبارة عن تبادل ولعب دون سبب واضح. ويترافق هذا اللعب أحيانا بالغناء في إيقاع خاص، وتعرف هذه الظاهرة عند مختلف الشعوب، حيث تغني الأم أغنيات خاصة بالطفل الصغير. وتكون هذه الأغنيات معروفة غالبا من قبل الجماعة الثقافية التي تنتمي لها الأم. إلا أنها تبدع أحيانا أغنياتها الخاصة، وتلحن عبارات عادية تتعلق بمهامها المختلفة أثناء عنايتها بالطفل.

وفي دراسة للمؤلف تبين أن التبادل الكلامي يحتل مكانا بارزا في التفاعل بين الأم والطفل (١٨ ـ ٢٤ شهراً) أثناء تناول هذا الأخير وجبة العشاء. كما أوضحت هذه الدراسة أهمية هذه الوضعية في تعزيز تعلم اللغة وتطورها عند الطفل حيث تقوم الأم بتصحيح أخطاء الطفل وتشجيعه عندما يتكلم بصورة صحيحة (Kontar, 1987).

وتجدر الإشارة إلى أن الأم التي ترضع الطفل عند طلبه تجد من الفرص للتفاعل معه والحديث إليه أكثر من الأم التي ترضع وفق برنامج محدد. وذلك نظرا لوضعية الطفل ودرجة يقظته، ففي حالة طلبه الرضاعة يكون على درجة من اليقظة ومن القابلية لتلقي المؤثرات الخارجية أفضل بكثير مما لو تم إيقاظه من أجل الرضاعة وفق برنامج محدد مسبقا.

ويعتبر اللعب واستخدام الأشياء على درجة كبيرة من الأهمية في توفير الفرص للمؤثرات الكلامية، خصوصا إذا ترافق اللعب بالمزاح والحبور حيث يعطي الطفل الفرصة ليفعل شيئا ما يتناسب وسلوك الأم أو حديثها، وهذا ما يشعر الأم بأنها في حالة اتصال حقيقي مع الطفل.

إن تنظيم كلام الأم (بطريقة تمكن الصغير من التنبؤ بالحوادث التي ترتبط بحديث الأم) يساعد الطفل على تنظيم عالمه وإدراك الترابط بين هذه الحوادث وتمييز النشاطات المختلفة وتوقع حوادث المستقبل. إلا أن الإصدارات الصوتية للأم تكون قليلة الحدوث في بعض الثقافات مما يحملنا على الحذر قبل القول بأن تعلم اللغة الطبيعي عند الطفل يتطلب حديث الأم ويستوجب لعبها معه وتعليقها على

الحوادث والألعاب، ومعاملته كقرين في المحادثة .

لقد تركز اهتمام الباحثين على دراسة تطور التبادل اللغوي الكلامي بين الأم والطفل. حيث كنا نجهل - إلى وقت قريب - اللغة «اللا كلامية» التي تسبق مرحلة الكلام، وسياق تطورها بين الأم والطفل وأثرها في تعلم اللغة الكلامية في المراحل اللاحقة من تطور الطفل. إلا أن هذه المسألة بدأت حديثا تجذب اهتمام الباحثين، حيث تعاقبت البحوث التي تدرس «اللغة الجسدية» أو «اللغة اللا كلامية» أو مايسمى «باللغة قبل الكلامية»، ففي دراسة سلوك الإشارة إلى شيء ما بواسطة أصبع اليد (Pointing) أوضحت دراسة مورفي ومسر (Murphy and Messer, 1977) أنه من المهم لكل من الطرفين أن يُرِي الطرف الآخر ما يمكن أن يثير اهتمامه في المحيط الخارجي، ويترافق هذا السلوك بالمتابعة البصرية لاتجاه إشارة الأصبع، ويصعب على الصغير أن يفصل بصره عن يد الأم عند إشارتها لشيء ما قبل أن يبلغ السنة من العمر. فبدلا من النظر إلى الاتجاه المشار إليه يتثبت بصر الطفل نحو يد الأم. وفي أبحاث أخرى تبين أن الطفل يتمكن من فهم هذا السلوك عند بلوغه الشهر التاسع. وتقوم الأم عادة باستخدام سلوك إشارة الإصبع بعد أن يبلغ طفلها سنة من العمر، بينما يظهره الطفل في عمرة ثمانية عشر شهرا.

لقد أوضحت الدراسة السابقة اعتقاد الأم بأن إشارة الإصبع وحدها لا تكفي، فلابد من مرافقتها بسلوك آخر (بصري أو سمعي) ليتمكن الطفل في عمر تسعة الأشهر من فهمها. فشروع الأم بالتأشير نحو شيء ما يتزامن مع النظر إليه ثم توجيه البصر نحو الطفل لتقدير تأثير السلوك الإرشادي، ويترافق هذا السلوك بالتعبير الكلامي للأم الذي يختلف باختلاف عمر الطفل، فالأم تستخدم لغة أكثر تعقيداً عندما يتعلق الأمر بطفل في الشهر الرابع عشر بينما تميل إلى التبسيط وإلى تأكيد الطلب بصيغة الأمر عندما تتجه نحو طفل في الشهر التاسع. وذلك لزيادة فعالية توجيهاتها. فالأم تستخدم السلوك الإشاري لتوجيه انتباه الصغير نحو شيء ما، ولإقامة التفاعل المتبادل معه.

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال السنة الأولى من العمر يصبح التبادل ذا معنى محدد

بالنسبة لـلأم وبالنسبة للطفل، ويتميز هـذا التبادل بالاعادة والتكـرار، وتتوقف الأم عادة عن تكرار سلوك ما عندما يتوقف الطفل عن النظر إليها.

ويتمكن الصغير في عامه الأول قبل الكلام من الدخول في علاقات اجتماعية مع البالغين، وينمّي تـدريجيا مهارات للتـواصل مع الآخرين. وتأخذ حـركاته وأفعـاله معـاني محددة. إلاأن نفس الحركة قـد تأخـذ معنيين مختلفين باختـلاف الشروط التي تحدث ضمنها.

ما الـذي يتعلمه الطفل كي ينتقل من مرحلـة ما قبل الكلام إلى مـرحلة استعمال اللغة؟ يعتمد تطـوّر اللغة ـ إلى حد كبير ـ على ما اكتسبـه الصغير من مفاهيم ومعان في المرحلة السابقة للكلام، وعلى تجربته في استعمال كلمة أو عبارة أو في مجال دلالات الألفاظ وإيقاعها الصوتي. فذلك يمهد السبيل لانبثاق اللغة التي تكتسب تدريجيا من خلال التجربة اليومية التي يعيشها الطفل (Bruner, 1977).

ويملك الطفل منـذ البدايـة القدرة على النـداء وطلب المسـاعدة، وتشتق هـذه القدرة من العناصر الفطرية للتعبير عن الضيق الذي يدفع الكبار للتدخل. فالكثير من الأمهـات يزعمن بأن لـديهن القدرة على تمييـز عدة أنواع مـن نداءات الصغير في شهـره الثـالث أو الـرابع، وذلـك استنـادا إلى الايقـاع الخاص بكل نـداء (المرجع السابق).

ويتم اكتسـاب اللغـة في إطـار من الحوار واللعب حيث يتهيأ المنـاخ للتقـدم في ذلك. فـالتفـاعل بين الأم والطفـل يتراجع في الحالات الجديـة إلى الطلب والـرد على الطلب أما في حالة اللعب فيتقـدم التفاعل باطراد مما يوفر الفـرصة للتعرض لمؤثرات لغوية هامة في تطور اكتساب اللغة عند الطفل.

تصدر الأم المؤثـرات الصوتيـة بمايتناسب ومـراحل تطور الطفل. والطفـل أيضا يأخـذ دوره في ذلك، ويمكن مـلاحظـة فترات قصيرة من التـداخـل في الإصـدار الصـوتي لـلأم والطفل. إلا أن تنظيم تبادل الأدوار بينهما يعـود إلى مبـادرة الأم، فهي التي تهيىء الفرصة للطفل كي يظهر كفاءته ويعبر عن ذاته وهي التي تتدخل لتملأ

الفراغ أثناء توقفه عن الثغثغة والمناغاة (Schaffer, 1977).

ويمكن أن نخلص إلى القول بالتكامل والاستمرارية بين مرحلة اللغة اللا كلامية ومرحلة اللغة الكلامية؛ واستخدام الطفل والأم للعناصر الإشارية والصوتية في تفاعلهما، وتنسيق العناصر الكلامية وغير الكلامية وتزامنها في العلاقة المتبادلة بين الطفل والأم.

الأم والنمو المعرفي عند الطفل:

إن تأثير الأم في التطور المعرفي للطفل غير معروف بشكل جيد حتى أيامنا هذه. فنحن لا نزال نجهل تأثير الحرمان من الأمومة المناسبة على النمو المعرفي عند الطفل. فلابد من تطوير الأبحاث الممتدة كي نتمكن من فهم أفضل للعلاقة بين سلوك الأمومة وبين التطور المعرفي للطفل، خصوصا في المرحلة قبل المدرسية.

تبدأ الأم منذ الأسابيع الأولى من حياة الطفل بالحديث عن انتظام دوراته المتعلقة بالنوم والجوع والتغذية: متى سينام؟ وكم من الوقت سيستغرق نومه؟ وكم من الحليب سيأخذ في هذه الوجبة؟ ومتى سيأخذها؟ وكيف يمكن تفسير بكائه في هذه الفترة من اليوم؟ تطرح الأم هذه الأسئلة في محاولة لفهم الطفل، فهي بحاجة لترى الانتظام في سلوكه، ولتشعر بالقدرة على تفهمه، ولا تكتفي الأم بأن تكون قادرة على توقع حالات الطفل المختلفة التي يمر بها خلال اليوم، وإنما تريد أن تكون مشاركة في تنظيم هذه الحالات. . وأن تسهم في تكييف حالاته المختلفة بما يتناسب وبرنامجها دون أن يؤدي ذلك إلى اضطراب الطفل (Kaye, 1977).

وتشعر الأم بالقدرة على الفعل عندما تؤثر في تعديل مسار حالات الطفل، وتشعر بالألم والإحباط عندما تخفق في ذلك. وتبدأ الأم أثناء الرضاعة ـ مثلا بتفسير توقف الطفل عن المص، من برهة إلى أخرى، كإشارة لضعف قدرته على الرضاعة، وترى في ذلك فرصة لإصدار المؤثرات. فالأم والطفل يملكان برامج متنوعة إذ يستجيب الطفل الحديث الولادة بجملة من المنعكسات في حالات الجوع أو الألم أو

البرد. ويصبح بالتدريج قادرا على توقع سلسلة الحوادث التي تؤدي إلى إظهار هذه المنعكسات، فهو يتأثر بالتجربة الانتقالية من حالة الجوع إلى حالة الشبع ومن حالة البرد إلى حالة الدفء.

تؤثر وظائف التكيف المختلفة عند الطفل في تطور سلوكه. ويعتبر الحصول على الغذاء من أهم هذه الوظائف تأثيرا في الوسط الاجتماعي، وهذا يحمل نتائج تطوريّة. فانتظام سلوك الطفل يمكن أن يفرض تنظيما ما في محيطه. فلم يكن عدم النضج - الذي يتميز به الطفل الحديث الولادة - صدفة بل ربما كان من أهم مصادر قوته، إذ يضمن درجة من الانتظام والتوقع فيما يتعلق بسلوكه وبحالاته المختلفة، حيث تستخدم الأم قدرتها على التنبؤ بالبنية الزمنية لسلوك طفلها، وذلك لبناء القاعدة الأساسية للتفاعل المتبادل، القائم على الفعل ورد الفعل عبر التمايز المتبادل للاستجابات المختلفة.

ويقوم الترابط القوي بين أفراد النوع البشري على الاتصال والتعاون، حيث تنتقل كمية هائلة من المعارف عبر التفاعل والتخاطب. وهذا يحتم أن يمتلك الطفل الحديث الولادة القدرة على تعليم أهله كيف يمكن أن يتفاعلوا معه. وعندما يأخذ كلٌ دوره في عملية التفاعل يكون في ذلك تمهيد للحوار اللغوي المستقبلي، فالطفل والأم يتعلمان أن يأخذ كل دوره، وأن يقرأ إشارات الطرف الآخر فيما يتعلق ببداية دوره ونهايته. فهما يتعلمان قراءة نية الآخر وتفسير عواطفه وإشاراته المختلفة.

إن تكرار الأم لمؤثر ما من شأنه أن يشد انتباه الصغير وينشط تعابيره الوجهية (Fogel, 1977). أما تكرار الطفل لحركة ما فيدفع الأم للتحقق من تأثيرها ومن قدرتها على توقع ماذا سيفعله الطفل. ويعتقد هذا المؤلف أن هدف الطرفين ليس الاستجابة أو إثارة سلوك ما بقدر ماهو المحافظة على مستوى معين من اليقظة، أو لإرضاء حاجة ما. ويثير تكرار الأم لحركة ما اهتمام الصغير، مما يدفعه للنظر إليها، ويمكن للأم - مع كل عرض جديد لنفس المؤثر مع بعض التغيرات - أن ترفع من احتمال الحصول على استجابة من قبل الطفل (المصدر السابق). وتجدر الإشارة إلى

أهمية أن يمتلك الطفل حرية التوجه ببصره نحو الأم أو امتناعه عن ذلك. فالطفل الذي لا تسمح له أمه بتوجيه بصره نحوها، أم بعيدا عنها، يميل إلى قضاء وقت أقل بالنظر إليها بالمقارنة مع الطفل الذي يتمتع بحرية التوجه ببصره حيثما شاء (Stern, 1974). لقد أشارت البحوث السابقة إلى العلاقة بين درجة انتباه الطفل وبين مستوى التفاعل (طفل ـ أم) فتنوع التفاعل واستمراره يرتبط إلى حد بعيد بدرجة انتباه الطفل ويقظته. وتتميز البنية السلوكية للأم وصغيرها بتبادل المؤثرات بانتظام، والذي يتمثل بمختلف الحركات والأفعال التعبيرية والتواصلية كالثغثغات المختلفة، والعرض الوجهي التعبيري، والتبادل البصري. وتكون هذه المؤثرات على درجة عالية من التنظيم. فالأم تستخدم مثلا المؤثر اللمسي حسب إيقاع محدد يتشابه بإيقاع الجمل الصوتية التي تطلقها باتجاه الصغير (Stern et al., 1977).

فالأم من خلال لعبها مع الطفل تقوم بتنظيم سلوكها وتعديل استراتيجيتها بما يتناسب وحالة طفلها من حيث التكرار والشدة، والصيغة، والتغير، والزمن. وذلك لتضمن إيقاظ اهتمام الصغير وتركيز انتباهه.

فالطفل منذ الولادة يعيش في إطار اجتماعي، ويصعب عليه البقاء والاستمرار خارج هذا الاطار. فيثبت سلوكه ويتبدل من خلال فعل الآخر أو من خلال حضوره. فالتفاعل الاجتماعي على درجة بالغة من الأهمية بالنسبة للطفل، فهو ضرورة بيولوجية تحتمها متطلبات النمو الجسدي والتطور العقلي ـ المعرفي.

وتوفر الأم للطفل أول فرصة للتعرض للوجود البشري، وللاتصال بالآخرين، فمن خلال سلوك الأمومة يتمكن الصغير بواسطة حواسه ـ كالسمع والبصر ـ من تكوين صورة عامة للوجه الإنساني، وللانفعالات المختلفة التي تظهر في التعبير الوجهي، ويتعلم الطفل مع الأم كيف يمكن أن يصبح الابتسام أو الثغثغة حدثا اجتماعيا. ويبدأ الطفل مع الأم بتشكيل روابط التعلق، ويكتسب من خلال تجربته معها مدى تأثير سلوكه الاجتماعي، وكيف ينظم بنفسه حالات اليقظة وحالات العاطفة. فسلوك الأمومة يهيىء للطفل ـ من خلال الأقنية الحسية المختلفة ـ تجربته الأولية في سياق الاتصال البشري.

الأمومة ومشكلات الطفولة

الأمومة والاستقلال الذاتي عند الطفل :

إن مهمـة الأسرة هـي أن تحمل الطفل شيئـا فشيئـا إلى الاستقـلال، وتهدف إلى تشجيع الاستقـلاليـة عنـده بما يتنـاسب والمراحل المختلفـة من مـراحل النمـو حتى يتمكن من الاعتماد على النفس ومن خوض غمار الحيـاة دون اتكال على الغير. إلا أنه بعد مرحلة من الاتحاد الكامل بين الأم والطفل يصعب على هذا الأخير تحقيق الذات وتنمية الاستقـلالية الفرديـة . ولا تسهِّل نزعة الأم إلى التملك تطـور قدرة الصغير في الاعتماد على نفسه . وفي أحيان كثيرة وبعد بلوغ الثالثة من العمر، يصعب على الطفل التحرر من أمومة أمـه، بالرغم من مشاركته لأترابه في ألعـاب متعددة، مما يؤدي إلى تجمد التطور بسبب الأم التي تبالغ في حمايتها للصغير وتضخم من أمومتها؛ فالأمومة القويـة والإفراط في احتضان الطفل وحمايته أكثـر مما يجب ظاهرة واسعـة الانتشار في المجتمعات العربية، خاصة إذا كان الطفل ذكراً. فمحاصرة الطفل داخل دائرة محبة الأم المطلقة لا يسهل انطلاقته لإقامة عـلاقات حميمة أخرى، ويعرقل تحقيق الذات وتنمية الاستقلالية والثقة بالنفس.

الآثار السلبية للحماية المبالغ فيها

قدم الباحثـون عدة فرضيات لتفسير الأسبـاب التي تجعل طفلا أكثر اعتمادا على الآخـرين دون غيره من الأطفـال، وكـذلك لشرح الأسبـاب التي تجعل هـذا الطفل يشعـر بالغم والكـرب عنـد الانفعال عن الأم. من هـذه الفـرضيات مـا يؤكـد على الجانب الداخلي، ويزعم أن بعض الأطفال ترتفع عندهم أكثر من غيرهم الحاجيات الجنسيـة «الليبيـدو»: وبـالتالي فهم بحـاجـة أكثـر من غيرهم إلى المكـافأة والعطـاء والاهتمام (Freud, In Bowlby; 1973, p. 315). وفي إطار نظرية التحليل النفسي أيضا هناك من يقـول إن دافع الموت يكون أكثر تطورا عنـد بعض الأطفـال بالمقـارنة مـــع غيرهم ويبرز هذا الـدافع ويعلـن عـن ذاتـه بـالقلق والكـرب والهـبوط والخـوف من الموت.

لقد تعرضت هنـذه الفرضيات للكثير من الانتقاد، مما حمل بعض أنصــار نظرية التحليل النفسي على إبـراز أهميـة دور المحيـط في تفسير ظـاهـرة الاعتماد على الغير، والتأثر المفرط عند الانفصال عن الأم. وحاول هـؤلاء تقديم فرضيات جديدة لتفسير المظاهر السابقة من هذه الفرضيات:

١ ـ إن الـولادة الصعبة والصـدمة القـوية التي يتعـرض لها المولود في الأسـابيع الأولى نتيجة التغير المفـاجىء بين الوسط السابق (بطن الأم) والـوسط الجديد يمكن أن يصعّد من ردود فعـل القلق، ويؤدي إلى تطويـر استجابـات مبالغ فيهـا لمواجهة «الأخطار» الخارجية في مراحل الحياة اللاحقة.

٢ ـ يكـون بعض الأطفال مـوضوعا للـدلال المبالغ فيه (الإفـراط في إرضاء حـاجات الليبيدو) من قبل الأهل مما يـدفعهم للمطالبة بالمزيد، وعنـد تعذر ذلك يشعرون بالمعاناة القاسية.

٣ ـ يكون بعض الأطفال مفرطي الحسـاسية لاحتمال الانفصال أو الحرمان من المحبة من خلال تجربتهم الفعلية بالانفصال أو نتيجة التهديد بالتخلي عنهم.

ولا تزال الفرضية الثانية تحظى بموافقة العديد من أنصار نظرية التحليل النفسي. فالمبالغـة في تدليل الطفل تجعله كثير المطالب، وشـديد المعاناة عنـد عدم تحقق هذه المطالب.

لقد سبـق لفرويد أن شجـع الأمهات على تقبيل الصغير ومـداعبته بحنـو ولكنه حـذر من المبالغـة في ذلك. فالحنـان المبالـغ فيه قـد يوقظ أحـاسيس الطفل بشكل مبكر، ويجعل من الصعب إرضاء حاجته للمحبـة فيما بعد. وبالرغـم من شعبية هذه الفرضية، إلا أنـه لا يوجد ما يثبت أن التعلق القلق هو نتيجة المحبـة المبالغ فيها من قبل الأهل.

لقد أشـار ماكورد ورفـاقه (McCord et al 1962) في دراستهم لمجمـوعـة من الصبيان المعتمـدين على الآخريـن بشكل مفرط إلى تميّز عـلاقاتهم مع الأم بـالقلق،

ويعرب غالبية هؤلاء عن الشعور بالدونية والخوف الذي لا مبرر له ، فهم يعانون من رفض ولا مبالاة من قبل الأهل، ومن مقارنة مجحفة بينهم وبين أخوتهم، وهم دوما في الجانب السلبي بينما يكون الأخ أو الأخت موضوع المقارنة في الجانب الايجابي . ولقد لاحظ هؤلاء الباحثون أن العلاقات العائلية لهؤلاء الأطفال تتسم بالمشاجرة والخلاف .

وفي دراسة أخرى (Sear et al., 1957) تبين أن الأمهات اللواتي يظهرن النزق، ونفاد الصبر، وقلة الانتباه نحو الطفل، يميل أطفالهن إلى الاعتماد على الغير، وإلى قلة إظهار السلوك المعبر من الاستقلالية . وكذلك بينت هذه الدراسة وجود علاقة ترابطية بين اعتماد الأطفال على الآخرين وبين استخدام الأهل لطريقة الحرمان من المحبة كإجراء تأديبي، ولجوئهم إلى تهديد الطفل بالتخلي عنه .

تشير هذه النتائج المتعددة إلى أن ميل الطفل إلى الاعتماد المفرط على الآخرين، وضعف قدرته على الاستقلالية لا ينتج عن محبة زائدة أو مبالغ فيها من قبل الأهل، وإنما يكون ذلك نتيجة لعلاقة مضطربة مع الأهل خصوصا مع الأم. فالعامل الأهم الذي يحدد استقلالية الطفل وتطور قدرته في الاعتماد على الذات يكمن في طبيعة العلاقة القائمة بين الطفل والأم. فالطفل الذي يعاني من الحرمان، ومن قلة الحنان والمحبة، يكون شديد الاعتماد على الآخرين بخاصة على الأم. فهو يطلب الكثير كما لو أنه يريد بذلك البرهنة على مدى استجابة الأم، ومدى تفهمها له، وبذلك يريد أن يجذب انتباهها واهتمامها، وغالبا ما يضيق صدرها به ويزداد نزقها، وهكذا يستقر الاثنان في حلقة مفرغة وفي علاقة قلقة مضطربة .

وتجدر الإشارة إلى أن الأم ـ المربية هي التي تأخذ بيد الطفل رويدا رويدا بتدريبه على القيام ببعض المهام كأن يأكل وحيدا دون مساعدة أو أن يتمكن من وضع ملابسه، أو القيام بأية مهمة أخرى تتناسب وعمره، وتشجعه وتقدره في كل مرة ينجح في عمل ما، فهي بذلك تزيد من مهاراته وخبراته وتساعده على الاستقلال والشعور بالثقة بالنفس، أما الأم التي تنفذ كل شيء، ولا تترك للطفل لا الوقت ولا

الفرصة للقيام بمهمة ما، فإنها تشعره بالاحباط، وعدم القدرة على الفعل، وفقدان الثقة بالنفس، وبالتالي الاعتماد على الآخرين.

الأمومة وتطور الخوف عند الطفل:

يستجيب غالبا الطفل الناشيء في عائلة مستقرة بالحزن والقلق عند انفصاله عن الأم. بينما يستجيب بالغضب والهيجان الطفل الذي يكبر في وسط عائلي مضطرب، وفي معظم الأحيان يكون هذا الأخير قد عاش مرارة الانفصال عن الأم مرات متكررة. ويرى بعض الباحثين أن مظاهر الخوف المفرط (Phobia) التي يعاني منها الطفل تكون نتيجة لاضطراب التعلق بينه وبين الأم (Bowlby, 1973).

ويظهر هذا الخوف في حالات متعددة: الخوف في الظلمة، أو الخوف من الحيوانات، أو الخوف من وقوع مكروه للأم. . . . إلا أن مظاهر الخوف التي تناولها البحث أكثر من سواها هي الخوف من الذهاب إلى المدرسة، ورفض الطفل الالتحاق بصفة. ويتصف الأطفال الرافضون الذهاب إلى المدرسة بالتهذيب والقلق، وعدم القدرة على التعبير عن الذات.

وتترافق هذه المظاهر ببعض الاضطرابات العضوية الوظيفية كفقدان الشهية للطعام، والشعور بالرغبة في التقيؤ، أو بآلام البطن أو الغثيان.

وتتسم غالبا العلاقات السائدة بين الأبوين لدى الأطفال الرافضين للمدرسة بالاضطراب والمشاجرة. وهذا ما حمل بعض الباحثين على الربط بين علاقة الطفل بالأم وبين اضطراب الاتصال لديه مع العالم الخارجي، حيث يتمثل هذا الاضطراب في عدم قدرة الطفل على التكيف مع الظروف الجديدة، فالتغير الناشيء عن الالتحاق بالصف مثلا يدفع إلى الخوف والقلق من مواجهة حالة جديدة. وفي معظم الأحيان يكون الخوف المفرط عند الطفل نتيجة تجربته المعاشة، ونتيجة تراكم الأحداث التي قد تدفعه في مرحلة ما إلى حالات من الخوف والقلق الشديدين.

ويتبلور الشعور بالخوف الشديد عند الطفل نتيجة للتفاعل بين الحوادث الواقعية

التي يعيشها الطفل كحالـة مرض الأم مثلا، وسوء أوضاعها الصحيـة ـ بين التهديد بوقوع حوادث معينة، كالتهديد بالطلاق والانفصال بين الأبوين مثلا.

لقـد أشارت دراسـة الوسط العـائلي لهؤلاء الأطفـال إلى أنه غـالبا مـا يعاني أحـد الأبوين من مشكـلات العصاب، وذلك يظهر الترابط بين طبيعة العـلاقات الأسرية وتطور مشكلة الخوف المفرط عند الطفل.

وهذا مايـدحض مزاعم بعض أنصار نظريـة التحليل النفسي القائلة بأن الخوف الشديد لـدى الطفل هو نتيجة الافراط والتسامح والتـدليل من قبل الوسط العائلي، فالطفل يرفض أن يكبر ويـرغب في البقاء صغيرا متعلقا بأمه؛ وقـد أظهرت الأبحاث الحديثة التي تعرضت للوسط العائلي لهؤلاء الأطفال وللعلاقات الاسرية السائدة خطأ هـذه الأحكـام عنـدمـا أشـارت إلى تأثير التعلق القلق في تطـور الخوف عنـد الطفل (المرجع السابق).

الأمومة وسلوك الاستبداد والقسوة تجاه الطفل:

يمكن ملاحظة غياب العلاقة العاطفية أو ركاكتها بين الطفل والأم عند الأطفال المعاملين بقسوة وصلف. لقد كانت الفـرضية السائدة لتفسير قسوة الأم نحو الطفل هي الولادة المعقـدة التي تستدعي فصل الطفل عن الأم، إلا أن الأبحـاث الحديثة لم تؤكد هـذه الفرضية. فالانفصال في الأيـام الأولى ليس السبب الأساسي في اضطراب العلاقة بينهما، والعلاقة بين الأمرين ليست علاقـة سببية بسيطة، فبالرغم من أهمية الأيـام الأولى التي تلي الـولادة في تطـور عـلاقـة الأم بـالطفل، إلا أن ذلك لا يكفي لتحديـد طبيعة هذه العـلاقة في مراحل لاحقة، فقـد يكون الانفصال متـداخلا مع عـوامل أخـرى كـالقلق، وعـدم نضج الأهل، والأزمـات الحادة في حيـاة الأسرة، فـالتعلق ليس وليد اللحظـات التي تلي الولادة، فهـو يتطور تـدريجيا بين الطـرفين، وتبدأ الروابط بينهما بـالاستقرار خلال الأشهر الأولى التي تلي الولادة. وهذا مـا يدعو إلى النظر للتعلق بين الطفل والأم بمجمله وبتطوره في مختلف مراحل حياة الطفل.

وبالرغم من انفصال الأم عن الطفل في حال الولادة المبكرة (قبل الأوان) لأسباب

طبية، تتمكن الأم في شروط مناسبة بعد اجتماعها بـالطفل أن تقوم بدورها على الوجه الأكمل، وأن تجعل روابط التعلق بينهما على درجة من القـوة والتماسك كما هو الحال بالنسبة للأم التي تلد في الوقت المناسب.

ويميل الكثير من المشتغلين في الشؤون الاجتماعيـة إلى القول بأن معـاملة الطفل بقسوة غالبا ما تكون نتيجة حالة مـرضية عند الأهل خاصة عند الأم، وكذلك نتيجة لشروط الـوسط العائلي الـذي يعيش ضمنه الطفل. وقـد يلعب الطفل دورا كبيرا في تطور علاقته المأساوية. فبالرغم من التأثير الكبير الذي تمارسه الأم في صياغة سلوك طفلها وفي تطـور التعلق بينها وبينه، فهـو بدوره يؤثـر في صياغة سلـوكها. ويمكن ملاحظة الصعوبـة أحيانا بالنسبة للأم ليس فقط في تـربية الطفل بل أيضا في محبته. فالطفل «المشكل» أو الطفل «الصعب» يساهم في إحباط سلوك الأمومة، ويدفع الأم إلى عدم تقبله وعدم محبتـه ويكون سلوكه مصدرا للتوتـر والاضطراب مما يضع الأم في حالة من الغمـوض لعدم قدرتها على الاستجابة المنـاسبة لمتطلباته ويشعـرها بالفشل والاخفاق في القيام بدورها.

إن العقوبة والقسـوة في التعامل مع الطفل تعرقل نمّـوه السوي وتؤدي إلى عكس ما ينتظر منها. كما يجب عدم اللجوء إلى التهديد لأن عدم تنفيذ ذلك يضعف موقف الأهل. فـاستخدام العقـاب على درجة كبيرة من الصعـوبة وهـذا ما يفسر اختـلاف الباحثين في هذا المجال؛ فمنهم من يرى أن الحد من تعبير الطفل الحر يضر بصحته النفسية، بينما يرى آخرون أنه يتوجب على كل فـرد أن يتعلم ضبط سلوكه ومشاعره. إلا أن القسوة في معاملة الطفل مدانة علميا وأخلاقيا.

إن مسألة انضباط الطفل وتعليمه أن يسلك وفق قواعد تحدد ماهو مقبول وماهو غير مقبـول مسألة هـامـة بالنسبـة لـلأهل، خـاصة بـالنسبـة للأم، والطفل يظهـر الاستجابات المناسبة نحو الأشخاص الذين يحبهم. وتؤثر طبيعة علاقة الأم بالطفل في مدى تقيده بالقواعد والقوانين التي تحددها له، فالاهتمام بالطفل ومحبته يعزز الثقة المتبادلـة بين الأطفال والأهل. وموافقـة الأهل ورضاهم يعـزز ظهور سلوك مـا عند

الطفل. بينما يمنع ظهوره رفض الأهل واستنكارهم لهذا السلوك. إن الضبط والدقة في ردود أفعال الأهل واختيار الوقت المناسب لذلك يلعب دورا هاماً في ضبط الطفل وتعليمه كيفية التصرف بطريقة مقبولة اجتماعيا.

الأمومة والطفل المعوق:

تعتبر الأسرة من أهم المؤسسات التي تنقل الثقافة السائدة إلى الصغير، وتعده للحياة الاجتماعية، فالسياق الذي يتم عبره إعداد الطفل ليصبح عضوا في الجماعة يتأثر بالصعوبات التي تعاني منها الأسرة وخصوصا الأم.

إن ولادة طفل يعاني من الإعاقة الجسدية أو العقلية قد يعدل تعديلا جذريا حياة الأسرة. ولا يكفي تشجيع الأهل على المساهمة الفعالة في تربية الطفل المعوق؛ فالأسرة تحتاج إلى الدعم الكبير لمواجهة هذه المشكلة، وذلك بتحضيرها وإعدادها للتدخل المناسب لمساعدة طفلها المعوق وتربيته داخل إطار الأسرة.

ويسهم التفاعل بين الطفل والأم والعلاقات الثنائية بين الصغير وأفراد أسرته إسهاما فعالا في عمل النظام الشامل الذي يسمح للصغير بالانتقال من الطفولة إلى الرشد. فوجود عضو جديد، والتغيرات التي تحصل عبر الوقت، تؤثر في العلاقات السائدة وفي التفاعل القائم بين مختلف أفراد الأسرة؛ فالطفل المعوق يؤثر في حياة الأسرة ويتفاوت هذا التأثير بحسب درجة الإعاقة الجسدية أو العقلية التي يعاني منها، وبقدرة الأسرة على تقبل هذه الإعاقة وطريقة تحضيرها لذلك.

إن التقدم الهائل في ميدان الفحص السريري يسمح الآن باكتشاف معظم حالات التشوه والإعاقة أثناء فترة الحمل. وكذلك أصبح في الإمكان معرفة أسباب غالبية هذه الحالات وتجنبها، وإن لم يتسع المجال هنا لمناقشة هذه المشكلة، فلابد من تحذير المرأة الحامل من تناول العقاقير دون استشارة طبية، وخطورة تناول المواد الكحولية أو المخدرة. وتجدر الإشارة إلى أهمية المراقبة الطبية أثناء الحمل حيث يسمح ذلك بمتابعة تطور الجنين، وبالاكتشاف المبكر لأية أعراض مرضية، مما يعطي الفرصة للعاملين في الميادين الصحية والاجتماعية للتدخل بشكل فعال قبل فوات

الأوان. وكذلك تتمكن الأسرة من إدراك المشكلة بمختلف جوانبها، ومواجهتها من مواقع أفضل وبشكل مبكر.

تتفاوت ردة فعل الأسرة بشكل عـام والأم بشكل خاص أمـام ولادة طفل معاق، ويتأثر ذلك بعوامل عديدة تحدد مدى الضغط الذي تعاني منه الأسرة، فإما أن تبدي قـدرتها على مواجهـة هـذا الحدث واستيعابـه، أو أن يـؤدي ذلك إلى شلّ فاعليتهـا واضطراب وظيفتها وبنيتها، ويتأثر شعور الأسرة بـالضغط والمعاناة، كما تتأثر قدرتها على مواجهـة مشكلة ولادة طفل معاق بالخصـائص الفردية لأعضـاء الأسرة وكذلك بالخصائص التنظيمية والبنيوية وبطبيعة العلاقات القائمة بين أفرادها.

الخصائص الفردية لأعضاء الأسرة

غالبا ما تؤثر الخصائص الفردية لأعضاء الأسرة في تحديد مقدار الضغوط والمعاناة وشعور الأسرة بهذه الضغـوط. ويتأثر ذلك بدرجـة الإعاقة التي يعـاني منها الطفل، وبنوع المشكلـة وبطريقـة إحساس الأهل بهذه المشكلـة، وتعتبر درجة اعتماد الطفل على الأهل، ودرجة إعاقتـه الجسدية وخصائصها مـن أهم العوامل التي تشعر الأسرة بالضغط (Stress) والمعاناة (Beckman, 1984).

كما تؤثر الخصائص الفردية للأم ـ كمستوى الذكاء، ودرجة التحصيل الدراسي، والامكانـات اللغويـة ـ في مقـدار الضغوط التي تعـاني منها الأسرة ــ وكذلـك الأمر بالنسبـة لتاريخ التجـربة المعاشـة من قبل الأهل، وقدراتهم النفسيـة. فشعور الأهل بالضغـوط والمعاناة يـرتبط بالعوامل السـابقة. إلا أن هذا الترابط ليس آليـا أو مباشرا حيث لم يتوضح ذلك في جميع البحوث التي تطـرقت إلى هذه المشكلة، مما يحمل على القول بأن الخصائص الفردية لأعضاء الأسرة تـأخذ أهميتها ضمن أبعاد أخرى للنظام الاجتماعي (المرجع السابق).

التنظيم الأسري:

تتأثر درجة الضغـوط التي تعاني منها الأسرة بطريقة تنظيمها وببنيتهـا. فمقارنة

زمرة من الأمهات اللـواتي يعشن وحيدات مع زمرة ثانيـة تعيش فيها الأم والأب معا، تبين هذه المقـارنة أن الأم أقـدر على مواجهة مشكلـة الطفل المعاق عنـدما تعيش مع الأب. إلا أن وجود الأب بحد ذاته لا يكفي للتخفيف من معاناة الأسرة، بل لابد له من المشاركة الجدية وتحمل المسؤولية في مختلـف شؤون الأسرة، وتقديم المساعدة للأم ليمكنه التخفيف من وطأة الضغوط الناجمة عن مشكلة الطفل المعاق.

كما يمكن أن يـؤثر عـدد الأطفال في طبيعة الإحسـاس بمشكلة الطفـل المعاق. حيث ترتفـع نسبة الهبوط العصبي عنـد الأمهات بعـد الولادة الأولى بينما تـرتفع نسبة النزق والتوتر عند الأمهات في الـولادات اللاحقة في المرحلة التي تسبق الولادة (المرجع السابق).

ويجب أن تؤخذ نتـائج هذه الدراسات مع كثير من الحذر نظـرا للتفاوت البنيوي بين الأسرة الغـربيـة ـ حيث أجـريت هـذه البحـوث ـ والأسرة العـربيـة، كما يختلف تعريفـ الضغط من دراسة إلى أخرى.

العلاقة بين أفراد الأسرة:

تؤثـر العلاقـة القائمة بين أفـراد الأسرة في طبيعة الضغـوط التي تعاني منهـا هذه الأخيرة. وتتمثل هـذه العلاقـة في التفاعل القـائم بين أعضاء الأسرة من جهـة، وفي الدور الذي يقوم به كل فرد من أفرادها من جهة أخرى.

لقـد خلصت معظم الـدراسات المتعلقـة بـالتفـاعل بين الأهل ـ خاصـة الأم ـ والطفل إلى القول بأن عمليـة التفاعل بين الأم الحاضنة والطفل هي عبـارة عن سياق متبادل بين طـرفين، يساهم كلاهما مسـاهمة فعالـة في هذا السياق، فغيـاب التبادل يمكن أن يضعيب في الصميم العلاقة بين الطفل والحاضن، فعلى سبيل المثال يحدث التعلق بين الطفل الذي يولد مكفوفاً والأم متأخرا غـالبا بالمقارنة مع الأطفال العاديين (Fraiberg, 1977). لقـد أوضـح هـذا المؤلف أن الطفل المكفـوف لا يستعمل نفس الوسائل الاتصـالية اللا كلاميـة التي يستعملها الطفل العادي كالابتسـام والتواصل البصري، فاللمس يسهل حدوث التعلق في حالة فقدان البصر. ويمكن لاضطراب

الاتصال على هـذا النحو أن يشكل مصـدرا للضغط والمعانـاة بالنسبـة لأهل الطفل المعاق. فالأم تشعـر بالغضب والخيبة والاحباط عندما تعجـز عن تهدئة بكاء طفلها الذي يعاني من إصابة دماغية مثلا.

ويؤثر مصدر الضغط على النظام الأسري بمجمله. ولا يقتصر ذلك على التأثير المباشر بل يمكن أن يكون تأثيرا غير مباشر، فإذا اعتقد بعض الأهل أنه يمكن تجنيب الأطفـال نتـائج الخلافـات الـزوجيـة الحادة، وذلك بجعلهم في مأمن عن هـذه الخلافات. إلا أن مـايحدث هو أن النظام الأسري بمجمله يعـاني من الاضطراب في حالـة الخلافات الـزوجية الحادة، ويتأثـر الأطفال بـذلك. إلا أن تأثرهـم قد يحدث بصورة غير مباشرة.

وتجدر الإشارة إلى أن المعـاناة والضغـوط ترتبط بـالدور الـذي يلعبه الفـرد داخل النظـام الأسري. فمعانـاة الأخت الكبيرة أو الأخ الأكبر تكون أكثـر وطأة من معانـاة الصغار وذلك لتحمل الأبناء الكبار المسؤولية في نظام الأسرة.

وخلاصة القول: تـؤثر الخصائص البنيوية للأسرة تأثيرا هـاما في مقدار الضغوط التي تتعرض لها الأسرة وفي طبيعة هذه الضغـوط، إلا أن العلاقة بين هذه الخصائص والضغوط المختلفة قـد لا تكون علاقة مباشرة. ويمكن بـالتالي للشروط الخارجية أن تؤثر في مقدار المعاناة ونوعها. فمن الضروري الأخذ بعين الاعتبار شروط المحيط التي تسمح للأسرة بالعمل والتطور.

عوامل المحيط:

ربما كان العامل الاقتصادي من أهم العوامل التي تؤثر في المعاناة والضغوط التي تعيشها الأسرة. ويتمثل الوضع الاجتماعي الاقتصادي بـالوظيفة التي يشغها الأهل، والـدخل السنـوي، ومستـوى التحصيل الـدراسي. فعـدم توفـر الحاجـات الماديـة الأساسية وغياب التأمين الطبي يؤدي إلى مضاعفة معاناة الأسرة عند تعرضها لمشكلة ما، خاصة عندما يتعلق الأمر بـولادة طفل معاق. فالوضع الاجتماعي ـ الاقتصادي

للأسرة يؤثر في طريقة قيامها بوظيفتها. إذ توضح معظم البحوث الحديثة أهمية الترابط بين الحالة الاقتصادية ـ الاجتماعية وقدرة الأسرة وكفاءتها.

إن ارتفاع حدة الضغوط والمعاناة عند الأسرة تؤدي إلى معاملة الطفل بتعسف وقسوة، أو إلى المبالغة في تجاهله وعدم الاهتمام بشؤونه. فالفئات الاجتماعية الفقيرة تكون أكثر عرضة من غيرها للضغوط والمعاناة، وأقل مقاومة للمشكلات الإضافية التي تطرحها ولادة طفل معاق.

يمكن للأسرة أن تتلقى دعما من جهات مختلفة خاصة عند معاناتها من مشكلة ما. فتدخل الأصدقاء، ومساعدة الجيران والأقارب يلعب دورا هاما في تعزيز قدرة الأسرة على استيعاب المشكلة ومواجهتها بطريقة مناسبة، ويخفف ذلك من مقدار المعاناة التي تعيشها الأسرة. إلا أن الدعم الأهم يجب أن تقوم به الجهات الاجتماعية المختصة ويجب أن يأخذ شكلا منهجيا منظما يمكّن الأسرة من مواجهة مشكلة ولادة طفل معاق.

التعلق بين الأم والطفل المعاق:

إذا كانت الأم غير مدركة لمشكلة الطفل يمكن أن تتطور علاقتها به على نحو اعتيادي ويمكن أن تستمر هكذا. وفي حال معرفة الأم بحقيقة المشكلة عند الولادة ستشعر بأنها أصيبت في الصميم. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هل سينمو حبها للصغير بشكل اعتيادي أم لا. إن ردة الفعل الأولى لدى الأم عادة تكون الصدمة والشعور بالقلق. وتتمكن بعض الأمهات من تجاوز الأزمة التي تلي ذلك، ويظهرن سلوك الأمومة نحو طفلهن المعوق بشكل مقبول.

إن نجاح التواصل بين الطفل والأم يعتمد على سلوك الطرفين؛ فالاعاقة التي يعاني منها الطفل قد تجعله في وضع لا يمكّنه من الإحساس بالمؤثرات التي تصدرها الأم أو إدراكها. مما ينعكس سلبا على التفاعل القائم بينهما. فالطفل المعوق ينتج بنفسه محيطا فقيرا بالمؤثرات وأقل مناسبة لتطوره بالمقارنة مع الطفل العادي.

تتدخل الأم أكثر في تفاعلهامع الطفل المعاق (The Down's Syndrome Child)

بالمقارنة مع الطفل العادي (Jones, 1977) ويرجع هذا التدخل الملحوظ إلى اعتقاد الأم بأن طفلها يتميز بالسلبية وعليها أن تكون أكثر تدخلا وتوجيها. فالعلاقة بين الاثنين تتسم بهيمنة الأم أكثر منها باتكالية الطفل، وبالرغم من استخدام هؤلاء الأطفال للأصوات والثغثغات المتشابهة مع الأطفال العاديين. إلا أن ذلك يحدث غالبا في إطار غير مناسب للحوار الصوتي. كما أن إصداراتهم الصوتية تكون أطول وأكثر تكرارا في مدة زمنية محددة بالمقارنة مع الأطفال العاديين.

إنه لمن الصعب تقدير الآثار المترتبة على ولادة طفل معاق بالنسبة لتطور التعلق بين الأم والطفل. إلا أنه من المعتقد أن التعلق بطفل معاق يمكن أن يحدث بشكل مماثل للطفل الطبيعي.

لقد اعتبر الاخفاق في إقامة روابط التعلق بين الطفل والأم مسؤولا عن حوادث رفض الطفل من قبل الأم ومعاملته بصلف وقسوة، وعن حالة الطفل الذي يعاني من الانطوائية (autism) والذي يبدي عدم الاهتمام نحو الأم وسلبية تامة في علاقته بها. وبعكس الطفل العادي فهو لا يعامل أمه كشخص له خصوصيته، وفي وقت متأخر يكون غير قادر على إقامة الروابط الاجتماعية، ويعاني من قصور واضح في التطور اللغوي. لقد اعتقد الكثير من الباحثين أن الإخفاق في إقامة الروابط بين الطفل والأم سبب في انطوائية الطفل، فالأم لم تدرك خطورة رفضها للطفل منذ البداية. إلا أن التوجه الحديث للباحثين يخالف ذلك، فسلوك الأهل يتأثر بسلوك الطفل وماهو إلا نتيجة لذلك، حيث يكون الطفل في حالة الانطوائية غير قادر على إقامة الروابط مع الكبار بشكل عام ولا حتى مع الأم. فالمشكلة ليست إذن في قصور سلوك الأمومة وإنما في قصور إمكانات الطفل وضعف قدراته على التواصل والتفاعل مع المحيط.

لقد آن الآوان للتوقف عن توجيه الاتهام إلى الأمهات كيفما اتفق، حيث اعتاد البعض اعتبار اضطراب الروابط بين الأم والطفل سببا في انطوائية الطفل، أو في قصور نموه الجسدي أو في الاضطرابات الغددية العصبية وهرمونات النمو. ولابد من تعميق البحث في مجمل الشروط التي تؤثر في حالة الطفل، وعدم اللجوء إلى

تفسيرات مفرطة في السهولة، فاضطراب التعلق بين الطفل والأم قد يكون نتيجة لحالة معينة يعاني منها الطفل.

الفطام وأثره في علاقة الطفل والأم :

يطرح الفطام مشكلة أو جملة مشكلات على الأم. ولكن المشكلة الأكثر حدة وأثرا هي تلك التي يشكلها الفطام بالنسبة للطفل، فبعد آلاف الرضعات المترافقة بالذكريات الجميلة وبالأمن والطمأنينة، ليس من السهل على الطفل أن يقبل بفقد الشدي الذي يعتبر مصدر الغذاء ويرتبط بالكثير من الذكريات الحلوة والأحلام الجميلة الهادئة. فالتغذية من ثدي الأم تشكل تجربة غنية بالنسبة للصغير، ولكي تنتهي هذه التجربة بنجاح، يترتب على الأم أن تدرك أهمية الفطام وأن لا تدع ذلك لمحض الصدفة.

إن إدخال عناصر جديدة إلى غذاء الطفل وتعويده تدريجيا على تناول العناصر الجامدة، وتدعيم الإرضاع بوجبات أخرى يمهد الطريق لانجاح الفطام، فاختيار الوقت المناسب، ورعاية الطفل وإحاطته بجو من المحبة تشكل عناصر هامة في إنجاح الفطام. وقد يستحسن الاستمرار في إعطاء الثدي عند المساء فقط كمرحلة انتقالية لبعض الوقت حيث يتوجب أن يتوقف ذلك بشكل كامل.

وقد يرفض الطفل الغذاء، أو يفقد الشهية بسبب الفطام، ويظهر نزقاً وعصبية. ففي جميع الحالات يجب عدم إرغامه على الطعام، فلابد من التحلي بالصبر والانتظار بعض الوقت لعودة الأشياء إلى طبيعتها.

ويعتبر الفطام مرحلة دقيقة بالنسبة للأم وللطفل في آن معا. لذا يجب أن يحدث ذلك بالتدريج وأن يتم التحضير بعناية لهذا المنعطف الخطر، ويعتبر ظهور الأسنان الإشارة المحسوسة بأن الطفل أصبح قادرا على تناول الأطعمة الجامدة حيث يتوجب على الأم التنويع التدريجي في تغذية الطفل.

ويجب الحذر والانتباه من توقيت الفطام أثناء ظهور الأسنان، لأن الطفل يتعرض

لخطرين في نفس الوقت، فقد يؤدي التغير المفـاجىء في نوعية الطعام إلى اضطرابات هضميـة وإلى إسهـال شديـد، ويتـزامن ظهـور الأسنان مع آلام حـادة قـد تضعف العضوية بشكل عـام. لذا ننصح الأمهات بتأجيل الفطام بعض الـوقت بعد ظهور الأسنان.

ويحتاج موضوع التغذية إلى بحث منفرد، ومعالجة مفصلة، حول الكمية والنوعية المناسبة لمختلف مـراحل نمو الطفل*. فالاطباء العرب المختصـون بصحة الأطفال مدعـوون لدراسة هـذا الموضوع مع الأخذ بعين الاعتبار العنـاصر الغذائية المتـوفرة في البيئة المحلية. مما يعزز الأمن الغذائي العـربي، ويحد من استهلاك الأغذية المحفوظة والمستوردة. وهذا يستدعي حملات من التوعية حـول القيـمة الغذائية للمواد المتوفرة، وحول الطرق الصحية في تحضير وإعداد غذاء الطفل بما يضمن له نموا سليما.

إن المثل الذي يمكن تقديمـه في هذا المجال مادة الجزر؛ فبالـرغم من توفر الجزر في معظم الأقطار العربيـة بأسعار رخيصة نسبيا، ينـدر أن يدخل في تحضير الأطباق المطبوخـة الخاصة بـالصغار أو الكبـار. بينما يعتبر الجزر مادة غـذائية هـامة خـاصة للأطفال في العديد من الدول الأوروبية.

---

* راجع دليل المرأة العربية ـ سنية النقاش عثمان ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٧٤.

الفصل التاسع

الانفصـــــال

الانفصال بين الأم والطفل واضطراب التعلق :

إن معانـاة الصغير الذي يفقد أمـه تترك أثرا عميقاً في النفس وتثير مشـاعر الحزن والشفقة، ومن الصعب أن يبقى المرء محايداً إزاء طفل تـرغمه الظروف على الانفصال عن أمه.

وبالرغم من مأساوية هذا الحدث وخطورته وتأثيره البالغ في نمو الطفل وتطوره، فانه لم يشكل موضوعا للبحث والدراسة إلا في العقود الأخيرة.

إن الدراسات المتعلقة بسلوك الطفل بعد فصلـه عن الأم لأسباب مختلفة ـ بالرغم من تنوع شروط هـذه الدراسات ـ تخلص إلى شيء مشترك يثير الدهشـة هو أن الطفل المفصـول عن أمه يظهـر ردود فعل محددة، وذلك بعـد بلـوغه الشهـر السـادس من العمر.

وتستند المعطيـات المختلفة لتلك الدراسـات على ملاحظة سلـوك الطفل خلال السنة الثـانية أو السنة الثالثـة من العمر في ظروف متنـوعة منها مثلا مـايتعلق بوضع الطفل في المستشفى بعيـدا عن محيطـه الأصلي وعن أمـه وعن كل المقربين لـه. فهـو يتلقى العـلاج في محيط جـديـد مـن قـبل أشخـاص لا يعـرفهم. ويصنف بـولبي (Bowlby, 1969, p.49) سلوك الطفل، بعد انفصاله عن أمه في مراحل ثلاث :

١ ـ مرحلة الاحتجاج.

٢ ـ مرحلة فقدان الأمل.

٣ ـ مرحلة تلاشي التعلق.

لقد استند هذا المؤلف على نتائج الملاحظات الميدانية لأطفال تتراوح أعمارهم ما بين عشرة أشهر وثلاثين شهرا، والذين يفصلون للمرة الأولى عن أمهاتهم اللواتي تربطهن بهم علاقة أمن وطمأنينة (Securely attached).

لكن هذه المراحل يمكن أن تتداخل ويمكن للطفل أن يبقى مدة طويلة في حالة انتقالية من مرحلة إلى أخرى.

تبدأ المرحلة الأولى بعد الانفصال مباشرة أو تتأخر عنه بعض الوقت ويمكن أن تدوم من عدة ساعات إلى أسبوع أو أكثر. يظهر خلالها الطفل ضيقه الشديد لفقدانه أمه ويبحث بكل الوسائل لاستعادتها مستخدما كل طاقاته. إنه يبكي ويصرخ ويلقي بنفسه في كل الاتجاهات. ويرفض كل من يقترب منه ويروي «بولبي» بأن الطفل يتشبث أحيانا بإحدى الممرضات فاقدا الأمل.

أما المرحلة التي تلي مرحلة الاحتجاج فهي مرحلة فقدان الأمل، فالطفل يظهر القلق لغياب الأم ويفقد الأمل تدريجيا في ايجادها. ويتميز سلوكه في هذه المرحلة بانخفاض الحركات النشطة، وهو يبكي برتابة أو بشكل متقطع، وتتغلب عليه الانطوائية وقلة النشاط وتندر متطلباته ممن يحيط به، ويبدو في حالة حداد عميقة. وتتميز هذه المرحلة بالهدوء مما يدفع إلى ظن خاطىء بأن كربة الطفل تميل إلى الانخفاض.

في المرحلة الثالثة يمكن ملاحظة اهتمام الطفل بما حوله، فهو لا يرفض الممرضات ويتقبل الطعام والعلاج، ويميل شيئا فشيئا إلى التبادل الاجتماعي وإلى الابتسام وتقبل الألعاب. ومما يثير الدهشة أن عودة الأم لزيارته تظهر غياب سلوك التعلق لديه. فالطفل لا يكترث بمشاهدة الأم ويبقى بعيدا وكأنه لا يعرفها من قبل ويبدو فاقد الاهتمام بها وكأن عودتها لا تعنيه.

إن استمرار الطفل في المستشفى أو في مؤسسة رعاية الأطفال يعرضه للتعلق العابر بعدد من الممرضات اللواتي يغادرن جميعا مما يؤدي إلى تكرار تجربته الأصلية بفقد أمه. مما يحمله على الاقتناع بأن الأمومة وكذلك الصلات مع الآخرين ليس لها

معنى بـالنسبة لـه . فبعـد عدة تجارب انفعـاليـة متتابعـة فقـد فيها من أولاهم الثقـة والمحبة ينتهي بالتوقف الكامل عن التعلق (المصدر السابق) . إن الطفل الذي يصل إلى هذه المرحلة يصبح، أكثر فأكثـر، متمركزا حول ذاته، لا يظهر أفعـاله أو عاطفته لدى تغير المشرفين عليه، ويظهر عدم الاكتراث عند زيارة أهله مما يشعرهم بالحزن. فبـالـرغم من أن الطفل يبـدو فرحـا متكيفـا مع وسطـه إلا أن ذلك ليس إلا مظهـرا سطحيا فالطفل لا يبدي عاطفته لأي كان.

إن درجة ردة فعل الطفل بعد ابتعاد الأم تتأثر بعدة عوامل: فعزله وحيدا في محيط غريب لا يعرفه يزيد من حدة ردود فعله بينما يمكن التقليل من ذلك بصورة فعالة في حالـة حضور أخ أو أخت له، أو تحديـد شخص بعينه يحل محل أمـه ويهتم بالطفل بصفة دائمة ومنتظمـة خاصة إذا كان هذا الشخص معـروفا من قبل الطفل بحضور الأم. ففي ذلك تجنيب للكثير من ردود الفعل العنيفة وتخفيف لمعاناة الطفل في حالة الانفصال.

ولعل مدة الانفصـال من أهم العوامل التي ترتبط بـالاضطراب الذي يعـاني منه الطفل.

وبالـرغم من تأثير غرابة المحيـط في سلوك الطفل إلا أن العامل الأسـاسي الذي يؤدي إلى اضطراب هذا السلوك هو غياب الأم. لقد تمت ملاحظة أطفال في محيطهم المعتاد بعـد غياب الأم، وبينت هذه الملاحظـة أن غياب الأم هـو العامل الحاسم في ظهور الاضطـرابات السلـوكية التي سبـق الحديث عنها. فـالمتغير الأكثر أهميـة عند الطفل هـو حضور أو غيـاب الأم فوجـوده في وسط غريب بحضـورها لا يـؤدي إلى اضطـراب ملحوظ في سلـوكه. ويتنـاسب الاضطـراب في سلوك الطفل مع طبيعـة العلاقة التي تـربطه بالأم. فالطفل الذي تـربطه بالأم علاقة حميمـة يعلن احتجاجه عند غيـابها بينما لا يكترث بذلك كثيرا الطفل الـذي تكون علاقتـه بالأم غير مـرضية (المصدر السابق، ص ٥٧).

الانفصال عند الأنواع :

إن ملاحظة الأنواع المختلفة في شروط الحياة العـادية تبين مدى الاضطراب الذي يطرأ على سلوك الصغير عند انفصاله عن الأم.

فـالانفصــال عن الأم يثير الخوف والقلق، ويبعث على الاضطـراب والشعـور بالضيق عنـد مختلف الأنواع كـالثدييات والطيـور. إن صغار البط والأوز والـدجاج والحجل وغيرهـا من الطيور تبـدي ردود فعل خاصة عنـد عزلها عن الأم وتغنـي غناء خاصا «غناء المناداة» لتنادي الأم عند غيابها، وكذلك الأمر بالنسبة للخراف والقطط الصغيرة. إذ تقـوم الخراف بثغاء خـاص كما تصـدر صغـار القطط مواء محددا عنـد فصلها عن الأم.

إن التغير في سلوك الصغير بعد عزله عن الأم، يمكن مـلاحظته في الحياة اليومية عنـد مختلف الأنـواع وخصـوصـا الأنـواع الأكثر تقـدمـا في سلم التطـور كـالقـردة والشمبانزي حيث يلاحظ ردود فعل قويـة عند الصغير أثناء فصله عن الأم، وتشبثه بها عند لقائه لها من جديد.

لقد لاحظ بولوينغ (Bolwing, 1963) أن صغير القرد الذي أشرف على تربيته منذ الولادة لا يبدي أي خوف عند مشاهدة المجرب طالما هو بالقرب من الأم، ولكن عندمـا يترك وحيدا يبدأ بإظهـار الهلع والارتباك وإصـدار الصراخ محاولا الهرب ليلوذ بأي شخص قريب منه، ولكن هذا الصغير يبدأ بسرعة بإظهار تعلقه بالمجرب الذي يـوليه العنـايـة، وحتى عمر ثـلاثـة أشهر ونصف يبـدو قلقـه واضطرابـه إذا لم يكن بمـرافقته. وفي عمـر أربعـة أشهـر يبدأ بـاستطـلاع المحيط مبتعدا شيئـا فشيئـا عن صاحبه، ممـا حمل هذا الأخير على وضعه في قفص برفقة قرود عـدة لبضع ساعات في اليوم، إلا أن «بولوينغ» لاحظ ارتباك هذا الصغير وصراخه وشعوره بالشدة والضيق، محاولا التشبث به دافعا ببـاب القفص بقوة. وعندما أخرجـه من القفص هرع متشبثا به. وفي الأيـام التاليـة بدأ يـرفض البقاء بعيـدا عن «بولوينغ» ويستيقـظ أثناء الليل ليتشبث بصاحبه مظهرا علامات الرعب والخوف عندما يحاول إبعاده عنه.

لقد أوردت كاتي هايز (Cathy Hayez, 1951 In Bowlby, 1969) ملاحظات متشابهة تتعلق بالشمبانزي التي «تبنتها» وهي في عمر أربعة أشهر حيث ظلت هذه الصغيرة تتشبث بأمها الجديدة معظم الوقت وتحتج بشدة عند ابتعادها عنها .

إن الملاحظات السابقة لا تبين التشابه بين سلوك التعلق عند صغار (الرئيسات)* وبين الطفل البشري فحسب بل أيضا تبين التشابه بصورة واضحة لردود الفعل المتعلقة بالانفصال . إن تعذر فصل الطفل عن أمه أكثر من عدة دقائق دفع الكثيرين إلى التجريب على صغار القردة ، فكان الانفصال غالبا حدثا شديد الوطأة على الأم وعلى الصغير وعلى المجرب وعلى القردة المجاورين .

فالأم تبدي مقاومة عنيفة تجاه المجرب الذي يحاول فصل الصغير عنها وتعمل جاهدة على حمايته والصغير بدوره يتشبث بالأم معلنا صراخه العنيف . وعند الانفصال تقوم الأم بالسير ذهابا وإيابا داخل الغرفة دون توقف ، وتهاجم الباب بعنف ، وتقطع الفواصل الحديدية محاولة الخروج بينما يتابع الصغير صراخه طيلة فترة الانفصال ، وعندما يعاد إلى الأم بعد خمس دقائق ، يركض الواحد تجاه الآخر ويتشبثان بعضهما ببعض بحنو لا حدود له وتبدو علامات السعادة والسرور على الأم ، ويتسم كل شيء بالهدوء والسلام .

وعند فصل صغير القردة فترة أطول تمتد إلى عدة أيام أو عدة أسابيع ، لاحظ المجربون اضطرابا حادا في سلوك الصغير خاصة في اليوم الأول من الانفصال . وبعدها يمر بمرحلة من الهدوء قد تمتد إلى أسبوع وأكثر إذ يبدي القليل من النشاط واللعب ويبقى في حالة انطواء .

ثم يظهر الحيوان الاهتمام بما حوله تدريجيا ، فيكتشف محيطه ويبدأ بالتواصل الاجتماعي مع أترابه ، ثم يبدأ بعدها اللعب ، إلا أنه يلاحظ استمرار الهبوط العام والذي تتخلله مراحل يكون فيها الصغير أكثر نشاطا وتستمر هذه الأعراض أكثر من شهر.

---

* الرئيسات (Primates) : رتبة من الثديات .

آثار الانفصال على المدى البعيد :

لا تقتصر آثار الانفصال على التغيرات السلوكية المباشرة التي تلي فصل الطفل عن أمه بل تستمر إلى وقت طويل . إذ تشير الدراسة التجريبية على صغار القردة إلى أن أعراض الانفصال (كالانطوائية ، والهبوط ، والانقباض) تبدو على الصغار الذين فصلوا عن الأم لمدة ستة أيام في الأشهر الأولى من العمر وتستمر هذه المظاهر السلوكية بعد أشهر طويلة من الاجتماع بالأم ؛ فالفروق السلوكية تبدو واضحة عند المقارنة بين زمرة عادية لم تفصل عن الأم وزمرة تجريبية سبق وأن فصلت عن الأم مرة واحدة ولمدة ستة أيام . وتكون هذه الفروق أكثر حدة عند وجود كلا الزمرتين في وسط غريب وجديد كل الجدة . وتزداد أهمية الفروق المذكورة عند مقارنة الزمرة العادية بزمرة تجريبية أخرى تعرضت للانفصال عن الأم مرتين في الأشهر الأولى من العمر، علما بأن هذه المقارنة تمت بعد الانفصال عن الأم بوقت طويل أي في الشهر الثاني عشر، وفي الشهر الثلاثين من العمر.

الفروق الفردية :

يمكن ملاحظة الكثير من الفروق الفردية في ردود فعل الصغار بعد الانفصال عن الأم . والجنس يلعب دورا هاما حيث يبدو أن الذكر أكثر تأثرا من الأنثى .

ويتأثر السلوك بعد الانفصال بطبيعة العلاقة التي تربط الصغير بالأم . وكذلك تلعب ظروف المحيط دورا هاما في زيادة حدة الانفصال . فالصغير الذي ينقل إلى قفص جديد يبدي درجة أعلى من القلق والخوف عند انفصاله فيما لو قورن بآخر بقي في نفس القفص بعد نقل الأم .

لقد أوضح «بولبي» بأن المكتشفات المتعلقة بالرئيسات لا تدع مجالا للشك في التشابه في ردود الفعل الملاحظة عند هذه الأنواع وتلك التي يمكن ملاحظتها عند الطفل البشري في حالة الانفصال عن الأم .

الانفصال واضطراب التعلق :

إن الانقطاع المبكر في الروابط الحميمة مع شخص ما لا يؤدي إلى اضطراب

التطور العاطفي فحسب بل قد يترافق باضطرابات جسدية صحية.

إن التطـور التكنولـوجي الحديث قـد مكن البـاحثين من قيـاس التغيرات الفيزيـولوجية والكيميا ـ عصبية في حالـة الانفصال عن شخص محب (Reite and Field, 1985).

لقد أشار بعض الباحثين إلى الترابط بين الانفصال والهبوط العصبي إذ يلاحظ أن الطفل بعد انفصالـه عن أمه أو في حالة الأمـومة غير الكافية وغير المناسبـة قد يظهر عليه أعراض الهبوط العصبي.

لقد تركز انتبـاه الباحثين على هذه المشكلة أثناء الحرب العالمية الثـانية وما خلفتها من مآس بالنسبة للعـديد من الأطفال الذين اضطروا للانفصـال عن أمهاتهم. لقد أصبح واضحـا دور التغيرات الكيميا ـ عصبيـة الدمـاغيـة في تحديـد حالـة الضيق والشدة بعد الانفصال.

إن تحليل العـوامل العاطفيـة الاجتماعية وسيـاق التعلق يحتاج إلى أن نأخـذ بعين الاعتبار جـانبين أساسيين: الجانب السلوكي والجانب البيولـوجي. وذلك يحتاج إلى المزيـد من التطور في ميـدان السيكوبيـولـوجيا كي نتمكن من تفهم أفضل لأنظمـة الدماغ التي تؤثر في سلوك التعلق والانفصال.

الأم والمربيـــة في حـياة الطفـــل

الانفصال بين الأم والطفل أثناء النهار:

كانت مشكلة الانفصال بين الأم وطفلها موضوعـا لدراسات عديدة تتعلق بنمو الطفل وبتطـور العلاقـة بين الأم والطفل، وتتعلق معظم هذه الـدراسات بحـالات الانفصال الطويلـة نسبيا والتي تتراوح من أسبوع إلى عدة أشهر. أمـا بالنسبة لحالات الانفصال الأكثر حدوثا وهي الانفصال اليومي بين المرأة العاملة خارج المنزل وطفلها فلم تستأثر بـاهتمام الباحثين. ويصعب تحديـد الفترة المناسبـة والتي يمكن للأم أن

تلتحق بعملها بعـد الولادة. فإجازة الأمومـة تحددها عوامل اقتصاديـة دون النظر إلى نتـائج الانفصـال اليـومي بين الطفل والأم وتأثير ذلك على العـلاقـة بين الاثنين. فبرازلتـون مثلا يقترح على الأم عـدم العـودة إلى العمل قبل نهايـة الشهر الـرابع بعـد الولادة، وينصح بأن الفترة الأمثل للعودة هي أن تكون أجـازة الأمومة من (٦) أشهر إلى (١٢) شهرا. وهنا يجب الأخذ بعين الاعتبار نتـائج الدراسات العديدة التي بينت أن مظاهر سلوك التعلق عند الطفل تظهـر في عمر (٨ ـ ٩) أشهر وأن الانفصال قبل ذلك قد يؤدي إلى اضطراب روابط التعلق بين الطفل والأم.

وفي رأينـا أن الانفصال قبل عمـر السنة لابـد وأن يعود بـالآثار السلبيـة على الأم والطفل، فالانتظار حتى مرحلة المشي عند الطفل يمكن أن يخفف من آثار الانفصال السلبيـة ويقـوي روابـط التعلق بين الأم والطفل خـاصـة وأن المشي يعـزز مشـاعـر الاستقلالية عند الطفل وقدرته على التحرك واكتشاف المحيط، فالانفصال التدريجي والمحـدود والمرافـق بـاليقظـة والانتبـاه يمكن أن يعـود بأقل الأضرار على الأم وعلى الطفل، عند اضطرار الأم إلى مغادرة الوسط العائلي يوميا بسبب العمل ووضع الطفل في كنف المربية أو دار الحضانة.

إن الجهل في التـاريخ الطبيعي لسلوك التعلق بـالإضافـة إلى دوافع أيديـولوجيـة وحماسيـة دفع بعض العلماء إلى القـول بضرورة أن يصبـح الطفل نـاضجـا ومستقـلا بصورة مبكرة، مما أدى إلى تطبيق مضر بالطفل وبتطوره وذلك بالحاقه بدور الحضانة في وقت مبكر.

الطفـل في كنف المربيـة:

في بحوث أخـرى تبين أن الطفل الذي ينفصـل عن الأم عند عملهـا نهارا خارج المنزل خـلال السنة الثـانية من العمر، يتأثـر بطبيعة العنايـة التي يتلقاهـا في غياب الأم. إن الأطفـال الـذين يكونـون في رعـايـة أشخـاص متغيرين يبدون أكثـر قلقـا واضطرابا وأقل شعورا بالأمن من الأطفال الـذين يكونون في كنف امرأة ثانية، وذلك في السنـوات اللاحقـة. إن ذلك يظهر أهميـة الثبـات والاستقرار في حيـاة الطفل في

السنوات الأولى وحاجتـه لإقامة علاقات الثقة التي تتصف بـالثبات والاستمرار مع من يقوم على شؤونه، فالأطفال الذين يعانون من نظام مضطرب وغير متوقع يشعرون بفقدان الأمل وسرعـان ما يفقدون التعلق ولا يظهرون اهتمامهم بـالآخرين ولا ثقتهم بهم. وغالبا ما يتميز سلوكهم بالعدوانية وعدم الطاعة والعناد المفرط.

إن ملاحظة دوتش (Deutsch, in Bowlby, 1969) تبين أن الطفل الذي سبق أن وضع في كنف مربية بسبب عمل الأم خلال النهار أظهـر قلقا واضطرابا عند تغير هـذه المربية ومجيء مـربية أخـرى كي تهتم بشـؤونه عنـدما بلغ السنتين من العمـر، فبالـرغم من بقائه في البيت ومن استمـرار الانتظام في عودة الأم في المسـاء، ففي يوم مغـادرة المربية الأولى بكى كثيرا بشكل غير معتـاد ولم ينم، وبقي بجـانب الأم. وفي اليوم التـالي رفض الغذاء الـذي قدمتـه المربية الجديـدة، وفقد السيطـرة على وظائف الطرح (التبول والتبرز).

تأثير دار الحضانة في تطور الطفل:

إن البحوث المتعلقة بتطور الطفل المترعـرع في دار الحضانة نهارا تعتبر قليلة نسبيا وتندر هـذه البحوث عنـدما يتعلق الأمر بـالطفل الموكل إلى مربيـة خاصـة تقوم على شؤونه داخل الوسط العائلي أو خارجـه. ثمة جملة من الاسئلة لا تزال مطروحة وعلى الباحثين الإجابة عليها: مـاهو تأثير المربية في تطور الطفل؟، وهل تحل محل الأم؟، وهل تتنازل الأم عن دورهـا عند وجود المربية؟ إن الإجـابة الدقيقة على هـذه الاسئلة تتطلب جملـة من البحـوث الميدانيـة. . إلا أن دراسـات عـديدة تـؤكـد على ضرورة الاستقرار والثبـات في القائمين على شؤون الطفل وعدم تغيير المربيـة بشكل متتابع.
أما تأثير دُور الحضـانة (Day Care) على تطور الطفل فقد كان مـوضوعا لبعض الدراسات إلا أننا لا نعثر على دراسة وافية تقارن عينة مناسبة من الأطفال تذهب إلى دار الحضانة بـانتظام مع عينة أخرى ربيت في الوسط العائلي، إلا أن دراسـة جولدن وبيرنس (Golden and Birns 1976) تشير إلى أن دار الحضانة تؤثر تأثيرا إيجابيا في تطور ونمو الأطفـال القادمين من وسط فقير، وتحد من مخاطر التدهـور عند الأطفال المقتربين من حالات خطرة بعـد عمر الـ(١٨) شهرا. إن دار الحضانـة ذات النوعية

الجيـدة يمكن أن تخفف من الآثـار المتعلقة بـالمحيط الـذي يشكل خطرا على تطـور قدرات الطفل المختلفـة . لقد تأكـدت هذه النتـائج في دراسة رامي وسميث : (Ra-mey and Smith, 1976).

لقد قام هذان الباحثان بدراسة ثلاث عينات :

الأولى : زمـرة تجريبيـة تنتمـي إلى محيط فقير مضطـرب (High-Risk Environ-ment) تم وضعها في دار حضانة خـاصة لاغناء قدراتها المعرفية وتنتمي الـزمرة الثانية إلى نفس المحيط ولكنها بقيت في الـوسط العائلي دون الالتحاق بدار الحضـانة ، بينما تنتمي الـزمرة الثالثـة إلى محيط أكثر يسرا وغنى وبقيت في كنـف الأسرة . إن القدرات العقليـة فيما بين (٦) أشهر و(١٨) شهـرا تـدهورت عنـد أطفال الـزمـرة الثانيـة من (١٠٤) إلى (٨٦) بينما بقيت ثابتة عند أطفال الزمـرة التجريبية بين عمر ستة الأشهر والثمانية عشرة شهرا ، بالإضافة إلى ذلك تبين أن النموّ الحركي كان أفضل عند أطفال دار الحضانـة بالمقـارنة مع أطفـال الزمـرة الثانية . فـالمقارنـة بين أطفال دار الحضـانة وأطفال الزمرة الثالثة المنتمية إلى وسط غني لم تظهر فروق دلالية .

إن دار الحضانة تخفف من حـدة التدهور في قدرات أطفال الطبقـات المحرومة . وفي دراسة لاحقة تأكـد استمرار هذا الاتجاه عند الأطفال في عمر الثـالثة . إن الفروق يمكن أن تظهر في سلـوك الأطفال أيضـا حيث أن أطفال دار الحضانـة أكثر تعـاونا وأقل تخوفـا من أقرانهم . يستخلص من هـذه الدراسـات أن دار الحضانـة يمكن أن تخفف من آثار الـوسط العائلي الفقير، وتعوض بعض الحرمان الـذي يعانيه الصغير، وتهيىء له فرصا أفضل للتفتح والنموّ.

وتجدر الإشـارة إلى أهمية الأخـذ بعين الاعتبـار خصائص دار الحضـانـة ، وتوفـر المكان المعـد خصيصا للأطفال الـذي يمكّنهم من الراحة واللعب وتطويـر قدراتهم الحركية ويـوفر لهم المؤثـرات والالعاب التربويـة وتقوم عليه مـربيات مـؤهلات لهذا الغـرض . فتفتّح ونمو قـدرات الطفل المختلفـة يـرتبط إلى حد كبير بخصـائص دار الحضانة وما توفره من إمكانات ضرورية لتطور الطفل تطورا مناسبا .

إن وضع الطفل في دار الحضانة أثناء النهار يجب ألاّ يؤدي إلى إضعاف دور الأم وتلاشي اهتمامها بالطفل حيث تعتقد الأم أحيانا بأن هناك من يقوم بدورها تجاه الطفل وبأن شؤونه لم تعد تعنيها بشكل جوهري. يجب تجنيب هذا الخطأ فدور الحضانة يجب أن يكون مكملا لدور الأسرة، وفي حالة اضطرار الأم للعمل خارج البيت. فمن المستحسن أن يوضع الطفل لساعات محدودة في دار الحضانة لا طيلة النهار. وفي هذه الحالة يستفيد الطفل من تجربة جديدة غنية، مع الاحتفاظ بتماسك العلاقة الأسرية. وهذا ما يسمح للأم بأن تعيش أمومتها، وتحقق ذاتها، وتوفق بين الأمومة والحياة المهنية بكل ما ينطوي عليه ذلك من الشعور بالرضى والسعادة.

إن ردود الفعل الملاحظة عند الأطفال بين سنتين وثلاث سنوات تميل إلى الانخفاض بعد الأسبوع الأول من اصطحابهم إلى الحضانة وانفصالهم عن أمهاتهم، باستثناء عدد قليل منهم حيث يستمر في إظهار اضطرابات سلوكية قوية قد تستمر عدة أسابيع.

وفي بحث لنا يتعلق بدراسة التغيرات الفيزيولوجية التي يمكن أن ترافق الاضطرابات السلوكية بعد انفصال الطفل عن وسطه العائلي ووضعه في دار الحضانة تبين أن الطفل بين (٢ ـ ٣) سنوات قد يتأثر من الناحية الغذائية نتيجة هذا التغير. يبدو أن بعض وظائف الاستقلاب تؤثر في قلة الشهية عند الطفل حيث أن كمية الطعام المتناولة من قبله لا تميل إلى الاستقرار إلا في الأسبوع الثاني من وجوده في دار الحضانة. (Kontar, 1981).

إن مقارنة أطفال الطبقة الميسورة تبين أن العينة التي سبق أن التحقت بدار الحضانة لا تختلف في تطورها عن تلك التي بقيت في الوسط العائلي (Belhar, In Belsky and Steinberg, 1978) بينما تبين في بحث لاحق أن مظاهر الخوف والضيق أقل لدى أطفال الحضانة منها عند أطفال الوسط العائلي عند انفصالهم عن الأم. إلا أن أبحاثا أخرى عارضت ذلك مما (دفع بلسكي)وشتاينبرغ إلى القول بأن

الدراسات المقارنة بين الأطفال الملتحقين بدار الحضانة وبين أطفال الوسط العائلي أدت إلى نتائج متناقضة عند مقارنة تعلق الطفل بالأم. أما مقارنة النمو الاجتماعي فقد أظهرت هذه الأبحاث ميل أطفال الحضانة إلى الاستقلالية عن الأم لدى لقائهم بأطفال آخرين وذلك بالمقارنة مع أطفال الوسط العائلي. إلا أنه لا يوجد فروق بين هاتين العيّنتين عند مقارنة طبيعة علاقاتهم بالأتراب ولا بد من الإشارة إلى ندرة الدراسات التي تتناول تأثير الحضانة على الأسرة وعلاقتها بالطفل بالرغم من التوسع السريع في إقامة هذه الدُور. إن تطوير البحث والدراسة في هذا المجال يعتبر ضرورة أساسية خاصة في المجتمع العربي، لتفهم آثار الحضانة على تطور الطفل وعلاقاته بالأسرة في المراحل المبكرة من العمر.

لقد أوضحت العديد من الدراسات في البلدان الصناعية الآثار الايجابية لدور الحضانة على نمو الطفل وتطوره وتهيئة الفرصة له للتفاعل مع الأتراب (انظر الفصل العاشر) إذ يندر توفر ذلك خارج دور الحضانة والتي تستقبل الأطفال عادة اعتبارا من عمر ثلاثة أشهر حتى السنة الثالثة. إلا أنه لابد من الحذر عند تفسير نتائج الأبحاث الغربية، فما يناسب الغرب لا يناسب بالضرورة مجتمعاتنا وإن كان لابد من الاستناد إلى الحقائق ذات الصفة الشمولية، مع الأخذ بعين الاعتبار الخصائص المميزة للمجتمعات العربية ولتفهم آثار هذه التجربة التربوية التي يعيشها الطفل العربي في مرحلة مبكرة من العمر لابد من تطوير وتعميق البحث في الوطن العربي.

الانفصال الطويل بين الأم وطفلها:

في تقريره إلى منظمة الصحة العالمية قام «بولبي» بصياغة المبدأ القائل بأن التوازن العقلي للطفل يرتبط بضرورة تمتعه بعلاقة حميمة ومستقرة وثابتة مع أمه أو مع المرأة التي تحل محلها بشكل دائم، علاقة تمكّن الطرفين من العيش بسعادة ورضى. لقد قدم هذا المؤلف براهين عدة تبين أن اضطراب الشخصية والعصاب تكونان غالبا نتيجة الحرمان من عناية الأم أو نتيجة لعلاقة متقطعة زمنيا وغير دائمة بين الطفل والأم.

إنه لمن الثابت حاليا أن انقطاع العلاقة بين الأم والطفل يعود بالنتائج السلبية على هـذا الأخير. وأنـه أصبح من المحتم على علم النفس المرضي بأن يـولي أهميـة بـالغـة لردات الفعل النـاجمة عن فقدان وجه الأمومـة وما قد يتركه ذلك من عـلاقات القلق والعصاب والاضطـراب العاطفي وعدم القـدرة على إقامة عـلاقات عاطفيـة عميقة ودائمـة. إلا أن هناك عـوامل متعـددة يمكن أن تتـداخل مع حدث الانفصـال بين الطفل والأم ومن أهمهـا العـوامل الصحيـة، والتغيير المفـاجىء في الـوسط الخارجي وغرابته، وطبيعة العناية التي يلقاها الطفل من قبل من يحل محل الأم، وطبيعة علاقة الطفل بمن يهتم بـه قبل الانفصال وبعـده. إن هـذه العوامل قـد تعزز من خطـورة الانفصـال أو قـد تخفـف من آثـاره ولكن العـامل الحاسم والأكثـر تأثيرا في الحالـة العاطفية للطفل هو غياب الأم.

التعلـق القلـق:

إن الطفل بعد مرحلة من الانفصال عن الأم يبدو أكثر قلقا بعد عودته إلى الأم مما كان عليه قبل الانفصال خاصة إذا تـولى أمره شخص غريب أثناء الانفصال. ولكن يمكن ملاحظة فروق فردية، إذ يمكن للطفل أن يستعيد الثقة بمن حوله خاصة الأم بينما لا يكون ذلك ممكنا لطفل آخـر. ثمة عوامل عديدة قد تلعب دورا هـاما في هذا المجال، إلا أن المسألة الأكثر قابليـة للجدل هي تأثير الانفصال على المدى البعيد في حيـاة الطفل. لقد أشـارت بعض الـدراسـات إلى اختلاف بين زمـرتين من المراهقين سبق لأفراد واحـدة منهما أن انفصلوا عن وسطهم العائلي لدخـولهم المستشفى مرتين أو أكثر لمدة تزيد على أسبوع في كل مرة. لقـد تبين أنه في عمر المراهقة يكون الميل إلى عدم الاستقرار وإلى الجنـوح عند أفراد هذه الزمرة أكثـر حدوثا منه عند أطفـال الزمرة الأخـرى التي لم يفصل أفـرادها عن وسطهم العـائلي «بـولبي ص ٢٩». (Bowlby, 1973).

ففي رأي بولبي: أن حالات القلق والهبوط العصبي وبعض الحالات المرضية عند الكبار يمكن أن تكون على مايبدو مرتبطـة بحالات تلاشي التعلق وفقدان الأمل أثناء

الطفولة، إن تأثر هذا المؤلف بنظرية التحليل النفسي دفعه إلى المبالغة المفرطة في تأثير اضطراب التعلق أثناء الطفولة طيلة الحياة وكأنه استبدل «الليبدو الفرويدي» بالتعلق لتفسير اضطرابات الشخصية.

إننا نتفق مع هذا المؤلف في أهمية استقرار العلاقة بين الطفل والأم (أو من يحل محلها) في تطور الطفل وتكامله من الناحية الانفعالية والعاطفية، وتفتّح شخصيته في عالم من الثقة والطمأنينة والأمن. ولكننا نختلف معه في إعادة كل قلق أو اضطراب في سن الكبر إلى اضطراب العلاقة بين الطفل والأم قبل عشرات السنين.

إنه من الصعب ـ في رأينا ـ إيجاد العلاقة السببية بين مايحدث للمرء في سن الأربعينات وما سبق أن أصابه في عمر سنتين، فلابد للباحث من إلقاء الضوء على الظروف الحالية المحيطة بالفرد التي دفعت بالشخصية إلى ردود فعل محددة مع أخذ الخبرات السابقة برمتها ككل متكامل بعين الاعتبار. إنه لمن المؤكد أن غالبية الأطفال الذين أصيبوا في علاقتهم بالأم قد تمكنوا ـ ولحسن الحظ ـ من تجاوز هذا الحدث المؤلم والمفرط في قسوته ومن التطور والنمو بشكل عادي. إن قدرة الصغير على تضميد الجراح لا يستهان بها، فالعضوية النامية تتمتع بدرجة عالية من المرونة والتكيف.

إن ملاحظة سلوك الأطفال أثناء مغادرة الأم تبين مدى التشابه في ردة فعل هؤلاء تجاه هذا الحدث. إن القاعدة التي تحكم هذا السلوك تكون البكاء والصراخ والاحتجاج وأحيانا محاولة اللحاق بالأم.

ويتابع الطفل إعلان البكاء وإظهار الحزن من حين إلى آخر أثناء النهار ويكون البكاء ردة الفعل الأساسية بعد الانفصال عن الأم خاصة في الأيام الثلاثة الأولى. وبالرغم من انخفاض تكرار البكاء في الأيام التالية إلا أنه يحدث بصورة متفرقة حتى اليوم العاشر وتظهر أزمات البكاء لدى زيارة الأب أو أحد الأقارب له وفي بعض الحالات يستمر الطفل في «البحث» عن الأم ومناداتها. وغالبا ما يرفض الصغير محاولات المربية في مراضاته والعناية به وبالرغم من استمرار مقاومة محاولات المربية

يبحث الطفل عن الحماية وعن بعض العاطفة عندها . وفي الأسبوع الثاني يبدأ بتفضيل مربية دون غيرها ، وعند دخول شخص ما لا يعرفه الأطفال يمكن ملاحظة مدى الفزع حيث يهرع بعضهم نحو المربيـة ليتشبث بها . لقد أورد بولبي بعض الملاحظات المتعلقة بهؤلاء الأطفال حيث فقد سبعة أطفال من أصل ثمانية مراقبة وظائف الطرح (التبول والتبرز) بعد انفصالهم عن الأم . ويشير هذا المؤلف إلى أن الفروق الفردية بين هؤلاء الأطفال كانت على صعيد الحركة والنشاط ، فبعضهم يميل إلى اللعب والحركة المتواصلة بينما يبقى بعضهم الآخر في حالة من العزلة والخمول وعلى وشك أن يبدأوا بالبكاء .

إن ملاحظة سلوك هؤلاء الأطفال بعد لقائهم بالأم عند عودتها بعد عدة أسابيع من الغياب تبين تلاشي سلوك التعلق عند هؤلاء إذ يبدو الطفل وكأنه لا يعرف أمه من قبل فيدير ظهره لها مبتعدا وأحيانا يجهش بالبكاء ، وبعضهم يتردد بين البكاء وعدم الاكتراث . إن تلاشي التعلق قد يستمر بضعة أيام ويرتبط ذلك بمدة الانفصال فكلما كانت المدة قصيرة كلما استعاد الطفل علاقات المحبة وبدأ بالتشبث بالأم وبالتفاعل معها . إن الانفصال المطول والمتكرر بين الأم والطفل خلال السنوات الثلاث الأولى يمكن أن يؤدي إلى تلاشي سلوك التعلق عند الطفل بصورة نهائية . أما في حالات الانفصال القصير، فيمكن لهذا السلوك أن يعود إلى مجراه الطبيعي خلال ساعات أو خلال أيام قليلة .

إن الطفل يطرح على الأم مشكلات جدية بعد العودة إلى الوسط العائلي وذلك يعتمد إلى حد كبير على طبيعة علاقتها به وقدرتها على تطمينه وإعادة بناء الثقة والتعامل معه بشكل يتناسب ومدى الاضطراب الذي سبق أن عانى منه أثناء انفصالها . إن الطفل يعاني من الخوف والقلق يتجدد بتجربة الانفصال والعودة إلى كنف أناس لا يعرفهم في وسط غريب عليه ، فلابد من تطمينه بأن ذلك لن يتكرر، وحمله تدريجيا على إعادة ثقته بمن حوله وخاصة الأم .

ماهي الشروط التي يمكن أن تخفف من وطأة الانفصال؟ إن مرافقة الطفل لأخ

أو لأخت أثناء الانفصال قد يخفف الكثير من ردود فعله عند مغادرة الأم، وتشير بعض الدراسات إلى أن الأطفال المرافقين لأخ أو لأخت عند دخولهم دار الحضانة وانفصالهم عن الأم يعانون بصور أقل من غيرهم، وتكون ردود فعلهم أقل شدة وتكرارا بالمقارنة مع هؤلاء القادمين وحدهم دون معرفة أحد في الوسط الجديد (Hei-nicke and Westheimer, 1966). ويمكن للطفل أن يصطحب شيئا مفضلا لديه من المنزل إلى الوسط الجديد وقد يخفف ذلك من قسوة هذا الحدث.

وتجدر الإشارة أيضا إلى أهمية سلوك الأمومة لدى الشخص الجديد الذي يأخذ على عاتقه رعاية الطفل والاهتمام بشؤونه بعد انفصاله عن أمه. فالأطفال الموكلون إلى جدة أو عمة أو خالة تحسن معاملتهم وتربطها بهم علاقة المودة يعانون بصورة أقل من وطأة الانفصال ويكون الاضطراب عندهم في حده الأدنى. إن مدة الاضطراب التي يعاني منها الطفل بعد انفصاله عن الأم ترتبط إلى حد كبير بطبيعة السلوك التي تظهره نحوه تلك التي ستحل محل الأم. إن قدرتها على التكيف مع الطفل وأخذه بالحسنى وطمأنته وإظهار السلوك المناسب قد يختصر على الطفل مدة الاضطراب ويحد من مخاوف الطفل ويخفف من قلقه عند وجوده في رعاية شخص يعرفه خاصة إذا أبدى هذا الشخص المحبة والحنو تجاهه.

إن مشاعر الضيق والشدة الناتجة عن الانفصال يمكن تخفيفها عند الطفل إذا تم التحضير لهذا الحدث (عند دخول الأم المستشفى أو حدوث ولادة جديدة)، وبالتالي يمكن تجنيب الطفل ردات الفعل العنيفة من الاحتجاج وفقدان الأمل وبالتالي تلاشي التعلق بالأم نتيجة الانفصال المفاجىء والتغيير الكبير الذي يفوق قدرة الطفل على المواجهة. فتحضير الطفل وتعريفه بالأم المرضعة التي ستتولى شؤونه أثناء غياب الأم، وكذلك الخصائص السلوكية للأم المرضعة يمكن أن يساعد الطفل على تجاوز الانفصال ومتابعة النمو والتطور بشكل مقبول بأقل الخسائر. إلا أن ذلك لا يعني أنه يمكن إلغاء مخاطر الانفصال، فالانفصال ينطوي على الكثير من المخاطر في الطفولة الأولى، فيجب العمل على تجنبه. لقد أشارت مجموعة من البحوث إلى أن غياب الأم يمكن أن يتفاعل مع عوامل أخرى كجِدّة المحيط وغرابته ونقص العناية بالطفل

وعدم توفر الأم المرضعة المناسبة مما يؤدي إلى الحزن العميق والشعور بالضيق والشدة عند الصغير في عمر السنتين. فغياب الأم يبقى العامل الأساسي في تحديد المظاهر الانفعالية وسلوك الاحتجاج عند الطفل.

إن الأم من خلال ملاحظتها اليومية تدرك أن الطفل القادر على المشي والحركة يذهب بثقة وشجاعة بعيدا عنها لاكتشاف العالم من حوله. وعلى العكس في غيابها فهو يظهر خوفا شديدا في مواجهة أي طارىء وتبدو عليه علامات القلق والاضطراب مما لا يمكنه من متابعة نشاط الاستكشاف. ففي حال شعور الطفل بأن أمه على وشك مغادرة المكان أو أنها سبق وأن غابت عنه يبدأ على الفور بتوظيف كل طاقاته كي يتمسك بها أو يبحث عنها، ويتملكه الخوف والقلق حتى يجدها.

إن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو لماذا يشعر الطفل بالضيق والشدة في حالة غياب الأم؟ فماذا يخشى أثناء غيابها؟

في أدب التحليل النفسي يمكن العثور على جملة نظريات للإجابة على هذا السؤال، إلا أن هذه النظريات تسلم بأن غياب الأم لا يمكن أن يكون بحد ذاته السبب الحقيقي لمظاهر الخوف والضيق عند الطفل (بولبي «١٩٧٣» ص ٥٥).

لقد شرعت أنسوورث ومعاونوها (Ainsworth, Bell and Stayton, 1974) في دراسة سلوك التعلق عند عدة زمر من الأطفال في أعمار متدرجة حيث قامت بدراسة زمرة في عمر تسعة أشهر، ولكن تركزت دراستها على الأطفال في عمر السنة، ووضعت طريقة تجريبية محددة لدراسة سلوك التعلق أصبحت فيما بعد منهجا مهما اعتمده الكثير من الباحثين وأكدوا مصداقيته.

تستند طريقة «آنسوورث» على ملاحظة سلوك الطفل في شروط تجريبية يمكن التحكم بها، فلقد وضعت ثلاثة مقاعد متباعدة في غرفة صغيرة بحيث تتمكن الأم من الجلوس على أحدها وتخصص المقعد المقابل لامرأة غريبة بينما توضع ألعاب جذابة على المقعد الثالث في طرف الغرفة. إن الغرض من هذه الوضعية التجريبية هو إيقاظ فضول الطفل بجدتها وجاذبيتها دون تخويفه بغرابة المحيط. فدخول المرأة

الغـريبة يتم بطـريقة تـدريجية بحيث لا يثير خـوف الطفل. تتضمن التجربـة ثماني مراحل متتابعة يمكن حدوثها في الحياة اليومية. إن الأم مثلها مثل المرأة الغريبة تحاط علما بالدور الذي يجب أن تلعبه وتتعاقب مراحل التجربة على الشكل التالي:

١ ـ **في المرحلـة الأولى**: يقوم أحد الملاحظين باستقبـال الأم وطفلها واصطحابهما إلى غرفة التجربة ويبتعد الملاحظ بعد ذلك.

٢ ـ **في المرحلة الثانية**: والتي تستمر ثلاث دقائق تقوم الأم بوضع الطفل بين مقعدها والمقعـد المعد للمـرأة الغـريبة، ويتـوجب على الأم عـدم التـدخل في نشاطـات الطفل، إلا إذا ألحّ هو على ذلك.

٣ ـ **في بداية المرحلـة الثالثة**: والتي تدوم ثلاث دقائق أيضـا. تدخل المرأة الغريبة، وتجلس في مقعدها بهدوء لمدة دقيقة وبعدها تتحدث مع الأم لمدة دقيقة أيضا ثم تقترب بهدوء من الطفل وتقـدم لـه لعبة. في تلـك الأثناء تبقى الأم جـالسـة في مقعدها.

٤ ـ **في بداية المرحلة الرابعة**: تغادر الأم الغرفة تاركة حقيبتها اليدوية على الكرسي دون أن تلفت نظـر الطفل. وتبقى المرأة الغريبـة دون نشاط إذا تـابع الطفل اللعب، وتحاول ترغيبـه إذا توقف، وتهدئتـه إذا بدأ بـاظهار القلق والخوف. تستمـر هذه المرحلة ثلاث دقائق، وتختصر في حالة إظهار الطفل لسلوك الضيق والشدة.

٥ ـ **في بداية المرحلة الخامسة**: تخرج المرأة الغريبة حالما تدخل الأم إلى الغرفة وتتوقف قليـلا لمعرفـة ردة فعل الطفل العفويـة بعد عـودتها وبعدهـا يكون لها الحريـة في التعـامل مع الطفل فبـامكانها تهدئتـه إذا كـان ضروريـا أو ترغيبـه في الألعـاب الموجودة. . ثم عليهـا أن تغادر الغـرفة وتتـوقف قليلا عنـد العتبة لتقـول له إلى اللقاء.

٦ ـ **في المرحلة السادسة**: يبقى الطفل وحيدا في الغرفة ويستمر ذلك ثلاث دقائق إلا في حالة ظهور الضيق والخوف عند الطفل بصورة حادة.

٧ ـ **في المرحلـة السابعـة**: تعود المرأة الغريبـة لتأخذ مكانها في الغرفـة دون تدخل في نشاط الطفل.

٨ ـ في المرحلة الثامنة : تعود الأم إلى الغرفة .

ـ يقوم الملاحظون طيلة المراحل السابقة بتسجيل سلوك الطفل والأم والمرأة الغريبة عبر مرآة خاصة تسمح للملاحظ بالرؤية بينما يتعذر ذلك على من هو موضوع الملاحظة .

لقد قام هؤلاء الباحثون بدراسة (٥٦) طفلا في عمر السنة وتركز اهتمامهم على مقياسين أساسيين : التكرار والقوة (Frequency and Intensity) .

١ ـ تكرار السلوك خلال كل مرحلة من المراحل السابقة حيث تم تحديده بعدد واحد لكل لحظة مؤلفة من (١٥) ثانية يظهر خلالها سلوك ما . فالرقم يكون بين صفر واثنى عشر لكل مرحلة مؤلفة من ثلاث دقائق .

٢ ـ قوة (Intensity) السلوك والأخذ بعين الاعتبار الصفة والطريقة التي يظهر بها سلوك ما .

إن أهم ما يخلص إليه هذا البحث هو أن سلوك الطفل يتغير بشكل أساسي أثناء غياب الأم في المرحلتين الثانية والرابعة، بالمقارنة مع مراحل حضورها . فالطفل يعلن علامات القلق والخوف والضيق عند غياب الأم بينما يمضي باستطلاع المحيط والاهتمام بالألعاب طيلة وجود الأم (المرحلة الثانية) ملقيا ببصره تجاهها من حين إلى آخر، سبعة أطفال فقط من المجموع بقوا حيث وضعوا دون نشاط يذكر وعند دخول المرأة الغريبة أثناء وجود الأم والطفل معا لوحظ بأن عددا كبيرا من الأطفال يقترب من الأم ويبدأ بتفحص القادمة الغريبة وينخفض تكرار اللعب واستطلاع المحيط إلى ما يقارب النصف .

وفي المرحلة الرابعة أثناء غياب الأم وبقاء الطفل بحضور المرأة الغريبة يميل معظم الأطفال إلى البحث عن الأم واتباعها عندما يشعرون بذهابها ويترافق ذلك بالبكاء . وعند عودة الأم يقوم معظم الأطفال بمحاولة الاقتراب منها، وبعضهم يتشبث بها ويتوقف البكاء بشكل تام إلا أنه يصعب إرضاء وتهدئة القليل ممن سبق أن أبدوا ردة فعل شديدة عند غياب الأم .

وعند مغادرة الأم من جديد (المرحلة السادسة) تاركة الطفل وحده يبدي معظم الأطفال بكائهم وبحثهم عن الأم بشكل أكثر قوة من المرة السابقة (المرحلة الرابعة).

وتجدر الإشارة إلى أهمية الفروق الفردية الملاحظة في ردود فعل الأطفال، والتي ترتبط غالبا بطبيعة التفاعل بين الطفل والأم خلال السنة السابقة. إلا أنه بالرغم من ذلك تتميز ردود فعل الأطفال بعد مغادرة الأم، بخصائص مشتركة من أهمها انخفاض النشاط المتعلق باللعب وباكتشاف المحيط وتوقفه بشكل كامل في بعض الأحيان، وكذلك يبدو الحزن والبكاء على الغالبية العظمى من الأطفال ويتميز سلوكهم أيضا بالقلق والخوف والشعور بالضيق عند مغادرة الأم بالرغم من بقاء الشروط الأخرى (الألعاب والأشياء) ثابتة في محيط الطفل. إن طريقة «أنسوورث» ومعاونيها في دراسة سلوك التعلق استخدمت على نطاق واسع من قبل الباحثين. وتناولت هذه الدراسات أطفالا في أعمار مختلفة ويمكن الإشارة إلى نتائج (Lee et al. In Bowlby, 1973)، لقد تبين أنه بالرغم من أن سلوك التعلق يستمر في الظهور بصورة نشطة في تمام العام الثاني من العمر إلاّ أن النظام الذي يحكمه قد تغير. فالطفل في عمر السنتين يُبقي على مسافة بينه وبين الأم أكبر مما هو الحال في عمر السنة، ويكون أقل ترددا في الاقتراب من شخص غريب غير معروف من قبل الطفل. ويشعر الطفل في عمر السنتين بالأمن والطمأنينة لمجرد وجوده بالقرب من الأم أو رؤيتها، بينما يميل الطفل في عمر السنة إلى الاقتراب من الأم لدرجة الملامسة الجسدية. بالإضافة إلى ذلك يكون احتجاج الطفل أقل حرارة عند مغادرة الأم في عمر السنتين منه في عمر السنة، يخلص هذا المؤلف إلى القول بأن الطفل في عمر السنتين يمتلك استراتيجية معرفية للاتصال بالام أكثر تطورا مما هي عليه الحال في عمر السنة. فالطفل يستخدم في عمر السنتين وسائل الاتصال البصري والكلامي (المناغاة) وقدرته على التمثيل العقلي بصورة أكثر فعالية من عمر السنة. مما ينعكس على سلوك التعلق إذ يصبح أكثر تنظيما حيث تكون وسائل المحافظة على جوار الأم أكثر فعالية منه في عمر السنة.

أما في عمر ثـلاث سنوات فالتغير في سلوك الطفل في الحالـة التجريبية يمكن أن يكون نتيجـة تطور القدرة المعرفيـة الإدراكية عنده، إذ يصبح الاتصال عن بعـد أكثر فأكثـر تطورا بين الأم والطفل، ويصبح هـذا الأخير أقدر على الفهم بأن مغـادرة الأم ستكون مؤقتـة وهي ستعود بعد قليل. مما يـؤدي إلى انخفاض ملموس في ردود فعل الطفل في عمـر ثلاث سنـوات عند مغـادرة الأم بـالمقارنـة مع عمر السنتين إذ ينـدر حصول البكاء أو الذهاب باتجاه الباب للّحاق بالأم.

متى تبدأ ردود الفعل الخاصة بالانفصال عن الأم:

إنه لمن الصعب التحديـد الدقيق للعمر الذي يظهر بـه الطفل ردود فعل خاصة عند انفصـاله عن الأم. إذ يتعـذر التفسير الصحيح لذلـك قبل عمر سبعـة أشهر. ويجمع البـاحثون بأن ذلك يظهـر بـوضوح خـلال النصف الثاني من السنـة الأولى. ويستند هذا التفسير إلى نظـرية «بياجيه» القائلـة بأن الصغير يصبح قادرا على تصور الموضوع كشيء موجـود مستقل عنه في إطار سببي ومكاني. وتميـل أبحاث أخرى إلى التأكيد على أن قدرة الطفل على إدراك الشخص تنمو بصورة أسرع منها عندما يتعلق الأمر بالشيء الجامد (Bell, 1970) ويتعذر ذلك قبل عمر تسعة أشهر. إن معطيات البحث الحديثة تؤكد أن الصيغة الخاصة بـردة فعل الطفل عند انفصاله عن الأم عند وجوده في وسـط غريب وبحضور شخـص لا يعرفه من قبـل تبقى ثابتة نسبيـا حتى عمر ثلاث سنوات حيث تبدأ بعدها بالانخفاض التدريجي.

ماهي دواعي الخوف عند الطفل؟

يتفق البـاحثون على أن القلق والخوف يتـولـد لدى الصغير أو لـدى البالغ عنـد ابتعـاده عن وجه يحبـه ويتعلق به، خصـوصا إذا وجـد في وسط مجهول مع أنـاس لا يعـرفهم، فسلوك الصغير في هـذه الظروف يتجـه إلى اللحاق بمن يحب والفـرار من الوسط الغريب.

هناك عـوامل كثيرة يمكن أن تثير الخوف لدى الصغير. فوجـود الطفل وحيدا في

كنف مجهولين، وتعـرضه لحركة أو لضجـة مفاجئة يبعث الخوف والـرعب في نفسه، كذلك الاقتراب المفاجىء منـه أو وجوده في أماكن شاهقـة، كل هذه العوامل يمكن أن تشعر الطفل بـالخوف وأحيانـا بالألم والـرعب، إلا أن أثر هذه العـوامل يمكن أن يختلف في شدته من شخص إلى آخر، ومن حـالة إلى أخرى. فما قد يثير الخوف اليوم قد يكون أقل تأثيرا بعد أيام والعكس بالعكس.

إن ردة الفعل على وضع خطر يمكّن العضوية مـن تجنب الخطر، وبالتالي يلعب دورا هامـا في بقاء النـوع. فحضور شخص قوي الألفـة أو غيابـه يؤدي إلى ردة فعل تختلف في شدتها بـالمقارنـة مع حضور شخص عادي أو غيـابه لا تربطنـا به عـلاقة قوية.

إن الـدراسات المتعلقـة بهذا الجانب تعتبر قليلـة نسبيـا وتعتمد في معظمهـا على سؤال الأم عن العوامل التي تسبب الخوف عند الطفل.

إلا أن بولبي يعرض دراسة (Lapouse and Monk, 1959 in Bowlby, 1973) تـوضح مـدى التعارض بين وجهـات نظـر الأمهـات حول حـالات الخوف والخوف الحقيقي الذي يصيب الأطفال.

فالحالات التي تشعر الطفل بالخوف والرعب قد تمر دون انتباه الأم.

إن الطفل يشعــر بـالخوف من الضيــاع، والاختطـاف، ومن المجهــول، ومن الحرب، ومن المرض، ومن الموت. بينما أكـد (٤٢٪) إلى (٥٧٪) مـن الأمهـات بأن الطفل لا يخاف من هذه الحالات. فالملاحظة المباشرة لـلأطفال تكفل معرفة العوامل الحقيقية التي تشعرهم بالخوف. إن تعرض الصغير في الأشهر الأولى لمؤثرات خارجية معينة كالضجيج المفـاجىء، وحالة عدم الارتياح يدفعـه إلى البكاء والتوتر العضلي. وبعد الشهـر الرابع حيث يبـدأ الصغير بتمييز الـوجه الغـريب من الوجـه المألوف، عندها يظهر التحسب لدى رؤية وجه غريب. وبين الشهرين السابع والتاسع يظهر الطفل علامات الخوف لدى مشـاهدته إنسانا مجهولا أو شيئـا غريبا. فحضور رفيق مألوف يحد مـن آثار الخوف والقلق، ووجود الطفـل بالقرب من الأم يخفـف إلى حد

بعيد من ردود فعله على مؤثرات قد تثير الخوف والذعر أثناء غيابها. إن وجود الطفل بجوار الأم يخفض من مخاوفه ويؤدي إلى تلاشي مظاهر الخوف والقلق عند اقتراب شخص غريب منه مثلا.

إن النوع البشري ــ كالكثير من الأنواع ـ قد اكتسب خلال التطور استجابات محددة، وهي ما يسمى بالخوف عن تعرضه لمؤثرات تنذر بالخطر. لقد أصبحت هذه الاستجابات عبر التطور جزءا من التراث الغريزي عند الإنسان إذ تسهم في مساعدة العضوية على مواجهة الظروف الجديدة.

وبالتالي تلعب هذه الاستجابات دورا هاما في المحافظة على بقاء النوع، فوجود الطفل في وسط مجهول يحمل علامات الخطر والتهديد، فهو بحد ذاته لا يشكل خطرا ما وإنما يشير إلى حدوث الخطر. فوجود الطفل بعيدا عن الوسط المألوف يعرضه لهجمات الأنواع المعادية وهكذا ـ تعلّم الطفل عبر ملايين السنين أن يهرع باتجاه الأم أو باتجاه من تربطه بهم بعض الصلات عند تعرضه للخطر حيث أصبحت هذه الاستجابات غريزة متوارثة قد تتأثر بالتعلم والاكتساب إلى حد كبير.

إن الأمن بالنسبة للرئيسات يتطلب منها أن تبقى في زمر. فالانفصال عن الزمرة أو الابتعاد عنها ينطوي على مخاطر كبيرة. وبالنسبة للأفراد الضعفاء تؤدي العزلة غالبا إلى الموت حيث يكون هؤلاء فريسة سهلة للأنواع المعادية. إن ردة الفعل على حالة الخوف من الوقوع فريسة عند الإنسان يمكن ملاحظتها بالرغم من غياب الظروف الموضوعية التي تبررها في عصرنا الحال، إلا أن ذلك قد يتوضع في بيولوجية النوع خلال ملايين السنين ومن غير الممكن إلغاؤه في فترة قصيرة، فالتطور البيولوجي يتم بشكل بطيء على عكس ماهو الحال فيما يتعلق بالتعلم والاكتساب.

إن الأنظمة الداخلية التي تتحكم بسلوك التعلق وبسلوك الخوف تحافظ على إبقاء الفرد في وضع من التوازن في محيطه.

فمن وجهة نظر بولبي يمتلك الفرد الإمكانية لتطوير أنظمة بيولوجية حساسة لنوع محدد من المثيرات تمكنه من تحقيق التوازن كلما تعرض للخلل بحيث تنشط هذه

الأنظمة حتى تعـود العضوية ضمـن حدود التوازن. إن ردة الفعل المتمثلـة بالخوف عندما يتعذر على الطفل الاتصال بـالأم والتي أصبحت عبر التطور جزءا أساسيا من المنظومة السلوكية عند الإنسان، تلعب ردة الفعل هذه دورا هاما في تكيف الطفل مع المحيط. وكذلك في المحـافظة على بقاء النوع. إن انفصـال الطفل عن الأم يؤدي إلى ردود فعل متشابهة عند جميع الأطفال مهما اختلفـت أوساطهم ومجتمعاتهم. فحضور حليف موضع الثقة يؤدي إلى الشعور بالأمن وإلى انخفاض مظاهر الخوف في مختلف الظروف المؤديـة لذلك. وعلى العكس فالعزلـة والوحدة تؤدي إلى تصـاعد الخوف في مختلف الظروف.

فالطفل الـذي يشعر بأن لا شيء يمنعه مـن اللجوء إلى الأم (الوجـه الذي يتعلق به) عنـدما يـرغب وكلما اقتضت الظروف ذلك، وأن الأم تقبل ذلك بـرحابـة صدر، يكون أكثـر أمنا وأقل خوفا من طفـل آخر لا يمتلك الثقة بحضور الأم واستعـدادها نحوه. إن تشكل هـذه الثقة يتم عبر المراحل المختلفة من تطـور الطفل، ويتعزز من خلال التجربة التي يعيشها الطفل مع الأم بشكل يومي.

إن الطفل الذي تـرعرع في وسط مقبـول وفي كنف والدين محبين ووجـد دوما من يأخذ بيـديه ويضمن له الأمـن والطمأنينة خاصـة في الظروف الصعبة ستتعـزز الثقة بنفسه عندما يكبر والقناعة بأنه سيجد دوما من يساعده في الحالات الصعبة. فالثقة القوية تنسحب على العـالم الخارجي، وتنعكس على طبيعة علاقة هذا البـالغ بالعالم من حوله.

الفصل العاشر

الأمومة في غياب الأم

سلوك التعلق بين الطفل والآخرين

إن مفهوم الرابطة العاطفية الوحيدة بين الأم والطفل مفهوم رومانسي وجذاب من حيث بساطته البيولوجية. إلا أن التطور العاطفي للطفل لا يتحدد فقط بعلاقته بالأم، بل لابد من الأخذ بعين الاعتبار العلاقات المبكرة الأخرى التي يقيمها الطفل في وسطه. حيث يكون ذلك على درجة كبيرة من الأهمية لتفهم أفضل لتطور الطفل ونمّوه (Weinraub, Brooks and Lewis, 1977).

لقد بدأ اهتمام الباحثين يتركز حديثا على العلاقات الأخرى التي يقيمها الطفل بالإضافة إلى علاقته بالأم، خصوصا علاقة الطفل بالأب. وبالأخوة والأخوات، وعلاقته بالأقران في دور الحضانة أو في الروضة وذلك في المرحلة ما قبل المدرسية.

أوضحت بعض الدراسات الحديثة أهمية التفاعل بين الطفل والأقران في المراحل المبكرة من العمر وتأثير ذلك على علاقة الطفل بأهله (Vandell, 1979; Rubensten et al., 1982) وأشارت دراسات أخرى إلى أهمية مفهوم التعلق الثانوي (ألتعلق بالأقران أو بالأخوة والأخوات أو بالأب... الخ) في دراسة تطور الطفل وفي تحديد العلاقات التي يمكن أن تؤثر في هذا التطور. إن مفهوم التعلق الثانوي يتعارض مع نظرية التعلق التقليدية، ويعزز القطيعة مع النظرية الفرويدية التي ترى في كل أنواع التعلق البشري اشتقاقا من العلاقة بالأم. فالتعلق

برفيق اللعب يؤكد استقلالية التعلق عن موضوع «الليبدو» وعن الدوافع الأخرى.

سنحاول في هذا الفصل مناقشة تعلق الطفل بالأب، وبالأخوة أو الأخوات، والتعلق بين الطفل والأتراب.

أولا: التعلق بين الطفل والأب

بالرغم من أن الأم تحتل مركزا هاما في تطور السلوك عند الطفل، إلا أن الأب يمكن أن يسهم أيضا في ذلك، وخصوصا مع تزايد اهتمام الآباء المضطرد بشؤون الطفل.

لقد بدأ الأب في المجتمعات الصناعية بالمشاركة الفعالة في تربية الطفل منذ الولادة إذ تزداد نسبة الآباء الذين يحضرون ولادة صغارهم وأصبح غياب الأب أثناء الولادة إشارة إلى قلة اهتمامه بالطفل. إلا أن المشاركة الفعالة أثناء الولادة لا تعبر عن حقيقة ماسيكون عليه سلوك الأب في مرحلة لاحقة.

ويتفاوت اهتمام الأب بشؤون الصغير من مجتمع إلى آخر، ويتأثر هذا الاهتمام تأثرا بالغا بالثقافة الاجتماعية السائدة، وبالعادات والتقاليد والأعراف. وبمعزل عن التأثير الثقافي، لا يختلف الرجل عن المرأة من حيث شعوره واستجاباته نحو الطفل حديث الولادة (Sluckin et al., 1983) . فالتعلق مسألة درجة، وليس مسألة أن يكون أو لا يكون، ويعتمد إلى حد كبير على مدة اجتماع الطفل والكبير واعتماد كل منهما على الآخر. وتعلق الأب بالطفل لا يختلف عن تعلق الأم من حيث نوعه وطبيعته. إلا أنه يكون أقل حدة وقوة منه عند الأم (المصدر السابق).

إن التوسع في الاتصال بين الأب والطفل في الثقافتين الغربية والعربية هو أقل منه بين الأم والطفل، وبذلك تكون فرص التعلق بين الطفل والأب محدودة لا تقوى وتتعاظم كما هو الحال بالنسبة للأم.

وتقل الدراسات المتعلقة بالأبوة عن تلك المتعلقة بالأمومة حيث يتركز اهتمام

الباحثين ـ الذين غالبا ما اعتبروا سلوك الأهل يعني بالدرجة الأولى سلوك الأم ـ على دور الأم، إذ يقتصر دور الأب، في رأي الكثيرين، على دعم الأم وتعزيز علاقتها بالصغار. أما اليوم فالضغوط الاجتماعية تدفع الآباء كي يكونوا أكثر اهتماما بالصغار وعناية بهم، وتتطلب منهم مشاركة الأم في الاهتمام بشؤون الطفل المختلفة. وهذا ما شجع الباحثين حديثا على الشروع بالدراسات التي تتناول علاقة الصغير بالأب ودوره في تطور الطفل.

الأب والعناية في شؤون الصغير:

يتعاظم دور الأب أكثر فأكثر في تنشئة الطفل وتطوره، وتشهد معظم المجتمعات، خصوصا المجتمعات الصناعية، تبدلا هاما في هذا المجال، حيث يشارك الأب مشاركة فعالة في رعاية الطفل.

ويرى لامب (Lamb) أن الأب هو المساهم المنسي في تطور الطفل حيث تبدلت المفاهيم الآن، فالأب يشعر أكثر فأكثر بأنه معني في شؤون الطفل المختلفة. وبالرغم من قلة تدخل الأب في شؤون الطفل المختلفة. ومن قلة تدخله في شؤون الطفل اليومية كالتغذية والنظافة بالمقارنة مع الأم إلا أنه يلعب دورا مهما في تطور الطفل ونمّوه، وتجدر الإشارة إلى التغير في مساهمة الأب في العناية بشؤون الطفل، ومشاركة الأم في المهام المتعلقة بنظافته وتغذيته واستحمامه والاستيقاظ ليلا من أجله. لقد تزايدت في العقدين الأخيرين نسبة الآباء الذين يتقاسمون مع الأم هذه الأعباء (Lew-is et al., 1982). وهناك العديد من الآباء الذين يتحملون مسؤولية كبيرة في الاهتمام بشؤون الطفل وشؤون الأم في المرحلة التي تلي الولادة.

ويؤثر هذا التغير في سلوك الأب نحو الصغير على القيم والعادات التي سيلقنها الأب لأبنائه، وفي التكوين النفسي للطفل، وفي الاستراتيجية التربوية التي سيتبعها الأب مع أطفاله. إلا أنه من الخطأ الاعتقاد أن الرجل اتخذ قرارا واعيا بتحمل مسؤولية أكبر فيما يتعلق بتربية الطفل ورعايته في المراحل الأولى من حياته، فلابد من بحث العوامل التي دفعت بالأب ليساهم أكثر من ذي قبل في العناية بشؤون الصغير

العوامل المؤثرة في سلوك الأب نحو الطفل

١ ـ بنية الأسرة:

إن التطور في بنية الأسرة واستبعاد الأقارب (الجدات والعمات والخالات) من حياتها أكثر فأكثر وعمل المرأة خارج المنزل، حمل الرجل على مساعدة الأم ومشاركتها المهام التي كانت من شأنها وحدها فيما قبل. ويترافق التزايد المستمر في نسبة الأمهات العاملات في مختلف أنحاء العالم، مع تحولات في العلاقات الاجتماعية والعائلية، حيث لم يعد في الامكان تكليف الجدة أو الخالة أو أحد أفراد العائلة الآخرين برعاية الطفل والاهتمام به أثناء عمل الأم.

لقد حملت هذه الأسباب الكثير من الأزواج ـ خصوصا في المجتمعات الصناعية المتطورة ـ على المشاركة الفعالة في رعاية الطفل أثناء غياب الأم، وتوفيق ظروف العمل بحيث يتواجد أحد الزوجين بالقرب من الطفل بصورة دائمة. إلا أن نسبة الآباء الذين يختارون البقاء في البيت أثناء عمل الأم لا تزال نسبة قليلة.

وتجدر الإشارة إلى أن التغير في التقاليد الاجتماعية المتعلقة برعاية الطفل في المجتمعات الصناعية قد تدعّم بتعديل تناول التشريح الذي ينظم العلاقات الأسرية حيث يتساوى الزوجان في الحقوق، وتتزايد نسبة الآباء المطلقين الذين يقومون على شؤون الطفل. ويمكن للرجل في بعض المجتمعات أن يحصل على إجازة أمومة بعد ولادة الطفل الثالث.

ومن العوامل التي قد تدفع الأب للمشاركة أكثر فأكثر في رعاية الطفل، الولادة خارج البيت في المستشفى، فعند عودة الأم إلى البيت يشعر الأب بضرورة أن يقوم ببعض المهام التي كان يقوم بها الآخرون في دار الولادة، وأن يهيىء الفرصة للأم كي تخلد إلى الراحة، وتتمكن من استعادة حيويتها ونشاطها.

وتهتم المرأة المعاصرة أكثر فأكثر في مدى تدخل الأب في سياق التكوين الاجتماعي للطفل، وتشكو سلبيته في هذا المجال، وترى بعضهن أن دور الأب غير

محدد بشكل صحيح، وعدم مشاركته يعبر عن رغبة الرجال في إبقاء المرأة في مكانها التقليدي، ويكون غالبا عدم قيام الزوجين بالدور المناسب مصدرا للمواجهة بينهما. إلا أن التمييز بين دور الرجل ودور المرأة لا يخضع لرغبات أحد الطرفين. فكلاهما يلتزم بنظام القيم السائدة التي تحددها الجماعة الثقافية التي تنتمي إليها الأسرة.

٢ ـ تجربة الأب مع أهله:

تعتبر تجربة الأب مع أهله خاصة مع والده على درجة كبيرة من الأهمية من حيث التأثير في سلوكه الخاص كأب. فالأب الذي يسيء معاملة أطفاله، ويعاملهم بصلف، غالبا مايكون بدوره طفلا قد اسيئت معاملته من قبل والده، وعومل بقسوة وصلف. ومن المحتمل أن تنتقل بعض النماذج السلوكية من جيل إلى جيل حيث يميل الأب إلى تقليد سلوك والده كما يميل المعلم إلى تقليد سلوك معلمه بصورة إرادية أو لا إرادية، إلا أن الثقافة قد تؤثر تأثيرا عميقا في تعديل هذه النماذج السلوكية وتجعلها أكثر مرونة وقدرة على التكيف مع الشروط المستجدة في المحيط.

تأثير الأب في سلوك الطفل:

لقد أوضحت الملاحظات الحديثة أن الأب يقوم بحمل الصغير خلال الأشهر الخمسة الأولى من عمره. فالآباء يحملون أبناءهم لمدة طويلة. فالوضعيات المختلفة أثناء حمل الطفل تؤدي وظائف متعددة، فالأب يتصرف بشكل مختلف حسب طريقة حمله للصغير. وكذلك تؤثر وضعية الصغير أثناء حمله في سلوكه عامة وفي قدرته على توجيه انتباهه إلى الأب. وتهييء وضعية الحمل أفضل الفرص للتفاعل المتبادل، خصوصا عندما يكون الطرفان وجها لوجه، مما يمكنهما من التبادل البصري، والتعبير الوجهي. ويكون الأب عندها مصدرا للمؤثرات بالنسبة للطفل الذي يكون على درجة من الحساسية لهذه المؤثرات.

إن طريقة الحمل، حيث يكون الأب والطفل وجها لوجه، تسمح بتطور العلاقة بين الطرفين. بينما ترتبط الحالات الأخرى لحمل الطفل بتهدئته عندما يكون غاضبا أو باكيا، وبرعايته والقيام على شؤونه، وتمكينه من التفاعل مع الآخرين.

لقد أوضحت دراسة وايت ورفاقه (White and Woollet, 1981) أن (٧٥٪) من الآباء يحملون الصغير بين الذراعين قبل عمر شهرين. وترتفع هذه النسبة إلى (٩٦٪) عندما يبلغ الطفل شهره الخامس. فالآباء يحملون الطفل بعد الولادة وينظرون إليه ويتحدثون عنه إلا أن السلوك النشط كالملامسة والابتسام والحديث إلى الطفل يكون أقل ظهورا.

لا تكمن أهمية سلوك الأب في مشاركة الأم مسؤولية الطفل فقط بل في التغير الانفعالي والنفسي الذي يعيشه الأب في علاقته بالطفل.

ويرى بعض الباحثين (Pederson et al., 1979) أن تأثير الأب يجب أن يفهم في إطار الوحدة الأسرية. فالأب يؤثر في تطور الطفل بطريقتين:

ـ طريقة مباشرة وذلك من خلال تفاعله المباشر، وتجربته المميزة مع الطفل، حيث يمكنه أن يعزز تطور الطفل من خلال سلوكه نحوه.

ـ طريقة غير مباشرة وذلك من خلال علاقته بالأم، فالزوج يمكنه أن يوفر للزوجة ـ الأم دعما انفعاليا عاطفيا وذلك ينعكس على علاقة الأم بالطفل. ويمكن أيضا للتفاعل بين الزوجين، وطبيعة العلاقة بينهما أن تؤثر في سلوك الأب نحو الطفل.

وتكون المدة الزمنية التي يقضيها الأب في البيت على درجة كبيرة من الأهمية، وغالبا ما يحدث التفاعل بين عدة أفراد بنفس الوقت الأب ـ الطفل ـ الأم، وهذا ما يحد من التفاعل الثنائي بين الطفل والأب. فالأب يقسم وقته بين الزوجة والطفل بينما تخصص الأم معظم وقتها للتفاعل الثنائي مع الطفل أثناء النهار. ويمكن أن يكون انخفاض الاتصال المتبادل بين الأب والطفل نتيجة للاتصال بين الزوج والزوجة حيث يغلب ذلك عندما يجتمع الأب والطفل والأم.

كيف يمكن للتفاعل بين شخصين الأم والطفل، أن يتأثر بشخص ثالث ـ الأب ـ؟ هل يمكن للأب أن يدفع الأم للكف عن إظهار بعض أنواع

السلوك؟ أو أن يسهل بعضها الآخر؟

وهل يمكن لتأثير الأب أن يعدل في خصائص سلوك الأم؟

لقد أشارت الدراسة السابقة إلى أن حضور الأب يؤدي إلى خفض التفاعل بين الأم والطفل، وإلى خفض الإصدارات الصوتية الموجهة للطفل. وقد يؤثر التنافس بين الوالدين فيما يتعلق بشؤون الطفل في تفاعل كل منهما مع الطفل وفي إثارة الخلافات الزوجية نتيجة لانعدام الخبرة في طرق التعامل مع الصغير.

إن ندرة البحوث المتعلقة بدور الأب يجعل الاجابة على الأسئلة السابقة عملية صعبة وتنطوي على بعض المضاربة. إلا أنه يمكن القول أن الأب أيضا يحتاج إلى الدعم العاطفي ــ الانفعالي ليتمكن من الاستمرار في علاقته بالطفل ومن ممارسة سلوك الأبوة. فمعظم البحوث تتناول التعلق بين الأم والطفل في سياق ثنائي ولا تتناول هذه المشكلة في إطارها الأسري المتكامل.

إن النتيجة التي يمكن استخلاصها هي أن مشاركة الأب في المراحل المختلفة من حياة الطفل تؤثر تأثيرا هاما في تطوره خصوصا في الطفولة المتوسطة. إذ يمكن للأب أن يقوم بدوره في تشجيع الانجاز المدرسي للطفل وفي وقايته من الانحراف وتجنيبه الجنوح. فمشاركة الأب عامل هام في نجاح الطفل.

ويتركز اهتمام الأب بشكل خاص على الوضع المدرسي للأطفال. فالمتابعة من قبل الأهل تؤدي إلى تحسن الإنجاز المدرسي. وعلى العكس من ذلك فعدم اهتمام الأهل بشؤون المدرسة يرتبط بقلة النجاح، وبتدهور المستوى الدراسي للأطفال. ويكون الانجاز المدرسي على علاقة بإرادة الأب ومدى تعاونه مع المعلم.

ولابد من التنويه إلى أن طبيعة عمل الأب تؤثر تأثيرا بالغا في درجة اهتمامه بالأطفال. فالأب الذي يصل إلى البيت بعد يوم من العمل المرهق لا يملك الطاقة كي يقوم بدوره. وكذلك الأب الذي يمارس مهنة صعبة تستنفد معظم وقته وإمكاناته، لا يستطيع أن يهتم بشؤون أطفاله ويتابع أوضاعهم بشكل صحيح.

ويلاحظ أن الصغير الذي يتمتع بعلاقـات إيجابية مع الأب يظهر قلقا كبيرا عند انفصاله عنه في حال الطلاق (Wallerstein and Kelly, 1980) وربما كان موقف الأم من غيـاب الأب أكثـر أهميـة من غيـاب الأب بحـد ذاته . فـالنتيجـة المدرسيـة المتواضعة عند الأطفال ترتبط بموقف الأم السلبي من غياب زوجها .

إن الطفل الـذي يفقد أبـاه بسبب الموت يأسف طيلة حيـاته لحرمـانه من وجـود الأب .

واهتمام الأب بشؤون الطفـل على علاقة بـالتفاعـل الذي يدور بين مختلـف أفراد الأسرة، ويؤثر في جـو المنزل، حيث تكون الأسرة أكثـر تماسكا وأكثر تعاونـا، عندما يبدي الأب مشـاركته واهتمامه بشـؤون الأطفال. وكل ذلك يشيع نظرة بنـاءة للعالم، ويصعد من اهتمامـات الأسرة وآمالها ويحد من احتمال ظهور السلـوك المنحرف أو من سلوك الجريمة .

ويبرز دور الأب في التمايـز الجنسي عنـد الأطفـال وفي فـرض النظـام في إطـار الأسرة .

١ ـ دور الأب في التمايز الجنسي عند الأطفال :

يتحـدد اكتساب الطفل للسمات السلـوكية التي تتنـاسب مع جنسه من خـلال التنشئة الاجتماعية حيث يكتسب الصبي صفـات الذكورة، وتكتسب البنت صفات الأنوثة .

وتؤثر العـوامل الثقافية تأثيرا كبيرا في تحديد الدور الجنسي، فالفـروق القائمة بين الجنسين تحددها الثقافة السائدة، وذلك عبر السلوك الذي يتبناه الأهل نحو أطفالهم من الجنسين، إذ يتم تعزيز السلـوك المناسب للجنسين من قبل الأهل. حيث ينتظر من الصبي أن يكون أكثر نشاطا وأكثـر قدرة على التنافس، وأكثر استقلالية واعتمادا على الـذات، وتؤثـر الثقـافـة السائدة في جعل البنت على درجـة أقل من الـرجل في الصفات السـابقة، وتعزز لـديها الهدوء والرقة والحنـان وسلوك الطاعـة والانصياع، وتحضيرها للعمل المنزلي .

ويرى أصحاب نظرية التحليل النفسي أن الأب يأخذ أهمية خاصة في التمايز الجنسي عند الأطفال، وفي ظهور المشكلة الأوديبية، ويلح أنصار هذه النظرية على أهمية دور الأم حيث يقتصر دور الأب على التأثير غير المباشر وذلك من خلال علاقته بالأم ودعمه لها، إذ تكون معنية بصورة دائمة وعميقة في تطور الطفل. إلا أن هذه النظرية كانت موضعا للانتقاد في السنوات الأخيرة حيث بدأ الاهتمام بدور الأب في حياة الأسرة، وأثره في التطور الانفعالي والعقلي للأطفال.

ويتفق الباحثون الآن على أن غياب الأب عن المنزل يؤثر في سلوك الطفل وخصوصا في سلوك الصبي. كما يؤثر الأب تأثيرا هاما في التمايز الجنسي بين البنات والصبيان.

ويتصرف الأهل بطريقة مختلفة باختلاف جنس الطفل. فتختلف العناصر السلوكية التي يبديها الأب أو الأم نحو الطفل إذا كان هذا الأخير ذكرا أم أنثى، ويتم تعزيز سلوك الصغار بطريقة مختلفة باختلاف جنسهم. فهذه الفروق السلوكية والفروق في المعاملة تدفع بالجنسين إلى توجه نفسي مختلف، حيث يشجع الأهل السلوك المناسب للجنس ويتجاهلون السلوك غير المناسب أو يعاقبونه. فالآباء يشجعون البنات على أن يَكُنَّ جذابات ويتصرفن بشكل حسن، كما يقوم الأب بتعزيز سلوك الأنوثة عند البنات. بينما يشجع الصبيان على حب الاطلاع، وعلى الاعتماد على الذات، وإظهار سلوك الرجولة. ويكون سلوك الأب أكثر ليونة تجاه الصبي بينما يضع القيود الكثيرة على البنت (Smith and Daglish, 1977) ويتكلم الأب أكثر ويلعب أكثر مع الصبي بالمقارنة مع البنت في عمر الـ (١٨) شهرا. (Weinraub and Frankel, 1977).

ويهتم الأب والأم بتوفير فرص متكافئة أمام أولادهم من صبيان أو بنات. إلا أنهما يميزان بين ألعاب الجنسين ونشاطاتها. ويشجع الآباء البنت على طلب المساعدة بينما يقومون بتأنيب الصبي عند استخدامه لألعاب البنت (Mc Guire, 1982).

كما تتأثر مشاركة الأب في العناية بالطفل بجنس هذا الطفل، إذ يولي الصبيان اهتماما أكثر من البنات.

إلا أن الثقافة التقليدية بدأت تتراجع أمام التغيير الذي أدى إلى تعديل في موقف الأهل من التمايز الجنسي، واتجاههم نحو التقليل من الفروق بين الجنسين، فتزايد النساء اللواتي يتابعن الدراسة في مختلف الاختصاصات، وممارسة مهن متعددة وازدياد عدد العاملات خارج المنزل في الوقت الذي يرتفع فيه عدد الرجال المشاركين في الأعمال المنزلية، كل هذا ينعكس على طرق التنشئة، إذ يتأثر الأطفال بهذا الاتجاه الذي يقلل من الفروق بين الجنسين. فالتحول الذي يعيشه المجتمع العربي الآن هو تحول في صالح المساواة بين الجنسين (اسماعيل ١٩٨٦).

٢ ـ الأب وفرض النظام :

تتصف صورة الأب في المجتمعات العربية بالقمع والتسلط وكأن وظيفته تقتصر على الردع والتأديب. وتشجع الثقافة السائدة هذا التوجه التسلطي للأب الذي يبالغ في اللجوء إلى العنف والقسوة كي يملي إرادته على جميع أفراد الأسرة. وغالبا ما يقوم الأب بالمحافظة على «الانضباط» والنظام داخل الأسرة، وينفذ العقوبة بمن لا يخضع لإرادته من الأطفال. وكثيرا ما تهدد الأم الطفل بعصا الأب الغليظة، إلا أن هذه الصيغة تكون فقط للتهديد، ولضمان طاعة الطفل دون أن تؤثر الأم على صورتها كمصدر للعاطفة والمحبة إذ تترك مسألة فرض «النظام والانضباط» لتحكيم الأب.

إن مبالغة الأب في استخدام سلطته وتبنيه العنف الجسدي والمعنوي في التعامل مع الأطفال ينطوي على أخطار جسيمة. فلقد أشارت دراسة ماكوير (Mc Guire, 1982) إلى أن الكثير من مشكلات انحراف الأحداث، وتوجههم نحو الجريمة، يرتبط بالطريقة التأديبية التي يستخدمها الأهل، فتعرض المراهقين للقمع والضرب قد يعزز عندهم هذا التوجه.

ويأخذ دور الأب أهمية خاصة في تطور جنوح الأحداث حيث أشارت بعض الدراسات إلى أن أبا الطفل الجانح يكون متجاهلا وأقل تدخلا في شؤون طفله بالمقارنة مع أب الطفل العادي.

ويكون الرجل غالبـا معجبا بوالده، ومتأثرا بقيمه الأخلاقيـة وبشجاعته. وهذا ما يؤهل الأب لموقع المسؤولية، ولإشاعة العدالة والحزم في الأسرة. ويكتمل دور الأب عندما يتصف بـالمحبة والحنان. فهيمنة الأب وقوة شخصيته المرافقـة بمشاعر المحبة والعطف تنمي عند الأطفال الذكور الضوابط الذاتية التي تثير حساسيتهم وسخطهم عند تجاوز القواعد الأخلاقية السائدة.

يكون لـلأب إذن دور هام في الأسرة وفي التنشئـة، فهو المرجع الأخير، ويجب أن يكـون في موقع يمكنـه من مواجهـة كل مشكـلات الأسرة. وبقدر مـا تتسع ثقافتـه ومعارفه بقدر ما ينعكس ذلك على أطفاله وعلى قدرته في مساعدتهم تربويا ودراسيا، وفي الإجابة على تساؤلاتهم وتمكينهم من التكيف في عالم متغير. فالأطفال بحاجة إلى التـوجيـه والمسـاعدة لتـذليل المصـاعب، وحملهم تـدريجيـا إلى النضج والاستقـلال الذاتي.

ثانيا: التعلق بين الطفل والأخوة والأخوات

كيف يمكن للتفاعل بين الأخوة والأخوات أن يؤثر في مسار تطور الطفل؟ وهل يختلف الطفل الوحيـد عن طفل ذي أخوة وأخـوات؟ وهل يؤدي هـذا الاختلاف إلى علاقة خاصة مع الأهل؟

لقد حاولت بعض الـدراسات الغربية الإجابة على الأسئلـة السابقة. إلا أن تميز الأسرة العربية بتعدد الأطفال بالمقارنة مع الأسرة الأوربية أو الأمريكية يجب أن يحملنا على الحذر عند الأخذ بنتائج البحوث الغربية، نظرا لخصوصية الأسرة العربية في هذا المجال.

يتمتع الطفل الأول بعلاقـة خاصة مع الأهل، ويتحمل مسؤوليـات متعددة في إطار الأسرة، ويتأثر بالعلاقة مع أخوتـه الصغار. فاستجابات الطفل لمؤثرات طفل آخر تختلف اختلافا كبيرا بالمقارنة مع استجاباته لمؤثرات البالغين.

ويتميز التفـاعل المتبادل بين الأخوة بخصائصـه العاطفية. فإمـا أن يكون متّسما بحرارة المحبـة والعطف، مما يشعر الأخـوة بالفـرح والحبور أثناء الاتصـال. وإما أن يشوب هذا الاتصال الخلاف والمشاجـرة حول الألعاب والأشياء (Dunn and Ken-drick, 1979) . و ترتفع نسبة التفاعل الإيجابي بين الأخوة عندما يعبر الطفل الكبير عن حسن استضـافة أخيـه الأصغر، ويبـدي الاهتمام به، ويسـاعده على اكتشـاف الأشياء من حوله. وعلى العكس من ذلك ترتفع نسبـة التفاعل السلبي عندما يبدي الكبير سلوكا عدائيا نحو الأم بعد ولادة أخ أو أخت.

إن التبادل بين الأخـوة والتفاعل الذي يمكـن أن يحصل بينهم في أي وقت كونهم يعيشون تحت سقف واحد، يمكن لهذا التفاعل أن يلعب دورا هاما في سياق التطور الاجتماعي للطفل. إلا أن البحوث التي تعتمـد على الملاحظة المبـاشرة للسلوك تعتبر نادرة حتى وقتنا الحالي.

وتعتبر العلاقة بين الأخوة والأخوات على درجة كبيرة من الأهمية، إذ توفر للصغير الفرصـة للتفاعل مع أخ أكبر متمتع بقـدرات أكثر تطـورا. فالأخ الأكبر يقـوم بدور المعلم بـالنسبة لأخيـه الأصغر ويسـاعده في التكيف وفي تطـوير قـدراته المختلفـة. ويقوم الأخ الأكبر بـالدور الـرئيسي في عملية التفاعـل فهو الذي يـوجه النشـاطات المختلفـة ويقـودهـا (Brody et.,al 1982)، ويعلم أخـــاه الكثير من الألعـــاب والمهارات. إلا أن معظم هـذه النشاطـات تتوقف عنـد حضور صـديق للأخ الأكبر حيث يتركز الاهتمام على هذا القادم الجديد (المصدر السابق).

وتتغير طبيعة العـلاقة بين الطفل الأكبر وشقيقه الأصغر أو شقيقتـه تبعا لمراحل التطـور إذ يتمكن معظم الأطفـال بين الثالثـة والخامســة من عمرهـم من أن يكونـوا مصدراً لـلأمن والطمأنينة بالنسبة لـلأخ الأصغر (١٠ ـ ٢٤) شهرا، في حـال غياب الأم (Stewart and Morvin, 1984) . كما يمكنهم أن يلعبـوا دورا هامـا في إعادة تنظيم التعلق بين الأم والطفل عندما لا يتسم هذا التعلق بالأمن.

وتجدر الإشارة إلى أهمية تقليد الصغار لأخوتهم الكبار حيث تأخذ هذه الظاهرة أهمية بالغة في سياق تطور الصغير واندماجه في الحياة الاجتماعية.

إن الظاهرة الأكثر أهمية هي قدرة الأخوة الكبار على العناية بشؤون الأخ الأصغر ورعايته والسهر على متطلباته المختلفة كالتغذية والنظافة والرعاية الطبية.. وتوفير الأمن والطمأنينة له. وتعرف هذه الظاهرة على نطاق واسع في المجتمعات العربية إذ يقوم الأخوة الكبار بدور هام، ويتحملون مسؤوليات كبيرة نحو الأخوة أو الأخوات الأصغر سنا، وكثيرا ما يكون التعلق بين هؤلاء على درجة من القوة بحيث يتشابه والتعلق مع الوالدين.

إن تعميق البحث ودراسة هذه الظاهرة على درجة كبيرة من الأهمية، وذلك لتحديد الدور التربوي الذي يقوم به الأخوة الكبار نحو الأخوة الصغار في الأسرة العربية، وتتميز العلاقة بين الأخوة الكبار الذين يقتربون من سن البلوغ والأخوة الصغار في طفولتهم المبكرة تتميز بعواطف المحبة والحنو وتؤثر بلا شك تأثيرا عميقا في مسار تطور الطفل.

إن دراسة علاقة الأخوة والأخوات في الطفولة المبكرة وتأكيد بعض الباحثين على الجوانب السلبية في المجتمعات الغربية يجب ألا يحملنا على إغفال أهمية هذه العلاقة وتأثيرها في تطور الطفل.

وعلى الرغم من الجوانب الإيجابية العديدة لعلاقة الطفل بالأخوة والأخوات، يؤكد بعض الباحثين على الجوانب السلبية لهذه العلاقة كالنزاع والتنافس والعدوان. ففي رأي فيلسون (Felson, 1983) يتميز التفاعل بين الأخوة والأخوات في المجتمع الأمريكي بارتفاع تكرار العدوان الذي يميل إلى الانخفاض مع العمر. وتغلب الغيرة والتنافس على علاقات الأخوة والأخوات. وتنشأ هذه العدوانية غالبا نتيجة الخلافات الحادة حول الألعاب والأشياء. فالتفاعل السلبي في علاقة الأخوة والأخوات يفوق التفاعل السلبي في علاقة الطفل بالوالدين.

وتتأثر علاقة الطفل بالأم عند ولادة أخ جديد ويلخص هايند (Hinde) ذلك بما يلي:

يمكن لولادة طفل جديد أن تؤثر في المدة الزمنية التي تكون فيها الأم مستعدة للتفاعل مع الطفل الأكبر. إذ تنخفض عادة المدة التي تقضيها الأم في حالة انتباه ولعب مشترك مع الطفل الأكبر.

تترافق ولادة طفل جديد مع انخفاض في تكرار مبادرة الأم لإقامة التبادل واللعب المشترك. وكذلك تنخفض في عبارات المحادثة المتبادلة عدا تلك المتعلقة بالأمر والمنع، ويمكن أن يكون التغير في سلوك الأم نتيجة للتعب الذي يلحق بها بعد الولادة.

ـ يتغير سلوك الطفل عند ولادة أخ أو أخت حيث يتفاعل مع الأم بطريقة مختلفة، فيرتفع تكرار سلوكه السلبي (العدوان، البكاء، الرفض) ومتطلباته المختلفة، ويتزامن ذلك مع ارتفاع في نسبة المشكلات المطروحة المتعلقة بالنوم والتغذية والنظافة.

ـ ويمكن ملاحظة تغير إيجابي في سلوك الطفل الأكبر إذ يأخذ مسؤوليات أهم من ذي قبل في اتخاذ المبادرة، ويبدأ بتناول الطعام بمفرده ويتجه شيئا فشيئا نحو الاستقلالية. وهذه التبدلات تدعو إلى القول بأن الطفل الأول ـ على خلاف الطفل الوحيد ـ يكون صورة عن نفسه متأثرة تأثيرا بالغا بهذه التجربة الجديدة. فالتغير في بنية الأسرة يترافق مع تغير في محيط الطفل الأول حيث يسهم ذلك في تعديل سلوكي لديه.

ومما لا شك فيه أن علاقة الأم بالطفل تتأثر بولادة أخ أو أخت، حيث تتغير العناصر السلوكية لهذه العلاقة. فالأم أثناء تفاعلها مع القادم الجديد تثير غيرة الطفل الأكبر مما يدفعه إلى تغيير نشاطه ليلفت انتباه الأم ويثير اهتمامها. وهذا ما يفسر ارتفاع تكرار المنع الذي تصدره الأم نحوه.

ويدرك معظم الأهل المشكلات التي تسببها ولادة طفل جديد عند الولد الأكبر، ويتساءلون عن كيفية التصرف إزاء الغيرة والتحاسد بين الأخوة. ولا يتم معالجة الغيرة والتحاسد عن طريق تحقيق المساواة المطلقة بين الكبار والصغار، بل عن طريق الاهتمام الحقيقي بالكبير وإشعاره بأنه محبوب ولازال يتلقى الاهتمام والرعاية بعد ولادة أخ أو أخت، وأن المحبة لكل منهما مختلفة بسبب من اختلافهما، وهذا ما يمكّن الأم من التعامل مع كلّ منهما بطريقة مختلفة دون إثارة التحاسد والغيرة. فالمهم أن يدرك الطفل أن الأم لا تتصرف على هذا النحو لأنها تميز أو تفضل أحدهما على الآخر بل لأن كليهما يختلف عن الآخر (سالك، Salk;, 1987).

وتجدر الإشارة إلى أهمية تهيئة الطفل الكبير لاستقبال القادم الجديد أثناء فترة الحمل، والإجابة بصدق ووضوح على الاسئلة المتعلقة بكيفية بداية الحياة، وكيفية نمو الجنين، وكيفية ولادته (المصدر السابق). ولابد من أن يعرف الطفل احتمال غياب الأم عن البيت أثناء الولادة، كي يتمكن الطبيب والممرضات من الإشراف على الوليد، وتتمكن الأم من الاستراحة بعض الوقت. وعلى الأهل اتباع الصدق والصراحة في علاقتهم بالطفل، وأن يتفهموا مشاعر الشك والمعارضة لديه إزاء القادم الجديد. وتزداد مهمة الأهل صعوبة في إقناع الصغير إذا كان عمره يقل عن ثلاث سنوات، لصعوبة إدراك المشكلة وتفهمها. وهو بحاجة إلى والديه ولا يزال يعتمد اعتمادا كبيرا عليهما. وفي جميع الحالات يجب أن يطمئن الطفل على أنه موضع اهتمام وأنه محبوب وأنه جزء مهم من الأسرة التي كبرت بقدوم الطفل الجديد.

إن تميز الأسرة العربية، واختلاف بنيتها بالمقارنة مع الأسرة الغربية يجعل من المفيد إجراء الدراسات المقارنة وتعميق البحث الذي يتناول علاقة الأخوة أو الأخوات: حيث يلاحظ أحيانا قيام الكبار بدور الأهل بالنسبة للصغار عندما تكون الفروق كبيرة في أعمارهم، وقد تكون روابط التعلق بينهم على درجة من التشابه مع تلك التي تقوم بين الطفل وذويه.

ثالثا : التعلق بين الطفل والأتراب

تطور الاتصال بين الأتراب :

لقد درج الباحثون على تقسيم حياة الطفل إلى مراحل، تتسم كل منها ببعض السمات، حيث قال العالم الفرنسي هنري فالون مثلا بمراحل التطور الانفعالي ـ الاجتماعي عند الطفل، كما قال بياجيه بمراحل التطور المعرفي ـ الإدراكي، وكذلك فعل فرويد عندما تحدث عن مراحل مختلفة في تطور الليبيدو. وفيما يتعلق بتطور سلوك الاتصال والتفاعل الاجتماعي عند الطفل تحدث بعض الباحثين عن مراحل مختلفة في تطور قدرات الطفل في هذا المجال. فلقد ميز ميلر ولوكاس (Mueller and Lucas, 1975) ثلاث مراحل في تطور سلوك الاتصال عند الطفل تحدد قدرته على التفاعل مع الآخرين خاصة مع الأتراب.

تتميز المرحلة الأولى بعدم تناسق سلوك الاتصال عند الطفل فهو يقوم بإصدارات متقطعة لا رابط منطقي بينها، ويطلب استخدام البصر على أقنية الاتصال الأخرى. ولا يتمكن الأطفال أثناء هذه المرحلة، التي تستمر حتى نهاية السنة الأولى، من تنسيق سلوك الاتصال فيما بينهم، لذلك يتعذر اندماج هذه الإصدارات السلوكية في وحدات اتصالية تفاعلية. ويكون سلوك الصغار في هذه المرحلة متركزا حول الأشياء.

أما في المرحلة الثانية فيحل الأقران محل الأشياء، حيث ينشط الطفل في البحث عن الاحتكاك مع الأقران، ويقوم بتوجيه سلوكه نحو الأقران بشكل واضح أثناء عامه الثاني. وهذا ما حمل هذين الباحثين على تسمية هذه المرحلة بمرحلة التفاعل الاجتماعي الحقيقي، وتتميز المرحلة الثالثة بقدرة الأطفال على التفاعل المتبادل، وتنسيق سلوكهم في عملية تفاعلية متكاملة، وتبرز في هذه المرحلة الوحدات التفاعلية المعقدة.

وفي مـلاحظـات فينـز (Vincz, 1971) التي أجـراها في دار الحضـانـة، والتي تناولت سلوك الأطفال بين الشهر السـادس والشهر السادس عشر من العمر، بينت هـذه الملاحظـات أن الطفـل يملك الاستعـداد للتفـاعل مع الأقـران منـذ الشهـر السـادس. فـالاحتكـاك بين الأطفـال يترافق بتـوجيـه البصر والضحك والابتسـام، فالصغير يبحث عـن قرينه ويتبعـه ويلامســه ويتوجـه نحوه بـالعديـد من العناصر السلوكية. ويندر ظهور السلوك العـدائي عند الطفل قبل مرحلة المشي، مما حمل هذا الباحث على القول بأن المتعـة والألفة تغلب على العلاقة المبكـرة بين الطفل وأترابه. ولقد تعززت وجهة النظر هذه وتأكدت في بحوث لاحقة (Kontar, 1989).

إن دراسة الطفل خلال عـامه الثاني وملاحظة سلوكـه بحضور الأم أثناء اجتماعه بطفل لا يعرفه مـن قبل، وذلك أثناء اللعب في قاعة أعـدت خصيصا لهذا الغرض، تبين أن الطفل يلتفت قليلا نحو الأم وكأنه لا يأبه كثيرا بحضورها. بينما يتركز نشاطه نحـو الطفل ونحـو الأشيــاء الموجـودة في المحيط (Fenson- and- Ramsay 1980 Eckerman, et al 1975). ويتمكن الأطفـال في هذه المرحلـة من العمـر من دمج الأشياء والألعاب في عملية التفاعل القائمة بينهم، وفي نهاية السنة الثانية من العمر يهيمن اللعب الاجتماعي على نشـاط الطفل مع الأقـران. ويعود تـزايد أهميـة اللعب الاجتماعي في هذه المرحلة إلى تطور قدرات الطفل على التقليد (Fenson and Ram- say, 1980) حيث يتمكن الطفل بواسطة التقليد من إظهار وحدات سلوكية معقدة ومن تطوير التفاعل المتبادل مع الأقران بحيث يصبح أكثر أهمية من ذي قبل.

لقد تعاقبت ـ حديثا ـ البحوث والدراسات التي تتناول علاقة الطفل بالأتراب، وكانت نتائج هـذه البحوث ـ في معظمها ـ تخلص إلى القول بـالدور الإيجابي للأقران في حياة الطفل، وإلى أهميـة التفاعل معهم. وذهـب بعضها إلى اعتبار التفـاعل مع الأقران ضروريا لتطور الطفل تطورا سويا (Hartup, 1975).

إن توفر فرص لقاء الأقران بالنسبة للأطفال الصغار يمكنهم من إظهار سلوكهم في إطار تفاعلي يؤدي إلى التأثير المتبادل فيما بينهم وإلى سرعة تطور السلوك الاجتماعي

عندهم.

تطور التعلق بين الأتراب :

يميل الأطفـال عادة إلى تفضيل طفل دون غيره عنـد استقـرار العلاقـات ضمن مجموعة معينـة في دار الحضانة أو الروضـة. فالطفل يختار طفلا آخـر أو أكثر ليلعب معه ويتفاعل وإياه بشكل متميز. ويمكن ملاحظة هذا الميل إلى إقامة علاقات مميزة بالنسبة للطفل منذ عامه الثاني (Espinoza, 1984). وتظهر صدقات حقيقية قوية بين طفلين في الـرابعة والخامسـة من العمـر، إلا أن ملاحظـاتنـا الشخصية لسلـوك الأطفال في دور الحضانـة تبين ظهور هذه الصداقـات في مرحلة مبكرة، أثنـاء العام الثالث من العمر.

وتتميز هـذه العلاقات بين الأطفـال بالألفـة والمودة والاستقرار فقد تـدوم بضعة أشهـر أو حتى بضـع سنـوات. ويصبح من الصعب على الطفـل أن ينفصل عن صـديقـه وفي حال حـدوث ذلك يمكن مـلاحظـة بعض الاضطـرابات السلـوكيـة والفيزيـولوجيـة عند الطفل مثـل خفقان القلب، واضطـراب النوم والشهيـة للطعام (Field, 1985). ويمكن للطفل أن يشعر بالأمن والطمأنينة عنـد حضور صديق له من أقرانه. إذ يخفف حضور هذا الصديق من مظاهر القلق والضيق عند الطفل أثناء تعـرضـه لموقـف صعب. ولقـد تمت الإشـارة إلى حـالات مشـابهة من التعلق عنـد الرئيسـات غير البشرية (Primates) إذ يتمكن الصغار من إقامة عـلاقات قوية مع الأقران تحل محل العلاقـات مع الكبار (Harlow, 1969). ومن الجدير بالـذكر أنه قد سبق لفرويد ودان (Freud and Dann, 1951) ملاحظة علاقات قوية تقوم بين ستة أطفال حرموا من علاقة والديّة مع الكبار، حيث أرغمتهم الحرب الكونية الثانية على الانفصال عن ذويهم والعيش معا في إحـدى المؤسسات الخيرية. إن التعلق بين هؤلاء الأطفال أصبح على درجة كبيرة من القوة إذ لوحظت اضطرابات عميقة عندهم بعـد فصلهم عن بعضهم، كما لـوحظ تأثـرهم العميق الـذي تمثل بطلبهم المستمـر العودة لمشاهدة الأقران. ويشبه الباحثون هذه الأعراض بتلك التي يمكن ملاحظتها

بعد فصل الطفل عن أمه، ويرى بعض الباحثين أن التعلق بين الطفل وأقرانه يصبح الحدث الأكثر أهمية، والميزة الأساسية للطفولة المتوسطة (Hartup, 1975). وفي دراسة لنا (Kontar, 1987; 1989) قمنا بملاحظة ثلاثين طفلا وطفلة بين عمر الستة عشر شهرا، وثلاثين شهرا، وذلك في دار الحضانة أثناء النشاط المشترك مع الأتراب. وتم تنفيذ الملاحظة المدعمة بالوسائل لتسجيل الصورة والصوت بمعدل مرة أو مرتين في الشهر لكل طفل. وقد أمكن ملاحظة ثمانية عشر طفلا من هؤلاء في الوسط العائلي بحضور الأم. وهذا ما جعل المقارنة بين نظامين سلوكيين (بين الطفل والأم وبين الطفل والأتراب) ممكنة، لقد أكدت هذه الدراسة أهمية الاستقرار بالنسبة للطفل في زمرة ثابتة من الأتراب، كما أشارت إلى تطور هام في سلوك الطفل بعد بلوغه السنة الثانية من العمر حيث يتمكن من الدخول في تفاعل متبادل يتطلب تنسيقا معقدا بينه وبين الآخرين.

ويتميز الطفل في هذه المرحلة بتطور قدرته على الاتصال التعددي، أي التفاعل مع عدة أتراب في الوقت نفسه حيث يندمج سلوكه مع سلوك الآخرين في وحدة متكاملة ومعقدة. ويتطلب هذا النوع من الاتصال تنسيقا عاليا وتزامنا بين مختلف الأفعال السلوكية لعدة أطفال في الوقت نفسه (Kontar et Soussegnan, 1987 قنطار، ١٩٨٩).

ولقد بينت المقارنة بين نظامي السلوك السابقين: الطفل وأترابه، والطفل وأمه مايلي:

١ ـ يكون السلوك الودي للطفل تجاه الأم أكثر تكرارا منه تجاه الأتراب باستثناء سلوكي التقليد والابتسام.

٢ ـ يوجد علاقة ترابط بين بعض جوانب السلوك الودي للأم نحو الطفل وللطفل نحو الأقران.

٣ ـ يتصف الطفل الذي يعبر غالبا بسلوك عدائي تجاه أمه بقلة المشاركة في علاقات تبادلية غير عدائية مع أترابه.

وبالـرغم من أن نتائج هـذه الدراسـة توضح الترابط بين بعض جـوانب السلوك المتبادل بين الأم والطفل من جهة وبين الطفل وأتـرابه من جهة ثانيـة، إلا أنه يلاحظ غياب الترابط بالنسبة لغالبية الجوانب السلوكية المقارنة في الحالتين.

توضح هذه الـدراسة أن نظام الاتصال بين الطفل وأترابـه يتمتع بدرجة كبيرة من الاستقلاليـة في ضوابطـه ووظائفـه. فهو ليس نظـاما مشتقـا من نظام التـواصل بين الطفل والأم كما يـزعم أصحاب نظـريـة التحليل النفسي أو أنصـار نظريـة التعلق، فـالتأثير المتبـادل بين النظـامين ليس عمليـة آليـة بل على درجـة عـاليـة من المرونـة والـديناميـة. وتؤكـد هذه الـدراسة أهميـة الأقران في حيـاة الطفل، وفي نمو سلـوك الاتصال الذي يمكنه من إقامة علاقـات الألفة معهم. فالتجربة المبكرة مع الأتراب خارج الوسط العائلي يمكن أن تؤثر تأثيرا مهما في نمو الطفل وتطوره وأن تحقق للطفل فرصة ملائمة لتنمية بعض الجوانب السلوكية لـديه. فالطفل في علاقاته مع الأتراب يتعرض لمؤثرات مختلفة ولتجارب متميزة يتعذر توفرها مع الكبار.

خـــاتمـة

لقد أردنا أن تكون هذه الـدراسة مقدمة لدراسات أخرى تتناول مـوضوع الأمومة والطفولـة بالبحـث المعمق، وبالحوار المفتـوح، لذا يتعذر علينـا اختتامهـا. فليس القصد من هذه الدراسـة إعطاء الأمهات جرعة جاهـزة لتأهيلهن للتعامل مع المولود الجديد، وإنما كانت محاولة لتفهم سيـاق العلاقة بين الطفل والأم، والتنبه لأهميتها، والتعلم منها.

إن موضوع الأمومـة على درجة بالغة من الخطورة، لأنه يتعلـق بالقدرة على إعداد الطفـولة الأولى ركيـزة كل عمل تربـوي، ويتعلق أيضـا بالكفـاءة في تنظيم مستقبل الأجيال القـادمة. ويشكل تحديـد خصائص سلـوك الأمومـة خطوة أوليـة وضرورية لتفهم تطـور الطفل، ولتفهم مختلف العوامل المؤثـرة في تكون شخصيتـه. وفي ذلك فائدة خاصـة ليس فقط للأطفال والأهل وإنما أيضا لجميـع المهتمين بمسائل التربية وعلم النفس. فما أروع قول الشاعر العربي:

الأم مـــدرســـة إذا أعـــددتها   أعـــددت شعبــا طيب الأعـــراق

لقـــد ســبق أن أشـــرنا في أكـــثر مـن مكـــان إلى أهميـة دراســـة الأمـــومة في المجتمعـات العربيـة، وإلى أهمية تـعميق البحث في هـــذا الميدان، وهـانحن نـــرى قيـام بـاحثين إسرائيليين بـدراسـة العنـــاية بالمولـود الجـــديد عنـــد قبائل البـدو في صحـــراء النقب * . . !!! فماذا يريـد الصهاينة من هذه الـدراسة؟ إنهم ولا شك يرمون إلى أهداف عدة منها:

١ ـ تأكيـد الغياب العـربي عن ميدان البحث العلمي. فـالإسرائيلي «المتحضر» يقوم بدراسة السلوك والعادات عند هؤلاء البدو تماما كما يفعل الأوربيون والأمريكيون عندمـا يدرسون الهنـود الحمر والقبائل «البدائيـة» في القارة الأفريقيـة أو في جزر

*Fourth World Congress on Infant Psychiatry and Allied Disciplines, Lugano, Switzerland, September 20-24, 1989 (Abstracts, p.74).

المحيط الهادي.

٢ ـ تأكيد مقولتهم الدعائية في اعتبار كل العرب قبائل بدوية راحلة؛ فالوجود العربي لا يتخطى حدود الصحراء.

إننا نرى من واجبنا أن نختتم هذه الدراسة بتوجيه نداء إلى أولي الأمر في مجتمعاتنا بوضع الوسائل الكفيلة في متناول الباحثين العرب كي يتمكنوا من القيام بعملهم وأن لا يتركوا للأعداء أن يزوروا تقاليدنا وتراثنا، كما زوروا التاريخ والجغرافية.



الفصل الحادي عشر:
المراجع
أ ـ المراجع العربية
ب ـ المراجع الأجنبية

أ ـ المراجع العربية

ابراهيم، سعد الدين (١٩٨٥) الأسرة والمجتمع والإبداع في الوطن العربي، المستقبل العربي، (٧) ٦٢ ـ ٨٦.

اسماعيل، محمد عماد الدين، (١٩٨٦) الأطفال مرآة المجتمع. «سلسلة عالم المعرفة»، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت (العدد ٩٩).

التنير، علي (١٩٨٣) الرضاعة الطبيعية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي.

الريحاني، سليمان (١٩٨٥) أثر نمط التنشئة الأسرية في الشعور بالأمن، دراسات، العلوم التربوية (١١) ١٩٩ ـ ٢١٩.

سالك، لي (ترجمة فاخر عاقل) (١٩٨٧) التهيؤ للوالدية، دمشق: دار طلاس.

عثمان، سنية النقاش (١٩٧٤) دليل المرأة العربية، بيروت: دار العلم للملايين.

عزام، إدريس (١٩٨٥) أثر الحراك الاجتماعي الصاعد على العلاقات القرابية بين الأسرة الزواجية وأسرة التوجيه. دراسات، (١١) ٢٢١ ـ ٢٤٣.

قنطار، فايز (١٩٨٩) دراسة متلازمة لنظامي الاتصال عند الطفل قبل الثالثة من العمر: الاتصال بين الطفل والأم وبين الطفل والأتراب، مجلة العلوم الاجتماعية، (٢)، ٣١١ـ٣١٣.

Ainsworth M., 1967. **Infancy in Uganda,** Baltimore: John Hopkins University Press.

Ainsworth M., Bell S. and Stayton D., 1971. Individual differences in strange situation behaviour of one-year-olds. In H.R. Schaffer (Ed.), **The Origins of human social relations**, New York: Academic, 1971.

Anderson B.J., Vietzer P.M. and Dobeck P.R., 1978,. Interpersonal Distance and vocal behavior in the mother infant dyad. **Infant Behavior and Development,** 1, 381-391.

Barrera M.E. and Maurer D., 1981, Infant perception of natural and distorted arrangement of a schematic face, **Child Development,** 52,196-202.

Bateson P.G., 1966, The characteristics and context of imprinting, **Biol. Rev.**, 41, 177-220.

Beckman P.J., 1984, A transactional view of stress in families of handicapped children,. In Lewis M. (Ed), **Beyond the dyad,** New York; Plenum Press.

Bell, S.M., 1970, The development of the concept of object as related to infant-mother attachment, **Child Development,** 41, 291-311.

Belsky J., 1980, child maltreatment: an ecological integration. **American Psychologist,** 15, 320-335.

Belsky J., and Most R.K., 1981; From exploration to play: a cross sectional study of infant free play behavior. **Dev. Psychology,** 5, 630-639.

Belsky J. and Rovine M., 1988, Nonmaternal care in the first year of life and the security of infant-parent attachment, **Child Dev.**, 59, 157-167.

Belsky J. and Steinberg L. D., 1978, The effects of day-care: a critical

review. **Child Dev.**, 49, 929-949.

Belsky J., Robins E. and Gamble W., 1984, The determinants of parental competence, In Lewis M. (Ed), **Beyond the dyad**, New York: Plenum Press.

Bloom K. and Esposito A., 1975, Social conditioning and its proper control procedures., **Journal of Experimental Child Psychology**, 19, 209-222.

Bowlby J., 1969, **L'attachment,** 1, Paris: PUF.

Bowlby J., 1973, **La separation,** 2, Paris : PUF.

Bolwing N. , 1963, Bringing up a young monkey, **Behaviour**, 21, 300-330.

Brazelton TB., 1981, **Ecoutez votre enfant,** Paris; Payot.

Brody G.H., Stoneman Z. and MacKinnon C.E., 1982, Role asymmetries in interactions among school-aged children, their younger siblings and their friends, **Child Development,** 53, 1364-1370.

Bruner J.S., 1977, Early social interaction and language acquisition in H.R. Schaffer (Ed.) : **Study in mother-infant interaction.** London; Academic Press.

Campan R., 1980, **L'animal et son anivers,** Toulouse: Privat.

Carballo M, 1980, Situation actuélle dans le monde (etude de l'O MS) in Herbinet E (Ed.) : **D'amour et de lait,** Paris: Stock.

Care K. D. and Capelli M.D., 1981, Mother reactions to their newborn infants, **J. of American Academy of Child Psychiatry,** 20 : 16-31.

Carlsson, S.G. Fagerberg H. Horenman G., Hwang CP., Larsson K., Rodholm, M.G. and Schaller, J., 1978, Effects of amount of contact between mother and child on the mother behavior. **Developmental Psychobio.** 11, 143-150.

Carlsson, S.G., Fagerberg H. Horeman G., Hwang C.P., Larsson K.,

Rodholm M., and Schaller J., 1979, Effects of various amounts of contact between mother and child on the nursing behavior. **Infant behavior and development,** 2, 209-214.

Collis G.M., 1979, Describing the structure of social interaction, In Bullowa M (Ed.): **Before Speech**, London: Cambridge University Press, pp 111-130.

Collis G.M., 1982, Beyond dyadic interaction, **Bulletin of the British Psychological Society,** 35, A82.

Condon W.S., 1979, Neonatal entrainment and enculturation, In Bullowa M. (Ed.).: **Before Speech, the beginning of interpersonal communication**, London: Cambridge University Press. pp. 131-148.

Dawkins R., 1976, **The selfish gene**. Oxford: Oxford University Press.

Dennis W., 1973, **Children of the Creche**. New York: Appleton Century-Crofts.

Dunn J.B. and Richard M.P.M., 1977, Observations on the developing relationship between mother and baby in the neonatal period In Schaffer H.R. (Ed.) **Studies in Mother infant interaction**. London: Academic Press.

Dunn and Kendrick C., 1979, Interaction between young siblings in the context of the family relationships. In Lewis M. and Rosenblum (Eds). **The child and its family.** New York: Plenum, pp. 143-168.

Easterbrooks, M.A., and Lamb M.E., 1979, The relationship between quality of infant-mother attachment and infant competence in initial encounters with peers. **Child Development, 50**, 380-387.

Eckerman C., Whatley J., and Kutz S.L., 1975, Growth of social play with peers during the second year of life. **Developmental Psy**

chology 1, 42-49.

Eibl-Eibesfeldt I., 1983, Patterns of parent-child interaction in a cross-cultural perspective. In Oliverio A. and Zappella M. (Eds): **The behavior of human infants,** P.P.C.

Elmer E. and Gregg G.S., 1967, Developmental characteristics of abused children, **Pediatrics,** 40, 596-602.

Espinoza O., 1984, Les relation sociales entre pairs a la créche, reciprocite, stabilite, relations preferentielles, **Psychologie d'Education, 3,** 57-78.

Felson B.R., 1983, Agression and violence between siblings. **Social Psychology Quarterly, 46,** 271-285.

Fenson L. and Ramsey D.S., 1980, Decentration and integration of the childs play in the second year. **Child Development,** 51, 171-178.

Field T., 1977, Effects of early separation, interactive dificits and experimental manipulation on infant-mother face-to-face interact **Child Development, 48,** 763-771.

Field T, 1985, Attachment as Psychobiological attunement: being on the same wavelength. In Reite M. and Field T. (Eds): **the psychobiology of attachment and separation**. New York: Academic Press, pp., 415-454.

Fogel A., 1977, Temporal organization in mother-infant face to face interaction, In Schaffer H.R. (Ed.): **Studies in mother-infant interaction,** London: Academic Press.

Fox R., 1967, **Kinship and marriage**, Harmondsworth, Penguin Books.

Fraiberg S.H., 1977, **Insights from the blind**, New York: Basic Books.

Freedle R. and Lewis M., 1977, Prelinguistic conversation. In Lewis M. and Rosenblum L.A. (EDS): **Interaction conversation and**

the development of language. New York: Wiley.

Freud A. and Dann S., 1951, An experiment in group upbringing. **Psychoanalytic Study Child,** 6, 127-168.

Golden M. and Birns B., 1976, Social class and infant intelleigence. In Lewis M. (Ed.), **Origins of intelligence**. New York: Plenum.

Goldfoot D.A., 1977, Rearing conditions which support or inhibit later sexual potential of laboratory born rhesus monkeys: Hypotheses and diagonistic behaviors, **Animal Science,** 27, 548-556.

Goodall J., 1965, Chimpanzees of the gombe Stream Reserve. In DeVore I, (Ed.) **Primate behavior,** New York: Holt, Rinehart and Winstom.

Harding C.G. and Golinkoff R.M., 1979, Social game in infancy. In Sutton Smith B. (Ed.), **Play and learning.** New York: Gardner Press.

Harlow H.F., 1961, The development of affectional patterns in infant monkeys. In Foss B.M. (Ed.). **Determinants of infant behavior** Vol. 1, London: Methuen; New York; Wiley.

Harlow H.F., and Harlow M.K., 1965, The affectional systems, In Schrier Harlow H.F. and Stollnitz F (Eds): Behavior of non-human primates. New York and London : Academic Press.

Harlow H.F., 1969, Age mate or peer affectional system. In Lehrman D.S. Hinde R.A. and Shaw (Eds). **Advances in the study of behavior,** vol. 2, New York: Academic Press.

Harlow H.F. and Mears C., 1979, **The human model: Primate perspectives.** Washington DC Winston.

Hartup W.W, 1975, The origin of friendships, In Lewis M. and Rosenblum L.A. (Eds) **Friendship and peer relations**, London: Wilye pp. 11-26.

Heinicke C. and Westheimer, 1966, 1, **Brief Separations.** New York: International Universities Press.

Herbinet E., (Ed.) 1980, **D'amour et de lait,** Paris: Stock.
Jones O. H.M., 1977, Mother-child communication with pre-linguistic Down's Syndrome and normal infant, In Schaffer H.R. (Ed.), **Studies in mother-infant interaction,** London: Academic Press.
Josse D. & Robin M., 1981, Qu'est ce que tu dis a maman? ou le language des parents adressé a l'enfant de la naissance à 10 mois, Enfance, 3, 109-132.
Julien F., 1980, Pourquoi les femmes n'ont-elles plus de lait? In Herbinet (Ed.), **D'amour et de lait,** Paris: Stock.
Kagan J. and Tulkin S., 1971, Social class differences in child rearing during the first year. In Schaffer H.R. (Ed.) **The origins of human social relations.** London: Academic Press.
Kaye K., 1977, toward the origin of dialogue. In Schaffer H.R. (Ed.), Studies, in **Mother infant interaction**. London: Academic Press.
Kennell J.H., Chesler D., Wolfe H., and Klaus M.H., 1973, Nesting in the human mother after mother-infant separation. **Pediatric Research, 7**, 269.
Kierchshofer R., 1979, Gorillazucht in zoologischen garten und forshnungsstationen. **Zoologische garten**, 38, 73-96.
Klaus M.H. and Kennell J.H., Plumb N. and Zuehlke S. 1970 Human maternal behavior at the first contact with her young. **Pediatrics, 46,** 187-192.
Klaus M.H. and Kennell J.H., 1976; **Maternal-Infant bonding**. St. Louis: Mosby.
Kling A., 1972, Effects of amygdalectomy on social affective behavior in nonhuman primates. In Eleftheriou B.E. (Ed.), **The neurobiology of the amygdale.** New York:L Planum. pp. 515-536.

Klopfer P.H., 1971, Mother love: what turns it on?, **American Scientist,** 59, 404-407.

Kontar F., 1981, **Approche du comportement alimentaire et des comportements de communication du jeune enfant,** Thése de doctorat en Neurobiologie et biologie du comportement, Universite de Besancon.

Kontar F., 1986, Study of communication behaviour in children; peer and and mother-toddler interaction. Clearinghouse on Elementary and Early **Childhood Education,** Microfilm ED 275 418.

Kontar F., 1987, **Etude concomitante de Deux systémes de communication du jeune enfant: le systéme mére-enfant et le systéme enfant-enfant.** Doctorat és Sciences Naturelles, Université de Besancon.

Kontar F., 1989, **Cocomitant study of two communication systems in toddler mother-toddler and toddler-toddler systems,** paper presented at the Tenth Biennial Meetings of the International Society for the Study of Behavioural Development (ISSBD), Finland: Jyvaskyla 9-13 July.

Kontar F. et Soussignan R., 1987, Les systémes d'interaction du jeune enfant avec ses pairs: les échanges dyadiques et polyadiques.

Biology of Behaviour, 12, 45-59.

Lacoste-duJardin, 1985, **Des mére contre les femmes,** Paris : La découverte.

Lamb M.E., Chase-Lansdale L. and Tresch Owen M., 1979, The changing American family and its implications for infant social development: the Sample Case of Maternal Employment, In Lewis M. & Rosenblum L. (Ed.), **The child and its family,** New York and London: Plenum Press PP. 267-291.

Leifer A.D., Leiderman P.H., Barnett C.R. and Williams J.A., 1972,

effects of mother-infant separation on maternal attachment behavior, **Child Development,** 43, 1203-1218.

Lewis M., & Rosenblum L., 1979, **The child and its family**, New York and London: Plenum Press.

Lewis C., Newson E. and Newson J., 1982, Father participation through childhood and its relationship with career aspirations and delinquency, In Beail N. & McGuire J. (Eds), **Fathers**; Psychological perspectives, London: Junction Books. pp 174-193.

Lorenz K., 1935, Der Kumpan in der Umwelt des Vogels. **Journal of Ornithologe 83,** 137-213.

Macfarlane A.J., 1975, Olfaction in the development of social preferences in the human neonate. **Ciba Found. Symp.**, 33, 103-117.

McCord J, McCord W. and Thurber E., 1962, Some effects of paternal absence on male children. **Journal of abnormal and social psychology,** 64, 361-369.

McGuire J., 1982, Gender specific differences in early childhood: the impact of the father, In Beail N. & McGuire J. (Eds), **Fathers,** London: Junction Books.

Mead M. & Hayman K., 1965, **The family.** London: Macmillan.

Meltzoff A.N. & Moore M.H., 1977, Imitation of facial and manual gestures by human neonates. **Science, 198,** 75-78.

Mueller E. & Lucas I., 1975, A developmental analysis of peer interaction among playgroup toddlers, In Lewis M. & Rosenblum L.A. (Eds) : **Friendship and peer relations.** New York: Wiley. pp. 223-257.

Murphy C.M. & Messer D.J. 1977, Mothers infants and pointing; a study of gesture. In Schaffer H.R. (Ed.) : **Studies in mother-infant interaction,** New York and London: Academic Press. pp. 325-354.

Myers H.J., 1984, Mother-Infant bonding: the status of this critical-period Hypothesis. **Developmental Review,** 4, 240-274.

Nadel J., 1986, **Imitation et communication entre jeunes enfants,** Paris: PUF.

Nadler R.D., 1984, Biological contributions to the maternal behavior of the great apes. In Lewis M. (Ed.): **Beyond the dyad**, New York and London, Plenum Press. pp. 109-128.

Newson J., 1979, The growth of shared understanding between infant and caregiver In Bullowa M. (Ed.): **Before Speech,** London, Cambridge University Press. pp. 207-222.

Odent M., 1980, La premiére tétéé, In Herbinet E., **D'amour et de lait,** Paris: Stock.

Papousek H. and Papousek M., 1977, Mothering and the cognitive head start: Psycho-biological considerations, In Schaffer H.R., (Ed.), **Studies in mother-infant interaction**. New York: Academic Press.

Parmelee A.H. Wenner W.H. and Schultz H.R., 1964, Infant sleep patterns from birth to sixteen weeks of age. **Journal of Pediatrics,** 65, 576-582.

Pastor D.L., 1981, The quality of mother-infant attachment and its relationship to toddlers' initial sociability with peer. **Development Psychology. 17,** 326-335.

Pederson F., 1982, Mother, father and infant as an interactive system. In Belsky J., (Ed.), **In the beginning : readings on infancy,** New York : Columbia University Press., 3, pp. 326-335.

Pederson F., Yarrow L.J., Anderson B.J. and Cain R.L., 1979, Conceptualization of father influences in the infancy period. In Lewis M. & Rosenblum L. (Eds), : **The child and its family,** New York: Plenum Press. pp. 45-66.

Plooij F., 1979, How wild chimpanzee babies trigger the onset of

mother-infant play and what the mother makes of it, In Bullova M. (Ed.): **Before Speech,** London : Cambridge University Press. pp. 223-243.

Poindrou, P. & Neindre P., 1980, Endocrine and sensory regulation of maternal behavior in the ewe. In Rosenblaty J.S., Hinde R.A., Beer C. and Busnel M-C (Eds): **Advance in the study of behavior,** Vol II. New York: Academic Press.

Pomerleau A. & Malcuit G., 1983, **L'enfant et son environnement,** Bruxelles: Mardaga.

Ramey U. and Smith B., 1976, Assessing the intellectual consequences of early intervention with high risk infants. **American Journal of Mental deficiency,** 81, 318-324.

Reite M. & Field T. (Eds), 1985, **The psychobiology of attachment and separation,** Academic Press.

Rheingold H., Gewirtz J.L. and Ross, H.W. , 1959, Social conditioning of vocalizations in the infant. **Journal of comparative and Physiological Psychology,** 52, 68-73.

Ricks D., 1979, Making sense of experience to make sensible sounds, In Bullowa M. (Ed.) : **Before Speech, The beginning of interpersonal communication**, London: Cambridge University Press. pp. 245-288.

Rogers C. & Devenport R.K., 1970, Chimpanzee maternal behavior, In Burne G.H. (Ed.) : **The Chimpanzee,** Basel: Karger.

Rubensten J.L. Hawes C. and Pederson F.A., 1982, Second order effects of peers on mother-toddler interaction. **Infant Behavior and Development, 5,** 185-194.

Russell M.J., 1976, Human olfactory communication, Nature, 260, 520-522.

Rutter M. & Madge N., 1976, **Cycles of disadvantage,** London: Heinemann.

Sade D.S., 1965, Some aspects of parent-offspring and sibling relations a group of rhesus monkeys, with discussion of grooming **American Journal of Physical Anthropology,** 23, 1-18.

Schaffer H.R., 1977, **Mothering,** London: Open Books/Fontana, Harvard University Press. (Traduction francaise: Le comportement matérnel Bruxelles : Mardaga, 1981.).

Schaffer H.R., 1984, **The Child's entry into a social world,** London: Academic Press.

Schaffer H.R. & Emerson P.E. 1964, The development of social attachments in infancy, **Monographs of social research in child development, 29,** Serial n° 94.

Schaal B., Montagnor, H., Hertling E., Bolzoni D., Boyese A. and Quichon R., 1980, Les stimulation olfactives dans les relation entre l'enfant et la mére, **Reprod. Nutr. Develop., 20:** 843-858L.

Schaal B., 1984, **Ontogénese des communications olfactives entre la mére et le nouveau-née,** Approche par l'Ethologie experimentale, Doctora Dessertation, Universite de Franche-Comté, Besancon.

Schaal B., 1988, Review: Olfaction in infants and children: developmental and functional perspectives, **Chemical Senses,** Vol. 13, n°2, pp. 145-190.

Schaal B., & Kontar F., 1986, The development of the mother's ability to identify her infant's odour: effects of individual and experiential variables. **3rd World Congress of Infant Psychiatry and Allied Disciplines** – Sweden: Stockholm.

Sears R., Maccoby E., and Levin H., 1957, **Pattern of child rearing,** Evanston, Ill: Row Peterson.

Shipley W.U., 1963, The demonstration in the domestic guinea pig of a process resembling classical imprinting. **Animal Behaviour,**

11, 470-474.

Slater A., Morison V. & Rose D., 1982, Visual memory at birth, **British Journal of Psychology, 73,** 519-525.

Sluckin W., Herbert M. & Sluckin A., 1983, **Maternal bonding,** Oxford: Blackwell.

Sluckin W. & Herbert M., 1986, **Parental behaviour,** Oxford : Blackwell.

Sluckin W., 1986, **Human mother to infant bonds,** In Sluckin W. & Herbert, M (Eds). Oxford : Blackwell, pp. 208-227.

Smith PK and Daglish L., 1977, sex differences in parent and infant behaviour in the home, **Child Development, 48,** 1250-1254.

Snow C;E., 1972, Mother's speech to children learning language, **Child Development, 43,** 549-555.

Snow C., De Blauw A. & Van Roosmalen G., 1979, Talking and playing with babies: the role of ideologies of child-rearing, In Bullowa M. (Ed.) : **Before speech,** London: Cambridge University Press, pp. 296-288.

Stern D., 1974, Mother and infant at play, In Lewis M. and Rosenblum L. (Eds); **The origins of behaviour,** Vol. I, New York: Wiley pp. 187-213.

Stern D., 1977, **The first relationship: Infant and mother,** London: Fontana/Open Books.

Stern D., Beebe B., Jaffe J. & Bennett S.L. 1977, The infant's stimulus world during social interaction: a study of caregiver behaviours with particular reference to repetition and timing. In Schaffer R.H. : **Studies in mother-infant interaction,** London: Academic Press.

Stewart R.B. & Marvin R.S., 1984, Sibling relations: the role of conceptual perspective – taking in the ontogeny of sibling caregiving, **Child Development, 55,** 1322-1332.

Suomi S.J. & Harlow H.F., 1977, production and alleviation of depressive behavior in rhesus monkeys. In Maser J.D. & Selligman MEP (Eds) : **Psychopathology: experimental model,** San Francisco: Freeman, pp. 131-173.

Thirion, M.Th., 1980, Allaiter simplement en 1980 … C'est Possible! In Herbinet E. (Ed.) : **D'amour et de lait,** Paris : Stock, pp. 133-159.

Thompson R.A. & Lamb M., 1984, Infants, mothers, families and strangers In Lewis M. (Ed.) : **Beyond the dyad,** New York and London: Plenum Press. pp. 195-221.

Tobias P.V., 1965, Early man in East Africa, **Science, 149,** n° 3649, 22-33.

Trevarthen C., 1974, The Psychobiology of speech development, In Lenneberg E.H. (Ed.) : Language and Brain, Developmental aspects. Neurosciences, **Research Program Bulletin, 12,** 570-585.

Trevarthen C., 1977, Descriptive analyses of infant communicative behaviour, In Schaffer H.R., **Studies in mother-infant interaction,** London, New York : Academic Press, pp. 227-270.

Trevarthen C., 1979, Communication and cooperation in early infancy: a description of primary intersubjectivity. In Bullowa M. (Ed.) : **Before Speech, Cambridge :** Cambridge University Press, pp. 321-347.

Vandell D.L., 1979, Effects of a playgroup experience on mother son and father-son interaction. **Developmental Psychology,** 4, 379-385.

Vaughn B., Egeland B., Sroufe L.A. and Waters E. 1972, individual differences in infant-mother attachment at twelve and eighteen months: stability and change in families under stress. **Child Development, 50,** 971-975.

Vincze M., 1971, The social contacts of infant and young children rearing together. **Early Child Development and Care, 1,** 99-109.

Wadsworth J., Taylor B., Osborn A., and Butler N., 1984, Teenage mothering child development at five years. **Journal of Child Psychology and Psychiatry,** 25, 305-313.

Wallerstein J.S. & Kelly J.B., 1980, **Surviving the breakup: How Children Actually Cope with divorce,** New York,: Basic Books.

Waters E., 1978, The reliability and stability of individual differences in infant-mother attachment. **Child Development., 49,** 483-494.

Waters E., Wippman, J. and Sroufe L.A., 1979, Attachment, positive effect and competence in the peer group: two studies in construct validation **Child Development, 50,** 821-829.

Watson J.B., 1925, **Behaviorism,** New York: People's Publishing Company.

Weinraub M. Brooks J. and Lewis M., 1977, The social network: a reconsideration of the concept of attachment. **Human Development, 20,** 31-47.

Weinraub M., and Frankel J., 1977, Sex differences in parent-infant interaction during free play, separation and departure. **Child Development, 48,** 1240-1249.

White D.G. & Woollet E.A., 1981, The family at birth, paper presented to the **British Psychological Society,** London: December.

Whiten A., 1977, Assessing the effects of prenatal events on the mother-infant relationship, In Schaffer H.R. (ED.) : **Studies in mother-infant interaction;** London: Academic Press. pp. 403-445.

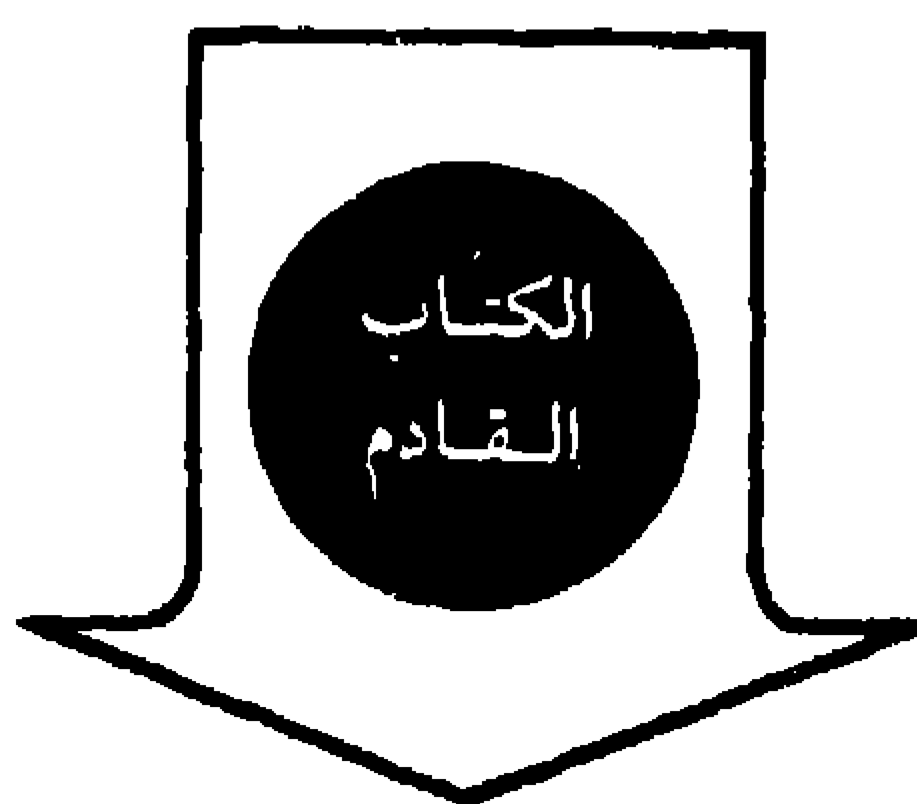
Wigeers M., Riksenwalteraven J.M.A. and Van Lieshoub C; FL M., 1985, Early caregiver infant interaction and children's expression of emotion. **Eight Biennal meetings of the ISSBD.** France: Tours.

Wilson E.O., 1975, **Sociobiology, the new synthesis.** Cambridge: Mass. the Belkmap press.

Yarrow M.R. & Scott P.M., 1972, Imitation of nurturant and Nonurturant models. **Journal of Personality and Social Psychology, 23**, 259-270.

المؤلف في سطور

* فايز نايف قنطار.
* من مواليـد «داما» بسوريـا عام ١٩٥٠.
* دكتوراة في بيولـوجيا السلوك من جامعـة بيزانسـون بفرنسـاعام ١٩٨١.
* معيـــــد في قسم علـم النفس الفيـزيـولـوجي والتجـريبي ـ جامعـة دمشق «كليـة التربية» (١٩٧٥ ـ ١٩٨١م).
* أستـاذ مساعـد بقسم المخبر الفيزيولوجي بجامعة بيزانسون بفرنسا.
* لـه عدة أبحـاث ومقـالات منشـورة حـول تطـور سلـوك الاتصال عند الطفل.
* عضو في عدة منظمات وهيئات دولية.
* شارك في العـديد مـن الندوات والمؤتمرات العلمية والدولية.



بنية الثورات العلمية

تأليف :

توماس س . كون

ترجمة :

شوقي جلال

صدر عن هذه السلسلة

١ـ الحضارة	تأليف : د/ حسين مؤنس
٢ـ إتجاهات الشعر العربي المعاصر	تأليف : د/ إحسان عباس
٣ـ التفكير العلمي	تأليف : د/ فؤاد زكريا
٤ـ الولايات المتحدة والمشرق العربي	تأليف : / أحمد عبدالرحيم مصطفى
٥ـ العلم ومشكلات الإنسان المعاصر	تأليف : د/ زهير الكرمي
٦ـ الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها	تأليف : د/ عزت حجازي
٧ـ الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية	تأليف : / محمد عزيز شكري
٨ـ تراث الإسلام (الجزء الأول)	ترجمة : د/ زهير السمهوري تحقيق وتعليق : د/ شاكر مصطفى مراجعة : د/ فؤاد زكريا
٩ـ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة	تأليف : د/ نايف خرما
١٠ـ جحا العربي	تأليف : د/ محمد رجب النجار
١١ـ تراث الإسلام (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ حسين مؤنس د/ إحسان العمد مراجعة : د/ فؤاد زكريا
١٢ـ تراث الإسلام (الجزء الثالث)	د. حسين مؤنس د/ إحسان العمد مراجعة : د/ فؤاد زكريا
١٣ـ الملاحة وعلوم البحار عند العرب	تأليف : د/ أنور عبدالعليم
١٤ـ جمالية الفن العربي	تأليف : د/ عفيف بهنسي
١٥ـ الإنسان الحائر بين العلم والخرافة	تأليف : د/ عبدالمحسن صالح
١٦ـ النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية	تأليف : د/ محمود عبدالفضيل
١٧ـ الكون والثقوب السوداء	إعداد : رؤوف وصفي مراجعة : زهير الكرمي
١٨ـ الكوميديا والتراجيديا	ترجمة : د/ علي أحمد محمود مراجعة : د/ شوقي السكري د/ علي الراعي
١٩ـ المخرج في المسرح المعاصر	تأليف : / سعد أردش

٢٠ـ التفكير المستقيم والتفكير الأعوج	ترجمة حسن سعيد الكرمي مراجعة : صدقي حطاب
٢١ـ مشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي	تأليف : د/ محمد على الفرا
٢٢ـ البيئة ومشكلاتها	تأليف : رشيد الحمد د/ محمد سعيد صباريني
٢٣ـ الرق	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني
٢٤ـ الإبداع في الفن والعلم	تأليف : د/ حسن أحمد عيسى
٢٥ـ المسرح في الوطن العربي	تأليف : د/ علي الراعي
٢٦ـ مصر وفلسطين	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن
٢٧ـ العلاج النفسي الحديث	تأليف : د/ عبدالستار ابراهيم
٢٨ـ أفريقيا في عصر التحول الإجتماعي	ترجمة : شوقي جلال
٢٩ـ العرب والتحدي	تأليف : د/ محمد عماره
٣٠ـ العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة	تأليف : د/ عزت قرني
٣١ـ الموشحات الأندلسية	تأليف : د/ محمد زكريا عناني
٣٢ـ تكنولوجيا السلوك الإنساني	ترجمة : د/ عبدالقادر يوسف مراجعة : د/ رجا الدريني
٣٣ـ الإنسان والثروات المعدنية	تأليف : د/ محمد فتحي عوض الله
٣٤ـ قضايا أفريقية	تأليف : د/ محمد عبدالغني سعودي
٣٥ـ تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي (١٩٣٠ـ ١٩٧٠)	تأليف : د/ محمد جابر الأنصاري
٣٦ـ الحب في التراث العربي	تأليف : د/ محمد حسن عبدالله
٣٧ـ المساجد	تأليف : د/ حسين مؤنس
٣٨ـ تكنولوجيا الطاقة البديلة	تأليف : د/ سعود يوسف عياش
٣٩ـ إرتقاء الإنسان	ترجمة : د/ موفق شخاشيرو مراجعة : زهير الكرمي
٤٠ـ الرواية الروسية في القرن التاسع عشر	تأليف : د/ مكارم الغمري
٤١ـ الشعر في السودان	تأليف : د/ عبده بدوي
٤٢ـ دور المشروعات العامة في التنمية الإقتصادية	تأليف : د/ علي خليفة الكواري
٤٣ـ الإسلام في الصين	تأليف : فهمي هويدي
٤٤ـ اتجاهات نظرية في علم الاجتماع	تأليف : د/ عبدالباسط عبدالمعطي

٤٥ـ حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي	تأليف : د/ محمد رجب النجار
٤٦ـ دعوة إلى الموسيقا	تأليف : د/ يوسف السيسي
٤٧ـ فكرة القانون	ترجمة : سليم الصويص
	مراجعة : سليم بسيسو
٤٨ـ التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان	تأليف : د/ عبدالمحسن صالح
٤٩ـ صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي	تأليف : صلاح الدين حافظ
٥٠ـ التكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية	تأليف : د/ محمد عبدالسلام
٥١ـ السينما في الوطن العربي	تأليف : جان ألكسان
٥٢ـ النفط والعلاقات الدولية	تأليف : د/ محمد الرميحي
٥٣ـ البدائية	ترجمة : د/ محمد عصفور
٥٤ـ الحشرات الناقلة للأمراض	تأليف : د/ جليل أبو الحب
٥٥ـ العالم بعد مائتي عام	ترجمة : شوقي جلال
٥٦ـ الإدمان	تأليف : د/ عادل الدمرداش
٥٧ـ البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية	تأليف : د/ أسامة عبدالرحمن
٥٨ـ الوجودية	ترجمة : د/ إمام عبدالفتاح
٥٩ـ العرب أمام تحديات التكنولوجيا	تأليف : د/ انطونيوس كرم
٦٠ـ الأيديولوجية الصهيونية (الجزء الأول)	تأليف : د/ عبدالوهاب المسيري
٦١ـ الأيديولوجية الصهيونية (الجزء الثاني)	تأليف : د/ عبدالوهاب المسيري
٦٢ـ حكمة الغرب	ترجمة : د/ فؤاد زكريا
٦٣ـ الإسلام والاقتصاد	تأليف : د/ عبدالهادي علي النجار
٦٤ـ صناعة الجوع (خرافة الندرة)	ترجمة : احمد حسان عبدالواحد
٦٥ـ مدخل إلى تاريخ الموسيقا المغربية	تأليف : عبدالعزيز بن عبد الجليل
٦٦ـ الإسلام والشعر	تأليف : د/ سامي مكي العاني
٦٧ـ بنوُ الإنسان	ترجمة : زهير الكرمي
٦٨ـ الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية	تأليف : د/ محمد موفاكو
٦٩ـ ظاهرة العلم الحديث	تأليف : د/ عبدالله العمر
٧٠ـ نظريات التعلم (دراسة مقارنة)	ترجمة : د/ علي حسين حجاج
القسم االأول	مراجعة : د/ عطيه محمود هنا
٧١ـ الإستيطان الأجنبي في الوطن العربي	تأليف : د/عبدالمالك خلف التميمي
٧٢ـ حكمة الغرب (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ فؤاد زكريا

٧٣ـ التخطيط للتقدم الإقتصادي والإجتماعي	تأليف : د/ مجيد مسعود
٧٤ـ مشاريع الاستيطان اليهودي	تأليف : أمين عبدالله محمود
٧٥ـ التصوير والحياة	تأليف : د/ محمد نبهان سويلم
٧٦ـ الموت في الفكر الغربي	ترجمة : كامل يوسف حسين مراجعة : د/ إمام عبدالفتاح
٧٧ـ الشعر الإغريقي تراثا إنسانيا وعالميا	تأليف : د/ أحمد عتمان
٧٨ـ قضاياالتبعية الإعلامية والثقافية	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن
٧٩ـ مفاهيم قرآنية	تأليف : د/ محمد أحمد خلف الله
٨٠ـ الزواج عند العرب (في الجاهلية والإسلام)	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني
٨١ ـ الأدب اليوغسلافي المعاصر	تأليف : د/ جمال الدين سيد محمد
٨٢ـ تشكيل العقل الحديث	ترجمة : شوقي جلال مراجعة : صدقي حطاب
٨٣ـ البيولوجيا ومصير الإنسان	تأليف : د/ سعيد الحفار
٨٤ـ المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية	تأليف : د/ رمزي زكي
٨٥ـ دول مجلس التعاون الخليجي ومستويات العمل الدولية	تأليف : د/ بدرية العوضي
٨٦ـ الإنسان وعلم النفس	تأليف : د/ عبدالستار ابراهيم
٨٧ـ في تراثنا العربي الإسلامي	تأليف : د/ توفيق الطويل
٨٨ـ الميكروبات والإنسان	ترجمة : د/ عزت شعلان مراجعة : د/ عبدالرزاق العدواني، د/ سمير رضوان
٨٩ـ الإسلام وحقوق الإنسان	تأليف : د/ محمد عماره
٩٠ـ الغرب والعالم (القسم الأول)	تأليف : كافين رايلي ترجمة : د/ عبدالوهاب المسيري، د/ هدى حجازي مراجعة : د/ فؤاد زكريا
٩١ـ تربية اليسر وتخلف التنمية	تأليف : د/ عبدالعزيز الجلال
٩٢ـ عقول المستقبل	ترجمة : د/ لطفي فطيم
٩٣ـ لغة الكيمياء عند الكائنات الحية	تأليف : د/ أحمد مدحت إسلام
٩٤ـ النظام الإعلامي الجديد	تأليف : د/ مصطفى المصمودي

٩٥ ـ تغيّر العالم	تأليف : د/ أنور عبدالملك
٩٦ ـ الصهيونية غير اليهودية	تأليف : ريجينا الشريف
	ترجمة : أحمد عبدالله عبدالعزيز
٩٧ ـ الغرب والعالم (القسم الثاني)	تأليف : كافين رايلي
	ترجمة : د/ عبدالوهاب المسيري د/ هدى حجازي
	مراجعة : د/ فؤاد زكريا
٩٨ ـ قصة الأنثروبولوجيا	تأليف : د/ حسين فهيم
٩٩ ـ الأطفال مرآة المجتمع	تأليف : د/ محمد عماد الدين إسماعيل
١٠٠ ـ الوراثة والإنسان	تأليف : د/ محمد علي الربيعي
١٠١ ـ الأدب في البرازيل	تأليف : د/ شاكر مصطفى
١٠٢ ـ الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية	تأليف : د/ رشاد الشامي
١٠٣ ـ التنمية في دول مجلس التعاون	تأليف د/ محمد توفيق صادق
١٠٤ ـ العالم الثالث وتحديات البقاء	تأليف جاك لوب
	ترجمة : أحمد فؤاد بلبع
١٠٥ ـ المسرح والتغير الاجتماعي في الخليج العربي	تأليف : د/ إبراهيم عبد الله غلوم
١٠٦ ـ «المتلاعبون بالعقول»	تأليف : هربرت . أ . شيللر
	ترجمة : عبدالسلام رضوان
١٠٧ ـ الشركات عابرة القومية	تأليف : د/ محمد السيد سعيد
١٠٨ ـ نظريات التعلم (دراسة مقارنة) (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ علي حسين حجاج
	مراجعة : د/ عطية محمود هنا
١٠٩ ـ العملية الإبداعية في فن التصوير	تأليف : د/ شاكر عبدالحميد
١١٠ ـ مفاهيم نقدية	ترجمة : د/ محمد عصفور
١١١ ـ قلق الموت	تأليف : د/ أحمد محمد عبدالخالق
١١٢ ـ العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث	تأليف : د/ جون . ب . ديكنسون
	ترجمة : شعبة الترجمة باليونسكو
١١٣ ـ الفكر التربوي العربي الحديث	تأليف : د/ سعيد إسماعيل علي
١١٤ ـ الرياضيات في حياتنا	ترجمة : د/ فاطمة عبدالقادر الما

١١٥ ـ معالم على طريق تحديث الفكر العربي	تأليف : د/ معن زيادة
١١٦ ـ أدب أميركا اللاتينية (قضايا ومشكلات) القسم الأول	تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو ترجمة : أحمد حسان عبدالواحد مراجعة : د/ شاكر مصطفى
١١٧ ـ الأحزاب السياسية في العالم الثالث	تأليف : د/ أسامة الغزالي حرب
١١٨ ـ التاريخ النقدي للتخلف	تأليف : د/ رمزي زكي
١١٩ ـ قصيدة وصورة	تأليف : د/ عبدالغفار مكاوي
١٢٠ ـ سيكولوجية اللعب	تأليف : د/ سوزانا ميلر ترجمة : د/ حسن عيسى مراجعة : د/ محمد عماد الدين إسماعيل
١٢١ ـ الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم	تأليف : د/ رياض رمضان العلمي
١٢٢ ـ أدب أميركا اللاتينية (القسم الثاني)	تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو ترجمة : أحمد حسان عبدالواحد مراجعة : د/ شاكر مصطفى
١٢٣ ـ ثقافة الأطفال	تأليف : د/ هادي نعمان الهيتي
١٢٤ ـ مرض القلق	تأليف : د/ دافيد . ف . شيهان ترجمة : د/ عزت شعلان مراجعة : د/ أحمد عبدالعزيز سلامة
١٢٥ ـ طبيعة الحياة	تأليف : فرانسيس كريك ترجمة : د/ أحمد مستجير مراجعة : د/ عبد الحافظ حلمي
١٢٦ ـ اللغات الأجنبية (تعليمها وتعلمها)	تأليف : د/ نايف خرما، د/ علي حجاج
١٢٧ ـ اقتصاديات الإسكان	تأليف: د/ إسماعيل إبراهيم درة
١٢٨ ـ المدينة الإسلامية	تأليف : د/ محمد عبدالستار عثمان
١٢٩ ـ الموسيقا الأندلسية المغربية	تأليف: عبدالعزيز بن عبدالجليل
١٣٠ ـ التنبؤ الوراثي	تأليف : د/ زولت هارسيناي، ريتشارد هتون ترجمة : د/ مصطفى إبراهيم فهمي مراجعة : د/ مختار الظواهري

١٣١ ـ مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الاسلام — تأليف : د/ أحمد سليم سعيدان

١٣٢ ـ أوروبا والتخلف في أفريقيا — تأليف : د/ والتر رودني
ترجمة : د/ أحمد القصير
مراجعة : د/ إبراهيم عثمان

١٣٣ ـ العالم المعاصر والصراعات الدولية — تأليف : د/ عبدالخالق عبدالله

١٣٤ ـ العلم في منظوره الجديد — تأليف : روبرت م . اغروس
جورج ن. ستانسيو
ترجمة : د/ كمال خلايلي

١٣٥ ـ العرب واليونسكو — تأليف : د/ حسن نافعة

١٣٦ ـ اليابانيون — تأليف : إدوين رايشاور
ترجمة : ليلى الجبالي
مراجعة : شوقي جلال

١٣٧ ـ الاتجاهات التعصبية — تأليف : د/ معتز سيد عبدالله

١٣٨ ـ أدب الرحلات — تأليف : د/ حسين فهيم

١٣٩ ـ المسلمون والاستعمار الاوروبي لأفريقيا — تأليف : عبدالله عبدالرزاق ابراهيم

١٤٠ ـ الانسان بين الجوهر والمظهر (نتملك أو نكون) — تأليف : إريك فروم
ترجمة : سعد زهران
مراجعة : د/ لطفي فطيم

١٤١ ـ الأدب اللاتيني (ودوره الحضاري) — تأليف : د/ أحمد عتمان

١٤٢ ـ مستقبلنا المشترك — إعداد : اللجنة العالمية للبيئة والتنمية
ترجمة : محمد كامل عارف
مراجعة : علي حسين حجاج

١٤٣ ـ الريف في الرواية العربية — تأليف : د/ محمد حسن عبدالله

١٤٤ ـ الإبداع العام والخاص — تأليف : الكسندرو روشكا
ترجمة : د/ غسان عبدالحي أبو فخر

١٤٥ ـ سيكولوجية اللغة والمرض العقلي — تأليف : د/ جمعة سيد يوسف

١٤٦ ـ حياة الوعي الفني (دراسات في تاريخ الصورة الفنية) — تأليف : غيورغي غانشف
ترجمة : د/ نوفل نيوف
مراجعة : د/ سعد مصلوح

١٤٧ ـ الرأسمالية تجدد نفسها — تأليف : د/ فؤاد مُرسي

١٤٨ ـ علم الأحياء والأيديولوجيا والطبيعة البشرية — تأليف : ستيفن روز وآخرين
ترجمة : د/ مصطفى إبراهيم فهمي
مراجعة : د/ محمد عصفور

١٤٩ ـ ماهية الحروب الصليبية — تأليف : د/ قاسم عبده قاسم

١٥٠ ـ حاجات الإنسان الأساسية في الوطن العربي «الجوانب البيئية والتكنولوجيات والسياسات» — (برنامج الأمم المتحدة للبيئة)
ترجمة : عبد السلام رضوان

١٥١ ـ تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية — تأليف : د/ شوقي عبد القوي عثمان

١٥٢ ـ التلوث مشكلة العصر — تأليف : د/ أحمد مدحت إسلام

(ظهر هذا العدد في أغسطس ١٩٩٠، وانقطعت السلسلة بسبب العدوان الغاشم، ثم استؤنفت في شهر سبتمبر ١٩٩١ بالعدد ١٥٣)

١٥٣ ـ الكويت والتنمية الثقافية العربية — تأليف : د/ محمد حسن عبدالله

١٥٤ ـ النقطة المتحولة : أربعون عاما في استكشاف المسرح — تأليف : بيتر بروك
ترجمة : فاروق عبدالقادر

١٥٥ ـ مؤثرات عربية وإسلامية في الإدب الروسي — تأليف : د/ مكارم الغمري

١٥٦ ـ الفصامي : كيف نفهمه ونساعده، دليل للأسرة والأصدقاء — تأليف : سيلفانو آرتي
ترجمة : د/ عاطف أحمد

١٥٧ ـ الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي — تأليف : د/ زينات البيطار

١٥٨ ـ مستقبل النظام العربي بعد ازمة الخليج — تأليف : د/ محمد السيد سعيد

١٥٩ ـ فكرة الزمان عبر التاريخ — ترجمة : فؤاد كامل عبدالعزيز
مراجعة : شوقي جلال

١٦٠ ـ إرتقاء القيم (دراسة نفسية) — تأليف : د/ عبداللطيف محمد خليفة

١٦١ ـ أمراض الفقر (المشكلات الصحية في العالم الثالث) — تأليف : د/ فيليب عطية

١٦٢ ـ القومية في موسيقا القرن العشرين — تأليف : د/ سمحة الخولي

١٦٣ ـ أسرار النوم — تأليف : الكسندر بوربلي
ترجمة : د/ أحمد عبدالعزيز سلامة

١٦٤ ـ بلاغة الخطابة وعلم النص — تأليف : د/ صلاح فضل

١٦٥ ـ الفلسفة المعاصرة في أوربا — تأليف : إ.م. بوشنسكي
ترجمة : د/ عزت قرني

سلسلة عالم المعرفة

عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت ـ وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير عام ١٩٧٨ .

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارىء بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة ، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة . ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفاً وترجمة :

١ ـ الدراسات الإنسانية : تاريخ ـ فلسفة ـ أدب الرحلات ـ الدراسات الحضارية ـ تاريخ الافكار.

٢ ـ العلوم الاجتماعية : اجتماع ـ اقتصاد ـ سياسة ـ علم نفس ـ جغرافيا ـ تخطيط ـ دراسات استراتيجية ـ مستقبليات .

٣ ـ الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي ـ الآداب العالمية ـ علم اللغة .

٤ ـ الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن ـ المسرح ـ الموسيقا ـ الفنون التشكيلية والفنون الشعبية .

٥ ـ الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، علم الحياة ، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) والدراسات التكنولوجية . أما بالنسبة لنشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية فأمر غير وارد في الوقت الحالي .

وتحرص سلسلة عالم المعرفة على ان تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع / المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل خمسة عشر فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي أو تسعمائة دينار أيهما أكثر بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتياً مقابل تقديم المخطوطة ـ المؤلفة و المترجمة ـ من نسختين مطبوعة على الآلة الكاتبة .



الاشتراك السنوي : وهو مقصور على الفئات التالية :

● المؤسسات والهيئات داخل الكويت	١٠	دنانير كويتية
● المؤسسات والهيئات في الوطن العربي	١٢	ديناراً كويتيا
● المؤسسات والهيئات خارج الوطن العربي	٨٠	دولارا أمريكيا
● الأفراد خارج الوطن العربي	٤٠	دولارا أميركيا

الاشتراكات :

ترسل باسم الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص . ب : ٢٣٩٩٦ الصفاة/ الكويت ـ 13100

برقيا : ثقف ـ تلكس : ٤٤٥٥٤ TLX. NO. 44554 NCCAL

فاكسميلي : ٤٨٧٣٦٩٤

مطابع السياسة - الكويت

طبع من هذا الكتاب أربعون ألف نسخة

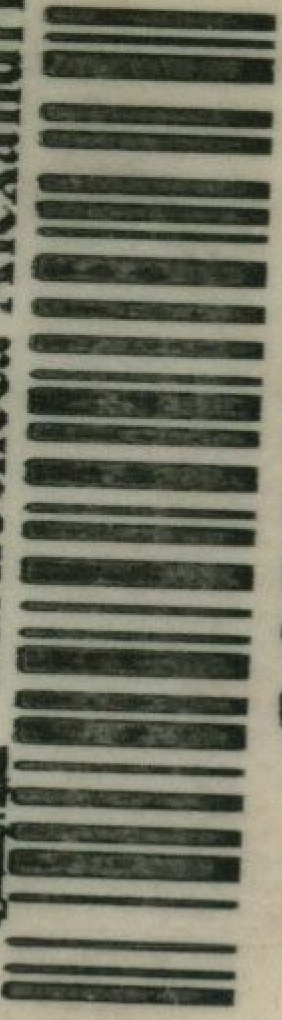
هـذا الكتاب

ما دور الأم؟ وما سلوك الأمومة؟ ومـا وظائف هذا السلوك؟ وما مدى تأثير الأم في طفلها؟

في سيـاق الإجابـة على هـذه الأسئلـة يحلل الكتاب العـلاقـة بين الطفل والأم، ويحدد العـوامل المختلفة التي تتـداخل وتسهم في صيـاغة مسـار هذه العلاقة، محللا سلوك الأمـومة لدى بعض أنواع من الكائنات. كما يتنـاول تطور العـلاقة بين الطفل والأم، حيث يعـالج العلاقـات الأولى بينهما ويناقش نظريـة التعلق القـائلة بـأن التوازن العقلي للطفل يـرتبط بضرورة تمتعه بعلاقة حميمة ومستقرة مع أمه، ثم يعرض لتطور التعلق بين الطفل والأم في السنوات الأولى، وأثر ذلك في النمو النفسي والاجتماعي. ويـؤكـد الكتـاب أيضاً الـدور النشط الـذي يلعبـه الطفل في حيـاة الأم وسلوكهـا، خلافا لوجهـة النظر القائلة بأن الصغير كـائن غامض وغير قادر على التأثير فيمن حـوله. كما يعـالج الكتاب مسألـة الانفصال بين الطفل والأم، والآثار المترتبـة على فقدان الأم، ونتـائج العلاقـة المنقطعة زمنيا بين الطفل وأمـه. وأخيرا يتناول الكتاب بالتحليل قضيـة الأمومة في الأسرة العـربية وأهميتهـا في البيئة الاجتماعيـة ودورها في استقـرار المرأة في أسرتها الجديدة بعـد الزواج، والسمات المميـزة للعلاقـة بين الطفل والأم في الأسرة العربية.

سعر النسخة

الكويت	٧٥٠ فلس	ليبيا	دينار واحد	اليمن	٨٠٠ فلس
السعودية	١٢ ريال	المغرب	١٥ درهما	السودان	١٠ جنيهات
الأردن	دينار واحد	تونس	دينار ونصف	البحرين	دينار واحد
سوريا	٥٠ ليرة	الجزائر	٢٠ دينارا	قطر	١٠ ريالات
لبنان	٧٥٠ ليرة	مصر	جنيهان	عمان	ريال واحد
				الامارات المتحدة	١٠ ريالات


Bibliotheca Alexandrina
0461182